

علم المعاني

دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني

كرم شعبان

الدكتور / بسويي جبر الفحام فبول

أستاذ البلاغة والنقد
كلية اللغة العربية - جامعة الأزهر

مكتبة لسان العرب
www.lisanarb.com

مؤسسة
المختار
للنشر والتوزيع



عَلَمُ الْمُعَانِي

دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني

مكتبة لسان العرب

www.lisanarb.com

عبد الفتاح فيود، بسيوني

علم المعاني

دراسة بلاغية وتقديرية لمسائل المعاني

تأليف: د. بسيوني عبد الفتاح فيود

القاهرة: مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، 2015

541 ص، 24 سم

تدمك: 4-26-5283-977-978

رقم الإيداع: 11832 / 1998

الطبعة الرابعة

1436 هـ - 2015 م

جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر

مؤسسة المختار

للنشر والتوزيع

الإدارة: 16 ش محمد حسن الجمل - عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة

تليفون: 22713945

فاكس: 22713202

المكتبة: 33 ش محمد عبده - خلف جامع الأزهر - القاهرة

تليفون: 25105891

E-mail: mokhtar_est@hotmail.com

عِلْمُ الْمُعَانِي

دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني

الدكتور / سيوني عبدالفتاح فيود
أستاذ البلاغة والنقد
كلية اللغة العربية - جامعة الأزهر



المختار
مؤسسة
للنشر والتوزيع

مكتبة لسان العرب
www.lisanarb.com

مقدمة الطبعة الثالثة

الحمد لله رب العالمين رفع قدر العلم، وجعله ميراث الأنبياء، فالأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين محمد بن عبد الله ﷺ النبي الأمي قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَیْفَىٰ ضَلَّالٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٣].

عَلَّمَ ﷺ وَحَثَّ عَلَى الْعِلْمِ، وَأَخْبَرَ أَنَّ هَذَا الْعِلْمَ يَحْمِلُهُ عَدُولُ الْخَلْفِ، فَقَالَ ﷺ: «يَحْمِلُ هَذَا الْعِلْمَ مِنْ كُلِّ خَلْفٍ عُدُولُهُ يَنْتُونَ عَنْهُ تَحْرِيفَ الْعَالِينَ وَانْتِحَالَ السُّبُطِيِّينَ وَتَأْوِيلَ الْجَاهِلِينَ»^(١)... اللهم صل وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد،،،

فهذا الكتاب: «علم المعاني دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني» يتتبع التراكيب فيبرز خصائصها، ويظهر دلالاتها في ضوء ما قرره البلاغيون، وهو لا يقف عند ما قاله البلاغيون فيحسن عرضه فحسب، بل يتجاوز ذلك إلى مناقشته وتحليلته وإبداء الرأي فيه، ولذا آثرنا له هذا العنوان: «علم المعاني دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني».

إن سبر أغوار المعاني يتطلب صبرا وتأملاً وتدبرا ومراجعة دقيقة متأنية للتراكيب ولما قاله العلماء، والباحث عندما يكون كذلك، فإنه يغوص في بحار التراكيب ويستخرج منها دررها ولآلئها، وهذا ما ألزمتنا به أنفسنا في هذا المؤلف، الغوص في بحار التراكيب ومناقشة كلام العلماء وإيضاح ما يحتاج إلى إيضاح وتحرير ما يحتاج إلى تحرير مما قالوه ووجدناه يتجافى مع التراكيب وسياقاتها.

هذا المؤلف انتهينا من تأليفه في السابع عشر من شهر رمضان المبارك في سنة

(١) صححه الإمام أحمد بن حنبل... انظر الإصابة، القسم الرابع ترجمة: «إبراهيم العذري»... وانظر أيضاً الجامع الكبير للإمام السيوطي.

ست وأربعمائة وألف من الهجرة في مدينة عزيمة بالقصيم من المملكة العربية السعودية، وطبعته مطبعة السعادة بالقاهرة بجمهورية مصر العربية سنة ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م الطبعة الأولى.

ولما نفذت هذه الطبعة، وبدت حاجة طلاب العلم ودارسيه إلى الكتاب، طبع طبعة ثانية سنة ١٤١٨ هـ - ١٩٨٨ م نهضت بهذه الطبعة دار المعالم الثقافية للتوزيع والنشر بالأحساء بالمملكة العربية السعودية بالمشاركة مع مؤسسة المختار للنشر والتوزيع بالقاهرة بجمهورية مصر العربية، واستمر الكتاب يؤتي ثماره، محققاً الغاية المرجوة منه، جناه دانٍ وأثره بادٍ حتى نفذت هذه الطبعة.

نهضت مؤسسة المختار للنشر والتوزيع بطبعه طبعة ثانية أخرى انفردت بها دون دار المعالم الثقافية، وكان ذلك سنة ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م وقد أرادت مؤسسة المختار أن تزيد من جمال الكتاب، فقامت بضبط الأبيات الشعرية وضبط بعض النصوص، وهذا الضبط جاء خاطئاً في معظمه، فأفسد المعنى، وأطفأ الثمرة؛ حيث صار القارئ للكتاب يتخبط، ولا يستطيع الوصول إلى المعنى، فكيف يدرك المعنى، ويصل إلى المراد، والبيت مضبوط ضبطاً خاطئاً؟... أتى له أن يفهم النص، ويدرك ما وراء تراكيبه من أسرار ولطائف والنص غير مستقيم؟... لا بد من تصحيح وإقامة النص حتى يتمكن القارئ من الفهم والإدراك.

اتصل بي كثيرون ممن يريدون الكتاب صحيحاً، وشكوا إليّ ما صار إليه حال الكتاب فكان لزاماً عليّ أن أعيد النظر في الكتاب، وأن أنهض بتصحيحه، وأن أقوم ما عوج منه حتى يستقيم، وقد وفقني الله - عز وجل - وأعانتني للنهوض بذلك... ثم أمرنا بإعادة طبع الكتاب، فكانت هذه الطبعة الثالثة، وهي طبعة صحيحة مصوبة، نسأل الله - تعالى - أن تؤتي ثمارها، وأن يتحقق بها الغاية المرجوة من الكتاب.

نهضنا في هذه الطبعة بتصحيح كل ما حدث من أخطاء في الطبعة السابقة فضبطننا الأبيات ضبطاً صحيحاً دقيقاً، عدنا فيه إلى مصادر الأبيات لتتمكن من ذلك، وشرحنا ما يحتاج إلى شرح حتى تتم الفائدة المرجوة، ونسبنا الأبيات إلى

قائلها، وكشفنا عن المناسبة التي قيلت فيها تلك الآيات، كلما وجدنا أن ذلك كان ضرورياً؛ حيث تتجلى من خلاله الأسرار البلاغية الكامنة وراء الألفاظ والتراكيب. وقفنا وقفة متأنية أمام الأحاديث النبوية الموجودة في الكتاب، فقمنا بتخريج تلك الأحاديث، وضبطناها ضبطاً صحيحاً، وزدنا الخصائص والأسرار البلاغية الكامنة وراء ألفاظها وتراكيبها تجلية وإيضاحاً.

وجدنا تداخلاً بين فقرات التعبيرات، وهذا التداخل يحول بين القارئ والفهم الجيد لأول وهلة عند القراءة، فقمنا بإعادة تنظيم تلك الفقرات حسب اتصال المعنى واستمراره ثم انتهائه والوصول إلى آخر المراد منه وأقصاه .. نهضنا بهذا التنظيم والتنسيق بين فقرات التعبيرات، لأن هذا يساعد القارئ ويسر له الوقوف على المراد، والكتاب كان في حاجة إلى هذا التنظيم.

في كثير من المواطن وجدنا مسائل تحتاج إلى إضافات، وأخرى تحتاج إلى إيضاحات وتعديلات، فلم نتردد في النهوض بذلك، وقمنا بمراجعة تلك المسائل، وأطلقنا الوقوف أمامها، نتأمل ونتدبر، ونبحث ما يحتاجه القارئ، ثم أضفنا ما تحتاجه تلك المسائل من إضافات، وأوضحنا ما هو في حاجة إلى إيضاح.

إن هذا الكتاب يتناول مسائل علم المعاني، وهذا العلم كما عرفه البلاغيون "علم يعرف به أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال"^(١) ولذا فإن الكتاب يمضي وراء اللفظ العربي المفرد فيدرس أحواله في جملة التي سبب بها، والتي جاءت في سياق حواها وحوى غيرها من الجمل، يمضي الكتاب وراء هذه الألفاظ في جملها من سياقاتها فيدرس أحوالها وما تفيض به هذه الأحوال من خصائص وأسرار ومزايا بلاغية.

وقد نهض الكتاب في هذا الميدان بدراسة أحوال الإسناد الخبري وأحوال المسند إليه وأحوال المسند وأحوال متعلقات الفعل مجلياً ما يكمن وراءها من أسرار وخصائص، وما هو مستكن وراء العدول عن مقتضى الظاهر فيها من أغراض ونكات بلاغية.

(١) الإيضاح ج١ ص ٣٥.

كما يمضي الكتاب في تتبعه للفظ العربي وراء الجملة فيدرس "القصر" طريقه وأغراضه وفروقه ودقائقه وأسراره، ويدرس الجملة الإنشائية مفرقاً بينها وبين الجملة الخبرية، مجلياً في ذلك أنواع الإنشاء الطلبي من أمر ونهي واستفهام وتعم ونداء، كاشفاً عن وجهة نظر البلاغيين في التفرقة بين الإنشاء الطلبي والإنشاء غير الطلبي، موصياً بضرورة دراسة الإنشاء غير الطلبي لما يكمن وراءه من دقائق ولطائف يقف عليها الدارس لهذه الأنماط من الكلام، ونقصد بها: أنواع الإنشاء غير الطلبي، والتي منها: القسم والترجي والتعجب والمدح والذم وغيرها^(١).

ويمضي الكتاب كذلك في تتبعه للفظ العربي وراء الجمل الملتقية فيدرس العلاقات بين تلك الجمل متبعمًا المواضع التي تتطلب الوصل والمواضع الأخرى التي تقتضي الفصل، فيكشف عن تلك المواضع .. كما يدرس ما يقتضيه المقام من إيجاز أو إطباب عند التقاء تلك الجمل، فيتتبع مواضع الإيجاز ومواطن الإطباب، مفرقاً بينها ومجلياً ما يستكن فيها من أسرار ولطائف ومزايا بلاغية.

هذا والكتاب في تتبعه ذلك لم يقف عند عرض ما قاله البلاغيون فحسب، بل يتجاوز ذلك إلى تجلية مسائل وقضايا هم الدارس وتفيده، إن الكتاب يحسن عرض ما قرره البلاغيون موضحاً إياه بالشواهد، ثم يناقش هذه المقررات البلاغية .. ما يحتاج منها إلى إيضاح يوضحه .. ما اختلف فيه البلاغيون يناقشه ويبيد فيه رأيه ويرجح ما يراه أهلاً للترجيح .. ما قصر فيه البلاغيون يكمله ويستوفيه .. ما يحتاج إلى تحرير يحرره ويصلحه ويقمه ويصوبه، مستنداً في ذلك إلى ما تفيض به التراكيب.

والكتاب في تناوله لكل هذه القضايا البلاغية يثبت ما يقرره بالبراهين والأدلة، ويوضحه بالشواهد، حتى يثبت في الأذهان، ويستقر بالوجدان، فلم يعرض المقررات البلاغية عرضاً جافاً، بل يرويه بالشواهد التي توضحه وترطبه، فيستسيغه القارئ ويقبل عليه ويستوعبه ويثُلُجُ به صدره؛ حيث يجد فيه بغيته ومآربه.

(١) ارجع إلى هذه الأنماط في الفصل الثاني من الجزء الثاني من هذا الكتاب.

إن هذه الطبعة بما نهضت به من إصلاح للكتاب - على نحو ما ذكرنا - شكلاً ومضموناً، جعلته يستوي على عوده، ويؤتي ثماره، فجننا - إن شاء الله تعالى - سيكون دانيًا، وأثره سيكون باديًا، وسيعجب - إن شاء الله - القراء؛ حيث يجدون فيه بغيتهم التي عهدوها، وضالهم التي ينشدونها .. لقد نَحَيْنَا عنه ما عَلِقَ به من أدران في الطبعة السابقة، فصح واستقام؛ إذ انتفض كما انتفض العصفور بَلَلَهُ القطر، وكان نتيجة هذه الانتفاضة أن زالت عنه أدرانه، فبدا صحيحًا مستقيمًا جنناه دانيًا وأثره باديًا.

نسأل الله تبارك وتعالى أن ينفع به طلاب العلم ودارسيه ومحبيه، وأن يجزنا به خير الجزاء، ويغفر زلاتنا، ويمحو ذنوبنا، ويكفر عنا سيئاتنا، ويرحم والدينا، ويهدي أبنائنا، ويشفي مرضانا، ويحفظنا فهو خير حافظًا، ويهدينا سواء السبيل، إنه خير مسئول وهو نعم المولى ونعم النصير، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحابه أجمعين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المؤلف

بسيوني عبد الفتاح فيود

الجزيرة - جمهورية مصر العربية

١٥ من جمادى الأولى ١٤٢٩هـ

٢٠ من مايو سنة ٢٠٠٨م.

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله القائل: ﴿أَفْرَأَ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ أَفْرَأَ ﴿٣﴾ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٤﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٥﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٦﴾﴾ [العلق: ١-٥] والصلاة والسلام على من أوتي جوامع الكلم، اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين.

أما بعد:

فكتابنا "علم المعاني" يتناول مسائل المعاني التي أقرها علماء البلاغة فيبرز الأسرار البلاغية وراء بناء التراكيب، ويعالج أجزاء الجملة من مسند ومسند إليه ومتعلقات، ويكشف عن أحوال الإسناد الخبري، ويجلي الأسرار البلاغية وراء العدول عن الأصل والخروج عن مقتضى الظاهرة.

كما يعالج الجملة وارتباطها بغيرها من الجمل، فيكشف عن دقائق القصر وطرقه وأغراضه وبناء جملة، ويجلي الفرق بين الخبر والإنشاء مبرزاً الأساليب الإنشائية وأنواعها وما وراءها من معاني وأسرار، ويظهر العلاقات بين الجمل الملتقية وما وراء أبنيتها من دقائق ومزايا بلاغية، ويعرض لمقامات المقالات فيكشف عن الإطناب وألوانه ومقاماته، وعن الإيجاز وأنواعه وأسراره ودقائقه.

وقد امتلأ الكتاب بالشواهد من آيات الذكر الحكيم وأحاديث المصطفى ﷺ والشعر الجيد، وفي تلك الشواهد تتجلى مسائل المعاني التي قمنا بمعالجتها حيث بذلنا الجهد في تحليل هذا الشواهد، وتحلية ما وراء بناء تراكيبها من أسرار ولطائف، وتقريب ذلك إلى أذهان الدارسين بضرب الأمثلة ليتم الغرض المنشود وتتحقق الفائدة المرجوة.

ويقع الكتاب في جزئين نفذت طبعتهما الأولى وبدت لنا حاجة الدارسين إلى الكتاب، فقمنا بإعادة النظر فيه فحصاً وتدقيقاً وتفتيحاً وتهذيباً، واقتضت إعادة النظر في الكتاب أن نضيف إليه ما رأيناه ضرورياً، وأن نوضح ما وجدناه في حاجة إلى إيضاح، ونبسط ما هو في حاجة إلى بسط ليكتمل بذلك - والكمال لله وحده - تحقيق الغرض والفائدة المرجوة من الكتاب.

ثم أمرنا بإعادة طبعه طبعة جديدة لينتفع الدارس وتيسر له الإفادة .. والله - عز وجل - نسأل أن ينفع به، وأن يجزينا خير الجزاء، وأن يعفو عما يكون قد جرى به القلم في غفلة منا فخط منا ما لا يليق أو كتب ما لا ينبغي أن يكتب أو توقف عن كتابة ما كان ينبغي أن يكتب وإيضاح ما كان يجب أن يوضح .. كما نضرع إليه تعالى أن يرحم ضعفنا وأن يغفر لنا ولوالدينا ولمشايخنا ولمن سبقنا بالإيمان إنه خير مسئول وهو نعم المولى ونعم النصير .. وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

المؤلف

بسيوني عبد الفتاح

الهفوف - الأحساء

٢٣ من ذي القعدة ١٤١٨ هـ

مقدمة الطبعة الأولى

أحمد الله تعالى وأصلي وأسلم على رسوله الأمين نبينا محمد وعلى آله وصحابه
ومن نهج نهجه إلى يوم الدين.

أما بعد:

فهذا هو الجزء الأول من كتاب "علم المعاني" دراسة بلاغية ونقدية وقد
خصصته لدراسة أجزاء الجملة، وبدأته بتمهيد تناول الحديث عن النظم وصياغة
الجملة وما وراء ذلك من اعتبارات وملاحظات .. كما تناول بيان مفهوم الفصاحة
والبلاغة .. ثم أتبعته بفصول الكتاب الأربعة وهي:

الفصل الأول: أحوال الإسناد الخبري.

الفصل الثاني: أحوال المسند إليه.

الفصل الثالث: أحوال المسند.

الفصل الرابع: أحوال متعلقات الفعل.

وسيتلوه الجزء الثاني بمشيئة الله تعالى والذي خصصته لدراسة الجملة
وارتباطها بغيرها من الجمل .. فالله عز وجل أسأل أن ينفع به وأن يجزينا خير الجزاء
وهو الهادي إلى سواء السبيل.

المؤلف

بسيوي عبد الفتاح فيود

عنيزة - القصيم - السعودية

في ١٧ رمضان ١٤٠٦هـ

الجزء الأول

أحوال أجزاء الجملة

المسند إليه والمسند ومتعلقات الفعل

- مفهوم الفصاحة والبلاغة.
- أحوال الإسناد الخبري.
- التجوز في الإسناد.
- أحوال أجزاء الجملة.
- أحوال المسند إليه.
- أحوال المسند.
- أحوال متعلقات الفعل.
- الخروج عن مقتضى الظاهر.

تمهيد

مناهج المزية بين اللفظ والمعنى والنظم

الألفاظ قوالب للمعاني، إذ الكلام يتكون من لفظ حامل ومعنى به قائم ورباط لهما ناظم، وقد شغلت قضية اللفظ والمعنى الدارسين منذ القدم، واختلفت وجهات نظرهم في رجوع المزية، فنرى الجاحظ يتحدث عن اللفظ والمعنى في مواضع كثيرة من كتابه: "البيان والتبيين"، والذي لا ينعم النظر في كلام الجاحظ يتوهم أنه قد فضل اللفظ على المعنى أو المعنى على اللفظ.

انظر إلى قوله: "ثم اعلم - حفظك الله أن حكم المعاني بخلاف حكم الألفاظ، لأن المعاني مبسوسة على غيره غاية وممتدة إلى غير نهاية وأسماء المعاني مقصورة معدودة ومحصلة محدودة"^(١)، تجده قد جعل المعاني مبسوسة ممتدة، والألفاظ التي هي أسماء المعاني محدودة معدودة، فهل قدم المعاني هنا على الألفاظ؟ لو كان الأمر كذلك، فكيف يقول في موضع آخر: "المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي، وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء وفي صحة الطبع وجودة السبك، وإنما الشعر صياغة وضرب من التصوير"^(٢)؟ إنك تشعر هنا بأنه يقدم اللفظ على المعنى، وليس الأمر كذلك، فالذي أراه، أن الجاحظ لم يقدم اللفظ على المعنى هنا ولا المعاني على الألفاظ هناك، وإنما رجع المزية للنظم، وجعل التفاضل به.

تأمل قوله: "إنما الشأن في إقامة الوزن، وتخير اللفظ، وجودة السبك، وإنما الشعر صياغة وضرب من التصوير". فهو يريد بذلك النظم لا الألفاظ المجردة، وهو عندما جعل المعاني مطروحة، أراد المعاني العامة التي هي كأغراض الشعر، وعندما جعلها ممتدة ومبسوسة أراد المعاني المركبة، المعاني الخاصة المنبعثة من النظم الجيد والتراكيب الرفيعة، وعندما جعل الألفاظ محصورة محدودة، أراد الألفاظ المجردة لا المنظومة، إذًا الجاحظ لم يقدم لا اللفظ ولا المعنى، وإنما رجع المزية إلى النظم.

(١) البيان والتبيين ١/ ٦٧.

(٢) الحيوان ٣/ ١٣١.

فينبغي على الدارس أن يعرف الفروق الدقيقة التي تكمن وراء النظم، إذ به يفضل الكلام الكلام ويتقدم عليه، وفرق ما بين نظم القرآن وتأليفه ونظم سائر الكلام وتأليفه. وللجاحظ كتاب في النظم سباه "نظم القرآن" ولكنه فقد ضمن ما فقد من تراث المسلمين، ونرى الجاحظ يشير إليه في كثير من كتاباته في البيان والتبيين وغيره، ويحيل عليه في كثير من الأمور والقضايا.

فما هو النظم إذا الذي رجح الجاحظ إليه المزية؟ إنه ضم الكلمات بعضها إلى بعض على طريقة مخصوصة، وهذه الطريقة المخصوصة تكون - كما يرى القاضي عبد الجبار في كتابه المعنى - بالإبدال الذي تختص به الكلمات، أو التقديم والتأخير الذي تختص به مواقع الكلمات أو الحركات التي تختص بالإعراب^(١).

وقد أفاد الإمام عبد القاهر من إشارات القاضي عبد الجبار وكتابات الجاحظ، فشرح نظرية النظم وحلل الشواهد الكثيرة التي يتضح فيها مفهوم النظم.

ويرى الشيخ عبد القاهر: أن الناظم إذا أراد أن ينظم كلامًا في أي غرض، يبدأ فيرتب المعاني في نفسه أولاً ويبدل جهداً في ترتيبها، ثم يجذو على ترتيبها الألفاظ، فإذا وجب لمعنى أن يكون أولاً في النفس، وجب للفظ الدال عليه أن يكون مثله أولاً في النطق، ويفرق عبد القاهر بين حروف منظومة وكلم منظوم، وذلك أن نظم الحروف هو تواليها في النطق فقط، وليس نظمها بمقتضى عن معنى ولا الناظم لها بمقتضى في ذلك رسماً من العقل اقتضى أن يتحرى في نظمه لها ما تحراه، فلو أن واضع اللغة كان قد قال: "ربض" مكان: "ضرب" لما كان في ذلك ما يؤدي إلى فساد، أما نظم الكلم فليس الأمر فيه كذلك، لأنك تقتضي في نظمها آثار المعاني فترتب ألفاظ الكلام على حسب ترتيب المعاني في النفس^(٢).

فالمعاني التي يتعلق بها الفكر والتي ترتب ألفاظها على حسب ترتيبها في النفس، إنها هي معاني النحو، وليست المعاني اللغوية للمفردات.

(١) انظر المعنى في أبواب التوحيد والعدل ١٦/١٩٩ وما بعدها.

(٢) انظر دلائل الإعجاز ص ٩٦.

يقول عبد القاهر: "واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه "علم النحو" وتعمل على قوانينه وأصوله وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تحل بشيء منها وذلك أنا لا نعلم شيئاً يتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه، فينظر في الخبر إلى الوجوه التي تراها في قولك: زيد منطلق وزيد ينطلق وينطلق زيد ومنطلق زيد وزيد المنطلق والمنطلق زيد وزيد هو المنطلق.

وفي الحال إلى الوجوه التي تراها في قولك: جاءني زيد مسرعاً وجاءني يسرع وجاءني وهو مسرع أو وهو يسرع وجاءني وقد أسرع، فيعرف لكل من ذلك موضعه ويحيى به حيث ينبغي له.

وينظر في الحروف التي تشترك في معنى ثم ينفرد كل واحد منها بخصوصية في المعنى فيضع كلا من ذلك في خاص معناه، نحو أن يؤتي "بها" في نفي الحال و"بلا" إذا أراد نفي الاستقبال، وإن فيها يترجح بين أن يكون وألا يكون وبإذا فيما علم أنه كائن.

وينظر في الجمل التي تسرد فيعرف موضع الفصل فيها من موضع الوصل ثم يعرف فيما حقه الوصل، موضع الواو من موضع الفاء، وموضع الفاء من موضع ثم، وموضع أو من موضع أم، وموضع لكن من موضع بل ويتصرف في التعريف والتكثير والتقديم والتأخير في الكلام وفي الحذف والتكرار والإظهار والإضمار فيضع كلا من ذلك مكانه ويستعمله على الصحة وعلى ما ينبغي له.

هذا هو السبيل فلست بواجد شيئاً يرجع صوابه إن كان صواباً وخطؤه إن كان خطأ إلى "النظم" ويدخل تحت هذا الاسم إلا وهو معنى من معاني النحو قد أصبت به موضعه ووضعت في حقه أو عومل بخلاف هذه المعاملة، فأزيل عن موضعه واستعمل في غير ما ينبغي له، فلا ترى كلاماً قد وصف بصحة نظم أو فساده، أو وصف بمزية وفضل فيه إلا وأنت تجد مرجع تلك الصحة، وذلك الفساد، وتلك المزية وذلك الفضل إلى معاني النحو وأحكامه، ووجدته في أصل من

أصوله ويتصل بباب من أبوابه" (١).

ثم يأخذ بعد ذلك في عرض الشواهد التي يتضح فيها ما ذكره محلاً لتلك الشواهد، ومبرراً لموطن الحسن أو الفساد فيها، فيعرض لقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَنَسَمَاءَ أَقْلِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ٤٤] قائلاً: "هل تشك إذا فكرت في هذه الآية فتجلى لك منها الإعجاز وبهرك الذي ترى وتسمع أنك لم تجد ما وجدت من المزية الظاهرة والفضيلة القاهرة إلا لأمر يرجع إلى ارتباط هذه الكلم بعضها ببعض، وأن لم يعرض لها الحسن والشرف إلا من حيث لاقت الأولى بالثانية والثالثة بالرابعة، وهكذا إلى أن تستقرها إلى آخرها، وأن الفضل حصل من مجموعها.

وإن شككت فتأمل هل ترى لفظة منها بحيث لو أخذت من بين أخواتها وأفردت لأدت من الفصاحة ما تؤديه وهي في مكانها من الآية؟ .. قل: "ابلعي" واعتبرها وحدها من غير أن تنظر إلى ما قبلها وإلى ما بعدها، وكذلك فاعتبر سائر ما يليها.

وكيف بالشك في ذلك ومعلوم أن مبدأ العظمة في أن نوديت الأرض ثم أمرت ثم في أن كان النداء "يا" دون "أي" نحو "يا أيتها الأرض" ثم إضافة الماء إلى الكاف دون أن يقال: "ابلعي الماء" ثم أن أتبع نداء الأرض وأمرها بما هو من شأنها نداء السماء وأمرها كذلك بما يخصها، ثم أن قيل: "وغيض الماء" فجاء الفعل على صيغة "فَعِيل" الدالة على أنه لم يغيض إلا بأمر أمر وقدرة قادر، ثم تأكيد ذلك وتقريره بقوله تعالى: "وقضى الأمر" ثم ذكر ما هو هو فائدة هذه الأمور وهو: "واستوت على الجودي" ثم إضمار السفينة قبل الذكر كما هو شرط الفخامة والدلالة على عظم الشأن ثم مقابلة "قيل" في الخاتمة "بقيل" في الفاتحة .

أفترى لشيء من هذه الخصائص التي تملؤك بالإعجاز روعة، وتحضرك عند تصورها هيبة تحيط بالنفس من أقطارها تعلقاً باللفظ من حيث هو صوت مسموع وحروف تتوالى في النطق، أم كل ذلك لما بين معاني الألفاظ من الاتساق العجيب؟

فقد اتضح إذاً اتصاحاً لا يدع مجالاً للشك أن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة، ولا من حيث هي كلم مفردة، وأن الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها من ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ"^(١).

ويستمر عبد القاهر في سوق الشواهد فيقول: "وما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروك وتونسك في موضع ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر كلفظ الأخدع في بيت الحماسة -للصمة بن عبد الله القشيري-:

تَلَفَّتْ نَحْوَ الْحَيِّ حَتَّى وَجَدْتِي وَجَعْتُ مِنَ الْإِضْغَاءِ لَيْتًا وَأَخْدَعًا
وبيت البحري:

وَأَبِي وَإِنْ بَلَّغْتَنِي شَرَفَ الْغِنَى وَأَعْتَقْتَ مِنْ رِقِّ الْمَطَامِعِ أَخْدَعِي
فإنك تجد لها في هذين المكانين ما لا يخفى من الحسن ثم إنك تتأملها في بيت أبي تمام:

يَا دَهْرُ قَوْمٍ مِنْ أَخْدَعَيْكَ فَقَدْ أَضَجَجْتَ هَذَا الْأَنْهَامَ مِنْ خُرُوكِ
فتجد لها من الثقل على النفس ومن التنغيص والتكدير أضعاف ما وجدت هناك من الروح والخفة والإيناس والبهجة.

ومن أعجب ذلك لفظة "الشيء" فإنك تراها مقبولة حسنة في موضع وضعيفة مستكرهة في موضع آخر، وإن أردت أن تعرف ذلك فانظر إلى قول عمر ابن أبي ربيعة المخزومي:

وَمِنْ مَالِي عَيْنِيهِ مِنْ شَيْءٍ غَيْرِهِ إِذَا زَاحَ نَحْوَ الْجَمْرَةِ الْبَيْضُ كَالدُّمَى
وإلى قول أبي حنيفة النميري:

إِذَا مَا تَقَاضَى الْمَرْءُ يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ تَقَاضَاهُ شَيْءٌ لَا يَمَلُّ التَّقَاضِيَا

(١) دلانل الإعجاز ص ٨٩، ٩٠.

فإنك تعرف حسنها ومكانها من القبول. ثم انظر إليها في بيت المتنبي:

لَوْ أَلْفَلَكُ الدَّوَارُ أَبْغَضْتَ سَعْيَهُ لَعَوَّقَهُ شَيْءٌ عَنِ الدَّوَرَانِ

فإنك تراها تقل وتضول بحسب نبلها وحسنها فيما تقدم^(١).

وهكذا يستمر عبد القاهر في عرض العديد من شواهد النظم الرديء والآخر

الجيد، فمن الأول:

قول الفرزدق:

وَمَا يَمِثُّهُ فِي النَّاسِ إِلَّا مَمْلَكًا أَبُو أُمِّهِ حَيَّ أَبُوهُ يُقَارِبُهُ

وقول المتنبي:

وَلِذَا اسْمُ أَغْطِيَةِ الْعُيُونِ جُفُوهُهَا مِنْ أَيْتَاءِ عَمَلِ السُّيُوفِ عَوَامِلُ

وقول أبي تمام:

ثَانِيهِ فِي كَيْدِ السَّمَاءِ وَلَمْ يَكُنْ كَثَائِنِينَ ثَانٍ إِذْ هُمَا فِي الْعَارِ

ومن الثاني:

قول إبراهيم بن العباس الصولي يمدح محمد بن عبد الملك الزيات:

فَلَوْ إِذْ نَبَا دَهْرٌ وَأَنْكَرَ صَاحِبٌ وَشَلَطَ أَعْدَاءُ وَعَابَ نَصِيرٌ
تَكُونُ عَنِ الْأَهْوَاذِ دَارِي بِنَجْوَةٍ وَلَكِنْ مَقَادِيرٌ جَرَّتْ وَأُمُورٌ
وَإِنِّي لِأَرْجُو بَعْدَ هَذَا مُحَمَّدًا لِأَفْضَلِ مَا يُرْجَى أَخُ وَوَزِيرُ

وقول البحتري:

بَلُونَا ضَرَائِبَ مَنْ قَدَنْرَى فَمَا إِنْ رَأَيْتَا لِفَنْجِ ضَرِييَا
هُوَ الْمَرْءُ أَبَدَتْ لَهُ الْحَادِثَا ثُ عَزَمَا وَشَيْخَا وَرَأَيْتَا صَلِييَا
تَنْقَلُ فِي خُلُقِي سُوْدُدِ سَمَاحًا مُرَجَّى وَبَأْسَا مَهِييَا
فَكَالسَيْفِ إِنْ جِئْتَهُ صَارِحَا وَكَالْبَحْرِ إِنْ جِئْتَهُ مُنْشِييَا

وقول كَثِيرٌ عِزَّة:

فَلَمَّا قَضَيْنَا مِنْ مَنَى كُلِّ حَاجَةٍ وَمَسَّحَ بِالْأَرْكَانِ مَنْ هُوَ مَا يَسُحُ
وَشَدَّتْ عَلَى ذُهُمِ الْمَطَايَا رِحَالَنَا وَلَمْ يَنْظُرِ الْعَادِي الَّذِي هُوَ رَائِحُ
أَخَذْنَا بِأَطْرَافِ الْأَحَادِيثِ بَيْنَنَا وَسَالَتْ بِأَعْنَاقِ الْمَطِيِّ الْأَبْطَاحُ

إلى غير ذلك من الشواهد التي يعرض لها عبد القاهر محللاً لها ومبرراً لما فيها من جمال مرده إلى النظم ومعرفة ماله من رسوم ومناهج، أو من قبح وعبث مردهما إلى الخروج عن رسوم النظم ومناهجه^(١).

ثم يأخذ عبد القاهر بعد أن وضع نظرية النظم وحلل العديد من شواهدها، وبين ما ينبغي على البلوغ أن يلتزم به في بناء جملة وعند صياغة عباراته ... يأخذ بعد ذلك في بيان قوانين النحو وأصوله ومناهجه التي ينبغي على الناظم أن يضع كلامه الوضع الذي تقتضيه تلك المناهج، فلا يزيغ عنها ولا يحيد .. وهي تشمل كل أبواب علم المعاني التي سنعرض لها في فصول هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

(١) دلالات الإعجاز ص ١٢٠ وما بعدها.

مفهوم الفصاحة والبلاغة

الفصاحة في اللغة معناها الظهور والبيان، يقال: يوم مفصح، لا غيم فيه وأفصح اللبن وفصح، ذهب عنه الرغوة، قال نضلة السلمي:

وَتَحْتَ الرَّغْوَةِ اللَّيْنُ الْفَصِيحُ

ويقال أفصحت الشاة والناقة: خلص لبنها، وأفصح الصبح: بدا ضوءه واستبان. ويقال: رجل فصيح، وامرأة فصيحة، وقوم فصحاء وكلام فصيح، أي بليغ .. ولسان فصيح أي طلق وأفصح الرجل عن الشيء إفصاحًا، إذا بينه وكشفه، ويقال تفصح أي: ازداد فصاحة واستعمل الفصاحة، أو تكلف الفصاحة وتشبه بالفصحاء .. والفصيح: المنطلق اللسان في القول الذي يعرف جيد الكلام من رديئه .. قال الله عز وجل: ﴿ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا ﴾ [القصص ٣٤]. وقال عليه الصلاة والسلام: "أَنَا أَفْصَحُ الْعَرَبِ بَيِّدٌ أَنِّي مِنْ قُرَيْشٍ" ^(١) .. فمعنى الفصاحة في الآيات والحديث: الظهور والبيان ^(٢).

والبلاغة في اللغة تعني: الانتهاء والوصول وتعني أيضًا الفصاحة وحسن الكلام .. يقال: بلغ الشيء يبلغ بلوغًا وبلاغًا: وصل وانتهى إلى مراده .. والبلاغ: ما يتبلغ به ويتوصل إلى الشيء المطلوب .. والبلاغة: الفصاحة. وَرَجُلٌ بَلِيغٌ وَبَلُغٌ وَبَلُغٌ: حسن الكلام فصيحته يبلغ بعبارة لسانه كنه ما في قلبه، والجمع: بلغاء، وقد بلغ بلاغة: صار بليغًا ^(٣).

قال الله - عز وجل - ﴿ وَقُلْ لَّهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴾ [النساء ٦٣]، ذهب الزمخشري إلى أن القول البليغ: المؤثر في قلوبهم، فيغتمون به اغتمامًا ويستشعرون من الخوف استشعارًا ^(٤).

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير: [٦/٣٥ برقم ٥٤٣٧].

(٢) انظر لسان العرب مادة فصح.

(٣) انظر لسان العرب مادة بلغ.

(٤) انظر الكشاف ج١ ص ٤٠٧.

وبهذا يتضح لنا أن مفهوم الفصاحة في اللغة، لا يختلف عن مفهوم البلاغة فهما مترادفان والمقصود منهما: الظهور والبيان والانتهاء إلى المعنى وبلوغ المراد باللفظ الجيد والقول البليغ المؤثر، والتعبير الحسن الفصيح .. ولذا فإن أكثر البلاغيين يرون أن الفصاحة والبلاغة ترجعان إلى معنى واحد، وإن اختلف أصلهما، لأن المراد بكل منهما: الإبانة عن المعنى والإظهار له وحسن التعبير عنه.

ويرى بعضهم أن الفصاحة تمام آلة البيان، فهي تختلف عن البلاغة، لأن الآلة تتعلق باللفظ دون المعنى، أما البلاغة فتتعلق بالمعنى دون اللفظ، إذ المراد منها: إنهاء المعنى إلى القلب .. وقد اختار المتأخرون هذا الرأي. فقالوا الفصاحة تقع وصفًا للكلمة وللکلام وللمتكلم، فيقال: كلمة فصيحة، وكلام فصيح، ومتكلم فصيح .. أما البلاغة فتقع وصفًا للکلام وللمتكلم، فيقال: كلام بليغ، ومتكلم بليغ، ولا تقع وصفًا للكلمة، فلا يقال: كلمة بليغة، ثم راحوا يفسرون ذلك على النحو الآتي:

فصاحة الكلمة

الكلمة الفصيحة هي الكلمة التي تخلو من تنافر الحروف والغرابة ومخالفة القياس اللغوي أو الصرفي، ومن الكراهة في السمع.

فتنافر الحروف: وصف في الكلمة يوجب ثقلها على السمع وصعوبة نطق اللسان بها، وهذا التنافر قد يكون شديدًا متناهياً في الثقل كما في قول الأعرابي عندما سئل عن ناقتة: "تركمتها ترعى المعخع"، فكلمة "المعخع" كلمة شديدة الثقل على الأذن، شديدة الصعوبة في اللسان وقد قالوا: إنها اسم شجر مر المذاق كريبه الرائحة، كأنه هذه الكلمة التي لا يطاق النطق بها، وقيل إنها كلمة للمعاياة لا أصل لها وهم كثيرًا ما يخترعون كلمات للمعاياة، ومثلها كلمة: "العقجق" و"الظش" و"الشصاصاء" ونحو ذلك.

وقد يكون التنافر خفيفًا والثقل ضئيلًا. كما في قول امرئ القيس:

وَفَرَعٍ يُعَشَّى الْمَثَنَ أَسْوَدَ فَجَاحِمٍ أَيَثُّ كَفَنُو النَّخْلَةِ الْمُتَعَنَّكِلِ
غَدَائِرُهُ مُنْتَشِرَاتٌ إِلَى الْعُلَا نَضِلُّ الْمِدَارِي فِي مَثْنِي وَمُرْسَلٍ^(١)

فكلمة "مستشزرات" كلمة ثقيلة في السمع، يتعثر اللسان عند النطق بها، ولكن ثقلها أقل من ثقل "المعجع".

ومثله قول المتنبي:

إِنَّ الْكِرَامَ بِإِلَّا كِرَامٍ مِنْهُمْ مِثْلُ الْقُلُوبِ بِإِلَّا سُوَيْدَاوَاتِهَا^(٢)

فكلمة "سويداواتها" كلمة ثقيلة على اللسان، وقد نشأ هذا الثقل من طول الكلمة، كما نشأ الثقل في كلمة "مستشزرات"، من طولها أيضًا ومن توسط الشين المهموسة الرخوة بين التاء الشديدة والزاي المجهورة، ومع كل فالثقل في الكلمتين أقل من الثقل في كلمة "المعجع".

ويرجع البلاغيون السبب في تنافر الحروف وثقلها في الأذن واللسان إلى قرب مخارج الحروف أو بعدها بعدًا شديدًا وقالوا: إن البعد الشديد بين مخارج الحروف يكون بمنزلة الطفر، والقرب الشديد بينها يكون بمنزلة مشى المقيد الذي يثقله القيد، والعرب قد بنيت لغتهم على الخفة، ولذا رأيناهم يعمدون إلى إدغام المثلين والمتقاربين نحو رد ومد وشد واضطر، وإلى الإبدال في نحو: اصطرر وذلك دفعا للثقل.

ومع أنه لا يمكن إنكار ما لمخارج الحروف وصفاتها وهيئة تأليفها من أثر في ثقل الكلمة وخفتها إلا أنه ينبغي أن يكون المعول عليه في ذلك هو الذوق الصحيح

(١) الفرع: الشعر، ويغشى: يغطي. المتن: الظهر، والأيثب: الكثير الشعر، وقتو النخلة: عنقودها، والمتعكّل: التراكم، والغدائر: الذوائب، ومستشزرات: مرتفعات، والمداري: جمع مدرى، وهو الأمشاط، والمثنى: المقتول، والمرسل: غير المقتول.

(٢) المعنى: إن الكرام من الخيل إذا لم يكن عليها فرسان كرماء من هؤلاء المدوحين صارت كالقلب بلا سويداء.

فنحن نرى الكلمة قد تألفت من حروف متقاربة وليست ثقيلة نحو قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَبيَ ءَادَمَ﴾ [يس ٦٠]. فلا ثقل في كلمة: "أعهد" مع قرب مخرج اضمزة والعين والهاء. وكما في قولنا "ذقته بضمي" فالباء والفاء والميم أحرف شفوية متقاربة ولا ثقل فيها، فكون قرب مخرج الحروف أو تباعدها موجباً للثقل والتنافر، ليس مطرداً، ولذا كان المعول عليه هو الذوق السليم، والحسن الصادق.

هذا وثقل الكلمة في النطق ليس معيياً في جميع الأحوال وعلى الإطلاق، بل إذا اقتضاه المقام كان من أهم مظاهر فصاحة الكلمة، ولذا لا أجد عيباً في كلمة "مستشزرات" في بيت امرئ القيس لأنها لاءت المقام؛ حيث يصف شعراً كثيفاً. غزيراً قد تراكم وصار كقنو النخلة المتعثكل، ولو قال: "مرتفعات" لأخل بما يقتضيه السياق ويتلاءم مع الألفاظ التي وصف بها الشعر.

كما لا أرى عيباً في قول أبي تمام:

فَدَقُلْتُ لَمَّا أَطْلَخْتُمُ الْأَمْرُ وَأَتَّبَعْتُ عَشْوَاءَ نَالِيَةَ غُبَسًا ذَهَارِيَسًا^(١)

لأن الثقل في كلمة "اطلختم" يتلاءم مع الشدة والظلام والدواهي التي يصورها الشاعر - أبو تمام - في هذا البيت.

يقول الدكتور: محمد أبوسى: "فينبغي أن يلاحظ أن استعمال هذا المقياس يحتاج إلى وعي وذوق لأن هناك كلمات ثقيلة على اللسان، ولكن ثقلها من أهم مظاهر فصاحتها، من حيث أن هذا الثقل يصور معناها بحق، انظر إلى كلمة "أناقلتم" في قوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنَاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [التوبة ٣٨].

تجد فيها قدرًا من الثقل الفصيح لأنه يصف تقاعسهم وتناقلهم وخلودهم إلى الأرض، واستشعارهم مشقة الجهاد، وعزوف أرواحهم عنه، وقد دعوا إليه في عام

(١) اطلختم الأمر: اشتد، والعشواء: الناقة لا تبصر ليلاً، غبسا: الظلام الشديد، والدهاريس: الدواهي.

العسرة، فكان منهم ما وصفت الآية، ولذا جاء التهديد البالغ ليواجه تخاذل أرواحهم، فقال سبحانه وتعالى ﴿إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبِكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَنَسْتَبْدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التوبة ٣٩].

وخذ قوله تعالى يحكى مقالة سيدنا نوح عليه السلام لقومه: ﴿قَالَ يَنْفِرُوا آرَءَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْنِهِ مِنْ رَبِّي وَءَاتَنِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَفَعَمَيْتَ عَلَيْكُمْ أَنْزِلْكُمْ هَاهُنَا وَأَنْتُمْ هَاهُنَا كَرِهُونَ﴾ [هود ٣٨] وتأمل كلمة "أَنْزِلْكُمْ هَاهُنَا" وما فيها من صعوبة في النطق تحكي صعوبة الإلزام بالآيات وهم لها كارهون، وانظر إلى كلمة "فعميت" وما فيها من الإدغام والمجهول وكيف يصفان معنى التعمية والإلباس^(١).

والغرابية: أن تكون الكلمة وحشية لا يظهر معناها فتحتاج في معرفتها إلى النظر والتنقيب عنها في كتب اللغة المبسطة، والمرجع في ذلك إلى العرب الخالص، فلا يعول على غيرهم من المحدثين الذين ظهروا بعد فساد اللغة وضعف السليقة، ولذا قيد التنقيب عن تلك الكلمات الغريبة بكونه في كتب اللغة المبسطة التي حوت كلمات قد ماتت وصارت غير مستعملة عند الفصحاء من الخالص، كما في الألفاظ: "زرجون واسفنت وخندريس" التي تطلق على الخمر و"فدوكس وهرماس" على الأسد، و"الحلقد" على سئ الخلق و"الطرموق" على الطين، والاستمصال على الإسهال و"الإطرغشاش" و"الإبرغشاش" على الشفاء و"الابتشاك" على الكذب.

يقول الشاعر:

وَمَا أَرْضَىٰ لِمُقْلَبِيهِ يَخْلُمِ إِذَا نَبَّهْتُ تَوَهَّمَهُ أَيُّ شَاكَا

وكما في قول عيسى بن عمرو النحوي لأناس قد تجمعوا حوله عندما سقط عن حمارة: "مَا لَكُمْ تَكَأَكَاثُمْ عَلَىٰ تَكَأَكُوْكُمْ عَلَىٰ ذِي جِنَّةٍ، أَفَرَنْقَعُوا عَنِّي" فقد أطلق "تَكَأَكَا" على الاجتماع، و"أفرنقع" على التنحي والابتغاء، وهو يهدف بتخيراتين الكليتين الغريبتين، المزاح ومداعبة من اجتمعوا حوله، ولذا قالوا: دعوه فإن

(١) خصائص التراكيب ص ٢٣.

شيطانه يتكلم بالهندية .. فمثل هذه الكلمات لا نراها إلا في كتب اللغة المطولة، ولا نجدها مستعملة على لسان الخالص، ولذا عُدَّت غريبة ومخلة بالفصاحة.

ولا يجوز أن نطلق على ما خفي علينا معناه من النظم الكريم وأحاديث الرسول ﷺ، وأشعار الفحول من الشعراء، بأنه غريب ومناهِ للفصاحة، لأن الذي يعتد به ويعول عليه في ذلك - كما قلت - إنما هم العرب الخالص الذين سلمت سليقتهم، ولم تفسد طباعهم ..

ولا نبعد عن الصواب إذا قلنا إن الغرابة نوعان: نوع فصيح وهو تلك الألفاظ المستعملة التي جرت على ألسنة الخالص والفحول، وإن خفي علينا معناها وغمض .. ومن هذا النوع غريب القرآن وغريب الحديث والأثر، وغريب الشعر، ونوع معيب مغل بالفصاحة وهو تلك الألفاظ التي أهملها الخالص وهجرها الفصحاء فلم يستعملوها، وبقيت في بطون أمهات كتب اللغة المطولة، على نحو ما شاهدنا في الأمثلة ..

وذكر البلاغيون أن الكلمة تعد غريبة كذلك، غرابة تحل بفصاحتها، إذا احتملت معنيين أو أكثر، واحتار السامع في فهم المعنى المراد منها لعدم وجود القرينة التي تعينه وتحدهه، كما في قول رؤبة بن العجاج:

أَيَّامٌ أَبَدَتْ وَأَضْحَا مُفْلَجًا أَغْرَبَرَأَقًا وَطَرْفًا أَبْرَجًا
وَمُقَلَّةٌ وَحَاجِبٌ مُرْجَجًا وَقَاحًا وَمَرْسِنًا مُسْرَجًا^(١)

فإنه لم يعرف ما أراد بقوله: "مسرَجًا"، حتى اختلفوا في تخريجه، ف قيل إنه أراد أن يشبه أنفها بالسيف في الدقة والاستواء، وعليه "فمسرَجًا" نسبة إلى سريج الذي اشتهر بصناعة السيوف، ونسبت إليه فسميت سيوفًا سريجية .. وقيل إنه أراد أن يشبه أنفها بالسراج في البريق واللمعان "فمسرَجًا" في البيت نسبة إلى السراج

(١) مفلجًا: الفلج تباعد ما بين الأسنان، والأغر: الأبيض، والطرف: العين، وأبرج: البرج عظم العين وحسنها، ومزججًا: مدققًا، وقاحًا: شعرًا أسود كالفحم، ومرسنا: اسم لمحل الرسن من البعير وإطلاقه على أنف الإنسان من باب المجاز المرسل.

المضيء، من قولهم: سَرَجٌ وجهه أي: حسن، وسَرَجَ اللهُ وجهه أي: حسنه وبهجه، والاشتقاق من الاسم الجامد على جهة التشبيه وارد في كلام العرب كما في قولهم: وَبُرُودٍ مُدْتَرَاتٍ وَقَفْرُزٌ وَمُؤَلَّاتٍ مِّنْ أَعْتَقِي الْكَيْتَانِ
أي: وبرود وشيها كالمدنانير، فاشتق من المدنانير "مدنرات" على جهة التشبيه بها.

ومخالفة القياس: أن تأتي الكلمة غير جارية على قوانين اللغة وقواعد الصرف، كما في قول أبي عباد: فَكَّرَا.. وكحذف النون من لکن في قول النجاشي:

تَشْتُو عَلَيْهِ الرِّيحُ كُلَّ عَشِيَّةٍ جُجُوبَ الْعَمَامِ بَيْنَ بَكْرٍ وَأَيْمٍ
فقد استعمل "الأيم" في مكان "الثيب"، والأيم من لا زوج لها ولو كانت

بكرًا.. وكحذف النون من لکن في قول النجاشي:
فَلَسْتُ بِأَيِّهِ وَلَا أَسْتَطِيعُهُ وَلَاكِ اسْقِنِي إِنْ كَانَ مَأْوَاكَ ذَا فَضْلٍ
أراد ولكن اسقني.. وكفك الإدغام في قول أبي النجم:

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْأَجَلِّ الْوَاهِبِ الْفَضْلِ الْكَرِيمِ الْمُجْزِلِ
وكقول قعنب بن ضمرة:
مَهْلًا أَعَاذِلُ قَدْ جَرَّبْتُ مِنْ خُلُقِي أَنِّي أَجُودُ لِأَقْوَامٍ وَإِنْ صَبَّيْنَا

فقد فك الإدغام في كلمتي "الأجل" و"صنوا" وقوانين اللغة توجب إدغام المثلين.

وكصياغة أفعال التفضيل من "أفعل فعلاء" في قول القائل:

لَأَنْتَ أَسْوَدُ فِي عَيْنِي مِنَ الظُّلَمِ

حيث استعمل أفعال التفضيل من وزن "أفعل" الذي مؤنثه "فعلاء" أسود وسوداء.. وهذا لا يتم إلا بمساعد كأن يقال: لأن أشد سوادًا.

ويستثنى من مخالفة القياس، ما ثبت استعماله لدى العرب، فهو فصيح وإن جاء مخالفاً لقوانين اللغة أو قواعد الصرف، فمن ذلك إبدال الهاء همزة في كلمتي "آل" و"ماء" إذ أصلهما: أهل وموه، وإبدال الهاء همزة في الكلمتين، وإن كان على

خلاف القياس، إلا أنه ثبت استعماله لدى العرب وورد عنهم، فهو فصيح وإن خالف القياس .

ومنه "أبى يأبى" بفتح عين المضارع فالقياس أن "فعل" بفتح العين لا يأتي مضارعه على "يفعل" بالفتح إلا إذا كانت عين ماضيه أو لامة من حروف الحلق مثل: ذهب، وسأل وسعى ونفع ونشع، فمجيء المضارع من "أبى" على وزن "يأبى" بالفتح وليست عين ماضيه ولا لامة من حروف الحلق مخالف للقياس، ولكن قد ثبت استعماله وورد عن العرب فهو فصيح وإن خالف القياس قال تعالى: ﴿وَيَأْتِي اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتَمَّرَ نُورُهُ﴾ [التوبة ٣٢]. ومنه عَوَّرَ يَعَوِّرُ، وَاسْتَحَوَّذَ، يَسْتَحَوَّذُ، فالقياس: عار يعار، واستحاذ يستحاذ، بقلب الواو ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها، أو ياء لتحركها وكسر ما قبلها في "يستحاذ"، ولكن هذه الأفعال وردت بالواو واستعملها العرب بدون إعلال، قال - عز وجل -: ﴿أَسْتَحَوَّذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَسْأَلُكُمْ ذِكْرَ اللَّهِ﴾ [المجادلة ١٩]. فهي فصيحة وإن خالفت القياس.

والكراهة في السمع: أن تبرا الأذن من سماع الكلمة، ولا تقبلها لمجيئها غير ملائمة للسياق الذي قيلت فيه، ولو كانت هذه الكلمة فصيحة في حد ذاتها، كما في قول أبي الطيب المتنبي:

مُبَارَكُ الْإِسْمِ أَغْرُ اللَّقَبِ كَرِيمُ الْجَرَشِيِّ شَرِيفُ النَّسَبِ^(١)

فكلمة "الجرشي" تأباها الأذن في هذا السياق وتنفر من سماعها، لأن المقام مقام مدح، ومقام المدح هنا في هذا البيت تلائمه الكلمة العذبة الخفيفة التي تتلاءم مع بقية الألفاظ المذكورة وتمضي معها في تناسق تام .. ولو كان المقام مقام هجاء لما نفرت الأذن من سماع هذه الكلمة، فلو قيل في مقام ذم: لثيم الجرشي قبيح النسب، لاستساغت الأذن ذلك ولم تنفر من قبول كلمة "الجرشي" .. وبهذا يتضح أن كراهة الكلمة في السمع يتوقف على المقام وسياقات الكلام، فما تكرهه الأذن في موضع وتأبى سماعه قد تستسيغه وتميل إليه وتلذذ سماعه في سياق آخر.

(١) الجرشي: النفس، والأغر: أصله الأبيض من الخيل ويطلق على الأبيض من كل شيء واللقب: ما دل على مدح كزبن العابدين أو ذم كأنف الناقة، وقد مدح سيف الدولة بهذا لأن اسمه "علي" ولقبه "سيف الدولة" وهما مما يمتدح به.

فصاحة الكلام

أما فصاحة الكلام فهي خلوصه من تنافر كلماته، ومن ضعف التأليف، والتعقيد اللفظي والمعنوي، وكثرة التكرار وتتابع الإضافات، بالإضافة إلى تحقق فصاحة مفرداته التي يتألف منها.

فتنافر الكلمات: أن تكون بتأليفها ونظمها الذي سلكت فيه ثقيلة على اللسان، يتعسر النطق بها، وإن كانت كل كلمة فصيحة بانفرادها واستقلالها عن هذا النظم المتنافر، كما في قول الشاعر:

وَقَبْرٌ حَرْبٌ بِمَكَانٍ قَفِيرٍ وَلَيْسَ قُبْرٌ قَبْرٌ حَرْبٌ قَبْرٌ

فالشرط الثاني في هذا البيت شديد الثقل على اللسان لا يستطيع أن ينطق به ثلاث مرات متتاليات دون أن يتعثر ويخطئ، وقد زعموا أن قائل البيت جَنِّيٌّ، صاح به على حرب بن أمية في فلاة فمات بها، ومرجع الثقل والتنافر إلى النظم الذي عليه البيت، فلو جردت الكلمات من نظمها لصارت فصيحة، خالية من الثقل، قرب. حرب. قبر.

ومنه قول أبي تمام:

وَالْمَجْدُ لَا يَرْضَى بِأَنْ تَرْضَى بِأَنْ يَرْضَى اِمْرُؤٌ يَرْجُوكَ إِلَّا بِالرِّضَا

وقول المتنبي:

فَقَلَقْتُ بِالْهَمِّ الَّذِي قَلَقَ الْحَشَا قَلَا قَلَّ عَيْسٍ كُلُّهُنَّ قَلَا قَلُّ^(١)

ومنه قول الآخر:

فَلَمْ يَضُرَّهَا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ شَيْءٌ وَأَنْشَتَتْ نَحْوَ عَرْفِ نَفْسٍ ذُهُولِ

فألفاظ النصف الثاني من البيت - كما يقول الجاحظ - يتبرأ بعضها من بعض، ويرجع ذلك إلى سوء النظم الذي سلكت فيه ..

(١) فقلقت: حركت، وقلقل الأولى جمع قُلُقُلٌ وهي الناقة السريعة يقال: قلقل قلاقل كبلبل وبلابل، وقلقل الثانية جمع قَلَقَلَةٌ وهي الحركة الشديدة.

ومنه قول أبي تمام:

كَرِيمٌ مَتَى أَمَدَحُهُ أَمَدَحُهُ وَالْوَرَى مَعِي وَإِذَا مَا لَمْتُهُ لَمْتُهُ وَخَيْدِي
فالتنافر الذي نراه في قوله: أمدحه أمدحه، قد نتج عن تكرار اللفظ وهو أقل
من التنافر الذي لمسناه في الأبيات قبله، ومما يحمد للشاعر في هذا البيت، إشارته
التعبير باللوم في قوله "لمته"، دون "الهجاء" المقابل للمديح، فهو يفيد أن المدوح
ربما يلام على شيء وقع منه عفوًا، ولكنه لا يفعل ما يستحق عليه الهجاء. ولكن
يؤخذ على الشاعر إدخاله "إذا" التي تفيد تحقق الوقوع على اللوم، ولو عبر "بان"
دون "إذا" لكان أولى وأبلغ في المديح.

ومنه قول الآخر:

وَأَزُورُ مَنْ كَانَ لَهُ زَائِرًا وَعَافَ عَافِي الْعُزْفِ عِرْفَانُهُ
ففي الشطر الثاني تنافر لا يخفى بين الكلمات مرجعه إلى تأليفها ونظمها الذي
وضعت فيه، والكلمات في حد ذاتها فصيحة لا تنافر بين حروفها.
وضعف التأليف:

أن يكون الكلام جاريًا على خلاف طريقة العرب في التعبير والقول، مخالفًا
لقوانين النحو المعتبرة عند جمهور النحاة، أما إذا خالف الكلام ما اتفق عليه النحاة
وأجمعوا عليه، كجر الفاعل ورفع المفعول ونصب المجرور أو رفعه، فليس الكلام
عندئذ مخالفًا بالفصاحة فقط، بل هو فاسد وغير عربي، لا يسمح به ولا يقال،
فضعف التأليف المخل بفصاحة الكلام، مجيء التأليف على خلاف ما اشتهر بين
جمهور النحاة، وليس على خلاف ما اتفقوا عليه.

من ذلك عود الضمير على متأخر في اللفظ والرتبة كما في قول حسان بن

ثابت رضي الله عنه:

فَلَوْ أَنَّ مَجْدًا يُجْلِدُ الدَّهْرَ وَاجِدًا مِّنَ النَّاسِ أَبْقَى مَجْدُهُ الدَّهْرَ مُطْعَمًا^(١)

(١) مطعم: هو مطعم بن عدي أحد رؤساء مكة وكان يدافع عن النبي ﷺ ضد المشركين.

فالضمير في "مجده" يعود إلى المفعول به "مُطْعَمًا" وهو متأخر في اللفظ وفي الرتبة.

وكما في قول زهير:

إِنْ تَلَقَىٰ بِيَوْمِ مَعَالَىٰ عَلَاتِهِ هَرَمًا تَلَقَّ السَّمَاحَةَ مِنْهُ وَالنَّدَىٰ خُلُقًا^(١)

فالضمير في "علاته" يعود إلى المفعول "هرما" المتأخر في اللفظ وفي الرتبة.

وقول النابغة الذبياني:

جَزَىٰ رَبُّهُ عَنِّي عَدِيًّا بِنَ حَاتِمٍ جَزَاءَ الْكِلَابِ الْعَاوِيَاتِ وَقَدْ فَعَلَ^(٢)

فالضمير في "ربه" يعود إلى "عدى" المتأخر لفظاً ورتبة لأنه مفعول به. والقاعدة المشهورة بين النحاة أن يعود الضمير على متقدم في اللفظ والرتبة أو في الرتبة دون اللفظ أو في اللفظ دون الرتبة، ولا يعود إلى متأخر في اللفظ والرتبة معاً، وقد أجاز ذلك بعضهم كابن جني وابن مالك وغيرهما.

ومنه وقوع الضمير المتصل بعد إلا كما في قول الشاعر:

وَمَا عَلَيْنَا إِذَا مَا كُنْتَ جَارَتَنَا الْأَيْجَارُونَ إِلَّا الْكَدَّيْ لَارُ

وقول الآخر:

لَيْسَ إِلَّا كَيْعَا عَلِيٍّ هُمَامٌ سَيِّفُهُ دُونَ عِزْضِهِ مَسْنُولُ

ومنه حذف أداة النصب "أن" مع بقاء عملها، في غير المواضع التي تضمير فيها وجوباً أو جوازاً.

كما في قوله طرفة:

أَلَا أَهْبَذَا الزَّاجِرِي أَحْضَرَ النُّوَعَىٰ وَأَنْ أَشْهَدَ اللَّذَاتِ هَلْ أَنْتَ مُحَمَّدِي

والقاعدة المشهورة تمنع وقوع الضمير المتصل بعد إلا، وتمنع حذف أداة النصب مع بقاء عملها إلا في المواضع المعروفة.

(١) على علاته: على قلة مال وعدم.

(٢) جزاء الكلاب العاويات: أي الفذف بالحجارة، دعاء عليه بهذا.

والتعقيد:

أن يكون الكلام غير واضح الدلالة على المعنى المراد به فيحتاج إلى أعمال الفكر وكد الذهن وإطالة النظر والتأمل حتى نقف على المعنى المراد، والعربي يكره الغموض المؤدى إلى اللبس، ويجب الوضوح والظهور فمن أقوالهم: خير الكلام ما كان معناه إلى قلبك أسبق من لفظه إلى سمعك، ولا يعني ذلك أنهم يكرهون لطافة المعنى ودقته، كيف وهم يرون أن المعنى إذا نيل بعد طلب له وكد وإعمال فكر يكون أوقع في النفس وأشد تأثيراً؟ وَلَكِنْ فَرَقَ بَيْنَ إِعْمَالِ فِكْرٍ لَا يَشْمُرُ وَهُوَ مَا كَانَ مَرْجِعُهُ إِلَى غَمُوضِ الْمَعْنَى وَتَعْقِيدِهِ... وَبَيْنَ إِعْمَالِ فِكْرٍ يَشْمُرُ وَهُوَ مَا كَانَ مَرْجِعُهُ إِلَى دَقَّةِ الْمَعْنَى وَلَطَافَتِهِ.

والتعقيد إما أن يكون تعقيداً لفظياً وإما أن يكون تعقيداً معنوياً.

فالتعقيد اللفظي: ما كان سببه اختلال نظم الكلام بالتقديم والتأخير بين أجزائه، فلا يدري السامع كيف يتوصل منه إلى معناه.

كما في قول الفرزدق يمدح خال الخليفة:

وَمَا مِثْلُهُ فِي النَّاسِ إِلَّا الْمَلِكُ أَبُو أُمِّهِ حَيُّ أَبُوهُ يُقَارِبُهُ

فالمعنى الذي يريده الفرزدق: وما مثله في الناس أحد يشبهه في الفضائل إلا ابن أخته هشام بن عبد الملك وكان ينبغي أن يكون ترتيب أجزاء البيت: وما مثله في الناس حي يقاربه إلا مملكا أبو أمه أبوه.

فالضمير في "أمه" للملك وفي "أبوه" للممدوح وهو إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومي، خال هشام بن عبد الملك بن مروان، وقد قدم الفرزدق وأخر بين أجزاء البيت، ففصل بين المبتدأ والخبر بأجنبي، وفصل بين النعت والمنعوت كذلك، وقدم المستثنى على المستثنى منه، فصار البيت في غاية التعقيد، ولعل الفرزدق كان يقصد بهذا الصنيع التهكم بالممدوح والاستخفاف به، وهذا لا يبعد إذا علمنا ولاء الفرزدق للعلويين وعداءه لبني أمية والممدوح منهم.

ومثله قول الفرزدق أيضًا:

إِلَى مَلِكٍ مَا أُمَّهُ مِنْ مُحَارِبٍ أَبَوُهُ وَلَا كَانَتْ كُتَيْبٌ تُصَاهِرُهُ

يريد: إلى ملك أبوه ليست أمه من محارب، أي: إلى ملك ما أم أبيه من قبيلة محارب.

وقول أبي تمام:

ثَانِيهِ فِي كَيْدِ السَّمَاءِ وَلَمْ يَكُنْ كَثَانَيْنِ ثَانٍ إِذْ هُمَا فِي الْعَارِ

يريد: أنه لم يكن كثنائي اثنين.

وقول ذي الرمة:

كَأَنَّ أَصْوَاتَ مَنْ يُغَالِهَنَّ بِنَا أَوْ آخِرِ الْمَيْسِ إِنْ قَاضَ الْفَرَارِيحَ

يريد: كأن أصوات أو آخر الميس إنقاض الفراريح من إيغالهن بنا.

وقول الآخر يصف دارًا بالية:

فَأَصْبَحَتْ بَعْدَ خَطِّ بَهْجَتِهَا كَأَنَّ قَفْرًا رُسُومَهَا قَلَمًا

يريد: فأصبحت قفرا بعد بهجتها كأن قلما خط رسوماها.

هذا والتقديم والتأخير بين أجزاء الكلام إنما يؤدي إلى التعقيد إذا انعدمت القرينة الدالة التي تعين المعنى وتحدد المراد من الكلام كما في الشواهد المذكورة، أما إذا قامت القرينة الدالة على المراد، فعندئذ لا يؤدي التقديم إلى التعقيد والغموض، بل يكون من أسباب حسن المعنى وجماله، وداعيًا من دواعي فصاحته وبلاغته.

والتعقيد المعنوي:

ما كان سببه اختلال المعنى وذلك بألا يكون انتقال الذهن من المعنى الأصلي للتركيب إلى المعنى المقصود ظاهرًا بينًا.

كما في قول العباس بن الأحنف:

سَأَطْلُبُ بَعْدَ الدَّارِ عَنْكُمْ لِتَقْرُبُوا وَتَسْكُبُ عَيْنَيَّ الدُّمُوعَ لِتَجْمُدَا

فقد كنى بسكب الدموع عما يوجبه الفراق والبعد من الحزن والألم لفراق

الأحبة، وقد أصاب وأحسن لأن البكاء يستلزم الحزن والأسى، ويدل عليه دلالة
بينة حيث جرى على ألسنتهم، فقالوا: أبكاني وأضحكني أي: ساءني وسرني.

وقال الحماسي:

أَبْكَانِي الدَّهْرُ وَبَارِبَهَا أَضْحَكَنِي الدَّهْرُ بِمَا يُرْضِي

كنى بإبكاء الدهر إياه عن إساءته له وبإضحاحه عن فرحه وسروره، فدلالة
البكاء على الحزن والألم والأسى، دلالة ظاهرة بينه، وردت في كلام العرب وجرت
على ألسنتهم.

ثم كنى ابن الأحنف بجمود العينين عما يوجهه دوام التلاقي والقرب من الفرح
والسرور، وقد أخطأ في هذا وأساء؛ حيث اعتقد أن الجمود هو خلو العين من البكاء
مطلقاً دون اعتبار شيء آخر، لكنهم أطلقوه على خلوها منه عند إرادته وطلبه، فكنوا
بجمود العين عن بخلها بالدمع عند الحاجة إليه وقت الحزن والأسى.

كما في قول الخنساء.

أَعْيَنِي جُودًا وَلَا تَجْمُدَا أَلَا تَبْكِيَانِ لِصَخْرِ النَّدَى

وقول أبي عطاء السندي:

أَلَا إِنَّ عَيْنَالَمْ تَجْمُدِيَوْمَ وَإِسْطِ عَلَيْكَ بِجَارِي دَمْعَهَا لَجَمُودٌ^(١)

فقد كنى بجمود العين عن بخلها بالدمع عند الحاجة إليه وطلبه منها لشدة
الحزن والأسى، فهي عين جمود أي: لا خير فيها، كما قالوا: سنة جماد. أي: لا مطر
فيها وناقعة جماد: لا لبن فيها، ولو كان الجمود يصلح أن يراد به عدم البكاء في حالة
الفرح والمسرّة، لجاز أن يدعى به للرجل فيقال: "لا زالت عينك جامدة"، كما يقال.
"لا أبكى الله عينك".

فالكلام الخالي من التعقيد المعنوي، ينتقل فيه الذهن من المعنى الأصلي إلى

(١) واسط: مكان بين البصرة والكوفة، سمي باسم القصر الذي بناه الحجاج بين الكوفة والبصرة ..
انظر لسان العرب مادة: وسط.. والبيت من قصيدة لأبي عطاء السندي في رثاء ابن هبيرة وقد قتله
المنصور بواسط بعد أن آمنه. انظر شرح الحماسة للتبريزي جـ ٢ ص ١٥١.

المعنى المجازي أو الكنائي المراد في وضوح ودون خفاء لظهور العلاقة بين المعنيين وجريان الاستعمال على لسان العرب، ووفق عاداتهم وعرفهم وطرائقهم في التعبير، كما في الكناية بكثرة الرماد، وجبن الكلب، وهزال الفصيل وإشعال النار في الأماكن العالية عن الكرم.

أما إذا جاء الكلام على خلاف ما عرف عن العرب، وعلى خلاف ما قد استعملوه وجرى على ألسنتهم، فعندئذ يصعب فهم المراد ويتعذر على الذهن الوقوف على مرمى الكلام والمقصود منه، فيوصف بالتعقيد المعنوي.

كما في بيت ابن الأحنف السابق وكما في بيت أبي تمام:

مِنَ الْهَيْفِ لَوْ أَنَّ الْخَلَّاحِلَ ضَيَّرَتْ لَهَا وَشَحَا جَالَتْ عَلَيْهَا الْخَلَّاحِلُ

فقد كنى عن دقة الحصر وضمور البطن، بجولان الخلاخل عليها لو اتخذتها وشاحاً فأخطأ وأساء، لأن جولان الخلاخل المتخذة وشاحاً، يدل على بلوغها غاية القصر، ولا يدل على الدقة والضمور، إذ الوشاح ما يضرب للمرأة من العاتق إلى الكشح، فالعلاقة بين المعنى الأصلي والمعنى المراد غير ظاهرة، وانتقال الذهن من المكنى به إلى المكنة عنه يشوبه كثير من الكدارة وعدم الصحة.

أما كثرة التكرار وتتابع الإضافات:

فلا يخلان بفصاحة الكلام، إلا إذا كانا ثقيلين في السمع واللسان، ولذا فهما

يرجعان إلى تنافر الكلام، فمن كثرة التكرار المستكره في الأذن، قول المتنبي:

وَتُسْعِلُنِي فِي غَمْرَةٍ بَعْدَ غَمْرَةٍ سَبُوحٌ لَهَا مِنْهَا عَلَيْهَا شَوَاهِدٌ^(١)

حيث كرر الضمير في: "لها منها عليها".

ومن تتابع الإضافات الثقيل على اللسان والأذن، قول ابن بابك:

حَمَامَةٌ جَرَعَا حَوْمَةَ الْجَنْدَلِ اسْجَعِي فَأَلَّتْ بِمَرَأَى مِنْ سُعَادٍ وَمَسْمَعٍ^(٢)

(١) الغمرة: الشدة. والسبوح: الفرس السريعة. والشواهد: العلامات.

(٢) جرعا: مؤنث الأجرع وهو المكان ذو الرمل لا يثبت شيئاً. وحومة الشيء: معظمه، والجندل:

الحجارة، واسجعي: غنى، وسجع الحمام: هديله.

فالأذن تنفر من كثرة الإضافات في: "حمامة جرعا حومة الجندل"، واللسان يتعثر ويستثقل النطق بها.

أما إذا لم تؤد كثرة التكرار ولا تتابع الإضافات إلى الثقل، فلا يخلان عندئذ بفصاحة الكلام، كما في قول الله عز وجل ﴿ ذَكَرْ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴾ [مریم ٢]، وقوله تعالى: ﴿ مِثْلَ دَابِّ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ ... ﴾ [عافر ٣١]، وقوله تعالى: ﴿ وَتَنَفَسِ وَا سَوْنَهَا ۖ فَالْهَمَّهَا جُورَهَا وَتَقْوَنَهَا ﴾ [الشمس ٧، ٨] وكما في قوله عليه الصلاة والسلام: "أَلْكَرِيمُ ابْنُ الْكَرِيمِ ابْنُ الْكَرِيمِ ابْنُ الْكَرِيمِ يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ"^(١)

فالأذن لا تحس ثقلًا واللسان لا يجد صعوبة نطق بها في الآيات الكريمة والحديث الشريف من كثرة التكرار وتتابع الإضافات ..

وكما في قول ابن المعتز:

وَوَظَلْتُ تُدِيرُ الرَّاحَ أَيَدِي جَاذِرٍ عَتَاقِ دَنَانِيرِ الْوُجُوهِ مِالِحٍ^(٢)
وقول الخالدي:

وَصَمِيرِي الْقَرِيضِ وَزَانُ دِيْبٍ نَارِ الْمَعَانِي الدَّقَاقِي مُتَقِدُ^(٣)

فالإضافات المتتابعة في البيت الأول: "عتاق دنانير الوجوه"، وفي البيت الثاني: "وزان دينار المعاني"، لا ثقل فيها على الأذن ولا صعوبة على اللسان في النطق بها.



(١) رواه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء رقم [١٩ / ٣٣٩٠].

(٢) الراح: الخمر، والجاذر: جمع جؤذر وهو ولد البقرة الوحشية وعتاق جمع عتيق بمعنى كريم، وإضافة دنانير إلى الوجوه من إضافة المشبه به إلى المشبه.

(٣) الصيرفي: المحتال في الأمور، والقريض: الشعر، والمتقد: الخبير بالتمييز بين جيد الأشياء وريديها.

فصاحة المتكلم

أما فصاحة المتكلم فهي ملكة تتكون لديه ويكتسبها بكثرة المران والتدريب وقراءة التعبيرات الجيدة والأساليب الرفيعة، وحفظ كثير من الشعر والنثر حفظاً دقيقاً واعياً متأملاً وقبل هذا وبعده حفظ كتاب الله عز وجل وحديث النبي ﷺ والتفقه فيها، وتتكون تلك الملكة يستطيع المتكلم أن يعبر عما يريد وعما يقصد بلفظ فصيح، ويوصف هذا المتكلم بالفصاحة فيقال له: متكلم فصيح.



بلاغة الكلام

ذكر البلاغيون المتقدمون في تعريف البلاغة أقوالاً متعددة منها قول معاوية لصحار العبدي ما البلاغة: فقال: البلاغة؟ الإيجاز، قال وما الإيجاز؟ فقال صحار: أن تجيب فلا تبطئ، وتقول فلا تخطئ^(١).

وسئل ابن المقفع ما البلاغة؟ فقال: البلاغة اسم جامع لمعانٍ تجري في وجوه كثيرة فمنها ما يكون في السكوت ومنها ما يكون في الاحتجاج، ومنها ما يكون جواً ومنها ما يكون ابتداءً، ومنها ما يكون شعراً، ومنها ما يكون سجعاً وخطباً، ومنها ما يكون رسائل، فعامه ما يكون من هذه الأبواب، الوحي فيها والإشارة إلى المعنى والإيجاز هو البلاغة، فأما الخطب بين السماطين، وفي إصلاح ذات البين، فالإكثار في غير خطل، والإطالة في غير إملا.

وليكن في صدر كلامك دليل على حاجتك، قيل فإن ملَّ السامع الإطالة التي ذكرت أنها حق ذلك الموقف، قال: إذا أعطيت كل مقام حقه، وقمت بالذي يجب من سياسة ذلك المقام وأرضيت من يعرف حقوق الكلام، فلا تهتم لما فاتك من رضا الحاسد والعدو، فإنهما لا يرضيهما شيء^(٢).

وقالوا: البلاغة لمحة دالة. والبلاغة معرفة الفصل والوصل. والبلاغة اختصار

(١) البيان والتبيين ١/ ٩٦.

(٢) نفس المصدر ١/ ١١٥.

الكلام وتصحيح الأقسام. والبلاغة إجاعة اللفظ وإشباع المعنى. والبلاغة كلمة تكشف عن البقية والبلاغة حسن العبارة وصحة الدلالة والبلاغة القدرة على البيان مع حسن النظام.

أما المتأخرون فقد عرفوا البلاغة تعريفاً يقرب مما ذكره ابن المقفع حيث قالوا: بلاغة الكلام هي مطابقتها لمقتضى الحال مع فصاحته.

والمراد بالحال: الأمر الداعي للمتكلم إلى أن يعتبر في كلامه خصوصية ما، ومقتضى الحال هو تلك الخصوصية التي اعتبرها المتكلم في كلامه، ومطابقة الكلام لمقتضى الحال: هي مجيء الكلام مشتملاً على تلك الخصوصية التي اقتضاها الحال، فمثلاً إذا كان هناك من ينكر قيام زيد، فهذا الإنكار حال يقتضي أن يؤكد المتكلم كلامه فيقول: إن زيداً لقائم، ومجيء الكلام مؤكداً هو مطابقتها لمقتضى الحال.

وإذا كان هناك إنسان عظيم نبه الشأن جليل القدر وأردت أن تتحدث عنه فإنك تقول: هذا هو الرجل، فعظم هذا الرجل ونباهة شأنه وجلالة قدره حال يقتضي تعريفه بالألف واللام، ومجيء الكلام معرفاً هو مطابقتها لمقتضى الحال.

وعلى العكس يقال للحقير: أهذا رجل؟ فالحقارة حال. والتنكير مقتضاه، ومجيء الكلام منكرًا هو مطابقتها لمقتضى الحال، وهكذا يختلف الكلام تبعاً لاختلاف الأحوال، فمقام التألم أو الخوف يقتضي الإيجاز، إذ المتألم تكفيه الكلمة، والخائف تغنيه الإشارة، ومقام الأناقة والتلذذ يقتضي الإطناب، لأن الأناقة يحتاج إلى الإسهاب وإطالة القول.

وبلاغة أن يأتي الكلام مطابقاً للحال التي يلقي فيها، وأن تتحقق فصاحة كلماته وتراكيبه، فإن طابق الكلام مقتضى الحال ولم يكن فصيحاً، لا يعد بليغاً، وكذا إن كان الكلام فصيحاً ولم يطابق مقتضى الحال، فليس من البلاغة.

هذا ويذكر البلاغيون أن البلاغة تتفاوت تبعاً لوفاء الكلام بخصائص تراكيبه ومقتضيات أحواله، فالرمانى يجعل البلاغة ثلاث طبقات: عليا ووسطى ودنيا.

فالعلياء هي بلاغة القرآن الكريم والوسطى والدنيا تتفاوت فيهما بلاغة البلغاء من البشر.

والقزويني يجعل للبلاغة طرفين أعلى إليه تنتهي وهو حد الإعجاز وما يقرب منه، وطرفاً أسفل منه تتدنى وهو ما إذا غير الكلام عنه إلى ما هو دونه التحق عند البلغاء بأصوات الحيوانات وإن كان صحيح الإعراب، وبين الطرفين مراتب كثيرة متفاوتة حسب تفاوت البلغاء في التعبير والوفاء بمقتضيات الأحوال.



بلاغة المتكلم

أما بلاغة المتكلم فهي ملكة يقتدر بها على تأليف كلام بليغ، وتلك الملكة تتكون لديه بكثرة المران والقراءة ومعايشة التراكمب الجيدة والتعبيرات الرفيعة وتأملها تأملاً واعياً وإدراكها إدراكاً تاماً، يضاف إلى هذا أن يكون ذلك المتكلم ذات طبع وذكاء يستطيع بهما الابتكار وتوليد المعاني، وعندئذ يستحق أن يوصف بالبلاغة، فيقال له: متكلم بليغ. وبهذا يتضح أن بلاغة المتكلم لا تختلف عن فصاحته.

هذا ولا تقع البلاغة وصفاً للكلمة المفردة - كما ذكرنا - إلا إذا أريد بالكلمة الكلام المركب، فتوصف بالبلاغة على هذا الاعتبار ويقال كلمة بليغة، لأن المراد بالكلمة عندئذ: الكلام المركب كالخطبة أو القصيدة أو الجملة أو الجمل، وليس المراد بها "اللفظ المفرد"، وقد أطلقت الكلمة على الكلام، كما في قوله تعالى: ﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون ١٠٠] حيث أطلقت الكلمة في الآية الكريمة على ثلاث جمل وهي: "رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ".

علم المعاني ومباحثه

عرف البلاغيون علم المعاني بقولهم: "هو علم يعرف به أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال".

و "اللفظ العربي" يشمل اللفظ المفرد واللفظ المركب أي الجملة وأجزاءها والجمل الملتقبة، فأحوال الجملة: الإسناد الخبري، والإنشاء وأسلوب القصر، وأحوال الجمل: الفصل والوصل والإيجاز والإطناب والمساواة، وأحوال أجزاء الجملة: أي المسند والمسند إليه ومتعلقات الفعل، كالتعريف والتنكير والحذف والذكر والتقديم والتأخير والإظهار والإضمار وغير ذلك.

فعلم المعاني يبحث في تلك الأحوال، وكيف تأتي مطابقة لمقتضى حال المخاطب، أي أنه يبحث في بناء الجملة العربية: صياغتها، اختيار أجزائها، علاقة الجمل المتتابعة بعضها ببعض، واختيار نوع الكلام الملائم لمقتضى حال المخاطب، خيرًا أو إنشاء، إيجازًا أو إطنابًا أو مساواة، ولذا فإن مباحثه تنحصر فيما يلي:

١- أحوال الإسناد الخبري.

٢- أحوال المسند إليه.

٣- أحوال المسند.

٤- أحوال متعلقات الفعل.

٥- أساليب القصر.

٦- أساليب الإنشاء.

٧- مواضع الفصل والوصل.

٨- الإيجاز والإطناب والمساواة.

وعلم النحو وإن كان قد تعرض لدراسة هذه الأحوال فدرس أحوال المسند إليه من حذف وذكر وتقديم وتأخير وتنكير وتعريف وكذا أحوال المسند والمتعلقات والحصر وغير ذلك.. إلا أن دراسته لها تختلف عن دراسة البلاغيين، فالنحوي يدرس هذه الأحوال من حيث الجواز والوجوب والامتناع. أي: من

حيث الحكم وإمكان الاستعمال. أما البلاغي فيدرس الأسرار الكامنة وراء هذه الأحوال، لأنه يتناولها من حيث كونها مطلبًا بلاغيًا يقتضيه المقام ويدعو إليه حال المخاطب.

الفرق بين الخبر والإنشاء

يتنوع الكلام إلى نوعين: خبر وإنشاء:

فالخبر هو الكلام الذي يحتمل الصدق والكذب لذاته، نحو قولنا: "جاء زيد"، فهذه الجملة أفادت نسبة المجيء إلى زيد والحكم به عليه، فإن وافق ذلك الواقع كان الخبر صادقًا ووصف الكلام بالصدق وإن خالفه كان الخبر كاذبًا ووصف الكلام بالكذب ...

وكذا قولنا "ما جاء زيد" أفاد نفي المجيء عن زيد، فإن وافق ذلك الواقع وصف الكلام بالصدق، وإن خالفه وصف بالكذب ..

وفي بعض الأحيان قد يوصف الخبر بالصدق فحسب، أو بالكذب فقط، ولكن هذا ليس لذات الكلام من حيث هو كلام خبري وإنما باعتبار أسباب أخرى خارجة عن نطاق الجملة تؤيد صدقه أو كذبه .. فأخبار القرآن الكريم لا تحتمل إلا الصدق باعتبارها كلام الله جل وعلا، وإن كانت تحتمل الصدق والكذب من حيث هي أخبار بصرف النظر عن قائلها .. وقول اليهود: عزيز ابن الله، وقول النصارى: المسيح ابن الله، كلام لا يحتمل إلا الكذب، لأن الواقع يكذبه ويطله، وإن كانت تحتمل الصدق والكذب من حيث هي أخبار.

فوصف الخبر بالصدق فقط أو بالكذب فقط، إنما هو باعتبار أسباب خارجة عن نطاق العبارات - كما قلت - وليس لذات الكلام من حيث هو كلام خبري، لذا كان هذا القيد في التعريف "لذاته" أي: لذات القول.

أما الإنشاء فالهدف منه والمقصد إيجاد الشيء وإنشاؤه ابتداءً ولذا عرفوه بأنه: قول لا يحتمل الصدق والكذب لذاته، وهذا لا يعني أنه ليس لمفهوم الكلام الإنشائي واقع يوافقه أو يخالفه، بل له واقع خارج نطاق العبارة، له واقع في ذهن المتكلم به، ولكن لا يقصد موافقة مفهوم الكلام الإنشائي لهذا الواقع الخارجي

الكائن في ذهن المتكلم أو عدم موافقته، بل القصد - كما قلت - إلى إيجاد الشيء وإنشائه ابتداءً: فقولك: حافظ على الصلاة، اقرأ القرآن. لا تقرب الفواحش. أين محمد؟. ليت الشباب يعود. يا خالد.. هذه أساليب إنشائية القصد منها إحداث الشيء وإيجاده ابتداءً، ولا يقصد وصفها بالصدق أو بالكذب، ولذا قالوا: الإنشاء قول لا يحتمل الصدق والكذب.

هذا وتفصيل القول في أساليب الإنشاء وأنواعه وما يكن وراءه من دقائق، وفي الخبر وأجزائه وأحواله وما يكمن في الصياغة والتراكيب من أسرار ودقائق ولطائف هو ما سنتناوله بالدراسة في فصول هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.



الفصل الأول

أحوال الإسناد الخبري

الكلمات المفردة مثل: محمد - زيد - ذهب - شكر - لا يفهم منها سوى معانيها اللغوية التي وضعت لها، ولكي تفيد معنى تامًا، لا بد من ترابطها وضم بعضها إلى بعض، وصياغتها في تراكيب مفيدة، ونظم معبر، هذا الترابط وذاك الضم، وتلك الصياغة، هي ما أطلق عليه البلاغيون اسم: "الإسناد" وعرفوه بقولهم: هو ضم كلمة إلى كلمة على وجه يفيد أن مفهوم إحداهما ثابت لمفهوم الأخرى أو منفي عنه، فقولنا: شكر محمد، ولم يذهب زيد، نجد أن كلمة "شكر" قد أسندت إلى كلمة "محمد" على وجه يفيد أن مفهوم "شكر" ثابت لمفهوم "محمد" ونجد في المثال الثاني أن كلمة: "يذهب" قد أسندت إلى كلمة "زيد" على وجه يفيد أن الذهاب منفي عن زيد.

ويسمى كل من: "محمد وزيد" مسندًا إليه أو محدثًا عنه، كما يسمى: "شكر ويذهب"، مسندًا أو حديثًا، وتسمى النسبة بين المسند إليه والمسند "إسنادًا" وكذا القول في الجمل: هداانا الله، الحق واضح، محمد فاضل، الفراغ مفسدة، الشمس ليست مشرقة، حيث أسندت الهداية إلى الله، والوضوح إلى الحق، والفضل إلى محمد، والفساد إلى الفراغ على وجه الإثبات، وأسند الإشراق إلى الشمس على وجه النفي، ولا يخفى عليك معرفة المسند والمسند إليه في الجمل المذكورة.

أغراض الخبر

عند ضم الكلمات وإسناد بعضها إلى بعض تتكون الجمل المفيدة أو الأخبار، والمتكلم الذي بصدد الإخبار والإعلام، يقصد بخبره غرضًا، ويسعى من وراء الإعلام به إلى غاية، وقد حصر البلاغيون أغراض الخبر في مقصدين أساسيين؛ حيث قالوا: إن قصد المخبر بخبره إما إفادة المخاطب أو السامع مضمون الخبر ونفس الحكم كقوله: جاء عمرو، وزيد ناجح لمن لا يعلم مجيء عمرو، ونجاح زيد، ويسمى هذا "فائدة الخبر" وهي المقصد الأول من الأسلوب الخبري.

وإما إفادة المخاطب أنه أي: المتكلم، عالم بالحكم وبمضمون الخبر الذي

يعلمه المخاطب، وذلك عندما يكون المخاطب عالماً بمضمون الخبر ولكنه يجهل معرفة المتكلم به، كقوله لمن ظهرت نتيجة اختباره ووقف على نبأ نجاحه: "أنت نجحت"، وكقوله لمن اسمه محمد: "اسمك محمد"، فالمخاطب يعلم نبأ نجاحه ولا يجهل اسمه، ولكن المتكلم يريد إفادته أنه هو الآخر عالم بالحكم وبمضمون الخبر، ويسمى هذا: "لازم الفائدة" وهو المقصد الثاني من الأسلوب الخبري.

ثم نبه البلاغيون، إلى أن الخبر غالباً ما يقصد به أغراض أخرى غير هذين الغرضين الأساسيين وأن تلك الأغراض الأخرى أكثر من أن تحصى، والمرجع في معرفتها إلى تفهم السياق وقرائن الأحوال اعتماداً على الذوق الأدبي السليم والطبع العربي الأصيل.

تأمل قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ ﴾ [آل عمران ٣٦].

تجد أن امرأة عمران لم ترد بالخبر فائدته ولا لازم الفائدة، لأن الله عز وجل أعلم بهذا، وإنما أرادت أن تظهر تحسرها وتحزنها على خيبة الرجاء حيث كانت ترجو وتقدر أن تلد ذكراً كي تبته لخدمة بيت المقدس.

ثم تأمل قوله تعالى ﴿ شَهْرَ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ [البقرة ١٨٥]. ولاحظ مدى الفرق بين الأخبار في هذه الآية الكريمة والخبر في الآية السابقة، فالأخبار في هذه الآية، أريد بها إعلام المؤمنين حكماً إسلامياً وخبراً جديداً لم يكن معلوماً لهم من قبل، وهذا ما سمي "بفائدة الخبر".

ومن هذا القبيل تلك الأخبار التي يكون الغرض منها عرض المسائل العلمية على الطلبة في قاعة الدراسة وفي الكتب العلمية المؤلفة في مختلف فنون العلم، وتعد إجابات الطلاب على ما يوجه إليهم من أسئلة أحياناً قصد بها "لازم الفائدة" إذ الغرض منها إفادة المعلم أنهم على علم بصحة الإجابة التي يعلمها.

ومن الأخبار التي لم يرد بها الفائدة ولا لازمها قوله تعالى حكاية عن زكريا عليه السلام: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاسْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾ [مريم ٤] إذ المراد إظهار الضعف والتخضع والخضوع لله عز وجل.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَفْرًا أُولَى الْأَصْرَارِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ۗ وَكُلًّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحَسَنَىٰ ۗ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء ٩٥].

فالمراد حث الهمم وتحريك حمية القاعد.

ومن ذلك إرادة الفخر كما في قول عمرو بن كلثوم:

إِذَا بَلَغَ الْفِطَامَ لَنَا رَضِيعٌ نَحْرُ لَهْ الْجَبَابِرِ سَاجِدِينَا

والنصح والإرشاد كما في قول زهير:

وَمَنْ يَكْ ذَا فَضْلٍ فَيَنْخَلُ بِفَضْلِهِ عَلَى قَوْمِهِ يُسْتَفْتَنَ عَنْهُ وَيُذَمُّ

والمدح كما في قول النابغة يمدح النعمان بن المنذر:

فَإِنَّكَ شَمْسٌ وَالْمُلُوكُ كَوَاكِبُ إِذَا طَاعَتْ لَمْ يَنْبُدْ مِنْهُنَّ كَوَاكِبُ

والهجاء كما في قول جرير يهجو الفرزدق:

رَعِمَ الْفَرَزْدَقُ أَنْ سَيَقْتُلُ مَرْبَعًا أَبَشِيرُ بِطُولِ سَلَامَةٍ يَا مِرْبَعُ

وإظهار الحزن والأسى كما في قول العرجي:

أَصْأَعُونِي وَأَيَّ فَتَى أَصْأَعُوا لِيَوْمِ كَرِيمَةٍ وَسَدَادِ نَعْرِ

والرثاء كما في قول أبي ذؤيب الهذلي:

أُودَى بَيْيٍّ وَأَعْقَبُونِي غُصَّةً بَعْدَ الرُّقَادِ وَعَظْبَةٍ لَا تُقْلَعُ

وكما في قول ابن الرومي:

طَوَاهُ الرَّدَى عَنِّي فَأَضْحَى مَرَاؤُهُ بَعِيدًا عَلَى قُرْبٍ قَرِيْبًا عَلَى بُعْدِ

وإظهار الضعف وإبداء الملل والسآمة كما في قول عوف بن محلم:

إِنَّ التَّمَازِينَ - وَبُلَّغَتْهَا - قَدْ أَخْوَجَتْ سَمْعِي إِلَى تَرْجَمَانِ

والتوبيخ والإنكار كقولك لمن يؤذي أباه: "إنما هو أبوك" إلى غير ذلك من

الأغراض التي نبه البلاغيون إلى أنها أكثر من أن تحصى^(١).

وجه دلالة الخبر على أغراضه

اختلفت آراء البلاغيين في وجه دلالة الخبر على أغراضه المذكورة فبعضهم يرى أن الغرض الأول وهو "فائدة الخبر" يفهم من ذات الخبر ويدل عليه دلالة حقيقية مباشرة، فعندما تقول لمن لا علم له بنجاح محمد: نجح محمد، فإنه يفهم مضمون الخبر وفائدته من ذات الجملة ونفس الإسناد.

أما بقية الأغراض فيدل عليها الخبر دلالة تبعية، فهي من مستتبعات التراكيب، ومعنى مستتبعات التراكيب أن تلك الأغراض تفهم من الخبر بمعرفة السياق ومعرفة قرائن الأحوال، فدلالة الآية الكريمة ﴿ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُ أُتَىٰ ﴾ على إظهار التحسر وإبداء التحزن، تم عن طريق معرفة السياق والوقوف على قرائن أحواله، من أن امرأة عمران قد وهبت ما في بطنها لخدمة بيت المقدس، وأنه قد خاب رجاؤها ولم يتحقق ما أملته عندما وضعت أثنى، وهكذا بقية الأغراض يدل عليها الخبر بمعونة السياق ومعرفة قرائن أحواله.

ويرى آخرون أن "فائدة الخبر" و"لازم الفائدة" قد دل عليها الخبر دلالة حقيقية حيث يفهمان من ذات الإسناد ونفس البناء وما عداهما دل عليه الخبر عن طريق الكناية، فكما دلت كثرة الرماد وهزال الفصيل وجبن الكلب على صفة الكرم، فكذلك الدلالة على الأغراض المذكورة: إظهار التحسر - إبداء الضعف - الفخر - المدح - الهجاء - الرثاء - قد فهمت من أخبارها في الشواهد المذكورة عن طريق الكناية.

ورأي ثالث يقول: إن هذه الأغراض التي خرجت عن الأصل من قبيل المجاز المرسل، حيث استعمل الكلام في معنى الفخر أو المدح أو التحسر أو تحريك الحمية مثلاً مجازاً مرسلًا مركبًا من استعمال المركب في غير ما وضع له لعلاقة اللزوم^(١).

ولا أرى فائدة ولا ثمرة وراء هذه الاختلافات في تحديد وجه دلالة الخبر،

(١) ارجع إلى هذه الآراء في شروح التلخيص ٤٧ / ١.

والذي أرجحه هو الرأي الأول، لأن المخاطب عندما يقف على السياق ويعرف قرائن أحواله تتضح له هذه الأغراض، فليس هنالك ما يدعو إذًا للقول بأن إفادتها عن طريق الكناية أو المجاز المرسل المركب.

أضرب الخبر

يعد المبرد أول من أشار إلى أضرب الخبر وذلك عندما سأله الفيلسوف الكندي قائلاً: أجد في كلام العرب حشواً، أراهم يقولون: عبد الله قائم، وإن عبد الله قائم، وإن عبد الله لقائم، والمعنى واحد، فأجابه المبرد قائلاً بل المعاني مختلفة، فعبد الله قائم إخبار عن قيامه، وإن عبد الله قائم: جواب عن سؤال سائل، وإن عبد الله لقائم جواب عن إنكار منكر.

وقد أفاد البلاغيون من إجابة المبرد، ونبهوا إلى ضرورة أن يكون المتكلم عالماً بأحوال المخاطبين، خبيراً بما في نفوسهم وما يجول في خواطرهم ويتردد في أذهانهم، وأن يلقي إليهم كلامه ملائماً لتلك الأحوال، فإذا كان المخاطب خالي الذهن ألقى إليه الكلام بدون تأكيد فيقال له مثلاً: الحق واضح. انتصر الحق. عاد الغائب، فيتمكن هذا في ذهنه لمصادفته إياه خالياً.

وإذا كان المخاطب متردداً في إسناد أحد الطرفين إلى الآخر ألقى إليه الكلام مؤكداً بمؤكد واحد استحساناً فيقال: إن الحق واضح. قد انتصر الحق، قد عاد الغائب.

ومؤكدات الحكم كثيرة منها: إن وأن ولام الابتداء والقسم ونون التوكيد وحروف التنبيه نحو ألا وهما، والحروف الزائدة وقد وضمير الفصل والتقديم إلى غير ذلك من المؤكدات.

وإذا كان المخاطب منكرًا للحكم وجب توكيد الخبر له حسب إنكاره فيقال له: إن الحق واضح، إن كان لا يبالغ في إنكاره، وإن الحق لو واضح إن كان يبالغ، ووالله إن الحق لو واضح لمن اشتد إنكاره وغالى فيه.

فأضرب الخبر ثلاثة: "ابتدائي" وهو ما يلقي للمخاطب الخالي الذهن، ويكون خالياً من التوكيد، و"طلبي" وهو ما يلقي للمخاطب المتردد في الحكم،

ويكون مصحوبًا بمؤكد واحد استحسانًا، و"إنكاري" وهو ما يلقى للمخاطب المنكر لمضمون الخبر، ويجب أن يكون الكلام حينئذ مصحوبًا بمؤكد أو أكثر حسب قوة الإنكار وضعفه.

انظر في قوله تعالى: ﴿ وَأَضْرَبْ لَهُمْ مَثَلًا مِّنْ أَصْحَابِ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ يس ١٣-١٦] تجد أن أصحاب القرية قد كذبوا الرسولين وأنكروا رسالتها فعزز الله بثالث فقالت الرسل الثلاثة: ﴿ إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ ﴾ مؤكداين الخبر لأصحاب القرية، لأنهم منكروا له، فلما اشتد إنكارهم وجحدهم لرسالتهم: ﴿ مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴾ قالت الرسل: ﴿ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾، مؤكداين الخبر بين واللام وصدروا الجملة بها هو في معنى القسم: "رَبُّنَا يَعْلَمُ".

وانظر في قوله: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر ٩] تجد أن المقام قد اقتضى تأكيد الخبرين بأكثر من مؤكد دفعا لإنكار المنكرين وتبديدا لارتباب وشك الشاكين فالكفرة قد أنكروا نزول القرآن وقالوا ساخرين: ﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿١٠﴾ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [الحجر ٦، ٧] واقتضى هذا الإنكار تأكيد الخبر - كما ترى - بيان وضمير الفصل "نحن" وتكرار الإسناد للضمير "نحن نزلنا". ولما كانت هناك شكوك محتملة أن يصيب القرآن ما أصاب التوراة والإنجيل من التحريف والتبديل، جاء الخبر الثاني مؤكداً بيان ولام التوكيد وتقديم الجار والمجرور "له" وهذا التأكيد يدفع تلك الشكوك المحتملة ويبث الطمأنينة في قلوب المؤمنين.

وخذ قوله تعالى ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ أَلْمَنَتِي ﴿١٠﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿١١﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿١٢﴾ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿١٣﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿١٤﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿١٥﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَعْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿١٦﴾ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ ﴿١٧﴾ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ وَنَمُودًا فَمَا أَبْقَىٰ ﴿١٩﴾ وَقَوْمِ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ وَأَطْفَىٰ ﴾ [النجم من

٤٢ إلى ٥٢]. وتأمل تجد أن ضمير الفصل "هو" قد جاء في بعض الآيات دون بعض، وأن الآيات التي جاء بها تحتاج إلى مزيد من تأكيد الخبر وتقوية نسبة أفعالها إلى الله عز وجل واختصاصها به، فالإضحاح والإبكاء - بمعنى السرور والحزن - والإحياء والإماتة والإغناء والإقناء - "أقنى": أعطى القنية وهو المال الذي تملكته وعزمت ألا تخرجه من يدك - هذه الأفعال لما كانت مظنة الشركة وأن لغير الله - سبحانه وتعالى - دخلاً وفاعلية فيها، وكان هناك من ينكر البعث، جاء ضمير الفصل ليؤكد نسبة هذه الأفعال إلى الله تعالى واختصاصها به وليبطل أن يكون لغيره دخل في شئون عباده، وليستأصل مظنة الشركة فيها فلا يتطلع المؤمن ولا ينظر إلا إلى مالك الملك رب السموات والأرض ورب العرش العظيم.

وكذلك "الشعري" لما كانت خزاعة تعبدها من دون الله، أكد النظم ربوبيتها له تعالى، وانظر إلى تقديم الجار والمجرور .. "إِلَى رَبِّكَ الْمُتَهَيِّئِ". "عَلَيْهِ التَّشَاءُ الأُخْرَى"، ليؤكد بهذا التقديم ما ينكره المعاندون من انقلابهم إليه تعالى وإحيائه لهم بعد مماتهم، ثم انظر إلى الأفعال التي جاءت بدون ضمير الوصل في الآيات ولاحظ أنها ليست موضع إنكار ولا مظنة شركة: "وأنه خلق الزوجين"، "وأنه أهلك عادًا". فهم لا ينكرون أن الله هو الخالق بل يقرون بذلك وينطقون بنسبة الخلق إليه تعالى: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مِّنْ خَلْقِهِمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف ٧٨] وإهلاك عاد وشمود وقوم نوح يعلمونه ويسمعونه من غير القرآن ولا ينكرونه فليس الخلق والإهلاك مما تظن فيه الشركة، ولذا خلت الآيتان من ضمير الفصل، وهكذا تجد نبرة التوكيد في الآيات تعلو وتهبط لتلائم مواقع المعاني في النفوس وما يكمن داخلها وسبحان المحيط بالأسرار^(١).

هذا ومجىء الخبر على هذه الأضرب الثلاثة وملائمًا لحال المخاطب، فيخلو من التأكيد عند إلقائه لخالي الذهن ويؤكد استحسانًا للمتردد ووجوبًا للمنكر، يسمى إخراجًا للكلام على مقتضى الظاهر، وكثيرًا ما يخرج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر فيأتي على أمور اعتبارية يعتبرها المتكلم في المخاطب فينزل حاله

(١) ارجع إلى خصائص التراكيب ص ٥٠.

منزلة حال أخرى ويكون ذلك لدواعٍ وأسرار بلاغية يقتضيها المقام.

إخراج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر

قد يقتضي المقام أن يفترض المتكلم حالاً في المخاطب غير حاله الحقيقية التي هو عليها، فينزل خالي الذهن منزلة المتردد أو المنكر، وينزل المنكر منزلة غير المنكر، وذلك لا يكون إلا لأسرار يلتفت إليها المتكلم ويعيها البصير بلطائف هذه اللغة ودقائقها، فعندما تكون الجمل المتقدمة في سياق الكلام متضمنة ما يشير إلى الخبر وَيُلَوِّحُ به ويومئ إليه فإنها تثير في النفس التلقية تساؤلاً يجعلها تتطلع وتستشرف إلى معرفة الخبر والوقوف عليه، وعندئذ تأتي جملة الخبر مؤكدة لتمحو وتزيل ما أثير في نفس المخاطب من تساؤلات واستشرافات منزلة إياه منزلة المتردد السائل، ويقع هذا غالباً إذا كانت الجمل السابقة تتضمن نصائح أو إرشاداً وتوجيهاً أو نهياً وأمرًا، أو حدثاً غريباً يستدعى وقوف النفس وتأملها.

انظر إلى قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِرَ بِكَ قَوْمُكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَتَّبِعِنَّ مِمَّا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَأَصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخْنِطِنَّ فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [هود ٣٦، ٣٧] تجد أن جملة: "إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ"، قد جاءت مؤكدة بأن، والمخاطب وهو نوح - عليه السلام - ليس متردداً في مضمون إفادتها وذلك لأنه لما تقدم في سياق الآيات الكريمة إخباره أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن، ونهيه عن أن يحزن لما صنعوا: "فَلَا تَتَّبِعِنَّ" ثم أمره بصنع الفلك ونهيه عن مخاطبة الله في شأن من أعرض وكفر، هذا الذي تقدم أثار في نفس نوح عليه السلام تساؤلاً عما سيحل بالقوم وتطلعت نفسه إلى معرفة الخبر، أهو إغراق؟ خاصة وأن الأمر بصنع الفلك يشير إليه إشارة ظاهرة؟ فنزل لهذا منزلة المتردد السائل وألقى إليه الخبر مؤكداً "إنهم مغرقون" ليجيب ما أثير في نفسه.

ومثله قوله تعالى ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة ٤٠] فتقدم النهي "لا تحزن" أثار في نفس أبي بكر رضي الله عنه تطلعاً وتشوقاً إلى معرفة الخبر، ولذا جاء مؤكداً: "إن الله معنا" تنزيلاً له منزلة السائل المتردد".

ومثل هذا كثير في أساليب القرآن الكريم تأمل قوله تعالى ﴿ سَخِلْفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتَعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَآئِنُهُمْ جَهَنْدٌ ﴾ [التوبة ٩٥] وقوله عز وجل: ﴿ قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنْ كُنْتُمْ كُونًا فَوَئًا فَيَسْقِينِ ﴾ [التوبة ٥٣] وقوله جل وعلا: ﴿ وَلَا تَصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَسِقُونَ ﴾ [التوبة ٨٤] وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء ٣٢] ولا يخفى عليك مجيء الخبر مؤكداً بعد الأوامر والنواهي في الآيات الكريمة، لأن الأمر أو النهي المتقدم أثار في نفس المخاطب تساؤلاً وتطلعاً إلى معرفة الخبر فنزل منزلة السائل المتردد.

وخذ قوله تعالى: ﴿ وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي ۚ إِنْ أَلْفُ نَفْسٍ لَأَمَارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ [يوسف ٥٣] تجد أن صدر الآية قد تضمن خبراً غريباً وهو اتهام المتكلم نفسه ونفي التبرئة عنها، والمتكلم وهو يوسف - عليه السلام - أو امرأة العزيز، على خلاف بين المفسرين، فعلى أنه يوسف، يكون نفي التبرئة عن نفسه أمراً غريباً يثير في النفس تساؤلاً واستشراقاً لمعرفة الخبر، إذ كيف لا يبرئ يوسف نفسه وهو التقي النقي؟ ولذا جاء الخبر مؤكداً "إن النفس لأماراة بالسوء" تنزيلاً للمخاطب خالي الذهن منزلة السائل المتردد، وعلى الرأي القائل بأن المتكلم امرأة العزيز فلا يخلو نفي التبرئة عن نفسها من إثارة التساؤل في نفس المخاطب، لأن اتهام النفس ونفي التبرئة عنها من الأمور المستبعدة.

ومن أشعارهم في هذا الصدد قول الرَّاجِز:

فَعَنَّتْهَا وَهِيَ لَكَ الْفُجْدَاءُ إِنْ غَنَاءَ الْإِبِلِ الْأَحْدَاءُ

فحينما قال الشاعر: غنها ليشند سيرها، استشرف السامع وتساءل: ما غناؤها أهو الحداء أم غيره؟ فجاء الخبر مؤكداً "إن غناء الإبل الحداء"، على خلاف مقتضى الظاهر بتنزيل خالي الذهن منزلة المتردد السائل ليزيل ما أثير في نفس السامع.

ومما يروى أن أبا عمرو بن العلاء وخلف الأحمر كانا يأتیان بشاراً، فيستمعان إليه ويكتبان عنه، وقد أتياه يوماً فقالا: ما هذه القصيدة التي أحدثتها في ابن قتيبة؟

قال هي ما بلغتكما. قالوا: بلغنا أنك أكثرت فيها من الغريب، قال: نعم إن ابن قتيبة يتباصر بالغريب فأحببت أن أورد عليه ما لا يعرف، قالوا: فأشددنا يا أبا معاذ، فأشدهما:

بَكَرًا صَاحِبِي قَبْلَ الْهَجِيرِ إِنَّ ذَاكَ النَّجَّاحَ فِي النَّبْكِيرِ

حتى فرغ منها، فقال له خلف: لو قلت يا أبا معاذ مكان "إن ذاك النجاح"، "بكرًا فالنجاح"، كان أحسن، فقال بشار: إنما بنيتها أعرابية وحشية، فقلت: "إن ذاك النجاح"، كما يقول الأعراب البدويون، ولو قلت: "بكرًا فالنجاح" كان هذا من كلام المولدين، ولا يشبه ذلك الكلام، ولا يدخل في معنى القصيدة، فقام خلف فقبل ما بين عينيه.

وإنما كان "بكرًا فالنجاح" من كلام المولدين، لأنه ليس فيه من دقة الإشارة إلى تنزيل غير المتردد منزلة السائل المتردد، ما في قوله: "إن ذاك النجاح"، ولكن فيه تكرير الأمر بالتبكير لتأكيده على وجه ظاهر ليس فيه دقة ذلك التأكيد الخفي، والمولدون يؤثرون السهولة على الدقة^(١).

وقد ينزل المنكر منزلة غير المنكر لعدم الاعتداد بإنكاره. لأنه لو فكر وتأمل لارتدع، وانتهى عن إنكاره، وأقلع عن جحوده وتكذبه.

انظر في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُمَّ إِنَّكَ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة ١٦٣] تجد أن الخطاب موجه إلى المشركين المعاندين الذين لا يقرون بالوحدانية لله تعالى، وكان مقتضى حالهم أن يلقي إليهم الكلام مؤكداً ولكنهم نزلوا منزلة غير المنكرين، لعدم الاعتداد بهذا الإنكار، لأنهم لو تأملوا وتدبروا لأقلعوا عن إنكارهم ولأقروا بما ينبغي لجلال سلطانه وعظيم شأنه.

وتأمل قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لَبِثُوا عَلَىٰ ظُهُمِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ ۗ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ۗ﴾ [الرعد ٣٠] تجد أن الخبر "هوري" قد وجه إلى هؤلاء المنكرين الذين

(١) انظر دلائل الإعجاز ص ١٧٧، ١٨٨.

كفروا بالرحمن، خاليًا من التأكيد، حيث لم يعتد بإنكارهم، وهذا يبنى بضعف عقولهم وقرب نظرهم، لأنهم لو تأملوا وفكروا ما أنكروا.

وخذ قوله تعالى: ﴿فَلِذَلِكَ فَادَعُ أَتَسْتَقِيمُ كَمَا أَمَرْتُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَأَمِنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأَمَرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ [الشورى ١٥] تجد أن الخبر "الله ربنا وربكم" مساق للكفرة الذين ينكرونه، وقد خلا من التوكيد إشارة إلى أنه مما ينبغي ألا يجحد وينكر، ومثل هذا كثير في النظم الكريم... انظر إلى الآيات الكريمة: ﴿المر﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١﴾ [البقرة ١، ٢] وقوله تعالى: ﴿حم﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١﴾ [غافر ١، ٢] وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ ﴿٢٨﴾ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ﴿[الفتح ٢٨، ٢٩].

نجد أن الخطاب فيها موجه إلى المؤمن والكافر، ولكنها لم تعباً بإنكار الكافر وتكذيبه رسالة محمد ﷺ، وتنزيل الكتاب، فألقت الخبر بلا تأكيد: "ذلك الكتاب لا ريب فيه" "تنزيل الكتاب من الله"، "محمد رسول الله..". تنبيهاً إلى أنه لو تأمل وتدبر لأقر بذلك ولم يجحد.

وتقول لمنكر الإسلام ولجاحد الصلاة ولمنكر وجود الله: الإسلام حق، الصلاة واجبة، الله موجود، فتنزله منزلة غير المنكر لعدم اعتدادك بإنكاره.

وانظر إلى قول الفرزدق مخاطبًا هشام بن عبد الملك حينما أنكروا معرفته لعلي بن الحسين.

هَذَا الَّذِي تَعْرِفُ الْبَطْحَاءُ وَطَائِفُهُ وَالنَّبِيَّتُ يَعْرِفُهُ وَالْحِجْلُ وَالْحَرَمُ
هَذَا ابْنُ خَيْرِ عِبَادِ اللَّهِ كُلِّهِمْ هَذَا النَّقِيُّ النَّقِيُّ الطَّاهِرُ الْعَلَمُ
هَذَا ابْنُ فَاطِمَةَ إِنْ كُنْتَ جَاهِلُهُ بِجَدِّهِ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ قَدْ حُتُّمُوا
وَلَيْسَ قَوْلُكَ مَن هَذَا بِضَائِرِهِ الْعُرْبُ تَعْرِفُ مَن أَنْكَرْتَ وَالْعَجَمُ

فلم يعتد الفرزدق بإنكار هشام وتجاهله "عليًا"، وألقى إليه الخبر مجردًا من التوكيد، تنزيلًا له منزلة غير المنكر، لأنه لو أنصف ما أنكروا وتجاهلوا، ولذا لم يعتد

الشاعر بهذا الإنكار، وفيه توبيخ وتبكيك لهشام حيث أنكّر أمراً معلوماً واضحاً ما كان ينبغي له أن ينكره.

وقد ينزل غير المنكر منزلة المنكر، إذ بدا عليه شيء من أمارات الإنكار، فيلقى إليه الخبر مؤكداً. انظر إلى قول الباهلي:

جَاءَ شَقِيقٌ عَارِضًا رَمَحَهُ إِنَّ بَنِيَّ عَمَّكَ فِيهِمْ رِمَاحُ

لما رأي شقيقاً قد جاء عارضاً رمحه أي: واضعه على عرضه وجاعله على فخذه، مدلاً بشجاعته، مفتخرًا بقوته، لم يعباً ببني عمه، وكأنهم عزل من السلاح، لما رآه الشاعر هكذا نزل منزلة المنكر الذي يجحد قوة بني عمه ولا يقر بما لديهم من عتاد وأسلحة، فخاطبه خطابه، وألقى إليه الخبر مؤكداً: "إن بني عمك فيهم رماح.." .

وخذ قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ۗ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَىٰ عَنْ صَلَاتِهِمْ ۗ إِنَّ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِفَآيَاتِنَا فَهُمْ يُسْمِعُونَ ۗ ﴾ [النمل ٨٠، ٨١] لما كان ﷺ شديد الحرص على هدايتهم، مجهداً نفسه في إبلاغهم ما أنزل إليه، متطلعاً إلى استجابتهم وقبولهم الحق وإقلاعهم عن الضلال والكفر، لما كان كذلك نزل منزلة من يعتقد أنه يستطيع إسراع الصم وهداية العمى وينكر عدم قدرته على إسماهم وهدايتهم فألقى إليه الخبر مؤكداً: "إنك لا تسمع الموتى" ..

وتأمل قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [الأعراف ١٥٣]، تجد أن الذين تابوا وآمنوا لا ينكرون مغفرة الله ورحمته، ولكنهم لما كانوا قد ارتكبوا السيئات واقتروا الذنوب والآثام صاروا في خوف من عقاب الله، وكلما تذكروا ما اقتروا اقشعرت جلودهم وتذكروا عذاب الله، فنزلت حالتهم هذه وما هم فيه من خوف وقلق وعدم أمن، منزلة من ينكر رحمة الله ومغفرته، وألقى إليهم الخبر مؤكداً: "إن ربك من بعدها لغفور رحيم" طمأنة لهم وتثبيتاً..

ومن ذلك قوله تعالى ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر ٩]، فقد

أكد الخبر الأول "إنا نحن نزلنا الذكر" دفعًا لإنكار المنكرين - كما مر بنا - وأكد الخبر الثاني: "وإنا له لحافظون" بثًا للطمأنينة في قلوب المؤمنين الذي رأوا ما أصاب الكتب السابقة كالتوراة والإنجيل من تحريف وتبديل، فخافوا أن يصيب القرآن ما أصاب هذه الكتب وتطلعوا إلى حفظه من التحريف وجل القلق على القرآن في نفوسهم، ولذا خوطبوا بخطاب المنكر فأكد لهم الخبر على خلاف مقتضى الظاهر، تنبيهاً لهم.

وتأمل قول أبي العتاهية:

تَرْجُو النَّجَاةَ وَلَمْ تَسْأَلْهَا مَسَالِكَهَا إِنَّ السَّفِينَةَ لَا تَجْرِي عَلَى الْبَيْسِ

فلما كان المخاطب يطلب النجاة ولم يأخذ بأسبابها ولم يسلك طرقها نزل منزلة من يعتقد أن السفينة تجري على اليبس وينكر عدم جريانها عليه، فأكد له الخبر: "إن السفينة لا تجري على اليبس".

وانظر في قوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ ﴿١٤، ١٦﴾ [المؤمنون] تجده قد أكد الخبر الأول بمؤكدين وهو مما لا ينكر، وأكد الثاني بمؤكد واحد وهو مما ينكر ويدفع، حيث أنكر الكفرة البعث ولم ينكروا الموت، ويعلل ذلك القزويني بقوله: "أكد إثبات الموت تأكيدين وإن كان مما لا ينكر، لتنزيل المخاطبين منزلة من يبالي في إنكار الموت، لتهاديهم في الغفلة والإعراض عن العمل لما بعده، ولهذا قيل "ميتون" دون تموتون، لإفادة الثبوت والدوام وأكد إثبات البعث تأكيداً واحداً وإن كان مما ينكر، لأنه لما كانت أدلته ظاهرة كان جديراً بالألأ ينكر، بل إما أن يعترف به أو يتردد فيه، فنزل المخاطبون منزلة المترددين تنبيهاً لهم على ظهور أدلته وحثاً على النظر فيها ولذا جاء "تبعثون" على الأصل" (١).

(١) الإيضاح ٥١/١ .. لتنزيل غير المنكر منزلة المنكر في الآية الكريمة: "ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ" ثلاثة دواعٍ بلاغية ذكر الخطيب واحداً منها وهو: التادي في الغفلة، وثانيتها: استبعاد النفس البشرية أن يميت الله تعالى خلقاً خلقه بهذا الإبداع الذي أفصح عنه السياق الكريم، وثالثتها: كراهة النفس البشرية للموت وحبها للحياة .. لهذه الدواعي نزل غير المنكرين للموت منزلة المنكرين له.

وتقول للمسلم الذي يهمل الصلاة ولا يدفع زكاة ماله، وللابن الذي يؤدي أباه: إن الصلاة لواجبة، وإن الزكاة لحق للفقير .. وإنما هو أبوك، فتنزله منزلة المنكر وتجري الكلام على خلاف ظاهر حاله لعدم جريه على وفق ما يعلم.



هذا وحال المخاطب ليست دائماً هي المعول الذي يعول عليه في تأكيد الخبر أو عدم تأكيده، فقد يؤكد الخبر دون نظر إلى أحوال المخاطب، بل لدواعٍ أخرى بعيدة عن تلك الأحوال، كما قد يترك توكيده دون أن يكون لحال المخاطب دخل في ترك التوكيد .. انظر إلى قول الفرزدق يخاطب جريراً:

خَالِي الَّذِي غَضَبَ الْمُلُوكَ نَفُوسَهُمْ وَإِلَيْهِ كَانَ جِبَاءُ جَفَنَةٍ يُنْقَلُ
إِنَّمَا لَنْضْرِبُ رَأْسَ كُلِّ قَيْلِيَةٍ وَأَبُوكَ خَلْفَ أَتَانِهِ يَتَقَمَّلُ

لا يتأتى أن يقال: إن الشاعر أكد الخبر في قوله: "إننا لنضرب"، لأنه يخاطب من ينكر عليهم هذا الضرب، أو من قد نزل هذه المنزلة إذ كيف يتصور الشاعر أن هناك من ينكر ذلك وهو يمدح ويفخر بالشجاعة وشدة الفتك، إن مجرد جريان مثل هذا في ذهنه وخياله يناقض المعنى الذي أراد إثباته ..

كما أنه لا يقال إن جريراً غير منكر للخبر الثاني "وأبوك خلف أتانه" بل هو ينكره أشد الإنكار، ومع ذلك ألقاه إليه الفرزدق خالياً من التوكيد، فحال المخاطب في البيت لا يعول عليها في تأكيد الخبر الأول، ولا في ترك تأكيد الخبر الثاني.. فما المعول عليه إذًا؟

المعول عليه هو حال التكلم نفسه، حيث نظر المتكلم إلى حال نفسه ومدى انفعاله بالحقائق التي يصورها، وحرصه على إذاعتها ونقلها إلى النفوس كما أحسها، فقد صاغ الخبر الأول، كما أحسه مؤكداً مقررًا وصاغ الثاني عاريًا من التوكيد ليوهم أنها حقيقة لا ينبغي لجرير أن ينكرها..

ونظير ذلك قول ابن الرومي في رثاء ابنه:

وإِنِّي وَإِنْ مُتُّعْتُ بِبَابِنِّي بَعْدَهُ لَدَاكِرُهُ مَا حَنَّتِ النَّيْبُ فِي نَجْدِ

وقول نهشل المازني:

إِنَّمَا لِمَنْ مَعْتَبِرٍ أَفْتِي أَوْ إِنْ لَمْ يَكُنْ مَعْتَبِرًا
قِيلَ الْكُفَاةُ أَلَا أَيْسَرُ الْمُخَاوِنَا

وقول أبي نخيلة في مدح مسلمة بن عبد الملك:

أَمْ سَلِمَ إِيَّيَ يَا ابْنَ كُلِّ خَلِيقَةٍ وَوَجَبَلَ الدُّنْيَا وَوَاوَجَدَ الْأَرْضِي
شَكَرْتُكَ إِنْ الشُّكْرَ حَبْلٌ مِنَ التَّقَى وَمَا كُلُّ مَنْ أَوْلَيْتَهُ صَالِحًا يَقْضِي
وَأْتَيْتَ لِي ذِكْرِي وَمَا كَانَ خَامِلًا وَلَكِنَّ بَعْضَ الذِّكْرِ أَتَيْتَهُ مِنْ بَعْضِي

وقول مضر بن ربيع:

لَعَمْرُكَ إِيَّيَ بِالْخَلِيلِ الَّذِي لَهُ عَلَى دَلَالٍ وَاجِبٌ لَمْ فَجَّعُ
وَإِيَّيَ بِالْمَوْلَى الَّذِي لَيْسَ نَافِعِي وَلَا ضَارِي فُقَدَائِهِ لَمْ مَنَعَ

ففي مثل هذه الأبيات لم ينظر في تأكيد الخبر إلى حال مخاطب قد أنكر الحكم، وإنما أراد الشعراء أن يبرزوا أحوال أنفسهم وأن ينقلوا للسامع ما جال في خواطرهم، فصاغوا هذه الأخبار كما شعروا بها وأحسوها مقررّة مؤكدة.

وهذا كثير في النظم القرآني، انظر إلى قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم ٣٧]، لقد جرى الخبر على لسان إبراهيم - عليه السلام - مؤكداً كما أحسه، وكما انفعلت به نفسه، ولم ينظر في صياغته إلى اعتبارات خارجية يلحظها عند المخاطب .. ومثله قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نَخْفَى وَمَا تَعْلَمُ مَا نَعْلَمُ وَمَا نَحْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم ٣٨]، وقوله عز وجل: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [آل عمران ٩]، وقول جل وعلا: ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا﴾ [آل عمران ١٩٣]،

وانظر في قوله تبارك وتعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُتَنَفِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُتَنَفِقِينَ لَكَذِبُونَ﴾ [المنافقون ١] تجد أن المنافقين قد أكدوا الخبر: "إنك لرسول الله" ليفيدوا أنه قد امتلأت به نفوسهم وأن هذه الشهادة صادرة عن صميم قلوبهم ولما كان قولهم هذا من غير اعتقاد، فقد جاء

تأكيد الخبرين: "إنك لرسوله"، "إن المنافقين لكاذبون" ليفيد أن ما قرروه وأكده عن غير اعتقاد، سيبقى مؤكداً قوياً في علم الله وفي اعتقاد المؤمن، وليبرز كذبهم بنفس القوة والتأكيد الذي أكدوا به شهادتهم عن غير اعتقاد، وفي هذا توييح وتقريع لهؤلاء المنافقين...

وتأمل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَأَمْنَا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَءُونَ ﴿١٤﴾﴾ [البقرة ١٤] نجد أن إلقاء الخبر إلى الذين آمنوا قد جاء بلا تأكيد: "أما" وهذا يدل على أن نفوسهم غير ممتلئة به وأنه لم يصدر عن أريحية وصدق رغبة واعتقاد، أما إلقاؤه إلى شياطينهم فقد جاء مؤكداً: "إننا معكم إنما نحن مستهزءون" وهذا ينبئ أن نفوسهم قد امتلأت بهذا القول وأنهم يقولونه عن صدق رغبة واعتقاد، ويمجدون فيه أريحية لا يجدونها في القول الأول ..

هذا وكما يكون داعي التوكيد هو رغبة المتكلم في إبراز الخبر مؤكداً كما أحسه وانفعل به وامتلأت به نفسه، فقد يكون داعي التوكيد هو الرغبة في تحقيق الوعد أو الوعيد كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنبياء ٣٨]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنَّا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنبياء ١٠١]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴿٨﴾﴾ [الزمر ٨] وقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبٌ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَرِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأنبياء ٩٨].

وقد يكون داعي التوكيد هو رغبة المتكلم في تقوية مضمون الكلام وتقديره في نفس المخاطب كما في الآيات الكريمة: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴿٧٩﴾﴾ [النمل ٧٩]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الإنسان ٢٣]، وقوله تعالى: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾﴾ [طه ١٤]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩٢﴾﴾ [الشعراء ١٩٢]، [١٩١].

وقد يكون التوكيد لغرابة الخبر كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِهَا

الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمْوَسَىٰ إِنِّي - أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿
[القصص ٣٠].

وقد يأتي التوكيد للإشارة إلى مجيء الخبر على غير ما كان يرجو المتكلم ويأمل،
وكأن نفس المتكلم تنكره فيؤكد لها، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ
إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ ﴾ [آل عمران ٣٦] وقوله عز وجل: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذُوبُونَ ﴿١١٧﴾
﴿ الشعراء ١١٧، ١١٨ ﴾ [الشعراء ١١٧، ١١٨] إلى غير ذلك من الدواعي والأسباب التي تقتضي تأكيد الخبر^(١).



التجوز في الإسناد

الإسناد - كما تقدم - معناه: بناء الجملة أو تكوين العبارة أو ضم الكلمة إلى
الكلمة ليتكون نظم معبر وكلام مفيد وتركيب جيد، وهذا الإسناد لا يجري دائماً
على أسلوب الحقيقة، بل قد يتم عن طريق المجاز بمعنى أن يتجوز المتكلم في بناء
جملة أو تكوين عباراته وقد يتم عن طريق الحقيقة، فمن الأبنية الحقيقية قولك: جاء
محمد - ضرب زيد عمرًا - ربح علي في تجارته - حينما نساءنا - حيث تجد الفعل قد
أسند إلى فاعله الحقيقي الذي فعله وقام به.

وانظر إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي
الْأَرْحَامِ ﴾ [لقمان ٣٤] وقوله عز وجل: ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ
وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ ﴾ [آل عمران ٢٦]
تجد أن الأفعال ينزل، يعلم، تؤتي، تنزع، تعز، تذلل، قد أسندت إلى فاعلها الحقيقي
وهي "الله تعالى".

ومن الأبنية المجازية قولك ربحت التجارة، حمت السيوف النساء، سار
الطريق، جرى النهر، أذل الحرص أعناق الرجال، تخطفهم الطريق، جمعهم الطاعة
وفرقتهم المعصية، حيث أسندت الأفعال كما ترى إلى غير فاعلها الحقيقي، فالتجارة

(١) ارجع إلى خصائص التراكيب ص ٥٧ وما بعدها.

لا تفعل الريح والسيوف لا تفعل الحماية والطريق لا يسير ولا يتخطف والنهر لا يجري والحرص لا يفعل الإذلال والطاعة لا تفعل الجمع والمعصية لا تفعل التفريق ولذا كان الإسناد في هذه الأمثلة إسنادًا مجازيًا.

وانظر في قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿٦٧﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٦٨﴾ ﴾ [القارعة ٦٦، ٧] وقوله عز وجل: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبَحَتْ يُحَرِّثُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ [البقرة ١٦٦]. تلاحظ أنه قد أسندت كلمة "راضية" اسم فاعل إلى ضمير العيشة، والعيشة تكون مرضية لا راضية، وأسند الريح إلى التجارة والرياح هو صاحبها وليست هي، فالإسناد في الآيتين الكريمتين إسناد مجازي.

ويزعم بعض الباحثين أن المجاز العقلي من ابتكارات الإمام عبد القاهر الجرجاني، ولكن عندما ترجع إلى أصول البلاغة في التراث العربي لدى الدارسين الأوائل، تراهم قد اهتموا بدراسة هذا الأسلوب وأشاروا إليه كما أشاروا إلى غيره من مسائل البلاغة وفنونها، وإن لم يسموه بهذه التسمية فقد أشار إليه سيبويه عند حديثه عن بيت الخنساء:

تَرَنَّغُ مَا غَفَلْتُ حَتَّىٰ إِذَا اذْكَرْتُ فَإِنَّمَا هِيَ إِقْبَالٌ وَإِدْبَارُ
إذ يقول: "فَجَعَلُهَا الإِقْبَالَ والإِدْبَارَ مجاز على سعة الكلام كقولك: نهارك صائم وليلك قائم"^(١).

وتحدث عنه أبو عبيدة في كتابه مجاز القرآن في أكثر من موضع، إذ يقول عن الآية الكريمة ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴾ [القارعة ٧].. "وإنما يرضى بها الذي يعيش فيها"^(٢).

ويقول عن الآية: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنُومًا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ [النمل ٨٦] "مجازه مجاز ما كان العمل والفعل فيه لغيره أي: يبصر فيه، ألا ترى أن البصر

(١) الكتاب ١/ ١٦٩.

(٢) مجاز القرآن ١/ ٢٧٩.

إنها هو في النهار، والنهار لا يبصر كما أن النوم في الليل، ولا ينام الليل، فإذا نيم فيه قالوا: ليله نائم ونهاره صائم.

قال جرير:

لَقَدْ لُمْتِنَا يَا أُمَّ غَيْلَانَ فِي السُّرَى فَنِمْتِ وَمَسَائِلُ الْمَطِيِّ بِنَائِمٍ^(١)

وينمو الحديث عن أسلوب المجاز العقلي عند الفراء، إذ أشار إليه في الآيات الكريمة:

﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَجِعَ﴾ [هود ٤٣]، ﴿خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ [الطارق

٦]، ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ [الفارعة ٧] وفي قول الحطينة:

دَعِ الْمَكَارِمَ لَا تَرَحَّلْ لِيُبْغِيَهَا وَأَفْعُذْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الْكَاسِي

فالمعنى: لا معصوم اليوم من أمر الله، خلق من ماء مدفوق، فهو في عيشة مرضية، واقعد فإنك أنت المطعوم المكسو^(٢).

كما تحدث عنه في قوله تعالى: ﴿فَمَا رَیَحَتْ تَجْرَتُهُمْ﴾ [البقرة ١٦] إذ يقول:

"ربما قال قائل: كيف تريح التجارة وإنما يريح الرجل التاجر؟ وذلك من كلام العرب: ربح بيعك وخسر بيعك، فحسن القول بذلك، لأن الربح والخسران إنما يكونان في التجارة، فعلم معناه، ومثله من كلام العرب: هذا ليل نائم، ومثله من كتاب الله ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأُمُورُ﴾ [محمد ٢١]، وإنما العزيمة للرجال^(٣).

فهنا نراه يضيف جديداً إلى دراسة هذا اللون وهو أن يكون المخاطب عالماً بموضع التجوز عارفاً الإسناد الحقيقي الذي عدل عنه، وهذا يتم عن طريق السياق وقرائن الأحوال، فلو قلت: خسر عبدك، على أن العبد تجارة يقع فيها الربح والخسارة، لا يعلم أنك متجوز في الإسناد إلا إذا أقمت قرينة دالة، كأن تقول ربحت أغنامك وإبلك وخسر برك^(٤) ورقيقك، وذلك لأن العبد قد يكون تاجراً وهذه إشارة دقيقة من الفراء.

(١) مجاز القرآن ٩٦/٢.

(٢) انظر معاني القرآن ١٥/٢، ١٦.

(٣) معاني القرآن ١٤/١.

(٤) البر: الثياب، ويقال لبائع الثياب: بَرَّازٌ.

وتحدث الجاحظ عن المجاز العقلي إذ يقول: "وسمع الحسن رجلاً يقول: طلع سهيل وبرد الليل، فكره ذلك وقال: إن سهيلاً لم يأت بحر ولا ببرد قط، ولهذا الكلام مجاز ومذهب، وقد كرهه الحسن كما ترى، وكره مالك بن أنس أن يقول الرجل للغيم والسحابة: ما أخلقها للمطر! وهذا كلام مجازه قائم وقد كرهه ابن أنس، كأنهم من خوفهم عليهم العود في شيء من أمر الجاهلية، احتاطوا في أمورهم، فمنعوهم من الكلام الذي فيه أدنى تعلق"^(١).

فالجاحظ هنا يشير إلى وجود أسلوب المجاز العقلي في اللغة، كما يشير إلى كفر من يعتقد أنه أمطر بنوء كذا، فالؤمن يعتقد أنه يمطر بأمر الله -تعالى- لا بطلوع كوكب.. ويشير أيضًا إلى قضية خلق الأفعال التي شغلت المسلمين في عصره، فالمعتزلة اعتقدوا أن العبد يخلق أفعاله الاختيارية، وأهل السنة يعتقدون أن الأفعال كلها مخلوقة لله، وليس هذا موضع مناقشة تلك الأمور الاعتقادية، ولكن ينبغي أن تعلم أن قولك: قام زيد، ليس مجازًا عقليًا، بل هو حقيقة، وزيد فاعل للقيام بتأثير الله عز وجل فيه، وفرق بين الخلق بمعنى: الإيجاد والتأثير والخلق بمعنى القيام بالفعل بأمر الله، بمعنى: أن العرب إنما وضعت "قام" لفعل العبد الواقع بخلق الله تعالى، فالقيام معنى قائم بزيد، ووصف له، وله فيه كسب وتحصيل، وهذا يكفي ليكون الإسناد حقيقيًا".

فالإسناد الحقيقي ثلاثة أقسام:

- ١- ما يراد وقوعه من فاعله حقيقة بمعنى التأثير، وذلك يختص بالله تعالى كقولنا: خلق الله ورزق وأعطى وأحيا وأمات.
- ٢- ما يراد وقوعه حكمًا مثل: قام زيد وذهب عمرو.
- ٣- ما يراد به مجرد الاتصاف مثل: مرض زيد، وبرد الماء^(٢).

(١) الخيوان ١/ ٣٤١.

(٢) شروح التلخيص ١/ ٣٢٨.

وهكذا نرى العلماء قد شغلوا بأمر المجاز العقلي وبوجوده في اللغة، فنرى ابن قتيبة يتحدث عنه ويذكر شواهدة في معرض حديثه عن المجاز ووجوده في القرآن الكريم وتفنيد مطاعن الطاعنين إذ يقول: "وأما الطاعنون على القرآن بالمجاز، فإنهم زعموا أن المجاز كذب، لأن الجدار لا يريد والقرية لا تسأل، وهذا من أشنع جهالاتهم، وأدلها على سوء نظرهم وقلة إفهامهم ولو كان المجاز كذباً، وكل فعل ينسب إلى غير الحيوان باطلاً، كان أكثر كلامنا فاسداً. لأننا نقول: نبت البقل وطالت الشجرة وأينعت الثمرة وأقام الجبل ورخص السعر. والله تعالى يقول: ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ﴾ [محمد ٢١] وإنما يعزم عليه، ويقول تعالى ﴿فَمَا زَبَحَتْ يُجْرَتُهُمْ﴾ [البقرة ١٦] وإنما يربح فيها، ويقول: ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ [يوسف ١٨]، وإنما كذب به..."^(١).

ويقول المبرد في قول الشاعر:

خَلَّتْ بِهِ فِي لَيْلَةٍ مَزْوُودَةٌ كُرْهًا وَعَقْدُ نِظَافَتِهَا لَمْ يُخَالِلِ

"مزءودة: ذات زؤد وهو الفزع، فمن نصب "مزءودة"، فإننا أراد المرأة، ومن خفض فإننا أراد الليلة، وجعل الليلة ذات فزع لأنه يفزع فيها. قال الله تعالى ﴿بَلْ مَكْرَ الْبَيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [سبأ ٣٣]، والمعنى: بل مكركم في الليل والنهار..."^(٢).

وكذا تحدث عنه ابن فارس وابن جنى وعبد الجبار وغيرهم وأشاروا إلى شواهده وأمثلة في اللغة.... ولما جاء عبد القاهر لحل هذه الشواهد وفصل القول فيه ووضع له تلك التسمية "المجاز العقلي" أو "المجاز الحكمي" وفرق بينه وبين المجاز اللغوي، وشأن عبد القاهر في حديثه عن أسلوب المجاز العقلي، شأنه في تناوله لغيره من فنون البلاغة ومسائلهما، فهو يتأثر بمن سبقه ويمتاز بالتحليل وعرض الشواهد وتفصيل القول، فمن الخطأ أن يقال: إن عبد القاهر هو الذي ابتكر هذا المجاز - ولعل القائل بهذا وهو يغالي ويسرف في إثبات مدى تأثر عبد

(١) تأويل مشكل القرآن ٩٩، ١٠٠.

(٢) الكامل ١/٧٩.

القاهر بأرسطو فيما يعرض من مسائل البلاغة - لعله لما لم يجد أرسطو قد تحدث عن المجاز العقلي، جعله من اختراعات عبد القاهر وابتكاره^(١).

هذا ويطلق البلاغيون على المجاز العقلي تسميات كثيرة منها "المجاز في الإسناد" لكثرة وروده في النسب الإسنادية على نحو ما سترى، ومنها "مجاز الملابس" ليشمل النسب الإسنادية وغيرها، ومنها "المجاز الحكمي" نسبة إلى حكم العقل، أو إلى الحكم الذي هو النسبة بين المسند والمسند إليه ومنها "المجاز النسبي" لوقوعه في النسبة كما قلنا. ويسميه بعضهم بالمجاز في الإثبات، وبعضهم بالمجاز في الجملة وآخرون بالمجاز التركيبي، وأشهر هذه التسميات: "المجاز العقلي" لرجوعه إلى تصرف العقل وحكمه.

الحقيقة العقلية

وقد اعتاد البلاغيون أن يتحدثوا عن الإسناد الحقيقي قبل أن يتناولوا هذا المجاز، لأن معرفته تنبني على معرفة الحقيقة العقلية والإحاطة بها. يقول الخطيب في تعريفه للحقيقة العقلية: "هي إسناد الفعل أو ما في معناه إلى ما هو له عند المتكلم في الظاهر"^(٢).

وما في معنى الفعل يشمل اسم الفاعل واسم المفعول والصفة المشبهة واسم التفضيل والمصدر، فإنها تدل على الحدث مجردًا من الزمن، أما الفعل فإنه يدل على الحدث المقترن بالزمن، ولذا كانت الأسماء المذكورة فيها معنى الفعل حيث تدل على الحدث وهو جزء من معنى الفعل، ولا تدل على الزمن وهو جزء آخر من معنى الفعل.

وقوله "إلى ما هو له" يعني أن تسند الفعل أو ما في معناه إلى فاعله الذي هو له وفعله حقيقة أو حكمًا كقولك: خلق الله الخلق وأحيا الأرض وأبدع السموات، فالله هو الفاعل الحقيقي لهذه الأفعال، هو المؤثر في إيجادها، وكقولك: قام زيد

(١) مقدمة نقد النشر ٢٩.

(٢) الإيضاح ١/٥٤.

وذهب عمرو ومرض خالد وبرد الماء، فزيد وعمرو فاعلان للفعلين المذكورين حكماً بمعنى أن لهما كسباً وتحصيلاً فيهما، وهذا يكفي لأن يكون الإسناد حقيقياً "وخالد والماء" قد اتصف كل منهما بالفعل الذي أسند إليه وهذا أيضاً كافٍ لكون الإسناد حقيقياً.

فالفاعل إما أن يكون هو الذي فعل الفعل حقيقة وأثر في إيجادته وذلك لا يكون إلا لفاعل واحد هو الله سبحانه وتعالى، وإما أن يكون فاعلاً للفعل حكماً بمعنى أن يقوم به بأمر الله وتأثيره فيه ويكون له فيه كسب وتحصيل، وإما أن يكون متصفاً بالفعل، وفي كل ذلك يكون الإسناد حقيقياً كما في الأمثلة.

وقوله: "عند المتكلم في الظاهر": قيد في التعريف يفيد أن المعول عليه في الإسناد هو اعتقاد المتكلم وما يبدو للمخاطب من ظاهر حاله، وبهذا يدخل في الحقيقة العقلية الأقوال التي تطابق الاعتقاد دون الواقع، والأقوال الكاذبة التي لا تطابق الواقع ولا الاعتقاد، كما يدخل فيها ما طابق الواقع والاعتقاد معاً، وما طابق الواقع دون الاعتقاد، فالحقيقة العقلية أربعة أقسام.

الأول: ما طابق فيه الإسناد الواقع والاعتقاد معاً، كقول المؤمن: شفى الله المريض... أنبت الله النبات، فشفاء المريض وإنبات النبات لله تعالى في الواقع وهما كذلك في اعتقاد المتكلم المؤمن.

الثاني: ما طابق فيه الإسناد اعتقاد المتكلم وخالف الواقع كقول الجاهل شفى الطبيب المريض... وأنبت الربيع النبات فاعتقاد الجاهل أن شفاء المريض من الطبيب وأن إنبات النبات من الربيع ولكن الواقع يخالف ذلك ويناقضه إذ الشفاء من الله والطبيب سبب له، والإنبات من الله تعالى والربيع ظرف له وزمان يقع فيه.

ومن ذلك قوله تعالى حكاية عن الدهريين ﴿ وَمَا يُلْكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾ [الجاثية ٢٤]، فالدهري يعتقد أن الدهر هو الفاعل وهو الذي يهلك وهذا اعتقاد باطل لأن الواقع يدفعه والمؤمن عندما يسند الأفعال إلى الدهر أو الأيام، فإنه لا يعتقد أنها الناعل، بل يكون متجاوزاً كما سنرى.

الثالث: ما طابق فيه الإسناد الواقع وخالف اعتقاد المتكلم وذلك كقول

المعتزلي لمن لا يعرف حاله وهو يخفيها عنه: "إن خالق الأفعال كلها هو الله". فإسناد خلق الأفعال إلى الله إسناد حقيقي، يطابق الواقع، ولكنه يخالف اعتقاد المعتزلي إذ اعتقاده أن الأفعال الاختيارية تسند إلى العبد لا إلى الله تعالى، ولا يمكن حمل هذا على المجاز لأن المخاطب لا يعلم حال المتكلم الخفية، فإن علمت هذه الحال أو وجدت القرينة الدالة على أن إسناد الفعل لغير ما هو له، كان الإسناد مجازياً.

الرابع: ما خالف الإسناد فيه الواقع والاعتقاد معاً، وذلك كالأقوال الكاذبة التي يكون القائل عالماً بها دون المخاطب كأن يقول نجح فلان وهو لم ينجح، فهذا القول يخالف الواقع ويخالف اعتقاد القائل، وإنما كان من قبيل الإسناد الحقيقي لأن المخاطب لا يعلم أنه كذب، والمتكلم الكاذب لا ينصب قرينة تدل على أنه كاذب.

هذا ونلاحظ أن الخطيب قد قصر الإسناد الحقيقي على الفعل وما في معناه، وكأن الإسناد الذي لا يكون المسند فيه فعلاً ولا ما في معنى الفعل نحو: زيد أخي وعمرو أخوك، ليس من الحقيقة العقلية، ولذلك كان تعريف عبد القاهر للحقيقة العقلية أدق وأصوب إذ عرفها بقوله: "كل جملة وضعتها على أن الحكم المفاد بها على ما هو عليه في العقل وواقع موقعه.." ^(١) فلم يقيد الإسناد بالفعل ولا ما في معناه، كما صنع الخطيب.



المجاز العقلي

أما المجاز العقلي فقد عرفه الخطيب القزويني بقوله: "هو إسناد الفعل أو ما في معناه إلى ملابس له غير ما هو له بتأول" ^(٢).

ونلاحظ أيضاً أنه قصر التجوز في الإسناد على الفعل وما في معناه وهو أعم من ذلك على نحو ما سنرى، والإسناد هنا في المجاز ليس إلى ما هو للمسند، أي: ليس إلى الفاعل الحقيقي، بل هو إلى ملابس للمسند غير ما هو له، وهذا هو الفرق

(١) أسرار البلاغة ٢/٢٥٦.

(٢) الإيضاح ١/٥٦.

بين الإسناد الحقيقي والإسناد المجازي، فالحقيقي إسناد الفعل إلى ما هو له، والمجازي إسناده إلى ملابس له، وعند إسناد الفعل إلى ملابسه لابد أن يكون هذا الإسناد بتأول، وإلا كان الإسناد حقيقة.

فقول المسلم: شفى الطبيب المريض مسنداً الشفاء إلى الطبيب، لا يقوله إلا وهو متأول ومعتقد أن الطبيب سبب للشفاء وليس فاعلاً، ولذا كان إسناده مجازياً.

أما قول الجاهل: شفى الطبيب المريض، فهو غير متأول بل يعتقد أن الطبيب فاعل الشفاء، ولذا كان الإسناد حقيقة، فالمراد بالتأول في تعريف الخطيب: القرينة التي تدل على أن المتكلم قد تجوز في الإسناد، وسيأتيك حديث عن هذه القرينة.

أما الحديث الآن فهو عن ملابسات الفعل، أو علاقات المجاز العقلي والبلاغيون ينظرون في تحديد هذه العلاقات أو تلك الملابسات إلى ما بين الفعل والفاعل المجازي من تعلق وارتباط، أو إلى ما بين الفاعل الحقيقي والفاعل المجازي، فقولك: سار الطريق وقوله عز من قائل: ﴿فَمَا رِيحَتْ فَجَرَّتُهُمْ﴾ [البقرة ١٦]، هنالك ارتباط وتعلق بين "سار" و"الطريق" باعتبار أن الطريق مكان للسير، كما أن هناك تعلقاً بين "ريح" و"التجارة" باعتبار التجارة مفعولاً يقع عليها الريح، وهنالك أيضاً تعلق وارتباط بين "الطريق والناس"، وبين "التجارة والمشتريين" باعتبار تلبس الفعل وتعلقه بكل منهما، ولك أن تنظر في تحديد الملابسة إلى أيها شئت، لأنه إذا كانت هناك ملابسة بين الفعل والفاعل المجازي لزم أن يكون هناك ملابسة بين الفاعلين الحقيقي والمجازي كما هو واضح وإليك بيان هذه الملابسات.



ملابسات المجاز العقلي

١- إسناد المبني للفاعل إلى المفعول.. كما في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلِيلَةَ بِالْهَدْيِ فَمَا رِيحَتْ فَجَرَّتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة ١٦]، فالتجارة ليست هي الفاعل الحقيقي للفعل "ريح" وإنما أسند إليها لتلبسه بها من حيث وقوعه عليها، والأصل فما ربح المشترون في تجارتهم، والتجوز هنا بإسناد الريح المنفي إلى التجارة، أفاد المبالغة في خسراتهم، فالذي خسر ليس هم، وإنما هو التجارة وهي

تجارة غريبة من نوعها حيث اشترى هؤلاء الضلالة ودفعوا الهدى ثمنًا لها، وتلك تجارة لا يرتاب عاقل في بوارها، ولذا بولغ في تأكيد الخسران بإسناد عدم الربح إلى التجارة ذاتها، والذي لم يربح هم المتاجرون فيها.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ نَقَلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿٦٧﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٦٨﴾ ﴾ [القارعة: ٦، ٧] ففاعل "راضية" ضمير يرجع إلى العيشة والعيشة مرضية لا راضية، إذ الأصل: في عيشة رضى صاحبها بها، فأسند الرضا إلى العيشة لتلبسه بها من حيث وقوعه عليها، ويفيد هذا التجوز المبالغة في النعيم الذي أعده الله تعالى للمؤمنين في الجنة فرضوا به وسعدوا، إلى درجة أن العيشة أصبحت راضية بصاحبها تألفه ويألفها، وتحبه ويحبها فهي عيشة دائمة باقية، لأنها مبنية على الألفة والمحبة، ولو كانت مبنية على التنافر ما دامت.

وتأمل التعبيرين: المؤمن في عيشة راضية، والكافر في عيشة نافرة، تجد أن التجوز في الأول يبنى بالدوام والبقاء حيث الرضا والألفة، أما التجوز في الثاني فيبنى بالفرقة والابتعاد حيث النفور والكراهية، ولذا كان أمر الحبيب عليه الصلاة والسلام بأن نحسن جوار النعمة إذ دخل ﷺ على عائشة فرأى كسرة مُلقاة فأخذها فمسحها ثم أكلها وقال: " يَا عَائِشَةُ أَكْرَمِي كَرِيمًا فَإِنَّهَا مَا نَفَرَتْ عَنْ قَوْمٍ قَطُّ فَعَادَتْ إِلَيْهِمْ " ^(١) فتأمل المجاز في قوله: "نفرت النعمة" وما يوحي به من الكراهية التي تستلزم الزوال والمفارقة..

وخذ قوله تعالى: ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٦٩﴾ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٧٠﴾ ﴾ [الطارق ٥، ٦] تجد أن "دافق" قد أسند إلى ضمير الماء، والماء مدفوق وليس دافقًا، فالملازمة بين "دافق والماء" ملازمة بين الفعل ومفعوله، والتجوز في الإسناد هنا قد جعل المدفوق دافقًا مبالغة في سرعة اندفاعه.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَتَادِي نُوحٌ أَبْنَاهُ وَكَانَ فِي مَعْرَلٍ يَبْنِي أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ سَتَأْوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [هود ٤٢، ٤٣] فقد أسند "عاصم" اسم فاعل إلى ضمير

(١) رواه ابن ماجه في الأطنسة برقم [٣٣٥٣/٥٢].

المفعول، إذ المعنى: لا معصوم اليوم من أمر الله إلا من رحمه، وذلك مبالغة في نفي العصمة عن كفر وتولى .. أما إسناد: "يعصم" إلى ضمير الجبل في قوله: "جَبَلٌ يَعِصُنِي" فهو مجاز عقلي علاقته السببية - كما سيأتي - لأن الجبل يكون سبباً في العصم وليس فاعله.

وانظر إلى قول الخطيئة في هجاء الزبرقان بن بدر:

دَعِ الْمَكَارِمَ لَا تَرَحَّلْ لِبُعِيَّتِهَا وَأَقْعُدْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الْكَاسِي

فهو يهجو ويطلب منه أن يدع المكارم ولا يسعى لطلب المعالي وأن يظل قاعداً فهو المطعوم المكسو الذي يطعمه غيره ويكسوه وقد أسند الشاعر "طاعم وكاس" إلى ضمير المفعول مبالغة في تحقيره والحط من شأنه والاستهزاء به ..

ونقول: "سر كاتم" أي: مكتوم وذلك مبالغة في كتمان وإخفائه، إذ الأصل: كتم الرجل السر، فلما أريد المبالغة في حفظ السر وكتمان، أسند الفعل إلى مفعوله فقيل: سر كاتم، تمجوراً في الإسناد، فقد بلغ الكتمان مبلغاً صار السر فيه كاتماً لا مكتوماً.

٢- إسناد المبني للمفعول إلى الفاعل .. كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَجَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ [الإسراء ٤٥]، فقد أسند اسم المفعول "مستوراً" إلى ضمير الحجاب والحجاب ساتر أي: فاعل للستر، وليس مستوراً، فالملازمة بين اسم المفعول: "مستوراً" وبين نائب الفاعل "الحجاب" ملازمة بين الفعل وفاعله، إذ الحجاب فاعل للستر لا مفعول، والتجوز في الإسناد أفاد المبالغة في قسوة قلوبهم وشدة جحودهم، فقد زادت مكابرتهم وطغى عنادهم حتى وصل حدًا لم يعودوا فيه مستورين، بالحجاب، بل صار الحجاب هو المستور بطغيانهم وجحودهم. ومعنى الآية: إذا قرأت القرآن الناطق بالبراهين الدالة على الحق جعلنا بمقتضى حكمتنا في الإضلال والهداية بينك وبين الكفرة الذين ينكرون البعث حجاباً يمنعهم عن الحق، وذلك بالختم على قلوبهم ووضع الغشاوة والأغطية على سمعهم وأبصارهم، وقد جعل الحجاب المانع الساتر مستوراً - كما بينا - لإبراز شدة جحودهم وقسوة قلوبهم ولبيان أنهم بلغوا في العناد والمكابرة مبلغاً عظيماً.

ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿ جَنَّتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا ﴾ [مريم ٦١] فقوله: "مأتيًا" اسم مفعول وقد أسند إلى ضمير الوعد الذي هو فاعل في الحقيقة، لأن الوعد آتٍ وليس مأتيًا، وقد أفاد التجوز في الإسناد كمال المبالغة في إنجاز وعد الله وتحقيقه فضلاً وكرماً حيث جعله مأتيًا إليهم وكأن هناك من يحمله ويأتي به إلى المؤمنين ساعيًا به إليهم ..

وانظر إلى قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلِ لَا يُؤَلُّوْا أَلَدْبَرًا وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴾ [الأحزاب ١٥]، وقوله عز وجل: ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴾ [التكوير ٨، ٩] نجد أن "مسئولا" قد أسند إلى ضمير العهد، و"سئلت" قد أسند إلى ضمير الموءودة، والعهد لا يسأل بل المسئول صاحبه، وكذا الموءودة لن تسأل، بل واندها هو الذي يسأل، وقد أفاد التجوز في الإسناد كمال المبالغة في وجوب الالتزام بالعهد وشدة الوعيد والتهديد لمن يئد البنات ..

ونقول: "سيل مُفْعَم" بالبناء للمفعول، والمفعم هو المملوء، والسيل في الحقيقة مالى للوادي، فالوادي هو الذي يُفْعَم أي يمتلئ بالماء والإسناد الحقيقي: "أفعم السيل الوادي" ولكننا تجوزنا في الإسناد فأسندنا "مُفْعَم" اسم المفعول إلى السيل الذي هو الفاعل الحقيقي، وكان حقه أن يسند إلى الوادي فيقال: وإد مفعم، وقد أفاد هذا التجوز شدة المبالغة في فيضان الماء وامتلاء الوادي به، حتى أصبح الماء مملوءًا لا مالئًا.

٣- إسناد الفعل المبني للفاعل إلى مصدره .. كما في قولهم: فلان ثارت ثورته و غضبت غضبه وسحر سحره وشعر شعره وجد جده، فقد أسند الفعل المبني للفاعل في هذه الأمثلة إلى مصدره، والأصل: ثار فلان ثورة، و غضبت الغاضب غضبًا، وسحر الساحر سحرًا، وشعر الشاعر شعرًا، وجد الجاد جدًا، ولكنهم تجوزوا فأسندوا ما حقه أن يسند إلى الفاعل، إلى المصدر، وذلك تحقيقًا للمبالغة في الأفعال المذكورة ..

ومن ذلك قول أبي فراس الحمداني:

أَبُو فِرَاسٍ يَمُوتُ بِمِثْلِ مِثْلِهِ يَمُوتُ بِمِثْلِ مِثْلِهِ يَمُوتُ بِمِثْلِ مِثْلِهِ يَمُوتُ بِمِثْلِ مِثْلِهِ

فقد أسند المبني للفاعل "جد" إلى المصدر "جدهم" إسنادًا مجازيًا للملازمة بين الفعل ومصدره، وأفاد هذا الإسناد المبالغة فيما نزل بالقوم وحل بهم من خطوب جسام، أخذوا يستعدون لها ويفتقدون الغائب ويطلبونه، كما يفقد البدر ويطلب عند اشتداد الظلام، وخاصة إذا كان الغائب من المدافعين عن الأحساب، الذائدين عن الحمى، أمثال أبي فراس.

٤- إسناد المبني للفاعل إلى الزمان .. كما في قولك: فلان نهاره صائم وليله قائم، فالليل لا يقوم والنهار لا يصوم، وقد أسند إليهما اسم الفاعل: "قائم وصائم" لأنها زمانان للقيام والصيام ويفيد هذا التجوز المبالغة في تمام الصيام وكمال القيام بوضوح أهدافهما في سلوك المسلم الصائم القائم.

ومن ذلك قول طرفة بن العبد:

سَتَيْدِي لَكَ الْأَيَّامُ مَا كُنْتَ جَاهِلًا وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدْ

حيث أسند الفعل "تبدى" إلى زمانه "الأيام" على سبيل المجاز العقلي والأصل سيدي لك الله في الأيام.

ومنه قول أبي البقاء الأندلسي:

بِئْسَ الْأُمُورُ كَمَا شَاهَدْتُهَا دَوْلٌ مَنْ سَرَّهُ زَمَانٌ سَاءَتْهُ أَرْزَانٌ

فالزمن ليس فاعلاً للسرور ولا للإساءة، ولكن لما كان السرور واقعاً فيه، وكذلك الإساءة، فقد أسندا إليه على سبيل المجاز العقلي لعلاقة الزمانية ..

وقول جرير:

نَقَدْ لُمْتِنَا يَا أُمَّ غَيْلَانَ فِي السُّرَى فَنِمْتِ وَمَا لَيْلُ الْمَطِيِّ بِنَائِمِ

حيث أسند اسم الفاعل "نائم" إلى ضمير الليل، والليل ليس فاعلاً للنوم ولكنه زمان ينام فيه النائمون.

وانظر في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [يونس ٦٧]، وقوله عز وجل: ﴿فَكَيْفَ تَقْفُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ [الزمل ١٧]، نجد أن اسم الفاعل "مبصراً" قد أسند إلى

ضمير النهار، والنهار لا يفعل الإبصار، بل هو زمان يبصر الناس فيه، وكذا الفعل "يجعل" قد أسند إلى ضمير اليوم، واليوم زمان يقع فيه الفعل، وحقيقة الإسناد: يوماً يجعل الله فيه الولدان شيئاً فأسند الفعل إلى زمانه على سبيل المجاز العقلي.

٥- إسناد المبني للفاعل إلى المكان .. كما في قولهم: طريق سائر، ونهر جارٍ، أسندوا السير إلى ضمير الطريق، والجري إلى ضمير النهر، والسائر هم الناس، والذي يجري هو الماء، والطريق مكان للسير، والنهر مكان لجري الماء فأسند الفعل إليهما تجوُّزاً، ويفيد هذا المجاز المبالغة في قوة اندفاع الماء وشدة فيضانه، وكثرة ازدحام الناس في الطريق، حتى ليخيل للسامع أن النهر هو الذي يجري، وأن الطريق هو الذين يمضي ..

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ [التوبة ٧٢]، فالأنهار اسم للأمكنة والوديان التي تجري فيها المياه، وقد أسند إليها الجريان على سبيل المجاز العقلي لعلاقة المكانية، وتكمن بلاغة المجاز في الآية في أن المياه لكثرة فيضانها وشدة جريانها ترى وكأن محلها هو الذي يجري، وكأن الجري قد تجاوز الماء إلى مكانه .. وعندما تقرأ الآيات الكريمة التي تحدثت عن الجنة وما أعد فيها من نعيم تجد الجري فيها قد أسند إلى الأنهار لا إلى المياه لهذا السر البلاغي.

وانظر إلى قوله تعالى: ﴿وَأُخْرِجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة ٢] حيث أسند الإخراج إلى الأرض وهي مكان للأثقال، والأصل: وأخرج الله منها أثقالها، ويفيد هذا التجوز في الإسناد: التهويل والتفضيح من شأن ذلك اليوم، وشدة قذف الأرض وإلقائها ما بداخلها من أثقال، وكأنها هي التي تخرج وتقذف تلك الأثقال.

وخذ قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا﴾ [القصص ٥٧] تجد أن اسم الفاعل "آمنًا" قد أسند إلى الضمير العائد إلى الحرم، والحرم مكان للأمن، والأصل: حرماً آمناً أهله، فأسند الأمن إلى الحرم مبالغة في كمال النعمة، نعمة الأمن التي تفضل الله بها على سكان حرمه.

وانظر إلى قول المتنبي:

وَكُلُّ امْرِئٍ يُؤَلِّي الْجَمِيلَ مُحِبُّبٌ وَكُلُّ مَكَانٍ يُبْنَى الْعِزَّ طَيِّبٌ

فقد أسند الفعل يثبت إلى ضمير المكان، والمكان لا يفعل الإنبات والأصل:
يثبت الله فيه ... وإلى قول الحيص بيص .. أبي الفوارس:

مَلِكُنَا فَكَانَ الْعَفْوُ مِنَّا سَجِيَّةً فَلَمَّا مَلَكَكُمْ سَأَلَ بِالِدَمِّ أَبْطَحُ

فهو يفخر بأن قومه لما قدروا عفوا وصفحوا، بينما المخاطبون عندما قدروا
أسرفوا في سفك الدماء حتى سالت بالأبطح وهو المسيل الواسع فيه دقائق الحصى،
وقد أسند الشاعر "سال" إلى الأبطح مبالغة في كثرة الدماء التي أريقت من جراء
الحكم الظالم، وأصل الإسناد: سالت الدماء بالأبطح.

٦- إسناد المبني للفاعل إلى السبب .. كقولنا: بنى الأمير المدينة وحقيقته: بنى

العمال المدينة بأمر الأمير، فإسناد "البناء" إلى الأمير مجاز عقلي علاقته السببية، لأن
الأمير سبب البناء، وهو ينبئ بمدى عناية الأمير واهتمامه بشأن المدينة، حتى كأنه
فاعل البناء ..

ونقول محبتك جاءت بي وسرتني رؤيتك، فنسند المجيء إلى المحبة وهي
سببه، والسرور إلى الرؤية وهي سببه أيضًا مبالغة في قوة المحبة وكثرة السرور
الناجم عن الرؤية.

ومنه قول أبي نواس:

يَزِيدُكَ وَجْهُهُ حُسْنًا إِذَا مَا زِدْتَهُ نَظْرًا

فقد أسند "زيادة الحسن" إلى الوجه وهو سببها، مبالغة فيما أودعه الله فيه من
دقائق الحسن ولطائف الجمال.

وانظر إلى قول عوف بن الأحوص:

فَلَا تَسْأَلْنِي وَأَسْأَلِي عَنْ خَلِيقَتِي إِذَا رَدَّ عَنِّي الْقَدْرَ مَنْ يَسْتَعِيرُهَا^(١)

(١) المراد "بعافي القدر": إما الضيف الذي تنصب القدر لإعداد الطعام له، وإما المرق المتبقي بالقدر،
حيث يحتفظ به صاحبها لأنهم في جذب.

فالشرط الثاني من البيت كناية عن شدة الجذب، وذلك إذا كان المراد بعافي القدر: بقية المرق الذي يوجد في القدر، فيكون سبباً في أن يرد صاحبها من يطلب إعارتها، لشدة ما هم فيه من جذب وقحط، أما إذا كان المراد بعافي القدر: الضيف، فإن البيت يكون عندئذ كناية عن الكرم، إذ تسبب الضيف في رد المستعير حيث يرى القدر منصوبة له فلا يطلبها .. والشاعر قد أسند "رد" إلى "عافي القدر"، وعافي القدر لم يفعل الرد وإنما تسبب فيه وحقيقة الإسناد: إذا رد صاحب القدر من يستعيرها بسبب عافيتها فهو مجاز عقلي علاقته السببية ..

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَذَكَرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الذاريات ٥٥]

أسند النفع إلى ضمير الذكرى وهي سببه، والأصل: ينفع الله بسببها المؤمنين ..

وتأمل الآيات الكريمة: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدَّبِحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص ٤] ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمَنُنْ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابِ ﴾ [غافر ٣٦] ﴿ فَأَوْقَدْ لِي يَهْمَنُنْ عَلَى الطَّيْنِ فَأَجْعَلْ لِي صَرْحًا ﴾ [القصص ٣٨] ﴿ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴾ [طه ١١٧] تجد أن الأفعال بها قد أسندت إلى أسبابها، فقد أسند "يدبح" ويستحى إلى فرعون وهو الأمر بها وليس فاعلها الحقيقي، وأسند البناء والإيقاد إلى هامان، وهما يفعالان بسببه، وأسند الإخراج إلى إبليس وهو سببه .. وتلاحظ أن المسند في الآيات الثلاث الأخيرة هو فعل الأمر أو النهي: ابن .. أوقد.. اجعل .. لا يخرجن .. وبهذا يتضح لك أن المجاز العقلي كما يقع في الخبر يقع في الإنشاء.

٧- إسناد الفعل إلى الجنس وهو في الحقيقة مسند إلى بعضه .. كما في قولهم "

بنو فلان قتلوا فلاناً" والقاتل واحد منهم .. وكما في قوله تعالى: ﴿ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ﴾ [الأعراف ٧٧] فقد أسند العقر إلى جميعهم وهو لبعضهم كما جاء في آية أخرى ﴿ فَتَادُوا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ﴾ [القمر ٢٩] وإسناد الفعل إلى الجميع وهو لبعض يبنى بأنه قد تم بعلمهم ووقع برضاهم ^(١).

٨- إسناد الفعل إلى الجارحة التي هي آله .. كقولهم: أبصرته عيني .. وسمعته أذني .. وعرفه قلبي .. وقاله لساني .. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْفُرُوا بِاللَّهِدَّةِ وَمَنْ يَكْفُرْهَا فَإِنَّهُ آتِمٌ قَلْبُهُ﴾ [البقرة ٢٨٣] فقد أسند اسم الفاعل "آتم" إلى القلب وإنما الآتم هو الشخص، وذلك لأن كتمان الشهادة أن يضمها الشخص ولا يتكلم بها، فلما كان إثما مقترفاً بالقلب أسند إليه، لأن إسناد الفعل إلى الجارحة التي يعمل بها أبلغ^(١).

٩- إسناد الفعل إلى ماله مزيد اختصاص وقربى بالفاعل الحقيقي .. كما في قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَمْرَاتُهُ قَدَرْنَا إِنَّمَا لِمَنِ الْغَيْرُ﴾ [الحجر ٦٠] فقد أسندت الملائكة التقدير إلى أنفسهم والمقدر هو الله وحده، وذلك لأن لهم مزيد اختصاص وقربى من الله عز وجل.

هذا ولم يتحدث الخطيب القزويني عن الملابس الثلاث الأخيرة، حيث ذكر من ملابس المجاز العقلي الملابس الست الأولى فقط، وقد لف لفه كثير من الدارسين بعده.. وعندما نرجع إلى تعريفه للمجاز العقلي نجد أنه قد قصره على إسناد الفعل وما في معناه - كما وضحنا - وقد ضاق هذا التعريف عن صور كثيرة من صور التجوز في الإسناد.. من ذلك.

١- النسبة الإضافية .. كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [سبأ ٣٣] والتقدير: بل مكرهم في الليل والنهار، فقد أضيف المكر إلى الليل والنهار وهما زمان له، وكان حقه أن يضاف إلى الناس، كما في التقدير .. ومثله قوله عز وجل: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِمْ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِمَا﴾ [النساء ٣٥] والتقدير: وإن خفتم شقاق الزوجين في الحالة التي بينهما .. فقد أضيف الشقاق إلى الظرف "بين" على سبيل المجاز العقلي لعلاقة المكانية، وكان حقه أن يضاف إلى الزوجين كما في التقدير.

٢- النسبة الإيقاعية .. بمعنى أن يقع الفعل المتعدى على غير ما حقه أن يقع عليه لعلاقة وقربنة مانعة، وسميت نسبة إيقاعية، لأن الفعل المتعدى واقع على

مفعوله المجازي، انظر إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الشعراء ١٥١] تجد أن الأصل: ولا تطيعوا المسرفين بسبب أمرهم، وقد وقع الفعل "تطيعوا"، على المفعول "أمر" على سبيل المجاز العقلي لعلاقة السببية، إذ لا تقع الطاعة على الأمر، وإنما تقع على صاحب الأمر فهو الذي يطاع..

وخذ قوله تعالى: ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾ [القمر ١٢] فقد وقع الفعل "فجر" على الأرض، وهو في الأصل للعيون إذ المعنى، وفجرنا عيون الأرض، فهو مجاز عقلي علاقته المكانية وقد أفاد هذا المجاز المبالغة في فوران الماء واندفاعه، وكان الأرض قد صارت كلها عيونًا .. فكما أن إسناد الفعل إلى غير ما حقه أن يسند إليه مجاز، فكذلك إيقاعه على غير ما حقه أن يوقع عليه مجاز أيضًا.

٣- النسبة الوصفية .. وذلك بأن يوصف الشيء بوصف صاحبه كقولنا: الكتاب الحكيم، والأسلوب الحكيم، وضلال بعيد، ورجل عدل، فالحكمة في الحقيقة ليست وصفًا للكتاب ولا للأسلوب، وإنما هي وصف لصاحبها وكذا البعد ليس وصفًا للضلال، بل هو وصف للضلال، والعدل ليس وصفًا للرجل، وإنما وصف لأقواله وأفعاله، فالأصل أن يقال: رجل ذو عدل، كما يقال: رجل ذو رأي، ورجل ذو خلق.. فكما أن إسناد الفعل إلى غير ما حقه أن يسند إليه مجاز، كذلك وصف الشيء بغير ما حقه أن يوصف به مجاز أيضًا ..

٤- الإسناد بين المبتدأ والخبر.. كما في قوله تعالى: ﴿وَلَيْكُنَّ الْبِرُّ مِنَ اتَّقَى﴾ [البقرة ١٨٩] والأصل: ولكن ذا البر من اتقى. أو ولكن البر بر من اتقى، فقد أسند "من اتقى" إلى "البر" إسنادًا مجازيًا إذ البر مفعول له، فالمتقي يتقي من أجل البر، والعلاقة إما الفاعلية أو المفعولية، لأن من اتقى فاعل والبر مفعول له.

ومن ذلك قول الخنساء في وصف الناقة:

تَرْتَعُ مَا عَفَلْتُ حَتَّى إِذَا ادَّكَّرَتْ فَإِنَّمَا هِيَ إِقْبَالٌ وَإِدْبَارُ

يقول عبد القاهر في تجليه المجاز العقلي في هذا البيت: "ومما طريق المجاز فيه الحكم قول الخنساء تَرْتَعُ مَا عَفَلْتُ حَتَّى إِذَا ادَّكَّرَتْ .. فَإِنَّمَا هِيَ إِقْبَالٌ وَإِدْبَارُ .. وذلك أنها لم ترد بالإقبال والإدبار غير معناهما فتكون قد تجاوزت في نفس الكلمة،

لم يكن لها حال غيرهما، كأنها قد تجسمت من الإقبال والإدبار .. واعلم أن ليس بالوجه أن يعد هذا على الإطلاق معد ما حذف منه المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه مثل قوله عز وجل: ﴿وَسَلِّ الْقُرَيْةَ﴾ [يوسف ٨٢] .

ومثل قول النابغة الجعدي:

وَكَيْفَ تُوَاصِلُ مَنْ أَضْبَحَتْ خِلَاتُهُ كَأَبِي مَرْحَبٍ^(١)

وقول الأعرابي:

حَسِبْتُ بَغَامَ رَاحِلَتِي عَنَاقًا وَمَاهِيَّ وَزُبَّ غُبْرِكَ بِالْعَنَاقِ^(٢)

وإن كنا نراهم يذكرونه حيث يذكرون حذف المضاف ويقولون إنه في تقدير: "فإنما هي ذات إقبال وإدبار" ذلك لأن المضاف المحذوف من نحو الآية والبيتين في سبيل ما يحذف من اللفظ ويراد في المعنى، كمثل أن يحذف خبر المبتدأ أو المبتدأ إذا دل الدليل عليه، إلى سائر ما إذا حذف كان في حكم المنطوق به، وليس الأمر كذلك في بيت الخنساء، لأننا إذا جعلنا المعنى فيه الآن، كالمعنى إذا نحن قلنا: فإنما هي ذات إقبال وإدبار، أفسدنا الشعر على أنفسنا وخرجنا إلى شيء مغسول، وإلى كلام عامي مردول وكان سبيلنا سبيل من يزعم مثلاً في بيت المتنبي:

بَدَتْ قَمَرًا وَمَالَتْ خُوطَ بَانَ وَفَاحَتْ غُبْرًا وَرَزَّتْ غَزَالًا

أنه في تقدير محذوف، وأن معناه الآن كالمعنى إذا قلت: "بدت مثل قمر ومالت مثل خوط بان وفاحت مثل عنبر ورتت مثل غزال"، في أنا نخرج إلى الغثاء، وإلى شيء يعزل البلاغة عن سلطانها"^(٣).

فهذا تحليل دقيق لبيان المجاز العقلي في البيت وإبراز ما يفيد من المبالغة، وأن الناقه كأنها قد تجسمت من الإقبال والإدبار، وأنت إذا رمت تقدير مضاف لتبين

(١) الخلافة: بكسر الحاء: الصداقة، وأبو مرحب بفتح الميم والحاء: الظل ووجه الشبه هو الزوال وعدم الدوام.

(٢) بغام الناقه: صوتها. والعناق: أنثى المعز. والويب: الويل، والخطاب في قوله: "حسبت" للذئب الذي حسب صوت ناقته صوت عناق، ولذا قال له: ويب غبرك، فتوعده بلونه لأن الذئب لونه أغير.

(٣) دلائل الإعجاز ٢٩٢.

الإسناد الحقيقي، فقلت: "فإنها هي ذات إقبال وإدبار"، ضاعت هذه المبالغة، وفقدت حلاوة الشعر، كما تضعيع أيضًا وتفقد إذا أولت المصدر باسم الفاعل فقلت: فإنها هي مقبلة ومدبرة.

ولما كان تعريف الخطيب للمجاز العقلي لا يتسع لمثل هذه النسب فإننا نفضل عليه تعريف عبد القاهر له، إذ عرفه بقوله: "كل جملة أخرجت الحكم المفاد بها عن موضوعه في العقل لضرب من التأويل"^(١).

وسبب ترجيحنا لتعريف عبد القاهر، أنه لم يحدد الإسناد بالفعل، وما في معناه كما صنع الخطيب، ولم يحدد أنواع العلاقات التي تسوغ الإسناد، فاتسع المجاز العقلي عنده لكل إسناد ولكل ملابسة.



قرينة المجاز العقلي

لابد للمجاز سواء أكان مجازًا عقليًا أم مجازًا لغويًا، من وجود قرينة دالة تبين المجاز وتوضح عدم إرادة المعنى الأصلي في المجاز اللغوي، وعدو إرادة الإسناد الحقيقي في المجاز العقلي، فالقرينة في المجاز العقلي هي الأمر الذي يوضح أن المسند قد أسند إلى غير ما حقه أن يسند إليه، وأن المتكلم قد تجاوز في بناء الكلام وتأليف العبارة، وهذه القرينة إما لفظية وإما غير لفظية:

انظر إلى قول أبي النجم العجلي:

فَذَاضْبَحَتْ أُمُّ الْخَيْبَارِ تَدْعِي عَلَيَّ ذَتْبَا كُلُّهُ لَمْ أَضْعِ
مِنْ أَنْ رَأَتْ رَأْسِي كَرَأْسِ الْأَضْلَعِ مَيَّرَ عَنْهُ فُتْرَعَا عَنْ فُتْرِعِ
جَذْبُ اللَّيَالِي أَبْطِيئِي أَوْ أَسْرِعِي

أَفْتَاهُ قَيْلُ اللَّهِ لِلشَّمْسِ ااطْمُعِي حَتَّى إِذَا وَارَاكَ أَفْتَقُ فَازْجِعِي^(٢)

(١) أسرار البلاغة ٢/ ٢٥٧.

(٢) الفتزخ: الشعر التجمع في نواحي الرأس .. والأصلح: الذي سقط شعر مقدم رأسه. وجملة أبطيئني أو أسرعني: حال من الليالي بتقدير القول أي مقولاً فيها ذلك. وجذب الليالي: مضيتها. وارك: غيبك.

تره قد أسند الفعل "ميز" إلى جذب الليالي، إسنادًا مجازيًا من إسناد الفعل إلى سببه أو زمانه، والقرينة هي قوله: "أفناه قيل الله"، وهي قرينة لفظية توضح عقيدة الشاعر، وأنه مؤمن حيث أسند إفناء شعر الرأس إلى الله تعالى، وما دام كذلك، فإنه يكون قد تجاوز في كلامه الأول وهو إسناده: "ميز" إلى جذب الليالي.

ومثله قول الصلتان العبدي ينصح ابنه عمراً:

أَشَابَ الصَّغِيرَ وَأَفْنَى الْكَبِيرِ — رَكَرُ الْقِدَاةِ وَمَرُّ الْعَثِي
نَرُوحٌ وَنَغْدُو لِحَاجَاتِنَا — وَحَاجَةٌ مِّنْ عَاشٍ لَّا تَنْقُضِي
تَمُوتُ مَعَ الْمَرْءِ حَاجَاتُهُ — وَتَبْقَى لَهُ حَاجَةٌ مَا بَقِيَ
أَمْ تَرَلُّقَمَانَ أَوْصَى ابْنَهُ — وَأَوْصَيْتَ عَمْرًا وَنَعَمَ الْوَصِي
فَمِلَّتْنَا أَنْتَا مُسْلِمُونَ — عَلَى دِينِ صِدْقِنَا وَالتَّيْبِي

فالبيتان الأخيران يبرزان عقيدة الشاعر، إذ يريد بوصية لقمان، قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لَقْمَنْ لِّابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَبْنِي لَّا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الْفِثْرَكَ لَطَلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان ١٣] والبيت الأخير يفصح عن إيمانه وأن ملته الإسلام، وتلك قرينة لفظية تدل على أن الشاعر قد تأول ولم يرد الحقيقة عندما أسند "أشاب وأفنى" إلى تعاقب الليل والنهار.

ونقول: "هزرتني الأيام وشيبي الدهر والله وحده المستعان" فتكون الجملة الأخيرة: "والله المستعان" قرينة لفظية تدل على أن إسناد "هز" إلى "الأيام" و"شيب" إلى "الدهر" مجاز عقلي، وليس إسنادًا حقيقيًا.

أما القرينة المعنوية، فهي أمر غير لفظي يدل على أن المتكلم متأول في إسناده ولم يرد الحقيقة، بل أراد المجاز، انظر إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ [القصص ٤] نجد أن إسناد الفعل: "يذبح" إلى فرعون، مجاز عقلي لعلاقة السببية، إذ فرعون لم يفعل التذبيح بل أمر به وفعله جنوده بأمره فهو سبب لوقوع الفعل وليس فاعلاً حقيقيًا، والقرينة هنا معنوية وهي استحالة صدور الفعل من "فرعون" عادة، وإن

أمكن ذلك عقلاً، ومثله قولك: بنى الأمير المدينة، وهزم الأعداء، فإسناد "البناء" وهزيمة الأعداء إلى الأمير مجاز عقلي، قرينته استحالة وقوع الفعل منه عادة، وإن أمكن عقلاً.

وقد تكون القرينة استحالة وقوع الفعل من الفاعل عقلاً كقول تأبط شراً. إذا المرء لم يخجل وقد جدّ جدّه أضاعَ وقأسى أمره وهو مُذِرٌ فإسناد الفعل "جد" إلى المصدر مجاز عقلي قرينته استحالة قيام الفعل بمصدره استحالة عقلية، ومثله قولهم: محبتك جاءت بي إليك، وأقدمني بلدك حق لي على فلان، إذ يستحيل عقلاً قيام المجيء بالمحبة، والإقدام بالحق.

وقد تكون القرينة المعنوية هي صدور الكلام من المؤمن، كقول النبي ﷺ "إنّ مِمَّا يُنْبِتُ الرَّبِيعَ مَا يَقْتُلُ حَبَطًا أَوْ يُلِيمُ"^(١)، وقوله عليه الصلاة والسلام "وقد دخل البيت فرأى كسرة مُلَقَاةً فأخذها فمسحها ثم أكلها وقال: "يَا عَائِشَةُ أَكْرَمِي كَرِيمًا فَإِنَّهَا مَا نَفَرَتْ عَنْ قَوْمٍ قَطُّ فَعَادَتْ إِلَيْهِمْ"^(٢)، فووقوع الفعل منه ﷺ، قرينة على أنه لم يرد الإسناد الحقيقي وأنه قد تأول عندما أسند الإنبات إلى الربيع والقتل إلى ما ينبت الربيع والنفور إلى النعمة وكذلك الرجوع، فالإسناد كما ترى مجازي، وقرينته صدور الكلام من خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام.



ما الفرق بين المجاز العقلي والمجاز اللغوي

ومما سبق يتضح لك أن المجاز العقلي تجوز في الإسناد، أي في النسبة بين المسند والمسند إليه، فقولك: أنبت الربيع، ليس التجوز في "أنبت" ولا في "الربيع". وإنما في إسناد الإنبات إلى الربيع، أما المجاز اللغوي فهو تجوز في الكلمة لا في الإسناد، فقولك: رأيت أسداً يتكلم، المجاز في لفظ الأسد حيث نقل من الحيوان المفترس إلى الرجل الشجاع.

(١) حبطا: الحبط انتفاخ البطن، يقال: حبط بطنه إذا انتفخ بحيط حبطاً، انظر لسان العرب مادة: حبط.
والحديث رواه البخاري في الجهاد برقم [٢٨٤٢/٣٧] ومسلم في الزكاة برقم ب[١٠٥٢/١٢٣].
(٢) رواه ابن ماجه في الأَطعمة برقم [٣٣٥٣/٥٢].

يقول عبد القاهر: "ومما طريق المجاز فيه الحكم قول الخنساء":

تَرْتَعُ مَا غَفَلْتُ حَتَّى إِذَا اذْكَرْتُ فَإِنَّمَا هِيَ إِقْبَالٌ وَإِدْبَارُ

وذاك أنها لم ترد بالإقبال والإدبار غير معناهما فتكون قد تجوزت في نفس الكلمة وإنما تجوزت في أن جعلتها لكثرة ما تقبل وتدبر ولغلبة ذاك عليها واتصاله بها وأنه لم يكن لها حال غيرهما، كأنها قد تجسمت من الإقبال والإدبار، وإنما كان يكون المجاز في نفس الكلمة لو أنها كانت قد استعارت الإقبال والإدبار لمعنى غير معناهما الذي وضعها له في اللغة، ومعلوم أن ليس الاستعارة مما أرادته في شيء" (١).

هذا والمجاز العقلي المتصرف فيه هو العقل، إذ هو الذي يقيم الروابط والصلات بين أجزاء الكلام، ولذا سمي مجازاً عقلياً، أما المجاز اللغوي فمرجعه إلى واضع اللغة، إذ هو الذي وضع مفرداتها، وحدد معاني المفردات، فكان التجوز في تلك المفردات بنقلها من معنى إلى معنى، تصرف لغوي في نطاق ما حددته اللغة ووضحت معانيه، ولذا سمي التجوز في المفردات مجازاً لغوياً. وبعض العلماء يرون أن الواضع - واضع اللغة - كما وضع مفرداتها وضع كذلك تراكيبيها، وهؤلاء يسمون التجوز في الإسناد، مجازاً لغوياً، كالتجوز في المفردات، لأن كليهما تجوز في نطاق ما وضعته اللغة وحددته.. ولا أرى داعياً للخوض في مثل هذه الخلافات، إذ لا يجنبني الدارس من وراء معرفتها والوقوف عليها ثمرة تذكر.



صور المجاز العقلي

وينقسم المجاز العقلي باعتبار حقيقة طرفيه ومجازيتهما إلى أربعة أقسام وهي:

١- أن يكون طرفا الإسناد حقيقتين لغويتين: أي يكون المسند والمسند إليه

مستعملين استعمالاً حقيقياً، والتجوز إنما هو في الإسناد فقط، كقولك أنبت الربيع

النبات، فكل من "أنبت" و"الربيع" مستعمل في معناه الحقيقي الذي وضع له،

والمجاز في إسناد الإنابت إلى الربيع.

ومثله قول الصلتان العبدي:

أَشَابَ الصَّغِيرَ وَأَفْنَى الْكَبِيرِ — كَرَّكَرُ الْغَدَاةِ وَمَرُّ الْعَيْشِي

وقول جميل:

وَشَيَّبَ أَيَّامَ الْفِرَاقِ مَفَارِقِي وَأَنْشَزْنَ نَفْسِي فَوْقَ حَيْثُ تَكُونُ

يريد أن أيام الفراق رفعت نفسه عن مكانها في الجسم وبلغت بها الخلقوم. وواضح أن أجزاء الكلام من مسند ومسند إليه مستعملة في معانيها الحقيقية، والمجاز إنما هو في الإسناد فقط، في إسناد "أشباب وأفنى" إلى "كر الغداة ومر العشى" وإسناد "شيب وأنشز" إلى أيام الفراق. وقرأ الآيات الكريمة: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال ٢]، ﴿وَأُخْرِجَتِ الْأَرْضُ أَنْقَالَهَا﴾ [الزلزلة ٢]، ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ [القارعة ٧]، ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ [المزمل ١٧]، نجد أن المجاز في إسناد الزيادة للآيات، والإخراج للأرض والرضا للعيشة، والجعل لليوم، أما طرفا الإسناد فلا مجاز فيها..

ومن ذلك قول رؤبة بن العجاج:

يَأْرَبُ قَدْ فَرَّجَتْ عَنِّي غَمِّي قَدْ كُنْتُ ذَاهِمٌ وَرَاعِي نَجْمِ

فَنَامَ لَيْلِي وَتَجَلَّى هَمِّي

فقد أسند النوم إلى الليل إسناديا مجازيا لعلاقة الزمانية، أما النوم والليل فمستعملان فيما وضعاه.

وقول سلمة الجعفي يرثي أخاه:

فَتَى كَانَ يُعْطِي السِّيفَ الرُّوعَ حَقَّهُ إِذَا تَوَبَّ الدَّاعِي وَتَشَقَّى بِهِ الْجُزُرُ
فَتَى كَانَ يُدْنِيهِ الْعِنَى مِنْ صَدِيقِهِ إِذَا مَا هُوَ اسْتَعْنَى وَيُبْعِدُهُ الْفَقْرُ

وصفه بالشجاعة والكرم حيث كان يضرب بالسيف في حال الشدة ويحجب الداعي الذي يثوب أي يرجع صوته حتى يسمع فيجيبه الشجعان ويغيثونه، وكانت الجزر تشقى به إذ كان ينحرفا لضيوفه وقد أسند الشاعر الإدناء إلى الغنى والإبعاد إلى الفقر إسنادا مجازيا لعلاقة السببية، أما طرفا الإسناد فقد استعملا فيما وضعاه، استعمالاً حقيقياً.

٢- أن يكون المسند مجازًا لغويًا، والمسند إليه حقيقة لغوية: أي مستعملًا فيما وضع له استعمالًا حقيقيًا، كقولك: أحيا الأرض الربيع: فالمسند "أحيا" مجاز لغوي حيث استعير الإحياء للإنبات والمسند إليه "الربيع" مستعمل فيما وضع له.

ومن ذلك قول المتنبي:

وَتُحْيِي لَهَ الْمَالِ الصَّوَارِمُ وَالْقَنَا وَيَقْتُلُ مَا تُحْيِي التَّبَسُّمُ وَالْجَدَا

حيث يصف المدوح بالشجاعة والكرم، فهو يحصل المال بشجاعته وقوته، ثم ينفقه على الضعفاء والمحتاجين كرما وسخاء، وقد أسند الشاعر "الإحياء" إلى "الصوارم والقنا" و"القتل" إلى التبسم والجدا إسنادًا مجازيًا، وكل من القتل والإحياء مستعمل في غير ما وضع له استعمالًا مجازيًا، حيث استعير القتل "للإنفاق" والإحياء لجمع المال وتحصيله بقوة السلاح، أما المسند إليهما "الصوارم والقنا"، و"التبسم والجدا" فمستعملان فيما وضعاه استعمالًا حقيقيًا.

ونقول "أهلك الناس الدينار والدرهم" فإسناد "أهلك" إلى "الدينار والدرهم" مجاز عقلي علاقته السببية ولفظ "أهلك" المسند، ليس حقيقة، بل مجاز عن الفتنة، إذ الإهلاك مسبب عن الفتنة، فهو مجاز مرسل علاقته المسببية وقد أسند إلى الدينار والدرهم إسنادًا مجازيًا، فالتجوز واقع في الإسناد، وفي المسند، في الإسناد مجاز عقلي وفي المسند مجاز لغوي.

وانظر في قوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مریم ٤] حيث أسند "اشتعل" إلى "الرأس" إسنادًا مجازيًا لعلاقة المكانية إذ الرأس مكان للاشتعال والذي يفعل الاشتعال حقيقة إنما هو الشعر ولفظ المسند "اشتعل" مجاز لغوي، إذ المراد به: ظهور شيب الرأس، فاستعير الاشتعال للظهور، وتفيد هذه الاستعارة عموم الشيب وإحاطته بجميع الرأس، كما تفيد المفاجأة في ظهور الشيب، فهو اشتعال وليس ظهورًا، وتفيد أيضًا حب زكريا - عليه السلام - لهذا الشيب حيث أحس به إحساسًا مشرقياً مضيئًا، لا تكاد تراه في شعر الشعراء الذين يصورون ظهور الشيب بالرأس تصويرًا حزينًا مؤلمًا إذ يكون سببًا في فراق الأحبة وابتعادهن.

انظر إلى قول دعبل:

لَا تَعَجِّبِي يَا سَلْمُ مِنْ رَجُلٍ صَحَّكَ الْمَشِيبُ بِرَأْسِهِ فَبَكَى

وقول الأعمى:

قَالَتْ قَتِيلَةُ مَالَهُ قَدْ جُلَّلَتْ شَيْبًا شَوَاتُهُ

وقول أبي تمام:

لَهُ مَنْظَرٌ فِي الْعَيْنِ أبيضُ ناصِعٌ وَلَكِنَّهُ فِي الْقَلْبِ أَسْوَدُ أَسْفَعٌ^(١)

تجد أنهم يشعرون بالشيب شعورًا حزينًا كئيبيًا، لأنه يؤذن بتولي الشباب، ويعلن عن فراق الحبيبات.

ونعود إلى المجاز العقلي لننظر في شواهد هذه الصورة التي وقع التجوز فيها في المسند وفي الإسناد، فمنها قولهم: "سال بهم الوادي"، استعير السيلان للسير، ثم اشتق منه سال بمعنى سار على سبيل الاستعارة التبعية، وأسند "سال" إلى "الوادي" إسنادًا مجازيًا لعلاقة المكانية، ويفيد هذا التجوز المبالغة في سرعة سير القوم وكأن المكان قد فاض بهم ودفع.

ومثله قول كثير عزة:

أَخَذْنَا بِأَطْرَافِ الْأَحَادِيثِ بَيْنَنَا وَسَالَتْ بِأَعْنَاقِ الْمَطِيِّ الْأَبْطَاحُ

وقول سبيع بن الخطيم التيمي:

سَالَتْ عَلَيْهِ شِعَابُ الْحَيِّ حِينَ دَعَا أَنْصَارُهُ بِوُجُوهِهِ كَالدَّانِيْرِ

ففي إسناد "السيلان" إلى "الأباطح" وإلى "شعاب الحي" مجاز عقلي علاقته المكانية، والمسند "سال" مجاز لغوي حيث استعير "السيلان" للسير، ولا يخفى عليك بلاغة المجاز في البيتين، فقد أبرز شدة اندفاع المطى في الأباطح، وسرعة اندفاع الأنصار إلى الداعي، وكان الشعاب قد فاضت بهم ودفعتهم إليه، وكان

(١) الأبيض الناصع: شديد البياض، والأسود الأسفع: هو الأسود المائل إلى حمرة، وقد استعير الأسود الأسفع لما يحدثه الشيب من الهم والحزن.

الأباطح هي التي تسيل وتمضي لا الإبل، وما من شك في أن المجاز اللغوي قد ساهم في تحقيق هذه المبالغة بنصيب وافر.

٣- أن يكون المسند إليه مجازاً لغوياً والمسند حقيقة لغوية: أي مستعملاً فيما وضع له استعمالاً حقيقياً، كقولك: أنبت شباب الزمان النبات فالمسند "أنبت" مستعمل فيما وضع له استعمالاً حقيقياً، والمسند إليه "شباب الزمان" مجاز لغوي؛ حيث استعير الزمن الربيع وإسناد الإنبات إلى "شباب الزمان" مجاز عقلي علاقته الزمانية ..

وانظر إلى قول ابن خفاجة الأندلسي:

وَإِنِّي إِذَا مَا شَأَقْنِي لِحَامَةِ رَنْينٍ وَهَزَنْتَنِي لِبَارِقَةِ ذَنْكِرَى
لِأَجْمَعُ بَيْنَ الْمَاءِ وَالنَّارِ لَوْعَةً فَمِنْ مُقْلَةٍ رَبَّاءٍ وَمِنْ كَبِيدِ حَرَى

تجد أنه قد أسند الشوق إلى الرنين إسناداً مجازياً، لأن الرنين باعث الشوق وليس بفاعله، والرنين في البيت مستعار لهديل الحمام وسجعه وترجيعة.

وخذ قول الفرزدق:

سَقَاهَا حُرُوقٌ فِي الْمَسَامِعِ لَمْ تَكُنْ عِلَاطًا وَلَا تَحْبُوطَةً فِي الْمَلَاغِمِ^(١)

فهو يتحدث عن إبلهم المهملة في الصحراء والتي ترد الماء فلا يمنعها مانع. وخروق المسامع: مجارى الصوت في الأذن، يقال: جرى حديثه في خروق المسامع أي: سمعه الناس.

ومنه قول مجنون ليلى:

وَكَيْفَ تَرَى لَيْلَى بَعَيْنِ تَرَى بِهَا سِوَاهَا وَقَاظَهِنَّهَا بِالْمَدَامِعِ
وَتَلْتَذُّ مِنْهَا بِالْحَدِيثِ وَقَدْ جَرَى حَدِيثُ سِوَاهَا فِي خُرُوقِ الْمَسَامِعِ

أي: وقد جرى حديث سواها في أذنك، وقد استعمل الفرزدق خروق

(١) العلاط: صفحة العنق ويطلق على السمة في عنق البعير مجازاً مرسلًا من إطلاق المحل على الحال وقد كثر هذا حتى صار كأنه حقيقة. محبوبة: موسومة .. والملاغم: الأشداق وما حولها.

المسامع مجازًا مرسلًا في شهرة الذكر وبعد الصيت، من إطلاق المحل على الحال، وفي إسناد السقى إلى خروق المسامع مجاز عقلي علاقته السببية، لأن خروق المسامع بمعنى الذكر وبعد الصيت سبب في السقى، وليست فاعلته وهذا التجوز وضع السبب وأبرزه حيث خيل أنه هو الذي سقى الإبل^(١).

٤- أن يكون كل من المسند والمسند إليه مجازًا لغويًا: أي مستعملًا في غير ما وضع له استعمالًا مجازيًا، فيكون في الجملة ثلاثة مجازات، مجاز عقلي في الإسناد، ومجازان لغويان في كل من المسند والمسند إليه، وقد مثل البلاغيون لهذا بقولهم: أحياء الأرض شباب الزمان؛ حيث استعير الإحياء للإنبات وشباب الزمان للربيع وفي إسناد "أحياء" إلى، "شباب الزمان" مجاز عقلي علاقته الزمانية، ومن ذلك قولنا: "أحيينا مصابيح الإسلام"، و"أحيانا نبراس من الله"، فقد استعيرت الحياة للهداية، ومصابيح الإسلام للعلماء، والنبراس، للقرآن، وفي إسناد الحياة إلى كل من المصابيح والنبراس مجاز عقلي، ففي كل جملة ثلاثة مجازات، مجازان لغويان في كل من المسند والمسند إليه، ومجاز عقلي في الإسناد.



استلزام المجاز العقلي الحقيقة

ما من ريب في أن المجاز العقلي يستلزم الحقيقة العقلية، فكل تجوز في الإسناد له في التقدير فاعل حقيقي، إذا أسند إليه المسند صار الإسناد حقيقة، غير أن الفاعل الحقيقي تارة يكون تقديره واضحًا يدرك بيسر وسهولة كقولك: شفى الطبيب المريض وأنبت الربيع النبات، وكقول الفرزدق:

يَخْمِسِي إِذَا اخْتَرَطَ السُّيُوفُ نِسَاءَنَا ضَرَبَ تَطْيِيرُ لَهُ السَّوَاعِدُ أَرْعَلُ^(٢)

وقول الله عز وجل: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا

(١) ارجع إلى خصائص التراكيب ص ٩١ .

(٢) اخترط السيوف: استلت. وأرعل: من رعل النبات فهو أرعل إذا تهدلت أغصانه. والمعنى: أن الضرب يطير سواعد المضروب ويقطع لحمه فيدعه مدلي كما تتدلى الأغصان المهتدلة.

كَأَنَّهُ مُهْتَدٍ ﴿ [البقرة: ١٦] فالفاعل الحقيقي في مثل هذه الشواهد واضح وجرى به الاستعمال العربي حيث قالوا: شفى الله المريض، وأنبت الله النبات، وريح الناس في تجارتهم، ونحمني نساءنا بضرب شديد أرعل.

وتارة يكون الفاعل الحقيقي خفيًا لا يدرك إلا بالتأمل والنظر، كقولهم: سرتني رؤيتك وأمتعني حديثك، ومحبتك جاءت بي وأقدمني بلدك حق لي على فلان.

وكقول أبي نواس:

وَجَوَّهْرُ عُنْدَنَا مَحْكِي بِدَارَةٍ وَجْهَهُ أَلْقَمَرًا
يَزِيدُكَ وَجْهَهُ أَحْسَنًا إِذَا مَا زِدْتَهُ نَظْرًا

وقول أبي عبد الله محمد بن أبي محمد يحيى بن المبارك اليزيدي:

أَتَيْتُكَ عَائِدًا بِكَ مِنْ كَلَّمَاصَّاقَتِ الْحِجْلِ
وَصَصَّيْرِي هَوَاكَ وَبِي لِحَافِي يُضْرَبُ أَلْمَلْ
فَإِنْ ظَفَرْتِ بِكُمْ نَفْسِي فَمَا لَأَقِيْتُهُ جَلْ
وَإِنْ قَتَلَ الْهَوَى رَجُلًا فَإِنِّي ذَلِكُ الرَّجُلْ

فالفاعل الحقيقي في هذه الشواهد هو "الله تعالى" إذ التقدير: سرتني الله وأمتعني وجاء بي وأقدمني بلدك بسبب رؤيتك وحديثك ومحبتك وحق لي على فلان، وكذا التقدير في البيتين: يزيدك الله حسنًا بسبب النظر إلى وجهها، وصيرك الله بسبب هواه، ولكن لما كان الإسناد الحقيقي في مثل هذه الشواهد لم يجر به الاستعمال العربي، وأن الإسناد المجازي قد كثر وجرى على ألسنتهم خفي الإسناد الحقيقي، الذي يصار إليه عند التقدير وصار لا يخطر على البال ولا يدرك إلا بشيء من التأمل وإنعام النظر وتذكر الحقيقة الثابتة التي تقرر أن الله تعالى هو خالق الأفعال كلها.

هذا واستلزام المجاز العقلي الحقيقة العقلية قد أجمع عليه البلاغيون واتفقوا،

ولكن بعضهم خفي عليه كلام عبد القاهر في هذا الصدد فاعتقد أنه ينكر أن يكون لكل فعل فاعل حقيقي يصار إليه عند التقدير، وكلام عبد القاهر لا يفيد هذا، إذ يذكر أن من أساليب المجاز العقلي ما يمكنك أن ترجع بالإسناد فيه إلى الفاعل الحقيقي، مثل نام ليلي وتجلى همي، وقوله تعالى: ﴿فَمَا رَیْحَتَ تَجْرَتُهُمْ﴾ [البقرة ١٦] وقول الشاعر:

تُجُوبُ لَهُ الظَّلْمَاءَ عَيْنٌ كَأَنَّهَا زُجَاجَةٌ شُرِبَ غَيْرُ مَلَأَى وَلَا صِفْرِ

فمن السهل معرفة الفاعل الحقيقي في مثل هذه الشواهد، إذ يقال: نمت في ليلي وربحوا في التجارة، ويجوب الجمل الظلماء بعينه.

وهناك أساليب من المجاز العقلي لم يألفها الاستعمال مسندة إلى ما حقها أن تسند إليه، مثل: أقدمني بلدك حق لي عليك، وقول أبي عبد الله محمد بن أبي محمد يحيى بن المبارك اليزيدي:

وَصَوَّرَ بِيَّ مَوَاكِبِي لِحَاثِي يُضْرَبُ الْمَثَلُ

وقول أبي نواس:

يَزِيدُكَ وَجْهَهُ أَحْسَنًا إِذَا مَا زِدْتَهُ نَظْرًا

يقول عبد القاهر: "إنك لا تستطيع أن تزعم أن "الصيرني" فاعلاً قد نقل عنه الفعل فجعل للهوى، كما فعل ذلك في: "ربحت تجارتهم": ولا تستطيع كذلك أن تقدر "ليزيد" في قوله: يزيدك وجهه، فاعلاً غير الوجه.."^(١) ومراد عبد القاهر بعدم الاستطاعة أنه لم يؤلف الاستعمال الحقيقي في مثل هذا ولم يجز على السنة القوم، بل الذي أُلِفَ وكثر استعماله وجرى على ألسنتهم هو الاستعمال المجازي.

وقد أخذ هؤلاء الذين خفي عليهم كلام عبد القاهر يقدرون لما ذكر من شواهد فاعلاً حقيقياً ثم يقولون: إن أي مسند إليه يرتضى العقل صحة إسناد هذه الأفعال إليه يكون الإسناد معه حقيقياً^(٢) .. وعبد القاهر لم ينكر هذا كما رأينا، وقد

(١) دلانل الإعجاز ٢٨٩.

(٢) انظر نهاية الإيجاز.

وضحنا مراده .. ولا نرى للخوض في مثل هذه الخلافات فائدة ترمحي، ولذا ننصح الدارس بعدم الخوض فيها وأن يتجاوزها إلى ما هو مفيد ومثمر..

إنكار المجاز العقلي

وقد أنكر السكاكي المجاز العقلي أو بمعنى أدق رجعه إلى الاستعارة المكنية، فقال في نحو: أنبت الربيع البقل، إن الربيع استعارة مكنية؛ حيث شبه الربيع بالفاعل الحقيقي وهو الله تعالى في تعلق الفعل بكل منهما، ثم حذف المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو الإنبات، وإثبات الإنبات للربيع استعارة تخيلية، وبهذا يخرج السكاكي المجاز العقلي من علم المعاني ويضعه في علم البيان مع صور الاستعارة المكنية، والذي دفعه إلى هذا - كما قال - الرغبة في تقليل الأقسام، ومن أجل تلك الرغبة أنكر أيضًا الاستعارة التبعية وأدخلها في المكنية ..

ومن أنكروا المجاز العقلي أيضًا يحيى بن حمزة العلوي، صاحب الطراز أو بمعنى أدق عده من المجازات المركبة اللغوية، إذ يقول: "اعلم أن هذه المجازات المركبة التي ذكرناها ومثلناها بقوله تعالى: ﴿ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَنْقَالَهَا ﴾ [الزلزلة ٢] ويقوله تعالى: ﴿ مِمَّا تَلَيْتُ الْأَرْضُ ﴾ [البقرة ٦١] وقوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا ﴾ [يونس ٢٤] وغير ذلك من الأمثلة، فإنها كلها مجازات لغوية استعملت في غير موضوعاتها الأصلية، فلأجل هذا حكمنا عليها بكونها لغوية، وبيانه هو أن صيغة "أنبت" وأخرج، و"أخذ" وضعت في أصل اللغة بإزاء صدور الخروج والنبات والأخذ من القادر الفاعل، "فإذا استعملت في صدورها من الأرض"، فقد استعملت الصيغة في غير موضوعها، فلا جرم حكمنا بكونها مجازات لغوية"^(١).

ومما لا ريب فيه أن تقليل الأقسام مما يفيد الدارس وينفع الباحث، بشرط ألا يؤدي هذا التقليل إلى تجاهل الخصوصيات ونحن عندما نقرأ صور المجاز العقلي، وننظر في شواهد نرى لها مذاقًا مختلف وخصوصيات تبتعد عن مذاق الاستعارة المكنية وعن خصوصياتها، وكذا القول في المجاز المركب، وفي الاستعارة التبعية، ولا

يخفى عليك هذا عندما تنظر في قوله تعالى: ﴿فَمَا زَبَحَتْ تَجْرُثُهُمْ﴾ [البقرة ١٦] وقوله عز وجل: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ [القارعة ٧].

وفي قول الفرزدق:

سَقَاهَا حُرُوقٌ فِي الْمَسَامِعِ لَمْ تَكُنْ عَلَاطًا وَلَا مَجْبُوطَةً فِي الْمَلَاغِمِ

وقوله أيضًا:

يَجْمِي إِذَا اخْتَرَطَ الشُّيُوفُ نِسَاءَنَا صَرَبٌ تَطِيرُ لَهُ السَّوَاعِدُ أَرْعَلُ

وقول الهذلي:

وَإِذَا أَلْمَنِيهِ أَنْ سَبَّتْ أَظْفَارَهَا أَلْفَيْتَ كُلَّ نَمِيَةٍ لَا تَنْفَعُ

وقول الحبيب رضي الله عنه: "مِنْ خَيْرِ مَعَاشِ النَّاسِ لَهْمُ رَجُلٍ مُمِصِّكَ عِتَانَ قَرَسِهِ فِي

سَبِيلِ اللَّهِ يَطِيرُ عَلَى مَتْنِهِ كُلَّمَا سَمِعَ هَيْعَةً أَوْ فَرْعَةً طَارَ عَلَيْهِ إِلَيْهَا يَبْتَغِي الْقَتْلَ وَالْمَوْتَ مَطَانَةً" ^(١)..

وقولنا للمتردد "أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى".

وقول ابن ميادة:

أَلَمْ تَكُ فِي يُمْنِي يَدِيكَ جَعَلْتَنِي فَلَا تَجْعَلْنِي بَعْدَهَا فِي شِمَالِكَا

وقول بعض العرب:

فَإِنْ تَعَاوَا الْعَدْلَ وَالْإِيْمَانَ فَإِنَّ فِي أَيْمَانِنَا نِيرَانَنَا

حيث ترى أن الخصوصيات التي اقتضاها المجاز العقلي في الآيتين الكريميتين،

وفي بيتي الفرزدق، تختلف عن الخصوصيات التي اقتضتها الاستعارة المكنية في بيت أبي ذؤيب، والاستعارة التبعية في الحديث الشريف، والاستعارة التمثيلية في القول المذكور وفي بيت ابن مياده، والاستعارة التصريحية في البيت الأخير، وسيوضح لك هذا عندما تدرس هذه الألوان في علم البيان.

والمهم الآن أن تعرف أن مذاق المجاز العقلي يختلف عن مذاق تلك الألوان،

(١) رواية مسلم في الإمامة برقم [١٢٥/١٨٨٩] وابن ماجه في الفن برقم [١٣/١٩٧٧].

ففي الآية الأولى أفاد إسناد الريح إلى التجارة المبالغة في تأكيد سببية التجارة في الريح، وفي الآية الثانية تجدد أن إسناد الرضا إلى ضمير العيشة أفاد كمال المبالغة في رضاهم بها وانسجامهم فيها، وفي البيت الأول للفرزدق أفاد إسناد السقى إلى خروق المسامع، تأكيد هذه السببية بجعلها فاعلاً للسقى، وكذا القول في يحمي نساءنا ضرب، وهكذا تجد للمجاز العقلي مذاقاً لا تجده في الألوان الأخرى، فلا مجال لإنكاره إذاً ورده إلى المجازات المركبة، أو رجعه إلى الاستعارة المكنية رغبة في تقليل الأقسام، لأن تقليل الأقسام: إذا تنافى مع الخصوصيات التي يقتضيها المقام، فلا مزية لهذا التقليل، ولا يصح الأخذ به.

هذا وقد دفع الخطيب القزويني إنكار السكاكي للمجاز العقلي، أو جعله إياها استعارة مكنية، دفعاً شديداً ورده بردود قوية وذلك حيث يقول: " وفيها ذهب إليه نظر، لأنه يستلزم أن يكون المراد بعيشة في قوله تعالى: ﴿ فَهَوَ فِي عَيْشِهِ رَاضِيَةً ﴾ [الفارعة ٧] صاحب العيشة لا العيشة وبقاء في قوله: ﴿ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ﴾ [الطارق ٦] فاعل الدفق لا المنى، لأن مبني الاستعارة بالكناية عنده أن المشبه يصير من أفراد المشبه به، وألا تصح الإضافة في نحو قولهم: فلان نهارة صائم، لأن المراد بالنهار على هذا فلان نفسه وإضافة الشيء إلى نفسه لا تصح، وألا يكون الأمر بالإيقاد على الطين في الآية: ﴿ فَأَوْقَدْ لِي يَنْهَمِنُنْ عَلَى الطِّينِ ﴾ [القصص ٣٨] لهامان مع أن النداء له - بل يكون لجنوده الذين شبه بهم - وأن يتوقف جواز التركيب في نحو قولهم: أنبت الربيع البقل، وسرتني رؤيتك، على الإذن الشرعي، لأن أساء الله توقيفية .. ثم ما ذكره منقوض بنحو قولهم: فلان نهارة صائم، فإن الإسناد فيه مجاز ولا يجوز أن يكون النهار استعارة بالكناية عن فلان، لأن ذكر طرفي التشبيه يمنع من حمل الكلام على الاستعارة ويوجب حمله على التشبيه" (١).



بلاغة المجاز العقلي ودقة مسلكه

وتكمن بلاغة المجاز العقلي فيما يفيد من المبالغة في التعبير، وإيجاز القول، وإثارة الخيال عندما يسند الفعل إلى غير فاعله الحقيقي، كما ترجع بلاغة المجاز العقلي إلى أنه يفتح أمام المتكلم الميدان للتفنن في القول، وتلوين العبارة، وإخضاع الكلام لما يريد، وتشكيل البناء حسبما يهدف إليه ويرمي، فهو يلجأ إليه لنفي تهمة، أو لتخلص من جريمة، أو لتحقيق مقصد من المقاصد؛ حيث يجد في إسناد الفعل إلى غير فاعله الحقيقي ميداناً رحباً لتحقيق هذه المقاصد.

ولذا يقول فيه عبد القاهر.. "وهذا الضرب من المجاز على حدته كنز من كنوز البلاغة، ومادة الشاعر المفلح والکاتب البليغ، في الإبداع والإحسان والانتساع في طرق البيان، وأن يجيء بالكلام مطبوعاً مصنوعاً، وأن يضعه بعيد المرام، قريباً من الإفهام"^(١).

ويتضح لك هذا من خلال تأملك لشواهد وأمثله .. انظر في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَنْفَاقَهَا﴾ [الزلزلة ٢] تجد أن الفعل قد أسند إلى مكانه وفي هذا الإسناد تحييل محرك ومثير؛ إذ يصور لنا الأرض فاعلة جاهدة تخرج أنفاقها وتقذف بنفسها ما بداخلها، فلا تبقى في باطنها شيئاً، وتأمل الشواهد التي أسند فيها الفعل إلى سببه أو إلى زمانه أو مكانه نحو: بنى الأمير، ونهاره صائم، وليله قائم، وطريق سائر، ولاحظ ما فيها من الإيجاز وتقليل الألفاظ، إذا المراد: بنى العمال بأمر الأمير، وصام الناس في النهار، وقام العابد الليل، ومضى السائرون في طريقهم، وفضلاً عن إفادة الإيجاز تجد التجوز في تلك الأمثلة قد أفاد المبالغة في وقوع هذه الأفعال وشدة اهتمام الأمير بالبناء، وتأکید كمال الصوم وتمام القيام وسرعة السير في الطريق ..

وكثيراً ما يلجأ المتكلم إلى المجاز العقلي لتحقيق مقصد من المقاصد - كما قلت انظر إلى قولهم: "فلان قتله جهله وقضى عليه غروره"، وهم يريدون بهذا تبرئة

(١) دلائل الإعجاز ٢٨٨.

القاتل من جريمة قتله، ونفى التهمة عن من قضى على غيره، وذلك بإسناد القتل إلى جهل المقتول، "وقضى" إلى غرور المقتضي عليه وتكبره وعجرفته. فقد وجدوا في المجاز العقلي تحقيقاً لهذا المقصد.

ومن هذا ما روى أن عمار بن ياسر - رضي الله عنهما - لما قتل يوم صفين وكان في جند علي - كرم الله وجهه -، اضطرب أهل الشام لعلمهم بقول النبي ﷺ: «وَيَحْ عَمَّارٍ تَقْتُلُهُ الْفِئَةُ الْبَاغِيَّةُ يَدْعُوهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ وَيَدْعُونَهُ إِلَى النَّارِ»^(١)، فقال لهم معاوية ﷺ: "إنما قتله من أخرجه"، فقد وجد معاوية ﷺ في المجاز دفعاً للتهمة عن جماعته وإزالة لاضطراب الناس وارتياحهم.

ومنه أيضاً ما ورد أن زياداً عندما كان والياً على الكوفة من قبل معاوية، اتهم حجر بن عدي وأصحابه بالخروج على معاوية، وأشهد على ذلك سبعين من وجوه الكوفة، ثم أرسلهم إلى معاوية مع شهادتهم بهذا الخروج فقتل معاوية حجراً وصحبه، فلما حجج معاوية، مر على أم المؤمنين السيدة عائشة - رضي الله عنها - فاستأذن عليها فلما أذنت له وقعد سألته: "أما خشيت الله في قتل حجر بن عدي وأصحابه؟" فأجاب: "لم أقتلهم وإنما قتلهم من شهد عليهم" فقد وجد في المجاز ما يدفع به عن نفسه تهمة قتل حجر وأصحابه.

هذا والمتكلم يحتاج في استخدامه لهذا المجاز أن يهين العبارة له، فليس كل شيء - كما يقول عبد القاهر - يصلح لأن يتعاطى فيه هذا المجاز، بل تجدك في كثير من الأمر وأنت تحتاج إلى أن تهين الكلام، وتصلحه لذلك بشيء تتوخاه في النظم، وكلما هيا المتكلم العبارة لهذا المجاز تجده قد صار أوقع في النفس والطف، وأكد وأبلغ.

انظر إلى قول بعضهم:

تَنَاسَى طِلَابَ الْعَامِرِيَّةِ إِذْ نَأَتْ بِأَسْحَجَ مِرْزَ قَالَ الضُّحَى قَلَوَ الضَّفِيرِ
إِذَا نَأَتْ أَسْحَجُ الْأَفَاعِي تَحَيَّرَتْ سُورَةُ الْأَفَاعِي مِنْ مُثَلَّمَةِ سُومِرِ

(١) رواه البخاري في الصلاة برقم [٤٤٧/٦٣].

نَجُوبٌ لَهُ الظَّلْمَاءُ عَيْنٌ كَأَنَّهَا زُجَاجَةٌ تُشْرِبُ غَيْرُ مَلَأَى وَلَا صَفِيرٌ^(١)

تجده قد أسند "تجوب" إلى "العين" والأصل: يجوب الجمل بعينه الظلماء، ولكنه عدل إلى المجاز فأسند الفعل إلى آتته، ثم هيأ البيت وتوخى من النظم ما يجعل المجاز أطف وأوقع في النفس إذ تراه نكر العين ليتسنى له وصفها بالجملة الواقعة بعدها، ولو قال: تجوب له الظلماء عينه ما تمكن من وصفها بتلك الجملة، وعندما نكر العين وقطعها عن الإضافة إلى الجمل وصلها به بقوله "له" فبدون الضمير في "له" يصير الكلام لا علاقة له بالجمل^(٢).

وانظر في قول الفرزدق:

يَحْمِي إِذَا اخْتَرَطَ السُّيُوفُ نِسَاءَنَا ضَرْبٌ تَطِيرُ لَهُ السَّوَادُ أَرْعَلُ

تجده قد قدم الشرط: "إذا اخترط السيوف" على الفاعل والمفعول فأبرز بهذا صعوبة الموقف وشده الحال، ثم إن بناء الفعل للمجهول "اخترط"، قد أشار إلى سرعة سل السيوف باندفاع وتهور، وتأمل القولين: يحمي نساءنا ضرب إذا اخترطنا السيوف، ويحمي إذا اخترط السيوف نساءنا ضرب، تجد أن تقديم الشرط والمجيء به معترضاً بين الفعل وفاعله، قد هيأ العبارة للمجاز العقلي فدق ولطف، ووقع في النفس موقعه..

وخذ قول الخنساء:

تَرْتَعُ مَا غَفَلْتُ حَتَّى إِذَا ادَّكَّرْتُ فَأَيُّهَا هِيَ إِقْبَالٌ وَإِدْبَارُ

تجد أن أسلوب القصر قد هيأ المجاز العقلي أحسن تهيئة حيث قصرت الناقبة على الإقبال والإدبار، وقارن بين: هي إقبال وإدبار، وإنما هي إقبال وإدبار، فستضح لك قوة المبالغة المنبعثة من أسلوب القصر.

(١) الأسجع من الإبل: الرقيق المشفر، ومقال: سريع العدو والضرير: الحزام فهو قلق الضفر من شدة الضمور. وشوأة الأفاعي: جلودها، وتحيزت: انقبضت. والمثلثة السر: الأخفاف وثلمها من السير على الحجارة والسير منها أقواها. وصر: خالية، وتجوب: تقطع وتنفذ.

(٢) انظر دلائل الإعجاز ٢٩٠.

ثم تأمل قول كثير:

أَحْذَنَّا بِأَطْرَافِ الْأَحَادِيثِ بَيْنَنَا وَسَأَلْتُ بِأَعْنَاقِ الْمَطِيِّ الْأَبَاطِحُ

تجد أن اختيار هذا الجزء من الإبل "الأعناق" قد أضفى على العبارة جمالاً وأبرز وجلي ما يفيد المجاز العقلي من تخيل وتصوير الأباطح متحركة تدفع بهذه المطى دفعا وتسيل بها سيلاناً، وذلك لأن حركة الإبل عندما تسرع في السير تظهر تمام الظهور في أعناقها، ويتضح لك هذا عندما تقارن بين قولك وسالت بالمطي الأباطح وبين ما قاله كثير:

وسالت بأعناق المطي الأباطح

وهكذا تجد المجاز العقلي في حاجة إلى تهيئة العبارة وتوخي النظم، وأن الشاعر أو المتكلم عندما يراعي هذا فيتوخي من النظم ما يلائم المجاز ويهيئ العبارة له، فإنه يقع في النفس موقعه، ويحقق ما يقصده الشاعر من الإيجاز والمبالغة والتخيل.



الفصل الثاني أحوال المسند إليه

المسند إليه هو أحد أجزاء الجملة - كما عرفت - إذ تتكون الجملة من مسند ومسند إليه وأحد المتعلقات - إن وجد - كالمفعول والظرف والمصدر والجار والمجرور .. وستتناول في هذا الفصل أحوال المسند إليه من حذف وذكر وتعريف وتنكير وإتباع وتقديم وتأخير .. ثم تتبع ذلك بأحوال المسند وأحوال المتعلقات في الفصلين التاليين. وفي ختام هذا الجزء سنعرض لظواهر أسلوبية تشمل كل أجزاء الجملة المذكورة.

حذف المسند إليه

لابد لكل حذف يقع في اللغة من وجود أمرين بدونهما يكون الحذف عبثاً وضرباً من الهذيان، وهذان الأمران هما:

١- وجود القرينة الدالة التي تدل على المحذوف وترشد إليه وتعينه.

٢- وجود سر بلاغي يدعو إلى الحذف ويرجح على الذكر.. وهذه الأسرار كثيرة، ولا يمكن استقصاؤها والإحاطة بها، ولذا يقول عبد القاهر في إبراز فوائد الحذف وبيان قيمته البلاغية: "هو باب دقيق المسلك، لطيف المآخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجذك أنطق ما تكون إذا لم تنطق وأتم ما تكون بياناً إذا لم تبين .. وهذه جملة قد تنكرها حتى تخبر، وتدفعها حتى تنظر، وأنا أكتب لك بديئاً أمثلة مما عرض فيه الحذف، ثم أنبهك على صحة ما أشرت إليه، وأقيم الحجة من ذلك عليه.." (١)

وأخذ يعرض كثيرًا من شواهد حذف المبتدأ والمفعول مبيّنًا دقة الحذف فيها ومزيتها وفضله على الذكر، وموضحًا أن تقدير المحذوف والنظر إليه واعتباره في الكلام يعد تكلفًا ويذهب بمزية الحذف ويضيع رونقه .. يقول: "تكلف أن ترد ما حذف الشاعر وأن تخرجه إلى لفظك وتوقعه في سمعك، فإنك تعلم أن الذي قلت

(١) دلائل الإعجاز ص ١٧٠.

كما قلت وأن رب حذف هو قلادة الجيد وقاعدة التجويد" ويقول: "إنك ترى نصبه الكلام وهيته تروم منك أن تنسى هذا المبتدأ أو تباعده عن وهمك، وتجتهد ألا يدور في خلدك، ولا يعرض لخطرك وتراك كأنك تتوقاه توقى الشيء يكره مكانه، والثقل يخشى هجومه" ويقول: "ترى النفس كيف تتفادى من إظهار المحذوف، وكيف تأنس إلى إضماره، وترى الملاحه كيف تذهب إن أنت رمت التكلم به"، ويقول: "فما من اسم أو فعل تجده قد حذف ثم أصيب به موضعه، وحذف في الحال التي ينبغي أن يحذف فيها، إلا وأنت تجد حذفه هناك أحسن من ذكره، وترى إضماره في النفس أولى وأنس من النطق به"^(١).

هذا ونستطيع أن نقول إن هناك ثلاث مزايا تراها كامنة وراء كل حذف يقع في اللغة وهي: الإيجاز، وإثارة وتحريك خيال المخاطب وأحاسيسه ليذكر من العبارة ما طوى ذكره وسكت عنه، والاحتراز عن العبث بناء على الظاهر، لأن ذكر الكلمة التي أقيم عليها الدليل وأشار إليها السياق وأرشدت إليها قرائن الأحوال، يعد عبثاً بمقتضى البلاغة، وإن كان لا يسمى عبثاً عند التحقيق، ولذا قيدوه بقولهم "بناء على الظاهر".

وعندما ننعم النظر وتتأمل الشواهد التي طوى فيها المسند إليه نجد أن حذفه قد كثر واطرد عند ذكر الديار والأطلال، وفي مقامات المدح والهجاء والفخر والثناء، وأن هنالك أسراراً بلاغية، تكمن وراء الحذف في تلك المقامات.

ذكر عبد القاهر أن حذف المسند إليه "المبتدأ" يكثر عند ذكر الديار والأطلال، ويطرد كذلك عند المدح والفخر وعند الهجاء أو الرثاء إذ تراهم يبدأون بذكر الرجل ويقدمون بعض أمره ثم يدعون الكلام ويستأنفون كلاماً آخر، وهم إذا فعلوا ذلك أتوا في أكثر الأمر بخبر من غير مبتدأ.. ويعرض عبد القاهر كثيراً من الشواهد لهذا الحذف.

من ذلك قول عمر بن أبي ربيعة:

اعْتَادَ قَلْبُكَ مِنْ لَيْلِي عَوَائِدُهُ وَهَاجَ أَهْوَاءُكَ الْمَكْنُونَةَ الظَّلَلُ

(١) ارجع إلى هذه الأقوال في دلائل الإعجاز، ١٧٤، ١٧٥.

رَبْعٌ قَوَاءٌ أَذَاعَ الْمُعْصِرَاتُ بِهِ وَكُلُّ حَيْرَانَ سَارٍ مَأْوُهُ خَضُلٌ^(١)

أراد: ذلك ربع قواء فحذف المبتدأ.

ومثله قول عمر بن أبي ربيعة أيضاً:

هَلْ تُعْرِفُ النَّيَّومَ رَسَمَ الدَّارِ وَالطَّلَلَا دَارَ لَيْلِيَّةٍ إِذْ أَهْلِي وَأَهْلُهُمْ
كَمَا عَرَفْتَ بَجَفْنِي الصَّيْقِلِ السَّخْلَلَا بِالْكَانِيَّةِ تَزَعَى اللَّهْوُ وَالْعَزَلَا^(٢)

وكانه قال: تلك دار ..

ونحوه قول ذي الرمة:

إِلَى لَوَائِحِ مِنْ أَطْلَالِ أَحْوِيَّةٍ كَأَنَّهَا خَلَّلُ مُوشِيَّةٍ فُسْبُ
دِيَارِ مِيَّةٍ إِذْ مَيِّ تُسَاعِفُنَا وَلَا يَرَى مِثْلَهَا عَجْمٌ وَلَا عَرَبٌ^(٣)

أراد: تلك ديار أو هذه ديار ..

وبما ورد من ذلك في مقام المدح ونحوه قول الشاعر:

هُمُ حَلَّوْا مِنْ الشَّرْفِ الْمُعَلَّى وَمِنْ حَسَبِ الْعَشِيرَةِ حَيْثُ شَاءُوا
بُنَاءَ مَكَارِمٍ وَأَسَاءَةَ كَلِمِ دِمَاؤُهُمْ مِنْ الْكَلْبِ الشِّفَاءُ^(٤)

وقول عمرو بن معد يكرب:

وَعَلِمْنَا أَنِّي يَوْمَ ذَا قَوْمٍ إِذَا لَبِسُوا الْحَدِيدَ
لَكَ مَنَّا زِلٌّ كَعَبَّاءٍ وَتَمَّزَا لَكَ مَنَّا زِلٌّ كَعَبَّاءٍ وَتَمَّزَا وَقَدَّأُ^(٥)

(١) قواء: موحش قفر. والمعصرات: السحاب وكذا الحيران والساري وخضل: كثير.

(٢) الصيقل: السيف المصقول... والحلل بكسر الحاء: مفردها حلة وهي جفن السيف المبطن بالجلد ونحوه.. والكانسية: موضع.

(٣) اللوائح: ما تبين ولاح، وأحوية: بيوت مجتمعة مفردها: حواء. وموشية: منقوشة. وقشب: جدد.

(٤) الكلم: الجرح. والكلب: داء يصيب الإنسان إذا عضه كلب، وكانوا يعتقدون أن دم الشريف إذا قطر في فم المصاب بداء الكلب فإنه يشفيه.

(٥) كعب ونهد: قبيلتان. وتمروا: تشبهوا بالنمور، والقد: الجلد تصنع منه بعض الدروع. والحلق: حلق الدروع.

وقول محمد بن سعد الكاتب التميمي البغدادي:

سَأَشْكُرُ عَمْرًا إِنْ تَرَاحَتْ مَيْئَتِي أَيَادِي لَمْ تُثْمَنَنَّ وَإِنْ هِيَ جَلَّتِ
فَتَى غَيْرِ مُتَّحِبِّ الْغِنَى عَنِ صَدِيقِهِ وَلَا مُظْهِرِ الشُّكْوَى إِذَا التَّغْلُ زَلَّتِ

وقول لقيط بن زرارة:

أَصْدَاءَتْ هُمْ أَحْسَابُهُمْ وَوُجُوهُهُمْ دُجَى اللَّيْلِ حَتَّى نَقَطَمَ الْجَزْعَ نَائِبُهُ
تُجُومُ سَمَاءٌ كُلَّمَا انْقَضَ كَوْكَبٌ بَدَا كَوْكَبٌ تَأْوِي إِلَيْهِ كَوَاكِبُهُ^(١)

وقول الأقيشر الأسدي في هجاء ابن عمه:

سَرِيعٌ إِلَى ابْنِ الْعَمِّ بَلْطُمٌ وَجَهَةٌ وَلَيْسَ إِلَى دَاعِيِ النَّدَى بِسَرِيعِ
حَرِيصٌ عَلَى الدُّنْيَا مُضِيعٌ لِدِينِهِ وَلَيْسَ لِمَا فِي بَيْتِهِ بِمُضِيعِ

أرادوا: هم بناء مكارم .. هم قوم إذا لبسوا الحديد تنمروا .. هو فتى .. هم نجوم سماء .. هو سريع وحريص ..

وعبد القاهر كعادته يحيلك إلى الذوق لتدرك سر بلاغة الحذف في تلك الشواهد، ويطلب منك أن تقارن بين الجمل وقد قدرت المحذوف وبين ما قاله الشاعر لتدرك بعد ما بين الكلامين وتعرف أن تقدير المحذوف قد أفسد المعنى الذي أراده الشاعر.

وأزيدك أن حذف المبتدأ عند ذكر الديار والأطلال يحقق معنى أراده الشاعر، وهو كراهته أن تنسب تلك الرسوم والأطلال والدمن والآثار حيث تغيرت الديار وتبدلت وأذاعت بها المعصرات فصارت تلوح لك كالخلل الموشية، وكانت من قبل دياراً للهو والغزل .. كراهته أن تنسب تلك الديار التي بدلت إلى اسم حبيته فيقال: تلك ديار مية. وذلك ريع ليلي، ونظير هذا أن ترى صديقاً حميماً لك قد رسب في الامتحان ولم يوفق فتقول محدثاً عنه: رسب .. لم ينجح، ولا تذكر اسمه كراهة أن تضيف الرسوب إليه ..

(١) الجزع: خرز فيه بياض وسواء.

وقارن كما يقول عبد القاهر بين: "دار لمية"، وبين "تلك دار لمية"، فستجد أن ذكر اسم الإشارة قد جعل ديارية تنسب إليه وهو مشار به إلى الرسوم والدمن التي عصفت بها الرياح فصارت تلوج لك، كاخلخل الموشية القشب، أما طيه والسكوت عنه فيجعل الديار ديارًا باقية بذكرياتها وحياتها، ذكريات اللعب وهو الشباب وحياة الحب والعشق.

وشيء آخر وراء هذا الحذف وهو أن الشاعر عند ذكر الأطلال والديار والمنازل التي بددها الأيام وغيرها الزمن، يكون ممتلى النفس، متوتر الحس، حزينًا كثيرًا، وتلك حال تقتضي الحذف، وتدعو إلى طي الكلمات وإيجاز القول.

أما حذف المبتدأ في مقام المدح ونحوه، عندما يقطع الشاعر المعنى مستأنفًا معنى آخر، فأرى أن سر الحذف عندئذ هو رغبة الشاعر في تميز هذه المعاني، وظهورها صنوفًا متباينة وألوانًا مختلفة وأجناسًا متغايرة وحذف المبتدأ في تلك الجمل المستأنفة، يحقق هذه الرغبة، إذ يجعل الجمل المستأنفة مستقلة بمعانيها، غير مرتبطة بما قبلها، وعليك أن تقارن بين قولهم بناء مكارم.. قوم إذا لبسوا الحديد تنمروا.. فتى غير محبوب الغنى.. نجوم سماء كلما.. سريع إلى ابن العم.. وبين قولك: هم بناء مكارم.. هم قوم.. هو فتى.. هم نجوم سماء.. هو سريع إلى ابن العم.. فستجد أن ذكر الضمير "المسند إليه" قد ربط بين المعاني المسندة إليه، والمعاني السابقة، إذ يرجع إلى المتحدث عنهم فيجعل تلك الأوصاف التي يراد وصفهم بها واحدة مرتبطة يندمج بعضها في بعض، وهذا ما لا يريده الشعراء في هذا المقام، إذ أرادوا بحذفه من صدر الاستئناف، تميز المعاني المستأنفة عن المعاني السابقة وكأنها - كما قلت - ضروب متباينة وأجناس متغايرة، وإضافة تلك المعاني إلى المتحدث عنهم على هذا النحو مما يفيد كمال المبالغة في المدح أو الفخر أو الرثاء أو الهجاء.. إلخ.

وشيء آخر وراء حذف المسند إليه في هذا المقام، وهو أنه ينبئ بمدى انفعال الشاعر، وامتلأ نفسه بتلك المعاني، فيفيض بها صنوفًا مختلفة، وألوانًا متميزة.

ومن الأسرار البلاغية الكامنة وراء حذف المسند إليه: "ضيق المقام" ويرجع

ذلك إلى ما يكون فيه المتحدث من حزن، وألم، أو ملل وسأم، أو إلى خوفه من فوات فرصة أو ضياع شيء، أو إلى سماعه أمرًا غريبًا يدعو إلى التعجب وبشر الاستغراب.

انظر إلى قوله تعالى: ﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۗ قَالُوا لَا تَخَفْ ۗ وَنَشَرُوهُ بِغَلْمٍ عَلَيْهِ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتْ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الذاريات: ٢٨، ٢٩]

فقد حذف المسند إليه وتقديره: "أنا عجوز عقيم"، وسر بلاغة حذفه، يرجع إلى تعجبها من بشارة الملائكة، واستبعادها أن تلد وهي عقيم وقد وصلت حد الكبر وصار بعلمها شيخًا كبيرًا، وكأن المقام وما هي فيه من تعجب واستغراب واستبعاد يضيق بالمسند إليه ويقتضي طيه وحذفه ..

وتأمل قول الشاعر:

قَالَ لِي: كَيْفَ أَنْتَ قُلْتَ عَلِيلٌ سَهْرًا دَائِمٌ وَحُزْنٌ طَوِيلٌ^(١)

تجد أن ضيق المقام بسبب ما هو فيه من حزن وألم قد اقتضى حذف المسند إليه، وتقديره. قلت: أنا عليل وحالي حزن دائم وسهر طويل ..

وتسمع من ينادي مستغيثًا: حريق أو غريق، والتقدير: هذا حريق، وهذا غريق، فضيق المقام بسبب خشية المنادي أن تفوت فرصة الإنقاذ، جعله يطوي المسند إليه، ويبادر بذكر المسند.

والحذف لضيق المقام يقع كثيرًا في اللغة، ومنه في غير المسند إليه، قوله تعالى: ﴿ وَتَادُوا بِمَمْلِكٍ لِيَقْضِيَ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ [الزخرف ٧٧] في قراءة من قرأ بترخيم المنادي، فقد قالوا في سبب هذا الترخيم: إنهم لشدة ما هم فيه من عذاب وتأم، عجزوا عن إتمام الكلمة، وكان المقام لا يسعفهم لنداء مالك، فحذفوا آخر الاسم ترخيًا. "يامال" ..

وقوله عز وجل: ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا ۖ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾ [يوسف ٢٩]، فقد حذف حرف النداء، وهذا الحذف يشير إلى ما صار إليه حال العزيز، وقد رأى براءة يوسف، وأيقن بثبوت التهمة على امرأته، وأنها هي

(١) نسب البيت إلى سعيد الجعفري، وكان في عهد هارون الرشيد ..

التي أرادت السوء، وكأن الكلمات لا تسعفه حتى يتم النداء فطوى هذا الحرف، ثم أجل القصة كلها في اسم الإشارة "هذا"، لأن المقام مقام ضيق وحزن، فهو يقتضي الإيجاز وطى الكلمات..

وانظر إلى قول الحارث يخاطب امرأته وقد أخذت تحته على أن يأخذ بثأر أخيه من قومه:

قَوْمِي هُمْ قَتَلُوا أُمَّيْمَ أَخِي فَأِذَا رَمَيْتُ يُصَيَّبِي سَهْمِي
فحال الشاعر حال حزينه مؤلمة، لأن قاتلي أخيه هم قومه فكيف يثأر منهم، إنه إن رمى يصيبه سهمه.. وتأمل إضافة القوم إلى ياء المتكلم: "قومي" وما يكمن وراء هذه الإضافة من أحزان وآلام، تلك الحال قد اقتضت من الشاعر إيجاز القول وطي الكلمات، فحذف حرف النداء ورخم المنادى، إذ الأصل "قومي هم قتلوا يا أميمة أخي" وتأمل أيضًا قوله: "هم قتلوا"، وما يفيدته تقديم المسند إليه وإيلاؤه الخبر الفعلي من تأكيد القتل وقصره عليهم، فهذا القصر ينبعث منه ما يمزق نفس الشاعر ويوجع قلبه ويضيق صدره، فقد استطاع الشاعر أن يصور آلامه وأحزانه، وأن يبرز مبعث أساه: "قومي.. هم قتلوا" ومن ثم اقتضى المقام الحذف وإيجاز القول.

وعد إلى المسند إليه، فانظر إلى طيه في قوله تعالى: ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ [الرعد ٩]، نجد أنه قد طوى لأن المسند المذكور "عالم الغيب" لا ينصرف إلا له "سبحانه وتعالى"، ولذا قال البلاغيون: إن سر حذف المسند إليه في الآية هو تعيينه للمسند المذكور، وهو هنا متعين حقيقة إذ علم الغيب لا يكون إلا له تعالى، وقد يحذف لتعيينه، ادعاء ومبالغة كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَمَمٰنَ وَقُرُوٰتٍ فَعَالُوا سٰجِرٌ كٰذٰبٍ ﴿٢٣﴾﴾ [غافر ٢٣]، [٢٤] أي: هذا ساحر كذاب، فحذفوا المسند إليه لتعيينه -في اعتقادهم- للمسند المذكور "ساحر كذاب"، وغلبة هذا المسند عليه وشهرة اتصاف موسى به -في اعتقادهم-، إلى حد أنه إذا أطلق لفظ "ساحر" أو "كذاب" انصرف إليه، وكأنه قد تعين له ادعاء ومبالغة..

ومن ذلك قولنا "عادل في حكمه" نريد بهذا عمر الفاروق رضي الله عنه، فقد حذف المسند إليه في هذا القول لتعيينه للوصف المذكور مبالغة في عدالته، وذلك لشهرته رضي الله عنه بالعدل.. ففي الحذف دلالة على أنه قد بلغ في الاتصاف بهذه الصفة مبلغاً عظيماً..

وقد يحذف المسند إليه لتعيينه عهداً كقولك لصديقك: "حضر" تريد شخصاً معهوداً لك وله فقد طويت المسند إليه في هذا القول لتعيينه للاتصاف بالمسند المذكور عهداً، إذ ينصرف ذهن صديقك إليه عند سماعه لقولك: حضر..

وتأمل تلك الأمثال: رمية من غير رام.. قضية ولا أبا حسن لها.. شنشنة أعرفها من أخزم، تجد أنها قد وردت بحذف المسند إليه، إذا التقدير: تلك رمية.. هذه قضية.. وتلك شنشنة.. وعندما تضرب هذه الأمثال ينبغي عليك أن تلتزم موردها، فقد حذف المسند إليه اتباعاً للاستعمال الوارد، لأن الأمثال لا تغير.

ومن حذف المسند إليه: بناء الفعل للمفعول، إذ يحذف الفاعل ويقام مقامه غيره، ووراء هذا الحذف أغراض كثيرة، منها الخوف على الفاعل الحقيقي.

كما في قول النابغة الذبياني يعتذر للنعمان بن المنذر:

نُبِّئْتُ أَنَّ أَبَا قَابُوسَ أَوْعَدَنِي وَلَا قَرَارَ عَلَيَّ زَائِرٍ مِنَ الْأَسَدِ

فقد حذف النابغة من أنبأه خوفاً عليه.. والخوف منه كقولك: "سرق المتاع"،

تريد: سرق اللص المتاع.

واحتقاره كما في قول النابغة:

لَسِنٍ كُنْتَ قَدْ بُلِّغْتَ عَنِّي خِيَانَةً لَمُيْلِعُكَ الْوَاثِي أَعَشُّ وَأَكْذَبُ

وضيق المقام كقول أبي فراس:

أَسْرْتُ وَمَا صَحْبِي بِعَزَلٍ لَدَى الْوَعَى وَلَا قَرَيْبِي مُهْرٌ وَلَا رَبُّهُ عَمْرُ

والجهل به كقولك: قتل المجرم، إذا كنت تجهل قاتله والعلم به كما في قول

المتنبي:

سُبِّحْنَا إِلَى الدُّنْيَا فَلَوْ عَاشَ أَهْلُهَا مُنِعْنَا بِهَا مِنْ جَيْتَةٍ وَذُهَبِ

وكقوله عز من قائل: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [الجمعة ١٠].

وتأمل قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَسْمَأِ أَلْقِيهِ وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود ٤٤] تجد أن الفعل قد بني للمفعول في قوله: "قيل.. غيض.. قضى" للعلم بالفاعل الحقيقي وهو الله القادر، ووراء حذف الفاعل سر آخر وهو الإشارة إلى سرعة الإجابة والامثال وأن هنالك قوة خارقة هي قدرة الله عز وجل قد اختطفت الماء فانمحي وزال.

وانظر في قوله عز وجل: ﴿فَعَلُّبُوا هُنَالِكَ وَأَنْقَلَبُوا صَغِيرِينَ﴾ [الأعراف ١١٩، ١٢٠] تجد أن وراء حذف المسند إليه دقائق ولطائف أهمها: الإشارة إلى قدرة الخالق فهو الغالب وليس موسى، بل لقد أوجس موسى في نفسه خيفة عندما رأى حبالهم وعصيهم وخيل إليه من سحرهم أنها تسعى، فقوله تعالى "غلبوا" بالبناء للمجهول إشارة إلى قدرة الله القاهر وتنبئها إلى أن الغلبة كانت بتدبيره وصنعه، وبهذا يظل موسى في مرتبة العبودية العاجزة التي لا تصنع شيئاً خارقاً، وإنما يجريه الله تعالى على يديه، وتأمل قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَى السَّحْرَةَ﴾ وإشارته إلى سرعة امتثالهم لأمر الله وكأن قوة القهار قد نزعت العناد والكفر من رءوسهم فانكبوا ساجدين، مؤمنين برب العالمين.

وقد يحذف المسند إليه لظهوره ظهوراً لا لبس فيه، انظر في قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ﴾ [القيامة ٢٦] وقوله عز وجل: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ﴾ [الواقعة ٨٣]، تجد أنه قد طوى المسند إليه وتقديره: إذا بلغت الروح التراقي والحلقوم، وطيه في الآيتين لظهوره ظهوراً بيئاً، إذ لا يبلغ الحلقوم والتراقي عند الموت إلا الروح والنفس، وشيء آخر وراء الحذف في الآيتين وهو الإشارة إلى ما عليه الروح من وشك المفارقة وكان إسقاطها من العبارة يؤذن بزوالها.

ومن ذلك قول حاتم:

أَمْأَوِي مَأْيَغْنِي الشَّرَاءَ عَنِ الْفَتَى إِذَا حَشْرَجَتْ يَوْمًا وَصَاقَ بِهَا الصَّدْرُ

أراد: إذا حشرجت النفس فحذفت النفس لما بينا من أن طيها من العبارة

يوحي بوشك زوالها وانتقالها إلى بارئها.

ومن ذلك أيضًا قوله عز وجل: ﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ [ص ٣٢]، فالمراد: حتى توارت الشمس، فحذفت لظهورها، ظهورًا تامًا، ولإيدان الحذف بالموارة والاختفاء، وكأن إسقاطها من العبارة ينبي بالغروب والاختفاء.

وتأمل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام ٩٤]، وقوله عز وجل: ﴿ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا آيَاتِنَا لِيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ﴾ [يوسف ٣٥]، تجد أن المسند إليه قد حذف في الآيتين الكريميتين والتقدير: لقد تقطع ما كان بينكم من علاقات موهومة.... ثم بدا لهم الأمر وهو السجن.... وحذف المسند إليه يشير إلى عدم الاعتداد به وسقوطه، فتلك علاقات واهية وأمور واهمة لا اعتداد بها، وهذا أمر ساقط جائر وضح لهم بعدما رأوا الآيات فكيف يسجنونه عندئذ؟ الحذف في الآيتين الكريميتين يشير إلى عدم الاعتداد بالمسند إليه، وكأن إسقاطه من العبارة ينبي بأنه لا وجود له ولا اعتداد به عند ذوي العقول السليمة والأفكار السديدة.

هذا ويذكر البلاغيون من أغراض حذف المسند إليه: تعجيل المسرة إذ يؤدي حذفه إلى سرعة إيراد المسند والمبادرة بذكره كقولك لمخاطبك: انظر "دينار" تريد: هذا دينار، فحذفت المسند إليه تعجيلًا للمسرة بذكر الدينار، ومثله أن يبإدرك أخوك بقوله: حفل مقام. يريد ذاك حفل، ومن تلك الأغراض أيضًا: تأتي الإنكار عند الحاجة كقولك في شأن إنسان يطغى ويتكبر: لثيم فاجر غادر، ولا تصرح بذكر اسمه ليتأتى لك الإنكار إذا ما واجهك فتقول له: ما قصدتك بقولي..

ومنها تحقير المسند إليه وصون اللسان عن النطق به كما في قوله تعالى: ﴿أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج ٣٩]، فحذف المسند إليه في قوله: "يقاتلون. ظلموا" تحقيرًا له وصونًا للسان عن ذكره، أما حذفه في قوله: "أذن" فللتعظيم والإجلال، وللعلم به تعالى.. ومن الحذف تحقيرًا وصيانة للسان قول الأقيشر الأسدي في ابن عم له موسر سأله فمنعه ولم يعطه ولطم وجهه:

سَرِيعٌ إِلَى ابْنِ الْعَمِّ يَلْطِمُ وَجْهَهُ وَلَيْسَ إِلَى دَاعِيِ النَّدَى بِسَرِيعٍ
خَرِيضٌ عَلَى الدُّنْيَا مُضِيعٌ لِدِينِهِ وَلَيْسَ لِمَا فِي بَيْتِهِ بِمُضِيعٍ

فقد حذف المسند إليه تحقيراً له وصوتاً للسان عن التلغظ به وقد ذكرنا سراً
آخر وراء الحذف في البيت فارجع إليه وتبينه، وفي معنى صون اللسان عن النطق
بالمسند إليه يقول القائل:

وَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَتْمِهِمْ نَجَسٌ فَإِذَا ذَكَرْتَهُمْ غَسَلْتُ فَمِي

ومنها تعظيم المسند إليه وصونه عن اللسان، كما في قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ
يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ [البقرة ٤]، فقد حذف لفظ الجلالة
تعظيماً له.

ومن ذلك حذف أسماء المدوحين كما في قول لقيط بن زرارة:

نُجُومٌ سَمَاءٌ كُلَّمَا انْقَضَ كَوْكَبٌ بَدَا كَوْكَبٌ تَأْوِي إِلَيْهِ كَوَاكِبُهُ

وارجع إلى ما قلناه من أسرار أخرى في مثل هذا البيت، ويعد من هذا القبيل
إخفاء الشاعر لأسماء صواجه حتى لا تتردد على ألسنة الغير، وإيثاره أن ينطق

بأسمائهن وحده بعيداً عن الناس، كما يدل على هذا المعنى قول أحد بني عامر:
وَإِيَّاكَ وَأَسْمَ الْعَامِرِيَّةِ إِنِّي أَعَارُ عَلَيْهَا مِنْ فَمِ الْمُتَكَلِّمِ

وقول ذي الرمة:

أَحِبُّ الْمَكَانَ الْقَفْرَ مِنْ أَجْلِ أُنْتِي بِهِ أَتَغْنِي بِاسْمِهَا غَيْرَ مُعْجِمِ

إلى غير ذلك من الأسرار والدقائق التي تراها وراء حذف المسند إليه والتي لا
يمكن الإحاطة بها - كما ذكرت - لأن الذي يرشد إليها هو السياق وقرائن
الأحوال، فما يبدو للمتأمل الواعي ذي الذوق السليم والطبع القويم، من دقائق
كامنة وراء حذف المسند إليه وطيه في الأساليب الجيدة، فهو ذاك الذي تبين له.

ذكر المسند إليه

قد توجد في الكلام القرينة القوية التي تدل على المسند إليه لو حذف ولكن المتكلم لا يحذفه بل يذكره على الرغم من وجوده تلك القرينة القوية وذلك ليحقق غرضًا من الأغراض الآتية:

زيادة التقرير والإيضاح كما في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة ٥]، ففي إعادة ذكر المسند إليه: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾؛ زيادة تقرير وإيضاح وإبراز لمكانة هؤلاء المؤمنين الذين آمنوا بالغيب وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وآمنوا بما نزل وأيقنوا بالدار الآخرة وما فيها من جزاء، فاستحقوا تلك المكانة السامية: ﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، فقد أدى تعريفهم باسم الإشارة، وإعادة ذكره، إلى زيادة إيضاح وتقرير تلك المعاني السامية المنسوبة إليهم "على هدى من ربهم .. هم المفلحون.."

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَسْتَأْتُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلُوبٌ أُرْسِلَتْ مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الإسراء ٨٥] ففي إعادة ذكر المسند إليه: "الروح" زيادة تقرير وإيضاح، إذ تجدد في ارتباطها بخبرها ما يثبت معنى الجملة في النفس ويجمع أطرافها في الفؤاد، فيزداد المعنى إيضاحًا وتقريرًا ومثله قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَعْلَىٰ فِي أَعْتَابِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الرعد ٥] ففي إعادة ذكر اسم الإشارة: "أولئك" ما يبرز تلك المعاني المنسوبة إليهم ويزيدها إيضاحًا.

وترى ذكر المسند إليه لهذا الغرض يكثر في مقام المدح والفخر والعتاب والثناء ونحو ذلك، حيث يذكر الشاعر اسم المدح أو اسم من يعاتبه أو يرثيه، ثم يعيد ذكره مع كل خبر يريد أن يضيفه إليه، فتبدو المعاني بهذا في صورة واضحة ومؤكدة.

انظر إلى قول عمرو بن كلثوم:

وَقَدْ عَلِمَ الْقَبَائِلُ مِنْ مَعَدٍّ إِذَا قُبِّبَ بِأَبْطَحِهِ بَابُنِينَا
بِأَنَّ الْمُتَعَمُونَ إِذَا قَدَرْنَا وَأَنَا الْمُهْلِكُونَ إِذَا أُتِينَا

وَأَنَا الْعَاصِمُونَ إِذَا أُطِغْنَا وَأَنَا الْغَارِمُونَ إِذَا عُصِينَا
وَأَنَا الْحَاكِمُونَ بِمَا أُرْدْنَا وَأَنَا النَّازِلُونَ بِخَيْثُ شِينَا

تجد أن تكرار ذكر المسند إليه: "أنا" قد أبرز تلك المعاني التي افتخر بها الشاعر والتي قد علمتها القبال من معد، ووراء هذه النون المشددة يكمن النغم الموسيقي الذي حلا للشاعر أن يتغنى به مفتخرًا ..

وتأمل قول الخنساء في رثاء صخر:

وإِنَّ صَخْرًا كَلَفَيْتَنَا وَسَيِّدُنَا وَإِنَّ صَخْرًا إِذَا نَشْتُو لَتَحَّارُ
وإِنَّ صَخْرًا لَتَأْتُمُّ الْهُدَاةُ بِهِ كَأَنَّهُ عَلَمٌ فِي رَأْسِهِ نَارُ

تجد أن تكرارها لاسم صخر قد أبرز تلك المعاني التي أضافتها إليه في صورة مقررة مؤكدة، كما أن في ترديدها لهذا الاسم ما يخفف آلامها ويداوي جراحها، وشيء آخر وراء ذكر المسند إليه وتكراره في البيتين، يشعر به الدارس الواعي، ويدركه التأمل الدقيق، وهو إبراز هذا الاسم في الوجود وتخليده في الأذهان فهو وإن كان قد طوى من الحياة، إلا أنه مذكور في العقول دائمًا ومخلد في الأذهان أبدًا ..

وانظر في قول ابن الدمينه معاتبًا صاحبه:

وَأَنْتِ الَّتِي فَطَقْتِ قَلْبِي حَزَاةً وَقَرَّرْتِ قَرْحَ الْقَلْبِ فَهُوَ كَلِيمٌ
وَأَنْتِ الَّتِي كَلَفْتِنِي ذَلَجَ السُّرَى وَجُونَ الْقَطَا بِالْجَلْهَيْنِ جُثُومٌ
وَأَنْتِ الَّتِي أَحْفَظْتِ قَوْمِي فَكَلُّهُمْ بَعِيدُ الرِّصَادَانِ الصُّدُودِ كَطِيمٌ

تجد أن الشاعر كرر ضمير صاحبه في كل بيت مضيقةً إليه تلك الأخبار، فبدت في صورة واضحة مقررة، وحققت ما أراده من العتاب واللوم.

ومن أغراض ذكر المسند إليه الرغبة في إطالة الكلام وامتداد الحديث، كما في قوله تعالى: ﴿ قَالَ هِيَ عَصَائِي أَتَوَكَّلُوا عَلَيَّهَا وَأَهْشُ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِي فِيهَا مَقَارِبُ أُخْرَى ﴾ [طه ١٧، ١٨] فقد كان يكفي في الجواب أن يقول: عصا، ولكن موسى - عليه السلام - رغبة منه في أن يطول الكلام إذ هو في حضرة رب العزة جلا وعلا، ذكر المسند إليه "هي" وأضاف العصا إليه: "عصاي" ثم أخذ يتحدث عن عصاه:

"أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخر" وأجل تلك المآرب طمعاً في أن يسأل عنها فيجيب، وبهذا يزداد الحديث طويلاً..

وقد يذكر المسند إليه تلذذاً بذكره وترده، ويحلو هذا في مقام الغزل وذكر الأحية.

كما في قول العرجي:

بِاللَّهِ يَا ظَبِيَّاتِ الْقَاعِ قُلْنَ لَنَا لَيْلَايَ وَمِنْكُمْ أَمْ لَيْلَى مِنْ الْبَشْرِ
وقول قيس:

أَلَا لَيْتَ لَيْتَى لَمْ تُكُنْ لِي خُلَّةً وَلَمْ تَلْقَئِي لَيْتَى لَيْتَى وَمَا هِيَ
فقد كرر الأول اسم ليلي تلذذاً بنطق اسمها وانتغني به وكرر الثاني اسم لبنى لنفس الغرض، فحب الشاعر لاسم صاحبه يجعله يكثر من ذكره ويرده تمتعاً، بل يذكر ويردد كل ما أشبه اسمها أو قاربه أو كان منه مدانياً.

يقول قيس:

أَحِبُّ مِنَ الْأَسْمَاءِ مَا وَأَفَقَّ اسْمَهَا وَأَشْبَهُهُ أَوْ كَانَ مِنْهُ مُدَانِيَا
وهو عندما يردد ذلك ويستمتع به، يختار الأماكن البعيدة النائية، كي يردد فيها ويتغنى وذلك حتى لا يسمعه أحد فيردد ما ردد..

يقول ذو الرمة:

أَحِبُّ الْمَكَانَ الْقَفْرَ مِنْ أَجْلِ أَنْبِي بِهِ أَتَغَنَّى بِأَسْمِهَا غَيْرَ مُعْجِم

فهو يغار على صاحبه ويكره تلذذ الغير بترديد اسمها، ولذا أحب ذاك المكان القفر، بل توعدوا من يردد اسم من أحبوا، فقال قائلهم:
وَأِيَّاكَ وَأَسْمَ الْعَامِرِيَّةِ إِنَّبِي أَغَاؤُ عَلَيَّهَا مِنْ فَمِ الْمُتَكَلِّمِ
وقد يذكر المسند إليه بغرض التسجيل على السامع حتى لا يتأتى له الإنكار بعدئذ.

انظر إلى قول الفرزدق في علي بن الحسين عندما أنكر هشام بن عبد الملك

معرفة له:

هَذَا ابْنُ حَزْرٍ عِبَادِ اللَّهِ كُلَّهُمْ
هَذَا الَّذِي تَعْرِفُ الْبَطْحَاءَ وَطَأْتَهُ
هَذَا ابْنُ قَاطِمَةَ إِنْ كُنْتَ جَاهِلَهُ
وَلَيْسَ قَوْلُكَ مِنْ هَذَا بِضَائِرِهِ
هَذَا التَّقِيُّ التَّقِيُّ الطَّاهِرُ الْعَلَمُ
وَالْبَيْتُ يَعْرِفُهُ وَالسَّجِلُ وَالْحَرَمُ
بِحَدِّهِ أَنْبِيَاءُ اللَّهِ قَدْ خُيَّمُوا
الْعُرْبُ تَعْرِفُ مَنْ أَنْكَرْتَ وَالْعَجَمُ

فقد كرر المسند إليه مضيئاً إليه تلك الصفات تسجيلاً على المخاطب المنكر حتى لا يتأتى له الإنكار بعدئذ، وتلاحظ أن الفرزدق لم يعتد بإنكار المنكر فأورد له الخبر خالياً من التوكيد منبهاً بهذا إلى وضوحه وظهوره وأنه لا ينبغي لأحد إنكاره أو تجاهله.

وذكر البلاغيون من أغراض ذكر المسند إليه كذلك: ضعف التعويل على القرينة كما إذا سئلت: من حضر ومن ذهب؟ فتجيب الذي حضر هو عمرو والذي ذهب خالد، لأنك لو حذف المسند إليه فقلت: عمرو وخالد، لم يفهم السائل المراد لضعف القرينة عندئذ.. والتنبيه على غباء السامع كقولك لسائل غبي لا يفهم إلا بالتصریح، وقد سألك: من حضر؟ فتجيبه الذي حضر على .. وإظهار تعظيمه أو إهانته كقولك لمن ينتظر مقدم الأمير، ويرقب رؤية السارق: أمير المؤمنين سيأتي .. السارق اللئيم يتقدم أمامك الآن .. والتبرك بذكره كقولك في جواب من سألك: هل يرضى الله هذا؟ وهل محمد خاتم الأنبياء؟: الله جل جلاله يرضى هذا ومحمد ﷺ خاتم الأنبياء .. إلى غير ذلك من الأغراض التي تجعل المتكلم يصرح بالمسند إليه ويعمد إلى ذكره في الكلام.



تعريف المسند إليه

يرد المسند إليه معرفة ويرد نكرة ولكل منهما مقام يقتضيه وداع يستدعيه، وسيأتي الحديث عن تنكير المسند إليه، ودواعي تنكيره أما تعريفه فقد يكون بنفس اللفظ دون حاجة إلى قرينة، وذلك في التعريف بالعلمية، وقد يكون بقرينة التكلم أو الخطاب أو الغيبة، وذلك في التعريف بالضمائر، وقد يكون بقرينة حسية كتعريفه

باسم الإشارة، أو بنسبة معهودة كتعريفه بالاسم الموصول، أو بحرف وهو المعروف بال، أو بإضافة معنوية وذلك عند التعريف بالإضافة.

وإليك بيان هذه المعارف وما يكمن وراء التعريف بها من دقائق وأسرار.



التعريف بالضمائر

يؤتى بالمسند إليه ضميرًا إذا كان الحديث في أحد المقامات الثلاثة: التكلم - الخطاب - الغيبة، فإذا كان المتكلم يتحدث عن نفسه، كان المقام لضمير المتكلم نحو: أنا فعلت كذا، ونحن فعلنا، وتكمن وراء التعبير بضمير المتكلم معان دقيقة ومزايا لطيفة يدركها ذو الحس المرهف والذوق السليم.

انظر في قوله تبارك وتعالى: ﴿ فَلَمَّا أَتْنَاهَا نُودِيَ يَمُوسَىٰ ﴿١٠﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۗ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١١﴾ وَأَنَا آخِزْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴿١٢﴾ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٣﴾ ﴾ [طه ١١ : ١٤] تجد أن التعبير بضمير المتكلم "إني أنا ربك. وأنا اخترتك، إنني أنا الله لا إله إلا أنا" أفاد من الإيناس والتلطف ما لا يفيد غير، خاصة وأن الله تبارك وتعالى ينادي موسى أول مرة بالمقام يحتاج إيناسًا وتلطفًا.

وخذ قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر ٩] وتأمل إيناره التعبير بضمير التكلم "إنا نحن نزلنا. إنا له" وما وراءه من تأكيد الحفظ وبث الطمأنينة في نفس المؤمن.. ثم تأمل قول النبي ﷺ: "أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبَ أَنَا أَبْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ" (١) وما وراء التعبير بضمير التكلم من الاعتداد بالنفس وتمام الثقة وبعث الطمأنينة في نفوس المؤمنين.

وكذا القول في بيت المتنبي:

أَنَا الَّذِي نَظَرَ الْأَعْمَى إِلَىٰ أَدْبِي وَأَسْمَعَتْ كَلِمَاتِي مَنِ بِهِ صَمَمٌ

(١) رواه البخاري في الجهاد برقم [٢٨٦٤ / ٥٢].

وقول بشار بن برد:

أَنَا الْمُرْعَةُ لَا أَخْفَى عَلَى أَحَدٍ ذَرَّتْ بِي الشَّمْسُ لِلْقَاصِي وَلِلدَّانِي^(١)

وقول عمرو بن كلثوم:

وَرِثْنَا الْمَجْدَ قَدْ عَلِمَتْ مَعَدُّ نُطَاعِنُ دُونَهُ حَتَّى بَيَّنَّا
وَنَحْنُ إِذَا عَمَّادُ الْحَيِّ خَرَّتْ عَلَى الْأَخْفَاضِ تَمْنَعُ مَنْ يَلِينَا^(٢)

إذ لا يخفى عليك ما يكمن وراء التعبير بضمير التكلم في الآيات المذكورة من الفخر والاعتداد بالنفس.

وإذا كان المتكلم يخاطب إنساناً أمامه، كان المقام للخطاب، تقول: أنت فعلت كذا، ومنه قوله تعالى: مخاطباً النبي ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم ٤] وقوله عز وجل:

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَخُفِيَ فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾ [الأحزاب ٣٧] وقوله جل وعلا: ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١١﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١٢﴾ ﴾ [الضحى ٩: ١١] ويكثر التعريف بضمير الخطاب في مقام العتاب واللوم، إذ يحلو للمتكلم أن يخاطب من يعاتبه وأن يردد ضميره مسنداً إليه ما يريد من لوم وعتاب، على نحو ما نرى في قول أمانة الخثعمية مخاطب ابن الدمينية:

وَأَنْتَ الَّذِي أَخْلَقْتَنِي مَا وَعَدْتَنِي وَأَشْمَتَّ بِي مَنْ كَانَ فِيكَ يَلُومُ
وَأَبْرَزْتَنِي لِلنَّاسِ لَمْ تَرْتَكِبْنِي لَهُمْ عَرَضًا أَرْمَى وَأَنْتَ سَلِيمٌ

فأجابها ابن الدمينية:

وَأَنْتِ النَّسِي فَطَلَّغْتِ قَلْبِي حَزَاةَ وَقَرَفْتِ قَرْحَ الْقَلْبِ فَهُوَ كَلِيمٌ

(١) المرع: المرط، وكان بشار يلقب بالمرعث لقرط كان يعلقه في أذنه وهو صغير. وذرت: طلعت، كناية عن الشهرة والذوبوع، يصف نفسه بأنه ذائع الصيت.

(٢) الحفُّض: مناع البيت إذا هُمِّي للحمل وقيل هو ردئ المتاع ورذاله، وسمي البعير الذي يحمل عليه حفصاً، ولا يكاد يكون ذلك إلا رذال الإبل.. انظر لسان العرب مادة حفص.

وَأَنْتَ الَّتِي كَلَّفْتِنِي ذَلِكَ السَّرَى وَجُؤُونَ الْقَطَا بِأَلْجَاهَتَيْنِ جُؤُومٌ
وَأَنْتَ الَّتِي أَحْفَظْتِ قَوْمِي فَكَلُّهُمْ بَعِيدُ الرَّضَا دَانِي الصُّدُورِ كَظِيمٌ

وأصل الخطاب أن يكون للمعين المشاهد، وقد يعدل عن هذا الأصل لسر بلاغي، فيخاطب غير المشاهد إشارة إلى حضوره في الذهن وقربه من القلب، وتعلق النفس به كما رأيت في الشواهد المتقدمة .

ومن ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٥٠﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ [الفاتحة ٥، ٦] فتوجه المؤمن بالخطاب إلى المولى جل وعلا يكمن وراء ما ذكرنا من التقرب إليه تعالى وتعلق الفؤاد به ودوام حضوره في نفس المؤمن ..

وقد يخاطب غير المعين كقولنا: "إن اللئيم إن أكرمته أهانك وإن أحسنت إليه أساء إليك.."، إذ لا يراد بالخطاب في مثل هذا القول مخاطب معين، بل يراد به العموم، ويكمن وراء ذلك معنى دقيق وهو الإشارة إلى شناعة اللؤم وقبح الصنع وفضاعة الإساءة، وأن هذا لا يختص بواحد دون آخر..

ومثله قول المتنبي:

إِذَا أَنْتَ أَكْرَمْتَ الْكَرِيمَ مَلَكَتْهُ وَإِنْ أَنْتَ أَكْرَمْتَ اللَّئِيمَ تَمَرَّدَا

وقول بعضهم:

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَعْرِفْ لِنَفْسِكَ حَقَّهَا هَوَانًا بِهَا كَانَتْ عَلَى النَّاسِ أَهْوَانًا

وقول الشافعي:

إِذَا مَا كُنْتَ ذَا قَلْبٍ قُبُوعٍ فَأَنْتَ وَمَالِكُ الدُّنْيَا سَوَاءٌ

فليس المراد بالخطاب في تلك الأبيات مخاطبًا معينًا، بل أريد عموم الخطاب وشموله لكل من يتأتى منه الخطاب..

وانظر في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [السجدة ١٢]، تجد أن الخطاب في قوله: "ترى" قد أريد به كل من يتأتى منه الخطاب، وهذا ينبىء بأن الأمر من الوضوح بمكان وأن حال المجرمين وما هم فيه، قد بلغ من الظهور لأهل

المحشر مبلغاً يمتنع خفاؤه، فلا يختص به راءٍ دون آخر، ولا يخفى عليك ما يفيدُه حذف جواب "لو" من شدة هذه الحالة وفضاعتها، كما لا يخفى عليك ما يريده النظم القرآني من التنفير والتحذير من صنيع هؤلاء المجرمين الذي أدى بهم إلى تلك الحال المخزية.

ومثل هذا تراه في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَرَغُوا فَلَا قُوَّةَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ [سبأ ٥١] وقوله عز وجل: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثُمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ [الإنسان ٢٠].

وتأمل قول الحبيب المصطفى ﷺ "بَشِّرِ الْمُشَاطِينَ فِي الظُّلَمِ إِلَى الْمَسَاجِدِ بِالنُّورِ النَّامِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.." ^(١) تجده ﷺ لم يرد مخاطباً معيناً وإنما أراد أن: كل من يتأنى منه الخطاب ينبغي أن يقوم بهذا التبشير، وفي هذا غاية التكريم وتمام الرضا عن هؤلاء المشائين إلى المساجد في الظلمات.

وإذا كان المتكلم يتحدث عن غائب فينبغي أن يتقدم ذكره إما لفظاً كقوله تعالى: ﴿فَأَصْبِرُوا حَتَّىٰ يَخُذَكُمُ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْخَاتَمِينَ﴾ [الأعراف ٨٧].

وقول أبي البرج القاسم بن حنبل المرى:

مِنَ الْبَيْضِ الْوُجُوهِ بِنِي سِنَانٍ لَوَأَنَّكَ تَسْتَضِيُّ بِهِمْ أَصَاءُوا
هُمُ حَلَّوْا مِنَ الشَّرَفِ الْمُعَلَّى وَمِنْ حَسَبِ الْعَشِيرَةِ حَيْثُ شَاءُوا

وتجد أن ضمير الغائب "هم" قد أبرز علو مكانتهم وبعد منزلتهم ..

وإما معنى بأن يكون في حكم الملفوظ به كقوله تعالى: ﴿أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة ٨] وقوله عز وعلا: ﴿وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ آزِجُوا فَآزِجُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ [النور ٢٨] فالضمير "هو" يعود إلى العدل والرجوع المفهومين من قوله: "اعدلوا .. فارجعوا..".

وقد يكون للمرجع قرينة تدل عليه كقوله تعالى: ﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَّتْ بِالْحِجَابِ﴾ [ص ٣٢] فالضمير المستتر "هي" يرجع إلى

(١) رواه الترمذي في الصلاة برقم [٥١/٢٢٣] وابن ماجه في المساجد برقم [١٤/٧٨١]

الشمس، وقد دلت عليها قرائن السياق والأحوال من ذكر العشي والتواري وفوات وقت الصلاة..

وقد يكون الضمير مفسراً بما بعده كما في ضمير الشأن نحو قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَرُ﴾ [الحج ٤٦] فالضمير في "إنها" مفسر بالجملة بعده ولا يخفى عليك ما في ذلك من الإيضاح بعد الإبهام، وأن لهذا أثره ووقعه في أنفس المخاطبين.



التعريف بالعلمية

ويؤتي بالمسند إليه معرفاً بالعلمية لأغراض كثيرة أهمها:

١- أن يقتضي المقام إحضار مدلوله بعينه وشخصه في ذهن السامع ابتداء باسم مختص به.. كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ ﴿[الإخلاص ١-٢] فالمقام مقام رد على الملحدين وإيضاح التوحيد لهم والعلمية "الله" أنسب بهذا المقام دون سائر المعارف.

وانظر إلى قول مالك بن عويمر في رثاء أبيه .

أَبُو مَالِكٍ قَاصِرٌ قَفْرُهُ عَلى نَفْسِيهِ وَمُشِيْعٌ غَنَاهُ
فقد اقتضى مقام الرثاء أن يبرز الشاعر المرثى وأن يذكره بهذه الكنية التي تفيد تشخصه وإضافته إلى مالك، وبذا يبرز أمام الناس فرداً في محاسنه، علماً في مآثره وأمجاده.

وتأمل قول الحارث بن هشام معتذراً لفراره عن أخيه أبي جهل يوم بدر:

اللَّهُ يَغْلَمُ مَا تَرَكْتُ فَتَأَلَّمُ حَتَّى عَلَوَا فَرَبِي بِأَشَقَرٍ مُزِيدٍ^(١)

فقد ناسب مقام الاعتذار أن يذكر الشاعر لفظ الجلالة ناسباً إليه العلم بأنه لم يفر إلا بعد أن أبلى بلاء حسناً وسالت دماؤه، ليعلم بهذا أنه صادق في اعتذاره وأن ما يقوله صادر من قلبه، وتقديم المسند إليه على خبره الفعلي، وإفادة ذلك قصر العلم عليه تعالى، مما يبرز إرادة الشاعر، ويظهر صدق اعتذاره وصدق قوله ..

(١) الأشقر: لون يأخذ من الأحمر والأصفر ويريد به الدم، والمزيد: الذي له زيد.

وترى مثل هذا الأسلوب يرد كثيرًا في النظم الكريم عند ذكر الأمور التي تختص بالمولى جل وعلا ولا تنسب إلا إليه تبارك وتعالى، ويتضح لك هذا في قوله عز وجل: ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامَ وَمَا تَزِدَادُ كُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ [الرعد ٨]، وقوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ ﴾ [آل عمران ٣٦]، وقوله عز وجل: ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ تَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام ١٢٤]، وقوله تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ [الرعد ٢]، إلى غير ذلك من الآيات الكريمة.

٢- أن يقصد إلى تعظيمه أو إلى إهانتة وتحقيره، وذلك عند استخدام الكنى والألقاب المحمودة أو المذمومة كقولك: أبو الخير جارك وأبو المعالي جاء، وأبو الجهل صديقك، وأنف الناقة حضر، والعربي بطبعه ينفر من الألقاب المذمومة ويكره الانتساب إليها ويقبل إلى اللقب المحمود ويحب الانتساب إليه..

وقد كان لقب "أنف الناقة" مكروهاً، ولا يجب أهله الانتساب إليه حتى قال الحطيئة:

فَوْمٌ هُمُ الْأَنْفُ وَالْأَذْنَابُ غَيْرُهُمْ وَمَنْ يُسَوِّ بِأَنْفِ النَّاقَةِ الذَّنْبَا
فصاروا بعد ذلك يفخرون بالانتساب إلى أنف الناقة.. وكان الرجل من نمير يفخر بنسبته إليها ويمد صوته عند النطق بهذه النسبة «نميري» مفتخرًا بذلك فلما قال جرير:

فَقُضُّ الطَّرْفِ إِنَّكَ مِنْ نُمَيْرٍ فَلَا كَغَبَا بَلُغْتَ وَلَا كِلَابَا
صار يكره وينفر من تلك النسبة.

٣- أن يقصد إلى التبرك والتلذذ بنطق العلم، كقولك: الله ربي ومحمد نبيي.

وكقول العرجي متلذذاً بليلاه:

بِاللَّهِ يَا ظِيَّاتِ الْقَاعِ قُلْنَا لَنَا كِلَيْلَىٰ مِنْكُمْ أَمْ لَيْلَىٰ مِنَ الْبَشْرِ

وقول قيس مردداً اسم لبني ومتلذذاً بهذا التردد:

أَلَيْسَتْ لُبْنَىٰ لَمْ تَكُنْ لِي خَلَةً وَلَمْ تَلْقَنِي لُبْنَىٰ وَلَمْ أَدْرِ مَا هِيََا

ولذا يقول المتنبي معللاً ذكره لأسماء آباء المدوح:
 أَبَا شُجَاعٍ يَفَارِسٍ عَضُدَ الدَّوْ لَسَةَ فَتَأْخُضُ رُؤُوسَهُنَّ شَاهَا
 أَسَامِيًا لَمْ تَزِدْهُ مَعْرِفَةً وَإِنَّمَا لَسَدَةٌ ذَكَرْنَاَهَا

٤- أن يقصد إلى التفاؤل كقولك: سعد في دارك، أو إلى التطير كقولك:
 السفاح قادم .. إلى غير ذلك من أغراض يقصدها المتكلم بتعريف المسند إليه
 بالعلمية.



التعريف بالأسماء الموصولة

عندما يعرف المسند إليه بالاسم الموصول ينبغي أن يكون المخاطب والمتكلم
 عالين بجملته الصلة، فأنت لا تقول: الذي تحدث بالأمس رجل فاضل إلا إذا كنت
 عالماً بحديثه وكان مخاطبك أيضاً يعلمه، ولذا يعتمد المتكلم إلى تعريف المسند إليه
 بالموصولية، إذا كان لا يعلم هو أو مخاطبه من أحوال المسند إليه سوى جملة الصلة،
 كأن يقول: الذي كان معنا بالأمس رجل صالح، وهو لا يعلم عن ذلك الرجل
 سوى وجوده بالأمس معهما، أو يعلم عنه ولكن المخاطب لا يعرفه إلا بهذه الصلة
 فقد وجد المتكلم في جملة الصلة ما يمكنه من الحديث عنم تحدث عنه، حيث لا
 يعرف إلا بها..

ومن أغراض تعريف المسند إليه بالصلة: زيادة التقرير، كما في قوله تعالى:
 ﴿وَزَادَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾ [يوسف ٢٣] فجملته الصلة: "هو في بيتها"
 أبرزت نزاهة يوسف - عليه السلام - وهي الغرض المسوق له الكلام وزادتها
 تأكيداً وتقريراً، لأن كونه في بيتها وهي متمكنة منه: وعلى الرغم من ذلك أعرض
 ونأى وقال: "معاذ الله" مما يؤكد نزاهته وإعراضه عن تلك الفاحشة، وفي الصلة
 تقرير أيضاً للمراودة وهي المسند، لأن وجوده في بيتها، وانفرادها به، مما يدعو إلى
 تمكنها منه، وإقبالها على مراودته، وتفنتها في تلك المراودة، وفيها أيضاً زيادة تقرير
 للمسند إليه وهو: "التي" وتأكيد أنها هي الفاعلة دون غيرها، ولو قيل: وراودته
 امرأة العزيز أو وراودته زليخا، لأمكن احتمال أن المراودة غيرها أو شبيهة بها.
 فالتعبير بالاسم الموصول نفى أي احتمال يحتمل وأكد أنها هي الفاعلة للمراودة.

ووراء التعبير بالموصول في الآية سر بلاغي آخر وهو استهجان التصريح باسمها أو نسبتها إلى العزيز، لأن من تقبل على فعل الفاحشة تنفر منها النفوس وتكره الألسن التفوه باسمها، وتأبى الطباع نسبتها إلى زوجها وهو ذو الشأن في الدولة، إنه العزيز، وهي بفعلها هذا صارت لا تستحق أن تنتسب إليه..

ومما عُرِّف فيه المسند إليه بالصلة استهجاناً للتصريح به قولنا: الذي يخرج من السيلين ناقض للوضوء، والخارج هو البول والغائط وغيرهما وهو مما ينفر اللسان من النطق به وتأبى الأذن سماعه، ولذا لجأنا إلى التعريف بالصلة تحاشياً للنطق به وتلافياً لإساعة المخاطب..

وانظر إلى قول حسان رضي الله عنه في تبرئة نفسه مما نسب إليه من حديث الإفك:

فَإِنْ كُنْتُ قَدْ قُلْتُ الَّذِي قَدْ زَعَمْتُمْو فَلَا رَفَعْتُ سَوْطِي إِلَيَّ أَنَامِلِي
وَإِنَّ الَّذِي قَدْ قِيلَ لَيْسَ بِإِلَاطِ بِهَا الدَّهْرُ بَلْ قَوْلُ امْرِئِي بِي مَا حَلِ

فقد استهجن أن يصرح بحادثة الإفك، وأن يذكر اتهام عائشة رضي الله عنها، فعبر بالاسم الموصل "الذي" وقد مكنته جملة الصلة من أن يشير إلى معنى لطيف دقيق، فتأمل: "قد زعمتمو.. قد قيل" فهو مجرد زعم، وهو قول ساقط غير منسوب إلى عاقل يستحق أن يذكر..

وقد يكون التعريف بالصلة لتنبية المخاطب إلى خطئه، كما في قول عبدة بن الطبيب من قصيدة له في وصية بنيه:

إِنَّ الَّذِينَ تَرَوْهُمْ إِخْوَانَكُمْ يَشْفِي غَلِيلَ صُدُورِهِمْ أَنْ تُصْرَعُوا

فجملة الصلة: "تروهم إخوانكم" تفيد: تنبيه الأبناء إلى خطئهم فيما يرون وأنهم مخدوعون في هؤلاء حيث ظنهم إخوانهم والواقع أن صدورهم تنوقد حقدا عليهم، ويتمنون هلاكهم، ولو قال عبدة: "إن قوم فلان يشفي غليل صدورهم أن تصرعوا" ما أفاد هذه الإفادة.

وخذ قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ﴾ [الأعراف

١٩٤] تجد أن جملة الصلة "تدعون من دون الله" تفيد تنبيه المشركين إلى خطئهم في عبادتهم غير الله تعالى.

وقد يكون في التعريف بالصلة إيباء إلى وجه بناء الخبر كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [عافر ٦٠] فإن الاستكبار عن عبادة الله الذي دلت عليه الصلة: "يستكبرون عن عبادتي"، قد أوماً إلى وجه بناء الخبر، وأنه من جنس العذاب والنكال: "سيدخلون جهنم".

ومثله قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور ١١] وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ [الكهف ١٠٧]، وقوله جل وعلا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ [فصلت ٣٠]، وهذا كثير في النظم الكريم...
ومنه شعرا قول الفرزدق:

إِنَّ الَّذِي سَمَكَ السَّمَاءَ بَنَى لَنَا يَتَّيَادَعَائِمُهُ أَغْرَزَ وَأَطْوَلُ

فقوله: "سمك السماء" يشير إلى أن الخبر من نوع الرفعة والسمو، وتقول: الذي لا يتذوق الجمال ألف في البلاغة، فتشير بهذا إلى سوء ما ألف وحقارته، كما يفهم منه إهانة من ألف والخط من شأنه، وقد يفهم من تحقير الخبر تعظيم غيره كما في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْتَوْا فِيهَا﴾ [الأعراف ٩٢]، فقد أوماً الصلة "كذبوا شعيباً" إلى وجه بناء الخبر وأنه من جنس الخسران والبوار، ويفهم من هذا تعظيم شعيب الذي كُذِّبَ ورفعة شأنه.

ومن أجل إيباء الصلة إلى وجه بناء الخبر عيب قول عبدة بن الطبيب:

إِنَّ التِّي صَرَبَتْ بَيْتًا مَهْاجِرَةً بِكُوفَةِ الْجُنْدِ غَالَتْ وَدَهَاغُولٌ^(١)

فقد جرت عادة الشعراء على أن البعد والحرمان يلهب العاطفة ويضاعف الشوق والحنين، ولذا قال قائلهم:

(١) غالت: أكلت، والود مفعول به مقدم والغول فاعل مؤخر.. ويضرب بالغول المثل في الإحافة والإهلاك، يقال تغولت به الغول وفي الحديث: "إِذَا تَغَوَّلَتْ بِكُمْ الْغِيْلَانُ فَأَذْفَعُوهُمَا بِأَلْدَانٍ" رواه الإمام أحمد برقم [١٤٢٧٧].

لَكُمْ أَلْتَمَسْتُ الْبُرَّةَ مِنْ دَاءِ الْهَوَى بِالْبُعْدِ عَنْكَ فَرَدْتُهُ أَرْمَانَا
 وكم من شاعر قد اشتد غرامه واشتعل هيامه بعد رحيل القوم بفتاته
 وابتعادها عنه..

أما عبدة فقد انقطع حبه وزال وده لخولة بعد أن هاجرت وأقامت بعيداً عنه،
 وبيان ذلك أن جملة الصلة: "ضربت بيتاً مهاجرة بكوفة الجند" تومئ إلى أن وجه
 بناء الخبر هو اشتعال نار الحب وازدياد الود الروحي بينهما، ولكن الشاعر خالف
 هذا وبنى الخبر بناء مغايراً إذ جعله زوال الحب وانقطاع الود: "غالت ودها غول"،
 وهذا يناقض ما جرت عليه عادة الشعراء كما بينا، وربما يعتذر لعبدة أنه قد قال هذا
 البيت بعد تولي الشباب وحلول الشيخوخة وفتور الصبوة، وكأنه كان ينتظر
 هجرتها ليقطع وده ولذا قال عقب البيت المذكور:

فُعِدَّ عَنْهَا وَلَا تُشْعِلْكَ عَنْ عَمَلٍ إِنَّ الصَّبَابَةَ بَعْدَ الشَّيْبِ تَضْلِيلُ
 وقد نظر السكاكي إلى هذا فجعل ما في البيت إيحاء إلى وجه بناء الخبر، بل إيحاء
 إلى تحقيقه، ونظر الخطيب إلى عادة الشعراء فجعل الصلة في البيت تومئ إلى نقيض
 ما ذكره الشاعر^(١).

وقد يقصد من التعريف بالموصولية إفادة معنى التفخيم والتهويل كما في قوله
 تعالى:

﴿فَعَشِيهِمْ مِنْ آلِيٍّ مَا عَشِيهِمْ﴾ [طه ٧٨]، وقوله عز وجل: ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾
 [النجم ١٦]، وقوله جل وعلا: ﴿فَعَشْنَهَا مَا عَشَى﴾ [النجم ٥٤]، فالاسم الموصول
 في هذه الآيات الكريمة، فيه إيهام أدى إلى التفخيم والتهويل ولو أردت تفصيل ما
 أفاده الموصول فقلت: غشيهم من اليمّ أمور عظيمة مبهم أمرها.. إذ يغشى السدرة
 خلأثق عظيمة مبهم أمرها في الجلال والكثرة، لو قلت مثل هذا ما أفدت ما أفاده
 الاسم الموصول من تفخيم وتهويل، فقد أفاد ما لا يكتنهنه النعت، ولا يحيط به
 الوصف..

(١) انظر مفتاح العلوم ٩٧ والإيضاح ٨٩/١.

وانظر إلى قول أبي نواس في وصف ما تفعله الخمر بعقل شاربها.
مَضَى بِهَا مَمَضَى مِنْ عَقْلِ شَارِبِهَا فِي الزَّجَاجَةِ بَاقٍ يَطْلُبُ الْبَاقِي
تجد أن الموصول: " ما مضى " أفاد تفخيم أمر الخمر وتهويل ما تفعله بعقول
شاربيها، ونلمس وراء ذلك معنى لطيفاً وهو التحذير من شرب الخمر لما تصنعه
بالعقل، ولأن من أدمن شربها فلن يتركها إلا بعد فقدان عقله، فلو بقيت بقية من
عقله لطلبته الزجاجاة حتى تذهبه: " وفي الزجاجاة باق يطلب الباقي ".

ومن ذلك في غير باب المسند إليه قول الحماسي:

صَبَا مَا صَبَا حَتَّى عَلَا الشَّيْبُ رَأْسَهُ فَلَمَّا عَلَا قَالِ لِلْبَاطِلِ ابْعُدِ
وقول أبي نواس:

وَلَقَدْ تَهَزَّتْ مَعَ الْعَوَاةِ بِذُلُوهِمْ وَأَسْمَتْ سَرَحَ اللَّخْظِ حَيْثُ أَسَامُوا
وَبَلَّغَتْ مَا بَلَغَ انْفِرُؤُ بِشَبَابِهِ فَإِذَا عَصَارَةٌ كُلُّ ذَلِكَ أَنْثَامُ

المراد بنهز الدلو: إلقاؤها في الماء لتملئ.. والسرح في الأصل " ذهاب الماشية
إلى المرعى، وأريد بسوم سرح اللحظ: إخراج الماشية إلى المرعى من إضافة الصفة
إلى الموصوف، والمعنى في الموضعين قائم على التمثيل، إذ يريد أنه فعل كل شيء في
شبابه، وغوي مع العوأة.

وقول كثير:

نَجَافَيْتَ عَنِّي حِينَ لَا لِي حِيلَةٌ وَخَلَفْتَ مَا خَلَفْتَ بَيْنَ الْجَوَانِحِ

ولا يخفى عليك ما يفيد التعريف بالموصولية في الأبيات من تهويل
وتفخيم ..

وقد يعرف المسند إليه بالموصولية لتشويق السامع إلى الخبر حتى يتمكن في
ذهنه فضل تمكن، كما في قول أبي العلاء:

وَالَّذِي حَارَتِ الْبَرِّيَّةُ فِيهِ حَيَّوَانٌ مُسْتَحَدَّثٌ مِنْ جَمَادِ

فقد تضمنت جملة الصلة أمراً غريباً جعلت السامع مشتاقاً إلى معرفة الخبر
والوقوف عليه، فعندما يأتي الخبر يتمكن في نفسه فضل تمكن..

وقد يقصد بالتعريف بالموصلية إخفاء الأمر عن غير المخاطب كما في قول بعضهم:

وَأَخَذْتُ مَا جَاءَ الْأَمِيرِ بِهِ وَقَضَيْتُ حَاجَاتِي كَمَا أَهْوَى

وقد يقصد إخفاء اسم المتحدث عنه رغبة في هدايته واستمالة له نحو الحق والهدى، كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ [البقرة ٢٠٤]، وقوله عز وجل: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الحج ٨]، وقوله جل وعلا: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾ [لقمان ٦] إلى غير ذلك من المقاصد التي يقصد إليها البلاغي عندما يعرف بالموصلية.



التعريف بأسماء الإشارة

ويعرف المسند إليه باسم الإشارة لأغراض بلاغية كثيرة أهمها:

١- أن يقصد تمييز المسند إليه أكمل تمييز، لأن اسم الإشارة بطبيعة دلالاته يفيد تحديد المراد منه تحديداً ظاهراً وتمييزاً تمييزاً تاماً، ولذا فإن المتكلم قد يقصد إلى هذا التحديد ليحضر المسند إليه في ذهن السامع متميزاً تمام التمييز، وذلك عندما يكون معنياً بالحكم الذي يريد إضافته إليه ويرغب في إبرازه وزيادة تأكيده.

انظر إلى قول ابن الرومي في مدح أبي الصقر الشيباني:

هَذَا أَبُو الصَّقْرِ فَزَدَا فِي مَحَاسِنِهِ مِنْ نَسْلِ شَيْبَانَ بَيْنَ الضَّالِّ وَالسَّلَامِ

تجد أن اسم الإشارة: "هذا" أفاد تميز المدح وحضوره في ذهن السامع محسوساً مشاهداً، وبعد هذا التمييز أضاف إليه الشاعر هذه الصفات التي تفيد تفرد في المحاسن وبلوغه الغاية في العزة والمجد فهو من نسل شيبان عاش بين الضال وهو شجر السدر البري، والسلم وهو شجر ذو شوك، وتلك الأشجار بالبادية وهي مجد العرب وعزهم، وإضافة الشاعر هذه المآثر إلى المدح بعد تميزه في الذهن

واستحضاره أمام السامع يؤدي إلى تمكنها في الأنفس فضل تمكن، وكأنه يتحدى أن يكون له ضريب أو نظير.

وتأمل قول الفرزدق مشيرًا إلى علي بن الحسين عندما تجاهله هشام:

هَذَا ابْنُ خَيْرِ عِبَادِ اللَّهِ كُلِّهِمْ هَذَا التَّقِيُّ النَّقِيُّ الطَّاهِرُ الْعَلَمُ
هَذَا الَّذِي تَعْرِفُ الْبَطْحَاءَ وَطَأْتَهُ وَالْبَيْتُ يَعْرِفُهُ وَالسَّجِلُ وَالْحَرَمُ
إِذَا زَأْتَهُ فُرَيْشٌ قَالَتْ قَائِلُهُمَا إِلَى مَكَارِمِ هَذَا يَنْتَهِي الْكَرَمُ
يَكَادُ يُمِصُّكَ عِرْفَانٌ رَاخَتِهِ رُكْنُ الْحَطِيمِ إِذَا مَا جَاءَ يَسْتَلِمُ

فقد دفع الفرزدق إنكار هشام بهذا الفيض من الإشارات التي أكدت ذبوع مناقب عليٍّ وشهرة مآثره، حيث أضيفت إليه هذه المناقب وتلك المآثر بعد كمال تميزه، وبعد صيرورته حاضرًا في الأذهان، مرثيًا أمام الأعين.

ومن إفادة اسم الإشارة لكمال التميز قول حسان بن ثابت:

وَإِذَا تَأَمَّلَ شَخْصَ ضَيْفٍ مُقْبِلٍ مُتَسَرِّبِلٍ يَسْرِبَالٍ لَيْلٍ أَغْبِرٍ
أَوْ مَا إِلَى الْكَوْمَاءِ هَذَا طَارِقٌ نَحَرْتِنِي الْأَعْدَاءُ إِنْ لَمْ تُنْحَرِي^(١)

فالكوماء: الناقة الضخمة، وقد أفادت الإشارة: "هذا" تحديد المقبل وتميزه في ذهن الممدوح، ولا يخفى عليك ما وراء اسم الإشارة والإيحاء إلى الكوماء، من فرحة غامرة أحاطت بالممدوح وألمت به عندما رأى الضيف المقبل، وكأنه كان يبحث عنه ويفتش، وهذا ينبي بكرمه، ولكن يؤخذ على الشاعر تعبيره بالفعل "تأمل" الذي يفيد أن الممدوح لا يهم بالذبح إلا بعد التحقق من رؤية الضيف، ولو قال: "تخيل أو توهم" لكان أبلغ في المدح بالكرم..

(١) البيتان قيل هما لحسان رضي الله عنه وقيل هما لرجل يمدح حاتما وقيل هما لابن المولى محمد بن عبد الله بن مسلم وقيل هما للعلوي صاحب الزنج.

ومن ذلك قول المتملمس:

وَلَا يَقِيمُ عَلَى ضَمِيمٍ يُرَادُ بِهِ إِلَّا الْأَدْلَانَ عَيْرُ الْحَيِّ وَالْوَتْدُ
هَذَا عَلَى الْحَسَنِ مَرْبُوطٌ بِرَمِيهِ وَذَا يُسْحَجُ فَلَا يَرِي لَهْ أَحَدٌ

تجد أن الإشارة: "هذا وذا.." قد ميزت المسند إليه وحددته وجعلته ماثلاً أمام الأعين .. وإفادة الإشارة لكمال التمييز تجدها كثيراً في النظم الكريم، وترى لها مذاقاً حسناً.

انظر إلى قوله تعالى في حادثة الإفك: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور ١٣] فالحكم على ما وقع وخاض فيه الحائضون بأنه: "إفك مبين" بعد الإشارة إليه "هذا" وإبرازه أمام العين، يفيد قوة الحكم وصدق اليقين بأنه إفك مبين، وتأمل قوله عز وجل بعد ذلك: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ [النور ١٦]، تجد أن تميز الحدث وكمال إبرازه بالإشارة إليه: "أن نتكلم بهذا.. سبحانك هذا.." قد جعل الحكم عليه بأنه: "بهتان عظيم" يقع موقعه في الأنفس، ولا يخفى عليك ما وراء الإشارة من تحقير وإهانة لمن خاض في هذه الحادثة.

٢- القصد إلى تعظيم المسند إليه أو إلى تحقيره، وهذا مقصد تحققه أسماء الإشارة أحسن تحقيق وتقوم به خير قيام، لأنك تعلم أن الإشارة تكون للقريب، فيقال هذا رجل، وللبعيد فيقال: ذلك وللتوسط فيقال ذاك وقد ينزل البعد أو القرب المعنوي منزلة القرب أو البعد الحسي، وعندئذ ترى أسماء الإشارة تفيد ما تفيد من التعظيم أو التحقير.

فمن إفادة التحقير باسم الإشارة المشار به للقريب قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان ٤١]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾ [الأنبياء ٣٦] فقد أشير إلى النبي ﷺ باسم الإشارة الموضوع للقريب "هذا" تحقيراً له في اعتقادهم وإعلاناً عن رفضهم رسالته، وأنه لا يليق به أن يذكر آلهتهم بسوء لقربه وذنو منزلته ..

وانظر إلى قول الهذلول بن كعب العنبري متحدًا عن زوجه:

تَقُولُ وَدَقَّتْ نَحْرَهَا بِيَمِينِهَا أَبْعَلِي هَذَا بِالرَّحَا الْمُتَقَاعِصُ
فَقُلْتُ لَهَا لَا تَعْجِبِي وَتَبَيَّيْ بِلَائِي إِذَا التَّفَّتْ عَلَيَّ الْفَوَارِصُ

ففي إشارتها إليه بالقريب "هذا" معاني الاستخفاف والتحقير ودنو المنزلة، ولذا رد عليها مبيّنًا منزلته في ميدان القتال، وبلاءه عند الموقف الصعب ..

ومن ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت ٦٤] فقد أشير إلى الدنيا بالقرب "وما هذه" نبيها على حقارتها ووضاعتها في نفس المؤمن الذي لا يلقى لها بالأ.

ومن إفادة التعظيم باسم الإشارة المشار به للقريب قوله تعالى في شأن القرآن: ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلِّي هِيَ أَقْوَمٌ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الإسراء ٩]، فأتى باسم الإشارة الموضوع للقريب مؤذنًا بقربه قربًا يحقق الانتفاع به والاسترشاد بهديه العظيم، لأن المقام مقام حديث عن هدايته إلى أقوم الطرق، وكلما كان الهادي قريبًا، كان أنجح لرسالته، وأقطع لعذر من ينصرف عن هدايته والاسترشاد به.. وعُد إلى أبيات الفرزدق في علي بن الحسين، تجد أن إشارته إليه بالقريب يفيد تعظيمه وقربه من القلوب وتعلق الناس به ومحبتهم له..

ومن إفادة التحقير باسم الإشارة المشار به للبعيد قوله تعالى: ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّكْرِ ﴿۱﴾ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ أَلَيْبِيمَ ﴿۲﴾ ﴾ [الماعون ١، ٢] فقد دلت الإشارة بالبعيد "ذلك" على حقارة المكذب، وحرمانه من ساحة القرب وشرف الحضور.. وتقول: ذلك الواشي وشى بي عند فلان، فتحقره بالإشارة وتبعده عن نفسك وعن المخاطبين..

ومن إفادة التعظيم باسم الإشارة المشار به للبعيد قوله تعالى: ﴿ التَّوَّابُ ﴿۱﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿۲﴾ ﴾ [البقرة ١، ٢] أشار إلى القرآن بالبعيد "ذلك" لبيان منزلته وعلو مكانته وأنه لا تدانيه منزلة، فقد بلغ الغاية في الكمال

والهداية.. وقوله تعالى: ﴿فَدَا لِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنِّي فِيهِ﴾ [يوسف ٣٢]، أشارت إليه بالبعيد وهو قريب لتظهر علو منزلته في الحسن، ولتبرز عذرها في الافتتان به، وقوله جل وعلا: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم ٦٣]، أفادت الإشارة تعظيم الجنة وبعد مكانتها..

ومن أقوالهم في هذا الصدد قول الفرزدق مفتخرًا بأبائه ومشيرًا إلى علو مكانتهم ورفعة شأنهم متحدثًا جريًا أن يأتي بمثلهم:

أَوْلَيْكَ أَبَائِي فَجَنَّتِي بِمِثْلِهِمْ إِذَا جَمَعْتَنَا يَا جَرِيرُ الْمَجَامِعِ

فقد أفادت الإشارة: "أولئك" تعظيم الآباء وسمو مكانتهم، وفي ذلك تعريض بالمخاطب ودنو آباءه وضعة شأنهم، والأمر في قوله "فجنتي" للتعجيز..

ومثله قول الحطيئة:

أَوْلَيْكَ قَوْمٌ إِنْ بَنَوْا أَحْسَنُوا الْبِنَا وَإِنْ عَاهَدُوا أَوْفَوْا وَإِنْ عَقَدُوا شَدُّوا^(١)

فقد أفادت الإشارة "أولئك" تعظيم المشار إليهم وبعد مكانتهم وعلو مجدهم .. ولكن يؤخذ على الشاعر، استخدامه "إن" دون "إذا" فقلل بهذا بناء المجد والعهد والعقد .. ولو استخدم "إذا" لكان أبلغ وأوفى بمقام المدح.. وقد اجتمع التعظيم والتحقير في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [٣٦] وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿٣٧﴾ [المؤمنون ١٠٢، ١٠٣].

٣- وقد يقصد بالتعريف باسم الإشارة: التنبيه على أن المشار إليه المذكور بعد أوصاف عديدة للشيء، جدير من أجل تلك الصفات بما يذكر بعد اسم الإشارة.. من ذلك قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة ٥] فقد تقدم وصفهم بالتقوى والإيمان بالغيب وهو أعلى مراتب الإيمان، ثم وصفهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، فوفوا بذلك حق الله وحق الفقراء، وهم

(١) بنوا: يريد ما بينونه من المجد والمكارم ويقال: بنا: بنوئنا في المجد والشرف، وبنى: بنى بناء في العسران. وعقدوا: أبرموا أمراً وعزموا عليه.

يؤمنون بكل ما أنزل على أنبيائه، ثم جاءت الإشارة "أولئك" لتفيد أنهم جديرون من أجل الصفات المتقدمة بما يذكر عقبها من الهدى والفلاح.. وهذا كثير في النظم القرآني.. ارجع إلى قوله تعالى في سورة المؤمنون: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ [المؤمنون ١٠]، وفي سورة البقرة: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَيْرُونَ﴾ [البقرة ٢٧] وفي سورة الرعد: ﴿أُولَئِكَ هُمُ عَقَبَى الدَّارِ﴾ [الرعد ٢٢]، وتأمل ما قبله وما بعده ليتضح لك ما قلناه.

٤- ومن أغراض التعريف بالإشارة: تجسيد المعنويات وإبرازها في صورة محسة مشاهدة، على نحو ما ترى في قوله تعالى: ﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [النور ٤٤]، فالإشارة، قد أبرزت التقلب في صورة محسة مرئية، ولكنها بعيدة: "ذلك"، لأنه لا يأخذ العظة منها إلا النفوس المؤمنة القوية المهياة للوعي والإدراك.. ومثله قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَيُّدَا مِثْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَيُّنَا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [المؤمنون ٨٢، ٨٣]، فقد أبرزت الإشارة البعث في صورة محسة مرئية.. وقوله تعالى: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِيَهُ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَمَا مِمَّا عَلَّمْنِي رَبِّي﴾ [يوسف ٣٧].. وعد إلى الآيات التي ذكرناها في حادثة الإفك لترى كيف أبرزت الإشارة تلك الحادثة في صورة مرئية مشاهدة.

٥- ومن مزايا اسم الإشارة أنك تجده في كثير من الأساليب يلخص الكلام إذ يستطيع به المتحدث أن يطوي جملاً كثيرة بل وربما صفحات كاملة دون حاجة إلى إعادتها، لأن اسم الإشارة يقوم مقام هذه الإعادة ويغني عنها.. انظر إلى قوله تعالى في سورة الإسراء ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾ [الإسراء ٣٩] تجد اسم الإشارة: "ذلك" قد أغنى عن آيات عديدة حوت كثيراً من الأوامر والنواهي.. وهذا كثير في النظم الكريم وفي الأساليب الرفيعة وهو لا يخفى على الناظر الدقيق والمتأمل الواعي.

٦- ومن مزايا اسم الإشارة أيضًا أنه يقوم مقام أدوات الربط فيصل بين الجمل المستأنفة والجمل المتقدمة على نحو ما ترى في الآيات الكريمة: ﴿وَأَذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ﴾ [سورة الأَنْعَامِ ٨٦] هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَّوَابٍ ﴿٨٧﴾ [ص ٤٨، ٤٩].. ﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُم مِّن نَّفَادٍ﴾ [سورة الطَّيْنِ ٨٧] هَذَا وَإِنَّ لِلطَّالِبِينَ

لَشَرُّ مَقَابٍ ﴿٥٤﴾ [ص ٥٤، ٥٥].. إلى غير ذلك من الأغراض والمزايا والمعاني اللطيفة الدقيقة التي تكمن وراء التعريف بأسماء الإشارة.

التعريف بالألف واللام

يعرف المسند إليه بالألف واللام لغرضين أولهما: الإشارة إلى فرد من أفراد الحقيقة، معهود بين المتكلم والمخاطب، وتسمى اللام عندئذ لام العهد الخارجي وتأتي على ثلاثة أنواع:

١- لام العهد الخارجي الصريحي: وهي التي يتقدم لدخولها ذكر صريح في الكلام، كما في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ [النور ٣٥]، فلفظا "المصباح والزجاج" كل منهما مسند إليه، وقد جاء معرفين "بال" إشارة إلى معهود خارج، وهذا المعهود قد صرح به في قوله تعالى: "فيها مصباح.. في زجاج" ولذا تسمى اللام، لام العهد الخارجي الصريحي.. ومنه قولك: غرست شجرة فأثمرت الشجرة وأينعت وآتت أكلها.

٢- لام العهد الخارجي الكنائي: وهي التي يتقدم لدخولها ذكر كنائي كما في قوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [آل عمران ٣٥، ٣٦]، فلفظ "الذكر" مسند إليه، وقد عرف "بال" إشارة إلى العهد الخارجي الكنائي؛ حيث لم يصرح بلفظه، وإنما كنى عنه بقوله تعالى: "ما في بطني محرراً" إذ أرادت ذكرًا كي تبته لخدمة بيت المقدس، أما "أل" في "الأنثى" فللعهد الخارجي الصريحي لتقدم مدخولها صريحًا في قوله تعالى: "رب إني وضعتها أنثى" ..

٣- لام العهد الخارجي العلمي، كما في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح ١٨]، فاللام في: "الشجرة" للعهد الخارجي العلمي حيث لم يتقدم لدخولها ذكر لا صريحًا ولا كنيائيًا.

ثانيهما: الإشارة إلى نفس الحقيقة وتسمى اللام عندئذ لام الحقيقة أو لام الجنس وترد أيضًا على ثلاثة أنواع:

١- لام الجنس أو الحقيقة، وهي التي يكون مدخلها مرادًا به الحقيقة نفسها، كقولك: الرجل خير من المرأة، أي: حقيقة الرجل خير من حقيقة المرأة، فلام الجنس أغنت عن تفصيل يتعذر إذ لا يستطيع القائل أن يستقصي جميع أفراد الجنس في تلك المفاضلة، كما أن التعريف بلام الجنس في المثال المذكور، لا ينافي أن بعض أفراد حقيقة المرأة، خير من بعض أفراد حقيقة الرجل، ففي هذا إيجاز وإيجاء دقيق..
ومن ذلك قول أبي العلاء المعري:

وَالْحَيْلُ كَأَلْمَاءٍ يُبْدِي لِصَمَائِرِهِ مَعَ الصَّفَاءِ وَيُخْفِيهِمَا مَعَ الْكَدْرِ
أراد جنس الخل وجنس الماء..

وانظر إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ﴾ [البقرة ١٣]، نجد أن اللام في "الناس" يصح أن تكون لام العهد العلمي، أي: كما آمن الرسول ﷺ ومن معه ويصح أن تكون لام الجنس، أي: كما آمن جنس الناس، والجنسية هنا يتولد منها معنى لطيف، لأنها تشير إلى أنهم هم الناس الكاملون في الإنسانية، فالذين آمنوا هم جنس الناس، ومعدن الإنسانية، ومن عداهم ليسوا منها في شيء^(١).

٢- لام العهد الذهني: وهي أن يأتي المعرف بلام الحقيقة أو الجنس مرادًا به فرد مبهم من أفراد الحقيقة باعتبار عهديته في الذهن لاشتغال الحقيقة عليه، كقولك لمخاطبك: "ادخل السوق" وليس بينك وبينه سوق معهودة في الخارج..

وعليه قول عميرة بن جابر الحنفي:

وَلَقَدْ أَمَرْتُ عَلَى اللَّثِيمِ يَسْبِي فَاَعْفُ نَمَّ أَقْوَلُ لَا يَغْنِينِي

فالمراد باللثيم فرد غير معين من أفراد الحقيقة، وليس المراد به الحقيقة لاستحالة المرور على ما لا وجود له، ولا فردًا معينًا من أفرادها، إذ لا عهد به في الخارج.

(١) انظر الكشاف ج١ ص ١٨٢.

ومثله قول المتنبي:

إِذَا أَنْتَ أَكْرَمْتَ الْكَرِيمَ مَلَكَتْهُ وَإِنْ أَنْتَ أَكْرَمْتَ اللَّئِيمَ تَمَرَدَا

وقوله عز وجل: ﴿ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذَّنْبُ وَأَنْتَ عَنْهُ غَفِيلُونَ ﴾ [يوسف ١٣] فلفظ "الذنب" في الآية المراد به فرد من أفراد حقيقة الذئاب، كما أن لفظي "الكريم" و"اللئيم" في البيت المراد بالأول فرد من أفراد حقيقة الكرام، وبالثاني فرد من أفراد حقيقة اللثام.

٤- لام الاستغراق: وهي التي يراد بمدخولها جميع الأفراد المدرجة تحت الحقيقة عند قيام القرينة الدالة على ذلك، وقد سميت لام الاستغراق لاستيعابها جميع الأفراد.

والاستغراق إما حقيقي، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ [العصر: ١، ٢]، فاللام في "الإنسان" للاستغراق الحقيقي لجميع أفراد جنسه، ولذا استثنى الذين آمنوا فهم ليسوا في خسران، ومنه قوله تعالى: ﴿ عَلِمُوا أَلْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ [الأنعام ٧٣]، أي: كل غيب وكل شهادة، "فأل" فيهما للاستغراق الحقيقي، إذ أريد بمدخوليهما جميع الأفراد التي يتناولها اللفظ بحسب الوضع.

وإما عرفي كقولك: امثل الطلاب رأي المعلم، "فأل" في الطلاب أريد بها الاستغراق العرفي، لأن مدخولها أريد به جميع الأفراد التي يتناولها بحسب العرف وما جرت به العادة، لا جميع الأفراد حقيقة، ومثله قولك: جمع الأمير الصاعغة، فالمراد: جمع صاعغة بلده أو أطراف مملكته فحسب لا صاعغة الدنيا، فأل في "الصاعغة" للاستغراق العرفي.

التعريف بالإضافة

ويعرف المسند إليه بالإضافة لإفادة أغراض بلاغية كثيرة، والدلالة على أسرار ومزايا جمّة.. أهمها ما يلي:

١ - إرادة الإيجاز كقولك: كتابي مفيد، إذ الإضافة فيه هي أخصر طريق لإحضار المسند إليه "كتابي" في ذهن السامع فما من ريب في أن هذا أخصر من قولك: الكتاب الذي أملكه مثلاً..

وانظر إلى قول جعفر الحارثي وكان مسجوناً بمكة فزارته فتاته مع ركب قومها فلما رحلت عنه قال واصفاً أله وأحزانه:

هَوَايَ مَعَ الرَّكْبِ الْيَمَانِينَ مُضِعِدُ جَنِيْبٍ وَجُثْمَانِي بِمَكَّةَ مَوْثِقُ^(١)

تجد أن الإضافة في قوله: "هواي" هي أخصر طريق لإحضار المسند إليه في ذهن المخاطب، وقد اقتضى المقام هذا الإيجاز، لأن الشاعر حزين متألم ضائق الصدر لسجنه وفراق أحبته ومثل هذا المقام يلائمه الإيجاز وطبي الكلمات واختصار القول.

٢ - أن يكون التعريف بالإضافة مغنياً عن تفصيل يتعذر أو عن تفصيل تركه أرجح لاعتبار ما، فمن الأول قولك: أهل مصر كرام، إذ يتعذر عليك ذكرهم والإحاطة بهم..

ومثله قول أبي السمط مروان بن أبي حفصة:

بُنُو مَطَرٍ يَرِيضُونَ اللَّقَاءَ كَأَتْمِهِمْ أُسُودُهُا فِي غَيْلٍ خَفَّانَ أَشْبِلُ^(٢)

إذ يتعذر عليه الإحاطة ببني مطر واستقصاء أسمائهم.

(١) هواي: المراد الذي أهوى فهو من إطلاق المصدر على اسم المفعول مجازاً مرسلأً، واليமானين: جمع

بيان وألفه عوض عن ياء النسب والمصدر: اسم فاعل من أصعد بمعنى أبعد في السير، والجنيب: المستنع من جنب البعير إذا قاده إلى جنبه، وموثق: مقيد محبوبس.

(٢) بنو مطر: قوم الشاعر أو قوم الممدوح. والغيل: الشجر الملتف. وخفان: مأسدة قرب الكوفة، والأشبيل: أولاد الأسود مفردة شبيل.

ومن الثاني قول الحارث بن وعله الجرمي - وقد مر بك في أسرار الحذف:
 قَوْمِي هُمْ قَتَلُوا أُمَّيْمَ أَحْسَى فَأِذَا زَمَيْتُ يُصِيبُنِي سَهْمِي
 بالإضافة في قوله: "قومي" أغنت عن تفصيل تركه أرجح، لأنه لو فصل
 فذكر القتلة بأسمائهم لأوغر صدورهم عليه، ولا يخفى عليك ما وراء الإضافة
 والاختصاص "هم قتلوا" وترخيم المنادى: "أميم" من حزن وألم ومن إبراز لجريمة
 قومه وتصوير لبشاعتها^(١).

٣- أن تكون الإضافة متضمنة تعظيم المضاف كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ
 اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن ١٩]، وقوله عز وجل: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي
 نَبِيًّا﴾ [مريم ٣٠]، وقوله جل وعلا: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ
 هَوْنًا﴾ [الفرقان ٦٣]، فالإضافة إلى الله تعالى تشریف ما بعده تشریف وتعظيم ما بعده
 تعظيم، ولذا حق للقاضي عياض أن يقول مفتخرًا بعبوديته لله الخالق تبارك وتعالى:
 وَمَا زَادَنِي شَرَفًا وَتَيْهًا وَكَدْتُ بِأَخْصِي أَطَا الثَّرِيَّا
 دُخُولِي تَحْتَ قَوْلِكَ: "بَاعِبَادٍ" وَأَنْ جَعَلْتِ أُمَّهَدِي نَبِيًّا
 أو تعظيم المضاف إليه كقولك: خادمي جاء .. أموال لا تعد، تفتخر بأنك
 عظيم لك خادم ولديك أموال، فالإضافة تضمنت تعظيم المضاف إليه أي:
 "المتكلم".

٤- أن يقصد بالإضافة تحقير شأن المضاف أو المضاف إليه كقولك: أعداء
 الإسلام يتربصون به ... أموال السارق لم تنفعه ... فلا يخفى عليك تحقير المضاف في
 الأول والمضاف إليه في الثاني ... ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ
 الشَّيْطَانِ﴾ [البقرة: ١٦٨].

وقد اجتمع التحقير والتعظيم في قول جميل:

أَبُوكَ حَبَابٌ سَارِقُ الصَّيْفِ بُرْذُهُ وَجَدِّي يَاحَجَّاجُ فَارِسُ شَمْرَا^(٢)

(١) ارجع إلى ما قلناه في هذا البيت عند حديثنا عن حذف المسند إليه.

(٢) شَمْرًا: اسم ناقة والشَمْرية: الناقة السريعة. وَشَمْرًا: أيضا اسم فرس وهذا هو المراد في البيت ..
 يفتخر جميل بأن جده فارس شَمْرًا وصاحب خيل.

فالإضافة في "سارق الضيف" أفادت تحقير أبي المخاطب "حباب" وفي "فارس شمراء" أفادت تعظيم جد الشاعر.

٥- وقد يقصد بالإضافة إفادة معنى لطيف كما في قول بعضهم:

إِذَا كَوَّكَبُ الْخِرْقَاءِ لَاحَ بِسُحْرَةٍ سُهَيْلٌ أَذَاعَتْ غَزَلَهَا فِي الْأَقَارِبِ (١)

فقد جعل للخرقاء كوكبًا وأضافه إليها لأدنى مناسبة وهي أنها لا تتذكر كسوة الشتاء إلا وقت طلوعه سحرًا، وهو لا يطلع سحرًا إلا في الشتاء، وتكمن وراء تلك الإضافة معانٍ دقيقة كالمداعبة والمزاح، والسخرية من تلك المرأة الخرقاء الكسول، وإثارتها واستنهاضها وحثها على العمل وترك الإهمال.

٦- وقد يقصد بالإضافة الاستعطاف والحث على الشفقة، كما في قوله تعالى:

﴿ لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ وَوَالِدٌ لَهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ، يُؤَلِّدُهَا ﴾ [البقرة ٢٣٣]، فقد أضيف الولد إليها وإلى الأب: "بولدها.. بولده" استعطافًا لها وحثًا على الإشفاق عليه، والكف عن مضرتة، أو عن المضارة بينهما بأن يضر كل منهما الآخر بسببه. لأن تلك المضرة ترجع في الأخير إلى ولدهما..

يقول الزمخشري: "فإن قلت: كيف قيل بولدها وبولده؟ قلت: لما نهيت المرأة عن المضارة أضيف إليها الولد استعطافًا لها عليه، وأنه ليس بأجنبي منها فمن حقها أن تشفق عليه، وكذلك الوالد" (٢).



تنكير المسند إليه

يأتي المسند إليه نكرة لإفادة أنه فرد غير معين من أفراد جنسه، أو لإفادة النوعية، فإذا قلت: جاءني رجل، صلح هذا القول لإرادة الأفراد، أي: جائي رجل لا رجلان وصلح لإرادة النوعية أي: جاءني رجل لا امرأة، وهذه الإفادة إفادة

(١) الخرقاء: يريد: المرأة الخرقاء أي المهملة الكسول. وسهيل بدل من الكوكب، وأذاعت غزلها في الأقارب: فرقته عليهم ليعاونوها ويسعفوها.

(٢) الكشف جـ ١ ص ٣٧١.

أصلية للنكرة، وقد تتمحض النكرة للدلالة على العدد، وذلك إذا وصفت به كقولك: جاءني رجل واحد، ورجلان اثنان، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ ﴾ [النحل ٥١]، وقد تتمحض لإفادة النوعية أي الجنس، كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَيْرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحِهِ إِلَّا أُنْمِئَتْ أُمَّتًا لَكُمْ ﴾ [الأنعام ٣٨] فقد محض الوصف في "الأرض.. ويطير بجناحيه" النكرتين: "دابة وطيئر"، لإفادة الجنس.. هذا وقد يقصد بتكثير المسند إليه وجوه بلاغية كثيرة أهمها:

١- القصد إلى أن المسند إليه فرد غير معين من أفراد حقيقته حيث لا يتعلق بتعريفه غرض، كما في قوله تعالى: ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى ﴾ [القصص ٢٠]، وقوله جل وعلا: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ﴾ [غافر ٢٨]، فقد نكر المسند إليه في الآيتين: "رجل" لأن القصد إلى إفادة أنه فرد غير معين من أفراد جنسه، إذ لا حاجة إلى تعريفه ولا غرض من تعيينه، فالمراد أن يصل إلى موسى نبأ الاثتار لقتله، وأن يعلم المخاطب أن قولاً قد قيل وأن تبيها إلى ما في قتل موسى من خطأ قد وقع، ولا يخفى عليك ما وراء التنكير من تعظيم المسند إليه وإعلاء شأنه، فقول كلمة الحق في مثل هذه المجتمعات الفاسدة لا يصدر إلا من رجل عظيم الشأن جليل القدر، كما لا يخفى عليك ما أفاده تنكير المفعول في قوله تعالى: "أتقتلون رجلاً" من تعظيم لموسى عليه السلام.

٢- القصد إلى تعظيم المسند إليه، كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَتَأْوَلِي الْآلِئْبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة ١٧٩]، فقد نكرت الحياة التي يحققها القصاص للإشارة إلى أنها حياة عظيمة.. وقوله عز وجل: ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۖ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۖ ﴾ [الانشراح ٥، ٦] أفاد تنكير اليسر وتكراره الدلالة على تفخيمه وتعظيمه.

يقول الزمخشري: "فإن قلت: فما معنى هذا التنكير.. قلت: التفخيم، كأنه قيل إن مع العسر يسراً عظيماً، وأي يسر"^(١) ومن ذلك قول الرسول ﷺ: "إِنَّ مِنَ الْبَيَانَ

سَحْرًا وَإِنَّ مِنَ الشَّعْرِ حُكْمًا"^(١) أي: سحرًا عظيمًا وحكمًا كبيرًا.

ومنه من غير باب المسند إليه قول المتنبي:

أَهْمُ بِشَيْءٍ وَاللَّيَالِي كَأَهْمِهَا تَطَارِدُنِي عَنِ كَوْنِهِ وَأَطَارِدُ

فقد نكر "بشيء" ليشير إلى أن ما يهم به شيء عظيم تطارده الليالي عن إدراكه، ويطاردها، فهو يهم بعظام الأمور ويطارد الليالي من أجل نيل جلائل الأشياء.

٣- القصد إلى تحقيره، كقولك: لك عدو لا يعتد به، أي: عدو حقير الشأن،

لا يقام له وزن، ولا يلقي له بال، وكقول إبراهيم بن العباس وكان واليًا على الأهواز من قبل الواثق بالله ثم عزل في وزارة محمد بن عبد الملك الزيات فقال مخبرًا بنو الدهر عنه وتخلّى صاحب وتسلط الأعداء وغياب النصير:

فَلَوْ إِذْ بَادَهُرٌ وَأَنْكَرَ صَاحِبٌ وَشُلُطُ أَعْدَاءٍ وَعَاقِبَ نَصِيرٌ
تَكُونُ عَنِ الْأَهْوَازِ دَارِي بِنَجْوَةٍ وَلَكِنْ مَقَادِيرٌ جَرَتْ وَأُمُورٌ

فقد نكر الدهر ليشير إلى أنه دهر منكر ومجهول، وليس هو الدهر الذي كان يعهده أيام ولايته على الأهواز، ولذا تمنى أن تكون داره بعيدة عنها عندما تغير وتبدل الدهر، وقلب له ظهر المجن.. كما نكر "صاحب" ليشير إلى حقارته ولؤمه، ثم تأمل بناء الفعل للمجهول وأنه لم يقل "وأنكرت صاحبًا" حتى لا يسند إنكار صاحب إلى نفسه صريحًا في اللفظ، ولو كان صاحبًا لثيبًا حقيرًا، وتأمل تنكير الأعداء وبناء الفعل للمجهول: "سلط أعداء" للإشارة إلى حقارتهم وضعة شأنهم، وأنهم أداة في أيدي الغير وليسوا من مشاهير الرجال.. أما تنكير "نصير" في قوله: "وغياب نصير" فللإشارة إلى تعظيمه وفخامته، وأنه لولا غيابه لما حدث للشاعر ما حدث.

ومما اجتمع فيه التعظيم والتحقير قول الشاعر أبي السمط مروان بن أبي

حفصة:

(١) رواه البخاري في النكاح برقم [٥١٤٦/٤٧] ومسلم في الجمعة برقم [٨٦٩/٤٧] وأحمد في مسنده برقم [٢٤٢٤] واللفظ لأحمد.

فَقِيَ لَا يُبَالِي الْمُدْلِجُونَ بِنُورِهِ إِلَى بَابِهِ أَلَا تُضِيءُ الْكَوَاكِبُ لَهُ حَاجِبٌ عَنِ كُلِّ أَمْرٍ يَشِئُهُ وَلَيْسَ لَهُ عَنِ طَالِبِ الْعُرْفِ حَاجِبٌ

فقد أفاد تنكير "حاجب" الأول: التعظيم والتفخيم، فهو حاجب أي حاجب، ذلك الذي يحول بينه وبين فعل ما يشين، إنه حاجب قوي هائل، وأفاد تنكير "حاجب" الثاني التحقير والتقليل، فليس له حاجب ما، يحول بينه وبين طالبي معروفه.

ومثله قول الآخر:

وَلِلَّهِ مِنِّْي جَائِزٌ لَا أُضْبِعُهُ وَلِلَّهِ مِنِّْي وَالْخَلَاعَةَ جَائِزٌ

فتنكير "جانب" الأول للتعظيم والثاني للتحقير والتقليل.

أما قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِي إِيَّيْ أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ [مريم ٤٥] فقد قالوا: إن تنكير "عذاب" يفيد أنه عذاب هائل عظيم لا يكتنه ولا يحيط به الوصف، ولا تتعارض هذه الإفادة مع ذكر "المس"، لأنه ذكر مع العذاب العظيم قال تعالى: ﴿لَمَسَّكَ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور ١٤]، كما لا تتعارض مع ذكر الرحمن لأن عذاب الرحمن يكون أشد وأعظم، وغضبه يكون أقوى وأعتى، ولذا قالوا: "أعوذ بالله من غضب الحلیم" وقالوا: "اتق شر الحلیم إذا غضب"^(١).

ورأى الزمخشري أن تنكير "عذاب" في الآية، يفيد التقليل، لأن الكلام لم يخل من حسن الأدب مع أبيه إذا لم يصرح بأن العذاب لاحق به ولاصق، بل قال: "أخاف" وذكر أنه مس والمس أقل تمكناً من الإصابة، ثم نكر العذاب وذكر "الرحمن" ولذا يكون تنكير العذاب - في رأيه - للتقليل وليس للتعظيم والتهويل كما ذكر البلاغون^(٢).

(١) ورد عن البراء بن عازب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قرأ كتاباً فغضب وتغير لونه ثم قال: «مَا تَرَى فِي رَجُلٍ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ؟» قلت: أعوذ بالله من غضب الله وغضب رسوله رواه الترمذي في الجهاد برقم [١٧٠٤].

(٢) الكشاف جـ ٢ ص ٥١١.

٤- القصد إلى تكثيره، كما في قولهم: "إن له لإبلا وإن له لغنماً" يريدون بذلك الكثرة، أي: إبلاً كثيرة وغنماً عديدة، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴾ [الأعراف ١١٣] أفاد تنكير المسند أنهم يريدون أجراً كثيراً ومكافأة كبيرة إن تحققت لهم الغلبة على موسى - عليه السلام - وقد أجابهم فرعون بأن لهم ما طلبوا وزيادة: ﴿ قَالَ نَعَمْ وَإِنكُمْ لَمِنَ الْمُقْرَبِينَ ﴾ [الأعراف ١١٤].

ومن ذلك قول حسان في مدح النبي ﷺ:

لَهُ هِمٌّ لَأُمَّتِهِ لِكِبَارِهِهَا وَهَمُّهُ الصُّغْرَى أَجَلٌ مِنَ الدَّهْرِ
أفاد تنكير "همم التكثير والتعظيم معاً، أي: همم كثيرة عظيمة، ولذا قال: "لا منتهى لكبارها" .. "أجل من الدهر" فدل الأول على الكثرة ودل الثاني على التعظيم والتفخيم ..

ومنه قول الإمام الشافعي رحمه الله:

وَفِي السَّمَاءِ نُجُومٌ لَا عِدَادَ لَهَا وَلَيْسَ يُكْسَفُ إِلَّا الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ
أراد: نجومًا كثيرة.

وما أفاد التكثير والتعظيم معاً قوله تعالى: ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ﴾ [فاطر ٤]، فالمقام مقام تسليية للرسول ﷺ وتسرية عنه وقد أفاد تنكير "رسل" الإشارة إلى أنهم رسل عظام كثيرو العدد.

٥- القصد إلى إفادة التقليل، كما في قوله تعالى: ﴿ وَعَدَّ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكَنٌ طَيِّبَةٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ [التوبة ٧٢]، أفاد تنكير "رضوان" الإشارة إلى أن التقليل من رضوان الله أكبر من كل نعيم، فالمعنى: وشيء ما من رضوان الله أكبر من ذلك كله، لأن رضاه سبب كل سعادة وفلاح، فالعبد إذا علم أن مولاه راض عنه فهو أكبر في نفسه مما وراه من النعيم، ولذا كان القصد من تنكير المسند إليه "رضوان" إفادة التقليل، أي: أقل قدر من رضاه الله خير من كل نعيم، ولا يخفى عليك ما وراه ذلك من تعظيم رضوان الله تعالى ..

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَسَلَّمْ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم ١٥]، فقد أفاد تنكير المسند إليه: "سلام" التقليل، لأنه من قبل الله تعالى: والقليل منه كثير ومغن عن كل تحية، ولذا جاء معرفاً في قصة عيسى عليه السلام: ﴿وَأَلْسَلَمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم ٣٣]، لأنه ليس وارداً من جهة الله تعالى بل هو من قول عيسى -عليه السلام-: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ [مريم: ٢٠]، ولهذا الغرض تجدد أن السلام لم يرد من جهة الله تعالى في النظم الكريم إلا منكرًا، ارجع إلى الآيات الكريمة: ﴿سَلَّمْ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَجِيمٍ﴾ [يس ٥٨]، ﴿أَهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا﴾ [هود ٤٨]، ﴿سَلَّمْ عَلَيَّ إِلَى يَاسِينَ﴾ [الصافات ١٣٠].

ومما أفاد تنكيره التقليل أيضًا قوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ مُسْتَهْمَرٍ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾ [الأنبياء ٤٦]، فقد أفاد التنكير وبناء المرة في "نفحة" التقليل، أي: نفحة قليلة ضئيلة، ولا يخفى عليك ما في هذا اللفظ من التهكم والسخرية، لأن النضح يستعمل في الخير كنفح الطيب ونفح الهواء العليل، وقد استعملت هنا في الشر على سبيل الاستعارة التهكمية، كما في قوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان ٤٩]، وقوله جل وعلا: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران ٢١].

٦- القصد إلى إفادة أن المسند إليه من نوع خاص، متميز عما يعرفه المخاطب وبألفه وبعده، من ذلك قوله تعالى: ﴿حَتَّمَ اللَّهُ عَلَيَّ قُلُوبَهُمْ وَعَلَيَّ سَمْعَهُمْ وَعَلَيَّ أَبْصَرَهُمْ غَشَاوَةٌ﴾ [البقرة ٧] فقد أفاد تنكير "غشاوة" الإشارة إلى أنها نوع خاص من الغشاوة متميز عن سائر الغشاوات، لا يعرفه الناس، ولا يعهدونه فهو يغطي ما لا يغطيه شيء من الغشاوات المعهودة، ولا يخفى عليك ما يفيد التنكير بالإضافة إلى ذلك من تعظيم وتهويل.

ومنه في غير باب المسند إليه قوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَيَّ حَيَاقٍ﴾ [البقرة ٩٦] أي: على نوع من أنواع الحياة يكون زائداً، ومميزاً عن حياة الناس، وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ﴾ [النور ٤٥]، فالتنكير فيها يحتمل النوعية بمعنى خلق كل نوع من أنواع الدواب من نوع من أنواع الماء، ويحتمل الأفراد، أي خلق كل فرد من أفراد الدواب من فرد من أفراد النطف.

ومما أفاد تنكير المسند إليه فيه النوعية قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾ [البقرة 179] أي: حياة متميزة خاصة، فاقت كل حياة وأربت عليها، وقد مر بك ما أفاده التنكير في هذه الآية أيضًا من تعظيم وتفخيم لشأن تلك الحياة الخاصة..

ومن ذلك قول عبد الله بن المعتز:

وإني على إشفاقٍ عيني من العدا لتَجْمَعُ منِّي نظرةٌ ثم أطرقُ

فقد أشار بتنكير النظرة إلى أنها نظرة من نوع خاص، نظرة ظامئة شرود، ولذا وصفها بالجموح وأخبر أنه لا يستطيع أن يردّها وسيطر عليها إلا بعد زمن طويل ممتد "ثم أطرق" وذلك على الرغم من وجود الرقباء وإشفاقه منهم، وهذا يوضح أنها نظرة متميزة تختلف عن النظرات المعهودة لدى البشر.

ومنه قول الآخر:

لِكُلِّ داءٍ دَوَاءٌ يُسْتَنْطَبُ بِهِ إِلَّا الْحَمَاقَةَ أَعْيَتْ مَنْ يُدَاوِيهَا

أفاد تنكير الداء والدواء النوعية وأن لكل من الداءات نوعًا خاصًا من الأدوية، يصلح لعلاجه، فمتى اهتدى إلى ذلك النوع الخاص من الدواء وعولج به الداء شفى وعوفي صاحبه بإذن الله تعالى إلا داء واحدًا وهو الحماقة فإنها داء أعيا الأطباء فلم يجدوا لها دواء.

٧- وقد يقصد بتنكير المسند إليه: كراهة أن ينسب الفعل إليه معرفًا، ويكون

ذلك في مقامات المدح والفخر التي تقتضي المبالغة في الصفات..

انظر إلى قول أبي العلاء المعري:

إِذَا سَمِعْتُمُ مَهْمَةً يَمِينٌ لَطُولِ الْحَمَلِ بَدَّلَهُ شِمَالًا

فالمراد "بيمين" يمين الممدوح، ولكن الشاعر نكرها فلم يقل: "إذا سمعت مهنده يمينه" احترازًا من نسبة السامة في اللفظ إلى يمين الممدوح، لأن في ذلك الإسناد جفوة ينبو عنها حس الشعر حيث يقلل من شأن المبالغة في صفة الشجاعة التي يقتضيها مقام المدح، ويؤخذ على الشاعر استخدامه إذا، التي تفيد تحقق وقوع

الشرط، ولو عبر "بان" دون "إذا" لكان أبلغ في هذا المقام حيث تفيد "إن" ندرة وقوع الشرط كما سيأتي.



توابع المسند إليه

وقد يتبع المسند إليه بتابع كالوصف والبدل والتوكيد والعطف وذلك لغرض يقصد إليه البلاغي، وشأن المسند إليه في هذا شأن غيره من أجزاء الجملة، كما لا يخفى عليك أن الأحوال التي ذكرناها للمسند إليه تجري أيضًا على غيره من أجزاء الكلام.. وإليك بيان هذه التوابع.

١- الوصف

يوصف المسند إليه أو المسند أو أحد متعلقات الفعل لدواع بلاغية كثيرة. منها أن يكون الوصف مفسرًا وكاشفًا عن معنى الموصوف.. كما في قول أوس بن حجر يرثى نضالة بن كلدة:

أَيْتَهَا النَّفْسُ أَجْمَلِي جَزَعًا إِنَّ الَّذِي تَحَذِّرِينَ قَدْ وَقَعَا
 إِنَّ الَّذِي جَمَعَ الشَّجَاعَةَ وَالنَّجْدَ سِدَّةَ وَالْبِرِّ وَالتَّقَى جُمِعَا
 أَلْأَلْمَعِيِّ الَّذِي يَظُنُّ بِكَ الظَّنَّ كَأَنَّ قَدْ رَأَى وَقَدْ سَمِعَا
 أَوْ دَى فَلَا تَنْفَعُ الْإِشَاحَةُ مِنْ أَمْرِ لِمَرْءٍ يُجَاوِلُ الْبِدْعَا

فقوله: "الألمعي" صفة كاشفة وموضحة للمسند إليه "الذي جمع الشجاعة، والنجدة والبر والتقوى" ولذا حكى أن الأصمعي سئل عن معنى الألمعي فأنشد تلك الأبيات ولم يزد..

واقرا قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١ ﴿ [المعارج ١٩ - ٢٠] فقوله "هلوعًا" حال من نائب الفاعل فهو وصف كاشف ومفسر وموضح لحقيقة الإنسان، يقول الزمخشري: "الهلوع سرعة الجذع عند مس المكروه، وسرعة المنع عند مس الخير، من قولهم "ناقة هلوع":

سريعة السير وعن أحمد بن يحيى^(١) قال لي محمد بن عبد الله بن طاهر: ما الهلع؟ قلت: قد فسره الله تعالى، ولا يكون تفسير أبين من تفسيره"^(٢).

ومنها أن يكون الوصف مخصصًا للموصوف، ومعنى تخصيصه له: تحديده ورفع احتمال غيره في المعارف، وتقليل الاشتراك في النكرات كقولك: زيد التاجر حضر ومحمد العالم ذهب.. ورجل فقير عندي وامرأة مؤمنة تزوجت..

ومنها أن يكون الوصف مشعرًا بمدح كما في قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ وقوله عز وجل: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾ [الحشر ٢٤]، وقوله عز وعلا: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة ١٢٨] أو بدم كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل ٩٨]، أو بتأكيد لإظهار الفرح والسرور كقولك: أمس الدابر كان يومًا عظيمًا، أو لإظهار التأسف كقولك: أمس الدابر كان يومًا مؤلمًا حزينًا.

ومنها أن يكون الوصف بيانًا للموصوف ومحددًا للمراد منه كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ [النحل ٥١]، وذلك أن الاسم النكرة الحامل لمعنى الأفراد والتثنية دال على شيئين: الجنسية والعدد المخصوص فإذا أريدت الدلالة على أن المعنى به منهما والذي سيق له الحديث هو العدد شفع بها يؤكد فدل به على القصد إليه، والعناية به، ألا ترى أنك لو قلت: إنما هو إله ولم تؤكد بواحد لم يحسن وخيل أنك تثبت الألوهية لا الوجدانية، وكذا إذا أريدت الدلالة على أن المعنى به منهما الجنسية شفع بالصفة التي تبين ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحِهِ إِلَّا أُمَّمٌ أُمَّتَالِكُمْ﴾ [الأنعام ٣٨] فقد شفع لفظ "دابة" "بفي الأرض" ولفظ طائر "بيطير بجناحيه" لبيان أن القصد بهما إلى الجنسية لا إلى العدد، وفي ذلك زيادة لمعنى التعميم والإحاطة، كأنه قيل: وما

(١) أحمد بن يحيى هو أبو العباس ثعلب من أئمة اللغة والنحو. ١١.

(٢) الكشف ٤/١٥٨ وانظر الإيضاح ١/١٠٨.

من دابة قط في جميع الأرضين السبع ولا طائر قط في جو السماء من جميع ما يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم..

ومنها إفادة الترحم وطلب المغفرة كما في قول إبراهيم بن أدهم:
إِلَهِي عَبْدُكَ الْعَاصِي أَتَاكَ مُقِرًّا بِالذُّنُوبِ وَقَدْ ذَعَاكَ
فقد وصف العبد التائب المقر بالذنوب "بالعاصي" استعطافاً وطلباً للمغفرة
والرحمة..

هذا وعندما تقع الجملة صفة للنكرة يشترط فيها أن تكون خبرية، لأنها في المعنى حكم على صاحبها كالخبر، فلا يستقيم أن تكون إنشائية، أما قول عبد الله بن رؤبة التميمي:

حَتَّىٰ إِذَا جَنَّ الظَّلَامُ وَأَخْتَلَطَ جَاءَ بِمَذْقٍ هَلْ رَأَيْتَ الذُّنْبَ قَطًّا^(١)

فمعناه: جاءوا بمذوق يقال عند رؤيته: هل رأيت الذنب قط؟ فالجملة الاستفهامية ليست صفة وإنما هي مقول للصفة المحذوفة كما هو واضح.

٢- التوكيد

يؤكد المسند إليه وكذا المسند أو أحد المتعلقات ليتحقق بهذا التأكيد أغراض بلاغية يقصد إليها المتكلم.. منها إبراز المؤكد وزيادة تقرير المعنى في ذهن السامع كقولك: هو يعطي الجزيل، هو يدفع الشدائد، فتقديم المسند إليه على خبره الفعلي في المثالين قد أفاد تأكيد المعنى وتقديره وإبراز المسند إليه لوقوعه في ابتداء الكلام فانشغل الذهن به وتطلع إلى خبره، وأيضاً لتكرار الإسناد، لأن الفعل أسند إلى الضمير المذكور مرتين، مرة باعتباره مبتدأً وأخرى باعتباره فاعلاً^(٢)..

ومنها دفع توهم التجوز، كقولك: قطع الأمير نفسه السارق، فلو لم تقل:

(١) جن الظلام أقبل أوله، واختلاطه: إنما يكون بعد ذهاب نور النهار كله. والمذوق: اللبن المخلوط بالماء فهو مصدر بمعنى اسم المفعول.. والشاعر يصف قوماً أضافوه فأطالوا عليه ثم أتوه بهذا المذوق..

(٢) ارجع إلى تقديم المسند إليه ص ١٥٠ وما بعدها.

"نفسه" لجاز أن يتوهم أن القاطع غيره بأمره على ما جرت به العادة في ذلك.. وكذا قولك: نجح الطلاب كلهم، فقد رفعت "كل" احتمال التجوز بأن يكون الناجح معظمهم

ومنها دفع توهم السهو كقولك: نجحت أنا، وأقبل زيد زيد، وجاءني محمد محمد، وقلت أنت هذا القول، فهذا التأكيد يدفع توهم السامع أن المتكلم سها في إثبات الحكم لغير ما هو له..

ومنها تأكيد العموم مع رفع احتمال التجوز كقولك: عرفني الرجلان كلاهما، وجاءني القوم كلهم، فإنك لو قلت: عرفني الرجلان، جاءني القوم، بلا تأكيد، لتوهم أن أحد الرجلين هو الذي عرفك وأن بعض القوم قد جاء وبعضهم لم يأت، ولكنك لم تعتد بمن لم يعرفك ولا بمن لم يأت، فأطلقت الكل وأردت البعض على سبيل المجاز.. فدفعنا لهذا التوهم جاءت "كل" لتأكيد العموم ورفع احتمال التجوز، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ [آل عمران ٩٣]، وقوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ آرَيْنَهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأُنِيَ﴾ [طه ٥٣]، وقوله جل وعلا: ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آءَالَ فِرْعَوْنَ النَّذْرُ ﴿١٠﴾ كَذِبُوا بِآيَاتِنَا كُلَّهَا فَأَخَذْتَهُمْ أَخَذَ عَزِيزٌ مُّقْتَدِرٌ ﴿١١﴾﴾ [القمر ٤١، ٤٢]، وقوله تبارك وتعالى: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أُنِيَ أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الحجر ٣٠، ٣١] ولا يخفى عليك ما في الآية الأولى من إشارة إلى عظم النعمة، حيث أحل لهم كل طعام، كما لا يخفى عليك ما في الآيات الأخرى من إشارة إلى فظاعة تكذيب فرعون وقومه فقد كذبوا بالآيات كلها، وإلى فظاعة استكبار إبليس اللعين، حيث سجد الملائكة كلهم أجمعون إلا هو أباى واستكبر وكان من الكافرين.

هذا ولفظ "كل" تارة يقع تأكيداً وذلك عندما يستخدم مع المعارف كما في الشواهد المذكورة، ومعنى وقوعها تأكيداً أن الشمول مفاد بدونها فهي تأتي لتوكيده ودفع توهم غيره - كما رأيت - وتارة تقع تأسيساً وذلك عند إضافتها إلى النكرات كما في قوله تعالى: ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبراً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون ٥٣]، وقوله عز وجل: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَصَلَّنُهُ تَفْصِيلاً﴾ [الإسراء ١٢]، وقوله جل وعلا: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَا أُجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدْبٍ يَنْسِلُونَ﴾ [الأنبياء

[٩٦]، ومعنى وقوعها تأسيساً أنها هي التي تفيد الشمول وتؤسسه، فهو لا يفاد أصلاً إلا بها، وهذا واضح في الآيات الكريمة، إذ بدون "كل" لا تجد فيها شمولاً.

٣- عطف البيان

ويقصد البلاغي إلى عطف البيان لأغراض بلاغية أهمها: إيضاح المعطوف عليه باسم مختص به كقولك: قدم صديقك خالد، فخالد عطف بيان للصديق وقد وضحه وبينه، لأن المخاطب له أصدقاء كثيرون، فعندما تقول له: جاء صديقك، لا يدري أيهم، وعندما تقول: خالد. فقد وضحت وبينت، إذ حصرت المجيء في خالد دون غيره من الأصدقاء.

وقد يكون عطف البيان غير مختص بمتبوعه ولكن يحصل الإيضاح والاختصاص بمجموعهما، كما في قول النابغة الذبياني:

والمؤمن العائذات الطير يمسحها رُكباناً مَكَّةَ بين الغيل والسند
مَا إِنْ أَتَيْتُ بِشَيْءٍ أَنْتَ تَكْرَهُهُ إِذَنْ فَلَا رَفَقَتَ سَوْطِي إِلَى يَدِي^(١)

والمعنى: والله الذي آمن الطير الملتجئة للحرم والساكنة به للأمن من الاصطياد والأخذ، وقد حصل لها ذلك، إذ لا يجوز لأحد أخذها، بل الركبان القاصدون مكة المارون بين الغيل والسند تمسحها ولا تتعرض لها.. فالطير عطف بيان للعائذات وهو غير مختص بها، لأن العائذات صادق على الطير وعلى غيره مما يعوذ بالحرم ويؤمنه الله سبحانه وتعالى فيه.. وعند التأمل نجد أن عطف البيان في المثال الأول غير مختص أيضاً بمتبوعه.. لأن الصداقة تطلق على خالد وعلى غيره.. ولذا فالمهم أن يكون عطف البيان أخص من متبوعه حتى يتحدد ويتضح ذلك المتبوع في ذهن السامع عندما ينصرف إلى تابعه..

ومنها مدح المتبوع والدلالة على عظم شأنه كما في قوله تعالى: ﴿جَعَلَ اللَّهُ

(١) والمؤمن: الواو للقسم والمراد بالمؤمن: الله جل جلاله، والعائذات: جمع عائذة من العوذ وهو الالتجاء وتعرب مفعولاً به للمؤمن أو مضافاً إليه، والطير: عطف بيان على العائذات.. والغيل: بفتح الغين وسكون الياء والسند بفتح السين والنون: موضعان في جانب الحرم فيها الماء.. وجواب القسم قوله: "ما إن أتيت بشيء" وإن فيه زائدة للتوكيد.

الْكَعْبَةُ أَلْبَيْتَ الْحَرَامِ قَيْنَمَا لِلنَّاسِ ﴿ [المائدة ٩٧]، فالبيت الحرام عطف بيان للكعبة قصد به المدح والدلالة على عظم شأنها لا الإيضاح، لأن الكعبة أظهر من نار على علم، فليست في حاجة إلى إيضاح وبيان، وكان البيت الحرام مدحاً وتعظيماً؛ لأن فيه دلالة على أن هذا البيت موصوف بالحرمة والاحترام والمنع من كل امتهان وانتهاك..

ومنها ذم المتبوع بالدلالة على حقارته، كما في قوله تعالى: ﴿ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيبٍ ﴿١٥﴾ مِنْ وَرَأَيْهِ جَهَنَّمُ وَتُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ ﴾ [إبراهيم ١٥ : ١٧]، فالصديد بيان للماء قصد به الذم والدلالة على حقارته وامتهانه وقبحه.. وذلك حتى يرتدع ذلك الجبار ويقلع عن عناده.

٤ - البدل

ويقع الإبدال من المسند إليه أو المسند أو أحد المتعلقات لأغراض بلاغية يقصد إليها المتكلم ويقتضيها المقام، أهمها: زيادة التقرير والأيضاح كقولك: جاء زيد أخوك، فأخوك بدل من زيد وقد دل على تقريره وإبرازه، لأن مفهومه هو مفهوم زيد.. ومنه قوله تعالى: ﴿ أَهْدَيْنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ [الفاتحة ٦، ٧] فصراط الذين أنعمت عليهم، بدل من الصراط المستقيم وفيه بيان وإيضاح وزيادة تقرير لكون الصراط المستقيم هو صراط المنعم عليهم بالإيمان والرضوان..

ومنها التفصيل بعد الإجمال والأيضاح بعد الإبهام، كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴾ [الفرقان ٦٨، ٦٩] فقوله: "يلقى أثاماً" فيه إجمال للعقاب وقوله بعده: "يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً" بدل منه وفيه تفصيل وإيضاح لما أجل فيه، ولا يخفى عليك ما للبيان والتفصيل بعد الإجمال والإبهام من وقع في النفس، لأنه عند الإجمال تتطلع النفس وتستشرف إلى التفصيل، فعندما يأتي التفصيل يكون له وقع وأثره؛ حيث أتى والنفس إليه متطلعة وله مترتبة.

ومنه قول كثير عزة:

وَكُنْتُ كِذْبِي رَجُلَيْنِ: رَجُلٍ صَاحِبَةٍ وَرَجُلٍ رَمَى فِيهَا الزَّمَانَ فَشُلَّتْ

ففي قوله: "ذي رجلين" إبهام وإجمال أزاله ووضحه البدل في قوله: "رجل صحيحة ورجل رمى فيها الزمان فشلت..".

ومثله قول النابغة الجعدي:

بَلَّغْنَا السَّمَاءَ مَجْدُنَا وَسَنَاؤُنَا وَإِنَّا لَنَرُجُو فَوْقَ ذَلِكَ مَطْهَرًا

ففي قوله: "بلغنا" إجمال وقد جاء البدل: "مجدنا وسناؤنا" مفصلاً وموضحاً لهذا الإجمال.. ولا يخفى عليك أن البدل في البيت الأخير، بدل اشتغال وفي الشواهد السابقة بدل مطابق.

ومن بدل الاشتغال أيضاً قولك: سلب عمرو وثوبه.. وأجبنني المعلم علمه.. والغرض البلاغي من البدل في المثالين هو الإيضاح والتفصيل بعد الإبهام والإجمال، لأن قولك: سلب عمرو، وأعجبنني المعلم.. فيه إبهام وإجمال يظل معه المخاطب متعلقاً إلى إيضاحه ومستشرقاً إلى تفصيله وعندئذ يأتي البدل: "ثوبه وعلمه"، موضحاً ومبيناً فيقع المعنى في النفس موقعاً حسناً ويثبت فيها ويرسخ..

ومن بدل البعض قولك: جاءني القوم أكثرهم، وفيه كما ترى، زيادة إيضاح وتقرير، وبيان لما في المسند إليه "القوم" من إجمال..

ومن الأغراض البلاغية للبدل، القصد إلى المبالغة والتفنن في بناء العبارات، ويكثر هذا في بدل الغلط كما في قول البحري:

أَلْمَعُ بَزْرَقِ سَرَى أَمْ صَوُّهُ مُضْبَاحٌ أَمْ أَيْتَسَامَتْهَا بِالْمُنْظَرِ الضَّاحِي

حيث أراد المبالغة في وصف الابتسامة ومدى وقعها عليه فتفنن في العبارة كما

ترى..

وقوله أيضاً في وصف الإبل الأنضاء:

كَأَلْفِيٍّ أَلْمُعْطَفَاتِ بَلِّ الْأَسْ — هُمْ مَرِيَّةٌ بَلِّ الْأَوْتَارِ

فقد قصد إلى المبالغة في وصف الإبل المهازبل ففتنن في التشبيه مترقيًا عن طريق الإضراب من الدقيق إلى الأدق.

وبهذا يتضح لك أن نظرة البلاغي للتوابع تختلف عن نظرة النحوي، فالبلاغي ينظر إلى ما وراءها من دقائق وأغراض ومزايا جمالية، أما النحوي فينظر إلى أحكامها وكيفية استعمالها في الكلام، ولذا نجد النحوي مثلاً يسوي بين البدل المطابق وعطف البيان فيجعلهما شيئاً واحداً، وليس الأمر كذلك عند البلاغي، بل هما مختلفان ولكل منهما مقامات خاصة به ومقاصد يقصد إليها على نحو ما رأيت في الشواهد.

٥- عطف النسق

يستخدم البلاغي عطف النسق ليحقق أغراضاً بلاغية ومقاصد يقصد إليها، وهذه الأغراض تراها كامنة وراء حروف العطف وهي: الواو، وثم، والفاء، ولا، وبل، ولكن، وحتى، وأو، وما بين تلك الحروف من فروق دقيقة، فالواو لمطلق الجمع، والفاء للترتيب مع التعقيب، و"ثم" للترتيب مع التراخي، وبل للإضراب وصرف الحكم عن محكوم له إلى آخر، و"لا" للترتيب مع التراخي، وبل للإضراب وصرف الحكم عن محكوم له إلى آخر، و"لا" للعطف ونفي الحكم عما بعدها، و"لكن" و"بل" عكس لا، و"حتى" للتدرج إلى الأعلى أو إلى الأدنى، و"أو": للتخيير أو للإباحة أو للشك أو للتشكيك.. والبلاغي يستغل تلك المعاني - كما قلت - ليحقق أغراضاً يهدف إليها.

تقول، مثلاً: جاءني زيد وعمرو وخالد، فتفيد تفصيل المسند إليه مع الإيجاز، حيث أفادت الواو اشتراك زيد وعمرو وخالد في المجيء ففصلت المسند إليه وأغنت عن قولك: جاءني خالد وجاءني زيد، وجاءني عمرو، وهذا هو وجه الإيجاز في المثال.

وتأمل قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِبِينَ﴾ [القصص ٨] نجد أن فرعون وهامان قد ذكرا مفصلين معطوفاً أحدهما على الآخر

ثم عطف عليها بقية القوم "إجمالاً" و"جنودهما" وذلك لغرض بلاغي وهو أن فرعون وهامان كانا السبب في الخطيئة دون جنودهما.

وتقول: جاء زيد فعمرو فتفصيل المسند "المجيء" مع الإيجاز والإنباء بالتعقيب إذ المراد: جاء زيد، وجاء عمرو بعده مباشرة، وتقول: جاء زيد ثم عمرو فتومئ إلى ما بين المجهين من تراخ بالإضافة إلى إفادة التفصيل والإيجاز.. وكذا تقول: اشتدت العاصفة ثم هدأت مشيراً بالحرف "ثم" إلى امتدادها وأنها لم تسكن إلا بعد زمن طويل.. وقد تريد التدرج بالمعاني علو أو دنوا فتستعمل "حتى" في عطف تلك المعاني..

انظر إلى قول الشاعر:

فَهَرْنَاكُمْ حَتَّى الْكُفَاةِ فَآتَتْكُمْ تَهَابُونَنَا حَتَّى بَيْنَا الْأَصَاغِرَا^(١)

حيث ارتفع بقهرهم إلى أعلاه: "حتى الكفاة" ثم انخفض بهيبتهم إلا ما لا يخفيف: "حتى بيننا الأصاغر"، وهذا معنى جميل وعموج رائع، إذ بدأ بالأدنى مرتفعاً بالقهر ثم انحدر بالإخافة منتهياً إلى أدنى ما يمكن أن يخيف..

وقد يلجأ البلاغي إلى عطف النسق ليرد السامع عن الخطأ في الحكم إلا الصواب بأخصر طريق فيقول مثلاً: جاء زيد لا عمرو، لمن اعتقد أنها جاء معاً أو أن الذي جاء عمرو دون زيد.. وكذا تقول ما جاء زيد لكن عمرو وما جاء زيد بل عمرو لمن اعتقد مجيئها معاً أو مجيء زيد دون عمرو..

وقد يراد بالعطف التشكيك كما في قول توبة بن الحمير الخفاجي (ت ٨٥هـ)

وكان يهوى ليل الأخيالية:

وَقَدْ رَعَمَتْ لَيْلٌ بَأَنِّي فَاجِرٌ لِنَفْسِي تُقَاهَا أَوْ عَلَيْهَا فُجُورُهَا

فقد عطف "بأو" ليشكك السامع وعندئذ ينظر في أمره ويتأمل حتى يصل إلى الخبر اليقين ويعرف أفاجر الشاعر أم تقي.

(١) الكفاة: جمع كميّ بفتح الكاف وكسر الميم وتشديد الباء وهو الفارس المقدم الذي تكمى في سلاحه أي: تغطى به، انظر لسان العرب مادة: كمي.

وقد يراد به الإبهام استمالة للمخاطب وترغيباً له في الاهتداء وقبول الحق، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ ٢٤].

ومنه قول الشاعر:

نَحْنُ أَوْ أَنْتُمْ الْأَوْلَىٰ أَلْفُوا الْحَقَّ فَبَعْدًا لِلْمُبْطِلِينَ وَسُخْفًا

فقد استخدمت "أو" للإبهام حتى لا يواجه الضال بضلاله فيكون في هذا تنفير له من قبول الحق والهداية.

وبهذا يتضح لك أن البلاغي يجد في معاني حروف العطف وسائل لتحقيق مآربه وإبراز أهدافه البلاغية السامية، التي يهدف إليها ويقصد.

تعقيب المسند إليه بضمير الفصل

وقد يعقب المسند إليه بضمير الفصل فيفيد ذلك القصر، أي قصر المسند على المسند إليه كقولك: زيد هو المنطلق وخالد هو الذي يجود بهاله، ومنه قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ أَنَّهُ اللَّهُ هُوَ يُقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ [التوبة ١٠٤] فالمعنى لا يقبل التوبة عن عباده إلا الله.. أو قصر المسند إليه على المسند، كقولك: الكرم هو التقوى، والحسب هو المال، أي: لا كرم إلا بالتقوى، ولا حسب إلا بالمال..

وقد يكون ضمير الفصل لمجرد التوكيد، وذلك إذا كان القصر مفاداً بغيره بأن تكون الجملة معرفة الطرفين مثلاً، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينِ﴾ [الذاريات ٥٨]، وقوله عز وجل: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة ١١٧]، وقوله عز وجل: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْقَصْرِ وَطَرَقَهُ فِي الْجُزْءِ الثَّانِي مِنْ هَذَا الْكِتَابِ.



تقديم المسند إليه

اهتم البلاغيون في دراستهم لتقديم المسند إليه بدراسة تقديمه على الخبر الفعلي في النفي أو في الإثبات نحو: ما أنا فعلت هذا، وأنا ما فعلت هذا، وأنا فعلت.. كما اهتموا بدراسة تقديم النكرة، ومثل وغير، وألفاظ العموم نحو: كل وجميع، ولعل اهتمام البلاغيين بدراسة التقديم بصفة عامة وتقديم هذه الأدوات بصفة خاصة، يرجع إلى ما يكمن وراءها من دقائق وأسرار ينبغي على الدارس الوقوف عليها والإحاطة بها.. وإليك بيان ذلك:

تقديم المسند إليه في النفي

إذا قدم المسند إليه فولى أداة النفي مثل: ما أنا فعلت.. ما محمد صنع هذا، أفاد التقديم عندئذ "الاختصاص" لأن مثل هذا التعبير: "ما أنا فعلت.. ما أنت قلت.. ما هو يجود بهال.. ما محمد صنع".. يفيد - كما قال عبد القاهر - ثلاثة أمور:

١- نفى الفعل عن المسند إليه المقدم.

٢- إثبات نفس الفعل المنفي.

٣- وجود فاعل آخر غير المسند إليه المقدم قد فعل هذا الفعل.

فعندما تقول: ما أنا قلت هذا الشعر.. ما أنا بنيت هذا الدار.. فأنت تنفي عن نفسك قول هذا الشعر، وبناء تلك الدار، وتثبتها لفاعل آخر غيرك، ولذا كان من الخطأ أن تقول: ما أنا قلت هذا الشعر ولا قاله أحد.. ما أنا بنيت هذه الدار ولا غيري.. ما محمد صنع هذا الشيء ولا غيره.. لأن صدر الجملة أفاد بتقديمك المسند إليه، أن الفعل قد انتفى عنه وأثبت لغيره، وعجزها أفاد نفي الفعل المذكور عن الغير وهذا تناقض وتدافع، إذ كيف تثبت الفعل للغير وتنفيه عنه في آن واحد.. إن العطف في الأمثلة المذكورة قد جعل الفعل يقع بغير فاعل وهذا محال، فالصواب أن يقال: ما أنا قلت هذا الشعر بل قاله غيري.. ما أنا بنيت هذه الدار بل بناها أحد غيري.. ما محمد صنع هذا الشيء بل صنعه غيره.

فإن قلت: ألا يجوز أن تقول: ما قلت هذا ولا قاله أحد غيري..؟ ما بنيت

هذه الدار ولا بناها غيري..؟ ما صنع محمد هذا الشيء ولا صنعه أحد غيره..؟

فالجواب: يمنع من هذه الأقوال اسم الإشارة المذكور، لأنك تشير به إلى معين قد وجد وفعل، تشير إلى الشعر مقولاً "هذا الشعر" وإلى الدار مبنية: "هذه الدار" وإلى الشيء مصنوعاً: "هذا الشيء" ولا يتأتى أن يكون المشار إليه، الموجود أمامك، لم يفعله أحد لا أنت ولا غيرك، اللهم إلا إذا قيل: إن اسم الإشارة، لم يشر به إلى شيء محقق مرئي، بل أشير به إلى معنى في ذهن المخاطب.. إلى دعوى قد ادعاها.. وكأنه قد ادعى أن شعرا قيل وأن داراً بنيت وأن شيئاً قد صنع، فأنت تقول: "هذا" مشيراً إلى ما ادعاه وقاله، لا إلى شيء مشاهد أمامكما وكأنك تقول له: إن ما ادعيت لم يفعل لا مني ولا من غيري، فأنت في دعواك وأهم، وهذا الذي في ذهنك لا وجود له مطلقاً، إن أردت ذلك فما سألت عنه جائز ولك أن تقوله.

ومن الخطأ أيضاً أن تقول: ما أنا أكلت اليوم شيئاً. ما أنا قلت شعراً قط فتجعل المنفي هكذا عاماً، لأنه يقتضي المحال وهو أن يكون ههنا إنسان غيرك قد قال كل شعر في الدنيا وأكل كل شيء يؤكل، ولكن الصواب في مثل هذا أن تقول: ما أكلت اليوم شيئاً.. ما قلت شعراً قط، لأن قولك "ما فعلت"، لا يفيد سوى نفي الفعل عنك فقط، دون تعرض للغير لا بنفي عنه ولا بإثبات له.

ومن الخطأ كذلك قولك: ما أنا ضربت إلا زيداً، لأن معناه: ما أنا ضربت أحداً إلا زيداً، وهذا يقتضي أن يكون هناك أحد غيرك قد ضرب جميع الناس ما عدا زيداً وهذا محال.. فالصواب في مثل هذا أن يقال: ما ضربت إلا زيداً.

ومما جرى على هذه الطريقة في الدلالة على الاختصاص من التعبيرات الجيدة والأساليب الرفيعة، قول المتنبي:

وَمَا أَنَا أَنَسَقَمْتُ جِسْمِي بِهِ وَلَا أَنَا أَضْرَمْتُ فِي الْقَلْبِ نَارًا

فالمعنى: هذا السقم الحاصل في جسدي وتلك النيران المشتعلة في فؤادي، لم أفعلها أنا بل فعلهما غيري، ووراء هذا التركيب معنى لطيف هو عجز الشاعر أمام عواطفه المشبوبة التي أضتته وكأنه يقول: لو كان الأمر بيدي لأنقذت نفسي، ولكن لا طاقة لي بذلك..

ومثله قوله أيضاً:

وَمَا آتَا وَحَدِيدِي قُلْتُ ذَا الشُّعْرُ كُلَّهُ وَلَكِنْ لِشِعْرِي فِيكَ مِنْ نَفْسِيهِ شِعْرٌ

فهو يعني أن يكون هذا الشعر الكائن قد قاله هو وحده وإنما قاله معه غيره، وهذا الغير هو الشعر نفسه لأنه شعر شاعر..

وتلاحظ أن المسند في كل ما ذكر من شواهد وأمثلة فعل، فهل تلك الإفادة، إفادة تقديم المسند إليه بعد النفي للقصر، قاصرة على الخبر الفعلي؟ قال بهذا بعض البلاغيين، وقال آخرون: هي ليست قاصرة على الخبر الفعلي. بل تتعداه إلى غيره، وأن قولك: ما أنا ضارب زيداً. وما محمد بجاحد نعمة ربه، يفيد الاختصاص كما يفيد قولك: ما أنا ضربت. وما محمد جحد نعمة ربه.

والذي أراه أن السياق هو الذي يحدد الإفادة.. ففي قوله تعالى ﴿قَالُوا يَنْشُعِبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرُّكَ فِيْنَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود ٩٢]، نجد قوله تعالى: "وما أنت علينا بعزيز" أفاد الاختصاص بمعنى نفي العزة عن شعيب وإثباتها لرهطه، ولذا قال - عليه السلام - في جوابهم منكرًا ذلك منهم: "أرھطي أعز عليکم من الله".

ومثله قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَن لَنَا كَرَّةٌ فَنَتَبَرَّأ مِّنْهُمَا كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة ١٦٧]، فالخروج من النار منفي عن المسند إليه المقدم "هم" العائد إلى الكفار الذين تبرأ بعضهم من بعض، ومثبت لغيرهم وهم عصاة المؤمنين لأن المؤمن العاصي لا يخلد في النار..

أما قوله عز وجل: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [مُحَمَّدٍ غُورَتِ اللَّهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا تَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة ٨، ٩] وقوله عز وجل: ﴿مَا أَنَا بِمُصْرِحِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِحِي﴾ [إبراهيم ٢٢]، وقوله تعالى: ﴿فَدَكَّرَ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا تَجْنُونَ﴾ [الطور ٢٩]، فواضح أن تقديم المسند إليه "وما هم بمؤمنين" "ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي". "فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا تجنون"، لا يفيد الاختصاص، بل يفيد فقط تأكيد نفي المسند إليه المقدم..

ولهذا ينبغي علينا ألا نغفل دور السياق وأثره في تحديد الإفادة في مثل هذه الأساليب وأن ننظر إليها في سياقها، فما يحكم به السياق ويقضي فهو ذلك..
كما أنه ينبغي أن تبنى الأحكام البلاغية على الأكثر والغالب ولا تبنى على القطع والإطلاق، لأننا عندما نتأمل التراكيب الجيدة نرى أن ما قطع البلاغيون بإفادته للقصر وهو تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي بعد النفي نحو: ما أنا فعلت، نراه منخرماً وقابلاً للرد.

انظر إلى قوله تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُونَ عَنْ وُجُوهِهُمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ [٤٠، ٣٩]، تجد أن قوله "ولا هم ينصرون"، قد أفاد الاختصاص، إذ النصر في هذا اليوم منفي عن الكفرة مثبت لغيرهم وهم المؤمنون، فالله عز وجل ينصرهم في ذلك اليوم ويتجلى عليهم برحمته، وهذا يتفق مع ما قاله البلاغيون.. أما قوله تعالى: "ولا هم ينظرون" فالتقديم فيه يفيد التأكيد وتقوية الحكم، ولا يفيد الاختصاص، لأنه لا أحد ينظر حين تأتية الساعة، وهذا يتعارض مع ما قاله البلاغيون، ولذا نقول ينبغي أن تبنى الأحكام البلاغية على الأكثر والغالب، لا على القطع والإطلاق^(١).

وكذا القول في الآية الكريمة: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ﴾ [الصفات ٤٧] إذ المراد تأكيد نفي النزف من خمر الجنة عن المؤمنين، ولا يتأتى أن يقال إن النزف من خمر الجنة منفي عن المؤمنين مثبت لغير المؤمنين، أنى يكون ذلك؟
فإذا قدم المسند إليه على أداة النفي نحو: أنا ما فعلت، وأنت ما قلت، ومحمد لا يصنع هذا، والمؤمن لا يرضي الضيم، أفاد هذا التقديم، إما الاختصاص وإما التوكيد وتقوية لحكم.. والسياق هو الذي يحدد المراد.

انظر إلى قوله عز وجل: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس ٧]، وقوله تعالى: ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [القصص ٦٦]،

وقوله جل وعلا: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال ٢٢] تجد أن التقديم في هذه الآيات الكريمة قد أفاد من التأكيد وتقوية الحكم مالا يفيد تأخير المسند إليه، وتأمل قولك: "فلا يؤمنون" وما عليه النظم الكريم "فهم لا يؤمنون" فستدرك ما قد أفاده تقديم المسند إليه في النظم القرآني من تأكيد نفي الإيمان عن هؤلاء، وقد يفاد بهذا التقديم القصر كقولك: أنا لا أقبل الظلم.. المؤمن لا يسعى في الشر، إذا كنت تريد نفي الفعل عن المسند إليه المقدم وإثباته لغيره.

تقديم المسند إليه في الإثبات

وتقديم المسند إليه في الإثبات يفيد كذلك أحد الأمرين المذكورين، إما التأكيد وتقوية الحكم وإما الاختصاص، حسبما يحدد السياق وقرائن الأحوال، فقولك محمد يفعل الخير، صالح لإفادة التأكيد فهو أكد من قولك: يفعل محمد الخير وصالح لإفادة الاختصاص، إذا كنت تريد أن فعل الخير مقصور على محمد المقدم ومنفي عن غيره.. وتقول: أنا فعلت كذا.. أنا أطعم الفقير.. تريد أنك وحدك تفعل هذا أو أنك تفعله دون فلان، فيكون التقديم مفيداً للقصر الحقيقي أو القصر الإضافي.

واقراً قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنْفِقُونَ ۖ وَمِنَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا عَلَىٰ الْبَيْتِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۗ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۗ سَنُعَذِّبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ [التوبة ١٠١]. وقوله عز وجل: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۖ قَالَ يَا قَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۗ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ ۖ إِنَّ رَبِّي قَرِيمٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود ٦١]. وقوله جل وعلا: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشِرُهُ مِنْهُ جُلُودٌ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ [الزمر ٢٣]، وقوله عز من قائل: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا﴾ [الإنسان ٢٣].

واقراً في سورة النحل: ﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا... وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ... وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ... وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أزواجاً... وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً... وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا... وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا

وَجَعَلَ لِكُرْمٍ مِنَ الْجِبَالِ أَكْتِنًا ﴿ [النحل ٦٥ - ٨١]، تجد أن الفعل مختص بالمسند إليه المقدم وهو لفظ الجلالة أو الضمير العائد إليه، فالتقديم في الآيات الكريمة قد أفاد الاختصاص - كما لا يخفى - وعندما يفيد التقديم الاختصاص فهو يفيد التوكيد لا محالة، لأن الاختصاص يستلزم التوكيد..

ومن ذلك المثل المشهور: "أَتَعَلَّمْنِي بِضَبِّ أَنَا حَرَشْتُهُ" أي: صدته فالتقديم فيه أفاد الاختصاص، لأن المراد: أنه حرشه وحده دون غيره فهو عليم به وخبير، ولذا أنكر أن يعلمه به أحد.

وما أفاد التقديم فيه التأكيد وتقوية الحكم دون الاختصاص قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿ [النحل ٢٠] فقوله: "وهم يخلقون"، أفاد التقديم فيه تأكيد خلقهم فهم من مخلوقات الله تعالى والمخلوق لا يعبد ولا يستطيع أن يخلق شيئاً وفيه ما فيه من تسفيه أحلام الكفرة الذين دعوا هؤلاء من دون الله.. ولا يفيد التقديم في الآية الكريمة اختصاصاً، لأن الخلق ليس مقصوراً عليهم، فالله تعالى يخلقهم ويخلق غيرهم.

وقد علل البلاغيون سر إفادة تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي للتأكيد وتقوية الحكم، فقال عبد القاهر: "فإن قلت: فمن أين وجب أن يكون تقديم ذكر المحدث عنه بالفعل أكد لإثبات ذلك الفعل له، وأن يكون قوله: "هما يلبسان المجد" أبلغ في جعلهما يلبسانه من أن يقال: يلبسان المجد؟ .. فإن ذلك من أجل أنه لا يؤدي بالاسم معرى من العوامل إلا للحديث قد نوى إسناده إليه، وإذا كان كذلك فإذا قلت: عبد الله، فقد أشعرت قلبه بذلك أنك قد أردت الحديث عنه، فإذا جئت بالحديث فقلت مثلاً: قام أو قلت: خرج أو قلت: قدم، فقد علم ما جئت به، وقد وطأت له وقدمت الإعلام فيه فدخل على القلب دخول المأنوس به، وقبله قبول المتهمين له المطمئن إليه وذلك لا محالة أشد لثبوتة وأنفى للشبهة وأمنع للشك وأدخل في التحقيق.. وجملة الأمر أنه ليس إعلامك الشيء بغتة مثل إعلامك له بعد التنبيه عليه والتقدمة له، لأن ذلك يجري مجرى تكرير الإعلام في التأكيد والإحكام،

ومن ههنا قالوا: إن الشيء.. إذا أضمر ثم فسر كان ذلك أفخم له من أن يذكر من غير تقدم إضمار..^(١).

وعله السكاكي بتكرار الإسناد ففي مثل قولهم: "هم يضربون الكبش ببرق بيضه" قد أسند الضرب إليهم مرتين، مرة إلى واو الجماعة في "يضربون" والثانية في إسناد جملة: "يضربون" إلى الضمير "هم" الذي هو المسند إليه المقدم، فهذا التكرار للإسناد هو منشأ التوكيد وتقوية الحكم ودفع الشك عند السكاكي^(٢).

المقامات التي تقتضي التوكيد

وقد ذكر عبد القاهر المقامات التي تقتضي التأكيد وتقوية الحكم والتي ينبغي أن يقدم فيها المسند إليه على خبره الفعلي وهي:

١- ما سبق فيه إنكار من منكر كقولهم: هو يعلم وإن أنكر، وهو يعلم أن الكذب فيما قال وإن حلف عليه، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران ٧٥]، أي يعلمون كذبهم، فهم ينكرون الكذب، وينكرون أيضًا علمهم بكذبهم لأن الكاذب لا يعترف بكذبه، وإذا لم يعترف بكذبه كان أبعد من ذلك أن يعترف بالعلم بأنه كاذب.. ومعلوم أن الإنكار يقتضي توكيد الحكم، ومن أجل ذلك قدم المسند إليه.

٢- مقام التكذيب وإبطال دعوى مدع، كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ ؕ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴾ [المائدة ٦١]، فقولهم "آمنًا" دعوى منهم أنهم لم يخرجوا بالكفر كما دخلوا به، فالمقام مقام تكذيب يقتضي التأكيد إبطالاً لما ادعوه، ولذا قدم المسند إليه "وهم قد خرجوا به".

٣- فيما القياس في مثله ألا يكون، كما في قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ [النحل ٢٠]، وقوله جل وعلا: ﴿ وَأَتَّخِذُوا مِن دُونِيءَ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ [الفرقان ٣]، وذلك أن عبادتهم لتلك الآلهة تقتضي أن تكون خالقة لا مخلوقة، لأن من شأن المعبود أن يكون خالقًا، وهم

(١) دلالات الإعجاز ١٥٩.

(٢) انظر مفتاح العلوم ٩٣.

وإن كانوا لا ينكرون أنها مخلوقة، إلا أنهم نزلوا منزلة من ينكر ذلك، فأكد لهم الكلام، تنبيها إلى خطئهم وضلالهم.

٤- أن يكون الخبر غريباً لوقوعه على خلاف العادة، كقولك: البقرة تكلمت.. الجبان يصارع الأسود.. ونحو ذلك.. ومنه قوله تعالى: ﴿ وَحَيْثُ رَسُلٌ مِّنْ جُنُودِهِ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ [النمل ٢٠]، فهذا خبر غريب جرى على خلاف ما تقضي به العادة فوجب التقديم دفعا لغرابته.

٥- في مقام الوعد والضمان، كقولك للفقير: أنا أعطيك وأكفيك.. أنا أقوم بهذا الأمر، وذلك لأن من شأن من تعده وتضمن له أن يعترضه شك في تمام الوعد وفي الوفاء به فهو أحوج إلى التوكيد.

٦- يكثر في مقام المدح والفخر والرثاء، كقولك: هو يعطي الجزيل.. وأنت تقري الضيف.. ومنه قول طرفة:

نَحْنُ فِي الْمَشْتَاءِ نَدْعُو الْجَفَلَّ لَا تَرَى الْآدِبَ مَنَّا يَنْتَقِرُ^(١)
وقول الأحنس بن شهاب التغلبي:

هُمُ يَضْرِبُونَ الْكَبِشَ يَبْرُقُ بَيْضُهُ عَلَى وَجْهِهِ مِنَ الدَّمَاءِ سَبَائِبُ^(٢)

وقول الحماسي المعذل بن عبد الله الليثي:

هُمُ يُفْرِشُونَ اللَّبْدَ كُلَّ طِمْرَةٍ وَأَجْرَدَ سَبَّاحٍ يُّبْذُ الْمَغَالِيَا^(٣)

وقول عمرة الخثعمية في رثاء ابنها:

هُمَا يَلْبِسَانِ الْمَجْدَ أَحْسَنَ لَيْسَةٍ سَجِيحَانِ مَا اسْطَاعَا عَلَيْهِ كِلَاهُمَا

وإنما احتاج المدح والفخر إلى التوكيد، لأن من شأن المدح والمفتخر أن

(١) المشتاء: زمن الشتاء أو مكانه. والجفلى: الدعوة العامة لا يخص بها أحد. والآدب: الداعي إلى الطعام.. وينتقر: يدعو النقرى وهي الدعوة الخاصة.

(٢) الكبش: رئيس القوم، والبيض: مفردها بيضة وهي الخوذة. والسبائب: الطرائق.

(٣) اللبد: المتلبد من الصوف أو الشعر. والطمرة: الفرس الكريمة والذكر طمر. والأجرد: القصير الشعر. والسباح: الذي يشبه سيره السباحة في اللين واليسر، ويبذ: يغلب. المغاليا: الذي يسبق ويغلب في عدوه وجريه.

يلقيا الخبر مؤكدا كما امتلأت به أنفسها وأن يمنعا السامعين من الشك فيه والارتياب^(١).

واقرأ قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا أَسْطِيرُ الْأُولِينَ أَكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمَلَّى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الفرقان ٥]، تجد التقديم في قوله: "فهى تملى" قد أكد الخبر وأنبأ بما في أنفس الكفرة ورغبتهم في أن يلقى الخبر مؤكداً وأن تقرع به الأسماع قوياً فيثبت فيها ويقر، ولا يكون هنالك مجال للشك فيما يجبرون والارتياب فيما يصفون، بل تمتلى به أنفس السامعين ويرسخ بها كما امتلأت به أنفس الكفرة..

وخذ قوله تعالى: ﴿ إِنَّ وَلِيِّ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ ۗ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴾ [الأعراف ١٩٦]، وتأمل قوله: "وهو يتولى الصالحين"، وكيف أفاد تقديم المسند إليه قوة إيمان المصطفى ﷺ وكمال ثقته بربه، حيث جاء الخبر قوياً مؤكداً، قد امتلأت به نفسه - عليه الصلاة والسلام - فلا شك - ولا ارتياب في نصر الله تعالى وتوليه له.

وانظر إلى قوله عز وجل: ﴿ وَحُثَيْرٌ لِّسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ [النمل ١٧]، وقف على معنى كلمة "يوزعون"، إذ معناها: يجبس أولهم على آخرهم بإيقاف أولهم حتى يلحق به آخرهم، هذا غير غريب جرى على خلاف ما تقضي به العادة، إنس وجن وطير على هيئة من الإيزاع والتداخل قد ضج بهم المكان واضطرب، فغرابة هذا الخبر تقتضي تأكيده حتى تأنس به النفوس ويتقرر لديها، ولو قيل: "يوزعون" هكذا مرسلأ بلا تأكيد، لما كان التركيب ملائماً لحال النفس المتلقية^(٢).

ولذا رأينا عبد القاهر يقول في مثل هذه الآيات الكريمة: "ومما هو بهذه المنزلة في أنك تجد المعنى لا يستقيم إلا على ما جاء عليه من بناء الفعل على الاسم قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا أَسْطِيرُ الْأُولِينَ أَكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمَلَّى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ وَلِيِّ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ ۗ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ وَحُثَيْرٌ

(١) انظر دلائل الإعجاز ١٦٠، ١٦١.

(٢) انظر خصائص التراكيب ١٧٤، ١٧٥.

لُسَلِيمَنَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهَمْ يُوزَعُونَ ﴿١﴾، فإنه لا يخفى على من له ذوق أنه لو جيء في ذلك بالفعل غير مبني على الاسم فقيل: إن ولي الله الذي نزل الكتاب ويتولى الصالحين، واكتبتها فتملى عليه، وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فيوزعون: لوجد اللفظ قد نبأ عن المعنى، والمعنى قد زال عن صورته والحال التي ينبغي أن يكون عليها^(١).

ونبو اللفظ عن المعنى عندئذ مرجعه إلى خلو التركيب من التوكيد الذي اقتضاه المقام على نحو ما بينت لك.

تقديم النكرة

إذا كان المسند إليه نكرة وقدمت على الخبر الفعلي فإن تقديمها لا يختلف في الدلالة عن تقديم المعرفة سوى أن النكرة قد يراد بها الجنس وقد يراد بها العدد، فأنت تنظر في إفادة تقديم النكرة للاختصاص أو للتأكيد إلى أحد هذين الأمرين: الجنس أو العدد، فتعتبر التخصيص أو التأكيد لأحدهما، حسبما يقتضيه المقام ويحدده السياق وقرائن الأحوال فإذا قلت: ما رجل جاءني، فالمراد نفى المجيء عن الرجل وإثباته لغيره، وهذا الغير إما: امرأة وإما رجلا أو أكثر حسبما يقتضيه المقام. فإن كان المخاطب يعتقد أن الذي جاء رجل وقد أتتك امرأة، فالمراد عندئذ: ما رجل جاءني بل امرأة وإن كان يعتقد أن من جاءك رجل واحد وقد جاءك أكثر من رجل، كان المراد ما رجل جاءني بل رجلا أو ثلاثة أو أربعة حسب العدد الذي قد حل بك ونزل عندك..

وإذا قلت: رجل جاء، فالمراد إما التأكيد وتقوية الحكم وإما التخصيص حسبما يقتضي المقام، فإن كان مخاطبك ينكر المجيء ويحجده أو يشك فيه أو يستبعده.. فالمقام عندئذ يستدعي التأكيد ويتطلب التقوية، وعندما تقول له: رجل جاء وتقدم المسند إليه النكرة، فأنت تؤكد له الخبر ليقر في ذهنه ويثبت.

أما إن كان يعتقد أن الذي جاء امرأة، أو أكثر من رجل، فالمراد بالتقديم عندئذ تخصيص الجنس في الأول وتخصيص العدد في الثاني، أي: رجل جاء لا

امرأة.. ورجل جاء لا رجلا، ومنه المثل: "شر أهر ذاناب" ..

فإذا لم ترد لا تأكيداً ولا تخصيصاً قلت: جاء رجل بدون تقديم.. وكذا القول في نحو قولك "رجل ما جاءني"، على حسب ما مر بك في تقديم المعرفة.

تقديم مثل وغير

مثل وغير يلزم تقديمهما إذا أريد بهما الكناية عما أضيفتا إليه بدون تعريض، كما في قولنا: مثلك يرعى الود.. مثلك يعطي الجزيل.. غيرك لا يجود، وتُرِيدُ بذلك الكناية عن الممدوح دون أن نعرض بشخص آخر، فالمراد: أنت ترعى الود، وأنت تعطي الجزيل، وأنت تجود، استعملت "مثل وغير" مكني بهما عما أضيفتا إليه دون تعريض بغيره أو إيحاء إلى أن هذا الغير لا يفعل مثلما يفعل المتحدث عنه..

وتقدم "مثل وغير" إنما يكون لازماً عندئذ، لأن الكناية أبلغ من التصريح وأكد فهي كدعوى الشيء بدليل وبينه والدعوى المشفوعة بالبينة، والمصحوبة بالدليل أقوى وأكد من الدعوى المرسله، الخالية من الدليل، العارية من البينة.. فلما كان الغرض هو التأكيد والتقوية لزم أن تقدم "مثل وغير" لأن تقديمهما مما يحقق التأكيد، ويفيد التقوية.. ولزوم التقديم إنما هو لزوم بلاغي مرجعه إلى استعمال العرب وإلى كون التقديم أعون على تحقيق الغرض المقصود.. ولذا ذكر عبد القاهر أن هذا التقديم كاللزام حيث يقول: "ومما يرى تقديم الاسم فيه كاللزام" مثل وغير"، في نحو قوله:

مِثْلُكَ يَنْتَبِي الْحُزْنَ عَنْ صَوْبِهِ وَيَسْتَرِدُّ الدَّمْعَ عَنْ غَرْبِهِ^(١)

وقول الناس: مثلك رعى الحق والحرمة، وكقول الذي قال له الحجاج لأهلنك على الأدهم، يريد القيد، فقال على سبيل المغالطة. "مثل الأمير يحمل على الأدهم والأشهب"^(٢).

فقد كنى المتنبي في البيت المذكور عن الممدوح وهو عضد الدولة وقد كان

(١) ينتهي الحزن: يكفه ويمنعه، وصوبه: انسكابه، وغرب الدمع: انهماه من العين... والبيت للمتنبي.

(٢) دلالة الإعجاز: ١٦٤.

يعزبه في فقد عتمته، كنى عنه بقوله: "مثلك"، ولم يرد "بمثل" شخصاً آخر مماثلاً له، وقد صرح بهذا في نفس القصيدة إذ قال:

وَلَمْ أَقُلْ مِثْلَكَ أَعْنِي بِهِ سِوَاكَ يَا فَرْدًا بِلَا مُشْبِهِ

وكان تقديم لفظ المثل لازماً لزوماً بلاغياً أو كما قال عبد القاهر "كاللازم" ليفيد مع الكناية المبالغة في التوكيد وتقوية معنى المدح.. وكذا قول الناس "مثلك رعى الحق والحرمة، وقول الخارجي للحجاج: "مثل الأمير يحمل على الأدهم والأشهب" المراد بلفظ المثل فيهما: الكناية عما أضيفتا إليه، ولذا لما قال الحجاج للخارجي: "إنه الحديد" قال: لأن يكون حديدًا خير من أن يكون بليدًا، ومراد عبد القاهر بقوله: "على سبيل المغالطة" أسلوب الحكيم، وقد كان يسميه بالمغالطة وهي مغالطة أدبية لطيفة كما سنرى عند دراسة هذا الأسلوب في خروج الكلام عن مقتضى الظاهر .

ومما جاء فيه لفظ: "غير" مقدمًا على سبيل الكناية عما أضيفت إليه، قول أبي تمام:

وَعَرِي يَأْكُلُ الْمَعْرُوفَ سُخْتًا وَتَشْحَبُ عِنْدَهُ بِيضُ الْأَيْدِي^(١)

لم يرد أبو تمام شخصاً آخر مغايراً له هو الذي يصنع ذلك بل أراد الكناية عن نفسه، وأنه لا يفعل ما ذكر، وكان قد وشى به واش إلى وزير المعتصم فزعم أن أبا تمام قد هجاه، وكانت للوزير أياد بيض على أبي تمام فقال مدافعاً وراذلاً لتلك الوشاية: "كيف أهجوك وقد غمرني معروفك؟ لو فعلت لكنت آكلًا له حرامًا وأنا لا أكل المعروف حرامًا"، فقد أراد بقوله: "غيري يأكل" الكناية عن نفسه - كما قلت - ولم يرد تعريضاً بغيره..

ومثله قول المتنبي:

غَيْرِي بِأَكْثَرِ هَذَا النَّاسِ يَنْخَدِعُ إِنْ قَاتَلُوا جَبُّوا أَوْ حَدَّثُوا شَجُّوا

(١) السحت: الحرام، وشحب لونه تغير من هزال أو مرض، وبيض الأيدي: النعم، من إضافة الصفة إلى الموصوف.

أراد: أنه لا يندفع ولم يقصد التعريض بشخص آخر يغر ويخدع فقد كنى عن نفسه بقوله: "غيري"، كنى عن نفسه بضد هذا الحكم، وهو أنه لا يغر ولا يخدع. فإن أريد بمثل شخص آخر مماثل أو مشابه لما أضيفت إليه.. وأريد بغير شخص مغاير له، فعندئذ لا يلزم تقديمها، لأن الكلام فيها يكون على سبيل الحقيقة لا الكناية..

من ذلك قول الصابي:

تَشَابَهَ دُمْعِي إِذْ جَرَىٰ وَوَدَّاعِي فَمِنْ مِثْلِ مَا فِي الْكَأْسِ عَيْنِي تَسْكُبُ

وقول ابن شرف القيرواني:

غَيْرِي جَنَىٰ وَأَنَا الْمُعَاقِبُ فِيكُمْ فَكَأَنِّي سَبَّابَةُ الْمُتَنَدِّمِ

فلم يرد بمثل وغير في البيتين الكناية، بل أريد بهما الحقيقة، ولذا فإن تقديمها غير لازم في حكم البلاغة، إذ ليس هنالك ما يقتضي ويستلزم تقديمها.

تقديم ألفاظ العموم على النفي

ألفاظ العموم مثل "كل" و"جميع" إذا تقدمت على أدوات النفي في التعبيرات أفادت عموم السلب بمعنى شموله لكل أفراد المسند إليه..

من ذلك قول أبي النجم:

قَدْ أَصْبَحْتُ أُمَّ الْخِيَارِ تَدْعِي عَلِيَّ ذَنْبًا كُلَّهُ لَمْ أَضْغَعْ

فقوله: "كله لم أضغع" أفاد عموم السلب أي أنه لم يفعل شيئاً مما تدعيه أم الخيار..

وقول الحماسي إبراهيم بن كنيف النبهاني:

فَكَيْفَ وَكُلُّ لَيْسَ يَعْدُو جَمَاعَهُ وَلَا لِأَمْرِي عَائًا قَضَىٰ اللَّهُ مَزْحَلُ^(١)

فالمعنى على نفي أن يعدو أحد من الناس حمامه.

(١) الخمام: قضاء الموت وقدره والمراد: الأجل المحتوم. ومزحل بفتح الميم والحاء: زوال أو مفرد.

ومثله قول دعبل:

فَوَاللَّهِ مَا أَذْرِي بِأَيِّ سِهَامِهَا رَمْتَنِي وَكُلُّ عِنْدَنَا لَيْسَ بِالْمُكْدِي
أَبِالْجِيدِ أَمْ تَجْرَى الْوَشَاحِ وَإِنِّي لِأَتُهُمْ عَيْنَهَا مَعَ الْفَاحِمِ الْجَعْدِ^(١)

والمعنى: على نفي أن يكون في سهامها مكد على وجه من الوجوه..

ومن الواضح في إفادة عموم السلب قول النبي ﷺ عندما سأله ذو اليمين:
أَقْصَرَتِ الصَّلَاةُ أَمْ نَسِيتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قال: "كُلُّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ" أي: لم يكن واحد
منهما، لا قصر ولا نسيان، ولذا قال ذو اليمين وقد سمع إجابة المصطفى ﷺ: "قد
كان بعض ذلك يا رسول الله.. فأتهم ﷺ ما بقي من صلاته ثم سجد سجدتين وهو
جالس بعد التسليم^(٢)."

وتقول: جميع القوم لم يأتوا، وعامة الطلاب لم يحضروا، تريد بهذا أنه لم يأت
أحد من القوم ولم يحضر أحد من الطلاب.

وإنما كان تقديم لفظ العموم على النفي مفيداً لعموم السلب، لأنك إذا بدأت
به كنت قد بنيت النفي عليه، وسلطت الكلية على النفي وأعملتها فيه، وإعمال معنى
الكلية في النفي يقتضي ألا يشذ شيء عن النفي.

أما إذا تقدم النفي على ألفاظ العموم، فإنه يفيد سلبها، أي: سلب العموم
والشمول بمعنى ثبوت البعض ونفي البعض الآخر..

من ذلك قول المتنبي:

مَأْكُلٌ مَا يَتَمَنَّى الْمَرْءُ يُدْرِكُهُ تَأْتِي الرِّيحُ بِمَا لَا تَشْتَهِي السُّفُنُ^(٣)

يريد أن المرء قد يدرك بعض ما يتمناه ولكنه لا يدركه جميعه، فتقدم "ما" على
"كل" أفاد سلب العموم.

ومثله قول أبي العتاهية:

مَأْكُلٌ رَأَى الْفَتَى يَدْعُو إِلَى رَشِيدٍ إِذَا بَدَأَكَ رَأْيٌ مُشْكَرٌ قَفِيفٌ

(١) المكدي: الذي يحفر ولا يجد ماء، يريد أن سهامها لا تحطئ المرمى، والوشاح: ما يضرب للمرأة من
العاتق إلى الكشح. والفاحم: الشعر الأسود. وأتهم: بسكون التاء وكسر الهاء من أتهمه إذا نسب
إليه ما يتهم به.

(٢) رواه مسلم في كتاب المساجد برقم [٩٩/٥٧٣].

(٣) السفن: بضم السين والفاء جمع سفينة.

يريد أن بعض رأى الفتى قد يدعو إلى رشد وبعضه قد لا يدعو..

وقول البحرني:

وَأَعْلَمُ مَا كَلَّ الرَّجَالُ مُشِيْعٌ وَمَا كَلَّ أَشْيَافُ الرَّجَالِ حُسَامٌ^(١)

يريد: أن هناك رجالا فيهم أصالة الشجاعة والإقدام وهنالك من ليس كذلك، وأن بعض الأسياف تقطع وبعضها ليس كذلك.. ولو قيل: كل ما يتمنى المرء لا يدركه.. كل رأى الفتى لا يدعو إلى رشد.. كل الرجال ليس مشيعا وكل الأسياف ليس حساما.. لتغير المعنى وكان المراد عموم السلب، أي أن المرء لا يدرك شيئا مما يتمناه، ورأى الفتى لا يدعو إلى رشد أبدا، والشجاعة منفية عن كل رجل، واجودة منفية عن كل سيف.

وتقول: ما جاء كل القوم.. ما حضر الطلاب كلهم.. لم آخذ كل حقي.. تريد بهذا: أن بعض القوم قد جاء، وبعض الطلاب قد حضر، وبعض حقا قد أخذته، والبعض الآخر لم تأخذه.

وإنما كان تقديم النفي على ألفاظ العموم مفيدا سلب العموم أي: نفي البعض وإثبات البعض الآخر، لأن أداة النفي إذا تقدمت على كلمة "كل" وشبهها مما يفيد العموم توجه النفي إلى الشمول خاصة دون أصل الفعل، وأفاد الكلام ثبوته لبعض ونفيه عن بعض، ووجه ذلك، أن الكلية نوع من التقييد، والنفي إذا اتجه إلى كلام مقيد انصب على القيد خاصة.

هذا وقد استدرك سعد الدين علي عبد القاهر رافضا القطع بهذا الحكم الذي قطع به عبد القاهر في قوله: "إننا إذا تأملنا وجدنا إعمال الفعل في "كل" والفعل منفي لا يصلح أن يكون إلا حيث يراد أن بعضا كان وبعضا لم يكن"^(٢) استدرك عليه العلامة سعد الدين قائلا: "وفيه نظر لأننا نجده حيث لا يصلح أن يتعلق الفعل ببعض كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان ١٨].

وقوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ [البقرة ٢٧٦]، وقوله: ﴿وَلَا تُطِيعُ كُلَّ خَلَافٍ مَّهِينٍ﴾ [القلم ١٠]، فالحق أن هذا الحكم أكثر شي لا كلي"^(٣).

(١) المشيع: الشجاع الصعب المتهور الذي كأنه يشيع قلبه.

(٢) دلائل الإعجاز ١٨٢.

(٣) المطول ١٢٥.

فسعد الدين قد جعل القاعدة غالباً لا لازمة، لأن الآيات الكريمة التي ذكرها - ومثلها كثير في النظم الكريم - تقدم فيها النفي على "كل" وهذا يعني - لو سلمت القاعدة - أن الله جل وعلا، لا يكره كل مختال وكل كفار وإنما يكره البعض دون البعض، والنبي عليه الصلاة والسلام، ليس منهيًا عن طاعة كل حلاف، بل منهي عن طاعة البعض دون البعض الآخر، وهو ما لا يكون^(١)

ولا وجه لهذا الاستدراك لأن حديث عبد القاهر عن "كل" التي تقيد بها المعرفة فتؤكد العموم الذي تفيدته المعرفة، وذلك نحو قولهم: جاء كل القوم وحضر كل الطلاب، فلفظ "القوم" وكذا لفظ "الطلاب" معرفة، أفادت العموم مع احتمال التجوز.. جاءت "كل" فأكدت العموم ورفعت احتمال التجوز.. فإذا جاء النفي فقيل.. ما جاء كل القوم، ما حضر كل الطلاب، انتفى القيد، وصار المعنى على إثبات المجيء والحضور لبعض ونفيهما عن بعض آخر وهذا هو سلب العموم. أما كل في الآيات التي استدرك بها سعد الدين فهي كل التأسيسية التي دخلت على النكرة فأستت العموم، فعندما يدخل النفي عليها ينتفي الحكم الذي أسسته ويكون هذا من قبيل عموم السلب.

وخلاصته القول أن الجهة منفية فعبد القاهر حديثه عن "كل" التي تقيد بها المعرفة وسعد الدين يستدرك بـ"كل" التي تؤسس العموم بدخولها على النكرة فلا وجه لاستدراكه حيث انفكك الجهة..

وارجع إلى تفريق الخطيب القزويني بين كل التأسيسية وكل التقييدية حيث يقول: "كل" تارة تقع تأسيساً، وذلك إذا أفادت الشمول من أصله حتى لولا مكانها لما عقل، وتارة تقع تأكيداً، وذلك إذا لم تفده من أصله بل تمنع أن يكون اللفظ المقتضى له مستعملاً في غيره، أما الأول فهو أن تكون مضافة إلى نكرة كقوله تعالى: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون ٥٣] وقوله: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَضَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾ [الإسراء ١٢] وقوله ﴿وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ [الأنبياء ٩٦] وأما الثاني فما عدا ذلك كقوله تعالى: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [ص: ٧٣]^(٢).

(١) انظر خصائص التراكيب ١٨٥، ١٨٦.

(٢) الإيضاح ج١ ص ١١٢، ١١٣.

الفصل الثالث

أحوال المسند

حذفه

يحذف المسند عند وجود القرينة الدالة على حذفه ليفيد أغراضًا بلاغية متعددة.. هذه الأغراض لا يمكن الإحاطة بها - كما ذكرت لك عند الحديث عن حذف المسند إليه - وذلك لأنها دقائق ولطائف، تكون وراء العبارات والصيغ ولا يدركها إلا المتأمل الواعي والذواقة الخبير بالنظم وأحواله، ونحن عندما نتحدث عن أغراض الحذف إنما نذكر بعضًا من تلك الدقائق، وأنت عندما تتأمل النظم الجيد والأساليب الرفيعة لا تقف عند ذاك القدر الذي نذكره، بل عليك أن تطيل النظر والبحث والتنقيب حتى تصل إلى دقائق أخرى كثيرة قد لا تحيط بها في تلك الدراسة العاجلة.

وراء كل حذف - سواء أكان المحذوف مسندًا إليه أم مسندًا أم أحد متعلقات الفعل، ثلاث مزايا بلاغية وهي: الإيجاز - الاحتراز عن العبث بناء على الظاهر - إثارة حس المخاطب وإيقاظ مشاعره كي يقف على المطوي من العبارة ويحيط به.. وقد بينت لك هذه المزايا الثلاث عند حديثنا عن حذف المسند إليه فارجع إليها هناك.

وبالإضافة إلى تلك المزايا التي تكمن وراء كل حذف، نجد لحذف المسند أغراضًا بلاغية أخرى تتجلى من خلال النظر في السياق.. أهمها ما يلي:

١- ضيق المقام .. كما في قول ضابئ بن الحارث البرجمي، وكان عثمان رضي الله عنه قد حبسه في المدينة لهجائه بنى نهشل ورميه أمهم، فضاق ضابئ بسجنه وقال معبرًا عن آلامه، وواصفًا ومصورًا أحزانه.

وَمَنْ يَكُ أُمْسَى بِالْمَدِينَةِ رَحْلُهُ فَلَيْئًا وَقَيَّارًا بِهَا الْغَرِيبُ^(١)

أراد: من أمسى بالمدينة مستقرًا، له منزله الذي يأوي إليه، وأهله وأصحابه

(١) رحله: منزله ومأواه. وقيار: اسم فرسه أو بعيه.

الذين يأنس بهم ويسكن إليهم فقد طابت نفسه وحسن حاله ورضي بعيشته، أما أنا وقيار فإننا بها لغريبان، وأنى للغريب أن يسعد ويهنأ، فالشاعر حزين مكروب، قد ضاق صدره لغرته وحبسه، وتتجسد آلامه كلما تذكر الأهل والأصحاب والمنزل الخنيء، وكلما مر بخياله الانطلاق والحرية.

ولذا تراه قد طوى المسند إلى "قيار" في الشطر الثاني وتقديره: فإنني لغريب بها وقيار غريب بها أيضًا فطيه ينبئ بالحال الكئيبة التي يعيشها الشاعر، كما تراه قد طوى جواب الشرط وتقديره: ومن يك أمسى بالمدينة رحله فهو مسرور طيب النفس مستريح البال، طواه لنفس السبب، وكأن الكلمات لا تسعفه كي يذكر جواب الشرط وخبر قيار، ثم كيف يذكر الجواب وهو من جنس السعادة والهناء؟ إن لسانه ليتوقف عاجزًا عن النطق به، لأن في الإفصاح عنه زيادة لآلامه وأحزانه.

وتأمل كيف قدم "قيارًا" فقال: "فإني وقيار" ولم يقل: "فإني لغريب بها وقيار"، وذلك للإشارة إلى أن قيارًا ولو لم يكن من جنس العقلاء، قد بلغه هذا الكرب واشتدت عليه تلك الغربة حتى صار مساويًا للعقلاء في التشكي منها ومقاساة شدائدتها، فتقديم قيار وإقحامه بين جزئي الجملة، ينبئ بالتسوية بينهما في التحسر ومقاساة الألم، وينبئ بالتالي بشدة ما يلاقيه الشاعر، فلم تعد الآلام مقصورة عليه بل تجاوزته إلى جواده فصار الجواد يشعر بما يشعر به "صابئ" صاحبه من ألم وضيق..

ومن ذلك قول عمرو بن امرئ القيس الخزرجي يخاطب مالك بن العجلان حين رد قضاءه في واقعة للأوس والخزرج:

يَا مَالُ وَالسَّيِّدُ الْمُعَمَّمُ قَدْ يُنْطِرُهُ بَعْضُ الرَّأْيِ وَالسَّرْفُ
نَحْنُ بِمَا عِنْدَنَا وَأَنْتَ بِمَا عِنْدَكَ رَاضٍ وَالرَّأْيُ مُخْتَلِفٌ^(١)

يريد: نحن بما عندنا من الرأي راضون، لأن رأينا هو الصواب والحق، وأنت

(١) مال: منادى مرخم والأصل: يا مالك، وترخيم المنادى مما يبرز حال المتكلم وينبئ بآلام الشاعر وأحزانه. والمعمم: الذي عممه القوم وارتضوا حكمه ورأيه. ويظطره: يقطعها، والمعنى يخونه التوفيق فيحكم بغير الصواب ويقضي بغير الحق..

بها عندك من رأيٍ راضٍ وقد قضيت به وحكمت على الرغم من منافاته للصواب ومجانبته للحق، فالرأي مختلف والحق بجانب الشاعر والصواب في رأيه، وعلى الرغم من ذلك لم يأخذ به مالك ولم يقضِ لعمرو وهذا هو ما يؤلم الشاعر ويجزئه.

ومما يضاعف آلامه ويزيد أحزانه، أن القاضي ذو رأيٍ وصاحب عقل راجح، إنه السيد المعمم، قد عممه الجميع وارتضوا رأيه، ولكن لكل جواد كبوة، ولكل عالم هفوة، فالسيد المعمم ذو العقل الراجح قد يبطره بعض الرأي ويخونه التوفيق، فيقضي بغير الصواب، وهذا ما قد حدث، وهو الذي يؤلم عمرا ويجزئه، ولذا تراه قد طوى المسند من الشطر الأول في البيت الثاني، فلم يقل: نحن بما عندنا راضون، بل حذف الرضا من جانبهم لدلالة رضا المخاطب برأيه، في الشطر الثاني عليه..

هذا الحذف يبنى بالآلام الشاعر وضيقه، وكأنه يأبى أن يصرح بنسبة الرضا إليهم في اللفظ، فهم مقتنعون بصواب رأيهم، وغير راضين بما حكم به مالك ذو الرأي والعقل، فحذف المسند يبرز لك حالتهم تلك.

وانظر إلى قول المتنبي:

قَالَتْ وَقَدَرَأْتُ اضْفِرَارِي: مَنْ بِهِ؟ وَتَنَهَّدَتْ فَأَجَبْتُهَا: أَلْمُتَنَهَّدُ^(١)

يريد: لما رأيت حالي وما وصلت إليه بسبب حبه تساءلت متنهدة: من فعل بك هذا؟ ومن وراء حالتك هذه؟ فأجبتها: المتنهد أي: فعل بي ما ترين أنت، فأنت التي أهواها وأعشقها، فالشاعر قد حذف المسند وطواه، فلم يقل صنع ما ترين المتنهد، بل قال: المتنهد، والمتنهد هي السائلة، وكان ألم العشق قد وصله إلى حالة لم يستطع معها أن يكمل الجواب، وكان الشاعر أيضًا، أراد بهذا الحذف أن يبادر بذكر المتنهد، وأن يفصح لها عن حبه، فهي التي وصلتته إلى تلك الحال، وقد وجدها فرصة عندما سألته: من به؟ كي يسارع بالإفصاح عن حبه، فحذف المسند يحقق تلك المسارعة، ولو ذكره فقال: فعل هذا بي المتنهد، لكان هنالك تباطؤ في الإعلان عن حبه.

(١) اضفراي: يريد ما يصيب المحب من ضنى وشحوب وصفرة ناجمة عن العشق والغرام.

ولا يخفى عليك ما وراء الالتفات في البيت من دلال المحب وتمنعه، فهي مخاطبه ولم تقل له: من بك؟ بل التفتت فقالت: من به؟ دلالاً وتمنّعاً، ويصح أن يقدر المسند المحذوف اسماً فيكون المعنى: من الطالب به فأجبتها المتنهد هو الطالب به وعندئذ يكون الضمير في "به" عائداً إلى الاصفرار فلا التفات.

٢- قد يفيد حذف المسند تعظيماً للمسند إليه على نحو ما ترى في قوله عز

وجل:

﴿ وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ [التوبة ٧٤]، وقوله تعالى: ﴿ تَخْلَفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ ﴾ [التوبة ٦٢]، فالأصل: إلا أن أغناهم الله من فضله وأغناهم رسوله.. والله أحق أن يرضوه ورسوله كذلك، فحذف المسند في الموضعين لدلالة المذكور عليه، وحذفه يفيد تعظيم رسول الله ﷺ - "المسند إليه"، إذ جعل إرضاء من إرضاء الله وإغناؤه من إغناؤه تعالى، وهذا تعظيم ما بعده تعظيم.

وتأمل تقديم المسند إليه "رسوله"، وإيلاءه لفظ الجلالة، ففيه تنبيه ولفت إلى تعظيم رسول الله ﷺ - ودلالة على أنه من الله بمكان.. ومن البلاغيين من يرى أنه لا حذف في الآيتين مجوزاً أن تكون جملة واحدة، وتوحيد الضمير في: "من فضله.... ويرضوه" ينبئ بأنه لا تفاوت بين إغناء الله وإغناء رسوله، ولا بين إرضاء الله وإرضاء رسوله فهما في حكم مُغْنٍ واحد ومُرْضَى واحد، كما تقول: إحسان عمرو وكرمه وغمرني، فتفرد الضمير جامعاً للإحسان والكرم بمعنى واحد، ولا يخفى عليك ما في هذا أيضاً من "تعظيم" لرسول الله ﷺ ورفعة شأنه^(١).

وتأمل قوله عز وجل: ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَابِئُ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلُوبَهُمْ ۗ أَمْ تُدْعُونَهُ أَيْمًا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَبْظُهُرُ مِنَ الْقَوْلِ ﴾ [الرعد ٣٣]، نجد أنه قد حذف المسند وتقديره: أفمن هو قائم.. كمن ليس كذلك، والقائم على كل نفس هو الله عز وجل فهو متولي أمر كل نفس وحافظ شأنها، ومن ليس كذلك هو المعبود بالباطل من دون الله عز وجل، والحذف هنا يشعر بتعظيم وتنزيه الله عز وجل.

(١) انظر الإيضاح ١/ ١٧٣.

وجل، وتحقير وازدراء تلك المعبودات وبنى بأنه لا وجه للمقارنة بين الخالق القادر القائم على كل نفس بما كسبت وبين تلك المعبودات.. فينبغي عدم الجمع بينهما ولو في اللفظ.

وكذا القول في الآيات الكريمة: ﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِنْسَانِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ۗ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبِهِم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ [الزمر ٢٢]، والتقدير: كمن أقسى قلبه وجعل صدره ضيقًا حرجًا.. ﴿ أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ [الزمر ٢٤]، أي: كمن ينعم في الجنة.. ﴿ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ﴾ [فاطر ٨]، أي: كمن لم يزين له أو كمن هداه الله؟ فالحذف في الآيات يشعر بأنه لا وجه للمقارنة بين الاثنين، فهذا قد شرح الله صدره للإسلام وذاك قد أقسى قلبه وجعل صدره ضيقًا حرجًا، وهذا يتقي بوجهه سوء العذاب وذاك ينعم في الجنة.. هذا قد زين له عمله السيئ فرآه حسنًا وذاك قد هداه الله للخير والعمل الصالح..

فحذف المسند كما ترى بنى بالتباعد بين الفريقين ويوحى بالمسافات المتناهية بينهما ويجعل الذهن يتشبع ويمتلئ بصورة المسند إليه فتقر في القلب وترسخ في العقل.. ولا يخفى عليك أن الحذف في الآيتين الأخيرتين قد أفاد تعظيم المسند المحذوف ورفعة شأنه وتحقير المسند إليه المذكور وانحطاطه، وذلك عكس ما أبصرت في الآيتين السابقتين، إذ أفاد الحذف فيهما تعظيم المسند إليه المذكور وعلو منزلته، وتحقير المسند المحذوف وانحطاطه وازدراء النفوس له.

٣- وقد يحذف المسند اتباعًا للاستعمال الوارد عن العرب، كقولك خرجت فإذا زيد.. لولا زيد هلك الناس.. لعمرك لأفعلن.. كل رجل وضيعته، والتقدير: فإذا زيد حاضر.. لولا زيد موجود.. لعمرك يميني.. كل رجل وضيعته مقترنان.. فقد ذكر النحاة أن الأساليب العربية جرت على إسقاط المسند في هذه المواضع وهي: إذا الفجائية ولولا والقسم الصريح وواو المصاحبة وكذا مع الحال الممتنع كونها خبرًا نحو: ضربي زيدًا قائمًا أي: ضربي زيدًا حاصل إذا كان قائمًا.

وذكر سيبويه أن الحروف الخمسة التي تعمل فيما بعدها عمل الأفعال وهي: إن ولكن وليت ولعل وكأن، يحسن السكوت عليها مع إضمار خبرها..

من ذلك قول النبي ﷺ للمهاجرين وقد شكروا عنده الأنصار: "أليس قد عرفتم أن ذلك لهم؟" قالوا بلى، قال عليه الصلاة والسلام: "فإن ذلك" يريد: فإن ذلك مكافأة لهم..

وقول عمر بن عبد العزيز لرجل من قريش جاء يكلمه في حاجة له فجعل يمت بقرابته فقال له عمر: "فإن ذلك" أي: فإن ذلك لك، ثم ذكر الرجل حاجته فقال عمر: "لعل ذلك" أي: لعل ذلك يبسر لك ويقضي..

وتقول لمن قال لك: هل ينصرك أحد إن الناس إلب عليك؟ أي: قد اجتمعوا ضدك: إن زيذا وإن عمرا وإن ولداً وإن إبلاً وإن غنماً وإن مالا..

وعليه قول الأعشى:

إِنَّ مَحَلًّا وَإِنَّ مُمْرًا وَإِنَّ مَرْحَلًا وَإِنَّ فِي السَّفَرِ إِذْ مَضَوْا مَهَلًا

يريد: إن لنا محلاً في الدنيا وإن لنا مرتحلاً عنها إلى الآخرة، ومحلاً ومرتحلاً مصدران ميميّان بمعنى الخلول والارتحال، والسفر: اسم جمع بمعنى المسافرين، والمراد بهم في البيت: الموتى، والمهل: مصدر بمعنى الإمهال وطول الغيبة، والمعنى: إن في غيبة الموتى طويلاً وبعداً، لأنهم مضوا مضياً لا رجوع معه إلى الدنيا.

وقول العجاج:

يَا لَيْتَ أَيَّامَ الصَّبَا رَوَّاجِعًا

يريد: ليت أيام الصبا لنا رواجعاً أو أقبلت رواجعاً.. وتقول لمن قال لك: هل أحد يشبه عمر في عدله؟: كأن فلاناً.. ولمن قال لك الخسارة فادحة والخطب جليل والناس جميعاً ضدك: "لكن مالا ولكن ولداً" تريد: كأن فلاناً يشبهه، لكن لي مالا ولي ولداً والحذف في هذا الموضع أفاد الإيجاز ونقاء الجمل وترويقها أو كما قال البلاغيون: "الاحتراز عن العبث" فالذي حذف قد وجدت القرينة الدالة عليه والمقام مقام إيجاز ولح، وذكر ما قد دل الدليل عليه في مثل هذا المقام يعد عبثاً..

تأمل قول الرسول عليه الصلاة والسلام: "فإن ذلك" وقول عمر "لعل ذلك". فستدرك قوة لمح المتكلم وحسن اقتداره على تصفية العبارة وترويقها من زوائد لا يستدعيها المقام..

وتأمل قولك: ضربي زيدًا قائمًا، ووازن بينه وبين قولك: ضربي زيدًا حاصل إذا كان قائمًا، فستجد أن المحذوف أكثر من المذكور وعلى الرغم من ذلك فقد ازداد المثال جمالاً بسبب الحذف وبدا موجزاً أنيقاً..

وأراك تشعر بها وراء قول القائل: إن مالا، وإن إبلا، ولكن ولدًا، من اعتداد واعتزاز وقوة لا تكون لو قدر المحذوف فقيل: إن لنا مالا، ولكن لنا ولدًا، لأن استرخاء العبارة عندئذ يوحي بفتور الشعور وضعف المعنى..

وتأمل بيت الأعشى:

إِنَّ مَحْـ____لًا وَإِنَّ مُـ____رْتَحَلًا وَإِنَّ فِي السَّفْرِ إِذْ مَـ____صَوَامَهُـ____لًا

تجد أن الشاعر يصف السرعة الخاطفة في الحلول والارتحال وكأن هذه السرعة التي يحسها بزوال الدنيا قد انعكست على عبارته فَطَوِيَّ فيها كثير من الكلمات، لأن سياق المعنى في البيت طي وإضمار واختصار، حلول يخطفه الارتحال، وارتحال دائم وسَفْرٌ لا أوبة لهم^(١).

٤- وقد يفيد حذف المسند التأكيد والاختصاص كما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ ﴾ [الإسراء ١٠٠]، فالتقدير: لو تملكون تملكون، فأضمر "تملك" الأول إضمارًا على شريطة التفسير، ولما أضمر الفعل انفصل الضمير "أنتم" فأنتم فاعل الفعل المضمر و"تملكون" تفسيره، ودليل الحذف "لو"، لأن "لو" لا تدخل إلا على الأفعال..

قال الزمخشري: "هذا هو الوجه الذي يقتضيه علم الإعراب، فأما ما يقتضيه علم البيان فهو أن "أنتم تملكون" فيه دلالة على الاختصاص، وأن الناس هم المختصون بالشح المتبالغ..

ونحوه قول حاتم:

.. لَوْ ذَاتُ سِوَارٍ لَطَمْتَنِي^(٢) ..

(١) انظر خصائص التراكيب ص: ٢٢.

(٢) هو لحاتم الطائي وقد قاله عندما لطمته أمة قد جاءته ببعير لها ليفصده فنحره ويعني بذات السوار

وقول المتلمس:

وَلَوْ غَيْرُ إِخْوَانِي أَرَادُوا تَقْيِصِي جَعَلْتُ هُمْ فَرَقَ الْعَرَانِينَ مِيسَمًا^(١)

وذلك لأن الفعل الأول لما أسقط لأجل المفسر برز الكلام في صورة المبتدأ والخبر..^(٢)

ولذا أفاد حذف المسند في الشواهد المذكورة الاختصاص والتوكيد وقد اعترض على الزمخشري بأن الاختصاص إنما يكون في الجملة الاسمية التي يقدم فيها المسند إليه على الخبر الفعلي مثل: محمد يفعل كذا، وقوله عز وجل: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح: ١٧] والشواهد المذكورة ليست كذلك، لأنها جمل فعلية.. ويدفع هذا الاعتراض بأمرين:

أولهما: أنه لما أسقط الفعل برز الكلام في صورة الجملة الاسمية "المبتدأ والخبر" كما ذكر الزمخشري.

ثانيهما: أن الاختصاص قد علق بـ"لو" وهي حرف امتناع لامتناع كما تعلم.

٥- ومن أحسن مواقع حذف المسند ما ترى الجملة فيه قد بنيت على كلمة واحدة كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَرَغُوا فَلَا قُوَّةَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ [سبأ ٥١]، أي: فلا فوت لهم، فحذف المسند وبقيت كلمة واحدة: "فلا فوت" وهذه الكلمة تراها كالطود الشامخ والحاجز المنيع الذي قضى على كل أمل لهم في الفوت والتفنت، ولا يخفى عليك ما في حذف جواب الشرط، وبناء الفعل "أخذوا" للمجهول من إفادة التهويل والتفطيع..

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفِي وَأُلْصِقَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾

السوار الحرة من النساء وقيل: لطمه من هو أقل منه فقال ذلك، ويقصد: لو لطمني من هو كفاء لي فكنتي بذات السوار عن الكفاء، ويروى: لو غير ذات سوار، يريد أنه لا يقتص من النساء فلو لطمه رجل لاقتص منه.. والسوار بكسر السين وبضمها.

(١) العرائن: مفردها عرنين وهو الأنتب كله أو ما صلب منه.. والميسم اسم للآلة التي يوسم بها، واسم لأثر الوسم أي العلامة أو السمة التي يصنعها الوسم وهذا هو المراد في البيت.

﴿ قَالُوا لَا صَبْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء ٤٩، ٥٠]، أجاب السحرة وعيد فرعون وتهديده لهم بكلمة واحدة: "لا صبر" أي: لا صبر علينا فيما تصنعه بنا إنا إلى ربنا منقلبون.. وهذا ينبنى بقوة الإيثار وصدق اليقين، إذ أجابوا توعدده بكلمة واحدة كالسهم النافذ الذي بدد كل وعيد وشتت كل تهديد.

٦- وقد يأتي الكلام على الحذف ثم تراه يحتمل أن يكون المحذوف هو المسند أو المسند إليه، على نحو ما ترى في قوله تعالى: ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف ١٨]، ففي هذه الآية الكريمة يحتمل أن يكون المحذوف المسند إليه، وتقديره: فصبري صبر جميل أو فشأني وأمري صبر جميل، ويحتمل أن يكون المحذوف المسند وتقديره: فصبر جميل أولى بي أو فصبر جميل أجمل.. والصبر الجميل هو الذي لا شكوى معه وغير الجميل ما كان معه شكاية، ولكنه خير من عدمه فيصح تفضيل الصبر الجميل عليه..

والأرجح أن يكون المحذوف هو المسند إليه إذ الآية الكريمة مسوقة لمدح يعقوب - عليه السلام - وحين يكون المحذوف هو المسند إليه يكون الكلام دالاً على حصول الصبر له، إذ التقدير: فأمرى أو فصبري صبر جميل، أما على جعل المحذوف هو المسند فليس في الكلام ما يدل دلالة مباشرة على حصول الصبر ليعتوب عليه السلام، إذ التقدير: فصبر جميل أولى بي أو فصبر جميل أجمل^(١).

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا ﴾ [النور ١]، فيحتمل أن يكون التقدير: هذه سورة أنزلناها، فيكون المحذوف هو المسند إليه ويحتمل أن يكون: فيما أوحينا إليك سورة أنزلناها، فيكون المحذوف هو المسند.. وكذا قوله جل وعلا: ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةً مَعْرُوفَةً ﴾ [النور ٥٣]، هذه الآية نزلت في شأن المنافقين الذين ذهبوا إلى رسول الله - ﷺ - وأقسموا بالله جهد أيمانهم، لئن أمرهم أن يخرجوا من أموالهم لخرجوا، فنزلت هذه الآية الكريمة "قل لا تقسموا طاعة معروفة"، وهي تحتمل حذف المسند إليه فيكون المعنى: أمركم أو الذي يطلب منكم طاعة معروفة معلومة لا يشك فيها ولا يرتاب،

(١) انظر المطول ١٤٢.

كطاعة الخالص من المؤمنين الذين طابق باطن أمرهم ظاهره، لا أبيان تقسمون بها بأفواهكم، وقلوبكم على خلافها، أو طاعتكم طاعة معروفة، أي: بأنها بالقول دون الفعل..

وتحتمل حذف المسند فيكون المعنى: طاعة معروفة أمثل وأولى بكم من هذه الأبيان الكاذبة.. وما من ريب في أن الكلام إذا احتمل حذف المسند أو المسند إليه، يكون أوفر معنى وأغزر دلالة، لأنه يحتمل وجهين، ووفرة التأويلات من فضائل الكلام الجيد^(١).

هذا وتقدير المحذوف أو القول بالحذف يحتاج من الدارس إلى تأمل دقيق ونظر واع حتى لا يتناقض مع صحة المعنى واستقامته.. انظر إلى قول الله عز وجل: ﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً ۖ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ ۖ سُبْحٰنَهُ ۗ﴾ [النساء ١٧١]، فالمراد النهي عن التثليث، أي: لا تقولوا بالتثليث، انتهوا عنه يكن خيرًا لكم. فالله واحد لا شريك له.. الآية الكريمة فيها حذف ويحتمل أن يكون المحذوف المسند والتقدير: لنا آلهة ثلاثة أو في الوجود آلهة ثلاثة، فحذف المسند "لنا" أو "في الوجود"، ثم حذف الموصوف "آلهة" فصارت الآية: "لا تقولوا ثلاثة"، أو التقدير: لا تقولوا: لنا أو في الوجود ثلاثة آلهة، فحذف الخبر ثم التمييز المضاف إليه فصارت الآية: "لا تقولوا ثلاثة"..

ويحتمل أن يكون المحذوف المسند إليه وتقديره: ولا تقولوا الله والمسيح وأمه ثلاثة، أي لا تعبدوهما كما تعبدون الله، ولا تسووا بينهم في الرتبة والصفة، كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ۗ﴾ [المائدة ٧٣]، وذلك أنهم إذا أرادوا التسوية بين اثنين قالوا: هما اثنان، وإذا أرادوا لإحاق واحد باثنين قالوا: هم ثلاثة..

ولا يصح أن يكون التقدير: ولا تقولوا آلهتنا ثلاثة، لأن في هذه التقدير تقريرًا لثبوت آلهة، إذ النفي إذا سلط على الجملة لا يتوجه إلى أحد طرفيها، وإنما يتوجه إلى الحكم المستفاد من الطرفين، فإن قلت: ليس أمراؤنا ثلاثة فإنك تثبت بهذا القول أن

(١) انظر خصائص التراكمات ٢٢٢.

لكم أمراء وتنفي أن يكون عددهم ثلاثة، فجائز أن يكون عددهم أقل من ثلاثة، أو أكثر، ولذا فإن التقدير: لا تقولوا آهتنا ثلاثة، فيه إثبات أن عدد الآلهة اثنان أو أكثر من ثلاثة، وهذا إشراف وقوله جل وعلا بعده: ﴿ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَحْدٌ سُبْحَانَهُ ﴾ [النساء: ١٧١]، يناقضه ويبطله.

وتأمل قوله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عَزِيزُ ابْنِ اللَّهِ ﴾ [التوبة ٣٠]، في قراءة من حذف تنوين "عزیز"، فلا يجوز أن يقدر مسند محذوف، وأن تعرب "عزیز" مبتدأ و"ابن" صفته، ويكون التقدير: عزیز بن الله معبودنا، هذا خطأ وإشراك، لأن فيه إثبات وتقرير الصفة للموصوف، أي: صفة "ابن الله" ثابتة لعزیز، فنحن عندما نقول: "ليس زيد بن علي ناجحاً" فقد نفينا نجاحه ولم ننف كونه ابنا لعلي، ولا يخفى عليك ما في هذا من فساد.

فالصواب أنه لا حذف في الآية، وأن "عزیز" مبتدأ وخبره: "ابن الله" وأن التنوين تنوين "عزیز" مراد، وقد حذف لالتقاء الساكنين.. أو أنه ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة كآزر.. أو أن القول في الآية ليس المراد به الحكاية بل المراد به الذكر، والمعنى أن اليهود قد بلغوا الغاية في الجهل والشرك فهم عند ذكرهم عزيراً يفرطون في تعظيمه فيذكرونه ابناً لله^(١).

٧- وقد يحذف كل من المسند والمسند إليه، كما في قولهم: "أهلك والليل، يريدون: الحق أهلك وبادر الليل حتى لا يحول بينك وبينهم، فالمقام يقتضي السرعة الخاطفة، ولذا حسن حذف المسند والمسند إليه..

ومن لطيف ذلك قوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا ﴾ [النحل ٣٠]، أي: أنزل ربنا خيراً. فحذف الفعل والفاعل، وحذفها ينبيء بسرعة استجابة هؤلاء المتقين وقوة إيمانهم وامتثالهم لأمر ربهم.. وفرق بين إجابة المتقين فيه هذه الآية وإجابة الكفرة في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [النحل ٢٤]، أي: ذلك أساطير الأولين، فحذف المبتدأ المسند إليه.

يقول الزمخشري: "فإن قلت: لم نصب هذا ورفع الأول؟، قلت: فصلاً بين جواب المقر وجواب الجاحد، يعني أن هؤلاء لما سئلوا لم يتلعثموا، وأطبّقوا الجواب على السؤال بينا مكشوفاً مفعولاً للإنزال فقالوا: خيرًا أي: أنزل خيرًا، وأولئك عدلوا بالجواب عن السؤال فقالوا: هو أساطير الأولين وليس من الإنزال في شيء"^(١).

ومثله قوله عز وجل: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ ۖ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبأ ٢٣]، أي قال ربنا الحق، فحذف المسند والمسند إليه إسراراً إلى الإفصاح عن الجواب، إذ المقام مقام إيجاز يتطلب أن تكون الإجابة إشارة أو لمحا، كيف لا وقد فزع عن قلوبهم، إن الكلمة الواحدة بل الإشارة في مثل هذا المقام تغني عن الكلمات الكثيرة..

وتأمل قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ۖ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ۗ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ۗ﴾ [الشمس: ١١ - ١٣]، أي: ذروا ناقة الله، واحذروا سقياها، تجد أن الحذف هنا ينبئ بلهفة صالح عليه السلام وشدة حرصه على هداية قومه ونجاتهم ولذا صاح بهم محذراً: "ناقة الله وسقياها".

وانظر إلى قول الرسول عليه الصلاة والسلام لجابر: "هَلْ تَزَوَّجْتَ؟" فأجاب: "نَعَمْ" قال ﷺ: "أَبِكْرَ أُمَّ نَبِيٍّ؟" قال: "نَبِيًّا" فقال ﷺ: "فَهَلَّا جَارِيَةً تُلَاعِبُهَا وَتُلَاعِبُكَ"^(٢).. أراد عليه الصلاة والسلام: فهلا تزوجت جارية.. فحذف الفعل والفاعل لدلالة الكلام عليهما وفي هذا الحذف تنقية للعبارة وتصفيه لها مما أقيم عليه الدليل حتى لا يكون ذكره عبثاً وفضولاً..

وقد يحذف المسند والمسند إليه ويقام المصدر مقامها، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ [محمد ٤]، أي فاضربوا رقابهم ضرباً، فحذف الفعل وفاعله، وهذا حذف يلائم السياق، إذ الضرب المأمور به هو الضرب السريع الخاطف فور اللقاء.. وتأمل هذه الفئات: "فإذا لقيتم.. فاضرب.. فشدوا الوثاق فإمّاناً..". وما يقتضيه من التعقيب والسرعة الخاطفة..

(١) انظر الكشاف ٢ / ٤٠٧.

(٢) رواه مسلم في كتاب الرضاع برقم [٧١٥ / ٥٥].

ومن حذف المسند والمسند إليه، حذف القول، وفاعله وهو كثير في كتاب الله جل وعلا.. من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نُسِرُّ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْتَنَّهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ۗ وَعَرَضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۗ ﴾ [الكهف ٤٧، ٤٨]، أي: فيقال لهم لقد جئتمونا.. ولعلك تشعر بما وراء هذا الحذف من تأنيب وتعنيف شديد ويساعد في إبراز هذا التعنيف الالتفات من الغيبة إلى الخطاب: "وعرضوا. جئتمونا" ..

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۗ ﴾ [الأحقاف ٣٤]، أي: فيقال لهم: أليس هذا بالحق، ولا يخفى عليك ما وراء الحذف هنا من سرعة إبراز السخرية والتهكم بهؤلاء الكفرة الذين لم يجدوا بداً من الإذعان والإقرار بعد فوات الأوان: "بلى وربنا".

قرينة حذف المسند

ولابد لكل حذف - كما ذكرت لك - من وجود القرينة التي تدل على المحذوف وترشد إليه، وإلا كان الحذف عبثاً ومن القرائن الدالة على حذف المسند وقوع الكلام جواباً عن سؤال محقق كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۗ ﴾ [لقمان ٢٥]، أي: خلقهن الله.. وقوله جل وعلا: ﴿ وَإِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۗ ﴾ [العنكبوت ٦٣].

أو عن سؤال مقدر كما في قول الحارث بن ضرار النهشلي يرثي أخاه يزيداً:
لِيُنِّكَ يَزِيدُ ضَارِعٌ لِحُضُومَةٍ وَخُتْبِطٌ بِمَاطِطِجِ الطَّوَانِحِ^(١)
"لِيُنِّكَ" بالبناء للمجهول و"يزيد" نائب فاعل، فلما حذف الفاعل وأقيم المفعول به مقامه، انبعث من الجملة سؤال تقديره: من يبكيه؟ فجاء الجواب: ضارع لخصومة، وقد حذف منه الفعل لدلالة السؤال المقدر عليه، والمعنى: يبكيه ضارع..

(١) الضارع: الدليل. والمخبط: الذي يأتي إليك للمعروف من غير وسيلة، وتطبخ بمعنى تذهب وتهلك، والطوانح جمع مطيحة على غير قياس، وقياسه: مطاوح أو مطيحات، يصف يزيداً بأنه كان ملجأً للدليل وعوناً للمحتاح الذي أطاحت به المطيحات.

وفضل هذا التركيب أي البناء للمجهول: "لِيُبَيِّنَ يَزِيدُ ضَارِعٌ" على البناء للمعلوم: "لِيُبَيِّنَ يَزِيدُ ضَارِعٌ"، من عدة أوجه وهي:

١- تكرار الإسناد، حيث أسند البكاء إلى الفاعل مرتين، إجمالاً وذلك عند البناء للمجهول ثم تفصيلاً وذلك عند ذكر الفاعل: "ضارع" فاعلاً للبكاء المقدر، وتكرار الإسناد أبلغ في مقام الرثاء وأكد.

٢- فيه بيان وإيضاح بعد الإبهام والإجمال.. والإيضاح بعد الإجمال أو البيان بعد الإبهام يكون أوقع في النفس وأقوى أثراً..

٣- وقوع "يزيد" فيه نائب فاعل فيكون ركناً أسند إليه الفعل المبني للمجهول، وكونه ركناً أولى من جعله فضلة في التركيب الآخر، إذ مدار الحديث إنما هو عنه..

وعلى الرغم من هذا فإن التركيب الآخر لا يخلو من مزية، وهي تقديم المفعول "يزيد"، فقد جعل النفس تشتاق إلى معرفة الفاعل "ضارع" وتتطلع إليه، فعند مجيئه يقع في النفس موقعاً حسناً..

ومن وقوع الكلام جواباً عن سؤال مقدر قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [النور ٣٦]، وقوله عز وجل: ﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الشورى ٣]، وذلك في قراءة من قرأ ببناء الفعل للمجهول في الآيتين ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾ [الأنعام ١٠٠]، وذلك على جعل "الله شركاء" مفعولين للفعل "جعل"، و"الجن" مفعولاً به لفعل محذوف دل عليه سؤال مقدر والمعنى: من جعلوه الله شركاء؟ فيجواب: الجن.. وفي الآية وجهان آخران وهما:

١- جعل "الجن" بدلاً من "شركاء" بدل بعض من كل، والمعنى: وجعلوا الجن من الشركاء لله تعالى.

٢- إعراب لفظ الجلالة "جَارًا وَمَجْرورًا متعلقًا بشركاء مقدماً عليه، و"شركاء الجن" مفعولين قدم فيهما "شركاء" على "الجن" استعظاماً لأن يتخذ الله شريكاً، جنّاً

كان أم ملكًا أم غيرهما، ومن أجل هذا المعنى قدم لفظ الجلالة: "الله" على الشركاء^(١).

ومن ذلك أيضًا باب نعم وبئس: على جعل المخصوص بالمدح أو الذم مبتدأ خبره محذوف نحو: نعم الرجل عمرو، وبئس الرجل زيد، كأنه قيل: من المدح ومن المذموم؟ فأجيب زيد المذموم وعمرو المدح، فكل من زيد وعمرو ومبتدأ محذوف الخبر، والقرينة وقوع المخصوص في جواب سؤال مقدر.

ذكر المسند

المسند والمسند إليه هما ركنتا الجملة، وذكرهما هو الأصل فلا يحذفان إلا إذا وجد في الكلام ما يقتضي العدول عن هذا الأصل - كما مر بك - وقد يوجد في الكلام ما يدل على المسند لو حذف، وعلى الرغم من هذا يذكر ويصرح به لأغراض بلاغية يقتضيها المقام، وأهم هذه الأغراض:

١ - التعريض بغباوة السامع كما في قوله تعالى: ﴿ قَالُوا ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴿٦٢﴾ [الأنبياء ٦٢، ٦٣]، فلو قال إبراهيم - عليه السلام - في جوابهم: بل كبيرهم هذا، لكان المسند مفهوماً لدلالة السؤال عليه، ولكنه - عليه السلام - عدل عن الحذف إلى الذكر، تنبيهاً إلى غباوتهم وضعف عقولهم، لأن في الحذف تعويلاً على ذكاء المخاطب وتنويهاً بفهمه وإدراكه.

وانظر إلى اسم الإشارة في قوله: "كبيرهم هذا"، وكأنهم لا يفهمون إلا بالإشارة إلى الفاعل وتعيينه وتحديد وجهه وجعله مرتباً أمامهم.. ومن ذلك قولك لمن سألك: من نبيكم؟: محمد - عليه الصلاة والسلام - نبينا، فنذكر المسند، ولو حذفته لدل عليه سؤال السائل دلالة واضحة، ولكنك ذكرته تعريضاً بغباوة السامع وإشارة إلى ضعف فهمه، إذ لو كان له فهم لما سأل عن نبينا، فهو أظهر من أن يتوهم خفاؤه، وكأنه لا يفهم بالقرائن الواضحة، ولا بد من التصريح له بأجزاء الجملة كاملة..

(١) انظر الإيضاح ١/ ١٧٩.

٢- ضعف التعويل على القرينة، وذلك بأن يكون في الكلام قرينة تدل على المسند لو حذف، ولكن ليس لها من القوة والإيضاح ما يلهم السامع المعنى ويضعه أمام عينيه من أول الأمر.. كما إذا سألك سائل: من أشجع العرب وأجودهم في الجاهلية؟ فتجيب: عنتره أشجع الجاهليين وحاتم أجودهم، ذاكرًا أشجع وأجود حتى لا يلتبس على السائل لو قلت: عنتره وحاتم، من غير أن تعين صفة كل واحد منهما.

٣- قد يذكر المسند ليتعين بالذكر كونه اسمًا فيفيد الثبوت والدوام، أو كونه فعلاً فيفيد التجدد والحدوث، كقولك: زيد منطلق وعمرو ينطلق، إذ لو حذفت المسند الثاني فقلت: زيد منطلق وعمرو، لفهم انطلاق عمرو لدلالة انطلاق زيد عليه، ولكنك آثرت ذكره بصيغة الفعل لتفيد أنه يخالف انطلاق زيد، فانطلاق زيد مستمر وانطلاق عمرو يتجدد شيئًا فشيئًا. وكذا تقول: زيد ينطلق وعمرو منطلق، فتذكر الانطالقين ليتعين كون الأول فعلاً مفيدًا للتجدد والحدوث، وكون الثاني اسمًا مفيدًا للثبوت والدوام، ولو حذفت أحدهما لدلالة الآخر عليه لما تحققت هذه الإفادة.

٤- التعجب من شأن المسند إليه وذلك عندما يكون المسند من الأمور العجيبة الغريبة كأن يسألك سائل: من يصارع الأسود فتجيبه: زيد يصارع الأسود.

٥- ومن أهم أغراض ذكر المسند زيادة التقرير والإيضاح، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ [الزخرف ٩]، فلو حذف المسند وقيل: "العزیز العليم"، لدل عليه السؤال المصرح به، ولكنه ذكر زيادة للتقرير والإيضاح، وللتسجيل على هؤلاء الكفرة، وإبراز سفاهتهم وضعف عقولهم، حيث عبدوا ما لا يصنع شيئًا ولا يخلق ذبابًا، فالخالق هو الله القادر على كل شيء. "خلقهن العزیز العليم" ..

ومثله قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا مِّنْأَلَّا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُعْجِبُ الْعِظَمَ وَهِيَ رَبِّمُ ﴿١٠﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [يس ٧٨، ٧٩]، فقد

ذكر المسند "بجيها" في الجواب، وكان يمكن الاستغناء عنه لدلالة السؤال عليه، وذلك لزيادة التقرير والإيضاح وفيه أيضًا تنبيه وإشارة إلى غباوة السائل وضعف عقله، إذ لا يسأل هذا السؤال إلا منكر معاند، قد ختم على قلبه وجعل على بصره غشاوة تمنعه من الإدراك وتحجب عنه نور الحق..

وتأمل كيف أوتر التعبير بالاسم الموصول: "الذي أنشأها أول مرة"، لأن في جملة الصلة برهان قاطع ودليل بين، فإن من قدر على إنشاء هذه العظام أول مرة هو قادر على إحيائها وإعادةها..

وتأمل قول الشاعر:

لَوْلَا التَّقَى لَجَعَلْتُ قَبْرَكَ كَعَمِيَّتِي وَجَعَلْتُ قَوْلَكَ سُتِّي وَكِتَابِي

تجد أنه لو أسقط "جعلت" الثانية، لفهمت من الأولى ولكنه أراد إبراز الجعل وزيادة تقرير هذا المعنى الذي أراده وإيضاحه، فأعاد ذكر المسند كما ترى..

وانظر إلى قول الخنساء في رثاء أخيها صخر:

أَعْبَيْتِي جُودًا وَلَا تَجْمُدَا أَلَا تَبْكِيَانِ لِصَخْرِ النَّدَى
أَلَا تَبْكِيَانِ الْجَوَادِ الْجَمِيلَا أَلَا تَبْكِيَانِ الْفَتَى السَّيِّدَا

تجد أن إعادة ذكر البكاء، وتكراره، قد أبرز المعنى وقرره وأوضح آلام الخنساء وصور مدى لهفتها وحزنها على صخر الندى.

إفراد المسند

قد يرد المسند مفردًا نحو: محمد عالم وزيد كريم، وقد يرد جملة بها ضمير يعود إلى المبتدأ، وهذا الضمير ليس مسندًا إليه، نحو: محمد أبوه عالم، على أجداده ملوك، وهذا المسند يسميه البلاغيون: مسندًا سببيًا، أي أن المسند إليه بسبب من المسند ومرتبطة به بروابط قوية.. وقد يرد المسند جملة بها ضمير يعود على المسند إليه المتقدم، وهذا الضمير يكون مسندًا إليه أيضًا نحو: محمد يعطي الجزيل، خالد يحمل السلاح، والمقام هو الذي يحدد نوع المسند الذي ينبغي على المتكلم أن يستعمله، فإذا

أراد المتكلم مجرد الإخبار عن المسند إليه، أورد المسند مفردًا، فيقول: محمد عالم..
على جواد.

وإن أراد وصله بأبائه وأنه ورث المآثر والأبجاء عنهم، أوردته سببًا، فيقول:
محمد أبوه كريم.. خالد أبأوه أبطال.
وإن أراد تقوية الحكم أوردته جملة غير سببية، فيقول: محمد يعطي الجزيل،
وخالد يجود بهاله.. هم يضربون الكبش.

إيراد المسند فعلاً أو اسمًا

لا يخفى عليك الفرق بين الاسم والفعل، فالفعل يدل على حدث وقع في
زمن نحو: قام ويقوم، والاسم يدل على حدث مجرد من الزمن نحو: قائم وذاهب..
رايح وساجد، كما أن الفعل المضارع يفيد الحدوث والتجدد، والاسم يفيد الثبوت
والدوام، نحو: زيد يتطلق وزيد منطلق، فالأول أفاد انطلاقًا يتجدد، والثاني أفاد
انطلاقًا ثابتًا.

ولذا فإن المتكلم عندما يورد المسند فعلاً فهو يقصد إما تقييده بأحد الأزمنة
نحو: فاز المجد.. ويجاهد الجندي فالأول أفاد حدوث الفوز في الزمن الماضي،
والثاني أفاد حدوث الجهاد في زمن الحال واستمرار حدوثه في الزمن المستقبل.. وإما
إفادة الحدوث والتجدد، وذلك إنما يكون في الفعل المضارع فهو يفيد التجدد
الاستمراري لمعونة السياق وقرائن الأحوال، وغالبًا ما يكون ذلك في مقامات المدح
والفخر..

انظر إلى قول طريف بن تميم:

أَوْكَلَّتْهَا وَرَدَّتْ عُكَاظَ قَيْلَةٍ بَعُثُوا إِلَيَّ عَرِيفَهُمْ يَتَوَسَّمُ^(١)

يقول: إنه شجاع مقدم، له موقف مع كل قبيلة، فالقبايل جميعها تطلبه، وكلما
وردت سوق عكاظ قبيلة بعثوا عريفهم يتفرس الوجوه ويتوسمها لعله يهتدي إليه
فيثأر منه، وتلاحظ أن الشاعر قد استخدم الفعل المضارع "يتوسم" لإفادة التجدد

(١) العريف: القيم الذي يقوم بأمر القوم.

والحدوث فالعريف دائم المراجعة والتأمل وإعادة النظر في وجوه القوم، يحدث منه التوسم شيئاً فشيئاً، ولو قال: بعثوا إلى عريفهم متوسماً لما تحققت هذه الإفادة ولما كان هنالك إشعار بحالة التجدد هذه..

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَدْرُكُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [فاطر ٣]، فالرزق من الله متجدد ومستمر، يتجدد بتجدد العباد، لا يتقطع ولا يزول، وهذا يلائمه التعبير بالفعل "يرزقكم" ولو قيل: "هل من خالق غير الله رازقكم.." لما أفيدت هذه الإفادة.

ومنه قوله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾ [الرعد ٣٩]، وقوله عز وجل: ﴿إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعِشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ [ص ١٨]، فالمحو والإثبات يتجددان ومستمران، وتسييح الجبال يحدث أنا بعد آن ويقع حيناً بعد حين وهذا يناسبه التعبير بالفعل الذي آثره النظم الكريم: "يمحو.. يثبت.. يسبحن" ..

وعندما يورد المتكلم المسند اسماً فإنه يقصد به إفادة الثبوت والدوام، وذلك يكون بمعونة السياق وقرائن الأحوال، إذ الاسم يدل على الحدث مجرداً من الزمان، والمتكلم قد يسوقه في سياق ترشد قرائته إلى إفادة الثبوت والدوام والاستمرار.

انظر وتأمل قول النضر بن جؤية:

قَالَتْ طَرِيفَةُ مَا تَبَقِيَ دَرَاهِمُنَا وَمَا بِنَا سَرَفٌ فِيهَا وَلَا خَرْقُ
إِنَّا إِذَا اجْتَمَعَتْ يَوْمَ مَا دَرَاهِمُنَا ظَلَلْتُ إِلَى طُرُقِ الْخَيْرَاتِ تَسْتَبِقُ
لَأَتْلُفُ الدَّرْهَمَ الْمَضْرُوبَ صَرْتُنَا لَكِنْ يُمَرُّ عَلَيْهَا وَهُوَ مُنْطَلِقٌ^(١)

تجد أن الشاعر يمدح قومه بالكرم والعطاء، فهم لا يبقون من المال بقية، وصرتهم لا تألف الدرهم، وإنما يمر عليها الدرهم منطلقاً ومنقطعاً إلى الخيرات.. مثل هذا المقام يلائمه التعبير بالاسم "منطلق"، لأنه يفيد انطلاق الدرهم انطلاقاً ثابتاً ومستمراً، ولو قال يمر عليها وهو ينطلق لكان المعنى أن انطلاقه يتجدد، وهذا يعني أنهم يمسكونه زمنًا ما، ولا يخفى عليك عدم مناسبة ذلك لمقام المدح..

(١) الدرهم المضروب: المسبوك.

والبيت يروي برفع الدرهم ونصب الصرة، وينصب الدرهم ورفع الصرة،
والرواية الثانية أبلغ، لأنها تدل على غناهم وأن الدراهم تمر والصرة لا تألفها، أما
الرواية الأولى ففيها إيهام أنهم فقراء وأن الصرة خالية لا يألفها الدرهم المضروب..
وخذ قوله تعالى: ﴿وَكَلَّهْمُ بَسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ [الكهف ١٨]، فلا يخفى
عليك ما يفيد الاسم: "باسط" من ثبوت البسط ودوامه واستمراره وأنه لو قيل:
يسبط ذراعيه لما أدى هذا الغرض..

وتأمل قوله عز وجل: ﴿أُولَئِكَ يَرَوْنَ إِلَى السَّمَاءِ فَتُفَنِّتُهمْ وَيَقْبِضْنَ﴾ [الملك
١٩]، نجد أنه لما كان الأصل في الطيران هو صف الأجنحة، فقد عبر عنه بالاسم
الذي يفيد الثبوت والدوام، ولما كان القبض طارئاً على البسط فقد عبر عنه بالفعل
الذي يفيد الحدوث والتجدد..

يقول الزمخشري: "فإن قلت: لم قيل: ويقبضن ولم يقل: وقابضات؟، قلت:
لأن الأصل في الطيران هو صف الأجنحة، لأن الطيران في الهواء كالسباحة في الماء،
والأصل في السباحة مد الأطراف وبسطها، وأما القبض فطارئ على البسط
للاستظهار به على التحرك، فجاء بها هو طارئ غير أصل بلفظ الفعل، على معنى
أنهن صافات ويكون منهن القبض تارة بعد تارة، كما يكون من السابح"^(١).

والجملة كالمفرد في هذا الحكم، فإذا كان الاسم يفيد الثبوت والدوام في نحو
قولك: زيد منطلق، فكذلك الجملة الاسمية، وإذا كان الفعل يفيد التجدد
والحدوث في نحو قولك: ينطلق زيد فكذلك الجملة الفعلية، ولكون الجملة
الاسمية تفيد الثبوت والدوام كانت آكد من الجملة الفعلية، ومن أجل هذا فإنه
يحسن إثارة التعبير بالجملة الاسمية في المقامات التي تتطلب التأكيد.

تأمل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامِنُوا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَٰئِطِينِهِمْ قَالُوا
إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة ١٤]، نجد أن المنافقين لكونهم قد أظهروا
الإيمان خوفاً ومداراة للمؤمنين، وليس عن يقين راسخ وثابت، فقد عبروا عنه

بالجملة الفعلية. "آمنا"، ولما كان الكفر ثابتاً وراسخاً في عقولهم فقد خاطبوا شياطينهم بالجملة الاسمية المؤكدة: "إننا معكم إنما نحن مستهزءون" ..

وكذا القول في قوله تعالى: ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْكَ أَدَعَوْتُوهُمْ أَمْ أَدَعَوْتُمْهُمْ ﴾ [الأعراف ١٩٣]، إذ كان الوثنيون الذين عبدوا الأصنام من عاداتهم أنهم لا يدعون تلك الأصنام إذا نزلت بهم شدة بل يدعون الله.. ولذا ناسب التعبير عن صمتهم بالجملة الاسمية المفيدة للثبوت والدوام وتأكيد الحكم، ولما كان الدعاء غير معتاد، فقد عبر عنه بالجملة الفعلية التي لا تفيد ثبوتاً، والمراد: سواء عليكم أحدثتم الدعاء على غير عادة، أم بقيتم مستمرين على عادة صمتكم..

وقوله تعالى: ﴿ وَقَدْ جَاءَتْ رُسُلْنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَى قَالُوا سَلَمًا قَالَ سَلَمٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيئٍ ﴾ [هود ٦٩] فالأصل: نسلم سلاماً فقال سلام عليكم، تلاحظ أن تحية إبراهيم عليه السلام بالجملة الاسمية، وتحيتهم بالجملة بالفعلية، وكأنه - عليه السلام - أراد أن يحییهم بأحسن مما حيوه به آخذاً بأداب التحية في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا حُيِّمْتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ﴾ [النساء ٨٦] ..

وخذ قوله عز وجل: ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴾ [الأنبياء ٥٥]، أرادوا: أحدث منك مجيء بالحق ولم تكن كذلك، أم أنت مستمر في لعبك الذي عهدناه فيك؟ عبروا عن مجيئه بالحق بالفعل الذي يفيد التجدد وعن اللعب بالجملة الاسمية التي تفيد تأكيد لعبه واستمرار أحوال هوه - في اعتقادهم - ولا يخفى عليك ما وراء ذلك من عنادهم وإعراضهم عن الإذعان للحق وقبول الهداية..

وقوله تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة ٨]، فقولهم: "آمنا" إخبار بوقوع الإيذان وإحداثه، ولكنهم كاذبين في دعواهم، فقد نفاها الله عز وجل بالجملة الاسمية المؤكدة "وما هم بمؤمنين" ..

وقوله عز وجل: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُخْرَجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِمُخْرَجِينَ ﴾ [البقرة ٢٤]، أرادوا حدوث خروج فأجيبوا بدوام البقاء واستمرار العذاب ..

وقوله تعالى: ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ﴾

وَتَعَلَّمَ الْكُذِبَ ۖ ﴿ [التوبة ٤٣]، عبر عن الصادقين بالفعل لأنهم يحدثون صدقاً بعد صدق في كل موطن، وعبر عن الكاذبين بالاسم، لأن ما صدر عنهم كذب مستمر وجارٍ على عادتهم الدائمة المستمرة وناشئ عن رسوخ في الكذب وثبات..



تنكير المسند وتعريفه

ومن أحوال المسند أنه يرد أحياناً نكرة وأحياناً معرفاً، وتنكيره أو تعريفه إنما يكون لإفادة أغراض يقصد إليها البلاغي، فمن أغراض تنكيره: عدم إرادة القصر أو العهد، كقولك: محمد كاتب، وعمرو شاعر، إذا أردت مجرد الإخبار عنهما بالكتابة والشعر، أما إذا أردت التخصيص قلت: محمد الكاتب، وعمرو الشاعر، وكذلك إذا أردت كاتباً أو شاعراً معهوداً قلت: فلان الكاتب أو الشاعر، فتعرف المسند في الحالتين، كما سيأتي..

ومن أغراض تنكيره إرادة التفضيم والتعظيم كما في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة ٢]، أي: هو هدى، فتنكير المسند "هدى" أفاد تعظيم هداية القرآن وتفضيمها وأنها بلغت درجة لا يمكن إدراك كنهها..

ومثله قوله تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام ١٥٥]، وقوله عز وجل: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ءَأَنْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشَفَاءٌ ۗ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَأَذَانِهِمْ وَقُرْءٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت ٤٤]، ولا يخفى عليك ما في تنكير المسند في الآيتين من إفادة التفضيم والتعظيم "كتاب.. قرآن.. هدى وشفاء.. وقر.. عمى"، التنكير كما ترى أفاد تفضيم القرآن وتعظيم هدايته والتنويه بشأنه.

ومنها إفادة التحقير والتهوين كما ترى في قول قيس بن جروة يخاطب عمرو

غَدَرْتُ بِأَمْرٍ كُنْتَ أَنْتَ دَعَوْتَنَا إِلَيْهِ وَيَسَسُ الشَّيْمَةَ الْغَدْرُ بِالْعَهْدِ
وَقَدْ يَتْرُكُ الْغَدْرُ الْفَتَى وَطَعَائِهِ إِذَا هُوَ أَمْسَى حَلْبَةً مِنْ دَمِ الْفَصْدِ^(١)

فتنكير المسند "حلبة" أفاد التحقير، والمعنى أن الوفي لا يغدر ولو أخنى عليه الدهر وأسى طعامه بهذه الحقارة "حلبة من دم الفصد". إلى غير ذلك من أغراض تنكير المسند.

وأما تعريفه فيكون كذلك لأغراض شتى منها: إرادة العهد بمعنى أن يكون المسند معلوماً للمخاطب معهوداً له، ولكنه لا يعلم المسند إليه، وذلك بأن يعلم مخاطبك أن انطلاقاً وقع ولكنه لا يدري عن، فنقول له: "زيد المنطلق"، تعريف المسند هنا غرضه البلاغي إرادة العهد، أي: الانطلاق المعهود لدى صاحبك، فإذا كان لا يعهد انطلاقاً ولا يعلمه قلت له: "زيد منطلق"، تريد مجرد إخباره بوقوع انطلاق من زيد، ولذا كان من الخطأ أن تقول: زيد المنطلق وعمرو، لأنك تتحدث عن انطلاق معروف للمخاطب ومعين فإذا أثبتته لزيد، لا يصح لك أن تثبته ثانية لعمرو، لأن هذا تناقض.. فالصواب أن تقول: زيد منطلق وعمرو.. أو تقول زيد وعمرو المنطلقان، ويتضح لك هذا أكثر عندما تقول مثلاً: امرؤ القيس هو القائل: قَسَابِكِ مِنْ ذَكَرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ بَسِيقِ اللَّوَى بَيْنَ الدُّخُولِ فَحَوْسَلِ لا يصح أن تقول: امرؤ القيس هو القائل هذا البيت وأبو ذؤيب الهذلي، إنك إن قلت هذا حاولت محالاً وقلت ما ليس بقول.

ومن أغراض تعريف المسند. إفادة قصره على المسند إليه، تقول: زيد الشاعر وعمرو الشجاع وحاتم الجواد. تريد بهذا قصر المسند على المسند إليه قصرًا ادعائيًا بهدف المبالغة في الوصف، ويكون ذلك غالبًا في مقامات المدح والفخر والثناء ونحوها..

انظر إلى قول المتنبي:

(١) الفصد: شق العرق، وفصد الناقة: شق عرقها ليستخرج دمه فيشربه وذلك عند الحاجة.. وفصد المريض أخرج مقداراً من دم وريده بقصد العلاج.

وَدَعُ كُلَّ صَوْتٍ دُونَ صَوْتِي فَابْتَنِي أَنَا الصَّائِحُ الْمَحْكِيُّ وَالْآخِرُ الصَّدَى

أراد المبالغة في قوة شاعريته، فقصر الصباح بمعنى إنشاد الشعر عليه قصرًا ادعائيًا، فهو الصائح وغيره من الشعراء يرددون صوته، وينهجون نهجه.

ومن الخطأ أيضًا أن تقول في مثل هذا: عمرو الشجاع وخالد، إذ كيف تخصص عمرًا بالشجاعة ثم تشرك فيها غيره، فالصواب أن تقول: عمرو وخالد الشجاعان أو تنكر المسند فتقول: عمرو وشجاع وخالد.

ومن ذلك قول ابن الدمينية:

وَنُحْنُ النَّارِ كُونَ عَلَى سَلِيلٍ مَعَ الطَّيْرِ الْخَوَامِعَ يَعْزَرِنَا^(١)

يريد أنهم هم الذين قتلوا سليلًا وتركوهم طعامًا للطير وللخوامع أي: الضباع، هم الذين فعلوا ذلك دون سواهم..

وتأمل قول عمرو بن كلثوم.

وَقَدْ عَلِمَ الْقَبَائِلُ مِنْ مَعَدٍّ إِذَا قَبُبُ بِأَبْطُجْهَا بَيْنَنَا

بَأْنَا الْعَاصِمُونَ إِذَا أُطِعْنَا وَأَنَا الْغَارِمُونَ إِذَا عُصِينَا

وَأَنَا الْمُتَمَعِمُونَ إِذَا قَدَرْنَا وَأَنَا الْمُهْلِكُونَ إِذَا أُتِينَا

وَأَنَا الْحَاكِمُونَ بِهَا أُرْدَنَا وَأَنَا النَّازِلُونَ بِحَيْثُ شِينَا

تجد أنه يفخر بقصر تلك الصفات عليهم قصرًا حقيقياً ادعائيًا بمعنى أنها لا تتعداهم ولا تتجاوزهم إلى غيرهم على سبيل المبالغة والادعاء.

وخذ قوله تعالى: ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةَ مُوسَىٰ ﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ

الْأَعْلَىٰ ﴿٦٧﴾ [طه ٦٧، ٦٨]، أي: أنت الأعلى لا هم، فتعريف المسند أفاد قصره على

"المسند إليه قصرًا إضافيًا بمعنى أنه لا يتعداه إلى هؤلاء السحرة.

ومنها أن يعرف المسند بالموصلية فيفيد بالإضافة إلى قصره على المسند إليه

(١) الخوامع: الضباع.. وهو اسم لازم لها لأنها تجمع في مشيتها أي: تعرج، فالخماع: العرج.. المفرد منه خامع وخامعة وجمعة: أحماع وخوامع.. ومعنى: يعترين: يصبن ويغشين يقال: اعتراه: غشبه وأصابه.

دقائق ولطائف يدركها اللهاج الذوافة، الخبير بالأساليب الرفيعة والتعابير الجيدة..

انظر إلى قول المنبئي:

أَنَا الَّذِي نَظَرَ الْأَعْمَى إِلَى أَدْبِي وَأَسْمَعَتْ كَلِمَاتِي مَنْ بِهِ صَمٌّ
أَتَامَ مِلءُ جُفُونِي عَنْ سُورِدهَا وَيَسْنَهُرُ الْخَلْقُ جَرَاهَا وَيَخْتَصِمُ

تجد أن تعريف المسند بالموصولية أفاد بالإضافة إلى قصر مدلول الصلة على المنبئي، اشتهاه جملة الصلة وانشغال الناس بها فهي أمر معروف بين الناس جميعاً يعرفونه ولا أحد يجمله.

وتأمل الآيات الكريمة: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ ﴿ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُخَيِّمُ عَلَيْكُمْ وَيُمَيِّتُ لَهُمُ أَسْرَابَهُمْ وَيُجَنِّبُكُمْ أَسْرَابَهُمْ وَيَسْتَلْجِمُ الْبَحْرَيْنِ لَعَلَّ هُمَا يَتَقَوَّلُوكُمَا لَكُمَا عِزٌّ وَكِبْرٌ إِنَّ لَكُمْ عِزًّا وَكِبْرًا ثُمَّ يُسْأَلُ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ﴿ [المؤمنون ٧٨ - ٨٠]، وقوله عز وجل: ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [الأنبياء ٣٣].

فالمسند في الآيات الكريمة مقصور على المسند إليه قصرًا حقيقيًا، ثم إن إثارة التعريف بالموصولية أفاد انشغال الخلق بتلك الأمور المثارة في جملة الصلة واشتهارها بينهم وخوضهم فيها وتردها على الأسماع وتلك ميزة يمتاز بها التعريف بالاسم الموصول.

ومنها أن يقيد المسند بقيد فيفيد تعريفه عندئذ قصره مقيدًا بذلك القيد على المسند إليه وكأنه أي: المسند قد صار نوعًا خاصًا وجنسًا برأسه. تقول: زيد الكريم حين يبخل الناس وهو الوفي حين لا تظن نفس بنفس خيرًا، وهو المقدم حين تفر الأبطال، فالمقصود ليس مطلق الكرم وإنما هو نوع خاص منه وكذا الوفاء والشجاعة في المثاليين الأخيرين..

ومن ذلك قول الأعشى:

هُوَ الْوَاهِبُ الْهَائِةُ الْمُضْطَفَاةُ إِيمًا مَخَاضًا وَإِيمًا عِشَارًا^(١)

(١) المخاض: الحوامل من النوق اسم جمع ويقال للواحدة بنت مخاض والعشار: جمع عشاء وهي من

فإنه قصر هبة المائة من الإبل في إحدى الحالتين: مخاصًا أو عشارًا لا هبتها مطلقًا، ولا الهبة المطلقة، فالهبة مقيدة بالمائة المصطفاة، والمائة مقيدة بكونها إما مخاصًا وإما عشارًا.

وعند تقييد المسند بتلك القيود يكون القصر قصرًا حقيقيًا لا ادعائيًا فهو الواهب المائة المصطفاة دون غيره.. وزيد وحده هو الكريم حين يبخل الناس وهو وحده الوفي حين لا تظن نفس بنفس خيرًا، والمقدام حين تفر الأبطال.

ومنها إفادة التقرير وبيان أن ثبوت المسند للمسند إليه أمر مقرر بارز، وظاهر ظهورًا لا يخفى على أحد.

كما في قول حسان:

وَإِنْ سَنَامَ الْمَمَجِدِ مِنْ آلِ هَاشِمٍ بَسُو بِنْتِ تَخْزُومٍ وَوَالِدِكَ الْعَبْدُ

أراد بتعريف العبد تقرير صفة العبودية لوالده. وأنها أمر مشهور وذائع لا يخفى على أحد، ولم يرد قصر العبودية على الوالد لا حقيقة ولا ادعاء..

ومثله قول الخنساء في رثاء صخر:

إِذَا قَبِحَ الْبُكَاءُ عَلَى قَتِيلٍ رَأَيْتُ بُكَاءَكَ الْحَسَنَ الْجَمِيلَ

لم ترد قصر صفة الحسن على بكائها صخرًا، وإنما أرادت أن تقرر لبكائه صفة الحسن وأن تجعل حسن بكائه بيّنًا ظاهرًا لا يجهله أحد ولا ينكره منكر.

ومنها الإشارة إلى بلوغ المسند إليه في الاتصاف بالمسند مبلغ الكمال كقولك:

"هو البطل المحامي"، تريد أن تقول للمخاطب: هل تصورت البطل المحامي وكيف يكون الإنسان حين يبلغ في هذه الصفة مبلغها الأعلى؟، إذا تصورت هذا في نفسك فعليك بفلان فهو الذي تجد فيه الصفة كما تمثلتها وتخيلتها.. وكذا تقول: هو الحامي لكل حمى، والمرتجي لكل ملمة والدافع لكل مكروه..

ومن ذلك قول ابن الرومي:

نَمَوَ الرَّجُلُ الْمَشْرُوكُ فِي جُلِّ مَالِهِ وَلَكِنَّهُ بِالْمَسْجِدِ وَالْحَمْدِ مُفْرَدُ

يريد منك أن تسبح بخيالك في تصور رجل لا يتميز عن عفاته وطالبي معروفه فهو وهم سواء يأخذون من المال ما يشاءون، فإذا حصلت صورته في مخيلتك فاعلم أنه ذلك الرجل..

ومثله قول الفرزدق في هجاء الحجاج:

فَلَوْلَا بَنُو مَرْوَانَ كَانَ ابْنُ يُوسُفَ كَمَا كَانَ عَبْدًا مِنْ عِيْدِ إِيَادِ
زَمَانَ هُوَ الْعَبْدُ الْمُقَرَّبُ بِذَلِكَ يُرَاوِحُ أَبْنَاءَ الْقُرَى وَيُعَادِي

أراد بقوله: "هو العبد: بلوغه الغاية القصوى في الانصاف بصفة العبودية وذل الرق في هذا الزمان حتى خلصه بنو مروان من قيدها فصار له شأن وكيان.

ومنها إفادة تعظيم المسند إليه وذلك عند إضافة المسند إلى ما يكسبه التشريف والتعظيم ويسمونه به، ويرفع شأنه، كما في قوله تعالى: ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾ [مريم ٣٠]، وقوله جل وعلا: ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح ٢٩] فقد اكتسب المسند إليه بإضافة المسند إلى لفظ الجلالة التعظيم، وعلو المنزلة ورفعة الشأن ولا يخفى عليك ما في تنكير "أشداء" و"رحماء" من تفخيم وتعظيم.



تخصيص المسند بالوصف أو بالإضافة

قالوا: إن الغرض من تخصيص المسند بالوصف أو بالإضافة هو تربية الفائدة وتكثيرها، وجعلها أتم وأكمل، أو بمعنى آخر تكثير المعنى والدلالة على غزارته، لأن زيادة المبني كما قالوا تدل على كثرة المعنى، تقول مثلاً: امرؤ القيس شاعر فارس، وزهير شاعر حكمة فقد كثر المعنى الأول بالوصف وتمت الفائدة في الثاني بالإضافة..

ومن ذلك قول مالك الأشتر (ت ٣٧هـ):

حَمِيَّ الْحَدِيدِ عَلَيَّهِمْ فَكَانَتْهُ وَتَمَّضَانَ بَرْقٍ أَوْ شَعَاعٍ شُمُوسٍ

وقول قيس بن الخطيم:

وَكُنْتُ امْرَأًا لَا أَسْمَعُ الدَّهْرَ سَبَّةً أَسْبُ بِهَا إِلَّا كَشَفْتُ غَطَاءَهَا

قد خصص المسند في البيت الأول بالإضافة: "ومضان برق أو شعاع شمس"، وخصص في البيت الثاني بالوصف: "امرأ لا أسمع الدهر سبة أسب بها...".

ومنه قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رُّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ [الأحزاب ٤٠]، فقد خصص المسند بالإضافة في قوله: "أبا أحد من رجالكم" لتكثير الفائدة وعمومها، فهو عليه الصلاة والسلام ليس أبا لأحد منهم، ثم عرف المسند بالإضافة في قوله: "رسول الله وخاتم النبيين"، لإفادة التعظيم وشهرة اتصافه ﷺ بتلك الصفة.

تقديم المسند

المسند إليه إذا كان مبتدأ فرتبه التقديم نحو: زيد قائم، وعمرو منطلق، وخالد في الميدان، وإذا كان فاعلاً فرتبه التأخير أي الوقوع بعد الفعل "المسند" نحو قام زيد، ويعطي محمد الجزيل، فإذا قدم المسند إليه على خبره الفعلي كان ذلك لأسرار بلاغية - كما درست في أحوال المسند إليه - وكذلك إذا قدم المسند على المسند إليه الذي رتبته التقديم "المبتدأ" فإن هذا التقديم يكون لأسرار ومزايا بلاغية أهمها:

١- إفادة القصر أي قصر المسند إليه على المسند المقدم كما في قوله تعالى: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِي دِينٌ ﴾ [الكافرون ٦]، والمعنى: إن دينكم الذي هو الإشراف مقصور على كونه لكم لا يتجاوزكم إليّ، وديني الذي هو التوحيد مقصور على كونه لي لا يتجاوزني إليكم.. فالمقصور عليه هو المسند المقدم والمقصور هو المسند إليه المؤخر.

وكذا القول في الآيات الكريمة: ﴿ وَأَقْرَبَ التَّوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَخِصَةٌ أَنْبَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [الأنبياء ٩٧].. ﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴾ ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾ ﴿ [الغاشية ٢٥، ٢٦].. ﴿ وَالْتَفَتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴾ ﴿ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاكُ ﴾ ﴿

[القيامة ٢٩، ٣٠].. ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ [القيامة ١٢]، فالتقديم في هذه الآيات الكريمة أفاد قصر المسند إليه على المسند المقدم..

ومنه قوله تعالى في وصف خمر الجنة: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۖ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّرْبِيِّينَ ۖ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ﴾ [الصافات ٤٥ - ٤٧]، فتقديم الجار والمجرور في قوله: "لا فيها غول"، أفاد نفي الغول عن خمر الجنة وإثباته لخمور الدنيا أو بمعنى آخر، أفاد قصر عدم الغول على خمر الجنة بحيث لا يتجاوزها إلى خمور الدنيا، ولو قيل: "لا غول فيها" لأفاد ذلك مجرد نفي الغول عن خمر الجنة دون تعرض لخمور الدنيا.

ولذا جاء قوله تعالى: ﴿الْعَرَبُ﴾ ذَلِكَ أَلْكَتَبُ لَا رَبِّبَ فِيهِ ﴿ [البقرة ١، ٢] بدون تقديم إذ المراد نفي الريب عن القرآن دون تعرض لغيره من الكتب السماوية ولو قيل: "لا فيه ريب"، لأدى هذا إلى نفي الريب عن القرآن وإثباته لغيره وهو غير مراد..

ومن أقوالهم قول أبي العلاء:

تَعَبُ كُلِّهَا أَلْحَيَاةُ فَمَا أَعْبَسَ جَبُّ الْإِمْنِ رَاغِبٌ فِي أَرْذِيَادِ
أفاد التقديم قصر الحياة على التعب قصرًا ادعائيًا، أي: أن ما فيها من فترات الراحة والأنس والمسرة لا اعتداد به..

وقول الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه:

رَضِينَا قِسْمَةَ الْأَجْبَارِ فِينَا لَنَّا عَلِمْنَا وَلِلْجَهَنَّمَ مَالٌ
وقول الآخر:

وَلَيْسَ يَمُغْنِي فِي الْمَوَدَّةِ شَافِعٌ إِذَا لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الضُّلُوعِ شَفِيعٌ
وقول الإمام الشافعي رحمه الله:

إِذَا نَطَّقُوا الشَّفِيعَةَ فَلَا تُجِئُهُ فَخَرٌّ مِّنْ إِجَائَتِهِ السُّكُوتُ

ولا يخفى عليك معرفة موطن التقديم والمقصود والمقصود عليه في هذه

الآيات:

٢- التنبية من أول الأمر على أن المسند خبر لا نعت كما في قول حسان بن

ثابت رضي الله عنه في مدح الرسول ﷺ:

لَهُ هِمَمٌ لَا مَتَّهَى لِكِبَارِهَا وَهَمَّتْهُ الصُّغْرَى أَجَلٌ مِنَ الدَّهْرِ

فإنه لو قال: "همم له لا منتهى لكبارها"، لتوهم أن الجار والمجرور "له" نعت لا خبر، لأن النكرة تحتاج إلى الوصف حتى يكون مسوغاً للابتداء بها، ولتوهم أن الخبر هو الجملة بعده، وهذا لا يتفق مع غرض المدح، لأن الشاعر يريد مدح الرسول ﷺ لا مدح هممه..

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتْنَعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [الأعراف

٢٤] حيث قدم الجار والمجرور "لكم" على المسند إليه "مستقر" لدفع توهم أنه نعت وليس بخبر..

٣- إفادة التشويق إلى ذكر المسند إليه، كما في قوله ﷺ: "مَنْهُومَانِ لَا يَشْبَعَانِ

طَائِبُ عِلْمٍ وَطَائِبُ مَالٍ" ^(١)... وكقول محمد بن وهيب في مدح أبي إسحاق:

ثَلَاثَةٌ تُشْرِقُ الدُّنْيَا بِبَهْجَتِهَا سَمْسُ الصُّحَى وَأَبُو إِسْحَاقَ وَالْقَمَرُ

وقول الرَّاَجَز:

ثَلَاثَةٌ تَجْلُو عَنِ الْقَلْبِ الْحَزْنَ الْمَاءُ وَالْخُضْرَةُ وَالْوَجْهُ الْحَسَنُ

وقول الآخر:

ثَلَاثَةٌ لَيْسَ لَهَا إِيَابُ أَلْوَقْتُ وَالْجِبَالُ وَالشُّبَابُ

وقول أبي العلاء المعري:

وَكَاثِرُ النَّارِ الْحَيَاةُ فَمِنْ رَمَادٍ أَوَاخِرُهَا وَأَوَّلُهَا دُخَانُ

فتقديم المسند في هذه الشواهد أفاد التشويق إلى معرفة المسند إليه والإفصاح

عنه، ولا يخفى عليك القصر في البيت الأخير، أي: قصر الحياة على كونها نارا لا استقرار فيها.

(١) رواه الدارمي في المقدمة برقم ٣٢.

٤- إظهار التفاؤل.. كما في قول الثعالبي- عبد الملك بن محمد إسماعيل

(ت٤١٩ هـ):

سَعِدْتُ بِغُرَّةٍ وَجْهَكَ الْأَيَّامُ وَتَزَيَّنْتُ بِبَقَائِكَ الْأَعْوَامُ

فالمسند "سعدت" قد قدم ليفيد التفاؤل لأنه من جنس السرور والسعادة وكذلك "تزينت" قدم على المسند إليه "الأعوام" لنفس الغرض..

٥- إظهار التألم والتضجر.. كما في قول المتنبي:

وَمِنْ نَكْدِ الدُّنْيَا عَلَى الْحُرِّ أَنْ يَرَى عَدُوَّ الْوَالِدِ مِمَّنْ صَدَّقَتْهُ بُدُ

إلى غير ذلك من الأغراض التي تقتضي تقديم المسند على المسند إليه.



تقييد الفعل بأدوات الشرط: إن وإذا ولو

اهتم البلاغيون "بإن، وإذا، ولو" من أدوات الشرط، وذلك لما يكمن وراء تقييد المسند "الفعل" بهذه الأدوات الثلاث من اعتبارات بلاغية وملاحظات دقيقة:

قال البلاغيون: إن "إن" و"إذا" للشرط في الاستقبال، بمعنى تقييد حصول الجزاء بحصول الشرط في المستقبل نحو إن تزرني أكرمك.. إذا جاءك الفقير فأحسن إليه، وتختلف "إن" عن "إذا" في أن "إذا" تستعمل في الشرط المقطوع بوقوعه، وذلك بأن يكون الشرط مجزوماً بوقوعه في المستقبل نحو: إذا غربت الشمس حل الظلام.. إذا أذن المؤذن أسرع المسلم للصلاة.. أو يظن ظناً قوياً ووقوعه فيه نحو: إذا جئتني أكرمتك، إذا كنت تعتقد اعتقاداً قوياً أنه سيأتي وترجح مجيئه على عدم مجيئه ولذا كان الغالب في الفعل المستعمل مع إذا أن يكون بلفظ الماضي للإشعار بتحقيق الوقوع.

أما "إن" فتستعمل في الشرط غير المقطوع بوقوعه، بأن يتردد في وقوعه في المستقبل، أو يظن عدم وقوعه ويرجح على الوقوع أو يكون مما لا يقع إلا نادراً، كما سترى في الشواهد.. فإذا كان الشرط مجزوماً ومقطوعاً بعدم وقوعه في المستقبل،

فلا تستعمل فيه "إن" ولا "إذا" إلا لنكتة بلاغية. كما سنبين في الشواهد^(١)..

انظر إلى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ﴾ [الأعراف ١٣١]، تلاحظ أنه قد استعملت "إذا" في جانب الحسنة، و"إن" في جانب السيئة، وذلك لأن مجيء الحسنة أمر مقطوع به، محقق الوقوع، إذ المراد بالحسنة، الحسنة المطلقة عن التقييد بنوع معين، ولذا عرفت تعريف الجنس لتشمل كل فرد من أفرادها، وكل نوع من أنواع الحسنات، وشأن هذا أن يقع كثيرًا لاتساعه وكثرة أفرادها وأنواعه، ولكون مجيء الحسنة محققًا ومقطوعًا بوقوعه، فقد عبر عنه بلفظ الماضي: "جاءتهم الحسنة" أما إتيان السيئة فغير محقق الوقوع، إذ نادرًا ما تقع السيئة بالنسبة إلى الحسنة، ولذا استعملت "إن" معها، ونكرت السيئة لإفادة التقليل، وعبر عن الإصابة بلفظ المضارع "تصيبهم" المشعر بعدم تحقق الوقوع..

وتأمل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْتُلُونَ﴾ [الروم ٣٦]، نجد أنه قد نكرت الرحمة "رحمة"، وعبر عن الإذاقة بالماضي "أذقنا"، واستعملت "إذا"، وذا للدلالة على أن إذاقة الناس قدرًا قليلًا من الرحمة أمر مقطوع به.. ثم استعملت "إن"، والمضارع "تصيبهم" ونكرت السيئة "سيئة" لإفادة أن إصابة السيئة لهم أمر غير مقطوع به، فالله عز وجل لا يؤاخذهم بما كسبوا بل يعفو عن كثير، ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [فاطر ٤٥]..

وتأمل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُّبِينِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ [الروم ٣٣، ٣٤]، وقوله عز وجل: ﴿وَإِذَا أُنْعِمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَا بِنِعْمَتِنَا وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت ٥١]، نجد أن قوله عز من قائل: "أذاقهم منه رحمة" "أنعمنا على الإنسان"، مقطوع بوقوعه، وهذا واضح كما بينا في الآيتين

(١) ارجع إلى الإيضاح جـ ١ ص ١٨٦، ١٨٧.

السابقتين، ولذا استعملت "إذا" في الموضعين، أما قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْنَّاسَ ضُرٌّ ﴾.. ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ ﴾ فقد يلتبس عليك التعليق بـ "إذا" فيها وتقول: إن مس الضر أو الشر ينبغي أن يكون نادرًا وغير مقطوع بوقوعه، فالموضع موضع "إن" لا "إذا"، ولكن هذا الالتباس سرعان ما يزول عندما تتأمل السياق في الآيتين وتعرف أن الحديث عن الإنسان الكافر الذي إذا مسه شر أو ضر دعا ربه منيبًا إليه، دعاه دعاء عريضًا، فإذا ما أنعم الله عليه، أعرض ونأى بجانبه وكفر بأنعم ربه، ولهذا توعدهم الله عز وجل "فتمتعوا فسوف تعلمون"، فمثل هذا الكافر ينبغي أن يكون مس الضر أو الشر له في حكم المقطوع به، وتلاحظ التعبير بلفظ "المس" في الآيتين وهو أقل من الإصابة أو الإذافة، ثم تنكير الضر "ضر"، وتعريف الشر بأل الجنسية المفيدة أي نوع من أنواع الشر، فإذا ما أضفت ذلك إلى الإنسان المتحدث عنه وقد وقفت على حقيقته، تيقنت أن الشرط ينبغي أن يكون مجزومًا به ومقطوعًا بوقوعه.. وعندما تتأمل الشعر الجيد تجد للتعليق بهاتين الأداتين موقعًا لطيفًا ومذاقًا حلواً..

اقرأ قول أبي الطيب المتنبي:

إِذَا أَنْتَ أَكْرَمْتَ الْكَرِيمَ مَلَكَتْهُ وَإِنْ أَنْتَ أَكْرَمْتَ اللَّئِيمَ تَمَرَّدَا
تجده قد استخدم "إذا" في جانب إكرام الكريم، فدل على أنه أمر محقق، وينبغي أن يوجد دائمًا وأن يقع كثيرًا، ثم استخدم "إن" في جانب إكرام اللئيم، فدل على أنه نادرًا ما يقع، لأن النفوس تنفر من اللئيم وتأبى إكرامهم..
وتأمل قول المتنبي أيضًا مخاطبًا سيف الدولة:

أَجْزُرِي إِذَا تُشِدَّتْ شِعْرًا فَإِنِّي بِشِعْرِي أَتَاكَ الْأَادِحُونَ مُرَدَّدَا
وَدَعُ كُلَّ صَوْتٍ دُونَ صَوْتِي فَإِنِّي أَنَا الصَّائِحُ الْمَحْكِيُّ وَالْآخِرُ الصَّدَى

تجده قد استعمل "إذا" فدل باستعمالها على قوة شعره، وكثرة إنشاده، وذبوعه في الناس، حيث غلب شعر الشعراء فصاروا يرددونه وصار هو الصائح المحكي..

وخذ قول قعنب بن أم صاحب في الهجاء:

ضَمَّ إِذَا سَمِعُوا خَيْرًا ذُكِرَتْ بِهِ وَإِنْ ذُكِرَتْ بِسُوءٍ عِنْدَهُمْ أَدْنُوا
تجده قد دل "بإذا" على أن سماع الخير عنه أمر محقق ويقع كثيرًا، ودل "بان" على أن ذكره بسوء نادرًا ما يقع، فهو لا يفعل إلا ما يحمد عليه ويستحق به الشناء وشكر الشاكرين.. وعلى الرغم من ذلك فهم يذيعون السوء الذي قل أن يذكر به المدح ويصمون آذانهم عن الخير الكثير الذي يذكر به.

وقول محمد بن المولى في مدح يزيد بن قبيصة والي مصر في عهد أبي جعفر:

وَإِذَا صَنَعْتَ صَنِيْعَةً أَتَمَّتْهَا يَبْدِيْنَ لَيْسَ نَدَاهُمَْا بِمُكْدَرٍ
تراه قد دل "بإذا" على كثرة صنائعه وتحقق فعله الخير وسد حاجات المحتاجين..

ثم تأمل قول سعد بن ناشب:

فِي الرَّرَامِ رَشْحُوا بِمُقْدِمَا إِلَى المَوْتِ حَوَاصَا إِلَيْهِ الكِتَابَا
إِذَا هَمَّ أَلْقَى بَيْنَ عَيْنَيْهِ عَزْمَهُ وَنَكَبَ عَن ذِكْرِ العَوَاقِبِ جَانِبَا
تجده قد دل باستخدام "إذا" على كثرة همه وتحقق وقوعه، فهو لا يخشى العواقب بل يدعها جانبًا ويسرع إلى الموت حوًا إلى الكتابا وتدبر تلك الصورة البديعة: "ألقى بين عينيه عزمه" حيث جسد العزم وأبرزه محسًا مشاهدًا أمام عينيه.

وعد إلى النظم الكريم: فتأمل قوله تعالى: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنَ
الرَّحْمَنُ بَصُرًا لَا تَغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِدُونَ ﴿٢٣﴾ إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ [يس ٢٣، ٢٤]، تجد أن إيثار الأداة "إن" بالتعبير أفاد أن إرادة الضر غير محققة الوقوع وأنها نادرًا ما تقع، ومما يقوى هذا استخدام المضارع "يردن"، ولفظ "الرحمن" الذي ينبئ بالرحمة وعدم إرادة الضر، ثم تنكير الضر "بضر" لإفادة التقليل ولا يخفى عليك ما في الآية من التعريض، إذ المراد: أتخذون من دونه آلهة إن يردكم الرحمن بضر لا تغن عنكم شفاعتهم شيئًا ولا ينقذوكم إنكم إذًا لفي ضلال مبين.. وإجراء الآية على التعريض فيه ترغيب لهؤلاء في قبول الحق واستمالة لهم نحو الهداية

والإيمان بالله وحده، لأنه ترك التصريح بنسبتهم إلى الباطل والضلال، ومحض النصح لهم حيث لم يرد لهم إلا ما يريده لنفسه^(١) ..

ومما جاء من ذلك وقد أريد به التعريض أيضاً قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر ٦٥]، وقوله: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنْ رَبِّ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة ١٤٥]، وقوله عز وجل: ﴿فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة ٢٠٩]، ولا يخفى عليك السر البلاغي الكامن وراء استخدام "إن" في الآيات الكريمة، وللتعريض في الآيات الكريمة بالإضافة لما سبق، فائدة أخرى جليلة وهي الإشارة إلى سلطان الألوهية القاهر، فمحمد ﷺ، وقد قربه ربه واصطفاه، وهؤلاء الصفوة من المهاجرين والأنصار يجري عليهم ما يجري على غيرهم، فالمعول عليه وأساس التفاضل بين البشر إنما هو التقوى والعمل الصالح، وفي هذا تعميق وتحديد لصفة البشرية، وحفظ لعقيدة التوحيد حتى لا يشوبها ما شابها في الشرائع الأخرى حيث قالت اليهود عزيز ابن الله، وقالت النصارى: المسيح ابن الله، ولهذا المعنى ترى القرآن الكريم يذكر الأنبياء بلفظ العبد: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن ١٩]، ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مريم ٣٠]، وذلك للإشارة إلى أن البشرية جميعها سواء في العبودية. وإلى أن فضيلة هؤلاء إنما كانت بالعبادة^(٢).

وعد إلى التعليق "بان" و"إذا" فاقراً قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَرَوْا ءَايَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾ [القمر ٢]، تجد أن التعليق بان في الآية الكريمة، أفاد إعراض هؤلاء الكفرة وشدة رفضهم وتعاميهم عن رؤية الآيات، فأيات الله في كونه كثيرة لا تتناهى:

ففي كل شيء له آيةٌ تُدُلُّ عَلَى أَنَّهُ الْوَاحِدُ
ولكن هؤلاء قد تعاموا عن رؤيتها، لم يقبوا عنها، لم ينظروا نظر متأمل،

(١) انظر الإيضاح ١٩٦/١.

(٢) انظر خصائص التراكيب ٢٧٠.

وإن حدث وعرضت لهم آية دون أن يبحثوا عنها، وتبين لهم وجه الحق فيها أعرضوا وقالوا: سحر مستمر..

واقرا قوله تعالى: ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾ [الزلزلة ١]، وقوله عز وجل: ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۗ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ۗ ﴾ [النصر ١-٣]، تجد التعليق "بإذا" في الآيتين أفاد تحقيق وقوع الشرط، فزلزلة الأرض وإخراجها أثقالها في ذلك اليوم من الأحداث الثابتة المحققة، ومجيء نصر الله الذي وعده به سبحانه وتعالى، حق ثابت لا ريب فيه، ولا يتردد في إثباته مؤمن، وقد جاء كما وعد جل وعلا..

وخذ قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ يُقْبِلُوكُمْ يُؤَلُّوكُمْ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصِرُونَ ﴾ [آل عمران ١١١]، وقوله عز وجل: ﴿ إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴾ [المتحنة ٢]، أفاد التعليق "بإن"، ضعف شوكة الكفرة وعدم جرأتهم على قتال المؤمنين، فقتالهم أمر نادر الوقوع، غير مقطوع به وكذا الظفر بالمؤمنين، أي: ظفر هؤلاء الأعداء بالمؤمنين أمر غير محقق وغير مقطوع به، "إن يثقفوكم" أي: يظفروا بكم.

ثم تأمل قوله: "وودوا" بالماضي عطفًا على المضارع: "يكونوا" "يبسطوا"، وما يبنى به استعمال الماضي في موضع المضارع من رغبة الكفرة وتمنيهم وحرصهم الشديد على أن يتحقق هذا الفعل، وكأنه قيل: وودوا قبل كل شيء كفركم وارتدادكم عن دينكم، فهم يتمنون لكم مضار الدنيا والآخرة من قتل الأنفس وتمزيق الأعراس وردكم كفارًا، وردكم كفارًا أسبق المضار عندهم لعلمهم أن الدين أعز عليكم من أرواحكم، والعدو أهم شيء عنده أن يقصد أعز شيء عند صاحبه..

هذا هو رأي الزمخشري ويرى الخطيب أن: "وودوا" ليس معطوفًا على الجزاء بل هو معطوف على الجملة الشرطية، كما في عطف: "ثم لا ينصرون" في الآية السابقة، وذلك لأنه ليس في تقييد: "وودوا" بالشرط فائدة، إذ ودادتهم أن يرتدوا

كفازًا حاصلة وإن لم يظفروا بهم^(١).

وللجهل بموقع "إن وإذا"، يزيغ كثير من الخاصة عن الصواب فيغلطون.. انظر إلى قول عبد الرحمن بن حسان يخاطب بعض الولاة وقد سأله حاجة فلم يقضها:

ذُمْتُ وَلَمْ تُخَمِّدْ وَأَذْرَكْتُ حَاجَتِي تَوَلَّى سِوَاكُمْ أَجْرَهَا وَأَصْطِنَاعَهَا
أَبَى لَكَ كَسْبَ الْحَمْدِ رَأْيِي مُقْصِرٌ وَنَفْسٌ أَضَاقَ اللَّهُ بِالْخَيْرِ بَاعَهَا
إِذَا هِيَ حَتَّتْهُ عَلَى الْخَيْرِ مَرَّةً عَصَاهَا وَإِنْ هَمَّتْ بِسَرٍّ أَطَاعَهَا

فالأبيات - كما ترى - في الهجاء والذم، إذ المخاطب ذو رأي مقصر، ونفسه أضاق الله بالخبر باعها، وكان يقتضي ذلك أن يقول: إن هي حثته على الخير مرة عصا وإذا همت بشر أطاعها، ليناسب مقام الهجاء والذم، وتكون تلك النفس لا تهم بالخير إلا نادراً، وإن همت به مرة عصاها، وتهم كثيراً بالشر وإذا همت به أسرع إلى إجابتها.. ولذا قال الزمخشري: لو عكس لأصاب..

وقد حاول بعض أن ينتصر للشاعر، وأن يجيب عنه، فرأى أنه يقصد إثبات حث نفس الوالي له على الخير ووقوعه منها كثيراً وعلى الرغم من ذلك فهو يعصيها ويقاومها ولا يجيبها، وأنه يبادر إلى الشر بمجرد أن تهم به نفسه، وهذا أبلغ في هجاء الوالي وذمه..

ولكن يدفعه قوله "مرة"، فهو تصریح بأن حثها على الخير قليل ونادراً ما يقع، وإن وقع فإنه يقع مرة واحدة وأيضاً تصریحه في البيت الثاني بأن هذه النفس نفس أضاق الله بالخير باعها يمنع ذلك ويدفعه..

وتأمل قول أبي تمام مادحاً:

كَرِيمٌ مَتَى أَمْدَحُهُ أَمْدَحُهُ وَالسُّورَى مَعِي وَإِذَا مَالُمْتُ لُمْتُهُ وَخُدِي

فقد مر بك هذا البيت في الحديث عن فصاحة الكلام وتبين لك أن قوله:

(١) انظر الكشاف ٩٠/٤ والإيضاح ١٩٧/١.

"وإذا ملته" لا يناسب مقام المديح لأنه يدل على أن اللوم يقع من الشاعر كثيرًا، ولو قال: وإن لمته وحتدي، لأصاب وأجاد، وما يحمده للشاعر في البيت أنه قابل المدح باللوم والذي يقابل المدح هو الهجاء لا اللوم وكأن المدح لا يفعل ما يستحق عليه هجاء، وإنما قد تصدر منه أشياء يسيرة يلام عليها فقط^(١).

وكذا القول في بيت أبي العلاء المعري:

إِذَا سَمَّيْتُمُهَا مَهْمًا مَهْمًا يَمِينٌ لَطُولِ الْعَهْدِ دَبْلُهُ شِمَالًا

فقد عبر "بإذا" فدل ذلك على تحقق السأم والقطع بوقوعه وهذا ينافي مقام المدح، فالموضع موضع "إن" لا "إذا"^(٢).

وقول الخطيئة في المدح أيضًا:

أَوْلَيْكَ قَوْمٌ إِنْ بَنَوْا أَحْسَنُوا الْبِنَا وَإِنْ عَاهَدُوا أَوْفَوْا وَإِنْ عَقَدُوا شَدُّوا

أساء الخطيئة باستخدامه "إن" ولو استخدم "إذا" لأجاد وأحسن لأن الموضع موضعها كما لا يخفى، وقد مر بك البيت في الحديث عن تعريف المسند إليه بأسماء الإشارة.

استخدام "إن" في موضع "إذا" و"إذا" في موضع "إن"

وقد تستعمل "إن" في موضع "إذا"، أي في الشرط المقطوع بوقوعه، المجزوم بتحقيقه، وتستعمل "إذا" في موضع "إن"، أي في الشرط غير المقطوع بوقوعه، وذلك لاعتبارات بلاغية يقتضيها المقام ويستدعيها الحال.. تقول: إن طلعت الشمس ذهبت إلى الحبيب، فطلوع الشمس أمر محقق مقطوع بوقوعه، فحقه أن تدخل عليه "إذا" لا "إن"، ولكنك استخدمت "إن" لهدف بلاغي، وهو استبطاؤك طلوع الشمس، وامتداد الظلام عليك وطول الليل، وكأنه لا يمر، ولا يريد أن ينجلي بصبح، وأنت تترقب وتنتظر بزوغ الضوء حتى تسرع إلى لقاء الحبيب.. إن استخدامك "لإن" أنبأ بامتداد الليل، وكأن طلوع الشمس صار بالنسبة لك أمرًا غير محقق الوقوع، صار أمرًا مستبعدًا..

(١) ارجع إلى هذا البيت في الحديث عن مفهوم الفصاحة والبلاغة في التمهيد.

(٢) ارجع إلى هذا البيت في الحديث عن تنكير المسند إليه.

وتقول: إن مات فلان البخيل انتفع الناس بهاله، فالموت أمر محقق الوقوع: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران ١٨٥]، ولكنك استخدمت إن لشعر باستثقال وجود البخيل وعدم ارتياحك له ورغبتك في التخلص منه، وكأنك لطلو تمنيك موته والتخلص منه، صرت تستبعد وقوعه، صار موته أمرًا غير مجزوم بوقوعه على الرغم من تحققه وأنه آت لا محالة..

وتقول لمن يؤدي أباه ولا يحسن إليه ولا يبره: إن كان أباك فلا تؤذه.. إن كان أباك فأحسن عشرته وبره، فكونه أباه أمر محقق ولكنك جعلته أمرًا غير مجزوم به، فنزله منزلة الجاهل الذي لا يعلم أنه أبوه لعدم جريه على موجب علمه وكأنك تريد بهذا تأنيب المخاطب وتوبيخه وحثه على بر أبيه والإحسان إليه.

وتأمل قوله عز وجل: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ﴾ [الزخرف: ٥]، في قراءة من قرأ بكسر الهمزة "إن"، والمعنى أنهملكم فنضرب عنكم القرآن بترك إنزاله لكم، وترك ما فيه من الأمر والنهي والوعد والوعيد إن كنتم مسرفين، فكونهم مسرفين أمر مقطوع به وحقيقة ثابتة مقررة، وقد استعملت "إن" في هذا الشرط المقطوع به لقصد توبيخهم على الإسراف، وتصوير أن المقام لا يحتمل هذا الإسراف فالعاقل لو تدبر وتأمل آيات الله في كونه لما أسرف، ولأقلع عن إسرافه وعناده، فحق هذا الإسراف الانتفاء وألا يكون إلا على سبيل الفرض والتقدير، كما تفرض المحالات، ولذا استخدمت "إن" في الآية الكريمة على الرغم من تحقق إسرافهم.

ومثله قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ [البقرة ٢٣]، فهم في ريب قطعًا، وقد استخدمت "إن" في هذا الأمر المحقق توبيخًا لهم وإفادة أن المقام يشتمل على ما يزيله ويقلعه من أصله، وهو الآيات الدالة على أنه منزل من عند الله، فوقوع الريب منهم ينبغي ألا يكون إلا على سبيل الفرض. كما يفرض المحال..

ويرى بعض البلاغيين أن تكون الآية من قبيل تغليب غير المرتابين من المخاطبين على المرتابين منهم، لأنه كان فيهم من يعرف الحق وإنما ينكره عنادًا وتكبرًا، فجعل الجميع كأنهم لا ارتياب لديهم، ولذا استعملت فيه "إن"، على سبيل

الفرض للتبكيك والالزام^(١).

ومنه قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنٰكُمْ مِّن تَرَابٍ﴾ [الحج ٥]، فالقوم وهم الكفرة في ريب حقيقة، وقد استعملت "إن" توبيخاً ضم وإشارة إلى أن الأدلة على إمكان البعث بينة جلية، فلا ينكر وقوعه ولا يشك فيه إلا معاند أو جاهل، فحق هذا الريب الواقع منهم، ألا يوجد إلا على سبيل الفرض كما يفرض المحال.. ويمكن جعل الآية من قبيل التغليب كما في الآية السابقة..

وتأمل الآيات الكريمة: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۗ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُم مِّن بَعْدِهِ﴾ [آل عمران ١٦٠]، ﴿وَلَيْنَ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتْرَ لَمَغْفِرَةً مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةً خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [٣٧]، ﴿وَلَيْنَ مِثْمَ أَوْ قُتِلْتُمْ لِيَلِيَّ اللَّهُ تَحْتَرُونَ﴾ [٣٥]، ﴿آل عمران ١٥٧، ١٥٨..﴾ ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَلَا يَنبَغِي مَاتَ أَوْ قُتِلَ أَنْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ۗ وَمَن يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا﴾ [آل عمران ١٤٤]، نجد أن "إن" قد دخلت على أمر محقق واقع لا محالة أو مجزوم بوقوعه، وهو الموت أو القتل في سبيل الله، ونصر الله للمؤمن، ما عدا قوله تعالى: "وإن يخذلكم" فخذلانه تعالى للمؤمنين لا يقع إلا نادراً، وهو إن وقع يكون ابتلاء واختباراً ولحكمة لا يعلمها إلا هو، وعندما تفتش عن السر البلاغي الكامن وراء استعمال "إن" في الآيات الكريمة تراه دقيقاً ولطيفاً، فقله: "إن ينصركم الله" تشير إلى أن أهليتهم للنصر أمر عزيز نادر، فالله ينصر من ينصره، والذين ينصرونه هم فئة قليلة.. وقوله: "ولئن متم أو قتلتم.." تشير إلى غفلتهم وأنهم لعدم عملهم لما بعد الموت قد صاروا في حال من لا يتوقع وقوعه، وفيه أيضاً أن خلوص الموت لله مما هو عزيز نادر.. وقوله: "أفإن مات أو قتل"، تشير إلى مدى حب الصحابة لرسول الله ﷺ - وتعلقهم به إلى حد صاروا فيه كأنهم يستبعدون موته أو استشهاده في سبيل الله ويعدون ذلك نادراً عزيزاً أي: مستبعداً، وغير خاف عليك ما وقع منهم رضوان الله عليهم عندما سمعوا نبأ وفاته عليه الصلاة والسلام، وقول عمر عندما سمع الآية من أبي بكر رضي الله عنهما: "والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعرفت حتى

ما تقلني رجلاي، وحتى هويت إلى الأرض" ..

وانظر إلى قول المتنبي:

إِذَا صَرَفَ النَّهَارُ الضُّوءَ عَنْهُمْ دَجَّ اللَّيْلُ لَيْلٌ وَالغُبَارُ
وإن جُنْحُ الظَّلَامِ أَنْجَابَ عَنْهُمْ أَصْءَاءَ الْمَشْرِفِيَّةِ وَالنَّهَارُ

فهو يتحدث عن مجاهدين أثاروا الغبار وأشهرهوا السيوف، فإذا حل ظلام الليل رأيت ظلامين، ظلام الليل وظلاماً ناجماً عن الغبار المثار، وإذا انجاب ظلام الليل رأيت ضوءين، ضوء النهار، وضوء السيوف.. فذهاب الليل وحلول النهار، وذهاب النهار وحلول الليل من الأمور المحققة الثابتة، وعلى الرغم من ذلك تجد الشاعر قد استعمل "إذا" في البيت الأول مفيداً بهذا أن ذهاب النهار وحلول الليل أمر محقق ثابت الوقوع.. ثم استعمل "إن" في البيت الثاني وكأن ذهاب الليل وحلول النهار من الأمور غير المحققة التي لا تقع إلا نادراً.

ويهدف الشاعر بهذا إلى تصوير حال هؤلاء المجاهدين وأنهم مستمررون في الجهاد والقتال، فالليل ممتد متواصل والكفاح مستمر وكأنه لن يحل نهار مكان ليلهم الممتد، ولا هدوء أو سكينه مكان كفاحهم المتواصل، وإن حل ذلك ووقع فهو من الأمور النادرة، وهذا معنى دقيق أبرزه الشاعر باستخدامه "إن" في موضع "إذا" في البيات الثاني.

وكما تستخدم "إن" في موضع "إذا" فكذلك تستخدم "إذا" في موضع "إن"، تقول لمن شك في عطف الأمير، ويس من قضاء حاجته، وأخذ يقول: لا أدري أيكرمني الأمير ويتفضل على بقضاء حاجتي أم لا؟، تقول له: إذا أكرمك الأمير وقضى لك حاجتك فكيف يكون شكك..

فكرم الأمير قد تشكك فيه الرجل وتردد وجعله من الأمور النادرة غير المقطوع بوقوعها، وجعلته أنت باستخدامك "إذا" من الأمور الثابتة المحققة الوقوع، وكأنك تريد الإشعار بأنه لا ينبغي الشك في كرم الأمير وتفضله..

ومن ذلك قول أبي ذؤيب:

وَالنَّفْسُ رَاغِبَةٌ إِذَا رَغَبَتْهَا وَإِذَا تُرِدُّ إِلَى قَلِيلٍ تَقْنَعُ

فقد وضع "إذا" في الشطر الثاني موضع "إن" لسر بلاغي وهو الحث على تلك النفس وردها إلى القليل وبناء الفعل للمجهول يوحي باستبعاد من ينهض بهذا الرد، كما أن التعبير بالمضارع يوحي بأن النفس تتفلت وترغب في الكثير وأن على المرء أن يمسك بزمامها ويجدد ردها إلى القليل كلما حاولت أن تتفلت منه..

وتأمل قول الأحوص:

إِذَا زُمْتُ عَنْهَا سَلْوَةٌ قَالَ سَافِعٌ مِنْ الْحُبِّ مِيعَادُ السُّلُوكِ الْمَقَابِرِ
سَتَبْقَى هُنَا فِي مَضْمَرِ الْقَلْبِ وَالْجَسَا سَرِيرَةٌ حُبِّ يَوْمِ تُبْلِ السَّرَائِرِ

تجده يتحدث عن حب قد تغلغل بداخله، وعشق قد استقر في قلبه وأحشائه، وهو حب باقٍ ودائم لا يبلى، بل سيبقى سره يوم تبلى السرائر، ولو حاول الأحوص سلوا ناداه مناد وزجره زاجر: "ميعاد السلوك المقابر" .. فالموضع - كما ترى - موضع "إن" لأن إرادة السلو ونسيان مثل هذا الحب من الأمور غير المحققة التي لا تقع إلا نادراً، ولكن الشاعر أراد "بإذا" معنى دقيقاً، مغزاه: أن هذا الحب باقٍ حتى لو رمت سلوه وجزمت، وثبت ذلك وتكرر مني، ووقع كثيراً، وصار من الأمور المحققة المجزوم بها، حتى لو حدث هذا فحبها باقٍ لن يززع .. أي: لن يُحرك ولن يُقتلع.

وانظر إلى قول المتنبي مخاطباً سيف الدولة عندما تخلى عنه وتغير عليه:

إِنْ كَانَ سَرُّكُمْ مَا قَالَ حَاسِدُنَا فَمَا لِحُجْرٍ إِذَا أَرْضَاكُمْ أَلَمٌ

فلا يخفى عليك استخدام "إن" في الشطر الأول في موضع "إذا" واستخدام "إذا" في الشطر الثاني في موضع "إن"، وذلك لأن سيف الدولة قد ثبت وتحقق تخليه عن الشاعر، وسره ما قال حاسدوه، وهو أي سيف الدولة من هو، إنه لا يرضى لجريح أن يتألم، وقلما يرضى لمكلم أن يقاسي ألم جرحه، وكأن المتنبي بإيثاره هذا التعبير، يريد أن يقول لسيف الدولة: ما كان ينبغي لما بيننا من الألفة والمحبة

وطول الود والمخالطة، أن يكون منك هذا التغير وأن يسرك ما قال حاسدنا وأن يثبت ويتحقق رضاك بالآمي وجراحي التي ستصيبني لفراقك والبعد عنك بل كان ينبغي أن يكون ذلك من الأمور النادرة.. ويتضح لك هذا المعنى في قوله:

يَا مَنْ يَعِزُّ عَلَيْنَا أَنْ نُفَارِقَهُمْ وَجَدْنَا كُلَّ شَيْءٍ بَعْدَكُمْ عَدَمٌ

هذا وقد تدخل "إن" و"إذا" على الأمور المفروضة المحالة المجزوم بانتفائها وذلك لغرض بلاغي يقتضيه المقام.. تأمل قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ [الزخرف ٨١]، نجد أن "إن" قد دخلت على أمر مستحيل مجزوم بانتفائه وهو أن يكون للرحمن ولد تعالى عن ذلك علوًا كبيرًا، والغرض من ذلك هو إرخاء العنان للمعاندين بفرض ذلك المحال تبيكتًا لهم وتوبيخًا..

ومثله قوله تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنَ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾ [البقرة ١٣٧]، فما آمنوا به ليس له مثل، وقد فرض ذلك تبيكتًا للكفرة وتسفيهاً لأحلامهم..

وقوله جل وعلا: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال ٣٢]، فهم يعتقدون أنه باطل وقد قالوا هذا على سبيل الفرض كما يفرض المحال، وذلك لإعلان رفضهم وتمسكهم بضلالهم، فهم لن يؤمنوا بالقرآن ولو فرض كونه حقًا وتحقق هذا الفرض، فليمطروا بحجارة من السماء أو يأتيهم عذاب أليم، أما الإيذان به فلا ولن يكون منهم..

ويقول لك البخيل: إذا طرت في السماء بجناحين كالطائر أعطيتك درهمًا، يريد أن يقطع كل أمل لك في الحصول على شيء منه، فلو تحقق المحال وطررت بجناحك في الجو حصلت على درهم منه، ولكن هيهات هيهات، أي يتحقق لك هذا المحال..

مجيء الماضي لفظًا مع "إن"

قلت لك: إن "إذا" و"إن" للشرط في المستقبل، أي لتعليق حصول الجزاء على حصول الشرط في الاستقبال، فإذا دخلتا على الماضي فهو ماضٍ لفظًا مستقبل

معنى نحو: إذا جاءني الفقير أكرمته.. إن استجبت لزيد أحسن معاملتك، فالمراد بالشرط والجزاء في المثالين الاستقبال.. ولكون "إذا"، الأصل فيها أن تدخل على الشرط المجزوم بوقوعه، كان الغالب في الفعل المستعمل معها أن يكون بلفظ الماضي للإشعار بتحقق الوقوع على نحو ما مر بك في الشواهد..

أما "إن" فالأصل فيها أن تدخل على الشرط غير المجزوم بوقوعه، ولذلك ينبغي أن تدخل على المضارع فيقال إن تكرمني أكرمك، ولا يجيء الماضي مع "إن" لفظاً إلا لغرض بلاغي وهو إبراز غير الحاصل الذي يحدث في المستقبل في معرض الحاصل الذي وقع في الماضي وتحققنا من وقوعه، ويكون ذلك لأسباب عديدة نذكر منها:

إظهار التفاؤل كقولك إن ظفرنا على الأعداء تحقق الأمان. ومنها التعريض بما هو واقع كما في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ زُلْزِلْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة ٢٠٩]، فهو تعريض بالزلزل الواقع من المشركين.. ومنها: الرغبة في وقوع الشرط وحصوله، كقولك: إن نجح خالد أولم لنا.. إن قرأت البلاغة تكون لديك الذوق السليم.. ومنها: الإشارة إلى أن الفعل واقع لا محال كقولك: إن مت كان كذا.. إن زالت الشمس جاء فلان.

ومما عبر فيه بالماضي مع "إن" رغبة في تحقق الشرط وحصوله، قوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَّتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِيَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [النور ٢٣]، فالمعنى: ولا تكرهوا إماءكم على الزنا إن أردن تحصناً، والأصل: إن يردن تحصناً، فعبر بالماضي إظهاراً للرغبة في وقوع إرادة التحصن من الفتيات.. وقد عبر "بإن" دون "إذا" للإشعار بندرة إرادة التحصن بينهن وأن الكثيرات كن يفعلن ذلك عن طواعية ورغبة في البغاء..

أما فائدة تعليق النهي عن الإكراه بإرادة التحصن، المشعر بأن الإماء إذا أردن البغاء فلا نهي، فهي تبشيع هذه الصورة وحث المكروه الغاصب على أن يأنف من هذه الرذيلة.. ووجه التبشيع والحث على الانتهاء هو إقراع سمعه والنداء عليه بأن أمته خير منه، فقد آثرت التحصن على الفاحشة، وهو يأبى إلا إكراهها على

البغاء^(١).

والرغبة في وقوع الأمر وحصوله قد تقوى لدى الراغب وتشتد وتبلغ مبلغاً يتصور فيه غير الحاصل حاصلًا والمحال واقعًا، بل ويقيم عللاً يعلل بها وقوع هذا المحال الذي قويت رغبته في حصوله ووقوعه، على نحو ما نرى في قول أبي العلاء المعري:

مَا سِرْتُ إِلَّا وَطَيْفٌ مِنْكَ يَصْحَبُنِي سُرَى أَمَامِي وَتَأْوِيئًا عَلَى أَثْرِي

اشتدت رغبته في مصاحبة فتاته وملازمة طيفها له، وتصور أنه لا يسير إلا وذاك الطيف يصحبه ويتبعه ويلازمه، ويعلل عدم رؤيته إياه بأن الظلام يحول بينه وبين تلك الرؤية ليلاً "سرى أمامي" أما نهارًا فإن الطيف يتبعه ويسير وراءه "تأويئًا على أثرى" ولذا فإنه لا يراه.

ومما عدل فيه عن المضارع إلى الماضي بعد "إن" إظهارًا للرغبة في وقوع الفعل وتحققه قوله تعالى: ﴿إِنْ يَتَّقُواكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَسْطُورُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيهِمْ وَأَلْسِنَتِهِمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ [المتحنة ٢]، فقد عبر بالماضي في قوله "وودوا" لرغبة العدو وشدة حرصه على أن يقع هذا الكفر ويتحقق، فالعدو يريد أن يلحق بالمسلم مضار الدين والدنيا من قتل الأنفس وتمزيق الأعراض ورده كافرًا، ورده كافرًا أسبق المضار عند العدو وأقواها لعلمه أن الدين أعز على المسلم من روحه وأنه بذال لها دونه، ولذا كان التعبير بالماضي "وودوا لو تكفرون"^(٢).

هذا وقد تستعمل "إن" في غير الاستقبال قياسًا مطردًا، إذا كان فعل الشرط "كان" كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدًّا مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [يوسف ٢٧]، وقوله عز وجل: ﴿إِنْ كُنْتَ قَلْتَهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾ [المائدة ١١٦]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ [البقرة ٢٣]، أي: إن

(١) انظر الكشاف ج ٣، ص ٦٦.

(٢) انظر الإيضاح ج ١، ص ١٩٧. والأولى أن يكون قوله: "وودوا لو تكفرون" معطوفًا على الجملة الشرطية لا على الجواب لأن واداتهم أن يرتدوا حاصلة وإن لم يظفروا بهم. هذا ما يراه الخطيب، والزحخشري يرى الرأي الأول.. انظر الكشاف ج ٤، ص ٩٠.

حصل منكم ريب فيما مضى واستمر ذلك إلى وقت الخطاب.. وربما ورد دخولها على غير كان وهو ماض.. كما في الشواهد السابقة.

وكما في قول أبي العلاء المعري:

فَيَا وَطَنِي إِنْ قَاتَنِي بِكَ سَابِقٌ مِّنَ الدَّهْرِ فَلْيُسْنَعْمَ لِسَائِيكَ الْبَالُ

كما قد تدخل "إذا" على الماضي لفظاً ومعنى، على نحو ما ترى في قوله تعالى:
﴿ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ أَنْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴾ [الكهف ٩٦]، وعلى الماضي الدال على الاستمرار كما في قوله عز وجل:
﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنُوا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُونَ ﴾ [البقرة ١٤].

بقي أن تعلم أن هاتين الأداتين: "إن وإذا" قد تستعملان لمجرد الربط فقط كما في قوله تعالى: ﴿ إِنْ يَكْرَبْ غَيْبًا أَوْ فُقِيرًا فَلِلَّهِ أُولَىٰ بِهِمَا ﴾ [النساء ١٣٥]، ولذا ينبغي أن يقال: إن هذه الأحكام التي ذكرها البلاغيون مبنية على الأكثر والغالب، لا على القطع واليقين وأن هاتين الأداتين قد تكونان في النادر لمجرد الربط بين الشرط والجزاء، كما في الآية المذكورة^(١).

وأن تعلم أيضًا الرد على هؤلاء الذين يقولون: إذا كانت "إن" تدخل على الشرط غير المقطوع به، وإذا تدخل على المجزوم بوقوعه، فكيف تقعان في القرآن الكريم والله تبارك وتعالى عالم بحقائق الأشياء على ما هي عليه ويستحيل في حقه تعالى الشك والتردد، وكذا لا يتصور منه تعالى جزم، لأنه علام الغيوب.. والرد عليهم هين وهو أن القرآن الكريم قد نزل على مذاهب العرب في الكلام وجاء على طرقهم في التعبير والقول، ثم إن الأداتين من أدوات الشرط، فالمعنى قائم على الربط والتعليق، لا على الإخبار.

استعمال "لو"

وأما "لو" فأصلها أن تكون للشرط في الماضي مع القطع بانتفاء الشرط

(١) انظر خصائص التراكم ص ٦٤.

وانتفاء الجزاء، فهي موضوعة للدلالة على امتناع الجزاء وعلى أن امتناعه ناشئ عن امتناع الشرط.. تقول: لو جتني لأكرمك، فيدل هذا على أن الإكرام لم يحدث، لأن المجيء لم يتم، أي أن الجواب قد انتفى لانتفاء الشرط، ولذا قيل إنها حرف يفيد امتناع الجواب لامتناع الشرط..

وإذا كانت "لو" للشرط في الماضي، بمعنى أنها تدل على ارتباط مضمون الجزاء بمضمون الشرط فيما مضى، فيلزم من هذا كون جملتيها فعليتين ماضيتين، كما في قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء ٢٢]، وكقول أبي العلاء: وَلَوْ دَامَتِ الدَّوْلَاتُ كَانُوا كَغَيْرِهِمْ رَعَابًا وَلَكِنْ مَا لَهُنَّ دَوَامٌ

ولا تدخل "لو" على المضارع إلا لنكتة بلاغية، كما في قوله تبارك وتعالى: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ [الحجرات ٧]، والمعنى: لو يعطيكم في كثير من الوقائع لشق ذلك عليكم ولوقعتم في هلاك وجهد، فقد امتنع عنهم بسبب امتناع استمراره ﷺ على طاعتهم.. فتلاحظ أنه قد عدل عن الماضي إلى المضارع في الآية لقصده استمرار الفعل فيما مضى وقتاً بعد وقت، لأن المضارع يفيد الاستمرار والتجدد..

ومنه قول مجنون ليل قيس بن الملوح (ت ٦٨هـ):

وَلَوْ تَلَقَّيْتُ أَرْوَاحًا بَعْدَ مَوْتِنَا وَمِنْ دُونِ زَمَانِنَا مِنَ الْأَرْضِ سَبَسَبُ
لَقَلَّ صَدَى صَوْتِي وَإِنْ كُنْتُ رَمَّةً لِّصَوْتِ صَدَى لَيْلِي يَهْشُ وَيَطْرَبُ^(١)

عبر بالمضارع "تلتقي" للدلالة على رغبته في استمرار التقاء صدى صوتيهما بعد مماتهما، وبهذا الاستمرار يظل صدى صوته يهش ويطرب لصدى صوت ليله.

ومنه في غير "لو" قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شِيَطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُونَ﴾ [البقرة ١٤، ١٥]، فقد جاء قوله تعالى: "الله يستهزئ بهم"، بعد قول المنافقين: "إنما نحن مستهزؤون"، لأن المضارع يفيد استمرار الاستهزاء على سبيل التجدد، وهو أبلغ من الاستمرار والثبوت الذي تفيده الجملة

(١) الرمس: القبر، وسبب: امتداد واتساع.

الأسسية..

وقوله تعالى: ﴿قَوْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة ٧٩]، فلم يعبر عن الكسب بالماضي كما عبر عن الكتابة، لأن كسبهم يتجدد بخلاف ما كتبه.

وتأمل دخول "لو" على الفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمَجْرُمُونَ نَاكِسُوا رُؤُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [السجدة ١٢]، وقوله عز وجل: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْتَنَا نُرُدُّ﴾ [الأنعام ٢٧]، وقوله جل وعلا: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [سبأ ٣١]، تجد أن "لو" قد دخلت على المضارع في الآيات الكريمة لتنزله منزلة الماضي في تحقق الوقوع لصدوره عن لا خلاف في صدق إخباره كما نزل "يود" في قوله تعالى: ﴿رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ [الحجر ٢]، منزلة "ود"، لأن الفعل الواقع بعد "رب"، المكفوفة يجب أن يكون ماضيًا..

ويجوز أن يكون الغرض من التعبير بالمضارع في الآيات استحضار الصورة العجيبة صورة المجرمين وهم ناكسو الرؤوس يطلبون ردهم إلى الدنيا كي يغيروا نهجهم في الحياة ويعملوا صالحًا، وصورة الكفرة وقد وقفوا على النار، والظالمين وهم موقوفون عند ربهم، وصورة وداد الكفرة لو أسلموا، وما من ريب في أن استحضار الصورة وإبرازها أمام المخاطبين مرثية مشاهدة يكون أشد وقعًا وأبلغ تأثيرًا..

ومن استحضار الصورة قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فُسْقِنَهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيْتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [فاطر ٩]، فقد عبر عن الماضي "أثار" بالمضارع "ثير" استحضارًا لتلك الصورة البديعة العجيبة الدالة على القدرة الباهرة، وهي صورة الرياح تثير السحاب وتحركه فينقاد لها ويساق، فقد جعل المضارع الصورة حاضرة أمام الأعين، وكأنها تبصر وتشاهد.. والتعبير بالمضارع عن الماضي استحضارًا للصورة، لا يحسن إلا في الأمور الغريبة العجيبة التي يهتم برؤيتها ومشاهدتها لفظاعتها وغرابتها وشدة تأثيرها كما رأيت في الآيات الكريمة.

وكما ترى في قول تأبط شراً:

الْأَمَنْ مُبْلِعٌ فِتْيَانٌ فَهَمِ بِمَا لَاقَيْتُ عِنْدَ رَحَابِطَانِ
بِأَنِّي قَدْ لَقَيْتُ الْغُولَ تَهْوِي بِسَهْبٍ كَالصَّحِيفَةِ صَخْرًا
فَقُلْتُ هَذَا كَيْلَاتَانِ ضَوْأَرْضٍ أَخْوَسَفِرٌ فَخَلَّى لِي مَكَانِي
فَشَدَّتْ شِدَّةً نَحْوِي فَأَهْوَتْ لَهَا كَفَّى بِمَضْفُولِ يَمَانِي
فَأَضْرِبُهَا بِإِلَادَةٍ فَخَرَّتْ صَرِيْعًا لِلْيَدَيْنِ وَلِلْجِرَانِ^(١)

فهو يتحدث عن أمر غريب إذ يزعم أنه قد التقى بالغول في تلك الفلاة وتحدث إليها وطلب منها المسألة فأبت فقتلها، وتراه قد عبر بالمضارع "فأضربها" والسياق للماضي ليصور تلك الحال العجيبة التي تشجع فيها على ضرب الغول، كأنه يرينا إياها ويطلب منا مشاهدتها، تعجباً من جرأته على كل هول وثباته عند كل شدة..

ثم تأمل قوله عز وجل: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ۗ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران ٥٩]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَطَّفَهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوَىٰ بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج ٣١] تجده قد عبر بالمضارع "فيكون"، استحضاراً لتلك الصورة البديعة الدالة على القدرة الباهرة.. وفي الآية الثانية عبر بالمضارع أيضاً عن الماضي في قوله: "فتخطفه الطير أو تهوى به الريح"، إذ الأصل: فخطفته الطير أو هوت به الريح.. والغرض هو استحضار وإبراز هذه الصورة العجيبة وتصويرها مرئية ومشاهدة أمام الأعين.

(١) فهم: قبيلة الشاعر "تأبط شراً" وهذا لقب قد غلب عليه واسمه ثابت بن جابر بن سفيان.. ورحابطان اسم موضع، وتهوى بمعنى: تسرع مقبلة إلى.. والسهب: الفلاة.. والصحصحان: ما استوى من الأرض.. والضو: المهزول من كل شيء فعل بمعنى مفعول، كأنه نضى وأخرج عن لحمه من جذب الأرض، وصريراً: فعيل بمعنى مفعول يستوي فيه المذكر والمؤنث.. والجران في الأصل مقدم عنق البعير من مذبحة إلى منحره.

الفصل الرابع

أحوال متعلقات الفعل

"متعلقات" تقرأ بكسر اللام وتقرأ بفتحها، والكسر أرجح إذ يقال: تعلق المفعول بالفعل، وتعلق الجار بالمجرور بالفعل، فالمفعول متعلق بالفعل والجار والمجرور متعلق به.. والمراد بمتعلقات الفعل ما يتصل بالفعل ويتعلق به من فاعل ومفعول وجار ومجرور وظرف ومصدر وحال وتمييز وغير ذلك.. فالفعل يلابس هذه المتعلقات ويتصل بها فيتحقق بهذا الاتصال أو بتركه كثير من الأغراض البلاغية، ثم إن هذه المتعلقات يكمن وراء بنائها وتركيبها مع الفعل كثير من المزايا والدقائق اللطيفة، وعلى الدارس أن يلم بتلك المزايا، وأن يعلم كيف يقدم المتعلق على الفعل أو يتأخر عنه وما أغراض تقديمه أو تأخيره.. وإذا وجد أكثر من متعلق فكيف تصاغ الجملة؟ وما هو موضع كل متعلق فيها؟ ومتى يحذف؟.. نجد وراء ذلك كثيرًا من الأسرار والدقائق والمزايا التي ينبغي للدارس أن يقف عليها ويحيط بها.. ويلحق بالفعل في هذا ما هو بمعناه كاسم الفاعل واسم المفعول والصفة المشبهة وأفعال التفضيل وغيرها من المشتقات، ولذا ستكون دراستنا في هذا الفصل - إن شاء الله - هادفة إلى إيضاح وتجليّة الأسرار البلاغية التي تكمن وراء الصيغ والعبارات في الموضوعات التالية:

١- تقييد الفعل بالمفعول ونحوه..

٢- دراسة المفعول والمزايا البلاغية التي تكمن وراء حذفه..

٣- تقديم المعمولات على الفعل أو ما في معناه..

٤- تقديم بعض المعمولات على بعض..

وبعد ذلك سنعمد إلى دراسة ظواهر أسلوبية، وصور من خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر، وهي تعم جميع أجزاء الجملة من مسند ومسند إليه ومتعلقات الفعل.

تقييد الفعل بمفعول ونحوه

إذا أردت أن تخبر عن مجرد وقوع الحدث وحصوله، دون إشارة لفاعله الذي صدر منه أو مفعوله الذي وقع عليه قلت: وقع ضرب أو حدث مجيء أو تحقق نجاح، فتجعل مصدر الحدث فاعلاً لفعل عام، إذ مرادك أن تخبر عن وقوع الحدث وحصوله من غير إفادة تعلقه بفاعل أو مفعول أو نحوهما، فأنت في غنى عن ذكر الفاعل والمفعول.

أما إذا أردت أن تقيّد وقوع الفعل من فاعل فعليك أن تذكر ذلك الفاعل فتقول مثلاً: ضرب محمد، جاء زيد، نجح خالد.. وإذا أردت أن تقيده أي: الفعل بمفعول ونحوه، قلت: ضرب محمد اللص.. جاء زيد من البيت.. نجح عمرو في الاختبار.. اندفع خالد اندفاعاً وهكذا..

يقول عبد القاهر: "وههنا أصل يجب ضبطه وهو أن حال الفعل مع المفعول الذي يتعدى إليه حاله مع الفاعل، وكما أنك إذا قلت: ضرب زيد فأسندت الفعل إلى الفاعل كان غرضك من ذلك أن تثبت الضرب فعلاً له، لا أن تقيّد وجود الضرب في نفسه وعلى الإطلاق، كذلك إذا عدت الفعل إلى المفعول فقلت: ضرب زيد عمراً، كان غرضك أن تقيّد التباس الضرب الواقع من الأول بالثاني ووقوعه عليه.

ألا ترى أنك إذا قلت: هو يعطي الدنانير، كان المعنى على أنك قصدت أن تعلم السامع أن الدنانير تدخل في عطائه أو أنه يعطيها خصوصاً دون غيرها، وكان غرضك على الجملة بيان جنس ما تناوله الإعطاء لا الإعطاء في نفسه، ولم يكن كلامك مع من نفى أن يكون كان منه إعطاء بوجه من الوجوه، بل مع من أثبت له إعطاء إلا أنه لم يثبت إعطاء الدنانير فاعرف ذلك فإنه أصل كبير عظيم النفع.."^(١)

وذكر الخطيب أن تقييد الفعل بمفعول ونحوه إنما يكون لتربية الفائدة أي تكثيرها، تقول: ضربت فتزيد نسبة الضرب إليك ووقوعه منك، وتقول: ضربت

(١) دلالات الإعجاز ص ١٧٦، ١٧٧.

زيدًا فتفيد وقوع الضرب منك على زيد، وتقول: ضربت زيدًا ضربًا شديدًا، ضربت زيدًا ضربًا شديدًا يوم الجمعة أمام الناس، فكلما زدت قيدًا ازدادت الفائدة، وأنت لا تزيد هذه القيود هكذا عبثًا، وإنما المقام هو الذي يملئ عليك تلك الزيادة ويقتضيها، فأنت إذا أردت أن تخبر عن رؤيتك لزيد تقول: رأيت زيدًا، فإذا أردت أن تؤكد تلك الرؤية قلت: رأيت بعيني، فزيادة الجار والمجرور أفادت تأكيد الرؤية التي اقتضاها المقام^(١).

وتأمل قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ۖ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهَرُونَ مِننَ أَهْمِيَّتِكُمْ ۖ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب ٤]، تجد أن القول لا يكون إلا بالفم والقلب لا يكون إلا في الجوف، ولما كان المقام مقام إنكار وزجر لمن يظهر زوجه، قائلًا لها: "أنت عليّ كظهر أمي" ولن يجعلون الدعى ابنًا ويسوون بينه وبين الابن، فتد ذكّر هذان القيدان: "في جوفه" .. "بأفواهكم" تأكيدًا للإنكار ومبالغة في الردع والزجر..

ثم انظر إلى هذا القيد "لرجل" وتأمل فرق ما بين "ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه"، وبين "ما جعل الله من قلبين في جوف"، فستراه دقيقًا لطيفًا، لأن ذكر هذا القيد "لرجل" وتقييد الجعل به أبلغ في الإنكار وأكد في الردع والزجر، إذ المرأة قد يتصور وجود قلبين في جوفها، قلبها وقلب جنينها، وذلك عندما تكون حاملاً، أما الرجل فلا يتصور وجود قلبين في جوفه بحال من الأحوال، ولذا كان تقييد الجعل به أشد في الإنكار وأقوى في الزجر والردع..

وكذا القول في قوله تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ﴾ [النور ١٥]، فذكر هذين القيدين: "بالسنتكم" "بأفواهكم" قد أكد الإنكار والزجر، إذ الآية في سياق الحديث عن أولئك الذين خاضوا في حادثة الإفك، والتلقي لا يكون إلا باللسنة، والقول لا يكون إلا بالأفواه، فذكر هذين القيدين فيه مزيد من الإنكار والردع والتوبيخ الذي اقتضاه المقام..

واقراً في سورة الكهف قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ [الكهف ٧٥]، نجد أن زيادة الجار والمجرور "لك" فيه مزيد من تأكيد اللوم وتقديره، وقد اقتضى المقام ذلك، إذ موسى عليه السلام قد اتبع العبد الصالح "الخضر" ليتعلم منه، وقال له الخضر: ﴿ قَالَ فَإِنِ أَتَيْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّى أُحَدِّثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ [الكهف ٧٠]، ولكن موسى أنكر خرق السفينة ﴿ أَحْرَقَهَا لِيُغْرِقَ أَهْلَهَا ﴾ فذكره الخضر: ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ [الكهف ٧٢] واعتذر موسى ثم انطلقا، فلما قتل الغلام أنكر موسى مرة ثانية: ﴿ أَتَقْتُلُ نَفْسًا رَزَقْنَاهُ بِغَيْرِ نَفْسٍ؟ ﴾ فذكره: ﴿ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ [الكهف ٧٥]، نلاحظ أن القيد "لك" فيه إبراز وإيضاح وتأكيد للوم الذي اقتضاه المقام، لأن موسى قد وعد العبد الصالح - عليها السلام - ألا يسأله عن شيء يحدث، ولكنه لم يستطع صبراً، فأنكر خرق السفينة، ولامه العبد الصالح على عدم صبره، ثم أنكر قتل الغلام، فأكد العبد الصالح اللوم بالجار والمجرور "لك" ..

وبهذا يتضح - كما قلت - أن تلك القيود لا تزداد عبثاً، بل لداعٍ يقتضيه المقام، وينبغي على الدارس أن يكون بصيراً بتلك المقامات وأن يقف على معاني تلك القيود وما يكمن وراءها من دقائق، وما يكون وراء استعمالها وتقييد الفعل بها من لطائف وأسرار ..

وانظر إلى قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَدَّ إِلَهُهُ فَقَدْ هَوِيَ وَمَنْ يَضِلْ فَلَنْ يُجِدَ هَمَّ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَيَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمياً وَكُمّاً وَصُماً ﴾ [الإسراء ٩٧]، وقوله تعالى: ﴿ وباركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريتها محسن وظالم لنفسه مبين ﴾ [الصافات ١١٣]، وتأمل القيد "عليه وعلى إسحاق" وما يفيد من استعلاء البركة وإحاطتها بها، ثم قارن بينه وبين القيد في الآية الأولى "على وجوههم"، وتبين كيف أبرز ذلك القيد أولئك الكفرة وقد علوا وجوههم، إن الحرف "على" يفيد الاستعلاء ولكنه استعلاء تعظيم في آية الصافات، واستعلاء خزي وإهانة في آية الإسراء ..

وتأمل فرق ما بين اللام وعلى في الآيات الكريمة: ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ [البقرة ٢٨٦]، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ ﴾ [الأنبياء ١٠١]،

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الصافات ١٧١]، ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ قُلْنَا أَحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ مِثْلَ نَذِيرِ الْأُولِ ﴾ [هود ٤٠]،
 تجد أن "اللام" قد ذكرت عند سبق النفع و"على" قد ذكرت عند سبق الضر،
 وذلك لأنك تلاحظ في اللام معنى التملك والانتفاع وتلاحظ في "على" معنى القهر
 والاستعلاء.

لذا يقول مجنون ليلي:

عَلَىٰ أَنِّي رَاضٍ بِأَنْ أَحْمِلَ الْهَوَىٰ وَأَخْلَصَ مِنْهُ لِأَعْلَىٰ وَلَايَا
 وتأمل فرق ما بين "على" و"في" في الآية الكريمة: ﴿ أَوْلَيْتِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ
 وَأَوْلَيْتِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [البقرة ٥]، ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ
 مُّبِينٍ ﴾ [سبأ ٢٤]، ﴿ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنِ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ
 سَمْعًا ﴾ [الكهف ١٠١]، تجد أن "على" تحمل معنى العزة والارتفاع، و"في" تحمل
 معنى الذل والانحطاط، وكان المؤمن مستعل على جواد يركضه حيث شاء، والكافر
 منغمس في ظلام مرتبك فيه، لا يرى أين يتوجه..

وقد تجد في "في" معنى العزة والرفعة وذلك عندما يكون الانغماس في النعيم
 والغرفات والمقام الأمين.. كما في قوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ هُم
 جَزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ ﴾ [سبأ ٣٧].. وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ
 فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴾ [في جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ] ﴿ [الدخان ٥١، ٥٢] ففرق بين انغماس في
 جنات وعيون ومقام أمين وغرفات ورحمة. وبين انغماس في ضلال أو غطاء عن
 ذكر الله أو عذاب مهين. . تأمل: ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وَجُوهُهُمْ فِئِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا
 خَالِدُونَ ﴾ [آل عمران ١٠٧]، ﴿ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ
 مُحْضَرُونَ ﴾ [سبأ ٣٨]..

إلى غير ذلك من المعاني الدقيقة التي تراها كامنة وراء استخدام حروف الجر
 في القرآن الكريم والتركيب الجيدة.. فالمقام لا يتسع هنا لكي نفصل القول في تلك
 المعاني، ولذا سنخصصها -إن شاء الله تعالى- بدراسة مستقلة، تجليها وتبرز ما وراءها
 من دقائق وأسرار..

وشأن الجار والمجرور شأن سائر المتعلقات، فهي لا تذكر إلا إذا اقتضاها المقام ودعا إليها داع.. انظر إلى ذكر المفعول المطلق وإفادته للتأكيد في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَتِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان ٢١]، وقوله عز وجل: ﴿ فَقُلْنَا أَذْهَبْنَا إِلَى الْفُؤَمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا ﴾ [الفرقان ٣٦]، وقوله جل وعلا: ﴿ وَعَادًا وَنَمُودًا وَأَصْحَابَ الرَّيِّمِ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴾ [الفرقان ٣٨، ٣٩]، فتنقيد الفعل بالمفعول المطلق في الآيات الكريمة: "عتوا عتوا.. دمرناهم تدميراً. تبرنا تبييراً" قد أدى إلى المبالغة وتوكيد وقوع هذه الأفعال، والمقام قد اقتضى ذلك فهولاء لا يرجون لقاء الله ويطلبون إنزال الملائكة عليهم ويطلبون رؤية ربهم، وهذا عتوا ما بعده عتوا.. وأولئك قد كذبوا واستكبروا، منهم من قال: ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾ [النازعات ٢٤]، ومنهم من قال: ﴿ مَن أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ [فصلت ١٥]، ومنهم من عقر الناقة وعتا عن أمر ربه، فاستحقوا لهذا أن يضاعف لهم العذاب وأن يؤخذوا أخذ عزيز مقتدر، استحقوا أن يدمروا تدميراً وأن يتبروا تبييراً، فالمصدر قد أبرز قوة العقاب وكشف عن شدة الإهلاك..

وتأمل ذكر الحال في قوله تعالى: ﴿ فَتَبَسَّرَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا ﴾ [النمل ١٩]، وكيف أبرزت الفعل وبينت كيفية وقوعه من سليمان - عليه السلام - فهو تبسم واضح قد قوى حتى وصل إلى حد الشروع في الضحك^(١) وانظر إلى الحال في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ [الداعية ١٠] وداعية إلى الله بإذنيه وسراجاً منيراً ﴿ [الأحزاب ٤٥، ٤٦]، وكيف أفصح عن مهمة النبي ﷺ وبينت الهدف والغاية من إرسال الرسل..

وتأمل ذكر الحال في قول البحري يمدح إبراهيم بن المدبر:

ذَنُوتٌ تَوَاضَعًا وَعَلَوَتْ مَجْدًا فَسَأَلْنَاكَ أَنْخَفَاصٌ وَارْتِفَاعٌ

وكيف أبرزت ما يقصده الشاعر وبينت المراد من الدنو والعلو، ثم انظر كيف

يكون المعنى لو لم تذكر هذه الحال فقيل: "دنوت وعلوت فشأنك انخفاض وارتفاع، إن المعنى يكون ملبساً ومشكلاً.. وبهذا يتبين لك أن تلك القيود لا تذكر إلا للمعنى يقتضيه المقام ويدعو إليه الداع.

حذف المفعول

أبرز عبد القاهر الجرجاني في كتابه: "دلائل الإعجاز" ما يكمن وراء حذف المفعول به من دقائق ولطائف، وعندما ترجع إلى كتابه المذكور يتبين لك أن كل من جاء بعده من البلاغيين قد استمدوا وأفادوا من حديثه عن المفعول وتجليته لما يكمن وراء حذفه من مزايا وأسرار بلاغية.. وإليك بيان ذلك، وتفصيل القول في مزايا حذف المفعول وأسراره.

الفعل إما أن يكون لازماً وإما أن يكون متعدياً، فالفعل اللازم لا يحتاج إلى مفعول نحو فرح محمد، وسعد على، وبكى عمرو، وشقى الكافر.. ولذا لا يدخل معنا في حذف المفعول، إذ لا مفعول له أصلاً، إلا إذا عدته بالهمزة أو بالتضعيف نحو: أسعدت علياً وبكيت عمراً وأشقيت فلاناً، فعندئذ يصير الفعل متعدياً ويجري عليه ما يجري على المتعدي من أحكام..

والفعل المتعدي له مفعول يقع عليه، ولا يحذف ذلك المفعول ويرد الفعل بدونه إلا لأغراض بلاغية وأسرار دقيقة يقتضيهما المقام.. منها: أن يكون الغرض من التركيب إثبات المعنى الذي اشتق منه الفعل لفاعله أو نفيه عنه، من غير نظر إلى تعلقه بمفعول معين وعندئذ يكون الفعل المتعدي كاللازم في أنك لا ترى له مفعولاً لا لفظاً ولا تقديرًا.. تقول: فلان يحل ويعقد ويعطي ويمنع ويأمر وينهى ويضر وينفع وتقول: محمد يعطي ويجزل ويضيف ويقرى، فالمراد من ذلك إثبات المعاني التي اشتقت منها الأفعال لفاعلها دون نظر إلى تعلقها بمفعول ونحوه، وكأنك تريد: صار فلان بحيث يكون منه الحل والعقد والإعطاء والمنع، والأمر والنهي والضر والنفع والإعطاء، والإجزال والقرى والضيافة - صار أهلاً لذلك - ولو أثبت المفعول فقلت مثلاً: يعطي الذهب أو الدراهم لضاع هذا الغرض، إذ ينصرف الذهن إلى نوع المعطى لا إلى جنس الإعطاء.

ولذا فإنك عندما تريد بطي المفعول هذا الغرض، وهو إثبات المعنى في نفسه للفاعل، فإنك لا تنظر إلى المفعول المطوي، ولا تلتفت إليه، ولا تخطر ببالك، ولا تقدره إذ المقدر كالمذكور.

ومما ورد من ذلك في النظم الكريم قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [الزمر ٩] - فالمعنى والله أعلم - هل يستوي من له علم ومن لا علم له من غير أن يقصد النص على معلوم.. وقوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكٌ وَأَبْكِي ﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتٌ وَأَحْيَا ﴾ وَأَنَّهُ خَلَقَ الرُّوحَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴾ مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى ﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ النُّشْأَةَ الْأُخْرَى ﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَعْنَى وَأَقْنَى ﴾ [النجم ٤٣، ٤٤، ٤٨]، فالمراد: هو الذي منه الإضحاك والإبكاء والإحياء والإماتة والإغناء والإقناء دون قصد إلى مفعول يقع عليه الفعل. وقوله تعالى: ﴿ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ [البقرة ٢٥٨]، أي يكون منه الإحياء والإماتة دون نظر إلى من أحيا ولا إلى من أمات.. وقوله عز وجل: ﴿ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَّهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴾ [البقرة ١٧]، فالمفعول المطوي في "يبصرون" من قبيل المتروك المطروح الذي لا يلتفت إليه ولا يخطر بالبال ولا يقدر، إذ المراد وتركهم في ظلمات لا يتأتى فيها الإبصار منهم.. وقوله تعالى: ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة ٢٢]، أي وأنتم يقع منكم العلم وتتصفون به.. وقوله تعالى: ﴿ وَتَقَلَّبُ أَعْيُنُهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِمْ أَوْلَ مَرْجٍ وَنَذْرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأنعام ١١٠]، أي: وتركهم في ضلالهم يترددون حائرين متصفين بالعمه..

"وهكذا كل موضع كان القصد فيه أن يثبت المعنى في نفسه فعلاً للشيء وأن يخبر بأن من شأنه أن يكون منه أو لا يكون إلا منه أو لا يكون منه فإن الفعل لا يعدي هناك، لأن تعديته تنقض الغرض وتغير المعنى"^(١).

فمثال الإخبار بأن الفاعل من شأنه أن يكون منه الفعل قولك: هو يعطي، إذا أريد التوكيد وتقوية الحكم لا القصر، وقولك يعطي محمد ويكرم خالد.. ومثال

(١) دلائل الإعجاز ص ١٧٧.

الإخبار بأن الفعل لا يكون إلا من الفاعل قولك: هو يعطي.. هو يحل، إذا أردت بتقديم المسند إليه القصر.. ومثال الإخبار بأن الفعل لا يكون من الفاعل قولك: هو لا يعطي.. فلان لا يحل ولا يعقد..

وتأمل قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي إِلَّا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءَ وَأُبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ فسقى لهما ثم تولى إلى الظل ﴿[القصص ٢٣]، نجد أن المفعول قد طوى في أربعة مواضع، إذ المعنى وجد عليه أمة من الناس يسقون غنمهم أو مواشيهم وامرأتين تذودان غنمهما حتى يصدر الرعاء، وقالتا لا نسقى غنمنا فسقى لهما غنمهما.. ولكن هذا التقدير غير مراد فالمفعول لا يلتفت إليه في الآيات ولا يخطر بالبال ولا ينوي، لأن إرادته وتقديره يؤديان إلى خلاف المراد..

يقول عبد القاهر: "لا يخفى على ذي بصر أنه ليس في ذلك كله إلا أن يترك ذكره ويؤتي بالفعل مطلقاً، وما ذاك إلا أن الغرض في أن يعلم أنه كان من الناس في تلك الحال سقى، ومن المرأتين ذود، وأنها قالتا لا يكون منا سقى حتى يصدر الرعاء وأنه كان من موسى عليه السلام من بعد ذلك سقى، فأما ما كان المسقى أغنما أم إبلا أم غير ذلك فخارج عن الغرض وموهم خلافه وذلك أنه لو قيل: وجد من دونهم امرأتين تذودان غنمهما جاز أن يكون لم ينكر الذود من حيث هو ذود بل من حيث هو ذود غنم، حتى لو كان مكان الغنم الإبل لم ينكر الذود، كما أنك إذا قلت: مالك تمتع أخاك؟ كنت منكراً المنع لا من حيث هو منع، بل من حيث هو منع أخ.."^(١)

وقد يكون الغرض من طي المفعول والسكوت عنه إثبات المعنى في نفسه للفاعل دون قصد إلى مفعول معين إلا أن هذا الإثبات المطلق يستلزم إثباتاً مقيداً.. انظر إلى قول البحثري يمدح الخليفة "المعتز" ويعرض بالمستعين:

شَجُّوْ حَسَادِهِ وَعَظُّوْ عَدَاةَهُ أَنْ يَرَى مُبْصِرٌ وَيَسْمَعُ وَاعٍ

فالعنى: إن ما يؤلم حساده ويغيظ أعداءه أن يوجد في الدنيا من يرى ويسمع

"أن يرى مبصر ويسمع واع"، لأنه إذا وجد من يرى ويسمع، فسوف يرى قطعاً مآثره وأمجاده وسوف يسمع لا محالة عن محاسنه وسيرته، فقد اشتهرت محاسنه وذاعت مآثره بحيث لا تخفى على من يسمع ويرى، لأنها ملأت الآفاق وحلت بكل موضع، والذي يحزن حساده ويغيظ أعداءه - يعرض بالمستعين - أن يوجد من يرى ومن يسمع، لأن وجوده يستلزم أن يسمع أخبار المعتز وأن يرى فضائله ومحاسنه..

ولذا يذكر الخطيب أن الفعل مطلقاً قد جعل كناية عن الفعل مقيداً بمفعول مخصوص، إذ بين مجرد الرؤية والسماع وبين رؤية المحاسن وسماع الأخبار تلازم وارتباط^(١).

ومن جيد ذلك قول عمرو بن معد يكرب:

فَلَوْ أَنَّ قَوْمِي أَنْطَقْتَنِي رِمَاحُهُمْ نَطَقْتُ وَلَكِنَّ الرَّمَا حَ أَجْرَتِ

يصف قومه بالجبن والفرار وأنهم لم يبلوا في الحرب بلاء، ولم يصنعوا شيئاً يستحقون به الحمد والثناء فما كان منهم قد حبس لسانه وقطعه عن النطق مشيداً بهم، ولو كان منهم جهاد وبلاء حسن لنطق وأشاد به، هذا هو المعنى، وتجد الشاعر قد سكت عن المفعول وطواه في قوله: "ولكن الرماح أجرت"، لأن غرضه أن يثبت أنه كان من الرماح إجرار وحبس للألسنة عن النطق ولو قال: "أجرتني" لجاز أن يتوهم أنها أجرت لسانه هو دون السنة غيره، وأن الرماح قد صنعت شيئاً لو أبصره غير عمرو لأشاد به ونطق، فلما كان في تعديه "أجرت" ما يوهم ذلك وقف فلم يعد البتة ولم ينطق بالمفعول لتخلص العناية لإثبات الإجرار للرماح ويصحح أنه كان منها، وتسلم بكليتها لذلك^(٢).

ويرى الخطيب أن غرض الشاعر أن يثبت أنه كان من الرماح إجرار وحبس للألسنة عن النطق بمدحهم والافتخار بهم حتى يلزم بطريق الكناية

(١) انظر الإيضاح ٢١٦/١.

(٢) انظر دلائل الإعجاز ص ١٧٧.

مطلوبه وهو أنها أجرت لسانه هو، فإثبات الإجرار للرماع مطلقاً يستلزم إثباته مقيداً^(١)..

ولا يخفى عليك أن الاعتداد بالمعنى المكني به أولى وأبلغ في تحقيق مراد الشاعر من الاعتداد بالمعنى المكني عنه، ولذا كان رأي عبد القاهر أدق وعباراته وتحليلاته لطبي المفعول أولى بالقبول وما كان أغنى الخطيب عن القول بالكناية وعن ذلك التحديد القاتل للمغزى من الحذف، إن ما ذكره مستمد من كلام عبد القاهر، ومحاولة لإيجازه وتحديده ولكنه إيجاز مخل، وتحديد قد قتل روح التذوق والاستمتاع.

وتأمل طي المفعول في قول طفيل الغنوي مادحاً بني جعفر بن كلاب:

جَزَى اللهُ عَنَّا جَعْفَرَ حِينَ أَرْزَلْتُمْ بِنَا تَعْلُنَا فِي الْوِطَائِينِ فَرَزَلْتِ
أَبَاؤُنَا أَنْ يَمْلُونَا وَلَوْ أَنَّ أُمَّتَنَا ثَلَاقِي الَّذِي لَأَقْوَهُ مِنَّا لَمَلَّتِ
مُهِمُ خَلَطُونَا بِالنُّفُوسِ وَالْجَاؤَا إِلَى حُجْرَاتٍ أَدْفَأَتْ وَأَظْلَلَّتِ

فقد طوى المفعول في قوله: "ملت وأدفأت وأظلت" إذ الأصل: "ملتنا وأدفأتنا وأظلتنا"، وسبب هذا الطي هو القصد إلى إثبات الفعل للفاعل دون نظر إلى مفعول معين، وهذا ينبئ ويشير إلى أن تلك الأفعال قد بلغت حد التناهي، فالأم لو لاقت ما لا قوه بنو جعفر منهم لكان شأنها الملل.. وتلك الحجرات حجرات عظيمة معدة إعداداً طيباً ومجهزة تجهيزاً خاصاً، فشان مثلها أن يدفئ وأن يظل، كما تقول: هذا بيت يدفئ ويظل، تريد أنه بهذه الصفة ولو ذكر المفعول لما تحقق هذا المعنى الذي قصد إليه الشاعر..

واقراً تحليل عبد القاهر للسر البلاغي الكامن وراء حذف المفعول في هذه الأبيات والبيت السابق إذ يقول: "واعلم أن لك في قوله: "أجرت" و"ملت" فائدة أخرى زائدة على ما ذكرت من توفير العناية على إثبات الفعل للفاعل وهي أن تقول: كان من سوء بلاء القوم ومن تكذيبهم عن القتال ما يجز مثلها وما القضية فيه أنه لا يتفق على قوم إلا خرس شاعرهم فلم يستطع نطقاً، وتعديتك الفعل تمنع من

هذا المعنى، لأنك إذا قلت: "ولكن الرماح أجزرتني" لم يمكن أن يتأول على معنى أنه كان منها ما شأن مثله أن يجر قضية مستمرة في كل شاعر قوم، بل قد يجوز أن يوجد مثله في قوم آخرين فلا يجر شاعرهم، ونظيره أنك تقول: "قد كان منك ما يؤلم"، تريد ما الشرط في مثله أن يؤلم كل أحد وكل إنسان ولو قلت ما يؤلمني، لم يفد ذلك، لأنه قد يجوز أن يؤلمك الشيء لا يؤلم غيرك.

هكذا قوله: "ولو أن أمنا تلاقى الذي لا قوه منا مللت"، يتضمن أن من حكم مثله في كل أم أن تمل وتسأم وأن المشقة في ذلك إلى حد يعلم أن الأم تمل له الابن وتترحم به، مع ما في طباع الأمهات من الصبر على المكاره في مصالح الأولاد، وذلك أنه وإن قال "أمنا" .. فإن المعنى على أن ذلك حكم كل أم مع أولادها، ولو قلت: "لمثلتنا" لم يحتمل ذلك، لأنه يجري مجرى أن تقول: لو لقيت أمنا ذلك لدخلها ما يملها منا، وإذا قلت ما يملها منا فقيدت، لم يصلح لأن يراد به معنى العموم وأنه بحيث يمل كل أم من كل ابن.

وكذا قوله: "إلى حجرات أدفأت وأظلت" لأن فيه معنى قولك: حجرات من شأن مثلها أن تدفئ وتظل، أي: هي بالصفة التي إذا كان البيت عليها أدفاً وأظل، ولا يجيء هذا المعنى مع إظهار المفعول، إذ لا تقول: حجرات من شأن مثلها أن تدفئنا وتظلنا، هذا لغو من الكلام، فاعرف هذه النكتة فإنك تجدها في كثير من هذا الفن مضمومة إلى المعنى الآخر الذي هو توفير العناية على إثبات الفعل، والدلالة على أن القصد من ذكر الفعل أن تثبته لفاعله لا أن تعلم التباسه بمفعوله"^(١).

فأين هذا من قول الخطيب في بيان الغرض من الحذف في الأبيات: "فإن الأصل لمتنا وأدفاًتنا وأظلتنا، إلا أنه حذف المفعول من هذه المواضع ليدل على مطلوبه بطريق الكناية"^(٢).

أما حذف المفعول من قوله: "وألجأوا" إذ إن أصله: وألجأونا، فلا أرى له

(١) دلالة الإعجاز ١٨١.

(٢) الإيضاح ٢١٨/١.

غرضاً سوى مجرد الإيجاز والاختصار لأن حكمة حكم ما عطف عليه وهو قوله: "خلطونا بالنفوس" ..

وقد يقصد بحذف المفعول الإيضاح بعد الإبهام وهو غرض جليل لأن الشيء إذا أبهم تطلعت النفوس إليه واشتاتق لمعرفة فإذا ما بين بعد ذلك وقع في النفس موقعاً حسناً وترك فيها أثراً طيباً.. ويكثر هذا الحذف في مفعول المشيئة أو الإرادة الواقعة بعد "لو" و"إن" ونحوهما من أدوات الشرط، كما ترى في قوله تعالى: ﴿ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدْنَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [النحل ٩]. إذ المعنى: ولو شاء هدايتكم لهداكم أجمعين، فحذف مفعول "شاء" لدلالة جواب الشرط عليه، وفي هذا الحذف إبهام يعقبه إيضاح وتبيين، لأن المخاطب إذا سمع قوله تعالى: "ولو شاء"، تعلقت نفسه بشيء قد أبهم وهو مفعول "شاء" وتطلعت إلى معرفته، فإذا ما ذكر الجواب: "لهداكم" استبان ذلك الشيء وعرف بعد أن كان قد أبهم، ولذا كان أوقع في النفس وأبلغ وأشد تأثيراً.

وكذا القول في الآيات الكريمة: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأنعام ٣٥]... ﴿ فَإِنْ يَشَأْ اللَّهُ يُخَيِّرْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُخَيِّقُ الْحَقَّ يَكَلِّمُ مَن يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [الشورى ٢٤]... ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴾ [سورة الحديد ١٣] إن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ ﴾ [الشورى ٣٢، ٣٣]، ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى ﴾ [السجدة ١٣]، فقد حذف مفعول المشيئة في الآيات الكريمة وتقديره: لو شاء الله أن يجمعهم على الهدى لجمعهم .. فإن يشأ الله الختم على قلبك يختم .. إن يشاء الله إسكان الريح أسكنها.. ولو شئنا إيتاء كل نفس هداها لآتينها.. ولا يخفى عليك ما في حذف المفعول ثم دلالة الجواب عليه، من الإيضاح بعد الإبهام، وهذا مما يجعل المعنى يقر في النفس ويثبت ويقع منها موقعاً حسناً..

ومن ذلك قوله طرفة بن العبد:

فَبِإِنْ شِئْتُ لَمْ تُرْقَلْ وَإِنْ شِئْتُ أَرْقَلْتُ خَافَةَ مَلُوبِيٍّ مِنْ الْقَدِّ مُخْصِدٌ^(١)

(١) لم ترقل: لم تسرع. والملوي: السوط المفتول المحكم وكذلك المحصد، والقدي: الجلد المشقوق.

يتحدث عن ناقته فيقول: إن شئت الإرقال أرقلت وإن شئت عدم الإرقال لم ترقل، فطوى مفعول المشيئة في الموضعين كما ترى، وفي طيه إبهام أزاله وبينه جواب الشرط...

ومثله قول البحري:

لَوْ شِئْتُ لَمْ تُفْسِدْ سَاحَةَ حَاتِمٍ كَرَمًا وَلَمْ تَهْدِمِ مَأْتَرَ خَالِدٍ^(١)

يصف بمدوحه بأنه قد بلغ الغاية في الكرم والمجد حتى فاق شهرة حاتم وخالد فيهما، والأصل: لو شئت عدم إفساد ساحة حاتم وعدم هدم مأثر خالد لم تفسد ولم تهدم فأبهم بحذف المفعول ثم بين بجواب الشرط..

يقول عبد القاهر: "الأصل لا محالة لو شئت ألا تفسد ساحة حاتم لم تفسدها، ثم حذف ذلك من الأول استغناء بدلالته في الثاني عليه، ثم هو على ما تراه وتعلمه من الحسن والغرابة وهو على ما ذكرت لك من أن الواجب في حكم البلاغة ألا ينطق بالمحذوف ولا يظهر إلى اللفظ فليس يخفى أنك لو رجعت فيه إلى ما هو أصله فقلت: لو شئت ألا تفسد ساحة حاتم لم تفسدها، صرت إلى كلام غث وإلى شيء يمجس السمع وتعافه النفس، وذلك أن في البيان إذا ورد بعد الإبهام وبعد التحريك له أبدا لطفًا ونبلًا، لا يكون إذا لم يتقدم ما يحرك. وأنت إذا قلت: لو شئت، علم السامع أنك قد علقت هذه المشيئة في المعنى بشيء فهو يضع في نفسه أن ههنا شيئًا تقتضي مشيئته له أن يكون أو ألا يكون، فإذا قلت: لم تفسد ساحة حاتم، عرف ذلك الشيء.."^(٢)

ثم اقرأ قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا تُلُتِي عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [الأنفال ٣١]، أي: لو نشاء أن نقول مثل هذا لقلناه.. وقوله عز وجل: ﴿ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأْ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [الأنعام ٣٩] أي: من يشأ إضلاله يضلله ومن يشأ أن يجعله على صراط مستقيم

(١) حاتم هو حاتم الطائي وخالد هو خالد بن إصعق النهياني الذي نزل عليه امرؤ القيس.

(٢) دلالة الإعجاز ١٨٣.

يجعله.. فلن يخفى عليك ما في حذف المفعول من دقة وجمال مردهما إلى ما يتركه الإيضاح بعد الإبهام في النفس من وقع طيب وأثر حسن.

هذا إذا لم يكن في تعلق فعل المشيئة أو الإرادة بالمفعول به غرابة، وذلك بأن يكون المفعول من الأمور العجيبة الغريبة أو من الأمور البعيدة التي نادراً ما تقع، فإن كان الأمر كذلك وجب ذكر المفعول ليتقرر في نفس السامع ويأنس به..

انظر إلى قول أبي الهندام الخزاعي في الرثاء:

فَقَضَى وَطَرًا مِنْكَ الْحَبِيبُ الْمُوَدَّعُ وَحَلَّ الْأَذْيَ لَا يُسْتَطَاعُ فَيُدْفَعُ
وَنُوشِئْتُ أَنْ أَبْكِي دَمًا بَكَيْتُهُ عَلَيْهِ وَلَكِنْ سَاحَةُ الصَّبْرِ أَوْسَعُ

لما كان بكاء الدم من الأمور العجيبة الغريبة، وكانت إرادة الإنسان لأن يبكي دماً أعجب وأغرب، فقد ذكره الشاعر ليتقرر في نفس السامع ويأنس به، لأنه عندئذ يكون قد ذكره مرتين مرة مفعولاً للمشيئة ومرة جواباً للشرط، والشيء إذا كرر فإنه يتقرر في النفس وتأنس به وتسكن إليه خاصة وأن غرابة المفعول تقتضي هذا التقرير..

ويقول الإنسان مخبراً عن عزة نفسه، مفتخراً بعلو مكانته: لو شئت أن أرد على الأمير لرددت ولو شئت أن ألقى الخليفة كل يوم للقيته، تراه قد ذكر مفعول المشيئة لكونه من الأمور المستبعدة التي تنكرها النفس ولا تقرها بسهولة، فالأمر إذاً يحتاج إلى تقرير وتأكيد، ولذا ذكر المفعول، وكرر بذكره ثانية في الجواب..

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا خَلَقَ مَا يَشَاءُ^٤ سُبْحٰنَهُ ۗ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الزمر: ٤]، فاتخاذ الله ولداً من الأمور الغريبة العجيبة، وقد أثر النظم الكريم التعبير عن ذلك بأسلوب الشرط «لو» وهي حرف امتناع لامتناع - كما درست - ردعاً وزجراً لأولئك الذين قالوا اتخذ الله ولداً، فقد قالت اليهود عزيز ابن الله، وقالت النصراني المسيح ابن الله، وقال المشركون الملائكة بنات الله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.. فلما كان المفعول بهذه الغرابة وجب ذكره بعد الإرادة كما ترى..

أما قول أبي الحسين علي بن أحمد الجوهري أحد شعراء الصحاب بن عباد:
فَلَمْ يُبَيِّنْ بِنِّي السُّوْفُ غَيْرَ تَفَكُّرِي فَلَوْ شِئْتُ أَنْ أَبْكِي بَكَيْتُ تَفَكُّرًا

فليس مفعول المشيئة فيه غريباً، لأن المراد بالبكاء المذكور بعد "شئت": بكاء الدمع لا بكاء التفكير المذكور في الجواب، فالشاعر لم يرد أن يقول: فلو شئت أن أبكى تفكراً لبكيت تفكراً، ولكنه أراد أن يقول: أفناني النحول فلم يبق مني وفي غير خواطر تجول حتى لو شئت بكاء فمررت جفوني وعصرت عيني لسييل منهما دمع لم أجده ولخرج بدل الدمع التفكير، فالبكاء الثاني لا يصلح أن يكون تفسيراً للبكاء الأول لو حذف، ومراد الشاعر لا يتم إلا بذكر مفعول المشيئة، وليس المعنى هنا في هذا البيت كالمعنى في بيت أبي الهندام، لأن البكاء هناك في الموضوعين بكاء دم، أما هنا فالأول بكاء دموع والثاني بكاء تفكير، فلا يصلح الثاني دليلاً على الأول كما قلت.

ونظيره أن تقول: لو شئت أن تعطي درهماً أعطيت درهين، فالثاني وهو جواب الشرط لا يصلح أن يكون تفسيراً للأول وهو مفعول "شئت" لأن الأول إعطاء درهم والثاني إعطاء درهين.. ولا نبعد إذا قلنا: إن الغرابة في بيت الجوهري، في جواب الشرط "بكيت تفكراً" وأنه لغرابته لا يدل على مفعول المشيئة لو حذف، ولذا وجب ذكره حتى لا يضيع غرض الشاعر كما بينا.

وقد يقصد بحذف المفعول تهيئة العبارة لوقوع الفعل على صريح لفظ المفعول، إظهاراً للكمال العناية بوقوعه عليه..

انظر إلى قول البحترى يمدح المعتز:

فَدُطِبْنَا فَلَمْ نَجِدْكَ فِي السُّوْ دَدَوْنَا لِمَجْدٍ وَأَلْمَكَارِمِ مِّنْأَلَا

يريد أن يقول: قد بحثنا لك عن شبيه في صفاتك العالية، فأجهدنا البحث وأضنانا دون أن نعثر على هذا الشبيه، فأنت فرد في صفاتك لا نظير لك ولا مثيل.. وتجد الشاعر قد حذف مفعول طلب ليتسنى له أن يوقع نفي الوجود على صريح لفظ المثل، لأن نفي الوجود هو الأصل في المدح والغرض منه، أما الطلب فكالشيء يذكر ليبني عليه الغرض ويؤكد به أمره ولو قيل: قد طلبنا لك مثلاً في السؤدد

والمجد والمكارم فلم نجده، لوقع الفعل "طلب" على صريح لفظ المفعول، والفعل المنفي الذي هو الغرض الأصلي للمديح "فلم نجد" على ضميره، وفرق بين أن يقع الفعل على صريح اللفظ وأن يقع على ضميره، من أجل هذا حذف الشاعر مفعول "طلب"، لأن حذفه يمكنه من أن يوقع نفي الوجود على صريح لفظ المفعول.

وشيء آخر تراه وراء حذف المفعول في البيت وهو البيان والإيضاح بعد الإبهام، فحذف مفعول "طلب" قد جعل السامع يشغل به ويبحث عنه، فلما ذكر مع الفعل الثاني "فلم نجد" وقع في نفسه موقفاً حسناً، لأنه جاء والنفس متطلعة إليه ومنشغلة به.

ومزية ثالثة تجدها وراء حذف المفعول في هذا البيت وهي مراعاة الأدب في مقام المدح، فالشاعر كان حذراً ولطيفاً؛ إذ تحاشى أن يواجه الممدوح بأنه يطلب له نظيراً ويبحث عن مثيل له، بل أشار إلى ذلك إشارة خاطفة ولم يمد القول، وكأنه يريد أن يطويه سريعاً ليصل إلى الغرض الأصلي من المدح وهو نفي وجود المثل^(١).

وتأمل قول ذي الرمة يمدح بلال بن أبي بردة وينفي عن نفسه مدح اللثام:

وَلَمْ أَمْدَحْ لِأَرْضِيهِ بِشِعْرِي لَيْمًا أَنْ يَكُونَ أَصَابَ مَالًا
وَلَكِنَّ الْكِرَامَ لَهُمْ تَنَائِي فَلَا أَجْزِي إِلَى مَا قِيلَ قَالًا

تجد أنه لما كان الغرض الأصلي أن ينفي عن نفسه مدح اللثام، وكان الإرضاء تعليلاً له، فقد ذكر الشاعر المفعول في الموضوعين وذلك ليقع نفي المدح على صريح لفظ اللثيم، ويقع الإرضاء على ضميره، ولو أنه حذف مفعول "أمدح" فقال: "ولم أمدح لأرضى بشعري لثيماً، لما تحقق غرضه، ولتوهم متوهم أنه يريد أن ينفي عن نفسه إرضاء اللثيم، وأن هذا هو أصل كلامه وغرضه منه، أما "أمدح" فيكون كالشيء يذكر تبعاً ليبنى عليه الغرض، كما في بيت البحرني السابق، وليس هذا مراد الشاعر، بل مراده - كما قلت - أن ينفي عن نفسه مدح اللثام ليوقع في نفس ممدوحه أن ما يسمعه من شعره لا يعرف إلا الكرام وأنه ليس موكلاً إلا بهم..

فالمقام في بيت البحري قد اقتضى أن يحذف مفعول "طلب" ليقع نفي الوجود على صريح لفظ المثل، واقتضى في بيت ذي الرمة أن يذكر مفعولا "أمدح وأرضي"، ليقع نفي المدح على صريح لفظ اللئيم.. فكل من الحذف والذكر قد هيا العبارة ليقع الفعل الأصلي على صريح لفظ المفعول.

وقد يقصد بحذف المفعول دفع توهم غير المراد ابتداء، ووقوع المعنى الذي يريده المتكلم في نفس مخاطبه من أول الأمر كما في قول البحري يمدح أبا الصقر الشيباني في قصيدته التي مطلعها:

أَعْنُ سَفَهَ يَوْمَ الْأُبَيْرِقِ أَمْ حَلِمَ وَوُفِّ بِرْبُعٍ أَوْ بُكَّاءٍ عَلَى رَسْمِ

قال مخاطباً أبا الصقر:

وَكَمَ ذُذَّتْ عَنِّي مِنْ تَحَامُلِ حَادِثٍ وَسَوْرَةَ أَيَّامٍ حَزَزْنَ إِلَى الْعَظْمِ

يريد أن يقول إن الممدوح طالما دفع عنه عوادي الزمن، ورد عنه طغيان أيام ضربته فأوجعته، حتى بلغت في قسوتها الغاية، فقوله "حززن إلى العظم" كناية عن بلوغها الغاية في الشدة.. وتلاحظ أن الشاعر قد حذف مفعول "حز" وتقديره حززن اللحم إلى العظم وهو يريد بهذا الحذف أن يقع المعنى في نفس السامع ابتداء، إذ لو ذكر المفعول فقال: "حززن اللحم" لتوهم أن الحز كان ضعيفاً وأنه أصاب بعض اللحم مما يلي الجلد ولم يصل إلى العظم، فما دفعه عنه الممدوح إذاً شيء يسير، وليس سورة أيام وأحداثاً قد تحاملت عليه، فإذا ما وصل السامع إلى قوله: "إلى العظم" اندفع هذا التوهم وزال، ولكن الشاعر الحاذق هو الذي يوقع المعنى في ذهن سامعه من أول وهلة ولا يجعله يتصور في أول الأمر شيئاً غير مراد ثم ينصرف إلى المراد.

يقول عبد القاهر: "الأصل لا محالة: "حززن اللحم إلى العظم" إلا أن في مجيئه به محذوفاً وإسقاطه له من النطق وتركه في الضمير، مزية عجيبة وفائدة جلييلة، وذلك أن من حذق الشاعر أن يوقع المعنى في نفس السامع إيقاعاً يمنعه به من أن يتوهم في بدء الأمر شيئاً غير المراد ثم ينصرف إلى المراد، ومعلوم أنه لو أظهر المفعول فقال: "وسورة أيام حززن اللحم إلى العظم" لجاز أن يقع في وهم السامع

إلى أن يجيء إلى قوله: "إلى العظم" أن هذا الحز كان في بعض اللحم دون كله، وأنه قطع ما يلي الجلد ولم ينته إلى ما يلي العظم، فلما كان كذلك ترك ذكر اللحم وأسقطه من اللفظ ليبرئ السامع من هذا ويجعله بحيث يقع المعنى منه في أنف الفهم "أي: في أوله لأن أنف الشيء أوله" ويتصور في نفسه من أول الأمر أن الحز مضى في اللحم حتى لم يرده إلا العظم.."^(١).

وقد يحذف المفعول لإرادة التعميم والامتناع عن أن يقصره السامع على ما يذكر دون غيره. انظر إلى قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوًا إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ﴾ [يونس ٢٥]، نجد أن المفعول قد حذف لإفادة العموم وأن الدعوى ليست مقصورة على أحد دون آخر بل تتعدى إلى كل من تتأتى دعوته فالمراد - والله أعلم - يدعو كل أحد تصلح دعوته إلى الجنة..

وتقول لصاحبك. قد كان منك ما يؤلم، أي: ما الشأن في مثله أن يؤلم كل أحد فحذفك المفعول أفاد التعميم مبالغة في إيلاص ما كان منه، فهو من الشدة بحيث يؤلم كل أحد ولو ذكرت المفعول فقلت: قد كان منك ما يؤلمني، لفاتت تلك المبالغة المطلوبة..

وتأمل قول البحرني:

إِذَا بَعُدَتْ أَبْلَتْ وَإِنْ قَرَبَتْ شَفَّتْ فَهَجْرَاتُهَا يُبْلِي وَلُقْيَانُهَا يَشْفِي

تجده قد حذف المفعول في أربعة مواضع والتقدير: إذا بعدت عني أبلتني وإن قربت مني شفتني فهجراتها يبليني ولقيانها يشفيني.

والحذف - كما ترى أفاد المبالغة وعموم الفعل، وصور أن بعدها يبلي كل أحد فهو البلى والداء المضني، وأن قربها ولقيانها هو الشفاء والبرء من كل داء..

واقراً قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾

[الحجرات ١].

يقول الزمخشري: وفي قوله تعالى: "لا تقدموا" من غير ذكر المفعول وجهان:

أحدهما: أن يحذف ليتناول كل ما يقع في النفس مما يقدم.

والثاني: ألا يقصد قصد مفعول ولا حذفه ويتوجه بالنهي إلى نفس التقديم، كأنه قيل: لا تقدموا على التلبس بهذا الفعل ولا تجعلوه منكم بسبيل كقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي نَحْيِي وَيُحْيِي﴾ [غافر ٦٨]، ويجوز أن يكون من قدم بمعنى تقدم^(١).

وقد يحذف المفعول حتى لا يقع عليه الفعل وذلك لمزية بلاغية وهدف يقصد إليه المتكلم.. انظر إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِذْ يَتَخَذُونَكَ إِلَّا هُزُؤًا أَهْذًا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان ٤١]، فالأصل: أهذا الذي بعثه الله رسولا، فحذف المفعول وهو الضمير العائد إلى النبي ﷺ، وهذا الحذف ينبئ بحقد المشركين على النبي صلوات الله وسلامه عليه، ويصور مدى كراهيتهم له، حتى كأنهم لا يطبقون النطق بالبعث واقعا عليه، فهم يتحاشون مجرد النطق بالبعث منسوبا إليه، فضلا عن الإيذان بذلك وتصديقه..

وخذ قوله تعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رُبُّكَ ﴿٣﴾ وَمَا قَلَىٰ ﴿٤﴾﴾ [الضحى ١، ٢] فقد حذف المفعول وهو الضمير العائد إلى النبي ﷺ، والتقدير: وما قلاك، وذلك لصونه عن نسبة القلى إليه وتحاشيا لوقوع الفعل "قلى" على ضمير المخاطب ولو كان هذا الفعل منفيًا، لأن في ذلك ما يوحش، بخلاف "ودعك" فليس التوديع كالقلى وحذف المفعول في الآية له مزية أخرى وهي رعاية الفاصلة والمحافظة على التنغيم الصوتي لما له من قوة تأثير في النفوس وذلك عندما يقتضيه المقام ويتطلبه المعنى، وهذا هو شأن الفواصل في النظم الكريم، فهي تأتي تابعة للمعنى ومحقة لما يقتضيه المقام، وعندما يتطلب المعنى، ويقتضي المقام التخلي عن تابع الفواصل تجد الفاصلة قد قطعت، وما يقتضيه المعنى قد أقر وأثبت^(٢).

واقرا قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ﴿١﴾ قِيمًا يُبَدِّلُ بِأَسَا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا

(١) الكشف ٥٥٢/٣.

(٢) هذا وكثير من البلاغيين لا يرتضى أن تكون رعاية الفاصلة علة بلاغية لأنها - كما يقولون - علة لفظية والأسلوب القرآني قد بنى على مراعاة المعاني لا الألفاظ وهذا ليس بشيء لأن الفواصل - كما قلت - تابعة للمعنى وخاضعة لما يقتضيه المقام.. راجع في ذلك النكت للرماني ص ١١ وما بعدها وخصائص التراكيب ص ٢٨٧ وما بعدها.

حَسَنًا ﴿١﴾ [الكهف ١، ٢] فقد حذف مفعول "لينذر" والأصل: لينذر الذين كفروا بأسًا شديدًا، وذلك حتى لا يقع الإنذار على الذين كفروا فيكون في هذا تنفير لهم من قبول الهدى والإذعان للحق... فحذف المفعول فيه ترغيب لهم في قبول الهداية والإيمان، واستمالة لهم نحو الحق والنور المبين.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف ١٤٣] فالمراد - والله أعلم - أرنى ذاتك فحذف المفعول حتى لا تقع عليه الرؤية، إذ الذات العلية لا تقع عليها الرؤية المحيطة كما تقع على الأشياء، وإنما هي تجليات، ولذا قال موسى - عليه السلام - "رب أرنى" وأمسك ليفيد قصده دون أن تقع الرؤية على الذات الإلهية، لأن هذا شيء ولا يليق بالجلال، ففي مثل هذه الأمور الهائلة وفي تلك المقامات الربانية ينبغي أن يكون الطلب تلميحًا وإيحاء ولا يليق أن يكون صريحًا مكشوفًا^(١).

وقد يحذف المفعول استهجانًا لذكره والتصريح به، كما ترى في قول عائشة - رضي الله عنها -: "كُنْتُ أَعْتَسِلُ أَنَا وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ إِنَاءٍ وَاحِدٍ فَمَا رَأَيْتُ مِنْهُ وَلَا رَأَى مِنِّي"^(٢). فقد حذف المفعول استهجانًا للتصريح به..

وقد يحذف لمجرد الاختصار والإيجاز حيث تدل عليه القرينة دلالة بينة جلية فيعد ذكره عندئذ عبثًا، كما تقول: أصغيت إليه، تريد أذني، وأغضيت عنه: تعني: بصري.. ومنه قوله جل وعلا: ﴿قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء ١١٠]، فالدعاء في الآية بمعنى التسمية والأصل: قل ادعوه الله أو ادعوه الرحمن، فحذف المفعول إيجازًا واختصارًا..

وقد يحذف لتعينه كما في قولك: نحمد ونشكر، تريد: نحمد الله ونشكره، فتسكت عن ذكر لفظ الجلالة لتعينه وانصراف الفعلين له تعالى.

وقد يحذف لصون لسانك عن النطق به، كما تقول: لعن الله وأخزي، تريد:

(١) انظر خصائص التراكم ص ٢٨٥.

(٢) رواه البخاري في الغسل برقم [٢/ ٢٥٠] ومسلم في كتاب الحيض برقم [٤٣/ ٣٢١] وغيرهما من أصحاب السنن.

الشیطان، فتحذفه صوتاً للسانك عن النطق به.. إلى غير ذلك من الأسرار الدقيقة التي تراها كامنة وراء طي المفعول وإسقاطه والسكوت عنه، فهي لا تخفى على صاحب الذوق السليم، ذي الطبع العربي القويم، عندما يقرأ وينظر في التراكيب الجيدة والأساليب الرفيعة.



تقديم المفعول ونحوه من المتعلقات على العامل

وتقديم المفعول ونحوه من المعمولات كالجار والمجرور والظرف والمصدر والحال على العامل يفيد غالباً الاختصاص، أي: قصر العامل المؤخر على معموله المقدم، تقول: زيذاً أكرمت، وبمحمد مررت، وضاحكاً جاء زيد، وإشفاقاً أعطيت. إلخ. فتفيد بذلك قصر الإكرام على زيد، والمرور على كونه بمحمد، وقصر مجيء زيد على هيئة الضحك، وإعطائك على كونه من أجل الإشفاق..

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة ٥]، أي: نخصك بالعبادة فلا نعبد غيرك، ونخصك بالاستعانة فلا نستعين إلا بك، فتقديم المفعول "إياك" في الموضعين قد أفاد القصر أي: قصر العبادة والاستعانة عليه تعالى..

وكذا القول في الآيات الكريمة: ﴿وَلَيْنَ مُتَمِّمٌ أَوْ قُتِلْتُمْ لِإِلَهِ اللَّهِ تُخَشِرُونَ﴾ [آل عمران ١٥٨].. ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [التوبة ١٣٩].. ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة ١٧٢]..، فتقديم المعمولات: "إلى الله.. عليه.. إياه" في الآيات الكريمة قد أفاد الاختصاص..

ومن ذلك قول شوقي:

بالعلم والمالِ يَبْنِي النَّاسُ مُلْكَهُمْ لَمْ يُبْنَ مَلِكٌ عَلَى جَهْلٍ وَإِقْلَالِ

وقوله أيضاً:

على الأخلاقِ خُطُّوا المَلِكُ وَابْتُورَا فليسَ وراءَها لِلعِزِّ رُكُونُ

فتقديم الجار والمجرور "بالعلم" "على الأخلاق" أفاد قصر بناء الملك على كونه بالعلم والمال وعلى الأخلاق.. ومثله قول المُرَّار بن سعيد الفُقَعِيَّي (شاعر أموي):

إِذَا شِئْتُ يَوْمًا أَنْ تَسُودَ عَشِيرَةٌ فَبِالْحِلْمِ سُذْلًا بِالسُّرْعِ وَالسُّتْمِ

فقد قصرت السيادة في البيت على الحلم بحيث لا تتعداه إلى التسرع والشتم.. كما قصر بناء الممالك وخطها في بيتي شوقي على العلم والمال وعلى الأخلاق فليس وراءها للعز ركن.. والعامل المقدر في ذلك كالمذكور، فقولك: زيدًا عرفته، إن قدر المفسر بعد المنصوب أي: زيدًا عرفت عرفته أفاد التخصيص، وإن قدر قبله أي: عرفت زيدًا عرفته، أفاد التوكيد وتقوية الحكم.

أما قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ ﴾ [فصلت ١٧]، في قراءة من قرآن بنصب "ثمود" فلا يفيد إلا الاختصاص. لأنه لا يتأتى أن يقدر المفسر قبل المنصوب، فلا يقال: أما فهدينا ثمود لوجوب الفصل بين "أما" والفاء، هذا ما قرره العلماء، والذي أراه أن الذي يمتنع هو ذكر المفسر أما تقديره فجائز لأن من المقدر مالا يصح ذكره كالضمير المستتر وجوبًا..

ولكون تقديم المعمول على عامله يفيد غالبًا الاختصاص، كان من الخطأ أن تقول: ما زيدًا ضربت ولا غيره، لأن تقديم المفعول وإيلاء أداة النفي أفاد نفي الضرب عن زيد وإثباته لغيره، فقولك بعده: "ولا غيره" يناقضه ويدفعه، أي أن عجز الجملة يتناقض مع صدرها، ونحوه قولك: ما بهذا أمرتك ولا بغيره لأن قولك: "ما بهذا أمرتك" أفاد نفي الأمر عن الجار والمجرور المقدم وإثباته لغيره، وقولك بعده: "ولا بغيره" يناقضه، والصواب أن يقال: ما ضربت زيدًا ولا غيره، ما أمرتك بهذا ولا بغيره، بدون تقديم أو يقال: ما زيدًا ضربت بل عمرًا.. ما بهذا أمرتك لكن بغيره..

وكذا من الخطأ أن تقول: ما زيدًا ضربت ولكن أكرمت لأن تقديم المفعول أفاد نفي الضرب عن زيد وإثباته لغيره، وقولك: "ولكن أكرمت" رجوع عن إثبات الضرب لغير زيد، فالصواب أن تقول: ما ضربت زيدًا ولكن أكرمته أو

تقول: ما زيدًا ضربت ولكن عمرًا، فاعرف هذا فإنه دقيق، وهو مبني كما قلت لك على إفادة التقديم للاختصاص..

وتأمل قوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة ١٤٣] تجد أن الجار والمجرور قد أخرج عن شبه الفعل في قوله: "شهداء على الناس". وقدم عليه في قوله: "عليكم شهيدًا"، وذلك لأن الغرض في الأول إثبات شهادتهم على الأمم دون إفادة اختصاصهم بتلك الشهادة، وفي الثاني المراد إفادة اختصاصهم بكون الرسول ﷺ شهيدًا عليهم، وليس مجرد إثبات شهادته.

يقول الزمخشري: "روى أن الأمم يوم القيامة يتحدثون تبليغ الأنبياء، فيطالب الله الأنبياء بالبينه على أنهم قد بلغوا وهو أعلم، فيؤتى بأمة محمد -ﷺ- فيشهدون، فتقول الأمم من أين عرفتم؟ فيقولون علمنا ذلك بإخبار الله في كتابه الناطق على لسان نبيه الصادق، فيؤتى بمحمد -ﷺ- فيسأل عن حال أمته فيزيكهم ويشهد بعدالتهم وذلك قوله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء ٤١].. وقيل لتكونوا شهداء على الناس في الدنيا، فيما لا يصلح إلا بشهادة العدول الأخيار ويكون الرسول عليهم شهيدًا يزيكهم ويعلم بعدالتكم، فإن قلت: لم أخرت صلة الشهادة أولاً وقدمت آخرًا؟ قلت: لأن الغرض في الأول إثبات شهادتهم على الأمم، وفي الآخر اختصاصهم بكون الرسول ﷺ شهيدًا عليهم" (١).

واقراً قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم ٢٧]، وقوله عز وجل ﴿ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ ﴾ [مريم ٩] تجد أن الجار والمجرور قد أخرج في الآية الأولى، لأنه لا معنى للدلالة على الاختصاص فيها، إذ كون الإعادة أهون من البدء أمر مسلم به لا ينكره أحد.. أما في الآية الثانية فقد قدم الجار والمجرور للدلالة على الاختصاص، لأن المقام يقتضي ذلك.. لأن ولادة العاقر التي بلغ بعلمها من الكبر عتياً مما ينكر ويستبعد.

يقول الزمخشري: "فإن قلت: لم أخرت الصلة في قوله: "وهو أهون عليه"، وقدمت في قوله: "هو على هين"؟ قلت: هناك قصد الاختصاص وهو محزه فقيل: هو على هين وإن كان مستصعباً عندكم أن يولد بين هرم وعافر، وأما ههنا فلا معنى للاختصاص، كيف والأمر مبني على ما يعقلون من أن الإعادة أسهل من الابتداء، فلو قدمت الصلة لتغير المعنى..."^(١).

وقد يفيد التقديم بالإضافة إلى الاختصاص مزية أخرى وهي المحافظة على الفواصل والاستمرار في التنغيم الصوتي، على نحو ما ترى في قوله تعالى: ﴿ خُدُّوهُ فَعَلُّوهُ ۝ نُمُّ الْجَحِيمِ صَلُّوهُ ۝ نُمُّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ۝ ﴾ [الحاقة ٣٠-٣٢]، فتقديم المفعول: "الجحيم" والجار والمجرور: "في سلسلة" يفيد الاختصاص والمحافظة على الفاصلة واستمرار النغم الصوتي المؤثر في الأنفس، ومثله قوله تعالى: ﴿ يَأْتِيهَا الْمُدَّثِرُ ۝ قَدْ فَأَنْذِرُ ۝ وَرَبِّكَ فَكَبِيرٌ ۝ وَتِيَابِكَ فَطَهْرٌ ۝ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرُ ۝ ﴾ [المدثر ١-٥]..

وقد يقدم المعمول لكونه محل الإنكار، كما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَعْيَرَ اللَّهُ أَنْبِيَ رِبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ۝ ﴾ [الأنعام ١٦٤]، فمحل الإنكار هو كون غير الله بمثابة أن يبغى رباً ولذا قدم فولى همزة الاستفهام.

ومن ذلك قول الشاعر:

أَبْعَدَ الْمَشِيبِ الْمُتَقْضِي فِي الذَّوَائِبِ مُحَاوِلٌ وَضَلَّ الْغَايَاتِ الْكَوَاعِبِ؟
فموضع الإنكار هو كون محاولة الوصل بعد ظهور المشيب في الذوائب ولذا قدم الظرف "بعد" فولى الهمزة.

ومثله قول القاضي عياض:

أَبْعَدَ نَذِيرِ الشَّيْبِ إِذْ حَلَّ عَارِضِي صَبَوْتُ بِأَخْدَاقِ أَمَمَهَا وَسُيْتُ
فقد قدم الظرف: «بعد» في البيتين لكونه موضع الإنكار، فالأول لا ينكر

محاولة وصل الغاينات الكواعب، وعباض لا ينكر صبوته بأحداق المها وسبيهن له، وإنما ينكران أن يكون ذلك بعد المشيب وبعد نذير الشيب.

وقد يكون التقديم للتوكيد والاهتمام بالمقدم وتقوية الحكم كما في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا السَّاهِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿٩﴾﴾ [الضحى ٩، ١٠] فتقديم "اليتيم" و"السائل" لتأكيد النهي وتقرير الحكم إذ لا معنى لقصر النهي عن القهر على اليتيم والنهي عن النهر على السائل ولا يخفى عليك ما وراء التقديم من مجيء الفاصلة في الآيتين على حرف الراء، وما ينبىء به ذلك من شدة الزجر وقوة التحذير..
وتقول: عن الصلاة لا تغفل.. الزنا لا تقرب، فيفيد التقديم المبالغة في النهي وشدة التحذير.

تقديم بعض المتعلقات على بعض

الأصل في صياغة الكلام وبناء الجمل وتأليف العبارات أن يتقدم الفاعل على المفعول ونحوه من المتعلقات، وأن يتقدم المفعول الأول على الثاني والثاني على الثالث فيقال مثلاً: أكرم محمد خالدًا، وأعطى حاتم الفقير درهماً، وأعلمت عمراً ابنه ناجحاً..

وقد يخالف هذا الأصل فيقدم أحد المتعلقات على الفاعل أو تقدم بعض المتعلقات على بعض وذلك لأسرار بلاغية يقصد إليها البلاغي ويقتضيها المقام، فإذا كان الغرض من الكلام معرفة وقوع الفعل على المفعول وانشغل الناس بذلك قدم المفعول على الفاعل فيقال مثلاً: قتل الخارجي عمرو، وأمسك بالمجرم الشرطي، وذلك لأن الناس منشغولون بأمر الخارجي والمجرم، والغرض من الكلام متوجه إليهما..

وتأمل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مَرَبَ إِمْلَقِي نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَهُمْ ﴿١٥١﴾﴾ [الأنعام ١٥١]، وقوله عز وجل: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ حَسْبِي إِمْلَقِي نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَهُمْ ﴿٣١﴾﴾ [الإسراء ٣١] تجد في الآية الأولى: "نحن نرزقكم وإياهم" قد قدم ضمير المخاطبين على ضمير الأولاد وفي الآية الثانية "نحن نرزقهم وإياهم" قدم ضمير الأولاد على ضمير المخاطبين، وسبب ذلك أن الخطاب في الأولى للفقراء بدليل قوله تعالى: "من

إملاق"، فكان رزقهم أهم عندهم من رزق أبنائهم، إذ هم في حاجة إليه، ولذا قدم الوعد برزقهم على الوعد برزق أولادهم والخطاب في الثانية للأغنياء بدليل قوله تعالى "خشية إملاق"، فإن الخشية إنما تكون مما لم يقع، فكان رزق أولادهم هو المطلوب دون رزقهم، لأنه حاصل، ولذا قدم الوعد برزق أولادهم على الوعد برزقهم..

وانظر إلى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾ [الأنعام ١٠٠]، فقد قالوا: إن مفعولي "جعل" قوله "الله شركاء" وقال آخرون: "الجن" مفعول أول و"شركاء" مفعول ثان، وعلى كلا الرأيين فقد قدم "الله" المفعول الثاني "لجعل" أو متعلق المفعول الثاني - على الرأي الآخر - قدم على المفعول الأول، وذلك لأن تقديمه أبلغ في الإنكار وأقوى في الردع والزجر.. وتأمل: "وجعلوا لله شركاء الجن". وجعلوا الجن شركاء لله. فسوف ترى بعد ما بين القولين، إن محل الإنكار وموضع العناية والغرض من الكلام هو الجار والمجرور "الله" ولذا قدم ليكون الزجر أقوى والتحذير أشد..

واقراً قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَّآبَاءُنَا إِنَّمَا لَمْخْرَجُونَ ﴿٨١﴾ لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَّآبَاءُنَا مِنْ قَبْلُ ﴿[النمل ٦٧، ٦٨]، وقوله عز وجل: ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴿٨٢﴾ قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِذْنَا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٣﴾ لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَّآبَاءُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [المؤمنون ٨١-٨٣] تجد في الآية الأولى: "وعدنا هذا نحن وآباؤنا" وفي الثانية: "وعدنا نحن وآباؤنا هذا"، وذلك لأن السياق في الآية الأولى يبنى بأن مصب الإنكار وموضعه والجهة التي نظر إليها الكفرة وقصدوها بإنكارهم إنما هي البعث، فبعثهم وإخراجهم بعد موتهم وصيروتهم تراباً هم وآباؤهم هو الغرض الذي تعمد بالكلام وقصد: "أإذا كنا تراباً وآباؤنا إنما لمخرجون"؟ ولذا قدم اسم الإشارة المشار به إلى البعث، إذ هو الغرض المقصود والمساق له الكلام.. أما في الآية الثانية، فالسياق يبنى بمدى تمسكهم بعقائد الآباء وحرصهم على محاكاتها وتقليدهم فيها، فموضع الإنكار ومصبه، والجهة المنظور منها هي المبعوثون لا البعث في سياق

الحديث والغرض الذي تعمد به وقصد: "بل قالوا مثل ما قال الأولون. قالوا إذا متنا وكنا ترابًا وعظامًا إنا لمبعوثون" ولذا قدموا هم وآباؤهم على اسم الإشارة المشار به إلى البعث.. "وعدنا نحن وآباؤنا هذا".. فلما كان الغرض المقصود في الآية الأولى هو البعث قدم اسم الإشارة ولما كان الغرض المقصود في الآية الثانية هم المبعوثون قدم ما يدل عليهم "نحن وآباؤنا".. كما أن وراء تقديم اسم الإشارة في الآية الأولى وتأخيره في الثانية غرضين آخرين، أولهما المحافظة على النسق القرآني في الآيتين، وثانيهما الإشارة إلى البعث في الآية الأولى حيث صاروا ترابًا، أما في الأخرى فقد صاروا ترابًا وعظامًا^(١).

وقد يكون الغرض من تقديم أحد المعمولات على الآخر هو أن تأخيره يخل بالمعنى ويوهم خلاف المراد، كما في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ﴾ [غافر ٢٨]، فقد وصف الرجل بثلاث صفات: الإيثار، وكونه من آل فرعون، وكتمانه إيثانه، وقدم "من آل فرعون" على "يكتُم إيثانه" لأنه لو أخرج فصيل: وقال رجل مؤمن يكتُم إيثانه من آل فرعون، لتوهم أنه متعلق بالفعل "يكتُم"، وأن الرجل يكتُم إيثانه خوفًا من آل فرعوه، وفي هذا إخلال بالمعنى المراد، إذ لا يفهم منه عندئذ أن الرجل كان من آل فرعون، بل يتوهم أنه كان يكتُم إيثانه خوفًا منهم، وفي هذا إخلال - كما قلت - وضياح للهدف والغرض من الآيات، إذ المراد إبراز عناية الله تعالى، ورعايته لموسى -عليه السلام- بأن جعل من آل فرعون من يدافع عنه ويمجاهم فيه ويناقشهم من أجله..

وتأمل قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنَ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ آلِ أَخْرَةِ وَأَتَرَفْنَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ [المؤمنون ٣٣]، وقوله عز وجل: ﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ [المؤمنون ٢٤]، تجذ الآية الأولى قد قدم فيها الجار والمجرور "من قومه" على صفة الملاء وهي: "الذين كفروا وكذبوا.."، وذلك لأنه لو أخرج فصيل: "وقال الملاء الذين كفروا، وكذبوا بقاء

(١) انظر الكشاف ٤٠/٣ والإيضاح ٢٣٤/١.. وارجع إلى إيضاح هذين الغرضين في كتابنا: من بلاغة النظم القرآني في باب التقديم.

الآخرة وأترفناهم في الحياة الدنيا من قومه"، لتوهم أنه من صلة الدنيا، وأن المعنى وأترفناهم في الحياة الدنيا من قومه أي: القريبة منهم، وبذا يكون القائلون ليسوا من قومه. فدفعنا لهذا التوهم قدم الجار والمجرور، وقد نشأ التوهم من طول الصفة بالصلة وما عطف عليها كما هو واضح. أما في الآية الثانية فليس فيها ما يوهم خلاف المراد، لعدم طول الصفة، ولذا تأخر الجار والمجرور فلم يقدم على الصفة.

وقد يكون الغرض الدلالة على الاختصاص كما في قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ [النساء ٧٩]، فتقديم الجار والمجرور "للناس" على "رسولاً" دل على اختصاص رسالته ﷺ بشموها الناس كافة، واللام في الناس للاستغراق ولا يصح أن تكون للعهد ولا للجنس.

وقد يقدم أحد المتعلقات لإفادة التبيكيت والتوبيخ، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْتَفْهِمُونَ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٢١﴾﴾ [يس ٢٠]، حيث قدم الجار والمجرور "من أقصى المدينة" على الفاعل "رجل"، لأن في هذا التقديم زيادة في تبيكيت أولئك القوم وتوبيخهم فقد كانوا قريين من الرسل، وشاهدوا منهم ما لم يشاهده ذلك الرجل الذي كان في أقصى المدينة، وعلى الرغم من ذلك، فقد جاء ينصح لهم بما لم ينصحوا به أنفسهم..

واقراً قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [القصص ٢٠]، نجد أن الجار والمجرور لم يقدم على الفاعل كما قدم في الآية السابقة، لأن المقام لم يقتض التقديم هنا كما اقتضى هناك.. إذ المراد أن يعلم موسى نبأ الاثم دون قصد لمعنى آخر..

وتأمل قوله تعالى: ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنَّي أَخَافُ أَنَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة ٢٨]، نجد أن تقديم الجار والمجرور على المفعول في قوله: "بسطت إلى يدك" أفاد أنه كان حريصاً على قتل أخيه، وأن جل اهتمامه متوجه إليه، إلى قتل الأخ لا إلى مطلق القتل، وفي هذا من التوبيخ والتبيكيت ما فيه. وفيه أيضاً تنبيه إلى ما هو مقبل عليه من خطأ ودعوى له أن يتأمل فيرتدع وينزجر ويكف عن قتل أخيه، وانظر إلى الأداة "إن" وإيثار التعبير بها وما ينبىء به ذلك من

أن بسط اليد لقتل الأخ ينبغي أن يكون من الأمور المستبعدة النادرة الوقوع.. أما قوله: "ما أنا بباسط يدي إليك"، فقد أخرج فيه الجار والمجرور "إليك" عن المفعول "يدي" لأنه ليس حريصاً على قتل أخيه، بل ليس ممن يصدر عنه القتل مطلقاً، وينبئ بهذا أسلوب القصر: "ما أنا بباسط يدي إليك" الذي أفاد نفي البسط عنه وإثباته لغيره.

وقد يكون التقديم من أجل المحافظة على الفاصلة ومراعاة النسق الصوتي وماله من أثر في المعنى ووقع في النفس كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ بَلْ أَلْقَوْتُ فَإِذَا جِبَاهُهُمْ وَعَصِيهُمُ تُخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَتَى تَسْعَى ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ﴿٦٧﴾ فَلَمَّا لَا تَخَفْ إِنْ لَكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ﴿٦٨﴾﴾ [طه ٦٦-٦٨] حيث قدم المفعول: "خيفة" والجار والمجرور: "في نفسه" على الفاعل؛ لأنه لو قدم عليهما فقيل: فأوجس موسى في نفسه خيفة، أو فأوجس موسى خيفة في نفسه، لكان في ذلك خروج على النسق الصوتي، وإخلال بموسيقى النظم، ومالها من وقع في النفس وأثر في المعنى.

وقد تلحظ في تقديم المتعلقات ما للمقدم من فضل ومزية على المؤخر كما في قوله تعالى: ﴿وَأُذِنَ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ﴾ [الحج ٢٧] فقد قدم: "رجالاً"، لأن من حج راجلاً أفضل منزلة عند الله عز وجل لما يقاسيه من الجهد والمشقة.. ولذا قال ابن عباس -رضي الله عنهما-: "وددت لو حججت راجلاً، فإن الله قدم الرجال على الركبان في القرآن"..

وتأمل قوله تعالى: ﴿زَيْنٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾ [آل عمران ١٤]، تجد أن ترتيب المتعلقات قد لوحظ فيه أفضليتها عند النفس ومدى تعلقها بها، فالنساء أكثر تمكناً في النفس من البنين لما يظهر فيهن من قوة الشهوة، والبنون أقوى محبة من المال، والذهب أشد تمكناً من الفضة، والخيول أدخل في المحبة من الأنعام، والأنعام أقعد من الحرث.

إلى غير ذلك من الاعتبارات والمزايا البلاغية، والدقائق واللطائف، التي تلاحظ في تقديم بعض المتعلقات على بعض في نسق الكلام.

خروج الكلام عن مقتضى الظاهر

قد يخرج الكلام عن مقتضى الظاهر لأغراض ومقاصد يقصد إليها البلاغي ويتقضيها المقام .. وصور خروج الكلام عن مقتضى الظاهر كثيرة، وقد مر بك منها عند الحديث عن أضرب الخبر، تنزيل المنكر منزلة غير المنكر فيلقى إليه الكلام بلا تأكيد، وتنزيل غير المنكر منزلة المنكر فيؤكد له الكلام وجوبًا، وكذا تنزيل السائل المتردد منزلة غيره، فيلقى إليه بلا تأكيد أو مؤكدًا وجوبًا بأكثر من مؤكد وهذا التنزيل يكون لأغراض بلاغية يقصد إليها المتكلم وقد وقفت عليها هناك^(١).

ومنها أيضا: " وضع المضمرة موضع المظهر، ووضع المظهر موضع المضمرة، والالتفات وأسلوب الحكيم والقلب والتغليب والتعبير عن المستقبل بلفظ الماضي وعن الماضي بلفظ المضارع.. وقد اعتاد البلاغيون أن يتحدثوا عن تلك الظواهر الأسلوبية بعد انتهائهم من الحديث عن أحوال المسند إليه، ولكنني آثرت الحديث عنها هنا، لأنها ليست قاصرة على المسند إليه، بل تتعداه إلى المسند ومتعلقات الفعل، فهي تشمل كل أجزاء الجملة.. وإليك بيان ذلك.

وضع المضمرة موضع المظهر

الأصل في ضمير الغائب ألا يذكر إلا إذا وجد في الكلام ما يعود هذا الضمير إليه، وكان متقدماً لفظاً ورتبة، أو لفظاً فقط أو رتبة فقط، فلا يعود ضمير الغائب على متأخر لفظاً ورتبة، ولذا عد البلاغيون قول النابغة الذبياني:

جَزَى رُبُّهُ عَنِّي عَدِيَّ بِنِّ حَاتِمٍ جَزَاءَ الْكِلَابِ الْعَاوِيَاتِ وَقَدْ فَعَلُ

غير فصيح، إذ عاد الضمير في قوله: "ربه" على المفعول به: "عدي" المتأخر لفظاً ورتبة، وذا ضعف تأليف يخل بفصاحة الكلام.

وعلى الرغم من وضوح هذا الأصل فإنك تجد بعض الأساليب وقد ذكر فيها ضمير الغائب ثم فسر بمتأخر عنه، فيكون ذلك وضعاً للضمير في موضع الاسم

(١) ارجع إلى أضرب الخبر في الفصل الأول من هذا الكتاب.

الظاهر لغرض بلاغي، وهو الإيضاح بعد الإبهام أو التفصيل بعد الإجمال، حتى يتمكن المعنى في ذهن السامع، ويستقر في نفسه، ويثبت في فؤاده..

فمن ذلك أسلوب نعم وبئس كقولك: نعم رجلاً زيد، وبئس عدواً لجهل، عند إعراب المخصوص بالمدح أو الذم، مبتدأ خبره محذوف أو خبراً لمبتدأ محذوف، فيكون فاعل نعم أو بئس ضميراً مستتراً تقديره: "هو" يعود إلى زيد أو إلى الجهل، وكان مقتضى الظاهر أن يؤتى به اسماً ظاهراً فيقال: نعم زيد رجلاً وبئس الجهل عدواً، إذ لم يتقدم ما يعود إليه الضمير - كما قلت -، ولكن عدل عن الظاهر إلى الضمير للسر البلاغي المشار إليه.

ومثله قول زهير بمدح هرم بن سنان:

نَعْمَ امْرَأَةً هَرِمٌ لَمْ تَعْدُنَا بَيْتَةً إِلَّا وَكَانَ لِمُزْتَاعٍ بِهَا وَرَزَا

أما إذا أعرب المخصوص بالمدح أو الذم مبتدأ والجملة قبله خبراً فعندئذ يكون الضمير عائداً على متقدم في الرتبة ولا يكون من خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر.. ومن وضع المضممر موضع المظهر: ضمير الشأن أو القصة كما في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارَ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج ٤٦]، وقوله عز وجل: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص ١]، وقوله جل وعلا: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون ١١٧]، فالضمير في قوله: "فإنها.. قل هو إنه.." يسمى ضمير الشأن أو القصة، ولم يتقدم له مرجع كما ترى، وإنما فسر بالجملة بعده، فهو من وضع الضمير موضع الظاهر، وسره البلاغي هو تخميم الشأن أو القصة وتثبيتها في الأنفس؛ لأن محجىء الضمير مبهما بدون عائذ متقدم يجعل المخاطب ينشغل به ويبحث عما يفسره فيصغى إلى الكلام، وعندما يعثر على المفسر يقع في النفس موقفاً حسناً فيقر بها ويثبت؛ لأن للبيان بعد الإبهام والتفصيل بعد الإجمال أثراً حسناً في النفس ووقفاً جميلاً..

ويتضح لك هذا لو وضعت الاسم الظاهر موضع الضمير في الآيات

الكريمة، فقلت: "إن الأبصار لا تعمى... قل الله أحد... إن الكافرين لا يفلحون" فإنك تجد الفخامة قد ولت والروعة قد زالت، لأنه لم يتقدم عندئذ ما ينبه ويثير النفس إلى التفتيش والتنقيب عن مفسر لما أتهم، ولذا نجد ضمير الشأن أو القصة لا يستعمل إلا في الأمور المهمة، والأخبار ذات البال، والمعاني الجليلة، على نحو ما رأيت في الآيات الكريمة.

وعلى نحو ما ترى في قول أبي تمام:

عَلَى أَثَمِ الْأَيَّامِ قَدْ صِرْنَ كُلُّهَا عَجَائِبَ حَتَّى لَيْسَ فِيهَا عَجَائِبُ

وفي قول السعاء عبد الواحد بن نصر المخزومي (ت ٣٩٨ هـ):

هِيَ الدُّنْيَا تُقُولُ بِمَلَأَ فِيهَا حَذَارَ حَذَارٍ مِنْ بَطْشِي وَفَتْكِي

ومنه من غير ضمير الشأن قوله تعالى: ﴿وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [الأنبياء ٣]. وقول النبي ﷺ: "يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ"^(١). حيث وضع الضمير "واو الجماعة" في "أسروا" و"يتعاقبون" موضع الاسم الظاهر وغرضه البلاغي البيان بعد الإبهام وماله من وقع في النفس وتثبيت للمعاني في الوجدان.

وضع المظهر موضع المضمَر

أما وضع المظهر موضع المضمَر فيكون لأغراض بلاغية كثيرة يقتضيها المقام ويقصد إليها البلاغي.. انظر إلى قول أحمد بن يحيى المعروف بابن الرَّاوْنَدِيِّ وكان يُرْقَى بالزندقة:

كَمْ عَاقِلٍ عَاقِلٍ أَعْيَتْ مَدَاهِيهِ وَجَاهِلٍ جَاهِلٍ تَلَقَّاهُ مَرْزُوقًا
هَذَا الَّذِي تَرَكَ الْأَوْهَامَ حَازِرَةً وَصَيَّرَ الْعَالِمَ النَّحْرِبِرَ زُنْدِيقًا^(٢)

(١) رواه البخاري في المواقيت برقم [١٦/٥٥٥] ومسلم في المساجد برقم [٢١٠/٦٣٢].

(٢) أعيت مذاهبه. أعجزته طرق معاشه أو أعيت عليه، متعدية ولازمة.. والأوهام العقول من تسمية المحل باسم الحال مجازاً مرسلًا.. والنحرير من نحر المسائل علماً أي أتقتها.. والزندق الذي يبطن الكفر ويظهر الإسلام.

تجده قد وضع اسم الإشارة في أول البيت الثاني موضع الضمير، فهو يشير به إلى الحكم السابق في البيت الأول وهو كون العاقل محروماً والجاهل مرزوقاً، وهذا الحكم غير محسوس، فكان ينبغي أن يستعمل الضمير لتقدم مرجعه فيقول: "هو الذي ترك" ولكن الشاعر عدل عن الضمير إلى اسم الإشارة لغرض يقصد إليه وهو كمال العناية بالمسند إليه وتمييزه وإبرازه، تهيئة للإخبار عنه بذلك الخبر الغريب العجيب، وهو جعل الأوهام حائرة والعالم النحرير زنديقاً.

وقد يقصد البلاغي بوضع اسم الإشارة موضع الضمير التنبيه إلى غباوة المخاطب وبلادته وأنه لا يدرك إلا الأمور المحسة، كما ترى في قول الفرزدق مخاطباً جريراً:

أولئك آبائي فجنّيتي بيمثلهم إذا جمعتنا يا جريراً المجمع

إذ كان ينبغي أن يقول: "هم آبائي" لتقدم الحديث عنهم في الأبيات السابقة، ولكنه أثر التعبير باسم الإشارة: "أولئك"، للتعريض بغباوة جرير والتنبيه إلى بلادته وقلة فهمه، وكأنه يريد أن يبرز ويصور جريراً في صورة من لا يدرك إلا الأمور المحسة.. ولا يخفى عليك ما وراء اسم الإشارة الموضوع للبعيد: "أولئك" من تعظيم لآباء الفرزدق وتنبيه لسمو مكانتهم وعلو منزلتهم..

وقد يقصد البلاغي باستخدام اسم الإشارة مكان الضمير للدلالة على كمال ظهوره وتمام بيانه، حتى كأنه صار مرثياً ومدركاً بالحواس..

كما في قول مرة بن عبد الله الهلالي:

تعاللت كئي أشجى وما بك علة تريدن قنبي، قد ظفرت بذلك

فمقتضى الظاهر أن يقول: قد ظفرت به، ولكنه عدل عن الضمير إلى اسم الإشارة للدلالة على ظهور القتل وكمال وضوحه وأنه لا يخفى على أحد، لأنه صار مرثياً للجميع، ولعلك تحس أيضاً بما وراء التعبير بتلك الجملة: "قد ظفرت بذلك" من تمنعه وتأبيه على صويحاته، وكأنه لا رغبة له فيهن، فهو لا يهوى إلا تلك التي تعاللت، وهي وحدها التي ظفرت بأسره وتملكه..

واقراً قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلُّهَا

دَابَهُمْ وَظَلَمُوا بِتِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴿﴾ [الرعد ٣٥]، وقوله عز وجل: ﴿ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَشِيرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿﴾ [فصلت ٢٢، ٢٣]، فقد عبر باسم الإشارة: "تلك" و"ذلكم" في موضع الضمير للدلالة على كمال النعيم وتمام ظهوره، فقد بلغ الغاية في الظهور والبيان حتى صار مدركًا بالحواس.. وكذا القول في الآية الثانية، فقد بلغ ظنهم الغاية في الظهور والبيان حتى صار كأنه مدرك بالحواس، مشار إليه..

ويقول المعلم بعد إيضاح مسألة لتلاميذه أو إظهار رأي: "وهذا واضح.. وتلك بينه جلية".. فيدل باسم الإشارة على تمام ظهور الرأي، وكمال بيان المسألة... وكذا يقول الخصم عند مجادلة خصمه ومحاولته إقامة الحجة عليه: "وهذه ظاهرة أو مسلمة" فكان مقتضى الظاهر أن يقول: وهي ظاهرة ولكنه عدل إلى خلاف الظاهر ادعاءً لكمال الظهور وتمام البيان.

وقد يقصد بوضع الظاهر موضع المضمرة زيادة التمكين والتقرير، وقوة تثبيته في الأنفس والسرائر، انظر إلى قوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿﴾ [الإخلاص: ١، ٢]، نجد إثارة التعبير بالاسم الظاهر وهو لفظ الجلالة في قوله "الله الصمد" وكان مقتضى الظاهر أن يعبر بالضمير فيقال: "وهو الصمد" لتقديم مرجعه، ولكن النظم الكريم أثر التعبير بالاسم الظاهر "الله" لزيادة تمكينه في الأنفس، وتقريره وتثبيته في الأذهان، إذ التعبير بالاسم الظاهر أقوى وأبلغ في إبراز المعنى واستقراره في النفس من التعبير بالضمير..

وخذ قوله تعالى: ﴿ أَوْلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۗ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿﴾ [العنكبوت ١٩، ٢٠]، نجد أن وضع لفظ الجلالة موضع الضمير فيه زيادة تثبيته وتقرير، لأنه يوحي بالجلال والعظمة ويعمل على تربية مهابة الحق في الأنفس والسرائر، ولو عبر بالضمير فقيل: "إن ذلك عليه يسير.. ثم هو ينشئ.. إنه على كل شيء قدير..". لما كان في التعبير إلى ذلك المعنى من سبيل..

وتأمل قوله تعالى: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء ١٠٥]، تجد أن إعادة الاسم الظاهر "وبالحق" قد أفاد من التوكيد وإبراز المعنى وتشبيته في النفس ما لم يفده الضمير لو قيل: وبالحق أنزلناه وبه نزل.

واقراً قول عبد الله بن عزمة الضبي:

إِنْ تَسْأَلُوا الْحَقَّ نُعْطِ الْحَقَّ سَائِلُهُ وَالذَّرْعُ مُحَقَّبَةٌ وَالسَّيْفُ مَقْرُوبٌ^(١)

وقول النابغة الذبياني:

نَفْسٌ عِصَامٌ سَوَدَتْ عِصَامًا وَعَلَّمَتْهُ الْكُفْرَ وَالْإِقْدَامًا

وتأمل فرق ما بين: "إن تسألوا الحق نعط الحق" وقولك: إن تسألوا الحق نعطه، وبين: "نفس عصام سودت عصامًا"، وقولك: نفس عصام سودته، فستجد الفرق دقيقًا، وسوف يتبين لك أن التعبير بالاسم الظاهر فيه من الإيضاح وإبراز المعنى، وتقريره وتشبيته، ما ليس في التعبير بالضمير.

وقد يقصد بوضع الظاهر موضع الضمير تقوية داعي الأمور على الامتثال وتحقيق الأمر، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران ١٥٩]، فقد أوتر التعبير بلفظ الجلالة في موضع الضمير حيث لم يقل: فتوكل على إني أحب، لما في ذلك من تقوية الداعي إلى الامتثال وتحقيق التوكل وإيجاده، فهو توكل على الله الذي يحب المتوكلين..

وقد يقصد به إدخال الروح في نفس السامع وتربيته المهابة حتى يقبل على الامتثال والخضوع كقول الخليفة: أمير المؤمنين يأمر بكذا، فمقتضى الظاهر أن يقول: أنا أمر، ولكنه عدل عنه إلى الاسم الظاهر لما فيه من تربية المهابة وإدخال الروح في الأنفس فتقبل إلى الامتثال والخضوع..

وقد يقصد به الاستعطاف كما في قول إبراهيم بن أدهم:

إِخْسِي عِبْدَكَ الْعَاصِي أْتَاكَ مُقِرًّا بِالذُّنُوبِ وَقَدْ ذَعَاكَ
فَبِإِنْ تَنْفِرْ فَأَنْتَ لَذَلِكَ أَهْلٌ وَإِنْ تَطْرُدْ فَمَنْ يَرْحَمُ سِوَاكَ

(١) ارجع إلى هذا البيت في صور الالتفات.

فلم يقل: إلهي أنا العاصي أتيتك، بل قال: "عبدك" فوضع الظاهر في موضع الضمير. لما في الظاهر من الإشعار بالعبودية المضافة لرب العزة، وما يكون وراء ذلك من ترقب الشفقة والرحمة، واستحقاق العطف..

وقد يقصد به إبراز الوصف الذي يفيد الاسم الظاهر وتقريره، لإفادة مقصد يقصد إليه البلاغي، كما ترى في قوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [البقرة ٥٩]، فقد أعيد ذكر "الذين ظلموا" ولم يقل: فأنزلنا عليهم، لما في الاسم الظاهر من إبراز معنى الظلم وتقريره، والإشارة بذلك إلى أنهم قد استحقوا العذاب النازل عليهم بسبب هذا الظلم.. ونرى هذا الأسلوب يرد كثيراً في النظم الكريم ليحقق مقاصد وأهدافاً دقيقة.

انظر إلى قوله تعالى: ﴿صَّ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ۗ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۗ كَرَّ أَهْلَكُنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَاَلَاتِ حِينِ مَنَاصِرِ ۗ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكٰفِرُونَ هٰذَا سِحْرٌ كٰذٰبٌ ۗ﴾ [ص ١ - ٤]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تَنٰثَرٰ عَلٰیہِمْ ءَايٰتُنَا بَيِّنٰتٍ قَالُوْا مَا هٰذَا اِلَّا رِجْلٌ يُّرِيْدُ اَنْ يُصٰدَكَرَّ عَنَّا كَانِ يَعْبُدُ ءَابَاؤَكُمْ وَقَالُوْا مَا هٰذَا اِلَّا اِنْفٰكٌ مُّفْتَرٰى ۗ وَقَالَ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ اِنْ هٰذَا اِلَّا سِحْرٌ مُّؤْمِنٍ ۗ﴾ [سبا ٤٣] تجد أن في التعبير بالكافرين في قوله: "وقال الكافرون" وبالذين كفروا في قوله تعالى: "وقال الذين كفروا للحق.." إبرازاً للمعنى الكفر وتسجيلاً عليهم وإبرازهم جاحدين كافرين متعنتين، وتصوير مدى ضلالهم وتعاميهم عن الحق الواضح، فقد كفروا به، وقالوا وقد وضع لهم الحق وبان: "إن هذا إلا سحر مبين"، وصفوا الحق الواضح بالسحر المبين، فلا عجب إذا ما نزل بهم العذاب وأهلكوا كما أهلك الكفرة من قبلك..

وتأمل قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبْتَكُمْ كَثُرَتْكُمُ فَلَئِمْتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَافَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ۗ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذٰلِكَ جَزَاءُ الْكٰفِرِيْنَ ۗ﴾ [التوبة ٢٥، ٢٦] تجد أن ذكر المؤمنين في موضع الضمير حيث لم

يقول، على رسوله وعليكم، قد أبرز هذه الصفة وأبرز اتصافهم بها واستحقاقهم لها ووراء ذلك من التعظيم والتكريم مالا يخفى عليك ثم تأمل مدى التحقير والإهانة بإعادة ذكر الكافرين في قوله: "وذلك جزاء الكافرين" وأن لم يقل: وذلك جزاؤهم، لما في الاسم الظاهر من وسمهم بتلك السمة وإبرازهم بهذا الوصف.

وقد يوضع الظاهر موضع الضمير قصدًا لإجراء أوصاف عليه كما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَتَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ ﴾ [الأعراف ١٥٨]، فوضع الاسم الظاهر "ورسوله" موضع الضمير حتى يمكن وصفه بما بعده من صفات. وفيه أيضًا إبراز لمعنى الرسالة وتثبيت لها في النفوس وإيضاح أن الإيمان بمحمد - عليه الصلاة والسلام - إنما هو من أجلها فنحن نؤمن به رسولاً نبياً، ولا نؤمن بذاته مجردة من تلك المهمة أي: نؤمن بكونه رسولاً نبياً أميناً يؤمن بالله وكلماته..

وقد يوضع الظاهر موضع الضمير للدلالة على أن الصفة جارية على غير ما هي له كما في قوله تعالى: ﴿ فَانطَلَقًا حَتَّىٰ إِذَا أَتَىٰ أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَمَا أَهْلَهَا ﴾ [الكهف ٧٧]، فجمله "استطعما أهلها" صفة للقريه وقد وضع الاسم الظاهر فيها موضع الضمير فلم يقل "استطعماها" للدلالة على أن هذه الصفة جارية على غير ما هي له، فالمستطعم هم الأهل وليس القرية.



أسلوب الالتفات

الالتفات مأخوذ من قولهم: التفت الإنسان إذا تحول بعنقه من اليمين إلى الشمال أو من الشمال إلى اليمين، وأول من أطلق هذه التسمية هو الأصمعي، فقد روي أنه سأل بعض من كان يتحدث إليهم فقال له: أتعرف الالتفاتات جرير؟ فأجاب لا. فما هي؟ قال:

أَتُنْسَىٰ إِذْ تُؤَدُّعَنَّا سُلَيْمِي بِعُودِ سَنَامَةٍ سُقِيَّيَ الْبِشَامِ

ألا تراه مقيلاً على شعره ثم التفت إلى البشام فدعاه.

وقوله:

طَرِبَ الْحَمَامُ بِذِي الْأَرَاكِ فَشَاقَنِي لِأَزَلَّتْ فِي غَلَلٍ وَأَيْكَ نَاصِرٍ
فالتفت إلى الحمام فدعاه^(١):

فهو يطلق الالتفات على نوع من التعبير وهو ذلك الكلام الذي يظن
المخاطب أن محدثه قد فرغ منه وانتهى من معناه وسيترك هذا المعنى ويتجاوز به إلى
معنى آخر، فإذا به يلتفت إلى المعنى الذي فرغ منه فيذكره بغير ما تقدم ذكره به.

ومن قبل أشار أبو عبيدة إلى نوع آخر من الالتفات وإن لم يسمه بهذه التسمية
حيث يقول: «ومن مجاز ما جاءت به مخاطبة الشاهد ثم تركت وحولت مخاطبته هذه
إلى مخاطبة الغائب قول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهَا فِي مَوْجٍ كَبِيرٍ فَسَبَّحُوا بِحَمْدِ اللَّهِ فِي حَمْدِهِ﴾
[يونس: ٢٢]: أي بكم»^(٢).

ثم جاء عبد الله بن المعتز فذكر في كتابه البديع أن الالتفات يرد على نوعين:
نوع ينصرف فيه المتكلم عن المخاطبة إلى الإخبار وعن الإخبار إلى المخاطبة وما
يشبه ذلك، وهذا هو ما يصدق عليه الالتفات في الآية الكريمة التي ذكرها أبو
عبيدة، ونوع ينصرف فيه المتكلم عن معنى يكون فيه إلى معنى آخر، وهذا ما ذكره
الأصمعي^(٣).

وقد أهمل البلاغيون النوع الثاني فلم يتحدثوا عنه، وفصلوا القول في النوع
الأول، واشتهر في تحديد مفهومه رأيان: رأي للسكاكي ورأي لجمهور البلاغيين،
أما الجمهور فيرون أنه التعبير عن معنى بطريق من الطرق الثلاثة وهي: التكلم أو
الخطاب أو الغيبة، بعد التعبير عنه بطريق آخر منها... وأما السكاكي فيرى أنه
التعبير بطريق من هذه الطرق عما عبر عنه بغيره، أو كان مقتضى الظاهر أن يعبر عنه

(١) انظر الصناعتين ٣١١، والبشام: شجر طيب يستاك به، وذو الأراك: مكان ينبت فيه شجر الأراك... والأيك: الشجر الملتف، والغلل: المكان الخصب الذي يجود بالغلة.

(٢) انظر مجاز القرآن: ١١.

(٣) انظر البديع: ١٠٧.

بغيره فهو يلتقي مع الجمهور في الجزء الأول من التعريف ويخالفهم في الجزء الثاني، إذ يرى في نحو قول ربيعة بن مقروم:

بَأْتُ سَعَادًا فَأَمْسَى الْقَلْبُ مَعْمُودًا وَأَخْلَفْتِكَ ابْنَةُ الْحُرِّ الْمَوَاعِيدَا^(١)

التفتاً، حيث كان مقتضى الظاهر أن يقول: وأخلفتني: فالتفت إلى الخطاب

وقال: وأخلفتك... ومثله قوله أيضاً:

تَذَكَّرْتُ وَالذُّكْرَى تَبِيحُكَ زَيْنَا وَأَصْبَحَ بَاقِي وَضَلَّهَا قَدْ تَنَصَّبَا
وَحَلَّ بَفَلَجٍ فَالْأَبَاتِرِ أَهْلُنَا وَشَطَطَتْ فَحَلَّتْ غَمْرَةَ مُنْقَبَا^(٢)

إذ كان مقتضى الظاهر أن يعبر بطريق التكلم فيقول: تذكرت ولكنه خالف

هذا الظاهر فالتفت إلى الخطاب كما ترى، ولا يخفى عليك ما في البيت الأول من وضع المظهر موضع المضمرة في قوله: "ابنة الحر" إبرازاً لصفة الحرية وتقريراً لها، وما يضيفه ذلك على فتاته «سعاد» من أصالة وتشريف... كما لا يخفى عليك الالتفات في البيت الثالث حيث التفت من الخطاب في قوله: تذكرت إلى التكلم في قوله: أهلنا، وكان مقتضى الظاهر أن يقول: وحلّ بفلاج فالأباتر أهلك، وهذا التفت على رأي السكاكي والجمهور معاً، أما الالتفاتان الأولان فعلى رأي السكاكي فقط، ويمكن أن يحمل على التجريد، وأن ربيعة جرد من نفسه شخصاً آخر وأخذ يخاطبه قائلاً: وأخلفتك، تذكرت، وتلك عادة مشهورة بين الشعراء.

وعند تأمل تعريف السكاكي والجمهور للالتفات يتضح لك أن تعريف

الجمهور أخص، فكل التفت عندهم التفت عند السكاكي، وليس كل التفت عند السكاكي التفتاً عندهم، على نحو ما رأيت في البيتين المذكورين، فقد جعلها السكاكي من الالتفات بناءً على مذهبه فيه، وحملها الجمهور على التجريد - كما بينا -

(١) بانت: بعدت... ومعموداً: حزيناً... وابنة الحر هي سعاد.

(٢) تنصب: جف، ويروى تنصب بمعنى: انقطع... وفلاج والأباتر وغمرة ومثقب أماكن... وشطط: بعدت.

صور الالتفات وما يكمن وراءها من أسرار بلاغية

كما تقدم يتبين لك أن للالتفات -على مذهب الجمهور- ست صور ووراء كل صورة من هذه الصور، بل وراء كل شاهد من شواهد الالتفات مغزى بلاغي جليل، وهذا يقتضى منا أن نقف مع كل صورة من صوره وقفة متأنية لنبرز ما وراء شواهدا من دقائق وأسرار.

الصورة الأولى: الالتفات من التكلم إلى الخطاب

كما في قوله تعالى: ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْتَلْكَزْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [يس ٢٠-٢٢]؛ فقد التفت من التكلم في قوله: ﴿ وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ إلى الخطاب في قوله: ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾، وفضلاً عما يفيد أسلوب الالتفات من تحريك وإثارة وإيقاظ لمشاعر السامع وأحاسيسه وتنبه لذهنه وفكره، لما فيه من التنوع وعدم المضي على وتيرة واحدة -فضلاً عن ذلك- فإنك تشعر بها وراءه في الآية الكريمة من ترغيب للقوم واستتالة لهم نحو الهدى وقبول الحق واتباع المرسلين، حيث أجري التعجب من عدم العبادة على نفسه: «ما لي لا أعبد» حتى لا ينفروا من قبول النصح.

ويتضح لك هذا الغرض أكثر عندما ترجع إلى سياق الآيات الكريمة: «يا قوم اتبعوا المرسلين اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون» فقد أضافهم إلى نفسه ثم بين لهم أن المرسلين لا يسألونهم أجراً على تبليغ الرسالة وهذا أدعى لاتباعهم وقبول ما جاءوا به، ثم هم فوق ذلك مهتدون، فينبغي الاقتداء بهم، ولما أراد أن يتعجب من تخلي القوم عن هؤلاء الرسل وعدم الاقتداء بهم في عبادة الله وحده، أجري هذا التعجب على نفسه ملتفتاً عنهم: «ما لي لا أعبد» حتى يكون في ذلك مزيد من الاستتالة والترغيب، ثم التفت إليهم محذراً من استمرارهم في الباطل، وتناديهم في الضلال، ومبيناً لهم أن مرجعهم إلى الله وحده الذي فطرهم «وإليه ترجعون»، وبهذا يتبين لك ما وراء الالتفات من ترغيب واستتالة وإمحاض المناصحة ثم التعقيب بالتحذير الشديد.

وانظر إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُنشَرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤]، تجد التفاتاً من التكلم في قوله «إني أمرت أن أكون أول من أسلم» إلى الخطاب في قوله: «ولا تكونون من المشركين» ووراء هذا الالتفات ما وراءه من وعيد وتهديد، وتحذير من الوقوع في الشرك، وما يبرز هذا، الانتقال من الخبر فيما سبق إلى النهي فيما لحق فقد أمر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ أن يخبر وأن يقول إنه أمر أن يكون أول من سلم، ثم نهاه رب العزة: «ولا تكونون من المشركين» إنه وعيد شديد لمن يستمر على الشرك، ولا عجب فهو أكبر الكبائر، والله عز وجل لا يغفر أن يشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، وتجد كثيراً من الأحاديث الشريفة التي حذرت من الشرك، وبينت أنواعه المختلفة، وطرقه العديدة، التي ينبغي على المسلم أن يتبينها، وأن يتبعد عنها حتى يكون بمنأى عن كل ما يؤدي إلى الشرك بربه... نسأل الله أن يجعلنا من المخلصين، وأن يجنبنا النفاق والرياء والشرك بأنواعه... اللهم آمين.

الصورة الثانية: الانتقال من التكلم إلى الغيبة

كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۖ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ۗ﴾ [الكوثر ١، ٢]، حيث التفت من التكلم في قوله: «إنا أعطيناك» إلى الغيبة في قوله: «فصل لربك» إذ الأصل: فصل لنا، وترجع بلاغة الالتفات في الآية الكريمة إلى ما في التصريح بلفظ الرب من الحث على فعل المأمور به لأن من يربيك ويرعاك فهو جدير بعبادتك، مستحق لصلاتك ولذا كان الالتفات مقويًا لداعي الصلاة، ومنهًا وحثًا إلى أدائها والحرص عليها...

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَّيِبُهَا لِلنَّاسِ إِنَّهُ رِسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۗ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأَمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِرُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ ۗ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، فقد انتقل من التكلم في قوله «إني رسول الله» إلى الغيبة في قوله: «فآمِنُوا بالله ورسوله»، وكان مقتضى الظاهر أن يقال: فآمِنُوا بالله وبِي، وترجع بلاغة الالتفات

في الآية إلى أن الاسم الظاهر قد مكن من إجراء تلك الأوصاف: «النبي الأمي الذي...» على الرسول -عليه الصلاة والسلام- وفيه أيضًا إشارة وتنبية إلى أن الإيمان والتصديق ليس بذات محمد عليه الصلاة والسلام، وإنما بتلك الصفات أي: بكونه رسولاً نبياً آمياً يؤمن بالله وكلماته، فهي بمثابة البرهان على صدق رسالته^(١).

ومثله قوله تعالى: ﴿حَمَّ ۖ وَالْكَتَبِ الْمُمِينِ ۖ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَّكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۖ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۖ أَمْرًا مِّنْ عِنْدِنَا ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۖ رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۖ﴾ [الدخان ١-٦]، فقد التفت من التكلم في قوله «إنا أنزلناه... إنا كنا... من عندنا...» إلى الغيبة في قوله «رحمة من ربك» وتكمن بلاغة الالتفات في الآية الكريمة في التصريح بلفظ الرب الذي يشير إلى معنى التربية والرفق والعناية، وملاءمة هذا المعنى الرحمة المذكورة، وفيه أيضًا تهية العبارة لخطاب المنزل عليه وهو الرسول -عليه الصلاة والسلام-.

وخذ قوله تعالى: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۗ﴾ [الزمر: ٥٣]، فالأصل: لا تقنطوا من رحمتي، فالتفت إلى الغائب إبرازًا للفظ الجلالة الملائم لذكر الرحمة والمغفرة.

الصورة الثالثة: الالتفات من الخطاب إلى التكلم

كما في قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٩٠]، وقوله جل وعلا ﴿قَالَ يَنْقُورُ آعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۗ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود: ٦١]، فقد التفت في الآيتين من الخطاب في قوله: «استغفروا ربكم ثم توبوا...» وقوله «هو أنشاكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه» إلى التكلم في قوله: «إن ربي رحيم ودود»، وقوله: «إن ربي قريب مجيب» وهذا الالتفات ينبئ بعظمة ذي الجلال ورحمته وإجابته من دعاه، واختصاصه -سبحانه وتعالى- بتلك

(١) ارجع إلى هذه الآية الكريمة في وضع الاسم الظاهر موضع الضمير.

الصفات، ويدفع توهم انصرافها إلى ألفتهم فيما لو قيل «إن ربكم رحيم ودود... إن ربكم قريب محيب».

ومن ذلك قول علقمة بن عبدة:

طَحَايِكَ قَلْبٌ فِي الْجِسَانِ طَرُوبٌ بُعِيدَ الشَّبَابِ عَصْرٌ حَانَ مَشِيبٌ
يُكَلِّفُنِي لَيْلِي وَقَدْ شَطَّ وَلَيْهَا وَعَادَتْ عَوَادِي تَيْتًا وَخُطُوبٌ^(١)

فقد التفت من الخطاب في قوله: طحا بك قلب، إلى التكلم في قوله يكلفني ليلى، وهذا الالتفات يبنى بأنه معني بليلاه إلى أبعد حد، ولذا أجرى الكلام المتعلق بها على نفسه إجراء مباشرًا، فإنه أقوى مما لو قيل: يكفلك ليلى بصيغة الخطاب.

وفي «طحا بك» التفتات عند السكاكي... ويروي البيت الثاني برواية أخرى وهي: «تكلفني» بالياء، فإن كان الفاعل ليلى؛ فلا التفتات، وإن كان ضميرًا مستترًا تقديره «أنت» وليلى مفعول، ففيه التفتات من الغائب «قلب» إلى المخاطب «أنت».

الصورة الرابعة: الالتفات من الخطاب إلى الغيبة:

كما في قوله تعالى: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَأَيْتُم مِّنَ الَّذِينَ يَخْسِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا لَهُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [فصلت: ٢٤، ٢٥].

فقد التفت من الخطاب في قوله «ذلكم ظنكم... فأصبحتم» إلى الغيبة في قوله: «فإن يصبروا» وهذا الالتفات يبنى بالطرده من رحمة الله. وذلك بإبعادهم عن ساحة الحضور والمخاطبة، وصيرورتهم إلى مكان سحيق حيث النار والعذاب، وإن يستعتبوا ندماً فلا عتاب...

ومثله قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَّتِ بِكُمْ بَرْجٌ طَبِيبٌ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۗ﴾ [يونس: ٢٢].

(١) طحا: ذهب وبعده. وتصغير (بعيد) يفيد أن هذا كان قريبًا من عنفوان الشباب... وطروب بمعنى له طرب ونشاط في طلبهن، وشط وليها: بعد قربها، وعادت عواد: رجعت عوائق كانت تحول بيننا إلى ما كانت عليه، ويجوز أن تكون «عادت» من المعادة... وخطوب: أحداث.

التفت من الخطاب في قوله «كنتم في الفلك» إلى الغيبة في قوله «وجرين بهم»، وبلاغة هذا الالتفات تكمن في أنهم لما كانوا في مقام الحضور والمشاهدة خوطبوا فلما جرت بهم السفن وابتعدوا لازم هذا أن يتحدث عنهم بطريق الغيبة... وشيء آخر وراء الالتفات وهو أنه يشعر بأن هؤلاء الذين إذا أصابهم ضر دعوا ربه، فإذا نجاهم بغوا في الأرض بغير الحق، يستحقون الإبعاد وعدم الالتفات إليهم بالمخاطبة، وأن تروى قصتهم وتحكى شهيروا بهم واعتباراً لمن يعتبر.

وانظر إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلُّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ﴿٩٣﴾ [الأنبياء ٩٢، ٩٣]، تجد إقبال الله عليهم بالخطاب لكونهم أمة واحدة، فلما تقطعوا الأمر بينهم وتشتت كياناتهم واختلفوا غابوا عن مشهد الحق، وغاب عنهم المنهج القويم، والدستور الحكيم، فانصرف الله عز وجل عنهم وهذا سر الالتفات من الخطاب إلى الغيبة في الآية الكريمة.

ولعلك تشعر بنبرة الوعيد والتهديد لهؤلاء الذين تقطعوا أمرهم بينهم في قوله جل وعلا: «كل إلينا راجعون»، وكذا القول في قوله تعالى: ﴿أَتَىٰ أَمْرَ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحٰنَهُ ۗ وَتَعٰلٰى ۗ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ١]. فقد التفت عن المشركين التفات الغاضب المتوعد.

تأمل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤]، تجد أن الالتفات من الخطاب في قوله: «جاءوك» إلى الغيبة في قوله «واستغفر لهم الرسول» يفيد تفخيم شأن الرسول عليه الصلاة والسلام وتعظيم استغفاره والتنبية إلى أن شفاعته واستغفار من اسمه «الرسول» من الله بمكان^(١).

الصورة الخامسة: الانتقال من الغيبة إلى التكلم

كما في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [فاطر: ٩] حيث التفت من الغيبة في قوله: «والله الذي أرسل الرياح» إلى التكلم في قوله: «فسقناه... فأحيينا به»

(١) انظر الكشاف ج ١ ص ٥٣٨.

وينبئ هذا الالتفات بأهمية السوق والإحياء، وبتجلي قدرة الله عز وجل في سوق السحاب وإحيائه تلك الأرض الميتة، فهذا ضرب من قسمة الأرزاق بين الناس، ولذا ناسب أن يلتفت إليها، أي: إلى السوق والإحياء، تجلية لأهميتهما، وإبرازاً لقدرة رب العزة سبحانه وتعالى.

وانظر إلى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَيْنَهُنَّ سَبْعَ مَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْنُوبٍ ۖ وَحَفِظْنَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرَ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾ [فصلت: ١١، ١٢] فقد التفت من الغيبة في قوله «استوى، فقال... فقضاهن، وأوحى» إلى التكلم في قوله «وزينا» وهذا الالتفات يشير إلى أن السماء الدنيا من أظهر وأوضح الآيات التي تدل على قدرة الخالق جل وعلا، ولذا حث القرآن في مواضع كثيرة على النظر إليها، وتأمل ما بها، فكأن الالتفات هنا لفت للمؤمن إلى موضع العبرة والعظة.

وخذ قوله تعالى: ﴿سُبْحٰنَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَيْنَا لَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ الْآيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١]، نجد التفاتاً من الغيبة في قوله: «الذي أسرى بعبده ليلاً» إلى التكلم في قوله: «باركنا حوله لنريه من آياتنا» ثم إلى الغيبة ثانية في قوله: «إنه هو السميع البصير».

وينبئ هذا الالتفات بما للمسجد الأقصى من مكانة، فقد بارك الله حوله، ولم يقل «بارك» على الظاهر فيمضي الأسلوب على طريقة واحدة، بل قيل: «باركنا» تنبيهاً للمؤمن إلى تلك المكانة السامية، كما يبرز الالتفات أيضاً الغاية من الإسراء وهي إراءة النبي من الآيات الكبرى، فقد التفت إليها: «لنريه من آياتنا» إشارة إلى أن ذلك هو المراد وهو الغاية من الإسراء، ثم التفت بعد ذلك من التكلم في قوله: «باركنا... لنريه» إلى الغيبة في قوله «إنه هو السميع البصير».

وتأمل قوله تعالى: ﴿حَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرْوَاهَا ۗ وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَتَضَعُ كُلِّ ذَاتٍ مِّنَ الْأَرْضِ أَعْدَاءُ بَعْضٍ لِّبَعْضٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠٠﴾ هٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ ۗ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٠١﴾﴾ ولقد

ءَاتَيْنَا لَقَمِنَ الْحِكْمَةِ أَنْ أَشْكُرَ لِلَّهِ ﴿ [لقمان: ١٠ - ١٢]، تجد عدة التفاتات، فقد التفت من الغيبة في قوله: «خلق... وألقى... وبث» إلى التكلم في قوله: «وأنزلنا من السماء ماء فأنبثنا»، وهذا الالتفات يبنى بأهمية الإنزال والإنبات لهم، فهم إليهما متطلعون وبها متعلقون، إذ لا حياة لهم بدون الماء والنبات... ثم رجع إلى الغيبة في قوله: «هذا خلق الله» وكان الأصل أن يقال: خلقنا، وتشعر بها وراء هذا الالتفات من التصريح باسم الله الخالق الأعظم وما له من أثر كبير في تربية المهابة واستمتاع المؤمن بذكره والنطق به... ثم التفت ثانية إلى التكلم في قوله: «فأروني» ولعلك تشعر بنبرة الوعيد والتحذير وراء هذا الالتفات... ثم التفت إلى الغيبة في قوله: «من دونه» لينبئ بعظمة خلق الله تعالى، وأن هذا الخلق لا يتأتى لبشر، وفي الآيات التفات آخر من الخطاب في قوله: «ترونها... بكم... فأروني» إلى الغيبة في قوله: «بل الظالمون في ضلال مبين»، وكان مقتضى الظاهر أن يقال: بل أنتم، وترجع بلاغة هذا الالتفات إلى أمرين:

أولهما: أن الخطاب في الآيات عام، وليس كل المخاطبين في ضلال مبين، بل الظالمون منهم.

وثانيهما: أن في الالتفات تسجيلاً على هؤلاء، ووسمهم بتلك الصفة، صفة الظلم التي صيرتهم في ضلال مبين، وعماً قليل ستجعلهم في عذاب مهين.

الصورة السادسة: الالتفات من الغيبة إلى الخطاب:

كما في قوله تعالى: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ مَلِكٌ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٢﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿ [الفاتحة: ١-٥] فقد التفت من الغيبة في قوله: «مالك» إلى الخطاب في قوله: «إياك نعبد»، وترجع بلاغة هذا الالتفات إلى ما تحدته الآيات في نفس المؤمن من زيادة الخشوع والتقرب إلى ربه جل وعلا، فقد بدأت بذكر الحمد وربوبيته تعالى للعالمين ثم الرحمة الغامرة فملكه ليوم الدين وعندما تقع تلك المعاني في نفس المؤمن يزداد قرباً إليه تعالى فيخاطبه معلناً اختصاصه بالعبادة ومد العون «إياك نعبد وإياك نستعين».

وتأمل آخر السورة الكريمة ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ

عَلَيْهِمْ ﴿ [الفاتحة: ٧]، حيث نسب الإنعام إليه تعالى تعظيماً لشأنه ولم ينسب الغضب إليه بل بنيت العبارة للمفعول تأدباً وتلطفاً... وفي ذلك ما فيه من تعظيم للمنعّم عليهم وتحقير وتغيير من المغضوب عليهم.

ومن هذه الصورة قوله تعالى: ﴿ وَسَقَنَهُمْ رَهْمًا شَرَابًا طَهُورًا ﴾ [٢٢، ٢١]، حيث التفت من الغيبة في قوله: «سقاهاهم رهم» إلى الخطاب في قوله: «لكم... سعيكم» تكريماً وتعظيماً للمتحدث عنهم.

وقوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴾ [٨٩، ٨٨]، التفت من الغيبة في قوله: «قالوا» إلى الخطاب في قوله: «جنتم» تنبيهاً إلى عظم هذا الافتراء وتوبيخاً لهم وردعاً حتى لكأنهم حاضرون ومواجهون بافترائهم تأنيباً لهم وتسفيهاً لعقولهم.

ومنه شعراً قول عبد الله بن عنمة الضبي:

مَا إِنْ نَسَرَى السَّيِّدُ زَيْدًا فِي نَفْسِهِمْ كَمَا يَرَاهُ بَسُو كُرْزٍ وَمَرْهُوبُ
إِنْ تَسْأَلُوا الْحَقَّ نَعَطِ الْحَقِّ سَائِلَهُ وَالذُّعُ مُحَقَّبَةُ وَالسَّيْفُ مَقْرُوبُ
وَإِنْ أَيْبَسْتُمْ فَإِنَّا مَعْفَرٌ أَنْفٌ لَا نُطْعِمُ الْخَسْفَ إِنْ السَّمَّ مَشْرُوبُ^(١)

فقد التفت من الغيبة في قوله: «زيداً» إلى الخطاب في قوله: «تسألوا» وذلك مواجهة لهم بالحديث، وكأنهم مشاهدون أمام الشاعر، يوجه إليهم حديثه ويطلب منهم إبداء رأيهم والإفصاح عن نواياهم... ثم التفت من الخطاب في: «تسألوا» إلى الغيبة في قوله: «سائله»، وكان مقتضى الظاهر أن يقول: «نعطه لكم» ولكنه عدل عن المضمير إلى المظهر، فأعاد ذكر الحق، ثم التفت فقال: «سائله»، لأنه يريدهم

(١) السيد زيد وكرز ومرهوب: أحياء من ضبة قوم الشاعر، يريد أن السيد لا يوجون لزيد من الحرمة والنصرة ما يوجهه كرز ومرهوب والضمر في قوله «تسألوا»: لزيد... والمحبة: المشدودة في الحقيقة... والمقروب: الموضوع في قرابه، وأنف: أعزة... والخسف: الذل... والمراد بقوله: «والسم مشروب» أنهم أقوياء أشداء قد اعتادوا الشدائد والأهوال.

سائلين الحق، خاضعين له، وهذا هو سر الالتفات، إنه أبرز السؤال وقرره، كما قرر استعمال الظاهر في موضع الضمير «الحق» وأبرزه، ولو مضى الأسلوب على ما يقتضيه الظاهر، فقول: إن تسألوا الحق نعطه لكم، لما تحققت تلك الإفادة التي قصد إليها الشاعر... ثم التفت من الغيبة في قوله: «سائله» إلى الخطاب في قوله: «وإن أبيت» توعدًا وتهديدًا، فهو التفت الغاضب المتوعد، ولعلك تشعر بما وراء استخدام «إن» في قوله: «وإن أبيت» من الدلالة على أن الإباء مستبعد وقوعه منهم. وفي الأبيات التفت آخر من الغيبة في قوله: «ترى السيد» إلى التكلم في قوله: «نعط» ولا يخفى ما وراء هذا الالتفات من الفخر والعزة والأنفة.

وأما قول امرئ القيس:

تَطَّأوْكَ لِأَبْنِكَ بِالْأَثْمَدِ وَنَمَامَ الْخَيْيِّ وَلَمْ تَرْقُدِ
وَبَاتَ وَبَاتَتْ لَهُ لَيْلَةٌ كَلَيْلَةِ ذِي الْعَنَابِ الْأَرْمَدِ
وَذَلِكَ مِنْ نَبَأِ جَاءَنِي وَخَبْرَتُهُ عَنْ أَبِي الْأَسْوَدِ^(١)

ففيه التفت من الخطاب في قوله: «ليلك... ولم ترقد» إلى الغيبة في قوله «وبات وباتت له»، ثم إلى التكلم في قوله: «جاءني وخبرته»، أما البيت الأول؛ فلا التفت فيه إلا على مذهب السكاكي، والجمهور - كما رأيت - يرون أنه من قبيل التجريد.

ويرى بعض البلاغيين أن في البيت الثالث التفتين هما من الخطاب في قوله: «ليلك» إلى التكلم في قوله «جاءني» ومن الغيبة في قوله: «وبات» إلى التكلم أيضًا في قوله: «جاءني»... وهذا ليس بشيء؛ لأنه بالانتقال من الخطاب في البيت الأول إلى الغيبة في البيت الثاني لم يعد الخطاب موجودًا، فلم يبق إلا الالتفات من الغيبة في الثاني إلى التكلم في الثالث.

(١) الأبيات قيل إنها لامرئ القيس حندج بن حجر الجاهلي، وقيل: لامرئ القيس بن عابس الصحابي في رثاء ابن عمه أبي الأسود، وقيل: لعمر بن معد يكرب، والأثمد: اسم موضع. والعائر: قذى العين، والأرمد: المصاب بالرمد وأبو الأسود على القول الأول كنية أبيه حجر ملك بني أسد والخبر الذي جاءه هو خبر قتله.

ويرى آخرون أن الالتفاتين في الثالث هما من الغيبة في قوله: «وبات» إلى الخطاب في قوله «وذلك» ثم من الخطاب في «وذلك» إلى التكلم في قوله: «جاءني»... ولا يخفى ما في هذا من تكلف الخطاب في قوله: «وذلك».

فالرأي عندي أن ما في الأبيات التفات سكاكي في قوله: «ليلك» والتفاتان جمهوريان من الخطاب في: «ليلك... ولم ترقد» إلى الغيبة في: «وبات وباتت له»، ثم إلى التكلم في: «جاءني وخبرته».

هذا وإذا كان لكل أسلوب من أساليب الالتفات فائدة خاصة وغرضًا محددًا يعرف من خلال النظر في السياق ومعرفة قرائن الأحوال -كما رأيت- فإن هنالك فائدة عامة تراها في كل التفات، وهي أن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك أحسن وأبلغ في تجديد نشاط السامع، وأكثر إيقاظًا لمشاعره وتنبهًا لأحاسيسه، فيقبل إلى الكلام ويصغى إليه، وعندئذ يقع في نفسه موقعًا حسنًا، ويحقق فوائده وأغراضه المرجوة.



أسلوب الحكيم

ومن صور خروج الكلام عن مقتضى الظاهر أسلوب الحكيم، وقد عرفوه بقولهم: «تلقى المخاطب بغير ما يتقرب بحمل كلامه على خلاف مراده تنبيهًا على أنه الأولى بالقصد، أو تلقي السائل بغير ما يتطلب بتنزيل سؤاله منزلة غيره تنبيهًا على أنه الأولى بحاله أو المهم له...»^(١).

فمن الأول قول ابن القبعثري الشيباني، وكان ممن خرجوا على الحجاج بن يوسف الثقفي، فقال له الحجاج متوعدًا بالقيد: «لأحملنك على الأدهم» فقال ابن القبعثري حاملاً كلامه على غير مراده: «مثل الأمير يحمل على الأدهم والأشهب» فقد أبرز وعيده في معرض الوعد، لأن الحجاج أراد بالأدهم: القيد، وابن القبعثري أراد به: الفرس الأدهم وهو الذي يغلب سواده بياضه، ثم عطف عليه

(١) الإيضاح / ١٦٠.

الأشهب، وهو الذي غلب بياضه على سواده، وكأنه يريه بألطف وجه أن من كان على صفته في السلطان وبسطة اليد فجدير به أن يكرم لا أن يعذب، وأن يعد فيعطي لا أن يتوعد ويهدد.

ولذا لما قال له الحجاج بعد ذلك: «إنه الحديد»، أجابه: لأن يكون حديدًا خير من أن يكون بليدًا، صرف كلامه أيضًا إلى غير مراده، لأن الحجاج أراد أنه قيد حديد، فصرفه ابن القبعثري إلى الفرس قائلًا: لأن يكون حديدًا خير من أن يكون بليدًا، أي: لأن يكون الفرس ذا حدة وقوة ونشاط خير من أن يكون بليدًا فاترًا وهو بهذا ينبه إلى أن ما ينبغي أن يفعله يجب أن يكون من جنس التكريم والإنعام فهذا هو الأولى بمن في مثل مقامه، واللائق بمن في مكانته وعلو منزلته.

واقرا قول الشاعر مفتخرًا بكرمه:

أَتَتْ تَشْتَكِي عِنْدِي مُزَاوَلَةَ الْقَرَى وَقَدْرَأْتُ الضَّيْفَانَ يَنْحَوْنَ مَنْزِلِي
فَقُلْتُ كَأَنِّي مَا سَمِعْتُ كَلَامَهَا هُمُ الضَّيْفُ جَدِّي فِي قَرَاهِمُ وَعَجَلِي

فقد جاءتة تشتكي مزاولة القرى، وذلك لكثرة ضيوفه، فهي لا تكف عن العمل في إعداد الطعام لهم، إذ كلما ذهب ضيف أقبل آخر، وبدل أن يجيئها فيخفف عنها مزاولة القرى، ويكف أو يقلل من ضيافته، يطلب منها الجد ومضاعفة الجهد: «هم الضيف جدي في قراهم وعجلي» فهذا هو المهم عنده واللائق به، لا أن يحقق ما أرادت ويمتنع عن إكرام الضيفان.

تراه قد حمل كلامها على غير مراده ووجهه إلى ما ينبغي أن يكون، وكأنه يخطئها فيما قالت، ولذا سباه عبد القاهر: أسلوب المغالطة، وسباه غيره من البلاغيين أسلوب الحكيم، لأنها مغالطة حكيمة لطيفة، حيث لم تقم على المواجهة الصريحة المكشوفة، بل قامت على الإخفاء واللطف والطرافة، مراعاة للأدب والذوق.

انظر إلى قول ابن الرومي:

وَقَالُوا: قَدْ صَفَّتْ مِنَّا قُلُوبٌ لَقَدْ صَدَقُوا وَلَكِنْ مِنْ وَدَائِي

وتأمل: كيف يخطئهم ويكذبهم وهو يقول: صدقوا... إنها مغالطة حكيمة لطيفة.

ومن الثاني: أي تلقي السائل بغير ما يتطلبه سؤاله، بأن ينزل هذا السؤال منزلة غيره تنبيهاً على أنه الأولى بحاله والمهم له، قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩] فقد سألوه عليه الصلاة والسلام عن الأهل فقالوا: ما باله يبدو دقيقاً مثل الخيط ثم يتزايد قليلاً حتى يمتلى ويستوي ثم لا يزال ينقص حتى يعود مثل ما بدا؟ أي أنهم سألوا عن السبب وعن العلة في تغيير منازل القمر، فأجيبوا ببيان الحكمة والفائدة من ذلك التغيير: «قل هي مواقيت للناس والحج» تنبيهاً على أنه الأولى بحالهم والمهم لهم...

ومنه قوله عز وجل: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالسَّكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ﴾ [البقرة: ٢١٥] فقد سألوه عن بيان ما ينفقون فأجيبوا ببيان المصرف للتنبيه على أنه هو المهم لهم وهو الذي ينبغي أن تتجه إليه همهم وعنايتهم، فليس المهم أن يكون المنفق قليلاً أو كثيراً ذهباً أو فضة ما دام من جنس الخبر، ولكن المهم أن يصرف فيما ينبغي أن يصرف فيه وأن يقع في موقعه المشروع.

ولله در حسان بن ثابت رضي الله عنه إذ يقول:

إِنَّ الصَّنِيعَةَ لَا تَكُونُ صَنِيعَةً حَتَّى يُصَابَ بِهَا طَرِيقُ الْمُضْئِجِ
فَإِذَا صَنَعْتَ صَنِيعَةً فَأَعْمَدِهَا اللَّهُ أَوْ لِيذَوِي الْقَرَابِئِ أَوْ دَعِ

واقرا قوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣-٢٨] فقد سأله عن رب العالمين فقال: ﴿قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣-٢٨] ثم سأله عن رب السموات والأرض وما بينهما، فقال: ﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٣-٢٨] ثم سأله عن رب العالمين فقال: ﴿قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣-٢٨] ثم سأله عن رب السموات والأرض وما بينهما، فقال: ﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٣-٢٨] ثم سأله عن رب العالمين فقال: ﴿قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣-٢٨] ثم سأله عن رب السموات والأرض وما بينهما، فقال: ﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٣-٢٨] وهو الذي ينبغي أن يسألوا عنه وأن يشغلوا به.

أسلوب القلب

ومنها أسلوب القلب وهو أن يجعل المتكلم أحد أجزاء الكلام مكان جزء آخر يجعله مكانه على وجه يثبت حكم كل منهما للآخر، فليس منه التقديم في نحو قولك: في الدار زيد، وضرب عمرًا زيد، لأنك في مثل هذا التقديم لم تثبت حكم المقدم للمؤخر ولا العكس.

وقد قسم البلاغيون القلب إلى قسمين:

١- قلب معنوي: وهو أن يكون الداعي للقلب من جهة المعنى، وذلك لتوقف صحته عليه، ويكون اللفظ تابعًا... ومنه قولهم: عرضت الناقة على الحوض، إذ الأصل: عرضت الحوض على الناقة، لأن المعروض عليه يجب أن يكون ذا شعور واختيار لأجل أن يميل إلى المعروض أو يجمعه عنه، والداعي إلى هذا القلب هو أن المعتاد في ذلك أن يؤتى بالمعروض إلى المعروض عليه، ولما كانت الناقة هي التي يؤتى بها إلى الحوض، نزل كل منهما منزلة الآخر فأعطي حكمه.

ومثله قولك: أدخلت الخاتم في الإصبع والقلنسوة في الرأس، والثوب في الجسم، فالأصل أن يقال: أدخلت الإصبع في الخاتم والرأس في القلنسوة والجسم في الثوب، وذلك لأن العادة جرت أن يتحرك بالمظروف نحو الظرف ولكن لما كان المظروف في الأمثلة وهو الإصبع والرأس والجسم ثابتًا، والظرف وهو الخاتم والقلنسوة والثوب متحركًا، نزل كل منهما منزلة الآخر فأعطي حكمه...

ومن ذلك قول رؤبة بن العجاج:

وَمَهْمَةٌ مَعْبَرَةٌ أَرْجَأُوهُ كَأَنَّ لَوْنَ أَرْضِهِ سَأَأُوهُ^(١)

إذا الأصل كأن لون سبائه لغبرتها لون أرضه فقلب التشبيه لقصد المبالغة...

(١) مَهْمَةٌ فلان فلانًا ومهمه به أي: زجره، وقال له: مه مه أي: اكفف، فَمَةٌ: اسم فعل أمر بمعنى: اكفف، والمَهْمَةُ: المفازة جمعها: مَهَامَةٌ.

وقول أبي تمام يصف قلم الممدوح:

لَعَابُ الْأَفَاعِي الْقَاتِلَاتِ لَعَابُهُ وَأَزْيُ الْجَنَى اشْتَارَتْهُ أَيْدِي عَوَاسِلُ^(١)

والأصل: لعبه لعاب الأفاعي وأرى الجنى، فقلب التشبيه للمبالغة...

وقول محمد بن وهيب:

وَبَدَا الصَّبَاحُ كَأَنَّ عَرَّتَهُ وَجْهَ الْخَلِيفَةِ حِينَ يُمْتَدِّحُ

والأصل تشبيه وجه الخليفة بغرة الصباح فعكس مبالغة في التشبيه...

ومنه قول الآخر:

رَأَيْتَ شَيْخًا قَدْ مَخَّنَى صُلْبُهُ يَمْشِي فَيَقْعَسُ أَوْ يَكْبُ فَيَعْتُشُرُ

والأصل: أو يعثر فيكب، فقلب مبالغة في ضعفه ووهنه وأنه صار يعثر حتى

في أثناء انكبابه...

٢- قلب لفظي: وهو أن يكون الداعي إليه من جهة اللفظ، بأن تتوقف صحة

اللفظ عليه، ويكون المعنى تابعاً، كما إذا وقع ما هو في موقع المبتدأ نكرة وما هو في موقع الخبر معرفة... ومثاله قول القطامي:

فَإِنِّي قَبْلَ التَّفَرُّقِ بَاضِبَاعًا وَلَا يَكُ مَوْقِفٌ مِنْكَ الْوَدَاعَا^(٢)

فالقلب في قوله: ولا يك موقف منك الوداع، لأن الشاعر عرف «الوداع»،

وهو في موضع الخبر، ونكر «موقف منك»، وهو في موضع المبتدأ، فهو قلب لفظي والأصل، ولا يك موقف الوداع موقفاً منك، إذ لا يصح الإخبار بالمعرفة عن النكرة ولذا جعل من القلب، ولو أن الشاعر قال: ولا يك موقف منك وداعاً بتنكير «الوداع» لاستغنى عن تقدير القلب في البيت، لأنه عندئذ يكون الأسلوب قد جاء على الأصل من الإخبار بالنكرة عن النكرة المعتمدة على مسوغ وهو الوصف: «منك»، والنهي: «لا يك» وهذا قد أجازته النحاة...

(١) أرى الجنى: العسل من إضافة الموصوف للصفة، واشتارته: جنته والأيدي العواسل: العارفة بجنيه، والصفة الأولى صفة القلم مع الأعداء والثانية صفة مع الأصدقاء.

(٢) الألف في: «ضباعاً» للإطلاق وهو مرخم ضباعه اسم بنت للقطامي وقيل اسم امرأة غيرها.

ومنه أيضا قول حسان:

كَأَنَّ سَيِّئَةً مِنْ بَيْتِ رَأْسٍ يَكُونُ مَزَاجَهَا عَسَلٌ وَمَاءٌ
غَلِيٌّ أَتْيَاهَا أَوْ طَعْمُ غَضَّرٍ مِنْ التَّفْجَاحِ عَصْرُهُ اجْتِنَاءٌ^(١)

فقوله: يكون مزاجها عسل وماء قلب لفظي، لأنه نكر ما في موضع المبتدأ وعرف ما في موضع الخبر، والأصل فيهما العكس - كما عرفت - ويروى البيت برفع «مزاجها» على أن اسم يكون ضمير الشأن وجملة: مزاجها عسل وماء خبرها، وعندئذ فلا قلب في البيت.



آراء البلاغيين في أسلوب القلب

اختلف البلاغيون في أسلوب القلب، فبعضهم يقبله مطلقاً، ولو أوهم خلاف المراد، ومن هؤلاء السكاكي، وحجتهم أنه أسلوب يورث الكلام ملاحظة ولطفاً، لأن قلب الكلام مما يحوج إلى التفكير والتنبيه للأصل... ورده بعضهم مطلقاً، واحتجوا بأن الكلام إنما وضع لإفادة ما يصح، والقلب يؤدي إلى ما لا يصح، لأنه عكس للمطلوب.

ويرى الجمهور أن القلب لا يمكن إنكاره ورده؛ لأنه وارد على ألسنة العرب وكثيراً ما يكون له اعتبارات لطيفة ومزايا حسنة، كما أنه لا يمكن قبوله مطلقاً، لأنه قد يوهم خلاف المراد، وقد يرد ولا يكون وراءه اعتبار لطيف، ولذا فهم يقبلون منه ما تضمن اعتباراً لطيفاً زائداً على مجرد الملاحظة، كما رأيت في الأمثلة والشواهد المتقدمة، ويردون ما لا يتضمن اعتباراً لطيفاً، لأنه عندئذ يكون عكساً للمراد وعدولاً عن الظاهر بلا نكتة يعتد بها...

(١) السيئة: الخمر المشتراة للشراب، وبيت رأس بلد بالشام بين رملة وغزة، والغضك الطري، وقوله: عصره بمعنى أساله كناية عن إدراكه وقت نضجه، شبه ريق محبوبته بخمر مزجت بعسل أو بسائل التفاح.

فمن ذلك القلب المردود قول القطامي عن ناقتة:

فَلَمَّا أَنْ جَرَى سِمْنٌ عَلَيْهَا كَمَا طَيَّنْتَ بِالْقَدَنِ السِّيَاعَا
أَثَرْتُ بِهَا الرَّجَالَ لِأُخْذُوهَا وَتَحْنُ نَظْنُ أَنْ لَنْ تُسْتَطَاعَا^(١)

يريد: أنها صارت ملساء من السمن كالقصر المطين بالسياع، وفي ذلك قلب معنوي، إذ الأصل: كما طينت الفدن بالسياع، فإن حمل السياع على الآلة التي يطين بها، فليس وراء القلب عندئذ اعتبار لطيف، وإن حمل على الطين فيجوز أن يكون المقصود المبالغة في سمنها لأنه يقصد عندئذ تشبيه السمن بالسياع الذي صار لكثرتيه كأنه الأصل، والقدن هو الفرع فكذلك السمن قد صار ضخماً عظيماً، ولكن هذا لا يخلو من تكلف كما ترى...

ومنه قول قطري بن الفجاءة:

لَا يَبْرُكُنَّ أَحَدٌ إِلَى الْإِحْجَامِ يَوْمَ الْوَعَى مَتَخَوْفًا لِجَمَامِ
فَلْتَعْدُرَانِي لِلرَّمَاكِ دَرِيئَةً مِنْ عَن يَمِينِي مَرَّةً وَأَمَامِي
حَتَّى خَضِبْتُ بِمَا تَحْدَرُ مِنْ دَمِي أَكْتَفَافَ سَرَجِي أَوْ عَنَانَ لِحَامِي
ثُمَّ انْصَرَفْتُ وَقَدْ أَصَبْتُ وَلَمْ أَصِبْ جَذَعَ الْبَصِيرَةِ قَارِحَ الْإِقْدَامِ^(٢)

والشاهد في البيت الأخير، إذ الجذع يطلق على حديث السن غير المجرب للأمور، فالأصل أن يقال: جذع الإقدام قارح البصيرة، لأنه يفخر بنفسه ويتمدح، وهذا لا يتأتى إلا على القلب إذ يقال في المدح: «إقدام غر ورأي مجرب» وبناء على ذلك فالقلب لم يتضمن معنى لطيفاً، بل أوهم خلاف المراد.

(١) الفدن، القصر، والسياع: الطين المخلوط بالطين، أو الآلة التي يطين بها، يعني أنها صارت ملساء من السمن كالقصر المطين بالسياع، وقوله: أن لن تستطاع معناه: أن لن يقدر عليها أحد للاستطاع وضخامتها.

(٢) الإحجام: التأخر، والوعى: الحرب، والحام: الموت، والدرية: حلقة يتعلم عليها الطعن شبه نفسه بها وهي من الدرء بمعنى الدفع، وأكتفاف السرج: جوانبه، والعنان: سير اللجام، وجذع البصيرة بمعنى غير مجرب للأمور، وقارح الإقدام بمعنى إقدام أصحاب السن القديمة.

وقد أجيّب عنه بأنه لا قلب في البيت بل المعنى يحتمل أحد أمرين:

أولهما: أن قوله: «لم أصب» بمعنى: لم أوجد بهذه الصفة، وليست بمعنى: لم أرح، بدليل البيت قبله، فإن الخضاب بها تحدر من دمه يدل على أنه جرح، وأيضًا فحوى كلامه ينبيء بأنه جرح ولم يمّت، إذ يعلن أن الإقدام غير علة للحمام ويحث على الشجاعة، وينفر من الفرار والإحجام، فمعنى البيت الأخير: ثم انصرفت وقد أصبت من الأعداء ولم أوجد جذع البصيرة قارح الإقدام بل وجدت: قارح البصيرة جذع الإقدام.

وثانيهما: أنه يريد أن يشبه بصيرته بالجذع في عدم الاختلاط والتزلزل من الهول، وأن يشبه إقدامه بالقارح في الصبر والاحتمال، ولا يخفى عليك أن الإجابة الأولى أقوى وأقرب لأنها تتفق مع سياق الأبيات، وعلى كلتا الإجابتين فلا قلب في البيت كما هو واضح.

ومن القلب المردود قول عروة بن الورد:

فَلَوْ أَنِّي شَهِدْتُ أَبَا سَعَادٍ غَدَاةً غَدَاةً غَدَاةً غَدَاةً غَدَاةً غَدَاةً غَدَاةً غَدَاةً غَدَاةً غَدَاةً
فَدَيْتُ بِنَفْسِي نَفْسِي وَمَالِي وَمَا أَلْوَكُ إِلَّا مَا أَطِيقُ^(١)

فالأصل: فديت نفسه بنفسي ومالي، وليس وراء هذا القلب اعتبار لطيف، لأنه يوهم خلاف المراد.

ومنه قول خدّاش بن زهير:

وَتَلَحَّقْتُ خَيْلًا لَا هَوَادَةَ بَيْنَهَا وَتَشَقَّى الرَّمَاحُ بِالضِّيَاظِرَةِ الْخُمْرِ^(٢)

فالأصل: وتشقى الضياطرة الحمر بالرماح فهو قلب معنوي لا تجد وراءه اعتبارًا لطيفًا، وقد ذكر له سوى القلب وجهان: أحدهما أن يجعل شقاء الرماح بهم

(١) يقال: فاق بمهجته ولمهجته يفوق: إذا أشرفت نفسه على الخروج أو خرجت، وما ألوك بمعنى: لم أقصر فيك.

(٢) الهوادة: اللين، والمعنى لا لين بين أصحابها. والضياطرة جمع ضيطر وهو الضخم اللين العظيم الاست. والحمر: جمع أحر اللون وقيل هو الذي لا سلاح معه.

استعارة لكسرها وتحطيمها بطعنهم بها، والثاني أن يجعل نفس طعنهم شقاء للرمح، تحقيراً للشأن الضيافة، وأنهم ليسوا أهلاً لأن يطعنوا بها كما يقال: شقي الخبز بجسم فلان، إذا لم يكن أهلاً للبسه...

ومنه قول حسان السابق:

كَأَنَّ سَيْبِيئَةً مِّنْ بَيْتِ رَأْسِي يَكُونُ مِرَاجَهًا عَاسِلٌ وَمَاءٌ

وقول القطامي وقد سبق أيضاً:

فِي قَبْلِ النَّفْرِ قِيَابًا وَلَا يَكُ مَوْقِفٌ مِّنْكَ الْوَدَاعَا

وقد وقفت على ما في البيتين من قلب لفظي ليس وراءه اعتبار بلاغي، وتبين

لك أن بيت حسان يمكن حمله على غير القلب.

هل يوجد أسلوب القلب في النظم الكريم؟

أجاب بعض البلاغيين بنعم وزعموا أن منه قوله تعالى: ﴿وَكَمْ مِّنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بِأَسْنَا بَيْنَا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٤]، على أن الأصل: جاءها بأسنا فأهلكناها.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾ [النجم: ٨]، والأصل: ثم تدلى فدنا، وقوله تعالى: ﴿أَذْهَبَ بِكُنْيَى هَذَا فَأَلْقَاهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ [النمل: ٢٨]، والأصل: فانظر ماذا يرجعون ثم تول عنهم.

ومنع ذلك الجمهور، لأنه لا يوجد وراء تقدير القلب في الآيات الكريمة اعتبار لطيف، ولذا رأوا أن الأصل في الآيات: وكم من قرية أردنا إهلاكها فجاءها بأسنا، ثم أراد الدنو من محمد ﷺ فتدلى أي: فتعلق عليه في الهواء. ثم تول عنهم، أي: تنح إلى مكان قريب تتوارى فيه ليكون ما يقولونه بمسمع منك، فانظر ماذا يرجعون، فيقال: إنه دخل عليها من كوة فألقى الكتاب إليها وتوارى في الكوة لئيسمع ما يقولون.

أسلوب التغليب

ومنها التغليب وقد عرفوه بقوهم: هو إعطاء أحد المتصاحبين أو المتشابهين حكم الآخر بجعله موافق له في الهيئة أو المادة، كما في قوله تعالى: ﴿وَصَدَقْتَ بِكَلِمَاتٍ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ، وَكَانَتْ مِنَ الْقَلْبَيْنِ﴾ [التحریم: ١٢]، فكان مقتضى الظاهر أن يقال: وكانت من القانتات، ولكن النظم الكريم عدل عن ذلك فعد الأنثى من الذكور بحكم التغليب، وفيه إشعار بأنها قد بلغت في طاعتها مبلغ أولئك الرجال فعدت منهم...

ومنه قوله تعالى: ﴿لَتُخْرِجَنَّكَ يَشْعَبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨]، فقد أدخل شعيب -عليه السلام- في قوله: «لتعودن» بحكم التغليب، لأنه لم يكن في ملتهم أصلاً حتى يقال: إنه يعود فيها، وإنما غلب عليه الذين آمنوا معه، فعد منهم، وكان مقتضى الظاهر أن يقال: أو ليعودن.

ومثله قوله جل وعلا: ﴿إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ تَجُنَّا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رِئْسًا﴾ [الأعراف: ٨٩]، ومنه قوله تعالى: ﴿فَسَجِدُوا إِلَّا إِنْ بَرَأْتُمْ شَيْئًا﴾ [البقرة: ٢٣٤]، فقد عد إبليس من الملائكة بحكم التغليب... وقوله عز وجل: ﴿جَعَلْ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، فمعنى «يذُرُّكُمْ فيه»: يشكم ويكثركم في هذا التدبير وهو أن جعل للناس والأنعام أزواجاً حتى كان بين الذكور والإناث التوالد والتناسل، وقد جعل هذا التدبير كالمنبع والمعدن للث والتكثير، ولذا عبر بالحرف «في» دون «الباء» فقيل: «يذُرُّكُمْ فيه»، ولم يقل: «به» ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩]، حيث جعل القصاص كالمنبع والأصل للحياة... والتغليب في الآية الكريمة تغليب العقلاء المخاطبين على الأنعام الغائبة، وكان مقتضى الظاهر أن يقال: يذُرُّكُمْ ويذروها فيه...

ومن تغليب أحد المتشابهين على الآخر قولنا: الأبوان للأب والأم والقمران للشمس والقمر، والعمران لعمر وعمرو... ومن التغليب أيضاً خطاب الواحد خطاب الاثنين والجمع، وخطاب المثني مخاطبة الجمع، حيث يغلب المثني على المفرد والجمع على المفرد والجمع على المثني... وهكذا.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتَنَّا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ﴾ [يونس: ٧٨]، فكان مقتضى الظاهر أن يقال: وتكون لك الكبرياء في الأرض، فعدل عن هذا إلى قوله: «لكما» تغليبا للمثنى على المفرد، والمراد بالمثنى: موسى وهارون -عليهما السلام-.

ومنه قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾ [الطلاق: ١]، حيث غلب الجمع على الواحد، وكان مقتضى الظاهر أن يقال: «إذا طلقت النساء فطلقهن» فعدل إلى الجمع، لأنه حكم عام وتشريع للأمة وليس خاصا به -عليه الصلاة والسلام-.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ [يونس: ٨٧]، فكان مقتضى الظاهر أن يقال: واجعلوا بيوتكم قبلة، فعدل عن ذلك إلى قوله جل وعلا «واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلاة» تغليبا للجمع على المثنى، لأن الأمر لم يعد خاصا بموسى وهارون، بل تجاوزهما إلى كل مكلف بُلِّغَ الرسالة.



المخالفة في صيغ الأفعال

ومن صور خروج الكلام عن مقتضى الظاهر المخالفة في صيغ الأفعال بأن يعبر عن المستقبل بلفظ الماضي أو باسم الفاعل أو المفعول، وعن الماضي بلفظ المضارع، وعن المصدر أو المضارع بلفظ الأمر، وذلك لا يكون إلا لأغراض بلاغية ومزايا يقتضيها المقام ويهدف إليها البلاغي...

انظر إلى قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]، تجد التعبير عن المضارع بلفظ الماضي في الآية الكريمة لسر بلاغي، وهو إفادة تحقق الوقوع، وأن ما هو للوقوع في المستقبل، وهو النفخ في الصور وصعوق من في السموات والأرض كالوقوع الآن، لأنه واقع لا محالة...

ومثله قوله عز وجل: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَنُفِخَ فِي السُّمُونِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوَةٍ ذَاخِرِينَ﴾ [النمل: ٨٧]، قيل: «ففرع» و«أتوه» والمراد: فيفرغ، ويأتونه، إذ الحدث لم يقع بعد، ولكن عبر عنه بالماضي إشارة إلى تحقق وقوعه، فهو واقع لا محالة.

وكذا القول في الآيات الكريمة ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْتَنَّهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧]، ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١]، ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا﴾ [الأعراف: ٤٨]، فالتعبير بالماضي عن الأحداث المشار إليها جعل المتوقع الذي لا بد من وقوعه في المستقبل بمنزلة الواقع المحقق.

وهكذا عندما تقرأ أساليب القرآن الكريم تجد لهذا التعبير مذاقاً حلواً ووقفاً حسناً، اقرأ قوله تعالى: ﴿وَأَزَلَّتْ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ وَبُرُزَّتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿١٠﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿١١﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْصُرُونَ ﴿١٢﴾ فَكُتِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿١٣﴾ وَجُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿١٥﴾ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١٦﴾ [الشعراء: ٩٠-٩٧]، وتأمل الأفعال «أزلفت... برزت... قيل: كبروا... قالوا»، وكيف قربت الجنة للمتقين، وهم ما زالوا أحياء في الدنيا، وكيف برزت الجحيم، وقيل للغاوين ما قيل تبكيتاً، بل كيف قالوا هم: تالله إن كنا لفي ضلال مبين، وهم لا يزالون يعاندون في الدنيا ويكابرون.

واقراً قوله: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّبِيحَةِ فُكِّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ [النمل: ٩٠]، وقوله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَ بِالسَّبِيحِ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ﴾ [الزمر: ٦٩]، وقوله عز من قائل: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴿١٠٠﴾ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿١٠١﴾ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَىٰ عَتِيدٍ ﴿١٠٣﴾ [ق: ١٩-٢٣] وتأمل كيف طويت الأحداث في الآيات وأبرزت تلك الأفعال محققة واقعة ويرجع ذلك إلى التعبير عنها بلفظ الماضي كما ترى.

ومثل ذلك التعبير عن المضارع باسم الفاعل كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾

[الذاريات: ٦]، أو باسم المفعول كقوله عز وجل: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣] وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠].

فقد عبر في الآيات الكريمة عما سيقع لا بحالة باسم الفاعل واسم المفعول فأفاد ذلك تحقق وقوعه، وأنه لا محالة واقع.

ومن التعبير عن الماضي بلفظ المضارع قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْتَنَهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ [فاطر: ٩]، فقد عبر عن الماضي بلفظ المضارع في قوله: «فتثير سحاباً» استحضاراً لصورته العجيبة البديعة الدالة على القدرة الباهرة، وكأنها واقعة أمامك وأنت تشاهدها الآن وتتأملها وتبصر ما فيها من عجب وغرابة فيكون تأثيرها أشد ووقعها أقوى.

ومثله قوله تعالى: ﴿وَأَتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيْطَانُ عَلَىٰ مَلِكٍ سُلَيْمَانَ﴾ [البقرة: ١٠٢]، أي: ما تلت فعبر بالمضارع استحضاراً لصورته العجيبة.

وكذا القول في الآيات الكريمة: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [السجدة: ١٢]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوَىٰ بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ [آل عمران: ٥٩]، وقد مرت بك هذه الآيات عند الحديث عن «لو» كما مر بك أيضاً التعبير بالمضارع عن الماضي في قول تابت شرّاً وزعمه أنه قد قتل الغول عندما تعرضت له في الفلاة:

فَسَدَّتْ شُدَّةٌ تُخْوِي فَأَهْوَتْ لَهَا كَفِّي بِمَا ضُفُّوْا بِإِنِّي
فَأَضْرِبُهُمْ بِبِلَادِهِمْ فَخَرَّتْ صَرِيغًا لِلْيَدَيْنِ وَلِلْجِرَانِ^(١)

فكان مقتضى الظاهر أن يقال: فكأنما خر من السماء فخطفته الطير أو هوت به الريح، ثم قال له كن فكان... فأهوت لها كفي فضربتها ولكن عدل عن هذا المقتضى إلى التعبير بالمضارع لإبراز تلك الأحداث وإحضارها ماثلة أمامك مشاهدة

(١) ارجع إلى تقييد الفعل بـ"إن" و"إذا" و"لو" في أحوال المسند الفصل الثالث.

بناظريك، لأنها أحداث عجيبة وغريبة... تتخيل المشرك وقد خر من السماء والطير تخطئه أو الريح تهوي به إلى مكان سحيق... وتمثل أمامك القدرة الإلهية، «كن فيكون» وتصور تأبط شراً بصارع الغول ويضرها فتخر صريعاً ويريح الإنسانية من شرها ومن شر الإخافة بها.

ثم تأمل قوله عز وجل ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَخْتَصِمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَمٌّ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٩﴾ فَفَهَّمْنَهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [الأنبياء: ٧٨، ٧٩]، حيث لم يعبر بالماضي فيقال: «إذ حكما في الحرث» ولا باسم الفاعل فيقال: «مسبحات» حسب مقتضى الظاهر، ولكن عدل عنه إلى المضارع إبرازاً وإحضاراً لصورة الحدثين وهما يقعان وكان القارئ يشاهدهما يحدثان أمامه...

ومثل التعبير بالمضارع عن الماضي استحضاراً وإبرازاً لصورته العجيبة، التعبير به عن اسم الفاعل أو اسم المفعول كما في الآية السابقة وكما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعُشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ [ص: ١٨]، فمقتضى الظاهر أن يقال: «مسبحات»؛ لأن التسييح قد وقع في زمن داود عليه السلام، ولكن النظم الكريم خالف هذا الظاهر وعبر بالمضارع: «يسبحن» ليحضر الحدث من الماضي البعيد ويبرزه في مقام المشاهدة، وكأنك تنظر إلى هذا الحدث العجيب واقعاً أمامك، وذلك لأن تسييح الجبال وتأويبها مع داود من الأحداث العجيبة الدالة على قدرة الله عز وجل.

ومثله قوله تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُحَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ [ص: ٣٦]، وقوله عز وجل: ﴿وَلَسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨١]، فكان مقتضى الظاهر أن يقال: فسخرنا له الريح جارية بأمره، ولسلمان الريح عاصفة جارية بأمره، ولكن عدل عن هذا الظاهر فعبّر بالمضارع إحضاراً لتلك الصورة العجيبة الدالة على القدرة الإلهية وكأنك حين تقرأ الآيات تشاهد الريح تجري بأمر سليمان عليه السلام، وتمثل صورة جرياتها بقدرة الله تعالى وتسخير الله إياها له عليه السلام.

وقد يعبر بفعل الأمر عن الماضي أو المضارع كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [الأعراف: ٢٩]، إذ كان مقتضى الظاهر أن يقال: أمر ربي بالقسط وإقامة وجوهكم ودعوته مخلصين... فعدل عن هذا الظاهر إلى الأمر: «وأقيموا... وادعوه» للدلالة على مزيد العناية بالمأمور به، والإيحاء بأن السامع ينبغي أن يلتفت إليه، وأن يؤمر به، وينبه إلى عظمه وأهميته...

وتأمل قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ٥٣، ٥٤]، نجد أن مقتضى الظاهر أن يقال: أشهد الله وأشهدكم، فعدل عن ذلك إلى الأمر: «واشهدوا» لمغزى بلاغي جليل وهو أن في أمرهم أن يشهدوا ببراءته من دينهم ضرباً من التحدي الذي ينبئ بحقارة ما يعبدون، وفيه أيضاً دلالة على أن إسهاد الله على البراءة من الشرك إسهاد صحيح ثابت، وأما إسهادهم فما هو إلتهاون بدينهم، ودلالة على قلة المبالاة بهم فحسب، ولذا عدل به عن لفظ الأول لاختلاف ما بينهما...

هذا وبعض البلاغيين كالعلوي صاحب الطراز وابن الأثير صاحب المثل السائر، يجعل مخالفة مقتضى الظاهر في صيغ الأفعال من باب الالتفات الذي مر بك، كما يجعلون منه أيضاً مخاطبة الواحد خطاب المثنى أو الجمع ومخاطبة المثنى خطاب الجمع أو الواحد ونحو ذلك مما يخرج فيه الكلام عن مقتضى الظاهر، إذ يرون أن الالتفات هو العدول عن أسلوب في الكلام إلى أسلوب آخر مخالف للأول، ويقولون إن هذا أحسن من قصره على العدول من غيبة إلى خطاب ومن خطاب إلى غيبة، أي: من قصره على الانتقال من إحدى طرق الكلام إلى الأخرى، كما مر بك.

وأياً ما كان الأمر فلا نرى لمثل هذا الخلاف فائدة، لأن المهم هو أن تعرف هذه الصور التي خالفت مقتضى الظاهر، وتقف على ما وراءها من مزايا وأسرار بلاغية، أما كونها من الالتفات أو جعلها صوراً مستقلة عنه، فإن ذلك لن يفيد الدارس شيئاً، ولذا ضربنا صفحاً عن مناقشة مثل هذه الخلافات.

تم بحمد الله تعالى الجزء الأول من كتاب «علم المعاني دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني»، ويليه بمشيئة الله تعالى الجزء الثاني وأوله أسلوب القصر... وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين. وصل اللهم وسلم وبارك على رسولنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين...

الجزء الثاني

أحوال الجملة والجمل

- أساليب القصر.
- أساليب الإنشاء.
- الفصل والوصل.
- الإيجاز والإطناب.

الفصل الخامس

أساليب القصر

أساليب القصر أساليب ثرية، فهي من الأساليب الغنية بالاعتبارات الدقيقة والملاحظات اللطيفة، ولذا قالوا: إن القصر فن دقيق المجرى، لطيف المغزى، جليل المقدار، كثير الفوائد، غزير الأسرار^(١).

انظر إلى قول عبد الله بن قيس الرقيات:

إِنَّمَا مُصْعَبٌ شَهَابٌ مِّنَ اللَّهِ تَجَلَّتْ عَنْ وَجْهِهِ الظُّلَمَاءُ

تجده يفيد المبالغة في وصف مصعب بالشجاعة والإقدام بعبارة مختصرة وأسلوب موجز، وقد أثر الشاعر التعبير بإنها ليدل على أن اتصاف مصعب بصفة الشجاعة أمر ظاهر بين، فتلک خصوصية من خصوصيات «إنها» - كما سنرى - وهذا يتضح لك أن أسلوب القصر في البيت، قد حقق ثلاث مزايا: الإيجاز والمبالغة والدلالة على شهرة مصعب وذیوع شجاعته.

ويرجع ثراء أساليب القصر وكثرة فوائدها إلى تنوع طرقها وما بين تلك الطرق من فروق دقيقة، واعتبارات وملاحظات لطيفة.

هذا والقصر في اللغة معناه: الحبس، يقال: قصرته أي: حبسته، وهو مقصور أي: محبوس، قال تعالى: ﴿ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْبُيُوتِ ﴾ [الرحمن: ٧٢]، أي: محبوسات قد قصرن نظرهن على أزواجهن، فالمرأة قاصرة الطرف هي التي تحبس طرفها على بعلمها وتخصه به فلا تمده إلى غيره.

وفي اصطلاح البلاغيين: «هو تخصيص شيء بشيء بطريق مخصوص»^(٢) فعندما نقول: زهير شاعر لا كاتب، فإننا نخص زهيرًا بصفة الشعر بحيث لا يتجاوزها إلى صفة الكتابة، فزهير مقصور، والشعر مقصور عليه، وقد قيد البلاغيون التخصيص بالطريق المخصوص، ليخرج كل ما أفاد القصر بغير تلك

(١) انظر كتاب النظائر ج ٢ ص ٣٢

(٢) انظر بغية الإيضاح ج ٢ ص ٣

انطرق المخصوصة، فقولنا: زيد مقصور على العلم، وجاء محمد وحده... وعلي يختص بالشعر... وخالد ينفرد بالشجاعة.

وقال أبو ذؤيب:

وَإِذَا الْمَمِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا أَلْفَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لَا تَنْفَعُ

هذه الأقوال وإن أفادت اختصاص شيء بشيء إلا أنها لا تدخل في نطاق دراسة البلاغيين وميدان بحثهم لأن التخصيص فيها لم يتم عن الطرق المعهودة التي حددها.

وعند التأمل نجد أن إفادة القصر بغير الطرق التي حددها البلاغيون، ليس وراءها اعتبارات بلاغية تستدعي الدراسة والبحث، ولذا حصر البلاغيون دراسة القصر في تلك الطرق الغنية بالاعتبارات والملاحظات الدقيقة... وهي «التقديم» كقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ تَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٤]، والعطف نحو: محمد كاتب لا شاعر، وإنما كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مِّنْ مَّحْشَنَهَا﴾ [النازعات: ٤٥]، والنفي والاستثناء كقوله عز وجل: ﴿إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٣]، وأضاف بعضهم: «تعريف المسند أو المسند إليه بأل»، «وتوسط ضمير الفصل بين المبتدأ والخبر» نحو: محمد الجواد... والشجاع عمرو... وعلي هو العالم... وزاد بعضهم طرقاً أخرى حتى وصلت طرق القصر عندهم إلى أربعة عشر طريقاً^(١).

ولكن ما عليه جمهور البلاغيين هو الطرق الأربعة الأولى النفي والاستثناء، و«إنها» والتقديم والعطف «بلا وبلا ولكن»؛ لأنها هي الغنية بالاعتبارات والملاحظات دون غيرها.

وبالباغيون في دراستهم لأسلوب القصر ينظرون إلى غرض المتكلم من الاختصاص... وإلى حال المخاطب التي وقف عليها المتكلم فأحدث هذا التخصيص... وإلى طرفي القصر أي المقصور والمقصور عليه... ثم إلى طرق القصر المشهورة وما بينها من فروق واعتبارات... فالقصر كما عرفوه: «تخصيص شيء

(١) انظر الإثنان ج ٢ ص ٥٠.

بشيء بطريق مخصوص»، الشيء الأول هو المقصور عليه، والثاني هو المقصور، ومعنى اختصاص المقصور بالمقصور عليه: ألا يتجاوزه ويتعداه إلى غيره... ففي قولنا: «ما شاعر إلا زهير» قصر للشاعرية على زهير بحيث لا تتعداه إلى غيره.

وهذا الغير الذي انتفت عنه صفة الشعر إن كان عامًّا فالقصر حقيقي، وإن كان معينًا فالقصر إضافي... والعام إن كان مطابقًا للواقع الخارجي فالقصر حقيقي تحقيقي، وإن كان مبنياً على الادعاء والمبالغة فهو حقيقي ادعائي... ثم القصر الإضافي ينظر فيه إلى حال المخاطب فهو إما أن يكون متردداً في إثبات المقصور للمتنصور عليه ونفيه عن المنفي عنه... وإما أن يكون معتقداً الشركة أي: اشتراك المنفي عنه والمقصور عليه في المقصور... وإما أن يعتقد العكس أي: إثبات المقصور للمنفي عنه ونفيه عن المقصور عليه... فالأول قصر التعيين والثاني قصر الأفراد والثالث قصر القلب.

ثم ينظرون إلى طرفي القصر، أي: المقصور والمقصور عليه، لأنه لا بد أن يكون أحدهما موصوفاً والآخر صفة، ولذا فالقصر إما أن يكون قصر صفة على موصوف أو قصر موصوف على صفة.

هذا وليست طرق القصر سواء في الدلالة عليه، بل بينها فروق دقيقة - كما قلت - تحتاج من الدارس لكي يقف عليها إلى تأمل واع ونظر دقيق؛ ثم إن تحديد المقصور والمقصور عليه ليس بالشيء الهين، بل يحتاج من الدارس أيضاً إلى نظر وتأمل في أسلوب القصر فمثلاً قولك: إنها ضرب محمد زيداً يفيد قصر الضرب الواقع من محمد على المفعول: زيد، وقولك: إنها ضرب زيداً محمد، يفيد قصر الضرب الواقع على زيد، على فاعله محمد، وبينهما فرق كبير.

هذا إجمال نخل لما ذكره البلاغيون في حديثهم عن أساليب القصر، ولكي يتبدد هذا الإخلال فتقف على مزايا القصر وأسواره ودقائقه، والفروق بين طرقه، فإننا نتبعه بالتفصيل والإيضاح والبيان فيما يلي إن شاء الله تعالى.

القصر الحقيقي والقصر الإضافي

ينقسم القصر باعتبار غرض المتكلم وما يقصد إليه إلى قسمين:

قصر حقيقي، وقصر إضافي:

فالقصر الحقيقي: ما كان غرض المتكلم منه أن يختص المقصور بالمقصور عليه بحيث لا يتعداه إلى غيره أصلاً... وهذا يعني أن المنفي عنه يكون عامًا، فالمقصور يختص بالمقصور عليه منفي عن كل ما عداه... كما في قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩]، ففي الآية طريقان من طرق القصر الأول التقديم «وعنده مفاتيح الغيب»، والثاني: النفي والاستثناء «لا يعلمها إلا هو» فمفاتيح الغيب عنده وليست عند غيره، وعلمها مقصور عليه تعالى، منفي عن كل ما عداه، وتكرار القصر أفاد تأكيد هذه الحقيقة وتقريرها، وهي أن العلم بالغيب يختص به تعالى، لا يتعداه إلى أحد من خلقه... ومنه قولنا: «ما خاتم الأنبياء إلا محمد»، فالمراد: أن ختم النبوة مقصور على محمد ﷺ لا يتعداه إلى غيره من الرسل... وقوله عز وجل: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ٦٤]، فالمراد قصر العبادة على الله تعالى بحيث لا تتعداه إلى غيره مطلقًا.

والقصر الإضافي: أن يختص المقصور بالمقصور عليه بالنسبة إلى شيء معين، أي بالإضافة إليه، بحيث لا يتجاوزه إلى ذلك المعين... كما في قولنا: زهير شاعر لا كاتب، فالمراد: قصر زهير على صفة الشعر، بحيث لا يتجاوزها إلى صفة معينة محددة، وهي صفة الكتابة... وهذا لا ينافي أن يكون لزهير صفات أخرى كالخطابة مثلاً، ففي القصر الإضافي يكون المنفي معينًا محددًا، والمراد ألا يتجاوز المقصور المقصور عليه إلى هذا المنفي المعين، وإن أمكن أن يتجاوزه إلى غيره... ومنه قولنا: الشاعر ذو الرمة لا زياد، فصفة الشعر مقصورة على ذي الرمة، لا تتعداه إلى زياد، وإن صح أن تتعداه إلى نصيب والكميت وجريير والفرزدق وغيرهم من الشعراء.

هذا وينقسم القصر الحقيقي إلى قسمين: حقيقي تحقيقي وحقيقي ادعائي.

فالتحقيقي: ما كان المنفي فيه عامًا يتناول كل ما عدا المقصور عليه من حيث

واقع الحال وحقيقة الأمر، فالمقصور يختص بالمقصور عليه لا يتعداه إلى غيره في واقع الأمر وحقيقة الحال، كما في الشواهد التي مرت بنا وكما في قولك: ما أكرمت إلا زيدا، إذا كان الإكرام لم يقع منك إلا على زيد في واقع الأمر وحقيقته...

ومنه قولنا: «لا يحج إلى مكة إلا المسلمون»، فالواقع يطابق هذا، لأن الحج إلى مكة مقصور على المسلمين، ومنفي عن كل من عداهم من أصحاب الملل الأخرى.

ومنه قوله تعالى: ﴿ تَبَرَّكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الملك: ١]، فالملك مختص بالله في الحقيقة والواقع ومنفي عن كل ما عداه، وقوله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٥]، فالعبادة وطلب العون مختصان بالله، ومنفيان عن كل ما عداه في واقع الأمر وحقيقته^(١).

وقوله عز وجل: ﴿ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، فغفران الذنوب مختص بالله تعالى، منفي عما عداه في الواقع والحقيقة...

ونلاحظ أن المقصور في جل الشواهد المذكورة صفة، والمقصور عليه موصوف، فالقصر الحقيقي التحقيقي يقع كثيرا في الكلام إذا كان المقصور صفة، ويقتل في قصر الموصوف على الصفة، لأن الغالب في الموصوف أن يتصف بعدة صفات ولا يوقف على صفة واحدة، أما الصفة فيجوز وقفها على موصوف واحد وحصرها فيه.

وقد غالى بعض البلاغيين فقالوا: إن قصر الموصوف على الصفة قصرًا حقيقياً تحقيقياً لا يتأتى لأنه ما من موصوف إلا وله صفات كثيرة تتعذر الإحاطة بها أو تتعسر، فإذا قلنا: ما زهير إلا شاعر... وما زيد إلا كاتب... لا يتأتى أن يكون زهير مقصوراً على صفة الشعر لا يتجاوزها إلى غيرها... ولا أن يكون زيد موقوفاً على الكتابة لا يتعداها إلى غيرها... كيف وهما يأكلان ويتكلمان ويمشيان، ويتصفان بالحياة، وبالبياض أو السواد وبالقصر أو الطول وبالذكاء أو الغباء... إلى آخر ما يمكن أن يتصف به الحي؟

(١) قصر العبادة على الله تعالى قصر حقيقي تحقيقي. أما قصر الاستعانة عليه تعالى فهو قصر حقيقي غير تحقيقي، لأن هنالك استعانات بين العباد، ولكن الاستعانة بغير الله كلا استعانة.

بل إن البعض خرج بالمسألة عن نطاق الدراسة البلاغية، فقالوا: إن الصفة المنفية لها نقيض البتة، وهذا النقيض من الصفات، فإذا نفيت جميع الصفات لزم ارتفاع النقيضين... واحتدم النقاش واشتد الأخذ والرد، ودخلت المسألة في محادثات كلامية ينبغي أن ينتزه عنها الدرس البلاغي، لأنها من الشوائب التي تعكر صفوه وتكدر عذبه^(١).

ولو تنبه هؤلاء إلى قول عبد القاهر: «واعلم أن قولنا في الخبر إذا أخرج نحو: ما زيد إلا قائم، أنك اختصصت القيام من بين الأوصاف التي يتوهم كون زيد عليها، ونفيت ما عدا القيام عنه، فإننا نعني أنك نفيت عنه الأوصاف التي تنافي القيام نحو أن يكون جالساً أو مضجعاً أو متكئاً أو ما شاكل ذلك، ولم نرد أنك نفيت ما ليس من القيام بسبيل، إذ لسنا ننفي عنه بقولنا ما هو إلا قائم أن يكون أسود أو أبيض أو طويلاً أو قصيراً أو عالماً أو جاهلاً، كما أننا قلنا ما قائم إلا زيد لم نرد أنه ليس في الدنيا قائم سواه، وإنما نعني ما قائم حيث نحن وبحضرتنا وما أشبه ذلك»^(٢)، لو تنبهوا إلى هذا القول ما خرجوا بالمسألة عن نطاق الدرس البلاغي وخاضوا بها الخوض الذي خاضوه.

وخلاصة القول أن المنفي عنه في القصر الحقيقي التحقيقي، ما هو بسبيل من المقصور عليه، وواقع في دائرته، ويتبادر إلى الذهن عند سماع أسلوب القصر، «إذا قلت ما شاعر إلا زيد؛ فإنك لا تعني نفي الشاعرية عن كل من ولدته حواء في كل العصور وكل الأمم، وإنما تعني نفي الشاعرية في حدود ما يشير السياق والقرائن»^(٣)، وكذا إن قلت ما زهير إلا شاعر، لا يعني أنك تنفي عن زهير كل صفة غير الشعر، وإنما يعني أنك تنفي عنه كل ما هو بسبيل من صفة الشعر كالخطابة والكتابة، وكل ما هو في نطاق القول والإبداع مما يحدده السياق وتشير إليه القرائن.

(١) انظر إن شئت شروح التلخيص والمطول.

(٢) دلائل الإعجاز ص ٢٢٥.

(٣) دلائل التراكم ص ٤٢.

أما القصر الحقيقي الادعائي، فهو أن يختص المقصور بالمقصور عليه بحيث لا يتعداه إلى غيره، ادعاء ومبالغة، فالمقصور يختص بالمقصور عليه وينفي عن كل ما عداه مما هو بسبيل منه نفيًا يقوم على المبالغة والتجوز، ولا يقوم على المطابقة الحقيقية للواقع ...

كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر: ٢٨]، فقد قصرت خشية الله على العلماء ونفيت عن كل من عداهم... ولا يعني هذا أن غير العالم لا يخشى الله تعالى، بل قد يكون غير العالم أشد خشية لله من العالم، ولكن سياق الآيات في التنويه بشأن العلماء وتعظيم منزلتهم، والحث على النظر والتأمل. اقرأ ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَعَرَايِبُ سُودٌ ﴾ [فاطر: ٢٧، ٢٨]، ولذا كانت خشية الله مقصورة على العلماء دون غيرهم، لأن خشية غيرهم لا يعتد بها في هذا المقام.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي ﴾ [المائدة: ٢٥]، أثبت موسى عليه السلام، ملكيته لنفسه وأخيه ونفاها عن كل من عداهما، والمراد: لا أملك في سبيل الله والدفاع عن كلمة الحق إلا نفسي وأخي، والسياق يرشد إلى أنه كان هناك رجلان يخافان الله، قد أنعم الله عليهما بالإيمان، ولكن موسى لم يعتد ببايانهما، نظرا لتقلب قومه وتغير أحوالهم ولذا قال: ﴿ فَأَفْرَقَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْفَاقِرِينَ ﴾.

ومن ذلك قولنا: ما شاعر إلا زهير... وما الرثاء إلا رثاء ابن الرومي، وما خطيب إلا زياد... فقد بنى القصر على الادعاء والمبالغة وعدم الاعتداد بغير زهير في الشعر، وبغير ابن الرومي في الرثاء الحزين المؤلم، وبغير زياد في الخطابة وحسن البيان ...

ومنه قول عمر الياقي (ت ١٢٣٣).

لَا سَـيْفَ إِلَّا ذُو الْفَقَارِ وَلَا قَتْلِي إِلَّا عَـلِيٌّ^(١)

فالمراد إثبات القوة والمضاء لذي الفقار وهو سيف الإمام علي -كرم الله وجهه- ونفيها عما عداه، وإثبات الفتوة له -رضي الله عنه- ونفيها عن غيره، ادعاء ومبالغة في قوته وشجاعته، فهناك سيوف كثيرة ماضية نفاذة وهناك ألوان من الفتوة والبطولة لا تقل عن بطولته -كرم الله وجهه- ولذا كان القصر في البيت من قبيل الادعاء والمبالغة...

ومنه قوله ﷺ: «لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَاسْلَطَهُ عَلَى هَلَكَيْتِهِ فِي الْحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْحِكْمَةَ فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا»^(٢)، فقد قُصِرَ الحسد بمعنى الغبطة على هاتين الصفتين، ونُفِيَ عما عداهما ادعاء ومبالغة؛ لأن الغبطة تكون في غير الاثنتين المذكورتين ولكنه نزل غيرهما منزلة العدم على سبيل الادعاء.

هذا والقصر الادعائي كثير في كلام العرب، ويرد في مقامات المبالغة والمدح والتعظيم نحو قولهم: ما مؤدب إلا فلان... ما عالم إلا فلان... ما شاعر إلا امرؤ القيس... ما خطيب إلا صحار العبدي... ما كاتب إلا فلان... بينون الكلام في ذلك على المبالغة وعدم الاعتماد بغير المذكور في تلك الصفات.

قصر الأفراد والقلب والتعيين

تقدم أن القصر الإضافي، ما يكون المنفي فيه معيناً ومحدداً، فالمقصود يختص بالمقصود عليه لا يتجاوزه إلى ذلك المعين كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُشْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢، ٢٣]، حيث قصر الرسول ﷺ على صفة الإنذار، دون أن يملك تحويل القلوب عما هي عليه من العناد والمكابرة.

(١) هذا البيت مجتزأ من قول السيد الحميري (ت ١٧٣) في وصف الإمام علي وسيفه:

لَا سَـيْفَ إِلَّا ذُو الْفَقَارِ وَلَا قَتْلِي إِلَّا عَـلِيٌّ إِنَّ عَدَدْتُ فِيهَا زَا

(٢) رواء البخاري في كتاب العلم برقم (٧٣/١٥).

وكما في قول الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه:
إِلَى اللَّهِ أَشْكُو لَأِِلَى النَّاسِ أَشْتَكِي أَرَى الْأَرْضَ تَبْقَى وَالْأَخْلَاءَ تَذْهَبُ
فقد قصر الشكوى على الله، عز وجل بحيث لا تتعداه إلى شيء معين، وهو
«الناس»...

وهذا القصر الإضافي ينقسم باعتبار حال المخاطب، واعتقاده الذي وقف
عليه المتكلم، إلى ثلاثة أقسام: قلب... وإفراد... وتعيين.
فقصر القلب:

هو تخصيص أمر بأمر مكان آخر... ويخاطب به من يعتقد العكس، كقولك:
جاءني زيد لا عمرو، مخاطباً من يعتقد أن عمراً هو الذي جاءك دون زيد، فأنت
تعكس وتقلب ما يعتقد، ولذا سمي قصر قلب.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ
أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٣]، لأن المنافقين يعتقدون أن المؤمنين
هم السفهاء دونهم، فقلب الله عز وجل اعتقادهم وبين أن المنافقين هم السفهاء
ولكن لا يعلمون.

وقوله تعالى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ
كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ أَنْظِرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظِرْ أَنِّي يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة:
٧٥]، فالنصارى يعتقدون أن الله ثالث ثلاثة: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ
﴾ [المائدة: ٧٣]، فقلب الله تعالى اعتقادهم: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ
مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ [المائدة: ٧٥]، فالمسيح مقصور على كونه رسولاً يخلو كما خلت
الرسول من قبله، ولا يتجاوز ذلك إلى كونه إلهاً كما اعتقد الكفرة، ولذا فالقصر في
الآية الكريمة قصر قلب.

وتأمل قول أبي تمام:

وَالْعِلْمُ فِي شُهْبِ الْأَرْمَاحِ لِأَمْعَةٍ بَيْنَ الْحَمِيسَيْنِ لَأَفِي السَّبْعَةِ الشُّهْبِ
تجده قد قصر العلم على كونه في قوة الجيش والعتاد، ونفاه عن كونه في علم

المنجمين الذين نصحوا المعتصم بألا يقبل على الجهاد في ذلك الوقت، لأن النجوم تنبئ بأن يترث ولا يتعجل، ولكن المعتصم لم يعبأ بما قالوا، وأقبل إلى الجهاد فانتصر وفتح عمورية، وأنشد أبو تمام هذه القصيدة مشيداً بنصره، ومشيراً إلى قصور علم المنجمين... فالقصر في البيت المذكور قصر قلب، لأنهم اعتقدوا أن العلم في السبعة الشهب لا في قوة الرماح والجيش، فنفي أبو تمام هذا وأثبت عكسه كما ترى.

وقصر الأفراد

هو تخصيص أمر بأمر دون آخر، ويخاطب به من يعتقد الشركة، كقولك: محمد الجواد لا علي لمن اعتقد أنها يشتركان في صفة الجود.

ومنه قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ [المائدة: ٧٣]، فهم يعتقدون الشركة وأن الله ثالث ثلاثة، وأفاد أسلوب القصر أن الإله واحد، «وما من إله إلا إله واحد» فهو قصر أفراد... حيث اعتقدوا أن صفة الألوهية يشترك فيها ثلاثة، وأفرد لها القصر واحداً يختص بها دون الآخرين.

وتأمل قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَلَيْنَ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، فالصحابه رضوان الله عليهم لشدة تعلقهم وحبهم للنبي ﷺ، نزلوا منزلة من يعتقد أن محمداً عليه الصلاة والسلام يجمع بين صفتي الرسالة والخلد، فجاء أسلوب القصر مفيداً أنه عليه الصلاة والسلام مقصور على صفة الرسالة، فهو رسول يخلو كما خلت الرسل من قبله، لا يتجاوز صفة الرسالة إلى التخليد في الدنيا.

وخذ قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ [إن أنت إلا نذير] ﴿[فاطر: ٢٢، ٢٣]﴾، فلما كان النبي ﷺ يتمنى هداية قومه، حريصاً بل شديد الحرص على قبولهم الهداية، نزل عليه الصلاة والسلام منزلة من يعتقد أنه يجمع بين صفتي الإنذار والقدرة على خلق الهداية في النفوس التي أصرت على الضلال والمكابرة، فجاء أسلوب القصر: «إن أنت إلا نذير» محدداً مهمة النبي ﷺ وقاصراً له على صفة الإنذار، لا يتعدها إلى القدرة على إسراع من في القبور.

ويشترط في قصر الموصوف على الصفة إفرادًا، عدم تنافي الوصفين حتى يتصور اجتماعهما لموصوف واحد في ذهن المخاطب، فلا يقال في قولك: محمد أبيض لا أسود، إنه قصر إفراد، إذ لا يتصور أن يعتقد معتقد أن محمدًا يتصف بالبياض والسواد معًا...

كما اشترط الخطيب القزويني في قصر الموصوف على الصفة قلبًا، تنافي الصفتين حتى يكون إثبات إحدهما مشعرًا بانتفاء الأخرى كقولك: محمد طويل لا قصير، زيد ذكي لا غبي، عمرو شجاع لا جبان، حاتم كريم لا بخيل... ورد عليه بأن قصر القلب يرد كثيرًا في الصفات غير المتنافية - كما مر بك - فلا وجه لهذا الاشتراط.

قصر التعيين

وهو تخصيص أمر بأمر دون آخر، ومخاطب به المتردد بين شيئين، كقولك لمن يتردد شاكًا في الناجح أعمرو أم بكر، إنما الناجح عمرو، وقولك: لمن يشك في أمر زيد أمقيم أم مسافر، زيد مقيم لا مسافر.

تأمل قول أبي العلاء المعري:

فإن كان في نُبسِ الْفَتَى شَرَفٌ لَهُ فَمَا السَّيْفُ إِلَّا غِمْدُهُ وَالْحَمَائِلُ

تحده قصرًا إضافيًا صالحًا لأن يكون قصر قلب أو إفراد أو تعيين، وذلك حسب تصورك لحال المخاطب، فإن كان يعتقد أن الشرف في اللبس والزينة دون الفضائل النفسية، فهو قصر قلب، وإن اعتقد أن الشرف فيها معًا فهو قصر إفراد، وإن تردد وشك في مرجع الشرف، ألى اللبس والزينة يرجع أم إلى الفضائل النفسية فهو قصر تعيين، والأرجح أن يكون قصر تعيين؛ لأن الشاعر يريد أن يقرر أن مرد الشرف إلى ما يتصف به الإنسان من الفضائل لا إلى الشكل والزينة، فهذا من الأمور الواضحة الجلية. ولا يرتاب فيها إلا من ارتاب في الأمور البديهية، كمن يرتاب مثلاً في مزية السيف وجودته ألى حدته وشدة قطعه ترجع أم إلى غمده والحمايل، فمن ارتاب في هذا الأمر البين، فقل له موبخًا، ومشيرًا إلى ضعف عقله، وقلة تفكيره، وشدة غباه: ما السيف إلا غمده والحمايل.

هذا ومراد البلاغيين بحال المخاطب: ما وقف القارئ للتعبيرات الجيدة عليه من قرائن الأحوال وسياقات الكلام، فالسياق وما به من قرائن هو الذي يبرز لك حال المخاطب...

تأمل قوله تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، وقوله عز وجل: ﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ [المائدة: ٧٥]، فالعبارات واحدة والبناء هو البناء، وعلى الرغم من ذلك نقول: إن القصر في الآية الأولى قصر إفراد، وفي الثانية قصر قلب، والذي جعلنا نقول هذا القول الوقوف على أحوال المخاطبين من خلال تأمل سياق الآيتين.

اقرأ سياق الآية الأولى: ﴿ أَمْرٌ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾ [١]، وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿٢﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَلَا يَنْتَفِعُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ أَنْ يَرْجِعُوا إِلَى اللَّهِ وَأَقْبِلُوا عَلَىٰ عَاقِبَتِهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [آل عمران: ١٤٤ - ١٤٢] فهو يثبتك بمدى حب الصحابة رضي الله عنهم للرسول عليه الصلاة والسلام، وتغلغل هذا الحب في نفوسهم، إلى درجة أنهم قد غفلوا عن أمر موته، ولم يخطر به بالهم.

فها هو ذا عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما- يقول: «فوالله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها عليهم أبو بكر، فتلاها منه الناس كلهم، فما أسمع بشرًا من الناس إلا يتلوها»... وهذا هو عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- يقول: «والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها، فعرفت حتى ما تقلني رجلاي، وحتى هويت إلى الأرض».

فلشدة حب الصحابة لرسول الله ﷺ وتعلقهم به نزلوا منزلة من يستبعد موته، وكأنهم يعتقدون أنه يجمع بين الرسالة والتبري من الهلاك، ولذا كان القصر قصر إفراد.

ثم اقرأ سياق الآية الثانية: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾ [١] لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ

إِلَّا إِلَهُ وَحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٧﴾ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ أَنْظِرْ كَيْفَ تُبَيِّرُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظِرْ أَنِّي يُؤْفَكُونَ ﴿٧٨﴾ [المائدة: ٧٢-٧٥]، فستقف منه على حال هؤلاء، فهم اعتقدوا أن عيسى - عليه السلام - إلهًا، وأن الله ثالث ثلاثة، ولذا كان القصر هنا قصر قلب، حيث قلب اعتقادهم، وأفاد أن المسيح مقصور على كونه رسولاً مخلوقاً كما خلقت الرسل من قبله، لا يتجاوز ذلك إلى مرتبة الألوهية التي اعتقدوها.

وتتكون حال المخاطب لدى المتكلم وترسم في ذهنه من خلال خبرته ومعرفته بشئون مخاطبه، فعند التأمل نجد أن حال المخاطب تشوّل إلى المتكلم وما قد علمه ووعاه عن مخاطبه... وفي كثير من الشواهد لا تستطيع أن تحدد مخاطباً أو تعين حالاً له، بل تجد القصر منظوراً فيه إلى حال المتكلم وما يحكيه عن نفسه...

تأمل قول أبي تمام:

وكنْتُ امرأً ألقى الزَّمانَ مُسَالِماً فَأَلَيْتُ لَأَلْقَاهُ إِلَّا مُحَارِباً

تجد القصر فيه قصر قلب، فالشاعر قد تغير وتبدل وانقلب من امرئ يلقي الزمان مسلماً إلى امرئ لا يلقيه إلا محارباً، وأنت إن ذهبت تفتش عن حال هنا لا تجد إلا حال المتكلم وحديثه عن نفسه.

وقد انشغل كثير من البلاغيين والدارسين بمسألة المخاطب هذه، وخاضوا فيها خوفاً، وقالوا أقوالاً كثيرة، ولا نرى داعياً لإثارة مثل هذه الأمور أو الانشغال بها؛ لأنها لا تعود على الدارس بفائدة، والأمر مآله - كما قلت لك - إلى المتكلم وما يرتسم في ذهنه ويعلمه عن مخاطبه... ونحن عندما ندرس مسائل البلاغة في التعبيرات الجيدة، والأساليب الرفيعة، إننا نتأمل السياق لنقف على قرائن الأحوال فيه. وعندئذ نعرف الغرض من الكلام وما تهدف إليه التراكيب، وعلى ضوء هذا يتحدد المراد من القصر وغيره من فنون البلاغة.

قصر الصفة على الموصوف والموصوف على الصفة

وينقسم القصر باعتبار طرفيه: المقصور والمقصور عليه إلى قصر صفة على موصوف، وقصر موصوف على صفة، والمراد بالصفة هنا الصفة المعنوية التي هي معنى قائم بالغير سواء كان فعلاً أو مصدرًا أو مشتقًا أو ظرفًا أو جازًا ومجرورًا أو غير ذلك، وليس المراد بها النعت النحوي؛ لأنه لا يقع قصر بين نعت ومنعوتة، كقولك: جاء رجل فاضل، ففاضل نعت نحوي للرجل، لا يفصل بينهما ولا يتصور بينهما قصر.

كما أن المراد بالموصوف هنا كل ما قام به غيره، وإن كان هو في نفسه صفة، تقول في قصر الصفة على الموصوف: ما شاعر إلا زهير، ما كتب فلان إلا الشعر، ما أكرمت إلا زيدًا... وفي قصر الموصوف على الصفة، ما شوقي إلا شاعر، إنما أنت والدم... محمد فارس لا عالم، ما حاتم بخيلًا بل جواد.

فقصر الصفة على الموصوف معناه: ألا تتجاوز الصفة ذلك الموصوف إلى موصوف آخر أصلاً، إذا كان القصر حقيقياً، أو إلى موصوف آخر إذا كان القصر إضافياً، ولا يمنع هذا أن يتصف الموصوف المقصور عليه بصفات أخرى غير تلك الصفة المقصورة تقول: الخالق هو الله، فتقصر صفة الخلق على الله سبحانه وتعالى قصرًا حقيقياً تحقيقياً، ومنه قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، حيث قصرت صفة العبادة وكذلك صفة الاستعانة على الله تعالى قصرًا حقيقياً تحقيقاً في الأول وهو قصر العبادة، وقصرًا حقيقياً غير تحقيقي في الثاني وهو قصر الاستعانة...، ومنه قوله تعالى ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩]، حيث قصر العلم بمفاتيح الغيب على الله تعالى قصرًا حقيقياً تحقيقياً فهو قصر صفة على موصوف.

ومنه قول أبي تمام:

لَا يَطْرُدُ أَلْهَمٌ إِلَّا أَلْهَمٌ مِنْ رَجُلٍ مَقْلَقِلٍ بَنَاتِ الْقَفْرِ النَّعْبِ^(١)

(١) المراد بالهم الأول: ما يجده الرجل في صدره من أحزان، والمراد بالهم الثاني: الهمة والعزيمة، ومقلقل من القلقله

فقد قصر الشاعر طرد الهم وهو صفة على الهم من رجل مقلقل لبنات القفرة وهو موصوف قصرًا حقيقياً ادعائياً؛ لأن الناس يطردون همومهم بأمور كثيرة، ولكن الشاعر لم يعتد بشيء منها إلا بالرحلة التي غيرته وأضنته والتي كانت سبباً في حزن صاحبه وانسكاب عبراتها، فأراد أن يبين لها أن تلك الرحلة هي الوسيلة الوحيدة لطر الهموم والأحزان...

تأمل سياق البيت:

رَأَتْ تَسْتَنْتَهُ فَاهْتَجَّاجَ هَائِجُهَا وَقَالَ لَا عِجْهَا لِلْعَبْرَةِ ائْسَكِي
لَا تُتَكْرِي مِنْهُ تَخْدِيدًا تَجَلَّلَهُ فَالْسَيْفُ لَا يُزْدَرَى إِنْ كَانَ ذَا شُطْبِ^(١)
لَا يَطْرُدُ الهمَّ إِلَّا الهمُّ مِنْ رَجُلٍ مُقْلِقِلِ لِبَنَاتِ الْقَفْرَةِ النَّعْبِ

فهو لم يعتد بغير الرحلة في طرد همومه وأحزانه، على الرغم من وجود سائل كثيرة لطر الهموم - كما قلت - ولذا كان القصر حقيقياً ادعائياً:

ومنه قول الإمام علي كرم الله وجهه:

إلى الله أشكوا لا إلى الناس أشتكى أرى الأرض تبقى والأخلاء تذهب

قصرت صفة الشكوى على الله تعالى بحيث لا تتجاوزها إلى الناس فهو قصر

إضافي...

وقول المتنبي في رثاء جدته:

ولم يُسْلِهَا إِلَّا الَمَنَائِيَا وَإِنَّمَا أَشَدُّ مِنَ السُّقْمِ الَّذِي أَذْهَبَ السُّقْمَا

فقد قصر سلوها على المنايا قصر صفة على موصوف قصرًا حقيقياً تحقياً؛

لأن جدته كانت قد اشتاقت إليه في غيبته فلما وصلها كتابه قبلته وفرحت ثم أُخْبِرَتْ كذِبًا أنه قد مات فحمت وماتت، فرثاها بتلك القصيدة.

وهي الحركة العنيفة، وبنات القفرة: الإبل التي تقطع القفار، والنعب مفردا نعوب، والنعبان: تحريك الناقة رأسها في السير وهذا دليل النشاط والقوة.

(١) شطب السيف: بضم الشين وضم الطاء وفتحها: طرائفه التي في منته، ومفرده: شُطْبَةٌ وشُطْبَةٌ وشُطْبَةٌ بالضبط المذكور. انظر لسان العرب مادة: شطب.

أما قوله: «وإنما أشد من السقم الذي أذهب السقم» فلك أن تجعله قصر صفة على موصوف، أي: قصر «أشد من السقم» على «الذي أذهب السقم»، والمراد بأشد من السقم: صفات الكآبة والألم والفقدان والوجع التي تغلب السقم وتمهره وتعلوه، لأنه لا يقهر الشيء إلا ما هو أشد منه وأقوى، فهو يتخيل صفات كآبة أقوى من السقم، ويقصرها على ما أذهب السقم، وهذا إغراب في الخيال^(١).

ولك أن تجعله من قصر الموصوف على الصفة، أي: قصر الذي أذهب السقم وهو المنايا على كونه أشد من السقم، ويكون طريق القصر عندئذ هو التقديم، و«إنما» ملغاة، كما في قوله:

أَسَامِيًّا لَمْ تَزِدْهُ مَعْرِفَةً وَإِنَّمَا لَذَّةٌ ذَكَرْنَاَهَا

وسياتي تفصيل القول في هذا، وهو ما أراه وأرجحه؛ لأن في الأول تدقيقًا وإغرابًا في الخيال ما أظن أن المتنبي قد قصد إليه.

وقصر الموصوف على الصفة معناه: ألا يتجاوز الموصوف تلك الصفة إلى صفة أخرى أصلاً، إذا كان القصر حقيقياً، أو إلى صفة أخرى معينة إذا كان القصر إضافياً، وهذا لا يمنع أن تكون تلك الصفة المقصور عليها وصفاً لموصوف آخر غير المقصور، فقولك: ما عمرو إلا شجاع، قصر لعمرو على صفة الشجاعة بحيث لا يتعداها إلى صفة أخرى، أما الشجاعة، فليس هنالك ما يمنع من أن يتصف بها غير عمرو. وتقول: زيد كاتب لا شاعر، فتقصر زيداً على صفة الكتابة بحيث لا يتجاوزها إلى صفة الشعر، فهو قصر إضافي، وتقول: ما شوقي إلا شاعر، فتقصر شوقياً على صفة الشعر بحيث لا يتجاوزها إلى صفة الكتابة، فيكون قصرًا إضافياً، أو لا يتجاوزها إلى أية صفة أخرى، فيكون قصرًا حقيقياً.

ولا يقال: كيف يوقف الموصوف على صفة واحدة؟ هذا محال ولا يتأتى؟... لأننا نقول: المراد بالصفات المنفية، تلك الصفات التي تتصل بالمعنى المذكور، فالصفة المقصور عليها في المثال، صفة الشعر، ومعنى قصر شوقي عليها قصرًا

(١) انظر دلالات التراكيب ص ٧.

حقيقًا، أنك نفيت عنه كل ما يتصل بها ويدور في فلكها أو كما يقول عبد القاهر، كل ما هو بسبيل منها، كالكتابة والخطابة والفقه والحديث والنحو وما إلى ذلك، فهو ليس بارعًا في فرع من فروع المعرفة إلا في الشعر الذي قصر عليه، وليس المراد أنك نفيت عنه كل صفة يمكن أن يوصف بها، ككونه مصريًا أو فقيرًا أو سليلًا معافًا أو أبيض أو كريمًا أو شجاعًا، ليس هذا مرادًا بل المراد - كما قلت - ما هو بسبيل من صفة الشعر المقصور عليها.

ومن شواهد قصر الموصوف على الصفة قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ [٢٣، ٢٢]، حيث قصر الرسول ﷺ على صفة الإنذار، لا يتجاوزها إلى أن يملك تحويل القلوب المشركة، عما هي عليه من العناد والمكابرة، وقوله عليه الصلاة والسلام «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُنَقِّهِ فِي الدِّينِ، وَإِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يُعْطِي»^(١).

فقد قالوا في معناه: كان بعض الصحابة يسمع الحديث ولا يفهم منه إلا الظاهر الجلي، ويسمعه آخرون منهم فيستنبطون منه المسائل الكثيرة، فالرسول ﷺ حين يحدثهم يكون كلامه مقسومًا بينهم، شركة بين الجميع، أما الفهم والاستنباط فهو من عطاء الرحمن.

ففي الحديث قصر الرسول ﷺ على كونه قاسمًا لا يتجاوز تلك الصفة إلى الإعطاء، فالإعطاء وتحقيق الفهم من الله تعالى، وكأن الصحابة رضوان الله عليهم لفرط اعتقادهم في هدايته عليه الصلاة والسلام - رأوا أنه يقسم ويعطي، ولذا بين خم ﷺ أنه لا يملك إلا القسم، وأما الإعطاء فمن الله تعالى، فالقصر قصر موصوف على صفة قصرًا إضافيًا إفراديًا.

ومنه قول دريد بن الصمة:

وَهَلْ أَنَا إِلَّا مِنْ غَزِيَّةٍ إِنْ غَوَتْ غَوَيْتُ وَإِنْ تَرَشَّدَ غَزِيَّةٌ أَرَشَّدِ

(١) رواه البخاري في كتاب العلم برقم (١٣ / ٧١).

حيث قصر الشاعر نفسه على كونه من تلك القبيلة لا يتعدها إلى أن يكون من غيرها من القبائل فهو قصر حقيقي تحقيقي...
وقول شوقي:

وإنَّما الأُممُ الأَخلاقُ ما بَقِيَتْ فإنَّ هُمُودَ هَبَّتْ أَخلاقُهُمُ ذَهَبُوا
فقد قصر الأُمم على الأَخلاق قصر موصوف على صفة قصرًا حقيقيًا ادعائيًا، فهناك أمور كثيرة تكون بها الأُمم كالقوة والمال والرقي والحضارة وغير ذلك، ولكن الشاعر لم يَعتد بها وجعل الأُمم مقصورة على صفة الأَخلاق لا تتعدها إلى غيرها، فإذا وجدت الأَخلاق وسادت كانت الأُمم وإن هو ذهبت أخلاقهم ذهبوا.

ومثله قول المفضل بن المهلب بن أبي صفرة الأموي:

هل الجُودُ إلاَّ أنْ تجُودَ بِأَنفُسِ على كُُلِّ ماضِي الشَّفَرَتَيْنِ قَضِيبِ
حيث قصر الجود على الجود بالأنفس قصر موصوف على صفة قصرًا حقيقيًا ادعائيًا، فالشاعر لم يَعتد بها عدا الأنفس مما يمكن أن يبذل كالمال والرأي والجهد وغير ذلك من ضروب البذل، وجعل الجود مقصورًا على كونه بالأنفس فقط، إذ الجود بالأنفس أسمى غاية الجود.

ولا يخفى عليك أن قصر الموصوف على الصفة يفيد بلوغ الموصوف الغاية، ووصوله حد النهاية في تلك الصفة، فقولك: «ما زهير إلا شاعر» يفيد كمال المبالغة في شاعريته، وأنه قد بلغ الغاية في الشعر، ووصل إلى حد جعلنا لا نعتد بالصفات الأخرى التي يمكن أن يتصف بها، وذلك لقصور تلك الصفات عن صفة الشعر التي تفوق فيها ووصل إلى حد النهاية.

ولذا كان قولنا: «ما زهير إلا شاعر» أبلغ في وصفه بالشاعرية من قولنا «ما شاعر إلا زهير» أو بمعنى آخر: يكون قصر الموصوف على الصفة أبلغ وأكمل وأقوى في اتصاف الموصوف بتلك الصفة من قصر الصفة على الموصوف، لاحتمال كون هذه الصفة التي قصرت على الموصوف دون المستوى الأمثل إذ لم تصل إلى حد الكمال كل ما هنالك أنها وجدت في زهير دون غيره من الناس.

هذا والمراد بالصفة - كما قلت - الصفة المعنوية التي هي معنى قائم بغيره كما أن المراد بالموصوف ما قام به غيره وإن كان هو في نفسه صفة، وقد نظر البلاغيون في جملة القصر ووضعوا لك ضوابط تعينك على تحديد كل من الصفة والموصوف، حيث ذكروا أن القصر إذا وقع بين ركني الجملة الاسمية، فإن قصر المبتدأ على الخبر يكون من قصر الموصوف على الصفة كقولك: ما زيد إلا أخوك وإنما محمد كاتب، وقوله تعالى: ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعٌ زَهُورٌ ﴾ [الحديد] وقولك: إنما زيد في الدار، وما الجود إلا أن تجود بالنفس، إلا إذا كان الخبر اسمًا جامدًا والمبتدأ مشتقًا، فإن القصر عندئذ يكون من قصر الصفة على الموصوف كقولك: ما الكاتب إلا زيد، وما القائم إلا عمرو، لأنك أردت الحكم على الكاتب بأنه زيد، وعلى القائم بأنه عمرو، فالكاتب مبتدأ خبره زيد والقائم مبتدأ خبره عمرو، والقصر قصر صفة على موصوف.

وقصر الخبر على المبتدأ من قصر الصفة على الموصوف كقوله تعالى: ﴿ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَنْبَأُ ﴾ [المائدة: ٩٩]، وقوله عز وجل: ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ [الرعد: ٤٠]، فقد قصرت مهمة الرسول ﷺ على البلاغ قصر صفة على موصوف، أما قوله «وعلينا الحساب» فهو قصر للمبتدأ «الحساب» على الخبر «علينا»، قصر موصوف على صفة قصرًا حقيقيًا تحقيقيًا.

وإذا وقع القصر بين أجزاء الجملة الفعلية، فإن قصر الفعل على الفاعل يكون من قصر الصفة على الموصوف كقولك: ما كتب إلا محمد، لا ينال العلا إلا المجد، ومنه قول أبي تمام - وقد تقدم -: «لا يطرد الهم إلا الهم من رجل» وقوله جل وعلا ﴿ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ﴾ [الأنعام: ٥٩] وقوله تعالى: ﴿ هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٧]، وقوله عز قائلًا: ﴿ وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر: ٢٨].

وقصر الفعل على المفعول كقولك: ما ضرب محمد إلا زيدًا، وإنما أكرم زيدًا عمرا وكما في الآيات الكريمة ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ ﴾ [المائدة: ١١٧]، ﴿ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ ﴾ [الأنعام: ٢٦]، ﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ﴾ [النجم: ٢٨].

وكقول النبي ﷺ: «فَعَلَيْكُمْ بِالْجِمَاعَةِ فَإِنَّمَا يَأْكُلُ الذَّنْبُ الْقَاصِيَةَ»^(١).

يجوز أن تعد هذه الشواهد من قبيل قصر الصفة على الموصوف أي: قصر الفعل الواقع من الفاعل على المفعول فيكون المعنى عندئذ، ما مضروب محمد إلا زيد، ما مكرم زيد إلا عمرو، ما مقولي إلا ما أمرتي به، ما مهلكهم إلا أنفسهم، ما متبعهم إلا الظن، ما مأكول الذنب إلا الغنم القاصية، فتؤول الصفة المقصورة اسم منفعول، لأن الحدث لم يقع من المفعول المقصور عليه، وإنما وقع عليه.

ويجوز أن تعد من قبيل قصر الموصوف على الصفة، أي: قصر الفاعل على الفعل الواقع على المفعول، ففي الأمثلة المذكورة قصر محمد على ضرب زيد، وزيد على إكرام عمرو، وعيسى عليه السلام على قول ما أمره الله به... إلى آخر تلك الشواهد.

وتلاحظ مدى التكلف في الوجه الأول، وأن الوجه الثاني غير ممكن إذا كان طريق القصر «إنها» لأنه يؤدي إلى أن يكون المقصور عليه قد ولي إنها، ومعلوم أن المقصور عليه بإنها هو المؤخر... والأولى من هذين الوجهين أن يجعل الفعل الصادر من الفاعل مقصوراً على تعلقه بالمفعول، تقول في الشواهد المذكورة: قصر ضرب محمد على تعلقه بزید، وإكرام زيد على تعلقه بعمرو، وقول عيسى على تعلقه بما أمره الله به، وأكل الذنب على تعلقه بالغنم القاصية، وهكذا في بقية الشواهد المذكورة.

وقصر الفاعل على الظرف نحو: ما سافر خالد إلا يوم الخميس، أو على المفعول لأجله نحو: ما زرتك إلا محبة، وقوله عز وجل: ﴿ مَا تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرَّبُوا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾ [الزمر: ٣]، أو على المفعول المطلق المبين للنوع أو للعدد نحو: ما قلت إلا قول المخلصين، ما حججت إلا حجتين، وقوله تعالى: ﴿ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا ﴾ [الجاثية: ٣٢]، أي: ظناً ضعيفاً، أو على التمييز كقولك: ما طاب محمد إلا نفساً، أو على الجار

(١) رواه أبو داود في الصلاة برقم ٥٤٧ والنسائي في الإمامة باب التشديد في ترك الجماعة... والحديث كاملاً: «ما من ثلاثة في قرية ولا بدو لا تقام فيهم الصلاة إلا أقد استخوذ عليهم الشيطان فعليكم بالجماعة فإنما يأكل الذنب القاصية».

والمجرور نحو: ما عملت إلا في بيتك وما دافعت إلا عنك، أو على غير ذلك من المتعلقات التي يقع فيها القصر، فإن القصر فيها يكون إما من قصر الموصوف على الصفة، أو من قصر الصفة على الموصوف بالاعتبارات الموضحة في قصر الفاعل على المفعول.

وقصر صاحب الحال على الحال من قصر الموصوف على الصفة نحو: ما جاء علي إلا راكبًا، وما لقيته إلا ضاحكًا... ما انتصر المسلمون إلا وهم متحدون.

وقصر الحال على صاحبها من قصر الصفة على الموصوف نحو: ما جاء راكبًا إلا خالد، ما لقيني مرحبًا إلا عمرو، ما انصرف غاضبًا إلا زيد.

وأما المفعول المطلق المؤكد لعامله، والمفعول معه فلا يتأتى فيها القصر إذ لا يقال «ما ضربت إلا ضربًا» ولا «ما سرت إلا والنيل» أما قوله تعالى: ﴿إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾، فمعناه: إن نظن إلا ظنًا ضعيفًا، فهو مصدر مبين للنوع.



ما الفرق بين القصر الحقيقي الادعائي والقصر الإضافي:

وكما هـ بك في أنواع القصر، فإن القصر الحقيقي الادعائي المنفي فيه عام، إذ يشمل كل د... انتقصور عن... عاء ومبالغة، فقولك: ما شاعر إلا زهير، قصر لصفة الشعر على زهير بحيث لا تتعداه إلى غيره من الشعراء على سبيل المبالغة، وكذا قولك: ما زهير إلا شاعر، قصر لزهير على صفة الشعر لا يتعداها إلى غيرها أصلاً، وهذا يعني أنه قد تفوق في هذه الصفة وبلغ فيها الغاية، إلى درجة جعلتك لا تعتد بأية صفة أخرى غيرها.

أما القصر الإضافي فالمنفي فيه محدد وليس عامًا، تقول: زهير شاعر لا كاتب، فتقصر زهيرًا على الشعر، وتنفي عنه الكتابة، إفرادًا أو قلبًا أو تعيينًا حسب اعتقاد المخاطب وتقول: حاتم جواد لا علي، فتقصر صفة الجود على حاتم وتنفيها عن علي.

هذا وعند التحقيق والتأمل تجد أن القصر الإضافي بأنواعه الثلاثة، إما أن

يكون تحقيقياً وإما أن يكون ادعائياً، لأن قولك: حاتم جواد لا علي، إذا كان مطابقاً للواقع بمعنى أن يكون حاتم هو الكريم فعلاً، وعلي هو البخيل كان القصر تحقيقياً، وإن كان علي كريماً ولكنك لم تعدد بكرمه لأمر ما، فجعلت حاتماً هو الجواد دونه كان القصر ادعائياً مبنياً على المبالغة.

وكذا القول في قصر الموصوف على الصفة، فقولك: زهير شاعر لا كاتب... إن كان فعلاً لا يجيد الكتابة ولا يعرف طرقها وفنونها، كان القصر تحقيقياً، وإن كان يعرفها ولكنك لم تعدد بتلك المعرفة لكونه في الشعر أفصح وأبلغ كان القصر مبنياً على الادعاء والمبالغة...



طرق القصر

عرفت فيما سبق أن طرق القصر التي اصطلح عليها البلاغيون أربعة: العطف «بلا، وبل، ولكن»، والنفي، والاستثناء، وإنما والتقديم، وأضاف بعضهم طريقين آخرين وهما: توسط ضمير الفصل وتعريف أحد ركني الإسناد بأل، وقد اشتهرت هذه الطرق عند البلاغيين، ولكن إفادة القصر ليست مقصورة عليها، فهناك طرق كثيرة غيرها، وقد ذكر السيوطي أن طرق القصر بلغت أربعة عشر طريقاً، كما أن القصر يفاد بغير تلك الطرق المعهودة على نحو ما مر بك، ولكن ليس وراء إفادة القصر بغير طرقه المعهودة اعتبارات تذكر، ولذا لم يلتفت البلاغيون لغير هذه الطرق المشهورة، الغنية بالاعتبارات والملاحظات البلاغية... وإليك بيان تلك الطرق وما يكمن وراء دلالتها على القصر من مزايا وأسرار بلاغية.

١- العطف بلا وبل ولكن

تقول: زيد كريم لا عمرو، وفلان جواد لا بخيل، وهو يدعوك إلى الخير لا إلى الشر، وخالد ينصحك مخلصاً لا مرئياً، وجاء خالد لا عمرو، وليس حاتم بخيلاً بل جواد، ولم ينصحني عمرو ولكن صديقه، فتجد أن القصر قد أفيد بأحد الحروف المذكورة وواضح أن طريق العطف يصرح فيه بكل من المثبت والمنفي، أي: المقصور عليه، والمنفي عنه، ولذا كان أقوى طرق القصر وأكدها، لأن غيره من الطرق لا يصرح فيها بالنفي بل يفهم ضمناً كما سترى.

وعلى الرغم من أن فائدة التأكيد أقوى في هذا الطريق، فإن مزية الإيجاز فيه تتضاءل للتصريح فيه بالإثبات والنفي كما قلت.

و «لا» صالحة لكل أنواع القصر، والمقصود عليه بها هو المقابل لما بعدها ويشترط لدلائنها على القصر أن يكون المعطوف بها مفردًا وألا يتقدمها نفي أو نهي وألا يكون ما بعدها داخلاً في عموم ما قبلها، تقول: زيد شاعر لاغير فتفيد قصر زيد على صفة الشعر قصرًا حقيقيًا... وتقول: زيد شاعر لا كاتب فتفيد قصره على الشعر قصرًا إضافيًا.

وتأمل قول أبي تمام:

بيضُ الصَّفَانِحِ لِأَسْوَدِ الصَّحَائِفِ فِي مُتُونِهِنَّ جِلَاءُ الشُّكِّ وَالرَّيْبِ^(١)

تجدد قد قصر السيوف التي حققت النصر وفتحت عمورية على كونها بيض الصفائح مشرقة لامعة، ونفاها عن كونها سود الصفائف، سوداء مظلمة، فالمقصود عليه -كما ترى- هو المقابل لما بعد لا، ثم قصر «جلاء الشك واليب» على كونه في متون هذه السيوف أي: جوانبهن، ونفاها عن كتب المنجمين، وطريق هذا القصر هو التقديم الآتي بيانه.

ولا يخفى عليك ما وراء أسلوب القصر في البيت من توبيخ وتحقير لهؤلاء المنجمين، وتفنيد لقولهم وما تخبر به صحفهم...

ومثله قوله في هذه القصيدة أيضًا، محقرًا كتب المنجمين:

وَالْعِلْمُ فِي شُهْبِ الْأَرْمَاحِ لِأَمْعَةٍ بَيْنَ الْحَمَيْسِينَ لِأَنَّ السَّبْعَةَ الشُّهْبِ

حيث قصر العلم على كونه في شهاب الأرماع ونفاها عن النجوم التي يستنبطها المنجمون أي: عن «السبعة الشهب».

(١) بيض الصفائح: كناية عن السيوف، وسود الصفائف: كناية عن كتب المنجمين، متونهن: جوانبهن، جلاء: كشف وإزالة، الريب: الظنون، يقول: إن السيوف البيضاء هي التي تزيل الشك وتظهر الحقيقة، أما صحائف المنجمين السوداء فإنها تضع الحقائق وتشر الأباطيل، والبيت من قصيدة له في فتح عمورية.

وانظر إلى قول الميكالي عبد الله بن أحمد (ت ٤٣٦هـ):

عُمُرُ الْفَتَى ذِكْرُهُ لَا طَوْلَ مُدَّتِهِ وَمَوْتُهُ خِزْنُهُ لَا يَوْمُهُ السَّدَانِي

فقد قصر عمر الفتى وحياته على ما يخلفه من أثر طيب وذكر حسن ونفاه عن طول مدته وامتداد أجله في الدنيا، كما قصر الموت على ما يرضى به بعض الأحياء من خزي وهوان، ونفاه عن اليوم الداني ومفارقة الحياة، ولعلك تشعر بها وراء القصر من حث على الأعمال الصالحة التي تنفع الإنسان وتبقى بعد حياته؛ أثرًا حسنًا ولسان صدق، ومن تغير من الذل والهوان والخزي، فلا يقبل مثل هذا ويرضخ له إلا فاقد الحياة.

و «لا» صالحة لكل أنواع القصر - كما ذكرت - تقول في قصر الصفة على الموصوف زهير شاعر لا عمرو، وفي قصر الموصوف على الصفة: زهير شاعر لا كاتب وفي القصر الحقيقي: زهير شاعر لا غيره... وفي القصر الإضافي: خالد جواد لا عمرو، فيكون قصر قلب أو أفراد أو تعيين حسب اعتقاد المخاطب على نحو ما مر بك.

فإذا سبقت «لا» بنفي نحو: ما جاء زيد ولا عمرو أو نهي نحو: لا تفعل هذا ولا ذاك، أو كان المعطوف بها جملة نحو: زيد مقدام لا أبوه كريم، والفقير يعطى من الصدقة لا أحد ينكر هذا، أو كان ما بعدها داخلا في عموم ما قبلها نحو: عاد الحجاج لا إبراهيم، ونجح الطلاب لا خالد، فعندئذ لا تدل على القصر، لأنها لا تفيد إثبات أمر لآخر ونفيه عن غيره، كما هو واضح في الأمثلة.

و «بل» تفيد القصر إذا وليها مفرد، وتقدمها نفي أو نهي؛ لأنها في هذه الحال تقرر حكم ما قبلها وتثبت ضده لما بعدها، فتتضمن النفي والإثبات، وذلك عماد القصر، فقولك: ما جاء زيد بل عمرو، يفيد نفي المجيء عن زيد وإثباته لعمرو، فالمتصور عليه (ببل) هو ما بعدها.

ويرى البلاغيون أنها صالحة للقصر الإضافي أفرادًا وقلبًا وتعيينًا، ولا تصلح للقصر الحقيقي، لأن المنفي معها يكون أمرًا محددًا دائمًا، فإن جاء عامًا لا يكون منفيًا بل يكون مسكوتًا عنه نحو: ما جاءني أحد بل زيد فلا تفيد هذه الجملة سوى إثبات

المجيء لزيد، أما ما قبل «بل» وهو أحد فمuskوت عنه والمسكوت عنه لا يوصف بنفي ولا إثبات، بل يرى الجمهور أن ما قبل «بل» مسكوت عنه حتى ولو كان محددًا نحو: ما جاءني زيد بل عمرو، ما زيد قائمًا بل قاعد.

ولذا فهي لا تفيد قصرًا، ويرى بعض أن النفي لما قبل «بل» ولما بعدها، فتقولك: ما جاء زيد بل عمرو، يفيد نفي المجيء عنها معًا ولذا فهي لا تفيد القصر، لأن النفي والإثبات غير محقق^(١).

والذي أراه أن «بل» تفيد القصر بأنواعه، الإضافي: قلبًا وإفرادًا وتعيينًا، والحققي: تحقيقيًا وادعائيًا، فهذا ما يفهم من الأساليب والتعابير ولا يمكن دفعه ولا إنكاره، تقول: ما جاء زيد بل عمرو، فيكون قصر صفة على موصوف قصرًا إضافيًا، وتقول: ما زيد قائمًا بل قاعد^(٢)، فيكون قصر موصوف على صفة قصرًا إضافيًا، وتقول: ما جاءني أحد بل عمرو، فيكون قصرًا حقيقيًا، ولا أرى معنى لكون ما قبلها مسكوتًا عنه، ولا لتوجه النفي لما بعدها.

أما إذا وقعت «بل» بعد الإثبات نحو جاء زيد بل عمرو، فلا تفيد القصر؛ لأن المعنى على أنك نقلت المجيء إلى التابع «عمرو» وجعلت المتبوع «زيد» في حكم المسكوت عنه، فالجملة لا تفيد سوى مجرد إثبات المجيء لعمرو، وعندئذ فلا قصر، لأن القصر نفي وإثبات كما علمت.

ومن شواهد القصر ببل قول الإمام علي كرم الله وجهه:

ليس اليتيم الذي قد مات وإلده بل اليتيم يتيم العلم والأدب^(٣)

فقد قصر الشاعر اليتيم على صفة الحرمان من العلم والأدب ونفاه عن فقدان

(١) ارجع إلى شروح التلخيص ج ٢ ص ١٩٠.

(٢) قاعد: لا تعرب نصبًا عطفًا على لفظ «قائمًا» لأن «ما» لا تعمل في المثبت وإنما تعمل في المنفي، وتعرب رفعًا عطفًا على محل «قائمًا» عند البصريين وعليه أفاد الأسلوب القصر، فإن أعربت خبرًا مبتدأ محذوف فلا قصر، لأن ما بعد بل عندئذ يكون جملة.

(٣) ويروى الشطر الثاني: «إن اليتيم يتيم العلم والأدب»، وعلى هذه الرواية؛ فلا قصر في البيت، حيث فصل بين شرطيه لشبه كمال الاتصال.

الوالد قبل بلوغ مبلغ الرجال، فهو قصر موصوف على صفة قصرًا إضافيًا، وأراه قصر قلب، لانه قلب ما هو راسخ في الأذهان من أن اليتيم هو الذي قدم مات والده قبل بلوغ سن الرجال، وفيه حث على التزود بالعلم والتحلي بالأخلاق والآداب الرفيعة، ففاقدهما هو اليتيم.

ومنه قول عبد الله بن المعتز:

لَيْسَ التَّعْجُبُ مِنْ مَوَاهِبِ مَالِهِ بَلْ مِنْ سَلَامَتِهَا إِلَى أَوْقَاتِهَا
حيث قصر التعجب على سلامة الأموال إلى أوقات الاحتياج ونفاه عن المواهب والعطايا، لأن هباته وعطاياه ثابتة وواقعة فهي لا تستحق التعجب، وإنما التعجب من إصابة المحز، وبلوغ الهدف المنشود، حيث تبذل الأموال إلى مستحقيها وفي أوقاتها، وتسلم لهذا.

و «لكن» تفيد القصر إذا سبقها نفي أو نهي ووليها مفرد، «كبل» مثل: ما أكرمني زيد لكن عمرو، فقد قصر الإكرام على عمرو ونفي عن زيد، فالمقصود عليه (بلكن) هو الواقع بعدها مثل «بل» تماما وهي صالحة للقصر الإضافي قلبًا وإفرادًا وتعيينًا حسب اعتقاد المخاطب وللقصر الحقيقي بنوعيه، ويرى بعض البلاغيين أنها لا تصلح للقصر الحقيقي، لأن المنفي معها دائما يكون أمرًا خاصًا.

ويشترط بعضهم للقصر ولكن بالإضافة إلى ما ذكر لأنتقرن بالواو، وهذا ليس بشيء لأننا نراها في الأساليب الجيدة والتراكيب الممتازة قد اقترنت بالواو وأفادت القصر، انظر إلى قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، فقد قصر النبي عليه الصلاة والسلام على الرسالة والختم لا يتجاوزهما إلى أبوة زيد، قصر موصوف على صفة قصرًا إضافيًا، "ولكن" مقرونة بالواو كما ترى.

ومنه قول الخنساء:

إِنَّ الْجَدِيدَيْنِ فِي طُولِ اخْتِلَافِهِمَا لَا يَفْسُدَانِ وَلَكِنْ يَفْسُدُ النَّاسُ
فقد قصرت الإفساد على الناس ونفته عن الجديدين وهما الليل والنهار.

وقول عروة بن الورد:

وَمَا شَابَ رَأْيِي مِنْ سِنِينَ تَتَابَعَتْ عَلَيَّ وَلَكِنْ شَيَّبَتْنِي الْوَقَائِعُ

حيث قصر التشبيب على الوقائع ونفاها عن تتابع السنين^(١)...

ومن يجيء لكن مفيدة للقصر وهي غير مقرونة بالواو قول الشاعر:

مَا نَالَ فِي دُنْيَاهُ وَإِنْ بُغِيَةً لَكِنْ أَخُو حَزْمٍ يَجِدُّ وَيَعْمَلُ

فقد قصر نيل البغية على «أخو حزم» ونفاها عن المتراسي الكسول، وفيه حث على الجد والاجتهاد، فالدنيا كفاح وميدان تسابق، والذي يصل إلى هدفه ويحقق غايته هو الجاد الذي يكد ويكدح ويسابق ويغالب.

وهذا الذي ذكرته لك هو أرجح الآراء وأولاها بالقبول في دلالة تلك الحروف على القصر، وهناك خلافات كثيرة حول هذه الدلالة، فمن البلاغيين من يرى أن «لكن» لا تفيد القصر، ومنهم من يرى أن «بل» مسكوت عما قبلها سواء سبقت بنفي أم لم تسبق - كما ذكرت لك - ومنهم من يرى أن «بل» لا ترد في فصيح الكلام، ومنهم من يرى أن لكن لقصر القلب دون الأفراد، ومن يرى أنها للأفراد دون القلب، ومنهم من يرى أن لكن وبل تدلان على القصر ولو كان معطوفهما جملة...

كما في قول ابن الرومي:

مَا افْتَرَيْنَا فِي مَدْحِهِ بَلْ وَصَفْنَا بَعْضَ أَخْلَاقِهِ وَذَلِكَ يَكْفِي

وكما مر في قول عروة:

وَمَا شَابَ رَأْيِي مِنْ سِنِينَ تَتَابَعَتْ عَلَيَّ وَلَكِنْ شَيَّبَتْنِي الْوَقَائِعُ

وقول الخنساء:

إِنَّ الْجَدِيدَيْنِ فِي طُؤْلِ اخْتِلَافِهِمَا لَا يَفْسُدَانِ وَلَكِنْ يَفْسُدُ النَّاسُ

(١) لا يخفى عليك أن ما بعد لكن في البيتين جملة فدلالة لكن على القصر فيها، بناء على رأي بعض البلاغيين كما سترى... أما الجمهور فيشترطون لدلالتهما على القصر أن يليها مفرد.

فمنهم من يرى أن «بل ولكن» في الأبيات تدلان على القصر، ومنهم من يرى أنها يفيدان معنى القصر، وليس ما في الأبيات قصرًا، أي: ليس طريقًا من طريقه، لأنه مفاد من جملتين، ومثله قولك: جاء عمرو ولكن زيد لم يأت، وقلت لك هذا لكن ذلك لم أقله.

وحتى «لا» التي هي رأس هذا الطريق لم تسلم من تلك الخلافات، فقد ذكر عبد القاهر أنها تفيد عكس ما يعتقد المخاطب ولا يؤتى بها إلا لذلك، فهي عنده لتقصر القلب دون غيره، وقد رأيت أنها صالحة لكل أنواع القصر... إلى غير ذلك من الخلافات فهي كثيرة، وقد أعرضنا عن مناقشتها لعدم الجدوى من تلك المناقشة.



٢- النفي والاستثناء

تقول: ما القادم إلا زيد، وما أنت إلا مصيب، فتفيد قصر الصفة على الموصوف في الأول، والموصوف على الصفة في الثاني، ويستخدم هذا الطريق فيما ينكره المخاطب ويدفعه، أو فيما يجبهله ولا يعرفه، أو فيما يشك فيه ويرتاب.

يقول عبد القاهر: «وأما الخبر بالنفي والإثبات نحو: ما هذا إلا كذا، وإن هو إلا كذا، فيكون للأمر ينكره المخاطب ويشك فيه، فإذا قلت: ما هو إلا مصيب أو ما هو إلا مخطئ، قلته لمن يدفع أن يكون الأمر على ما قلته، وإذا رأيت شخصًا من بعيد فقلت: ما هو إلا زيد، لم تقله إلا وصاحبك يتوهم أنه ليس بزيد وأنه إنسان آخر، ويجد في الإنكار أن يكون كذلك...»^(١).

تأمل قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِن أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٥٠]، تجده قد قصر الاتباع على الوحي لا يتجاوزه إلى غيره، فهو قصر حقيقي، وقد أوتر التعبير بالنفي والاستثناء، إذ المخاطبون وهم الكفرة المشركون ينكرون ذلك

ويدفعونه، فهم يعتقدون أنه شاعر أو ساحر أو كاهن، لا يقرون بالوحي، بل يقولون: ﴿أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ أَكْتَنَّبَهَا فَهِيَ تُعَلِّمُ عَلَيْهِ بُعْثَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥]، فلما كان المشركون منكرين أن يكون الرسول عليه الصلاة والسلام متبعًا لوحي يوحى إليه ويحدثون ذلك ويدفعونه، جاء القصر «بان وإلا» ليبدد هذا الإنكار ويدفع ذلك الجحود.

ومثله قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنَّ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٦٢]، وقوله عز وجل: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُكَ مُجْتَدِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥]، فقد جاء القصر بالنفي والاستثناء في الآيتين، لأن المخاطب ينكر الحكم ويدفعه إذ الكفرة لا يقرون بالوحدانية، والرسول ﷺ يدفع وينكر كون ما جاء به أساطير الأولين، ويوقن إيقانًا راسخًا أنه حق من عند الله.

فهذا الطريق -النفي والاستثناء- يستخدم عندما ينكر المخاطب ويحدد الحكم أو عندما ينزل تلك المنزلة، وسيوضح لك هذا عند الحديث عن فروق طرق القصر وأوجه الاختلاف بينها.

ومثل النفي مع الاستثناء في إفادة القصر: النهي والاستفهام، كما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرِ اللَّهُ لَنُوبٍ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، فقد قصر غفران الذنوب على الله سبحانه وتعالى قصر صفة على موصوف قصرًا حقيقيًا تحقيقيًا، وطريقه هو النفي والاستثناء؛ لأن الاستفهام في الآية الكريمة مراد به النفي، إذ المعنى: لا يغفر الذنوب إلا الله.

ومثله قوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، حيث قصر جزاء الإحسان على الإحسان قصر موصوف على صفة، وطريقه هو النفي والاستثناء، لأن الاستفهام بمعنى النفي... وتقول: لا تفعل إلا الخير... لا تصاحب إلا الوفي، لا تعتمد إلا على الله، فتقصر الفعل على الخير والمصاحبة على الوفي والاعتقاد على الله، وطريق القصر -كما ترى- هو النهي والاستثناء.

والمقصود عليه في طريق النفي والاستثناء هو المستثنى أي: الواقع بعد أداة الاستثناء، سواء تقدم أو تأخر تقول: ما جاء إلا زيد فتقصر المجيء على زيد.

ويقول زهير بن أبي سلمى:

وَمَا الْحَرْبُ إِلَّا مَا عَلِمْتُمْ وَذَقْتُمْ وَمَا هُوَ عَنْهَا بِالْحَدِيثِ الْمُرْجَمِ

فقد قصر الحرب على الذي علموه وذاقوه من ويلاتها، قصر موصوف على

صفة...

ويقول المتنبي:

لَا يُدْرِكُ الْمَجْدُ إِلَّا سَيِّدُ فِطْنُ لِمَا يَشُقُّ عَلَى السَّادَاتِ فَعَالُ

قصر إدراك المجد على السيد الفطن الذي يستطيع إدراك ما يشق على السادة

الكرماء... وتقول: لا أختار الوفي إلا منكم ولا أختار منكم إلا الوفي، فتفيد

بالأول: قصر اختيارك الوفي على كونه منهم، ففيه مدح لهم وتنويه بشأنهم، وأن من

أراد الوفي فعلية بالاتجاه إليهم فهم جميعاً أوفياء، وتفيد بالثاني قصر اختيارك منهم

على الوفي، وهذا يعني أن فيهم الوفي وغير الوفي، فأنت تختار الوفي وتترك غيره، ولا

يخفى عليك بعد ما بين القولين...

وتأمل قول السيد الحميري يمدح بني هاشم:

لَوْ خَيْرَ الْمُنْبَرِ فُزْسَانَهُ مَا اخْتَارَ إِلَّا مِنْكُمْ فَارِسًا

تجده قد قصر اختيار الفارس على كونه منهم، وهذا يعني أنهم جميعاً فرسان

وأن المنبر لا يتجه إلا إليهم حين يتاح له أن يختار فارسه، ولو قال الشاعر: ما اختار

منكم إلا فارساً، لتغير المعنى، إذ يصبح المراد: قصر اختيار المنبر منهم على الفارس

دون غيره، فهم ليسوا جميعاً فرساناً.

وتلاحظ في البيت تقديم إلا وما وليها على المفعول «فارساً» وهو جزء من

المقصور - كما عرفت - إذ المراد قصر اختيار المنبر فارسه عليهم دون غيرهم، وهذا

التقديم، قد منعه بعض البلاغيين، وقالوا: إنه يؤدي إلى قصر الفعل قبل

تمامه، وذهب البعض إلى أنه كلامان وليس كلاماً واحداً، فالمفعول المؤخر، مفعول

لفعل محذوف دل عليه المذكور، والمعنى: ما اختار إلا منكم. اختار فارساً.

وتقول: ما أعطيت إلا زيداً درهماً، والمعنى: ما أعطيت إلا زيداً... أعطيت

درهماً، وكأنك لما قصرت الإعطاء على زيد، شعرت بحاجة السامع إلى نوع العطاء، فأردت أن تبينه فقلت: درهماً وحذفت الفعل والفاعل لدلالة ما تقدم عليها.

وبعضهم أجازة إذا صرح بالمستثنى منه، كأن يقال: ما ضرب أحد أحدًا إلا زيد عمرًا، فزيد مستثنى من أحد الأول، وعمرو مستثنى من أحد الثاني^(١)...

ومنهم من أجاز ذلك التقديم مطلقًا من غير تصريح بالمستثنى منه، وإن كان هذا التقديم قليلًا في التعبيرات الجيدة، وحجتهم أن أداة الاستثناء لا يخرج بها إلا شيء واحد هو ما يليها، فلا يقع لبس فيها بعدها، فإذا قلت: ما ضرب إلا محمدًا زيدًا، لا يتوهم أن محمدًا هو المستثنى وهو المقصور عليه وكذا قولك: ما شرب إلا اللبن محمد، لا يتوهم أن اللبن هو المقصور عليه المستثنى.

وهذا هو الأولى بالقبول لوروده في التعبيرات الجيدة، على نحو ما رأيت في بيت الحميري.. وطالما قد عرف موضع المقصور عليه وحده، إذ هو دائمًا الواقع بعد أداة الاستثناء، فلا ضير بعدئذ أن تتقدم به الأداة أو تتأخر، وليس ثمة مانع من أن يتأخر جزء من المقصور عن المقصور عليه، لأن الأخير قد حدد وعين موطنه، والمهم ألا تتخلل أداة الاستثناء عن المستثنى وألا تتزحزح عنه، لأن زحزحتها وتقديمها أو تأخيرها بدونها يغير المعنى.

وعد إلى الأمثلة المذكورة: ما اختار إلا منكم فارسًا... ما أعطيت إلا زيدًا درهماً... ما ضرب إلا محمد زيدًا... ما شرب إلا اللبن محمد... ثم زحزح «إلا» وحدها فقل: ما اختار منكم إلا فارسًا... ما أعطيت زيدًا إلا درهماً... ما ضرب محمد إلا زيدًا... ما شرب اللبن إلا محمد... تجد أن المعنى قد تغير وتبدل بتلك الزحزحة.

وخلاصة الأمر أن المقصور عليه هو ما يلي أداة الاستثناء سواء تقدمت به الأداة أو تأخرت، فالراجع أنه لا مانع من هذا التقديم لوضوح المراد وزوال اللبس بمعرفة موضع المقصور عليه.

(١) انظر شروح التلخيص ٢ / ٢٢٧.

وتأمل قول المتنبي يتحدث عن نفسه في قصيدته التي رثى فيها جدته:

تَغَرَّبْتُ لَا مُسْتَعْظِمًا غَيْرَ نَفْسِيهِ وَلَا قَابِلًا إِلَّا لِخَالِقِهِ حُكْمًا
وَلَا سَائِلِكًا إِلَّا فُؤَادَ عَجَاجِيَةٍ وَلَا وَاجِدًا إِلَّا لِمَكْرَمَةٍ طَعْمًا

فقد قصر الاستعظام على نفسه، والسلوك على فؤاد العجاجة وقبول الحكم على خالقه، ووجود الطعم على المكرمة، وواضح تقديم إلا بالمقصور عليه - في التصرين الأخيرين - على المفعول (حكماً وطعماً) وهو جزء من المقصور ولم يؤد هذا التقديم إلى خفاء ولا إلى لبس لوضوح كل من المقصور والمقصور عليه.

ومثله قول كعب بن مالك الأنصاري (ت ٥٠هـ):

النَّاسُ إِلْبٌ عَلَيْنَا فَلَيْسَ لَنَا إِلَّا السُّيُوفَ وَأَطْرَافَ الْقَنَا وَرَزْرُ

والأصل: فليس لنا وزر إلا السيوف وأطراف القنا.

وجه دلالة النفي والاستثناء على القصر

النفي والاستثناء هو رأس باب القصر، وهو الطريق الأم بين طرقه، إذ نراهم يقيمون عليه غيره فيقولون مثلاً في: إنما زهير شاعر، معناه: ما زهير إلا شاعر وقولك: لك هذا، معناه: ما هذا إلا لك، فلا منازعة في أن النفي والاستثناء يدل على القصر دلالة واضحة ووضوحاً تاماً وظاهرة ظهوراً قوياً، وعلى الرغم من ذلك نرى البلاغيين يتحدثون عن وجه هذه الدلالة.

فيقولون: إن وجه دلالة «النفي والاستثناء» على القصر هو أن النفي في الاستثناء المفرغ وهو الذي ترك فيه المستثنى منه ففرغ الفعل الذي قبل إلا وشغل عنه بالمستثنى المذكور بعدها نحو: ما ضرب إلا زيد وما فعل زيد إلا هذا وما كسوته إلا جبة، يقولون النفي في هذا الاستثناء متوجه إلى مقدر عام وهو المستثنى منه، لأن إلا للإخراج، والإخراج يقتضي مخرجاً منه، ولا بد أن يكون عاماً ليتناول المستثنى وغيره، فيتحقق الإخراج، وأن يكون مناسباً للمستثنى في جنسه وصفته فيقال في الأمثلة المذكورة: ما ضرب أحد إلا زيد... ما فعل زيد شيئاً من الأشياء إلا هذا... ما كسوته من اللباس إلا جبة.

وإذا كان النفي متوجهًا إلى هذا المقدر العام المناسب للمستثنى في جنسه وصفته فعندما توجب من ذلك المقدر شيئًا بلالاً أو غيرها من أدوات الاستثناء يكون القصر، لأن ما عدا هذا المثلث يظل باقياً على صفة الانتفاء، وكل قصر يفيد إثباتاً ونفيًا، أي: إثبات المقصور للمقصور عليه ونفيه عما سواه على الإطلاق في القصر الحقيقي، أو عن معين في القصر الإضافي.

ويذكر السيوطي أن قولك: ما قام إلا زيد، صريح في نفي القيام عن غير زيد ويقتضي إثبات القيام لزيد، قيل بالمنطوق، وقيل بالمفهوم وهو الصحيح، ولكنه أقوى المفاهيم^(١).

أما جمهور البلاغيين فيرون أن «النفي والاستثناء» مثل التقديم وإنها، الدلالة في ثلاثتها نص على المثلث دون المنفي، والخطب في ذلك يسير، لأن البلاغيين نظروا إلى الجملة بعد تمامها، والسيوطي نظر إلى ما يتبادر إلى الذهن أولاً، فالذي يتبادر إلى ذهنك عند سماعك: ما قام إلا زيد، هو نفي القيام عن غير زيد، ثم يأتي بعد ذلك إثباته لزيد، وكأنه تحقيق له وتحديد، وتلك دقيقة جيدة في تحليل دلالة العبارة.

هذا وعندما تقول: ما زيد إلا شاعر، فتدخل النفي على الذات، لا يكون القصد إلى نفي الذات، لأن أنفس الذوات لا تنفي، وإنما يتجه النفي إلى أوصافها وأحوالها التي يحددها السياق، ففي المثال المذكور، حيث لا نزاع في طول زيد وقصره، ولا في كرمه وشجاعته وما شاكل ذلك، وإنما النزاع في كونه شاعرًا أو كاتبًا أو خطيبًا، تناول النفي هذه الصفات التي هي موضع النزاع فإذا قيل إلا شاعر، جاء القصر^(٢).

هل يفيد الاستثناء التام القصر؟

لا خلاف بين البلاغيين في أن الاستثناء التام المنفي نحو قولك: ما جاءني أحد إلا زيد وما أكرمت أحدًا إلا عمرًا.

(١) انظر الإقتان ٢ / ٥٢.

(٢) انظر الإيضاح ج ٢ ص ١٢.

وقول المتنبي:

كَأَنْ لَمْ يَمُتْ حَيًّا سِوَاكَ وَلَمْ يَقُمْ عَلَى أَحَدٍ إِلَّا عَلَيَّكَ النَّوَائِحُ

لا خلاف بينهم في أنه يفيد القصر، ولكن الخلاف في جعله من طرق القصر الاصطلاحية، فبعضهم يرى أنه ليس قصرًا اصطلاحيًا بل هو قيد يصحح الحكم المنفي، فإذا قلت: ما جاءني أحد إلا زيد، كان استثناء زيد قيدًا مصححًا للحكم، لأن قولك: ما جاءني أحد، حصل به الحكم المنفي، لكن لما كان هذا الحكم شاملًا لزيد وهو لم يأت، قيد المجيء بغير زيد ليصحح الحكم المنفي، وحثتهم أن ما قبل الأداة كلام تام يحسن السكوت عليه، فمناط الفائدة وهو الحكم قد حصل قبل الأداة، وعندئذ يكون ما بعدها كأنه قيد مصحح.

ويرى آخرون أنه قصر اصطلاحى كالاستثناء المفرغ، ولكنه جاء على خلاف الأصل، حيث صرح فيه بالثبوت له والمنفي عنه معًا، والجمهور على أن الأصل في طريق النفي والاستثناء النص على الثبوت له فقط^(١).

أما الاستثناء التام الموجب كقولك: جاء القوم إلا زيد، وأكرمت الطلاب إلا المهمل، فالصواب أنه ليس قصرًا، بل هو قيد مصحح للحكم لا غير، وكأنك قلت: جاء القوم المغايرون لزيد، وأكرمت الطلاب المغايرين للمهمل، كما تقول: جاء القوم الصالحون... وقيل: إنه قصر لأن المعنى على قصر عدم المجيء على زيد، وعدم الإكرام على المهمل، وهذا ليس بقول، فالصواب هو الأول وهو أن الاستثناء التام الموجب يفيد القصر أي: الإثبات والنفي ولكنه ليس طريقًا من طرقه.

وخلاصة القول أن الاستثناء المفرغ كقولك: ما جاء إلا زيد، قصر اصطلاحى باتفاق البلاغيين، والاستثناء التام المنفي كقولك: ما جاء أحد إلا زيد، قصر اصطلاحى على الراجح من أقوالهم، والاستثناء التام الموجب كقولك: قام القوم إلا زيد يفيد القصر وليس قصرًا اصطلاحيًا على الراجح من أقوالهم.

(١) انظر شرح التلخيص ٢ / ٢٠٧.

هل يجوز اجتماع «النفى والاستثناء» والعطف بلا؟

طريق النفي والاستثناء لا يجتمع والعطف بلا، فلا يجوز أن تقول: ما جاء إلا زيد لا عمرو، وذلك لأن المنفي في قولك: ما جاء إلا زيد، عام فهو يشمل ما عدا زيداً، وعمرو داخل في دائرة المنفي، و«لا» العاطفة وضعها القوم لأن ينفي بها الشيء ابتداءً، لا لأن ينفي بها شيء قد نفى غيرها.

يقول شيخ البلاغة: «ليس من كلام الناس أن يقولوا: ما زيد إلا قائم لا قاعد، فإن ذلك إنما لم يجوز من حيث إنك إذا قلت: ما زيد إلا قائم فقد نفيت عنه كل صفة تنافي القيام وصرت كأنك قلت: ليس هو بقاعد ولا مضطجع ولا متكى، وهكذا حتى لا تدع صفة يخرج بها من القيام، فإذا قلت من بعد ذلك: لا قاعد كنت قد نفيت بلا العاطفة شيئاً قد بدأت فنفيته، وهي موضوعة لأن تنفي بها ما بدأت فأوجبته، لا لأن تفيد بها النفي في شيء قد نفيت...»^(١).

ولذا عيب قول الحريري:

لَعَمْرُكَ مَا الْإِنْسَانُ إِلَّا ابْنُ يَوْمِهِ عَلَى مَا تَجَلَّى يَوْمُهُ لَا ابْنَ أُمَّسِهِ

وينبغي أن تفرق بين «لا» العاطفة و«لا» الداخلة على الجملة، فإن الأخيرة يجوز أن تجتمع «والنفي والاستثناء»، نحو: ما زهير إلا شاعر، لا يقول أحد غير ذلك، ما هذا إلا لك، لا يشاركك فيه أحد، ليس السكوت عن العيوب إلا جبناً، لا يرى أحد غير ذلك، وإنما كان هذا جائزاً، لأنك لم تنف «بلا» شيئاً قد نفى قبل، بل نفيت بها جملة مستقلة وأكدت بها جملة القصر السابقة.



٣- إنفا

ودلالة إنفا على القصر دلالة وضعية وعلى الرغم من ذلك لم يفت البلاغيون أن يتحدثوا عن وجه دلالتها على القصر، فقد ذكروا أنها تدل على القصر لتضمنها معنى «ما وإلا» واستدلوا على ذلك بوجوه.

(١) دلائل الإعجاز ٢٢٦.

ومنها: قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ ﴾ [النحل: ١١٥] بالنصب، حيث ذكر المسرون الذين يحتج بهم في اللغة كابن عباس ومجاهد ونحوهما من الصحابة والتابعين، أن المعنى: ما حرم عليكم إلا الميتة وهو المطابق لقراءة الرفع حيث يفاد القصر في هذه القراءة بتعريف الطرفين، فالآية فيها ثلاث قراءات، وكلها تنفيذ القصر.

القراءة الأولى: بناء «حرم» للمعلوم ورفع «الميتة» وعلى هذه القراءة تكون «ما» اسم موصول وعائده محذوف والمعنى: إن الذي حرم عليكم هو الميتة، وهو قصر للتحريم على الميتة وما بعدها، وطريق القصر تعريف الطرفين.

والقراءة الثانية: ببناء «حرم» للمفعول ورفع الميتة، وعلى هذه القراءة، فما إما اسم موصول، والمعنى: إن الذي حرم عليكم هو الميتة وإما كافة لأن والمعنى: ما حرم عليكم إلا الميتة، وهذا قصر أيضاً للتحريم على الميتة وما تلاها وطريقه تعريف الطرفين في الأول، وإنما في الثاني.

والقراءة الثالثة: ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ ﴾ ببناء «حرم» للفاعل ونصب «الميتة» فما كافة لأن، والمعنى: ما حرم عليكم إلا الميتة، فهو قصر طريقه إنها، وبهذا يتضح لك تطابق القراءات الثلاث في إفادة القصر، سواء كانت «ما» كافة لأن أو موصولة.

ومنها: قول من يحتج بقولهم من النحاة وهم من أخذوا اللغة من كلام العرب مشافهة: إن (إنما) لإثبات ما يذكر بعدها ونفي ما سواه، أي: لإثبات الحكم المتضمن لما بعدها ونفي ما سوى ذلك الحكم، وهذا القول من النحاة يقتضي تضمينها الإثبات والنفي كما وإلا، إما في قصر الموصوف على الصفة كقولك: إنها زيد قائم، فهو لإثبات قيام زيد ونفي ما عداه من القعود ونحوه، وإما في قصر الصفة على الموصوف كقولك: إنها يقوم زيد، فهو لإثبات قيام زيد ونفي ما سواه من قيام عمرو وخالد وبكر وغيرهم، وهذا هو القصر الذي يدل عليه النفي والاستثناء.

ومنها: صحة انفصال الضمير معها كقولك: إنما يقوم أنا، وإنما يكرم أنت، وإنما يعطى نحن، وذلك لأنه متى أمكن اتصال الضمير فلا يعدل إلى انفصاله إلا

لغرض، فلا يجوز أن تقول: يكرم أنت، أو يقوم أنا، أو يعطى نحن، ولكن بإمكانك أن تقول: تكرم وأقوم ونكرم ونعطى، فلما صح انفصال الضمير مع «إننا» دل ذلك على أنها بمعنى «ما وإلا»، لأن إلا لا يليها سوى الضمير المنفصل كقولك: ما يقوم إلا أنا، وما يكرم إلا نحن.

وكقول عمرو بن معد يكرب:

قَدْ عَلِمْتُ سَلَمَى وَجَارَاتِهَا مَا قَطَّرَ الْفَارِسَ إِلَّا أَنَا^(١)

ومن ورود الضمير منفصلاً بعد إننا قول الفرزدق وهو من الذين يستشهد بشعرهم على صحة التراكيب وبلاغتها:

أَنَا الذَّاكِدُ الْحَامِي الدَّمَارَ وَإِنَّمَا يُدَافِعُ عَنْ أَحْسَابِهِمْ أَنَا أَوْ مِثْلِي^(٢)

فقد قصر الدافع عن أحسابهم عليه هو أو مثله، قصر صفة على موصوف قصرًا حقيقيًا ادعائيًا، ولو قال: إننا أذافع عن أحسابهم أنا أو مثلي لكان قصرًا لدفاعه على كونه عن أحسابهم لا عن أحساب غيرهم قصر موصوف على صفة، ويكون قوله: «أنا أو مثلي» توكيدًا لا مقصورًا عليه، وليس هذا مراد الشاعر، لأنه قصد إلى الفخر والاعتداد بنفسه وأنه هو المدافع عن أحسابهم دون غيره، ولم يقصد أنه يدافع عن أحساب قومه دون أحساب غيرهم، لا يقصد الفرزدق هذا، لأنه يتناقض ومقام المدح والفخر.

نقول: إننا يفهم البلاغة المتذوق، فتجده أبلغ من قولك: إننا يفهم المتذوق البلاغة، لأن الأول أفاد قصر فهم البلاغة على الذواقة دون غيره، والثاني أفاد قصر فهم المتذوق على البلاغة دون غيرها من العلوم، فالأول هو المناسب لمقام المدح والتعظيم كما ترى.

(١) قَطَّرَ بِسَعْنَى صَرَعَهُ صَرَعَةً شَدِيدَةً.

(٢) الذائد: من الذود وهو الدفاع، والذمار: ما يلزم الشخص حمايته من أهل ومال ونحوهما مأخوذ من الذم وهو أخت على الدفاع والقتال، يقال: تذامر القوم أي: تخاضوا وحث بعضهم بعضاً على الجد في القتال.. انظر لسان العرب مادة: ذمر.

ولا يقال: إن القصر في البيت طريقه تعريف الطرفين وأن «ما» موصولة وليست كافة لأن، والمعنى إن الذي يدافع عن أحسابهم هو أنا أو مثلي، فيكون الداعي لفصل الضمير وقوعه خبرًا وليس وقوعه بعد «إننا» التي بمعنى «ما وإلا». لا يقال ذلك لأن المقام مقام فخر كما قلنا فهو يقتضي «من» الموصولة التي للعاقل وليس هنالك سر بلاغي ولا ضرورة شعرية تقتضي العدول عن «من» إلى «ما» ولذا فليست «إننا» إلا مركبة من «إن» وما الكافة.

وأضاف السكاكي وجهًا لطيفًا لإفادة «إننا» القصر، يسند إلى علي بن عيسى الربيعي وهو أنه لما كانت كلمة «إن» لتأكيد إسناد المسند إلى المسند إليه ثم اتصلت بها «ما» المؤكدة، وليست ما النافية كما يظنه من لا وقوف له على علم النحو، ناسب أن يضمن معنى القصر، لأن القصر ليس إلا تأكيدًا على تأكيد، وعلى الرغم من لطافة هذا الوجه فإنه لا يصلح دليلًا لإفادة إننا القصر، لعدم اطراده في كل الأساليب التي يجتمع فيها مؤكدان نحو: إن زيدًا لقائم^(١).

وأضاف بهاء الدين السبكي أن من الأدلة على إفادة «إننا» القصر قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَلِمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ٢٣]، وقوله عز وجل: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَا أَيُّكُمْ بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ﴾ [هود: ٣٣]، وقوله جل وعلا ﴿إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ [الأعراف: ٢٨٧]، فإنه إنما يحصل مطابقة الجواب إذا كانت إننا للحصر ليكون معناه لا أتاكم به إنما يأتي به الله، ولا أعلمها إنما يعلمها الله^(٢).

وتلك إضافة جيدة، فقد نظر ابن السبكي إلى استعمالات إننا في التراكيب ولم ينظر إلى ما قاله العلماء وأهل صناعة الكلام في شأنها، وعندما تتأمل سياق الآيات الكريمة التي أشار إليها تجد أن «إننا» يتحتم أن تكون للحصر، تأمل سياق الآية الأولى: ﴿وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أُنذِرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَابِ وَقَدْ خَلَّتِ النَّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ قالوا أحيقنا لتأفكنا عن الهيتنا فأتينا بما تعدنا إن كنت من الصديقين ﴿١٠﴾ قال إِنَّمَا أَلِمْ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلِيَكُنِّي أَرْكُزًا قَوْمًا

(١) انظر الإيضاح ١٤ / ٢.

(٢) انظر شرح التلخيص ١١٣ / ٢.

تَجْهَلُونَ ﴿٢١﴾ [الأحقاف ٢١-٢٣]، تجد أن القوم قد طلبوا العذاب الذي أنذرهم به -عليه السلام- واستعجلوا وقوعه، فأجابهم بأن مهمته إنها هي تبليغ ما أرسل به وأن العلم بوقوع العذاب عند الله وحده، لا يتعداه إلى هود فما هود إلا مبلغ، وبهذا يتضح لك أن قوله تعالى: «إنما العلم عند الله» يدل على القصر لا محالة.

وتأمل سياق الآية الثانية: ﴿قَالُوا يَنْتُوخُ قَدْ جَدَلْنَاكَ فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ ﴿[هود: ٣٢، ٣٣]، فالمراد يأتيكم به الله إن شاء لا أنا، لأن مهمته -عليه السلام- تقف عند حد التبليغ.

وانظر سياق الآية الثالثة: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسِنَهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقَيْتِهَا إِلَّا هُوَ ﴿[الأعراف: ١٨٧]، أريد: علمها عند ربي ليس عندي، فالسياق -كما رأيت- يقتضي أن تكون «إنما» للقصر لإفادتها النفي والإثبات معاً.

هذا والمقصود عليه «بإنما» هو المؤخر دائماً، تقول في قصر العلم على محمد، إنما العالم محمد، وفي قصره على العلم، إنما محمد عالم، وتأتي «إنما» لإفادة كل أنواع القصر؛ فهي تفيد القصر الحقيقي بقسميه الحقيقي والادعائي كما تفيد القصر الإضافي بأنواعه الثلاثة: القلب والإفراد والتعيين.

اقرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطٰنُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيُصَدِّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلٰوةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴿[المائدة: ٩١]، تجد إرادة الشيطان قد قصرت «بإنما» على إيقاع العداوة والبغضاء بين المسلمين في الخمر والميسر وصددهم عن الذكر والصلاة، فهو قصر صفة على موصوف قصرًا حقيقياً غير تحقيقي، لأنه مبني على المبالغة، إذ الشيطان يسلك كل طريق لكي يبعد العبد عن طاعة ربه، ولكن لما كانت هذه الأمور وهي الخمر والميسر والصلاة والذكر من الخطورة بمكان فقد قصرت إرادة الشيطان عليها، أي: على ما يكون فيها من إيقاع العداوة بينهم في الخمر والميسر، والصد عن الذكر والصلاة، وكان ما عداها لا يعتد به إذا ما قورن بها.

ولما كانت «إنما» تستعمل في الأمور المعلومة التي لا تنكر ولا تدفع -كما سيأتي- فقد أوثرت بالتعبير هنا لتنبئ بأن هذا الأمر من الأمور المعلومة التي لا ينكرها أحد ولا يدفعها مدافع.

ومثله قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٦٩]، حيث قصر ما يأمر به الشيطان على السوء والفحشاء والقول على الله بلا علم قصرًا حقيقيًّا غير تحقيقي، لأنه يأمر بهذا وبغيره مما يكون سببًا في هلاك من اتبعه.

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا نَخْنِئُ اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر: ٢٨]، حيث قصر خشية الله على العلماء قصرًا حقيقيًّا غير تحقيقي، لأن غير العلماء يخشون الله تعالى، بل قد يكون غير العالم أشد خشية لله من العالم، ولكنه لم يعتد بذلك، لأن المقام مقام حث على العلم والنظر والتأمل في عجيب صنع الله، وقد مرت بك هذه الآية الكريمة، فارجع إلى ما قلناه فيها.

وقوله تعالى: ﴿ فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٨١]، إذ المراد أن من بدل الوصية وحرفها وغير حكمها، فالإثم واقع عليه وحده، والله سبحانه وتعالى مطلع عليه وكاشف أمره، وواضح أن القصر في الآية قصر صفة الإثم أو العقاب على الذين يبدلون، قصر صفة على موصوف قصرًا حقيقيًّا تحقيقيًّا.

وانظر إلى قول شوقي:

وإِنَّمَا الْأُمَمَ الْأَخْلَاقُ مَا بَقِيَتْ فَإِنْ هُمُودَ هَبَّتْ أَخْلَاقُهُمْ ذَهَبُوا

تجده قد قصر الأمم على الأخلاق قصر موصوف على صفة قصرًا حقيقيًّا ادعائيًّا، وهذا القصر ينبئ بقيمة الأخلاق وأهميتها في بناء الأمم والشعوب حيث لم يعتد الشاعر بها سواها مما يمكن أن يساهم في بناء المجتمعات.

وتقول: إنما زهير شاعر، فتفيد قصر زهير على صفة الشعر لا يتعدها إلى صفة الكتابة، فيكون قصرًا إضافيًّا إما قصر قلب أو أفراد أو تعيين، حسب اعتقاد المخاطب - كما مر بك -.

وتأمل قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ ۗ وَلكلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ [الرعد: ٧]، تجد فيه قصر الرسول ﷺ على صفة الإنذار لا يتعدها

إلى الإتيان بالآيات، فهو قصر إفراد، إذ يعتقد الكافرون أنه - عليه الصلاة والسلام - يجمع بين صفتي الإنذار والإتيان...

وقد ذكر عبد القاهر^(١) أن «إنما» لا تستعمل إلا في قصر القلب، والصواب ما ذكرناه وهو أنها تستعمل في كل أنواع القصر كما رأيت في الشواهد وهو ما عليه جمهور البلاغيين.

هل تفيد «أنما» القصر؟

يرى بعض العلماء كالزنجشري والبيضاوي والتنوخي، أن «أنما» من طرق القصر، فهي كإنما بالكسر في الدلالة على القصر، لأنها فرع عنها، وما ثبت للأصل يثبت للفرع، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ [الأنبياء: ١٠٨]، وقوله عز وجل ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]، والذي أراه - والله أعلم - أن «ما» في «أنما» زائدة للتأكيد وأن المراد في الآية الأولى: قصر «يوحى إلي» على «أنما إلهكم إله واحد» والمعنى ما يوحى إلي في أمر الإله إلا وحدانيته، والمراد في الآية الثانية قصر الرسول - عليه الصلاة والسلام - «أنا» على بقية الجملة، أي على كونه بشرًا مثلهم يوحى إليه أن إلههم إله واحد... والله تعالى أعلى وأعلم.



٤ - التقديم

ومن طرق القصر «التقديم» وهو باب واسع من أبواب البلاغة، يكمن وراءه الكثير من المزايا والأسرار البلاغية، وعد إلى تقديم المسند إليه والمسند ومتعلقات الفعل في الجزء الأول فقد تكفل ببيان هذه المزايا وتلك الأسرار، ومرادنا هنا أن نبرز دلالة التقديم على القصر...

(١) ارجع إلى دلائل الإعجاز ٢٢٠.

تأمل قولك: ما أنا قلت هذا الشعر، فقد دل تقديم المسند إليه وإبلاؤه أداة النفي على القصر، أي: نفي الشعر عن المسند إليه المقدم وإثباته لغيره.

ومن ذلك قول المتنبي:

وَمَا أَنَا أَنْقَمْتُ جِسْمِي بِهِ وَلَا أَنَا أَضْرَمْتُ فِي الْقَلْبِ نَارًا

وقوله أيضا:

وَمَا أَنَا وَخَدِي قُلْتُ ذَا الشَّعْرِ كُلُّهُ وَلَكِنْ لِشِعْرِي فِيكَ مِنْ نَفْسِي شِعْرٌ

فتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي بعد أداة النفي، يفيد -غالبًا- الاختصاص، ولذا كان من الخطأ أن نقول: ما أنا قلت هذا ولا قاله أحد غيري، أو تقول: ما أنا قلت شعراً، أو ما أنا أكرمت إلا زيدياً^(١).

وكذا تقديم المسند إليه في الإثبات كقولك: أنا سعت في حاجتك، محمد يقري الضيف، فإنه يفيد القصر أو التقوية، وتأكيد الحكم، حسبما يقتضيه السياق وقرائن الأحوال، والنكرة في هذا كالمعرفة تقول: ما رجل جاني، يفيد تقديم النكرة: القصر أي: نفي المجيء عن جنس الرجال وقصره على جنس النساء، والمعنى: ما رجل جاني بل امرأة، أو نفيه عن الواحد وإثباته لغيره، والمعنى: ما رجل جاني بل أكثر.. وتقول: رجل جاني يفيد تقديمها تقوية الحكم وتأكيده أو القصر، أي قصر المجيء على جنس الرجال ونفيه عن جنس النساء، والمعنى: رجل جاني لا امرأة، أو قصره على العدد، والمعنى: رجل جاني لا رجلان^(٢).

ومن تقديم المسند الذي أفاد تقديمه القصر قوله جل وعلا: ﴿لَكَرَّ دِينُكَ وَبَلَغَ دِينُ الْكَافِرِينَ﴾ [الكافرون: ٦]، وقوله تعالى: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْفَرُونَ﴾ [الصفوات: ٤٧]، وقوله عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٨٩].

ومنه قول عمرو بن كلثوم:

لَنَا الدُّنْيَا وَمَنْ أَضْحَى عَلَيْهَا وَنَبْطِشُ حِينَ نَبْطِشُ قَادِرِينََا

(١) ارجع إلى الجزء الأول لتعرف وجه الصحة والصواب لتلك الأقوال في باب تقديم المسند إليه.

(٢) تفصيل القول في هذا تراه في الجزء الأول في تقديم المسند إليه.

وقول الإمام علي كرم الله وجهه:

رَضِينَا قِسْمَةَ الْجَبَّارِ فِينَا لَنَا عِلْمٌ وَلِلْجَهَّالِ مَالٌ
وقول أبي تمام:

لَكَ الْقَلَمُ الْأَعْلَى الَّذِي بِسَبَابِهِ يُصَابُ مِنَ الْأَمْرِ الْكُلِّيِّ وَالْمَقَاصِلُ^(١)

ومن تقديم أحد المتعلقات على الفعل قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَعْبُدُ وَإِنَّا لَنَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وقوله جل وعلا: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأُمُورُ كُلُّهَا فَعَبْدُهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣].

ومنه قول شوقي في مدح الرسول ﷺ:

بِكَ يَا ابْنَ عَبْدِ اللَّهِ قَامَتْ سَمْحَةٌ بِالْحَقِّ مِنْ مِلَلِ الْهُدَى غَرَاءُ

وقول الإمام علي كرم الله وجهه:

إِلَى اللَّهِ أَشْكُو لَا إِلَى النَّاسِ أَشْتَكِي أَرَى الْأَرْضَ تَبْقَى وَالْأَخْلَاءَ تَذْهَبُ

وتقول: ما بهذا أمرتك... ما زيداً أكرمت، فيكون كلاماً مستقيماً، لأنك قصرت الأمر والإكرام المنفيين على المقدم أي: نفيت الأمر عن الجار والمجرور المقدم وأثبتته لغيره، ونفيت الإكرام عن زيد وأثبتته لغير زيد، فإن قلت: ما بهذا أمرتك ولا بغيره... ما زيداً أكرمت ولا أحداً من الناس قلت ما ليس بقول^(٢).

هذا والمقصود عليه بهذا الطريق هو المقدم دائماً، وهو صالح لكل أنواع القصر، فقوله تعالى: «إياك نعبد» قصر للعبادة على الله قصر صفة على موصوف قصرًا حقيقياً تحقيقاً، وقول عمرو: «لنا الدنيا ومن أضحى عليها» قصر للدنيا ومن عليها على كونها لهم قصر موصوف على صفة قصرًا حقيقياً ادعائياً، وقول الإمام علي كرم الله وجهه: «إلى الله أشكو لا إلى الناس» قصر إضافي صالح لأن يكون قلباً أو إفراداً أو تعييناً حسب اعتقاد المخاطب.

(١) شاة كل شيء حدة طرفه وجمعها شوات بفتح الشين في المفرد والجمع، والمراد أنهم يصيرون المحزبها يكتبون ويقولون، فالبتة كناية عن الفصاحة وإجادة القول، والكلبي: جمع كلية بضم الكاف.

(٢) ارجع إلى الجزء الأول من هذا الكتاب، باب تقديم المتعلقات على العامل

٥- ضمير الفصل

ومن طرق القصر التي أقرها بعض البلاغيين ضمير الفصل وهو أن يعقب المسند إليه بضمير يسمى ضمير الفصل لتخصيصه بالمسند بمعنى جعل المسند مقصورًا على المسند إليه، كقولك: زهير هو الشاعر، فيه قصر لصفة الشعر على زهير، لا تعداه إلى غيره، وطريق القصر هو الفصل بالضمير، وهذا الضمير حرف باتفاق جمهور النحاة وليس اسمًا، والقائلون بأنه اسم أكثرهم على أنه لا محل له من الإعراب، وهو يقع إما بين المبتدأ والخبر كما في المثال المذكور أو بين ما أصلها المبتدأ والخبر، كقولك: صار امرؤ القيس هو الشاعر، وعلمت أن حاتمًا هو الكريم، والمقصور عليه بهذا الطريق هو المبتدأ والمقصور هو الخبر.

وتلاحظ في الأمثلة المذكورة أن ضمير الفصل قد أفاد بالإضافة إلى القصر: تأكيد نسبة الخبر إلى المبتدأ، وتلك الإفادة تراها وراء كل أسلوب من أساليب القصر، كما أفاد أيضًا الدلالة على أن ما بعد المبتدأ خبر له وليس صفة، لأن قولك: زهير الشاعر، فيه إيهام أن الشاعر صفة لزهير، فإذا قلت: زهير هو الشاعر، اندفع هذا التوهم، وأصبحت الجملة دالة دلالة بينة على أن الشاعر خبر لزهير لا صفة.

ومن شواهد القصر بضمير الفصل قوله: ﴿ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ﴾ [المائدة: ١١٧]، التوفية في الآية بمعنى الرفع، فقد جاءت التوفية في كتاب الله على ثلاثة أوجه: بمعنى الموت كما في قوله عز وجل: ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [الزمر: ٤٢]، وبمعنى النوم كما في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ﴾ [الانعام: ٦٠]، وبمعنى الرفع كما في قوله جل وعلا: ﴿ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي ﴾^(١).

وفي الآية الكريمة قصر لصفة المراقبة بمعنى: المراعاة والحفظ والعلم على موصوف وهو الله تعالى، وطريق القصر هو ضمير الفصل: «أنت» ولو لم يكن ضمير الفصل في الآية الكريمة للدلالة على القصر لما حسن، لأن الله لم يزل رقيبًا

عليهم في جميع الأحوال، وإنما الذي حصل بتوفيته عيسى -عليه السلام- وقد كان شهيداً عليهم يراقبهم ويأمرهم بعبادة الله، أنه لم يبق لهم رقيب غير الله تعالى، ولذا ينبغي أن يتعين إعرابه فصلاً دالاً على القصر^(١).

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠]، فقد قصرت صفة الفوز على أصحاب الجنة قصرًا إضافيًا، فهي لا تتعداهم إلى أصحاب النار، وطريق القصر هو ضمير الفصل، وذلك لأن الآية الكريمة تقرر عدم الاستواء بين أهل الجنة وأهل النار، فأهل الجنة هم الفائزون بكل مطلوب، الناجون من كل مكروه، وهذا لا يحسن إلا بأن يكون ضمير الفصل «هم» للاختصاص، ولا يتأتى إعرابه مبتدأ ثانيًا ولا تأكيدًا للجملة.

ومثله قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨]، حيث قصرت صفة الرزق على الله تعالى قصرًا حقيقيًا، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ٣]، قصرت صفة «الأبتر» على «شانئك» والمعنى: إن عدو رسول الله ﷺ هو المحروم من رحمة الله، المقطوع من كل خير.

ويمكن أن يكون طريق القصر في الآيات الكريمة تعريف المسند بأل الاستغرافية وعندئذ يكون ضمير الفصل لتأكيد القصر.

وتأمل قوله عز وجل: ﴿أَمْ أَلْمَدُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ۗ قَالَ اللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٩]، تجد أن صفة الولاية قد قصرت على الله تعالى لا تتعداه إلى تلك المعبودات التي اتخذوها من دونه، فهو سبحانه وتعالى الخالق الرازق، الضار النافع، المحيي المميت، القادر على كل شيء، الحقيق أن يتخذ وليًا، وطريق القصر: لك أن تجعله ضمير الفصل «هو» ولك أن تجعله تعريف المسند بأل الاستغرافية، ويكون الضمير تأكيدًا للقصر.



(١) انظر شروح التلخيص ٢ / ٣٨٧.

٦- تعريف المسند أو المسند إليه «بأل»

إذا كان مبتدأ والخبر معرفتين فالراجع أن السابق منهما هو المبتدأ، واللاحق هو الخبر، تقول: زيد المنطلق، فتخبر عن زيد بالانطلاق، وتقول: محمد الشجاع، فتخبر عن محمد بالشجاعة، وتقول: الشجاع محمد فتخبر عن الشجاع بأنه محمد، وتقول: زيد أخوك، وأخوك زيد، فالأول إخبار عن زيد بأنه أخوه، والثاني إخبار عن أخيه بأن اسمه زيد.

وعندما يكون أحد طرفي الإسناد معرفاً «بأل» التي للعهد أو للجنس، فإن هذا التعريف يدل على القصر، إذ هو طريق من طرقه عند بعض البلاغيين، كما عرفت، تقول: عمرو المنطلق، فتفيد قصر الانطلاق المعهود على عمرو، وتقول: محمد الكريم، والكريم محمد، فتفيد بهذا قصر الكرم على محمد في الموضعين، فالمقصود هو المعرف «بأل» الجنسية سواء تقدم أو تأخر، والمقصود عليه هو الآخر، وتقول: خالد الأمير، والأمير خالد، فتفيد قصر الإمارة على خالد قصرًا حقيقيًا تحقيقيًا، إذا لم يكن ثمة أمير سواه، وتقول: محمد الشجاع، والشجاع محمد فتفيد قصر الشجاعة على محمد قصرًا حقيقيًا ادعائيًا لأنك تجعله الكامل في الشجاعة، ولا تعدد بشجاعة غيره لقصورها عن رتبة الكمال، وتقول محمد القوي، والقوي محمد، فتفيد قصر القوة على محمد قصرًا إضافيًا، إذا أردت أنه القوي دون زيد أو عمرو مثلاً، وتقول أنت المقدم، وهو المطاع، ونحن الأبطال، فتفيد قصر الصفات المذكورة على موصوفها، قصرًا حقيقيًا أو إضافيًا حسب مرادك بتلك الأقوال.

فإن كان طرفا الإسناد معرفين «بأل» الجنسية كقولك: العالم المنطلق، فإن السياق هو الذي يحدد ويعين المراد.

والمقصود بهذا الطريق وهو المعرف بأل، أو الذي يحدده السياق إذا كان الطرفان معرفين معا بها.. قد يكون على إطلاقه كما في الأمثلة السابقة، وقد يقيد بتقيد، كقولك: محمد المطاع في قومه، وأنت القائد الجريء، حيث قصرت الطاعة المتيدة بالجار والمجرور على محمد وقصرت القيادة المقيدة بالجرأة على المخاطب. ومن ذلك قولهم: هو الوفي حين لا تظن نفس بنفس خيرًا، وهو الجواد حين يبخل الناس.

ومنه قول الأعشى:

هُوَ الْوَاهِبُ الْمِائَةَ الْمُصْطَفَا ۖ إِيمًا مَخَاضًا وَإِيمًا عِشَارًا

فالمخاض: الحوامل من النوق، والعشار جمع عشاء، وهي التي مضى لحملها عشرة أشهر، والشاعر قد قصر الهبة على الممدوح، ليس مطلقاً، وإنما مقيدة بكونها من النوق وبكونها مائة وبكونها مصطفاة، وبكونها إما مخاضاً وإما عشاراً، وهذا أبلغ في مقام المدح من قصر الهبة المطلقة، كما لا يخفى.

وعندما يقيد المقصور بقيد كما في الشواهد المذكورة يكون القصر قصرًا حقيقياً تحقياً، أما إذا كان على إطلاقه فعالباً ما يكون قصرًا ادعائياً وقد يكون تحقياً إذا وجد في السياق ما يعين ذلك^(١).

هذا وقد يأتي التعريف بلام الجنس لإفادة التأكيد وتقرير الحكم، دون الدلالة على القصر، كما في قول الخنساء:

إِذَا قُبِحَ الْبُكَاءُ عَلَى قَتِيلٍ رَأَيْتُ بُكَاءَكَ الْحَسَنَ الْجَمِيلًا

فليس المعنى على إرادة القصر، وإنما مرادها أن تقرر الحسن والجمال لبكائها صخرًا، وأن تدل على أن حسنه حسن ظاهر وجماله جمال بين، فلا أحد يستطيع أن ينكره أو يشك فيه، وإذا استقبح البكاء على قتيل، ظل بكائك الحسن الجميل الذي لا يستقبحه أحد، فالتناس لا يترددون في حسن بكاء وقبح آخر، حتى يكون المعنى على القصر، وإنما هم يستقبحون البكاء على القتلى، ويستحسنون بكاءها صخرًا، وبهذا يتضح لك أن المراد بتعريف المسند في البيت «بأل» الجنسية «الحسن الجميل» هو تقرير الحسن والجمال وتأكيدهما، وإبراز بكائها صخرًا حسنًا دائمًا وجميلاً أبدًا، وليس المراد به الدلالة على القصر.



(١) انظر دلائل الإعجاز ص ١٨٠.

فروق طرق القصر وأوجه الاختلاف بينها

ومن أهم ما ينبغي أن تتجه إليه عناية الدارس لأسلوب القصر، أن يقف على ما بين طرفه من فروق وأوجه اختلاف، فإن هذه الطرق على الرغم من اشتراكها في الدلالة على معنى القصر فإنها تختلف من عدة أوجه، ويوجد بينها فروق دقيقة ينبغي على الدارس أن يلم بها، وأهم هذه الأوجه:

١- أن دلالة التقديم، وضمير الفصل، وتعريف الطرفين أو أحدهما «بأل» على القصر ليست دلالة وضعية، وإنما هي دلالة تدوقية تفهم من فحوى الكلام وسياقاته وقرائن أحواله، فصاحب الذوق السليم، والطبع العربي الأصيل يستطيع إذا تأمل التقديم بين أجزاء الكلام أن يدرك ما يكمن وراءه من أسرار ودقائق، وأن يميز بين تقديم قصد به الدلالة على القصر وتقديم الغاية منه مزية أخرى، فليس كل تقديم يدل على القصر، وإنما يقع التقديم بين أجزاء الكلام للدلالة على أغراض شتى ومزايا عديدة^(١).

وكذا توسط الضمير بين طرفي الإسناد، قد يكون ضمير فصل يدل على القصر، أو يؤكده إذا دل على القصر غيره، وقد يكون لتأكيد مضمون الكلام فيكون عندئذ اسماً ويعرب مبتدأ ثانياً، فليس دائماً لإفادة الاختصاص.

وتعريف الطرفين أو أحدهما، بأل الاستغرافية قد يكون للتقرير وتأكيد نسبة المسند إلى المسند إليه، كما مر بك في بيت الخنساء:

إِذَا قَبِجَ الْبُكَاءُ عَلَى قَيْلٍ رَأَيْتُ بُكَاءَكَ أَحْسَنَ الْجَوِيلِ

وهذا يتضح لك أن دلالة هذه الطرق الثلاثة على القصر مرجعها إلى السياق ومعرفة قرائن الأحوال، والتأمل الواعي، ذو الذوق السليم، الخبير بدلالات الكلام وخصائص التراكيب، هو الذي يميز بين ما يدل على القصر منها وما يقصد به إلى غاية أخرى.

أما النفي والاستثناء و«إنما» و«العطف بلا وبل ولكن» فدلالتهما على القصر

(١) ارجع إلى أغراض التقديم في الجزء الأول من هذا الكتاب.

دلالة وضعية، وعلى الرغم من ذلك خاض البلاغيون في بيان وجه تلك الدلالة، وقد مر بك وجه دلالة كل منها على القصر، ولا تتنافى الدلالة الوضعية لهذه الطرق الثلاثة مع دراستها، والبحث عنها في علم المعاني، لأنه لا يبحث فيه عن دلالتها على القصر وإنما يبحث فيه أصلاً عن مزايا القصر وأحواله وعن المقامات التي تدعو إلى التعبير بأساليب القصر وما من شك في أن هذا من صميم علم المعاني.

٢- أن الأصل في طريق «العطف بلا وبل ولكن» النص على المثبت والمنفي معاً، تقول: زهير شاعر لا كاتب، ما شوقي كاتباً بل شاعر، ما عمرو جواداً لكن حاتم، ولا يترك النص على المثبت والمنفي في هذا الطريق إلا كراهة الإطناب في مقام الإيجاز، كما إذا قال لك قائل: زيد يعلم البلاغة والنحو والصرف والعروض والأدب، أو زيد يعلم البلاغة وخالد وعمرو وبكر وحاتم، فتقول له: زيد يعلم البلاغة لا غير، والمعنى في الأول: قصر زيد على علم البلاغة، أي زيد يعلم البلاغة لا غيرها، وفي الثاني: قصر علم البلاغة على زيد أي: زيد يعلم البلاغة لا غيره...

ومثله قول الشاعر:

جَوَابَهِ تَنْجُو اعْتَمِدْ فَوَزَّرْنَا لَعَنَ عَمَلٍ أَسْلَفَتْ لَا غَيْرُ تُسْأَلُ

فقد نص في القصيرين: «زيد يعلم البلاغة لا غير».. «عن عمل أسلفت لا غير تسأل»، على المثبت فقط دون المنفي خشية الإطناب؛ إذ المقام مقام إيجاز واختصار.

أما بقية الطرق فالأصل فيها أن ينص على المثبت فقط دون المنفي، تقول: ما شاعر إلا زهير، في قصر صفة الشعر على زهير، فقد صرح بالمثبت وهو زهير دون المنفي وهو من عدها وكذا القول في: ما زهير إلا شاعر، إنها أنت أب، إياك أكرمت، محمد الشجاع، خالد هو الوفي، ففي هذه الطرق قد نص على المثبت فقط، أما المنفي فمفهوم من القصر بمعرفة سياقات الكلام وقرائن أحواله...

وقد يصرح في بعض هذه الطرق بالمنفي دون المثبت كقولك في التقديم: ما أنا فعلت هذا، ففيه نفي للقول عن المسند إليه المقدم وإثباته لغيره، فالمقصود عليه الذي صرح به هو المنفي عنه دون المثبت له كما ترى، وقد ينص على المثبت والمنفي

معاً كقولك في الاستثناء التام: ما قام القوم إلا زيد، وقد مر بك أن الاستثناء المفرغ هو الأصل في الدلالة على القصر.

٣- اجتماع طريقين من طرق القصر

لا يجوز أن يجتمع طريق النفي «بلا» العاطفة وطريق النفي والاستثناء - كما مر بك - لأن «لا» موضوعة لأن ينفي بها ما أوجب للمتبوع كقولك: زيد كريم لا شجاع فهي موضوعة للنفي ابتداءً، لا لأن تعيد بها النفي في شيء قد نفيت، وهذا الشرط مفقود في النفي والاستثناء، لأن قولك: ما زيد إلا قائم، يفيد نفي كل صفة وقع فيها التنازع عن زيد وإثبات صفة القيام له، فلو قلت: «لا قاعد» فقد نفيت «بلا» العاطفة شيئاً هو منفي قبلها بما النافية.

ولذا عيب قول الحريري:

لَعَمْرُكَ مَا الْإِنْسَانُ إِلَّا ابْنُ يَوْمِهِ عَلَى مَا تَجَلَّى يَوْمُهُ لِأَبْنِ أُمِّهِ

هذا إذا كانت «لا» العاطفة داخلية على المفرد، فإن دخلت على الجملة كقولك: ما هذا إلا لك لا يشاركك فيه أحد، فهو جائز، لأنك عندئذ لا تنفي «بلا» شيئاً قد نفي أولاً، وإنما تنفي بها جملة مؤكدة لجملة القصر المتقدمة عليها.

أما بقية الطرق فتجتمع والنفي «بلا» تقول في اجتماعه وإنما: «إنما زيد كريم لا شجاع»، وفي اجتماعه والتقديم: «إلى الله أشكو لا إلى الناس» وفي اجتماعه والتعريف بأل: زيد الكريم لا عمرو، وذلك لأن النفي في هذه الطرق ليس نفيًا صريحًا، فأنت لم تنف «بلا» ما قد نفي من قبل نفيًا صريحًا بأداة من أدوات النفي الموضوعة له، بل نفيت بها ما قد فهم نفيه في الجملة المتقدمة بغير أداة، والقصر عندئذ طريقة «إنما» و«التقديم» و«التعريف بأل» أما العطف «بلا» فتأكيد للقصر.

وينبغي مراعاة ذلك عند بناء الجمل وصياغتها، فلا تبني بناء تناقض فيه أجزاءها... لا تقول: «إنما هذا لك لا ذاك» لأن المقصور عليه بإنما هو المؤخر، والمقصور عليه بلا هو المقابل لما بعدها، «فإنما» تقتضي أن يكون المقصور عليه هو «لك» و«لا» تقتضي أن يكون المقصور عليه «هذا» وذا تدافع وتناقض في القول، فالصواب أن يقال: «إنما هذا لك لا لغيرك»، «إنما أخذ زيد لا عمرو»، «إنما زيد يأخذ لا يعطي»، «إنما أكرمت عمرًا لا زيدًا».

وتقول: زيد الكريم لا عمرو، وحاتم هو الثري لا خالد، وبهذا تنشغل لا بذلك، وبهذا تأمر لا بغيره فتراه كلامًا مستقيمًا، إذ لا تدافع بين التعريف «بأل» أو «التقديم» وبين العطف «بلا»، فإن قلت زيد الكريم لا البخيل، وعمرو هو الشجاع لا الجواد، وبهذا تأمر لا تنهي، تناقض قولك وتدافع.

فإن سألت: ألا يجوز أن يكون التقديم في المثال الأخير للتأكيد وتقوية الحكم، وعندئذ يكون طريق القصر «لا» والمقصور عليه: «تأمر»؟، قلت: لا غبار على ذلك حيث لا تدافع في الدلالة عندئذ، ولا تناقض في القول، فالذي ينبغي مراعاته هو التنبيه لما بين طرق القصر من فروق في تحديد موضع كل من المقصور والمقصور عليه حتى لا تبنى الجمل بناء تتناقض فيه أجزاؤها.

فقد تجتمع -مثلاً- «إنما» وضمير الفصل أو التعريف بأل، فيقال: إنما الجواد أنت، إنما العالم هو محمد، وتجده كلامًا مستقيمًا، إذ المقصور عليه بالتعريف أو بضمير الفصل هو الخالي من «أل» والمقصور عليه بإنما هو المؤخر، فلا تناقض في بناء العبارة، كما ترى بل إن طريقي القصر يؤكد كل منهما الآخر، فإن قلت: إنما أنت الجواد، إنما محمد هو العالم، تدافع الطريقتان، ولو جعلت ضمير الفصل أو التعريف للتأكيد وتقوية الحكم وتقريره فلا تدافع، إذ يكون القصر مدلولاً عليه بإنما، والتعريف وضمير الفصل مؤكداً له.

وقد يجتمع طريق «إنما» وطريق «التقديم» كقولك: إنما زيدًا أكرمت وإنما بهذا أمرتك... وإنما عليك المعول... فعندئذ يتحتم إلغاء دلالة أحد الطريقتين على القصر ويبقى الآخر، وذلك لأنه لا يمكن أن نلائم بين طريق إنما وطريق التقديم، إذ المقصور عليه بـ «إنما» هو المؤخر، والمقصور عليه في التقديم هو المقدم، والذي يحدد ذلك هو السياق وقرائن الأحوال وما يقتضيه المعنى.

تأمل قول المتنبي:

أَجِزْنِي إِذَا أُنْشِدْتَ شِعْرًا فَإِنَّمَا بِشِعْرِي أَتَاكَ الْمَادْحُونَ مُرَدِّدًا

تجد المعنى يقتضي أن يكون المقصور عليه هو الجار والمجرور «بشعري»؛ لأنه أراد أن شعره قد احتوى كل فنون المديح واشتمل على كل الخصال والمناقب التي

يمكن أن تحوم حولها أخيلة الشعراء ولذا فإن الشعراء إذا أتوا مادحين، فإننا يمدحون بشعره، ويكررون قوله، فالمعنى يقتضي أن يكون طريق القصر هو التقديم، وأن تكون «إنها» ملغاة...

وخذ قول الأخير يرثي صديقه:

أَلَا فَلَيْمُتْ مَنْ شَاءَ بَعْدَكَ إِنَّمَا عَلَيْكَ مِنَ الْأَقْدَارِ كَانَ حَذَارِيَا

تجد المعنى يقتضي أن يكون حذر الشاعر مقصوراً على مرثيه: «عليك»، لا يتعداه إلى غيره، فالمقصور: الحذر من الأقدار والمقصور عليه الجار والمجرور «عليك» وهذا معناه أن إنها ملغاة وأن طريق القصر هو التقديم...

وتأمل قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مَا تُرِيكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ تَتَوَقَّئِكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ

وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]، تجد المعنى يقتضي أن يكون الجار والمجرور: «عليك» مقصوراً و«البلاغ» مقصوراً عليه، لأن المراد: قصر مهمة الرسول ﷺ على التبليغ لا تتعداه إلى الحساب ونحوه، وليس مراداً قصر البلاغ على الرسول، وهذا معناه: أن طريق القصر هو «إنها» وأن دلالة التقديم على القصر ملغاة فهو للتأكيد وتقوية الحكم.

أما قوله: «وعلينا الحساب» فهو قصر للحساب على الله تعالى لا يتجاوز به إلى غيره، وطريقه: التقديم، ومعنى الآية الكريمة: فإما نرينك بعض الذي نعدهم من الإهلاك والعذاب أو تتوقينك قبل تعذيبهم، فإن الذي عليك هو الإنذار وتبليغهم الرسالة، وعلينا نحن الحساب والجزاء لا عليك، وهذا المعنى قد اقتضى أن يكون طريق القصر في الجملة الأولى -كما وضحنا- هو «إنها» وفي الجملة الثانية هو التقديم...

واقراً قول المتنبي في مدح عضد الدولة:

وَقَدْ رَأَيْتُ الْمُلُوكَ قَاطِيَةً وَسِرْتُ حَتَّى رَأَيْتُ مَوْلَاهَا
وَمَنْ مَنَائِيَاهُمْ بِرَاحَتِهِ يَأْمُرُهَُا فِيهِمْ وَيُنْهَاهَا
أَبَا شُجَاعٍ بِفَارِسٍ عَضْدَ الدَّو لَةَ فَنَاحُ سُرُو شَهْنُ شَاهَا

أَسَامِيًّا لَمْ تَزِدْهُ مَعْرِفَةً وَإِنَّمَا لَذَّةٌ ذَكَّرْنَاَهَا

فقد عدد أسماء آباء المدوح، ولما كانت العادة قد جرت على أنه لا تعدد أسماء الآباء إلا عند إرادة التعريف بشخص حامل الذكر، قليل الشهرة، تدارك الشاعر ذلك فقال:

أَسَامِيًّا لَمْ تَزِدْهُ مَعْرِفَةً وَإِنَّمَا لَذَّةٌ ذَكَّرْنَاَهَا

أي: ما ذكرناها إلا من أجل اللذة، «فلذة» مقصور عليه مقدم، و«إنها» ملغاة. وقد يحتمل المعنى أن يكون القصر بأي من الطريقتين. على نحو ما ترى في قول العباس بن الأحنف:

كَانَ لِي قَلْبٌ أَعْيَشُ بِهِ فَاصْطَلَى بِالنَّارِ فَاخْتَرَقَا
أَنَا لَمْ أُزِرْقْ مَوْدَدَتِكُمْ إِنَّمَا لِلْعَبْدِ مَا رَزَقَا

فجائز أن يكون ما للعبد مقصورًا على رزقه، لا يتعداه إلى رزق غيره، وجائز أن يكون: «ما رزقا» مقصورًا على «كونه للعبد» لا يتعداه إلى كونه لغيره، فعلى الأول يكون طريق القصر «إنها» ودلالة التقديم ملغاة، وعلى الثاني يكون طريق القصر «التقديم» ودلالة «إنها» ملغاة، فالبيت - كما ترى - يحتمل المعنيين.

هذا ويرى بعض أنه إذا أدى اجتماع أي طريقتين من طرق القصر إلى تدافع أجزاء الكلام ألغى أحدهما حسبما يقتضي السياق وتحدد القرائن، ولا يحكم على الكلام بالتناقض والتدافع، فلو قلت: إنها هذا لك لا ذاك ووجدت «إنها» لا تستقيم مع «لا» فعليك أن تلغي أحد الطريقتين حسبما يميل عليك السياق، ولو قلت: إنها لك هذا لا لغيرك، فوجدت «إنها» متدافعة مع «التقديم» و«لا» فإما أن تلغيها وإما أن تلغي التقديم و«لا»^(١).

ولعل من رأى هذا قد نظر إلى اجتماع «إنها» والتقديم» وإلى إلغاء أحدهما حسبما يقتضي السياق، فرأى أن ما يجري على «إنها» والتقديم» عند اجتماعهما يمكن أن

(١) انظر الإيضاح ج ٢ ص ٢٨.

يجري على أي طريقين، فليس هناك ما يدعو إلى التفرقة بين اجتماع «إنها والتقديم» واجتماع غيرهما.

والذي أراه أنه لا يمكن التعويل على مثل هذه الأمثلة المصطنعة في إصدار هذه الأحكام، بل ينبغي أن يعتمد فيها على التعبيرات الجيدة والأساليب الرفيعة من أقوال البلغاء، وأن ينظر إلى اجتماع طرق القصر في تلك التعبيرات الجيدة، ويقر عندئذ ما يقضي به سياقها على نحو ما رأيت في اجتماع «إنها» والتقديم في النظم الكريم وفيها مر بـك من شواهد.

٤- بين «إنها» و«النفي والاستثناء»

الأصل في طريق «النفي والاستثناء» أن يستعمل فيما شأنه أن يجمله المخاطب وينكره، والأصل في «إنها» أن تستعمل فيما شأنه أن يعلمه المخاطب ولا ينكره. يقول عبد القاهر: «وأما الخبر بالنفي والإثبات نحو: ما هذا إلا كذا وإن هو إلا كذا، فيكون للأمر ينكره المخاطب ويشك فيه، فإذا قلت: ما هو إلا مصيب أو ما هو إلا مخطئ، قلته لمن يدفع أن يكون الأمر على ما قلته، وإذا رأيت شخصاً من بعيد فقلت: ما هو إلا زيد لم تقله إلا وصاحبك يتوهم أنه ليس بزيد، وأنه إنسان آخر، ويجد في الإنكار أن يكون كذلك»^(١).

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ٦٢]، فالخطاب في الآية لمن يحاجون في عيسى ويرفعونه إلى مرتبة الإله، ويجدون في ذلك ولذا دعوا إلى الابتهاج: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكٰذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١]، ثم أكد الخبر بإن واللام: «إن هذا هو القصص الحق» ثم جاء القصر بالنفي والاستثناء «وما من إله إلا الله» ثم أكد الخبر مرة ثانية: «وإن الله هو العزيز الحكيم»... وفي هذا ما يدفع إنكار

(١) دلائل الإعجاز ص ١٢٧.

المنكرين ويبدد جحودهم ويدفعهم إلى ترك المحاجة في شأن عيسى عليه السلام بعد وضوح الأمر ومجيء العلم.

واقراء قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُكَ مُجِدُّوُنَا نَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأُولِينَ ﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْعُونَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ [الأنعام: ٢٥-٢٦]، فالرسول ﷺ ينكر أشد الإنكار أن يكون ما يدعوهم إليه أساطير الأولين، وهم يعتقدون أنهم يهلكون بعنادهم وجداهم الرسالة وصاحبها، وينكرون أنهم يهلكون أنفسهم ولذا جاء القصر في الموضوعين بالنفي والاستثناء.

وخذ قوله تبارك وتعالى: ﴿ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِن أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾ [الأنعام: ٥٠]، فالمخاطبون وهم الكفرة ينكرون أشد الإنكار أن يكون الرسول متبعاً لوحي يوحى ويرون أن ما يقوله أساطير الأولين، ولذا جاء القصر بالنفي والاستثناء: «إن أتبع إلا ما يوحى إلي».

ومن ذلك قول المتنبي في ذكر سيف الدولة ووصف جيوشه وما يتبعها من طير:

لَهُ عَسْكَرًا خَيْلٍ وَطَيْرٍ إِذَا رَمَىٰ بِهَا عَسْكَرًا لَمْ يُنْسَقِ إِلَّا جَمًا جِمَهُ
فكون الجيش على هذه الصورة من القوة وشدة الفتك وأنه لا يبقى من الأعداء حيًّا ولا جسدًا ميتًا، وإنما يبقى الجهاجم ليس إلا، أمر غريب تتوقف النفوس في قبوله، ويكون منها إنكار له ودفع، ولذا كان القصر بالنفي والاستثناء: «لم يبق إلا جهاجه».

ومنه قول التميمي:

فَمَا زَادَنِي الشَّيْبُ إِلَّا نَدَىٰ إِذَا اسْتَرَوْحَ الْمُرْضِعَاتُ الْقُتَارَ^(١)

لأن ما ذكره من شأنه أن ينكر ويدفع وأن تتوقف النفوس في قبوله والتسليم به، فقد ذكر أن الشيب زاده ندى، ومن شأن من بلغ الشيب أن يكون حريصًا، ثم ذكر أن الوقت وقت شدة وحاجة فهو وقت تستروح فيه المرضعة القتار، فإذا كانت

(١) استروح: اشم، والقتار بضم القاف: ربح الشواء.

المرضعة وهي التي يحتال لها ويعتنى بها قد وصل بها الحال إلى أن تشم رائحة الشواء ولا تطعمه، فما بالك بغيرها؟.. إن ازدياد من بلغ الشيب ندى في هذه الحال أمر يدفع وينكر، ولذا كان القصر بالنفي والاستثناء: «ما زادني الشيب إلا ندى»، دفعًا لهذا الإنكار.

قلت: إن الأصل في النفي والاستثناء أن يستعمل فيما شأنه أن يدفعه المخاطب وينكره ويجهله، وقد يخرج النفي والاستثناء عن هذا الأصل فيستعمل في الأمر المعلوم الذي لا ينكر تنزيلاً له منزلة المجهول المنكر لاعتبارات بلاغية مناسبة. من ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، ففي الآية قصر للرسول ﷺ على صفة الرسالة لا يتعدها إلى التبري من اخلاق، فهو رسول يموت ويخلو كما خلت الرسل من قبله، والمخاطبون وهم الصحابة رضي الله عنهم، يعلمون يقيناً أنه ﷺ مقصور على الرسالة ولا يتجاوزها إلى الخلد، فهو غير جامع بين الرسالة والتخليد في الدنيا، ولكنهم لما كانوا متعلقين به -عليه الصلاة والسلام- ويستعظمون موته، ويعدونه أمراً خطيراً وحدثاً جليلاً، نزلوا منزلة من ينكر موته، ويعتقد أنه يجمع بين الرسالة والخلد أو التبري من الهلاك فخطبوا خطاب المنكر.

والسر البلاغي هو تصوير حال الصحابة والإشعار بعظم ذلك الأمر في نفوسهم وشدة حرصهم على بقائه ﷺ بينهم، كما لا يخلو الأمر من عتاب عنيف لهم لعدم مضيهم على وفق ما يعلمون، وما هو راسخ في نفوسهم، ولا يخفي عليك هذا المعنى عندما تقرأ سياق الآية الكريمة: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَلَا يَنْتَهِونَ أَمْ أُرْسِلْتُمْ كَمَا بُرِّسْتُمْ وَلَا تَحْقِرُونَ أَمْ لَكُمْ آيَاتٌ أَنْتُمْ بِالْآيَاتِ أَمْ لَكُمْ أَعْيُنٌ أَنْتُمْ بِالْأَعْيُنِ أَمْ لَكُمْ أَلْسِنَةٌ أَنْتُمْ بِالْأَلْسِنِ﴾، فأنت تشعر بنعمة العتاب والتحذير من الانقلاب على الأعقاب وعدم المضي على ما ثبت في النفوس ورسخ، من إيمان واعتقاد، ولو استعملت «إنها» هنا لكونها للأمر المعلوم غير المنكر فقيل: إنها محمد رسول يخلو كما خلت الرسل من قبله لما كان هذا المعنى ولما تحققت تلك المزية وهي إبراز حال الصحابة، وتصوير شدة الموقف وما أصابهم من هول.

واقرا قوله تعالى: ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَأَطِرُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَتَيْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ نِّقَلْنَا عَنْهٖ وَإِن يُصَدِّقُنَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَآتُونَا بِسُلْطٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴿١١﴾ [إبراهيم: ١٠، ١١].

فالرسل عليهم السلام لا ينكرون أنهم بشر ولا يجهلون ذلك، ولكنهم نزلوا منزلة من ينكر ذلك ويدفعه، فجاء القصر بالنفي والاستثناء: «إن أتمم إلا بشر مثلنا...» لاعتقاد الكفرة أن الرسول لا يكون بشرًا، وإصرار الرسل -عليهم السلام- على دعوى الرسالة، فهم بهذا الإصرار قد أنكروا بشريتهم -في اعتقاد المتكلمين وهم الكفرة- واعتقدوا أنهم ليسوا بشرًا، فكان القصر: «إن أتمم إلا بشر» قصر قلب أي: أتمم بشر لا رسل، بناء على اعتقاد الكفرة الفاسد، التنافي بين الرسالة والبشرية وعدم اجتماعهما، وإيثار التعبير بالنفي والاستثناء في هذا الأمر المعلوم الذي لا ينكره الرسل بتنزيلهم منزلة المنكر، يصور حال الكفرة وما خيم عليهم من جهل واعتقادات فاسدة أعمتهم عن الحق وحالت بينهم وبين قبول الهداية.

أما قول الرسل لهم «إن نحن إلا بشر مثلكم» فمن مجازاة الخصم، للتبكيث والإلزام والإفحام، لأن من عادة من ادعى عليه خصمه الخلاف في أمر لا يخالف فيه ولا ينكر، أن يعيد كلامه على وجهه، كما إذا قال لك من يناظرك: أنت من شأنك كذا، فتقول: نعم أنا من شأن كذا ولكن لا يلزمي من أجله ما ظننت أنه يلزم، فكان الرسل -عليهم السلام- قالوا: إن ما قلتم من أننا بشر مثلكم هو ما قلتم لا ننكره، ولكن ذلك لا يمنع أن يكون الله قد من علينا بالرسالة فإله يمن على من يشاء من عباده.

فقد سلم الرسل بتلك المقدمة: «إن نحن إلا بشر مثلكم» بألفاظها ومعناها وفي هذا ما يؤنس نفوس الكفرة، ويستميلهم نحو الحق والهدى، ولكنه لا يستلزم مقصودهم وهو أن الإنسان لا يرقى إلى أهلية الرسالة، إذ لا منافاة عند الرسل والمؤمنين بين الرسالة والبشرية فليس هنالك ما يمنع من أن يرقى الإنسان ويسمو فيكون من عباد الله الذين اصطفى ويصير أهلاً للرسالة وتلقى الوحي.

وخذ قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢١﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٢﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٣﴾﴾ [فاطر: ١٩-٢٣] فقد قصر ﴿٢٣﴾ على صفة الإنذار قصر أفراد فهو لا يتجاوز تلك الصفة إلى الجمع بينها وبين صفة الهداية، والرسول عليه الصلاة والسلام يعلم ذلك لا ينكره ولا يجمله، ولكن لما كان عليه الصلاة والسلام شديد الحرص على هداية قومه، ملحاً في توجيه الدعوة إليهم حتى شق على نفسه، نزل منزلة من يعتقد أنه يجمع بين الإنذار والهداية، فجاء القصر بالنفي والاستثناء: ﴿إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ وسر بلاغته تسلية الرسول ﴿٢٤﴾ وتصوير حاله وإبراز حرصه على هداية قومه، وإلحاحه في دعوتهم وتبليغهم الرسالة، فقد بلغ في ذلك مبلغاً نزل فيه منزلة من اعتقد أنه يستطيع حمل الناس على الهداية قسراً.

وسياق الآيات الكريمة يرشد إلى هذا المغزى، فقد بين أنه لا يمكن أن تستوي تلك الأضداد: الظل والحرور- الأعمى والبصير- الظلمات والنور- الأحياء والاموات- ثم صرح بأن الله سبحانه وتعالى يسمع من يشاء، وأنه ﴿٢٥﴾ لا يستطيع إسماع من في القبور، فهو لاء الكفرة قد صاروا في عداد الموتى، والرسول في إجهاد نفسه وبذل كل ما في وسعه وإلحاحه في إسماعهم وهدايتهم كمن يسوي بين الأضداد الأحياء والاموات، وهي ليست سواء، وكمن يحاول إسماع من في القبور، ولا جدوى في إسماعهم، فما عليك يا محمد، إذا لم يقبلوا الهدى، فقد بلغت ونصحت، وأرشدت ووضحت، وما عليك بعد ذلك إذا لم يهتدوا: «إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ...».

هذا وقد يرد النفي والاستثناء فيما لا يتصور فيه إنكار مخاطب أو تنزيه منزلة منكر، تأمل قوله تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذُهِبَ مُنْعَبِثًا فَنظُنُّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الأنبياء: ٨٧]، نجد أن صفة الألوهية قد قصرت على الله سبحانه وتعالى قصراً حقيقياً تحقيقاً، وطريق القصر هو النفي والاستثناء، ولا نستطيع القول بأن المخاطب هنا منكر أو منزل منزلة المنكر، كيف ويونس -عليه السلام- يضرع إلى الله عز وجل بهذا الدعاء فلا يتأتى ولا

يعقل فيه مراعاة حال المخاطب -جل وعلا- وإنما التأكيد هنا مرده إلى حال المتكلم وهو يونس -عليه السلام- ومدى انفعاله بالخبر، فقد ألقى الخبر مؤكداً كما أحس، وكما امتلأت به نفسه، وفاض به ضميره، دون نظر إلى حال مخاطب.

وتأمل قوله: ﴿إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، وماذا لو قيل: لا إله إلا أنت سبحانك فأنا من الظالمين، إنه يكون كلاماً ساقطاً، فأنت تشعر عندئذ بخلخلة في السياق وعدم تناسق، مرده إلى التخلي عن التأكيد الذي يبرز قوة الخبر واستقراره في نفس المتكلم.

وانظر إلى قول دريد بن الصمة:

وَهَلْ أَنَا إِلَّا مِنْ غَزِيَّةٍ إِنْ غَوَتْ غَوَيْتُ وَإِنْ تَرَشَّدُ غَزِيَّةٌ أَرَشُدُ

إنه يفخر بالانتماء إلى قبيلته وقومه، وقد ألقى الخبر مؤكداً ليعبر عن استقراره في نفسه وعن عمق شعوره بهذا الانتماء، ولو حاولت أن تتصور هنا مخاطباً منكراً أو منزلاً منزلة المنكر لكنك كمن يحاول المحاول، ويتعسف في القول تعسفاً الكلام في غنى عنه.

وبهذا يتضح لك أن حال المخاطب لا يمكن أن يعول عليها دائماً في استخدام «النفي والاستثناء» أو في تأكيد الخبر، بل قد ينظر إلى غير المخاطب^(١).



أما «إنها» فالأصل فيها -كما قلت- أن تستعمل فيما شأنه أن يعلمه المخاطب ولا ينكره، فهي أداة هادئة تستعمل في المعاني الواضحة التي لا ينكرها المخاطب ولا يجهلها، وهذا عكس «النفي والاستثناء» الذي يستعمل في المعاني القوية والنبرات الحادة والأمور الغريبة.

وكان «إنها» أداة همس وتنبه، يهمس بها المتكلم وبنبه مخاطبه إلى تلك الأمور

(١) ارجع إلى أضرب الخبر في الجزء الأول من هذا الكتاب.

المعلومة، والمعاني الواضحة، تقول: إنما هو أخوك... إنما هو صاحبك... إنما يأكل الذئب من الغنم القاصية... إنما يعجل من يخشى الفوت، فتلك أمور معلومة لا يجهلها أحد ولا يدفعها مدافع، والقصر فيها تنبيه للمخاطب وتذكير له بما ينبغي أن يفعله تجاه الأخ والصديق، وما ينبغي أن يفعله تجاه الاتحاد والتضامن، ومبادرة الفرصة... إنما معان واضحة والقصر فيها - كما قلت - تنبيه للمخاطب وتذكير... ولو وضعت «ما وإلا» مكان إنما في تلك الأمثلة لما استقام المعنى؛ لأن النفي والاستثناء ثلاثه المعاني القوية الثائرة.

تأمل قولك لصاحبك: أشفق على خالد، وعامله معاملة طيبة، فإنها هو ابن صديقك عمرو، تجد أن القصر بإنها كأنه همس وتنبيه للمخاطب، وتذكير له بتلك الصداقة، وما ينبغي عليه أن يفعله تجاهها، ثم انظر إلى قولك: كيف تؤذي خالدًا وتقسو عليه، وما عهدناك إلا صديقًا حميمًا لأبيه، تجد أن المعنى هنا أقوى حدة وأشد إثارة ولا تشعر فيه بالهدوء الذي لمستته في القول الأول، ولذا لاءمه النفي والاستثناء.

ومن شواهد «إنما» قول المتنبي في مدح كافور الإخشيدي:

إِنَّمَا أَنْتَ وَالِدٌ وَالْأَبُ الْقَا طِعُ أَخْتَى مِنْ وَاصِلِ الْأَوْلَادِ

فالشاعر لم يرد أن يعلم كافورًا أنه بمنزلة الولد، ولا ذلك مما يحتاج كافور فيه إلى الإعلام، ولكنه أراد أن يذكره بالأمر المعلوم، ليبنى عليه استدعاء ما يوجهه، وليلفتته إلى حق الولد على أبيه من العطف والحنان...

ومثله قوله:

إِنَّمَا تَنْجَحُ الْمَقَالَةُ فِي الْمَرِّ إِذَا صَادَقَتْ هَوَى فِي الْفَوَادِ

وقول أبي تمام:

وَلَا تُمْكِنُ الْإِحْلَاقُ مِنْهَا قَائِمًا بَلَدٌ لِيَأْسُ الْبُرْدِ وَهُوَ جَدِيدٌ

وقول علي بن الجهم:

وَقُلْنَا لَنَا نَحْنُ الْأَهْلَةُ إِنَّمَا نُضِيءُ لِمَنْ يَسْرِي بَلِيلٍ وَلَا تَنْفِرِي

وقول الخطفي جد جرير:

وَفِي الصَّمْتِ سَتْرٌ لِلْقَبِيِّ وَإِنَّمَا صَحِيفَةٌ لُبِّ الْمَرْءِ أَنْ يَتَكَلَّمَ

وقول الآخر:

وَمَا الزُّنُ فِي نَوْبِ تَرَاهُ وَإِنَّمَا يَزِينُ الْفَتَى مَخْبُورُهُ حِينَ يَخْبِرُ
فَإِنْ طُرَّةٌ رَاقَتْكَ فَانظُرْ قَرِيبًا أَمْرَ مَذَاقِ الْعُودِ وَالْعُودُ أَخْضَرُ^(١)

وغير خاف عليك دخول إنما في تلك الشواهد على معان واضحة معلومة، لا يجهلها المخاطب ولا يدفعها.

وتأمل قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمَوْلَافَةَ قُلُوبِهِمْ ﴾ [التوبة: ٦٠]، نجد أن الصداقات قد قصرت على كونها للفقراء وما عطف عليهم، لا تعدى تلك الأصناف إلى غيرها، وهذا أمر معلوم لا يتردد فيه عاقل ولا يدفعه منكر...

وكذا القول في الآيات: ﴿ إِنَّمَا يَغْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَرَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ [التوبة: ١٨]، ﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَفِدُّونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ ﴾ [التوبة: ٩٣]، ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ [الرعد: ٧]، فقد جاء القصر «بإنا» في الآيات الكريمة، لأن المعاني التي استعملت فيها معان واضحة بينة، لا يجهلها المخاطب ولا ينكرها السامع.

وقد تستعمل «إنما» في الأمور التي ينكرها المخاطب ويدفعها تنزيلاً لتلك الأمور منزلة ما لا يجهله المخاطب ولا ينكره، وذلك لغاية بلاغية يقصد إليها ويعمد.

تأمل قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [البقرة: ١١، ١٢]، نجد أن كون هؤلاء المنافقين مصلحين خبر ينكره المخاطب ويدفعه فكان حق القصر أن يكون بالنفي

(١) طرة الثوب: شبه علمين يحاطان بجاني البرد على حاشيته... انظر لسان العرب مادة: طر.

والاستثناءك «إن نحن إلا مصلحون» ولكن النظم الكريم أثر التعبير «بإنها» تنزيلاً
 هذا الخبر المنكر منزلة الأمر المعلوم الظاهر، فهم يدعون أن كونهم مصلحين أمر
 ظاهر من شأنه ألا يجمله المخاطب ولا ينكره، لأنه من الواضح بمكان.

ولذا جاء الرد عليهم عنيماً وقاسياً: «ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا
 يشعرون» فقد بدأ بالألا، الاستفتاحية التي تفيد التنبيه وتهيئة الأذهان لما يلي بعدها،
 ثم جاء قصر الإفساد عليهم بحيث لا يتعداهم إلى غيرهم، وكأنه ليس على وجه
 الأرض مفسدون سواهم، وأكد ذلك «بإن»، «ألا إنهم هم المفسدون» ثم جاء هذا
 الاستدراك ولكن لا يشعرون. الذي بين أن خفاء تلك الحقيقة عليهم مرده إلى
 فقدانهم الشعور، فهم قوم لا يشعرون، ولو كان عندهم قدر من شعور لأدركوا
 حقيقة انحصار الفساد فيما بينهم وقصره عليهم.

وانظر إلى قول عبد الله بن قيس الرقيات في مدح مصعب بن الزبير:

إِنَّمَا مَصَّعَبٌ شِهَابٌ مِّنَ اللَّهِ تَجَلَّتْ عَنْ وَجْهِهِ الظُّلُمَاءُ

فقد وصف مصعباً بأنه شهاب من الله، وأثر التعبير «بإنها» ليفيد أن كونه
 موصوفاً بتلك الصفة أمر ظاهر معلوم لا يرتاب فيه مرتاب ولا ينكره أحد وذلك
 على عادة الشعراء إذا مدحوا، أن يدعوا في كل ما يصفون به بمدوحهم الجلاء،
 وأنهم قد شهروا به حتى إنه لا يدفعه أحد...ولذا أنكر عبد الملك بن مروان مدح
 ابن قيس له بقوله:

يَأْتَلِقُ التَّاجُ فَوْقَ مَفْرَقِهِ عَالِي جَبِينٍ كَأَنَّهُ الذَّهَبُ

وقال له: ألسنت أنت القاتل في مصعب: «إنها مصعب شهاب من الله» وكان
 عبد الملك قد أحس بما في مدح مصعب من شدة ظهور وصدق إحساس وقوة
 شعور، وأن ما قاله ابن قيس فيه لا يقارن بما قاله في مصعب، خاصة وأنه قد مدحه
 بأمر ظاهر محس، لا فخر فيه ومدح مصعباً بفضيلة من الفضائل النفسية وهي القوة
 والشجاعة، والمدح إنما يفضل ويمجس بمثل تلك الفضائل النفسية.

٥- تحديد موقع المقصور والمقصور عليه

ويختلف موقع المقصور والمقصور عليه باختلاف طريق القصر - كما رأيت - فالمقصور عليه بإننا هو المؤخر دائماً نقول: إنها أنت جواد، فتقصر مخاطبك على صفة الجود، وإننا الشاعر زهير، فتقصر صفة الشعر على زهير.

والمقصور عليه في التقديم هو المقدم كقولك في قصر الكرم على زيد: زيداً أكرمت... والمقصور عليه في العطف ببل ولكن هو الواقع بعدها تقول: ما جاء زيد بل عمرو... ما الشاعر زهير بل عنتره... ما الشجاع حاتم لكن عمرو... فتفيد بذلك قصر المجيء على عمرو، والشعر على عنتره، والشجاعة على عمرو، والمقصور عليه بضمير الفصل أو بتعريف أحد الطرفين بأل الاستغرافية هو الخالي من «أل»، تقول: عمرو هو الجواد، فتقصر صفة الجود على عمرو، وتقول: الشجاع خالد فتقصر صفة الشجاعة على خالد...

أما المقصور عليه في النفي والاستثناء فهو الواقع بعد أداة الاستثناء، ويجوز تقديم المقصور عليه مع أداة الاستثناء. تقول: ما أكرمت إلا زيداً في قصر إكرامك على زيد، وتقول: ما جئت إلا ركباً في قصر مجيئك على تلك الحال، وتقول: ما كسوت زيداً إلا جبة، في قصر الكساء الذي كسوته زيداً على كونه جبة، وتقول: ما اخترت صديقاً إلا منكم، في قصر اختيارك الصديق على كونه منهم، ولك أن تقول: ما اخترت إلا منكم صديقاً، فتقدم المقصور عليه مع أداة الاستثناء.

ومنه قول السيد الحميري في مدح بني هاشم:

لَوْ خَيْرٌ الْوَيْبِ فِرْسَانُهُ مَا اخْتَارَ إِلَّا مِنْكُمْ فَارِسًا

ولا يجوز أن تقدم المقصور عليه بدون أداة الاستثناء، لأن أداة الاستثناء لو زحزحت من مكانها بتأخيرها عن المقصور عليه أو بتقديمها عنه لاختل المعنى، تأمل قولك: ما اخترت منكم إلا صديقاً: ما اخترت صديقاً إلا منكم... وقولك: ما اخترت منكم إلا فارساً... وما اخترت إلا منكم فارساً تجد المعنى قد تغير وتبدل^(١).

(١) ارجع إلى طريق النفي والاستثناء لتنف على تفصيل القول في ذلك.

فعلبك أن تنبيه إلى أن المقصور عليه في طريق النفي والاستثناء هو ما يلي أداة الاستثناء، وأنه لا يقدم إلا حيث تقدمت معه أدواته وإلا تغير المعنى واختل المراد من الكلام.



جمال التعريض «بإنما»

صرح الشيخ عبد القاهر بأن أفضل مواضع «إنما» هو التعريض، لأنها فيه أقوى ما تكون وأعلق ما ترى بالقلب، فقد علمت أن الحكم الذي تستعمل فيه «إنما» من شأنه أن يكون معلوماً، لا يجهله أحد ولا ينكره منكر، لذلك امتازت عن بقية طرق القصر بأنها تستعمل في كلام لا يكون الغرض منه إفادة الحكم للعلم به، وإنما يكون الغرض التلويح به إلى معنى آخر على سبيل التعريض، تقول: لمن يهمل في مدارس العلم ولا يجتهد في تحصيله: إنما ينال العلا من اجتهد، فأنت لم ترد أن تعلمه هذا الحكم لوضوحه وظهوره، وإنما قصدت أن تلوح له بإهماله وأنه لن يحقق رغبته في نيل العلا إلا بالجد...

وتأمل قوله تعالى: ﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [الرعد: ١٩]، فالمعنى: إنما يتذكر الحق ويعقله أرباب العقول السليمة والفكر السديد، وليس الغرض من الآية أن يعلم السامعون هذا المعنى الظاهر، بل ترمي من وراء ذلك؛ إلى التعريض بدم الكفار، وأنهم من فرط العناد وغلبة الأهواء عليهم، قد صاروا في حكم من ليس بذي عقل، فالذي يطمع منهم في أن ينظروا كمن يطمع في ذلك من غير أولي الألباب.

وتلاحظ أن التعريض بإنما قد جاء بعد مقارنة بين العالم بآيات الله وأمور دينه، وبين الأعمى الذي أعرض عن الحق على الرغم من وضوحه وبيانه، فاستحق ذلك التوبيخ الذي أفاده أسلوب التعريض.

وكذا القول في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يُحْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ ﴾ [فاطر: ١٨]، وقوله عز وجل: ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مِمَّنْ يُحْشِنُهَا ﴾ [النازعات: ٤٥]، فالمعنى على أن من لم تكن له هذه الخشية فكأنه ليس له أذن تسمع ولا قلب يعقل فالإنذار معه كلا إنذار.

ومنه قول العباس بن الأحنف:

كَأَنَّ لِي قَلْبًا أَعْيَشُ بِهِ فَأَضْطَلَمِي بِالنَّارِ فَاخْتَرَقَا
أَنَا لَمْ أَرْزُقْ مَوَدَّتِكُمْ إِنَّمَا لِلْعَبْدِ مَا رَزَقَا

فإنه تعريض وتلويح بعلمه أنه لا مطمع له في وصلها، لأنه لم يرزق محبتها
ولذا يش من أن يكون منها إسعاف له...

وقوله أيضًا:

يَلُومُ فِي الْحُبِّ مَنْ لَمْ يَدِرْ طَعْمَ هَوَىٰ وَإِنَّمَا يَغْذُرُ الْعُشَّاقَ مَنْ عَشِقَا

يريد أن يقول: ينبغي للعاشق ألا ينكر لوم من يلومه، فإنه لا يعلم كنه بلوى
العاشق إلا من عشق، ولو كان هذا اللائم قد ابتلي بالعشق مثله، لعرف ما هو فيه،
فعدده وما لاهه.

وقول محمد بن أحمد العمرواني يمدح عبيد الله بن يحيى بن خاقان:

مَا أَنْتَ بِالسَّبَبِ الضَّعِيفِ وَإِنَّمَا نُبْجَحُ الْأُمُورَ بِقُوَّةِ الْأَسْبَابِ
فَالْيَوْمَ حَاجَتُنَا إِلَيْكَ وَإِنَّمَا يُدْعَى الطَّيِّبُ لِسَاعَةِ الْأَوْصَابِ

يقول في البيت الأول: ينبغي أن أنجح في أمري حين جعلتك السبب إليه،
وفي الثاني: إنا قد طلبنا الأمر من جهته حين استعنا بك فيما عرض لنا من الحاجة،
وعولنا على فضلك كما أن من يعول على الطبيب فيما يعرض له من السقم يكون قد
أصاب في فعله وطلب الأمر من موضعه^(١).

هذا والتعريض معنى يفهم من عرض الكلام وجانبه، ويستشف من
أطراف المعاني المباشرة بمعرفة السياق وقرائن أحواله، وليس هناك وسيلة نحدد
بها أي الأساليب يكون للتعريض وأياها لغيره، فالمعول عليه في ذلك هو سياق
الكلام وقرائن الأحوال، وما يفيض به التركيب من معان جانبية وإشارات
وإيحاءات...

(١) ارجع إلى الإيضاح ٢ / ٢٣.

وقد حاول عبد القاهر تفسير جريان المعنى في أسلوب التعريض، وارتباطه «بإنها» لدلالاتها على القصر، حتى إنك لو حذف «إنها» يسقط المعنى التعريضي، فلو قيل: «يتذكر أولو الألباب» لم يدل هذا القول على التعريض كما دلت عليه الآية الكريمة: ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [الرعد: ١٩] والسبب في ذلك أن التعريض إنما وقع لأن من شأن «إنها» أن الكلام معها يتضمن معنى النفي بعد الإثبات والتصريح بامتناع التذكر عن لا يعقل، وإذا أسقطت من الكلام فليل: يتذكر أولو الألباب، كان مجرد وصف لأولي الألباب بأنهم يتذكرون ولم يكن فيه معنى نفي التذكر عن ليس من أولي الألباب، ومحال أن يقع تعريض بشيء ليس له في الكلام ذكر ولا فيه دليل عليه... ويجوز أن يقع التعريض بقولك: «يتذكر أولو الألباب» بإسقاط «إنها» إذا دل دليل على نفي التذكر عن غيرهم، بأن أردت به مدح إنسان بالتيقظ وبأنه فعل ما فعل وتنبه لما تنبه له لعقله وحسن تمييزه، كما يقال: «كذا يفعل العاقل»، و«هكذا يفعل الكريم»، عند التعريض بغير العاقل وبغير الكريم^(١).

(١) ارجع إلى دلائل الإعجاز ٢٣١.

الفصل السادس أساليب الإنشاء

تقديم:

وقفت في الجزء الأول من هذا الكتاب على الأسلوب الخبري وأحوال الإسناد الخبري وأحوال أجزاء الجملة من مسند ومسند إليه ومتعلقات الفعل، وعرفت ما يمتاز به هذا الأسلوب.. إنه مبني على الحكاية ويقصد به الإخبار والإعلام بمضمون الجملة الخبرية، وبجانب هذا الأسلوب الخبري، توجد الأساليب الإنشائية التي يقصد بها إنشاء الكلام وإيجاده ابتداء، فليس الهدف منها الإعلام وحكاية الخبر، وإنما هي عبارات تصاغ ابتداء وتنشأ إنشاء ليطلب بها مطلوب، وتمتاز الأساليب الإنشائية بالحث وإثارة الذهن وتنشيط العقل وتحريك المخاطب... ولزيد من الإيضاح والتفرقة بين الأسلوب الخبري والأسلوب الإنشائي تعالوا نظروا في تلك الشواهد...

يقول الغنوي في رثاء أخيه:

أخْ كَانَ يَكْفِيَنِي وَكَانَ يُعِينُنِي عَلَى نَائِبَاتِ الدَّهْرِ حِينَ تَثُوبُ
عَظِيمُ رَمَادِ الْقَدْرِ رَحْبٌ فِنَاؤُهُ إِلَى سَنَدٍ لَمْ تَحْتَجِبْهُ عُيُوبُ
حَلِيفُ النَّدَى يَدْعُو النَّدَى فَيُجِيبُهُ سَرِيعًا وَيَدْعُوهُ النَّدَى فَيُجِيبُ^(١)

عندما تتأمل هذه الأبيات تجد أن الشاعر يحكي عن أخيه ويخبر بأنه كان يأخذ بيده في أوقات الشدة، وكان كريبًا تقصده الضيوف فلا يحتجب عنهم؛ لأن الكرم خلقه وشيمته، فهذا حليفان لا يفترق أحدهما عن الآخر، ولا يتخلف عن إجابة دعواه... وهذا الذي يخبر به الغنوي قد يطابق الواقع فيكون صادقًا، وقد يخالفه فيكون كاذبًا... وقارن بين رثاء الغنوي في الأبيات المذكورة، وقول الخنساء في رثاء أخيها صخر:

(١) السند: ما ارتفع عن الوادي وسفل عن الجبل، والغيوب مفرد ما: غيب، والغيب: البطن المنخفض من الأرض... وحائب الندى أي: بينه وبين الندى وهو الكرم حلف وعهد.

أَعْيَنِي جُودًا وَلَا تَجْمُدَا أَلَا تَبْكِيَانِ لِصَخْرِ النَّدَى
أَلَا تَبْكِيَانِ الْجَوَادَ الْجَمِيلَا أَلَا تَبْكِيَانِ الْفَتَى الْوَسِيدَا

تجد الأسلوب هنا يختلف، فالخنساء لا تخبر وإنما تنادي وتأمّر وتنهى وتسال، هي تحض عينيها وتحثها على بكاء صخر، فهذه أساليب إنشائية، وهي وإن كان لها واقع في نفس الخنساء إلا أنه لا يقصد بتلك الأساليب مطابقة هذا الواقع أو مخالفته وإنما يقصد بها إنشاء تلك المعاني...

وكذا القول في قول سعد بن ناشب منادياً قومه آل رزام:

فَيَا لِرِزَامٍ رَشْحُوا بِي مُقَدِّمًا إِلَى الْمَوْتِ خَوَاضًا إِلَيْهِ الْكُتَّابَا

وقول المتنبي:

فِيالِيتَ طَالِعَةَ الشَّمْسَيْنِ غَائِبَةً وَيَالِيتَ غَائِبَةَ الشَّمْسَيْنِ لَمْ تَغِبِ

وقول أبي شامة المقدسي (ت ٦٦٥هـ) مادحاً:

لَيْتَ الْكَوَاكِبَ تَدْنُو لِي فَأَنْظِمَهَا عُقُودَ مَدْحٍ فَمَا أَرْضَى لَكُمْ كَلِمِي

فهؤلاء الشعراء لم يريدوا الإخبار، وإنما قصدوا إلى إنشاء تلك المعاني... ولذا

ساغ للبلاغيين أن يقسموا الكلام إلى قسمين:

القسم الأول: الخبر، وقالوا عنه: إنه قول يحتمل الصدق والكذب لذاته،

كقولك: جاء زيد... ذهب خالد... نجح عمرو... فتلك أخبار تحتمل الصدق

والكذب، وقيدوه بقولهم «لذاته» أي: لذات القول، لينبهوا إلى تلك الأقوال التي لا

تحتمل إلا الصدق كأخبار القرآن الكريم والحديث الشريف، وكالأقوال الثابتة نحو

السماء فوقنا والأرض تحتنا، والواحد نصف الاثنين، فتلك الأخبار لا تحتمل سوى

الصدق ولكن هذا الاحتمال ليس لذات القول، وإنما بالنظر إلى قائله وهو الله تعالى،

والرسول عليه الصلاة والسلام، وباعتبار ثبات الأقوال في تلك الأخبار التي

تتضمن حقائق ثابتة.

ولينبهوا أيضاً إلى الأخبار التي لا تحتمل إلا الكذب كأقوال مسيلمة الكذاب

فمثل هذه الأقوال لا تحتمل إلا الكذب، ليس لذات القول، بل باعتبار من قالها،

ولذا قيدوا احتمال الخبر للصدق والكذب بقولهم «لذاته» أي: بغض النظر عن قائله.

ومرجع احتمال الخبر للصدق والكذب إلى تطابق النسبتين الكلامية والواقعية أو عدم تطابقهما، فقولك: نجح عمرو، له نسبتان كلامية يفيدها النطق بالخبر والإعلام به، وخارجية وهي ما عليه الواقع، فإن تطابقت النسبتان كان الخبر صادقاً وإن تخالفتا كان كاذباً.

القسم الثاني: الإنشاء: وقد عرفوه بقولهم: «قول لا يحتمل الصدق والكذب»، وذلك لأن أساليب الإنشاء يقصد بها - كما قلت - إلى إنشاء المعاني، وصوغها ابتداء ليطلب بها مطلوباً معيناً، وهذا لا يعني أن أساليب الإنشاء ليس لها نسبة خارجية حتى ينظر في مطابقتها للنسبة الكلامية فيكون المعنى على الصدق أو عدم مطابقتها فيكون المعنى على الكذب، بل لها نسبة خارجية وهي قيام المعنى الإنشائي من تمن أو أمر أو نهي أو استفهام أو نداء في نفس المتكلم، ولكن ليس المقصود من الجملة الإنشائية الإخبار بمطابقة هذه النسبة للنسبة الكلامية، وإنما المقصود هو إنشاء المعنى وابتدائه^(١).

وأنت تستطيع أن تدرك ذلك عندما تتأمل الأسلوب الإنشائي وتقرن بينه وبين الأسلوب الخبري.

انظر إلى قول «الشاعر» السيد أبي الحسن:

وَلِي كَيْدٌ مَكْلُومَةٌ مِنْ فِرَاقِكُمْ أَطَامِنُهَا صَبْرًا عَلَيَّ مَا أُجِنَّتْ^(٢)

وقارنه بقول المتنبي:

فَيَا لَيْتَ مَا بَيَّنِّي وَبَيْنَ أَحَبِّي مِنَ الْبُعْدِ مَا بَيَّنِّي وَبَيْنَ الْمَصَائِبِ

تجد أن المعنى في البيت الأول مبني على الحكاية والإعلام بالخبر الذي يحدث به عن نفسه ونستطيع أن نقول: إنه صادق فيما يخبر أو كاذب، أما المعنى في البيت

(١) ارجع إلى شروح التلخيص / ١ / ١٦٦، وما بعدها.

(٢) هذا البيت أنشده ابن رشيق للسيد أبي الحسن... و«أجنت» ببناء الفعل للمفعول: أصابها الجنون.

الثاني فالمراد منه: إنشاء التمني وإيجاد النسبة وإيقاعها دون قصد إلى المطابقة لما في نفس الشاعر أو عدم المطابقة، ولذا تجد المعاني الإنشائية قد ترد في أسلوب الخبر كقولك: غفر الله لك وفرج كربك وأتابك، وكقوله ﷺ: «لَا يَجْتَمِعُ دِينَانِ فِي جَزِيرَةٍ الْعَرَبِ»^(١).

كما أن المعاني الخبرية قد ترد في أسلوب الإنشاء نحو قوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِنِطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٢٩]، وكقوله عليه الصلاة والسلام: «مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»^(٢)، وسنفضل القول في هذا - إن شاء الله تعالى - فيما بعد.

ولك أن تجرب عن أساليب الإنشاء فتقول: تمنيت لك الخير وأمرت خالدًا بالمعروف، ونهيتك عن المنكر واستفهمت عن موعد الاختبار وناديت عمرًا فأقبل إلي، ورجوت لك الخير والصلاح وأقسمت بالله أن أبر والدي.. وعندئذ يأخذ الأسلوب طابع الحكاية والخبر فيكون كلامًا يحتمل الصدق والكذب.

الإنشاء الطلبي وغير الطلبي:

وينقسم الإنشاء إلى قسمين:

١- إنشاء طلبي: وهو ما يستدعي مطلوبًا غير حاصل وقت الطلب ويشمل أساليب الأمر والنهي والتمني والاستفهام والنداء... تأمل قوله تعالى: ﴿فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ رِزْقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩]، وانظر في قول عمر يوصي ابنه عبد الله رضي الله عنهما: «يَا بَنِيَّ اتَّقِ اللَّهَ فَإِنَّ مَنِ اتَّقَى اللَّهَ وَفَاهُ وَمَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ كَفَاهُ وَمَنْ شَكَرَهُ زَادَهُ».

ثم تأمل قوله تعالى: ﴿يَلِيَّتِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر: ٢٤]، وقوله جل وعلا: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّهُمْ عَن قِبَلِهِمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ [البقرة: ١٤٢].

(١) رواه الإمام مالك في الموطأ في المدينة رقم ١٨، ١٩.

(٢) رواه البخاري في كتاب العلم برقم (٣٨ / ١١٠).

وقول شوقي في رثاء حافظ إبراهيم:

مَاذَا حَسَدْتِ مِنَ الدُّمُوعِ لِحَافِظٍ وَذَخَرْتِ مِنْ حُزْنٍ لَهُ وَبُكَاءِ

تجد أن هذه الشواهد قد اشتملت على أساليب إنشائية يطلب بها أمر غير حاصل وقت الطلب، فالله عز وجل يأمر نبيه «فاصدع» و«أعرض» والأمر طلب للفعل، وينهاه: «لا تحسبن» والنهي طلب الكف عن الفعل، وعمر ينادي عبد الله: «يا بني»، وفي النداء طب الإقبال، ثم يأمره «اتق الله» بعد أن هياه بالنداء للإصغاء.

والكافر يتمنى «يا ليتني قدمت» والتمني: طلب المحبوب الذي لا طمع فيه، والسفهاء يسألون «ما ولاهم» وشوقي يستفهم: «ماذا حشدت» والاستفهام: طلب الفهم.

فهذه الأساليب قد طلب بها -كما ترى- أمور غير حاصلة أثناء الطلب، ولذا كان الإنشاء فيها إنشاء طلبياً، فإذا استعملت تلك الأساليب -الأمر والنهي والتمني والاستفهام والنداء في أمور حاصلة وقت الطلب وجب تأويلها بالطلب بحسب القرائن وما يناسب المقام.

تأمل قوله تعالى: ﴿يَأْتِيَا إِلَهِيَ اتَّقِ اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ١]، وقوله عز وجل ﴿يَأْتِيَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [النساء: ١٣٦]، وقول عمر السابق: «يا بني اتق الله...» تجد أن التقوى والإيمان المأمور بهما حاصلان وقت الطلب، فالمعنى فيهما على طلب دوام الإيمان واستمرار التقوى.

٢- إنشاء غير طلبي: وهو ما لا يستدعي مطلوباً، وله صيغ كثيرة منها: القسم كقوله تعالى: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَمَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْبِرِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٧]، وأفعال المدح والذم كقوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضُ فَرَشْنَهَا فَيَعْمَ أَلْمَهْدُونَ﴾ [الذاريات: ٤٨]، وقوله عز وجل: ﴿يَسْئَلُ مِثْلَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ٥]، والترجي كما في قوله تعالى: ﴿فَعَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنَّ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ﴾ [المائدة: ٥٢]، وقوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَنِيَعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ ءَأَثَرِهِمْ إِنْ لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦]، والتعجب كما في قول الصمة بن عبد الله القشيري:

بِنَسْبِي تِلْكَ الْأَرْضُ مَا أَطْيَبَ الرُّبَا وَمَا أَحْسَنَ الْمُصْطَفَا وَالْمُسْتَرَبَعَا

الربا: ما ارتفع من الأرض، والمصطاف: مكان المصيف، والمتربع: مكان الربيع، والمعنى أفدي بنفسي تلك الأرض لطيب رباها العجيب وجمال فصلها...

ومنها ألفاظ العقود كقولك: بعث واشترت، ومنها رب وكم الخبرية لدلالتهما على إنشاء التقليل أو التكثر كما في قول القائل: «رُبَّ أَخٍ لَكَ لَمْ تَلِدْهُ أُمَّكَ» وكما في قوله عز من قائل ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

هذا وقد اهتم البلاغيون بدراسة أساليب الإنشاء الطلبي، وأهملوا دراسة أساليب الإنشاء غير الطلبي، وحثتهم في ذلك أن الإنشاء الطلبي غني بالاعتبارات والملاحظات البلاغية وأن أساليبه وهي الأمر والنهي والتمني والاستفهام والنداء قد ترد ويراد بها غير معانيها، فالأمر لطلب حصول الفعل وقد يرد للتهديد ونحوه والاستفهام لطلب الفهم وقد يرد للإنكار وغيره... وهكذا فتلك الأساليب الطلبية يتولد منها بحسب القرائن والسياق معاني بلاغية متعددة.

أما أساليب الإنشاء غير الطلبي فقد أهملوها لأمرين هما:

- ١- أن أكثر هذه الأساليب في الأصل أخبار نقلت إلى معنى الإنشاء.
- ٢- أنها لا تستعمل إلا في معانيها التي وضعت لها، فالقسم لا يفيد إلا القسم والتعجب لا يرد لغير التعجب.

وهذا لا يعني أن تلك الأساليب خالية من الاعتبارات البلاغية والمزايا الجمالية، بل تكمن وراءها ملاحظات بلاغية واعتبارات دقيقة، انظر إلى أسلوب التعجب في التعبيرات الجيدة تجد وراءه كثيرًا من الدقائق واللطائف، التي يتوهج فيها الإحساس بالأشياء والمعاني.

وتأمل أسلوب القسم في القرآن وتعدد مواقعه واختلاف المقسم به وأجوبة القسم تجد وراء ذلك اعتبارات جديرة بالبحث والدراسة... وهكذا تجد وراء كثير من أساليب الإنشاء غير الطلبية مزايا واعتبارات تستحق الدراسة والتأمل... وسنقوم -إن شاء الله تعالى- بالنظر في تلك الأساليب وتحليلها ما وراءها من أسرار واعتبارات في بحث آخر مستقل... أما الآن فإليك أساليب الإنشاء الطلبية.

أسلوب الأمر

للأمر صيغ أربع وهي:

١- فعل الأمر كقوله تعالى: ﴿ وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وقوله عز وجل: ﴿ وَأَصْبَحَ الْفَلَكُ بِأَعْيُنِنَا وَوَحَيْنَا ﴾ [هود: ٣٧].

٢- الفعل المضارع المقرون بلام الأمر، كما في قوله تعالى: ﴿ لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ ۗ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ ﴾ [الطلاق: ٧]، وقوله عز وجل: ﴿ فَلْيَكْتَسِبْ وَيَكْمِلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ الْحَقِّ وَلَيُنْفِقِ اللَّهُ رِزْقَهُ... ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

٣- اسم فعل الأمر، نحو: صه بمعنى اسكت، ومه بمعنى اكفف، وعليك بمعنى الزم، ومنه قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مِّنْ صَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ [المائدة: ١٠٥].

٤- المصدر النائب عن فعل الأمر كقوله تعالى: ﴿ وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُفْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۗ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ [النساء: ٣٦]، أي: وأحسنوا بهما، وقوله عز وجل: ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَخْنَثْتُمْ فَشُدُّوا الرِّبَاطَ ﴾ [محمد: ٤]، أي: فاضربوا الرقاب.

ومنه قول قطري بن الفجاءة.

فَصَبْرًا فِي مَجَالِ الْمَوْتِ صَبْرًا فَمَا نَيْلُ الْخُلُودِ بِمُسْتَطَاعِ

وكقوله عليه الصلاة والسلام: «رِفْقًا بِالْقَوَارِيرِ»^(١)، وتقول: سعيًا في الخير وأمرًا بال معروف ونهيًا عن المنكر ورميًا بالرمح وضربًا بالسيف وحمدًا لله وشكرًا.

وقد قالوا في تحديد مفهوم الأمر: هو طلب حصول الفعل على جهة الاستعلاء حيث يكون من الأعلى إلى الأدنى، فالأعلى يطلب ممن هو دونه حصول الفعل وتحقيقه وبيعته عليه ويحث، وقد اختلف البلاغيون فيما يستعمل فيه أسلوب الأمر، فيرى بعضهم أنه يستعمل في الوجوب وأن المراد به الإلزام والتكليف،

(١) رواه البخاري في كتاب الأدب برقم (١١٦) / (٦٢١٠).

وبعضهم يرى أنه للندب، وآخرون يرون أنه يستعمل في معنى يشمل الوجوب والندب وهو الطلب على جهة الاستعلاء، ويرى آخرون أنه من الألفاظ المشتركة بين الوجوب والندب فقط، أو بين الوجوب والندب والإباحة، وذلك كاشتراك لفظ الغزالة في الشمس والظبي، والخال في الشامة بخد الحسناء وأخ الأم، فأسلوب الأمر موضوع للمعنيين: الوجوب والندب أو للمعاني الثلاثة: الوجوب والندب والإباحة، أو لمعنى يشملها مثل الإذن^(١).

ولهذا وجدنا الخطيب القزويني يحتاط عند تعريفه للأمر حيث قال: «والأظهر أن صيغته من المقترنة باللام نحو: ليحضر زيد، وغيرها نحو: أكرم عمراً ورويداً بكراً، موضوعة لطلب الفعل استعلاء لتبادر الذهن عند سماعها إلى ذلك وتوقف ماسواه على القرينة»^(٢).

فلم يجزم بتعريفه - كما ترى - بل جعله «الأظهر»، ولعل سبب اختلاف البلاغيين في تحديد استعمال أسلوب الأمر، مرده إلى أن صيغ الأمر قد شغلت الدارسين في كثير من المجالات وبخاصة الفقهاء والأصوليين لاتصالها بالوجوب والندب وما إلى ذلك من أحكام فقهية، توجب الحذر في الدراسة والاستنتاج^(٣).

والذي أراه أن الأصل في صيغ الأمر أن تستعمل في طلب حصول الفعل على سبيل التكليف والإلزام من الأعلى للأدنى؛ لأن هذا هو المتبادر إلى الذهن عند سماعها - كما ذكر الخطيب - وقد تستعمل في غير هذا الأصل الذي وضعت له فتفيد الإباحة أو الدعاء أو التهديد أو التمني أو الحث والإثارة أو الاستمرار والدوام على تحقيق الفعل... إلى غير ذلك من المعاني التي تفيدها صيغ الأمر بمعونة السياق وقرائن الأحوال، وقد اهتم البلاغيون بالحديث عن هذه المعاني وتحليلتها والكشف عن دقائقها ومزاياها في التعبيرات.. على نحو ما سنرى الآن.

(١) انظر شروح التلخيص ٢ / ٣١٠.

(٢) ارجع إلى الإيضاح ٢ / ٥٣.

(٣) انظر دلالات التراكيب ص ٢٦١.

المعاني البلاغية التي يفيدها أسلوب الأمر ووجه الدلالة عليها:

الأصل في أسلوب الأمر - كما بينت - طلب حدوث شيء لم يكن حاصلًا وقت الطلب على سبيل التكليف والإلزام من جهة عليا أمرة إلى جهة دنيا مأمورة، وقد يخرج الأمر عن هذا الأصل فيفيد معاني كثيرة يرشد إليها السياق وقرائن الأحوال، وأهم هذه المعاني:

١- الإباحة:

وذلك عندما تستعمل صيغة الأمر في مقام يتوهم فيه السامع حظر شيء عليه، كقولك: جالس الحسن أو ابن سيرين، فليس المراد هنا طلب الفعل استعلاء، ولكن لما كان السامع يتوهم عدم جواز الجمع بين مجالستها لما كان بينهما من سوء المزاج، أباح المتكلم له مجالسة أيها شاء فالأمر - كما ترى - يفيد الإباحة، حيث يبيح للسامع أن يجالس أحد العالمين أو كليهما أو لا يجالس، وليس ملزمًا له بفعل شيء... ومن جميل ذلك قول كثير عزة:

أَسِيئِي بِنَا أَوْ أَحْسِنِي لَا مَلُومَةَ لَدَيْنَا وَلَا مَقْلِيَّةً إِنْ تَقَلَّتِ^(١)

أي: لا أنت ملومة ولا مقلية، فكثير يبيح لعزة أن تسيء إليه أو تحسن، فهو راض في الحالتين غاية الرضا، وسر جمال هذا التعبير أي: التعبير بصيغة الأمر في مقام الإباحة في هذا البيت أنه يكشف لنا عما أصاب الشاعر من عشق وهيام، فقد وصل به إلى منتهاه، حتى صار يطلب منها الإساءة كما يطلب الإحسان، ويلج في ذلك إلحاحًا، وكأن الإساءة أمر مطلوب مرغوب، فالإنسان عندما يصل به الحب إلى حد الإفراط بصير كل فعل يصدر عن حبيبه لا يراه إلا جمالًا، وبهذا يتضح لك أن استعمال الشاعر لصيغة الأمر في مكان الإباحة يكشف عن مكنون نفسه ويبرز ما بداخله. بأخسر طريق وأجمله.

واستعمال الأمر في معنى الإباحة كثير في آي الذكر الحكيم، من ذلك قوله

(١) الغني: البغض والكراهية وفي قوله: نقلت، التفات وحذف للمفعول، والأصل إن تقلبتنا فالتفت إلى الغائب وحذف المفعول.

تعالى: ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ﴾ [البقرة: ١٨٧]، فالمراد من الأمر في الآية الكريمة إباحة الأكل والشرب في ليالي رمضان حتى طلوع الفجر، وفي التعبير بصيغة الأمر مكان الإباحة حث على تناول السحور وكأنه أمر مطلوب مرغوب فيه لما فيه من البركة التي نبه إليها النبي ﷺ في قوله: «تَسَحَّرُوا فَإِنَّ فِي السَّحُورِ بَرَكَةً»^(١).

ومثله قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ﴾ [الجمعة: ١٠]، ففيه حث على العمل وابتغاء الرزق.

٢-التخيير:

ويكون في مقام التخيير بين شيئين أو أشياء بحيث يختار منها السامع ما يميل إليه ويرغب فيه.

كما في قول بشار:

فَعِشْ وَاحِدًا أَوْ صِلْ أَحَاكَ فَإِنَّهُ مُقَارِفُ ذَنْبٍ مَرَّةً وَمَجَانِيهُ

فهو يخير مخاطبه بين أمرين: العيش واحدًا منعزلاً أو صلة الإخوان ومخالطتهم مع التجاوز عما يكون منه من إساءات، فتلك لابد منها، على حد قول النابغة الذبياني:

وَلَسْتَ بِمُسْتَبِقٍ أَخْلَا لَا تَلْمُهُ عَلَى شَعَثِ أَيِّ الرَّجَالِ الْمُهْدَبِ

هذا والفرق بين الإباحة والتخيير، أن الإباحة إذن في الفعل وإذن في الترك فهي إذنان معاً، أما التخيير فهو إذن في أحدهما من غير تعيين، ولذا فالتخيير لا يجوز الجمع بين الشئين والإباحة تجوزه... فالأمر في قولك: تزوج هنذاً أو أختها للتخيير ولا يصح أن يكون للإباحة، إذ لا يجوز الجمع بين الأختين.

٢-التهديد:

ويكون في مقام عدم الرضا بالمأمور به، كما تسمع من الرئيس يقول لمرءوسه:

(١) رواه البخاري في كتاب الصوم برقم (٢٠ / ١٩٢٣).. والسُّحُور: بفتح السين: ما يتسحر به، وبضمها: مصدر

افعل ما بدا لك، أو من السيد يقول لعبده: دم على عصيانك فالعصا أمامك، فليس المراد من الأمر في الموضوعين الامتثال، أي: فعل ما أمر به، ولكن المراد هو التهديد والوعيد، وكأن الرئيس والسيد يطلبان من المرء وس والعبد أن يخالفهما وذلك لرغبتها القوية في إنزال العقوبة بالمرء وس والعبد إن خالفا ولم يمتصيا على الطريقة ممثلين، فإذا ما كانت المخالفة كان العقاب مرًا والإيذاء شديدًا...

وتأمل قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِن مَّصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ [إبراهيم: ٣٠]، فقد أخبر الله عز وجل عنهم أنهم أشركوا به وجعلوا له أندادًا ليضلوا عن سبيله ثم جاء الوعد والتهديد: «تمتعوا فإن مصيركم إلى النار»، فليس المراد بالأمر في الآية «الامتثال»، وكأن الله تبارك وتعالى لما ارتكب هؤلاء ما لا يغفر وهو الشرك، أراد لهم أن يقوى طغيانهم ويشد إعراضهم ويزدادوا تمتعًا بشهواتهم، فإذا ما تم لهم ذلك كان عقابهم أشد وأقوى، فليس الأمر مرادًا - كما ترى - بل المراد هو الزجر والوعيد حتى يقلع هؤلاء عما هم فيه من عناد ومكابرة.

وتدبر الالتفات من الغيبة في قوله: «جعلوا... ليضلوا» إلى الخطاب في قوله: «تمتعوا فإن مصيركم...» فهو الالتفات الغاضب المتوعد...

وخذ قوله تعالى: ﴿مَحَذَّرُ الْمُتَنَفِقُونَ أَنْ تَنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ ۗ قُلِ اسْتَخِرُوا إِنْ أَلَّ اللَّهُ تَخْرِجَ مَا تَحَذَرُونَ﴾ [التوبة: ٦٤]، فقد أمر المنافقون بالاستهزاء لا ليمثلوا بل ليزدادوا نفاقًا على نفاقهم فيكون عقابهم أشد وأعتى، وفي هذا من الزجر والتوعد والتهديد ما فيه، وتجد الالتفات هنا من الغيبة إلى الخطاب، كما في الآية السابقة يفيد شدة الوعيد وقوة الزجر... ومثله قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي بِنُورٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [فصلت: ٤٠].

فليس المراد بالأمر: «اعملوا» أن يمثلوا فيعملوا ما يشاءون بل المراد الزجر والتهديد حتى يقلعوا عن الإلحاد ويكفوا عن العناد، وكأن الله سبحانه وتعالى - لشدة غضبه عليهم - يأمرهم بما يوجب عقابهم لينكل بهم أشد تنكيل، وهذا هو سر بلاغة التعبير بالأمر في مقام الوعيد والتهديد...

وخذ قوله **﴿إِذَا لَمْ تَسْتَحْيَ فَاضْنَعْ مَا شِئْتَ﴾**^(١)، ثم قارن بينه وبين قوله عليه الصلاة والسلام: **«لَعَلَّ اللَّهَ أَطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ وَجِبَتْ لَكُمْ الْجَنَّةُ أَوْ - فَإِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ-»**^(٢)، تجد أن الأمر في الحديث الأول يفيد التهديد والتوعد بدليل قوله: **«إذا لم تستحي»**، وفي الثاني يفيد التبشير وكمال الرضا عنهم، فالله سبحانه وتعالى قد أقبل إليهم «اطلع»، وفي هذا من التشريف والتكريم ضم ما لا يخفى، وقد أنعم عليهم بالرحمة والغفران، ووجوب الجنة «إني قد غفرت لكم».. «فقد وجبت لكم الجنة» وبهذا يتضح لك ما للسياق وقرائن أحواله فهو الذي يحدد المعنى الذي يفيد أسلوب الأمر، وعد إلى الآيات السابقة فتأمل سياقها وأنعم فيه النظر، وعندئذ فسيتضح لك أن أسلوب الأمر لم يفد ما أفاده إلا بمعونة السياق ومعرفة قرائن الأحوال في الآيات الكريمة.

٤- التعجيز:

ويكون في مقام إظهار عجز من يدعي قدرته على فعل أمر ما وليس في وسعه ذلك، كما في قوله تعالى: **﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾** [البقرة: ٢٣]، فليس المراد بالأمر في الآية الكريمة التكليف والإلزام بالإتيان بسورة من مثله، وإنما المراد إظهار عجزهم عن الإتيان، لأنهم إن حاولوا ذلك الإتيان بعد سماع صيغة الأمر ولم يمكنهم بدا عجزهم وظهر.

وسر بلاغة التعبير بالأمر في مقام التعجيز إبراز قوة التحدي والتسجيل عليهم ليتعظوا ويقنعوا عما هم فيه من عناد ومكابرة.

ومثله قوله تعالى: **﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا تِلْكَ أُمَّاتُهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾** [البقرة: ١١١]، وقوله عز وجل: **﴿الَّذِينَ قَالُوا إِخْوَانِيهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾** [آل عمران: ١٦٨]، وقوله تعالى: **﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾** [لقمان: ١١]، ولا يخفى عليك ما في الآيات الكريمة من قوة التحدي والتسجيل

(١) رواه البخاري في كتاب الأدب برقم (٧٨ / ٦١٢٠).

(٢) رواه البخاري في كتاب المغازي برقم (٩ / ٣٩٨٣).

عل المخاطب وإبراز عجزه، وفي ذلك لفتهم إلى النظر في حالهم والتفكير فيما هم فيه من عناد ومكابرة وسوء تقدير...

وتأمل قول المهلهل مخاطبًا آل بكر، ومعلنًا شدة غضبه لقتلهم أخاه كليبيًا:

يَا بَكْرٍ أَنْشِرُوا لِي كَلْبِيَا يَا بَكْرٍ أَيَّنَ أَيَّنَ الْفِرَارُ

فهو يهددهم بالويل والثبور ويطلب منهم إعادة كليب إلى الحياة، وإعادة كليب إلى الحياة من المحال، فالأمر في قوله: «أنشروا لي» للتعجيز، وسر بلاغة التعبير بأسلوب الأمر في البيت: إشعارهم بأنه لا منجى لهم ولا مهرب، وأنه آخذ بثأره منهم لا محالة.

وخذ قول الفضل بن يحيى بن خالد:

أروني بخيلًا نال مجدًا يبخله وهاتوا كريمات من كثرة البذل

فالشاعر يتحدى المخاطبين أن يقفوه على بخيل قد نال مجدًا، أو امتد عمره وطال أجله بسبب بخله^(١)، وأن يبرزوا له كريمًا قد مات من كثرة البذل والعطاء، وتشعر بما وراء ذلك من التنفير من البخل، والحث على الكرم والعطاء، فأسلوب الأمر في البيت، أسلوب موح ومقنع، يكشف أمر البخيل حتى يقلع البخلاء عن بخلهم ويبرز فضل الكريم المعطاء فيزداد كرمًا وتطيب نفسه ويقنع بسلامة منهجه وصحة مسلكه.

ومثله قول الآخر:

أروني أمةً بلغت مناهها بغير العلم أوحد الحسام

فغير خاف عليك ما وراء الأمر والتحدي من حث على طلب العلم ومكافحة الأعداء حتى ترقى الأمة وتبلغ مناهها.

(١) يروى البيت برواية أخرى، وهي:

أروني بخيلًا طال غمرا يبخله وهاتوا كريمات من كثرة البذل

٥- الإهانة والتحقير:

وتكون في مقام عدم الاعتداد بالمخاطب وقلة المبالاة به كما في قوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩]، فالكافر لا يمكنه الذوق، لأنه يعاني غصص العذاب وآلامه ومحنه، وتلك حال لا يستطيع فيها أن يذوق إلا الحميم والغسلين، ولا يخفى عليك ما وراء أسلوب الأمر من الإهانة والتحقير والتهكم والاستهزاء بهؤلاء الذين انحرفوا عن الحق وحادوا عن المنهج القويم وتنبعث تلك السخرية من قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾، فهي استعارة تهكمية، إذ لا عزة ولا كرامة، وإنما ذلة ومهانة.

ومثله قوله تعالى: ﴿بَشِّرِ الْمُتَنَفِّقِينَ بِأَنَّهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٣٨]، فالأمر بالتبشير في الآية يحمل معنى الإهانة والتحقير لهؤلاء المنافقين.

وتأمل قول ابن أبي عيينة:

فَدَعِ الْوَعِيدَ فَمَا وَعَيْدُكَ صَائِرِي أَطْنِينَ أَجْنَحَةَ الذُّبَابِ يَضِيرُ
فأمره بترك الوعيد يشعر بمدى الحقارة والاستهزاء بهذا الذي يتوعد ويهدد وليس في إمكانه أن يحقق هذا الوعيد، فوعيده طنين كطين أجنحة الذباب، وأنى لمثل هذا الوعيد أن يضير، بل كيف يتوعد من هذا شأنه.

٦- التسوية:

وتكون في مقام توهم رجحان أحد الأمرين على الآخر، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ﴾ [التوبة: ٥٣]، أي: يستوي عدم القبول منكم سواء أكانت النفقة صادرة عن طوعية أو عن كراهية، وذلك أنه سبحانه وتعالى قد علم من حالهم عدم الاهتداء، وربما يتوهم المخاطب أن الإنفاق طوعاً مقبول فدفع ذلك بالتسوية بينهما.

ومثله قوله تعالى: ﴿أَصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا نَحْزُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٦]، وقوله عز وجل: ﴿قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا﴾ [الإسراء: ١٠٧]، أي: يستوي الصبر وعدمه في عدم النفع وذلك دفعا لما قد يتوهم من أن الصبر نافع للكفار في عذاب يوم القيامة... وتشعر في الآية الثانية فضلا عن التسوية

بين الإيثار وعدمه، بمعنى الاحتقار والازدراء وقلة المبالاة، أي: آمنوا أو لا تؤمنوا فقد آمن به من هم أفضل منكم وأعظم، ولذا استوى إيمانكم وعدم إيمانكم.

٧- التمني:

ويكون في مقام طلب الشيء المحبوب الذي لا قدرة للطالب عليه ولا طمع له في حصوله... كما في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَلِمُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٧]، فقد طلبوا الخروج من النار وهو محال ولا طمع لهم في حصوله ولكنه التمني.

وانظر إلى قول امرئ القيس:

أَلَا أَيُّهَا اللَّيْلُ الطَّوِيلُ أَلَا أَنْجَلِي بِصُبْحٍ وَمَا الْإِصْبَاحُ مِنْكَ بِأَمْثَلِ
فالشاعر قد كثرت همومه وتكالتبت عليه الشدائد حتى أصابه الأرق وهجره النوم، فهو يتمنى أن ينجلي ذلك الليل، وينأى بظلامه عنه حتى يستقبل الصباح وينعم بضيائه، ثم عاد على ذلك بالنقض فقال: «وما الإصباح منك بأمثل»، فأنت وهو سواء، وإنما طلب انجلاء الليل مع هذا، لأن في تغير الزمن راحة على كل حال... وليس الغرض من صيغة الأمر «انجلي» طلب الانجلاء من الليل، لأن الليل ليس مما يخاطب ويؤمر، وإنما يتمنى الشاعر ذلك تخلصاً مما يعانيه.

وتأمل قول أبي العلاء المعري:

فِيَا مَوْتَ زُرْ إِنَّ الْحَيَاةَ دَمِيمَةٌ وَيَا نَفْسُ جِدِّي إِنَّ دَهْرَكَ هَازِلٌ
فالشاعر قد استعمل صيغة الأمر «زر» وأراد بذلك التمني، لأن الموت لا يقبل أن تطلب منه الزيارة، ولكن أبا العلاء يرى أن الموت قد تأخر تأخرًا مملًا، ولذا تمنى زيارته حتى يلبي تلك الزيارة فقد أصبحت الحياة جحيماً لا يطاق، والشاعر يتمنى الموت تخلصاً مما يعانيه من قسوتها، تلك نظرة التشاؤم عند أبي العلاء، يفوح بها البيت، وهذا المعنى تراه شائعاً على ألسنة هذا الصنف من الناس أمثال أبي العلاء، فهم يطلبون الموت عند حلول الشدائد والأزمات وتكالب الأحزان، وعدم قدرتهم على تحمل نوائب الدهر ومصائبه، فيتمنون الموت تخلصاً من تلك النوائب..

أما الأمر في الشطر الثاني: «ويا نفس جدي» فهو حث لها وتحريك وإثارة، لمضاعفة الجهد والعمل.

٨- الدعاء:

وهو الطلب على سبيل التضرع والخضوع، ويكون في أسلوب الأمر إذا صدر من الأدنى إلى الأعلى منزلة، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿١٠﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿١١﴾ وَأَخْلِلْ عُنُقَهُ مِّن لِّسَانِي ﴿١٢﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿١٣﴾ وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿١٤﴾ هَرُونَ أَخِي ﴿١٥﴾ أَشَدُّ بِرِيءَ أَرْزِي ﴿١٦﴾ وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي ﴿١٧﴾﴾ [طه: ٢٥ - ٣٢]، وقوله عز وجل: ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٠٠﴾﴾ [آل عمران: ١٩٣]، وقوله جل وعلا: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: ١٢٦]، فالأمر في هذه الآيات الكريمة ونحوها، المراد منه التضرع إلى الله والتوجه إليه والدعاء له، لأن الله جل وعلا لا يأمره أحد من خلقه، وسر التعبير بأسلوب الأمر في مقام الدعاء في الآيات الكريمة هو إظهار كمال الخضوع لله عز وجل وبيان شدة الرغبة في تحقيق تلك الأفعال، حتى كأنها أمور مطلوبة من الله جل وعلا...

وتأمل قول المتنبي مخاطب سيف الدولة:

أَزَلَّ حَسَدَ الْحُسَّادِ عَنِّي بِكِبَتِهِمْ فَأَنْتَ الَّذِي صَيَّرْتَهُمْ لِي حُسَدًا
وقوله أيضًا:

أَنَا الْجُودِ أَعْطِ النَّاسَ مَا أَنْتَ مَالِكُ وَلَا تُعْطِيَنَّ النَّاسَ مَا أَنْتَ قَائِلُ

تجد المتنبي مخاطب سيف الدولة بأسلوب الأمر: «أزل... أعط» ولا يريد بالأمر حقيقته من الإلزام والتكليف، لأن الأمير لا يأمره أحد من رعاياه، وإنما أراد المتنبي التوسل والدعاء، وإيثاره أسلوب الأمر يدل على رغبته القوية في تحقيق ما يريد، وكأنه أمر مطلوب من سيف الدولة.

٩- الالتماس:

ويكون عند خطاب من يساويك في الرتبة والمنزلة، والطلب منه على سبيل التلطف وبدون تضرع ولا استعلاء.

على نحو ما ترى في قول امرئ القيس:

قِفَا نَبْكَ مِنْ ذِكْرِي حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ بَسِيقِ اللَّوَى بَيْنَ الدُّخُولِ فَحَوْمَلِ

فهو يخاطب صاحبيه ويطلب منها الوقوف في هذا المكان العزيز على نفسه، ليدرفا معه الدمع قضاءً لحق هذه الذكرى الغالية، وهو طلب صاحب من صاحبيه بأسلوب الأمر، وإذا كان الأمر كذلك فإنه يراد بصيغة الأمر «الالتماس» لا الإلزام والتكليف، لأن خطاب الندند لا يراد به معنى الإلزام...

ومثله قول كثير:

خَلِيلِي هَذَا رُبْعُ عَزَّةٍ فَاغْلِقْ قَلُوصَيْكُمَا ثُمَّ ابْكِيَا حَيْثُ حَلَّتِ^(١)

فهو يطلب من خليليه أن يقفا معه ساعة في منزل فتاته «عزة» وفاء لها وقياماً بحقه من البكاء فيه، لخلوه من ساكنيه.

والتعبير بصيغة الأمر في مقام «الالتماس» يوحي بمدى انفعال الشاعر وسيطرة ذكرياته عليه حتى أنسته كل شيء ما عدا رغبته في تحقيق ذلك الأمر من جميع الرفاق، وكأن البكاء ليس مطلوباً منه وحده بل مطلوب منهم جميعاً، وأسلوب الأمر لا يكون حسناً ومقبولاً بين الرفاق إلا إذا كان بينهم تواضع جم وحب شديد؛ ولذا تلاحظ كثيراً يقول: «خليلي»، فهما خليلاه اللذان اصطفاهما وارتضى صحبتها وألفها.

١٠ - النصح والإرشاد:

وقد يكون أسلوب الأمر للنصح والإرشاد وذلك إذا تضمن نصيحة لم تكن على وجه الإلزام، كما في قوله تعالى: ﴿يُنَبِّئُ أَقْرَبَ الصَّلَاةِ وَأَمْرًا بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧]، وقوله عليه الصلاة والسلام لأبي ذر الغفاري ﷺ: «يَا أَبَا ذَرٍّ إِذَا طَبَخْتَ مَرَقَةً فَكَثِّرْ مَاءَهَا وَتَعَاهَدْ جِيرَانَكَ»^(٢)، ففي الآية الكريمة يوصي لقمان ابنه بتلك الفضائل وفي الحديث ينصح ﷺ أبا ذر ﷺ

(١) الربع: الخي أو الدار، والقلوص: بفتح القاف: الناقة الشابة، وعقل البعير: قيده.

(٢) رواد مسلم في كتاب البر والصلة والآداب برقم: [١٤٢/٢٦٢٥]

ينصح ﷺ أبا ذر رضي الله عنه على أن يتحلى بتلك الخصلة الحميدة، ولا يقال إن الأمر هنا للوجوب إذ المأمور به واجب، لأن المأمور به إنها يكون واجبا إذا وردت تلك الأوامر في مقام الأمر والإلزام من الله عز وجل، أو من النبي ﷺ أما ورودها هنا على لسان لقمان في الآية الكريمة وعلى لسان المصطفى ﷺ في الحديث، فإن المقام يقتضي أن تكون للنصح والإرشاد.. ولا يتناقض النصح والإرشاد مع الوجوب، فالمنصوح يجب عليه أن ينهض بتلك الأوامر وأن يمثلها، إذ الواجب ينصح به ويرشد إليه.

ومن هذا القبيل تلك الأوامر التي ترد على السنة الوعظ والمرشدين والموجهين، فهم يريدون منها النصح والإرشاد، وأن يعبروا عما يضمرونه من حب وإخلاص لأتباعهم، وهذا هو سر التعبير بأسلوب الأمر في مقام الإرشاد والنصح.

١١-الإكرام:

كما في قوله تعالى: ﴿أَدْخُلُوهَا بِسَلْمٍ آمِينًا﴾ [الحجر: ٤٦]، فقد قالوا في معناه: إنهم لما صاروا في الجنات فإذا ما انتقلوا من بعضها إلى بعض يقال لهم عند الوصول إلى التي أرادوا الانتقال إليها: «ادخلوها» إكرامًا لهم وحفاوة بهم ورفعًا من شأنهم وإعلاءً لمنزلتهم^(١)، فأسلوب الأمر في الآية مراد به الإكرام للمؤمنين وهذا شائع بين الناس، فإنك تقول لضيفك وهو مستمر في الأكل والشرب: كل واشرب، وقد تقسم عليه أن يأكل ولا تقصد إلا زيادة إكرامه وأن تصور ما في خلجات نفسك من حب له وسرور به.

١٢- وقد يأتي الأمر لتصوير حال المتكلم والدلالة على ما هو فيه من الحيرة والتخبط، كما في قوله تعالى: ﴿وَنَادَى أَصْحَابَ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله﴾ [الأعراف: ٥٠]، فأصحاب النار يعلمون يقينًا أن ما في الجنة محرم عليهم، ولكنهم لفرط ما هم فيه من هول وعذاب، كأنهم قد فقدوا عقولهم فصاروا يطلبون ما لا سبيل إلى تحقيقه.

(١) انظر روح المعاني ج ١٤ ص ٥٧.

ومثله قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٣٥﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴾ [المؤمنون: ١٠٠]، وقوله عز وجل: ﴿ قَالُوا رَبَّنَا عَلِّبْنَا لِنَفْسِنَا شِقْوَتَنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿٣٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [المؤمنون: ١٠٦]، وكان الكافر لما حضره ملك الموت وأبصر زبانية العذاب أصابه الهول فصار يطلب ما لا سبيل إلى تحقيقه، ولا يدري ماذا يقول، وكذا في الآية الثانية، كان الأشقياء لشدة ما ذاقوا من العذاب في جهنم أصبحوا في حيرة وتخطب فصاروا يطلبون ويتمنون ما لا سبيل إلى تحقيقه.

١٣- وقد يأتي الأمر للإثارة والإلهاب والتهيج وذلك عندما يوجه إلى المأمور الواقع منه الفعل، والذي لا يتصور أن يكون منه خلافه، كما في قوله تعالى: ﴿ يَأْتِيَهُمُ النَّبِيُّ آتِيَ اللَّهِ وَلَا تَطِيعُ الْكٰفِرِينَ وَالْمُنٰفِقِينَ ﴾ [الأحزاب: ١]، وقوله عز وجل: ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [هود: ١١٢]، وقوله جل وعلا: ﴿ فَأَقْرُبْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [الروم: ٣٠]، إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التي يوجه فيها الأمر بما هو حاصل أو النهي عن غير الحاصل إلى الرسول ﷺ، فإن الغرض من الأمر أو النهي عندئذ هو الإثارة والتهيج والإلهاب حتى يزداد المخاطب تمسكًا بما هو عليه من الحق واليقين ويستمر ويداوم، ولذا قالوا: إن التعبير بالأمر في مثل هذه الآيات وكذا النهي، يفيدان طلب الدوام والاستمرار، أي: طلب دوام التقوى والاستقامة والابتعاد عن الكفار وعن الطغيان...

ونرى أن أسلوب الأمر والنهي الموجهين إلى الرسول ﷺ في مثل هذه الآيات يفيدان بالإضافة لما سبق، الإشارة إلى بسط سلطان الربوبية وتفردا بالأمر والنهي وأن البشرية في أسمى صورها وأعلى منازلها، وهي النبوة تؤمر وتنهى، وهذا تعميق للفرق بين الألوهية والنبوة، وهو ما حرص الإسلام على إبرازه وتقريره، حتى لا يتطرق إلى عقيدة الوحداية عند هذه الأمة، ما تطرق إليها عند الأمم السابقة، فقد قالت النصراني: المسيح ابن الله، وقالت اليهود: عزيز ابن الله، ولهذا كان أسلوب الأمر أو النهي الموجه إلى النبي ﷺ في مثل هذه الآيات «استقم - اتق الله - لا تطع -

لا تكونون من المشركين» مشيرًا إلى أن محمدًا ﷺ وهو الذي ما خلق الله ولا ذرأ ولا برأ نفساً أكرم عليه منه، إنها هو بشر يؤمر وينهى ويحذر ويتوعد: ﴿لَئِن أُشْرِكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥]، ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ﴿١﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٢﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٣﴾﴾ [الحاقة: ٤٤ - ٤٦] وبذا يظل للالوهية سلطانها القاهر المهيم وتقف النبوة عند منزلتها السامية التي مها سمت لا ترقى إلى مرتبة الألوهية^(١).

١٤- وقد يأتي الأمر تصويرًا للحدث وبيانًا لكيفية وقوعه انقيادًا لقدرة الله تعالى، كما في قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]، وقوله جل وعلا: ﴿فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٣]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، فالأمر في الآيات الكريمة: «ائتيا - موتوا - كن» يصور حال الحدوث وسرعة وقوعه وانقياده لأمر الله تعالى... وفي هذا من الدلالة على القدرة البالغة ما لا يخفى على صاحب الذوق الرفيع، وتأمل ما في الآيات من أمر يعقبه استجابة سريعة، ثم قارن بينه وبين أن تقول: فأماهم الله ثم أحياهم، إنها أمره إذا أراد شيئاً يكون... فأمرهما بالطاعة فأطاعتا.. فستجد أن تصوير الحدث وبيان كيفية وقوعه وانقياده الخاطف لقدرة الله عز وجل، قد ولى وذهب، في هذه الأقوال.

١٥- وقد يأتي الأمر بالفعل مرادًا به الحث على الاتصاف بصفة معينة، كما في قولك: مت وأنت كريم... مت وأنت تقي... صل وأنت خاشع... واقرأ وأنت يقظ، فأنت في هذه الأقوال لا تريد أمره بالموت ولا الصلاة ولا القراءة وإنما تريد أن تحته على تلك الصفات المذكورة وهي الكرم والتقوى والخشوع واليقظة، وأن يحافظ ويستمر على الاتصاف بها، ويحرص على ذلك طوال حياته فهذا هو الأولى به واللائق بأمثاله من الكرماء الأتقياء.

ومثل الأمر في ذلك أسلوب النهي تقول: لا تصل إلا وأنت خاشع... لا تمت إلا وأنت كريم، ومرادك من هذا النهي: أن تحته على الخشوع والكرم، لا نهي عن

(١) انظر من أسرار التعبير القرآني دراسة تحليلية لسورة الأحزاب ص ٩

الصلاة والموت... ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ بِأَن يَتَزَكَّوْا لِنَبِّئَهُمْ أَن يَدَّبُّوْا بِبَيْنِيْهِ وَيَعْقُبُوْا بَيْنِيْهِ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمْ الَّذِينَ فَلَا تَمُوْتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُّسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٢]، فالمراد حثهم على التمسك بالإسلام وألا يكونوا على خلاف حال الإسلام إذا ماتوا، أي: حثهم على أن يستمروا طوال حياتهم متمسكين بالإسلام محافظين عليه فإذا ما جاءهم الموت - وهو لا يأتي إلا بغتة - ماتوا وهم مسلمون.

١٦- وقد يرد الأمر ولا يراد به مأمور معين وإنما يراد به كل من يتأتى منه الخطاب، كما في قوله - عليه الصلاة والسلام - «بَشِّرِ الْمَشَائِئِ فِي الظُّلَمِ إِلَى الْمَسَاجِدِ بِالنُّورِ التَّامِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١)، لا يريد ﷺ مخاطبًا معينًا، وإنما أراد عموم الأمر. حتى كأن كل فرد من أفراد الأمة مبشر لهؤلاء، وفي هذا تكريم للمشائين إلى المساجد وتنويه بشأنهم وبرضا الله تعالى عنهم وتحليله عليهم بالرحمة والغفران والنور التام... إلى غير ذلك من الأغراض والمعاني البلاغية التي يفيدها أسلوب الأمر، فهي كثيرة يطول حصرها، وما نريده الآن هو أن نقف على وجه دلالة أسلوب الأمر على تلك المعاني.

وجه دلالة أسلوب الأمر على معانيه البلاغية

قال كثير من البلاغيين: إن هذه المعاني التي يفيدها أسلوب الأمر معان مجازية بمعنى أن الأسلوب قد انتقل من الدلالة على الأمر إلى إفادة تلك المعاني، وكل مجاز لا بد فيه من علاقة بين المعنى الأصلي والمعنى المجازي، وقد خاض البلاغيون وجدوا في التماس تلك العلاقات، فالعلاقة بين الأمر والإباحة هي الإطلاق والتقييد، لأن الأمر إذن مقيد، والإباحة لمطلق الإذن، فاستعمال الأمر في الإباحة مجاز مرسل، ويجوز أن تكون العلاقة: التضاد، لأن إباحة كل من الفعل والترك تضاد الإيجاب... والعلاقة بين الأمر والتهديد: شبه التضاد وبين الأمر والإهانة: اللزوم... وهكذا^(٢).

(١) رواء الترمذي في الصلاة برقم (٥١ / ٢٢٣). وابن ماجه في المساجد برقم (١٤ / ٧٨١)

(٢) راجع إلى هذه العلاقات في شروح التخصيص جـ ٢ ص ٣١٣، وما بعدها.

وبعضهم يجعل استعمال الأمر في تلك المعاني من قبيل الكناية، وبعضهم يجعله من قبيل مستتبعات الكلام... وكذا القول في المعاني البلاغية التي يفيدها أسلوب النهي أو أساليب الاستفهام الآتي بيانا.

والذي نراه أن دلالة الأمر وكذا النهي والاستفهام على تلك المعاني من مستتبعات الكلام، وهذا ما ذهب إليه أصحاب الرأي الثالث، ومعنى مستتبعات الكلام: أن السياق وقرائن الأحوال هي التي تحدد تلك المعاني المرادة، وأنه لا داعي للخوض في التماس علاقات واهية بين تلك المعاني وبين أساليب الأمر والنهي والاستفهام، لأنه على الرغم من وهن هذه العلاقات فإنه لا فائدة للدرس البلاغي وراءها، فالأولى أن تصرف الهمم وأن توجه الأذهان إلى معرفة المزايا والأسرار الكامنة وراء استعمال الأساليب الإنشائية في الدلالة على هذه المعاني، والوقوف عليها من خلال سياقات الكلام ومعرفة قرائن أحواله، لا أن تبدد في اللهث وراء التقاط علاقات لا تنمى ذوقاً ولا تفيد شيئاً.

تأمل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْجِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرًا مِّنْ يَأْتِي ءَامِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠]، وقوله ﷺ: «لَعَلَّ اللَّهَ أَطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ وَجَبَتْ لَكُمْ الْجَنَّةَ أَوْ- فَإِنِّي قَدْ عَقَرْتُ لَكُمْ»^(١).. وقوله ﷺ: «إِذَا لَمْ تَسْتَحْيِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ»^(٢) تجد أن أسلوب الأمر واحد «اعملوا ما شئتم- اصنع ما شئت»، وعلى الرغم من ذلك اختلفت دلالته، وهذا الاختلاف مرده إلى السياق ووقوفنا على مرمى الكلام ومغزى الحديث، فالآية تتحدث عن الكفرة الذين يلحدون في آيات الله وتبين أنهم لا يخفون عليه تعالى، فهو عليهم بهم ومصيرهم إلى النار، فليعملوا ما شاءوا، الأمر كما ترى ينبئ بالوعيد والتهديد الشديدين، وكذا الحديث الثاني يتحدث عن الذي لا يستحيي من الله تعالى، فقوله ﷺ في خطابه: «اصنع ما شئت» إنما هو وعيد وتهديد وزجر وتحذير... أما الحديث الأول فإنه يتحدث عن هؤلاء الذين رضي الله عنهم ورضوا

(١) رواه البخاري في كتاب المغازي برقم (٩/ ٣٩٨٣).

(٢) رواه البخاري في كتاب الأدب برقم (٧٨/ ٦١٢٠).

عنه إنهم أهل بدر، وقول الله تعالى لهم: «اعملوا ما شئتم» إنها هو وعد ورضا ونعيم ورضوان.

مثل هذا هو الذي ينبغي أن تكثر الجهود لمعرفة والإحاطة به فهو الذي ينمي الأذواق ويصقل الأذهان ويقف الدارس من خلال تأمله وتدبره، على خبايا التراكيب وأسرارها، ومزاياها الجمالية.

أما أن يشغل الدارس بمعرفة أن استعمال الأمر في مقام التهديد مجاز مرسل علاقته ما بين الطلب والتهديد من شبه التضاد، إذ المأمور به إما واجب أو مندوب والمهدد عليه إما حرام أو مكروه، وأن شبه التضاد هو الذي جوز استعمال الطلب مكان التوعده والتهديد استعمالاً مجازياً، فهذا ما أرى أنه لا فائدة من معرفته ولا ثمرة من الوقوف عليه، ولذا ينبغي أن يكون عن البلاغة بمعزل.

ومن أجل هذا فضلت القول بأن دلالة أساليب الإنشاء على معانيها البلاغية من مستتبعات التراكيب، وأن الواجب على الدارس أن يجد في تذوق تلك المستتبعات التي هي سياق الكلام وقرائن أحواله وأن يقف على أسرارها ودقائقها، ومن خلال ذلك يصل إلى المعاني البلاغية التي تفيدها تلك الأساليب.



أسلوب النهي

هو كل أسلوب يطلب به الكف عن الفعل على جهة الاستعلاء والإلزام، فيكون من جهة عليا ناهية إلى جهة دنيا منهية، وله صيغة واحدة وهي المضارع المقرون بلا الناهية كقولك: لا تصاحب الأشرار، لا تفعل السوء، لا تكف عن البذل والعطاء.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ إِمْلَقُ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١] وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦]، وقوله عز من قائل: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا﴾ [البقرة: ١٨٧]، فقد أفاد النهي في الآيات الكريمة طلب الكف عن قتل الأولاد وعن الإفساد في الأرض وعن اقتراب حدود الله، وصيغته كما ترى هي المضارع المقرون «بلا» الناهية.

المعاني البلاغية التي يفيدها أسلوب النهي:

والذي تهتم به الدراسات البلاغية ليس هو طلب الكف عن الفعل وهو المعنى الأصلي لتلك الصيغة، وإنما تهتم بها وراء ذلك من معان بلاغية يفيدها أسلوب النهي، وأهم هذه المعاني:

١- الدعاء: وذلك عندما تكون تلك الصيغة صادرة من الأدنى إلى الأعلى، كما في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، فالمقام مقام ضراعة، وخضوع، والمؤمنون يبتهلون إلى الله تعالى بهذا الأسلوب على سبيل التضرع والتذلل، فالمقصود منه الدعاء والابتهال، وسر التعبير بصيغة النهي في مقام «الدعاء» في الآية الكريمة، هو بيان رغبة هؤلاء المؤمنين في أن يتجلى الله عليهم بالرحمة والغفران وإظهار كمال ضراعتهم وتذللهم إلى الله جل وعلا.

ومنه قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تَرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: ٨]، وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَابْتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ١٩٤]، إلى غير ذلك من الآيات التي يتضرع فيها المؤمن إلى الله عز وجل داعياً وراجياً بهذا الأسلوب الذي يصور صدق رغبته وشدة حرصه على أن يحقق الله له دعاءه ويحجب طلبه.

٢- الالتماس: وذلك إذا كان النهي من المساوي والند بدون استعلاء ولا خضوع وتذلل، كقولك: لنظيرك: لاتفعل هذا، لا تؤذ ضعيفاً، لا تهن مسلماً، ومنه قوله تعالى على لسان هارون يخاطب أخاه موسى -عليهما السلام- ﴿قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنَّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ [طه: ٩٤]، فالنهي في قوله: «لا تأخذ» المراد به: «الالتماس»؛ لأنه ليس فيه استعلاء وإلزام، ولا تذلل وخضوع حيث وجه من هارون إلى موسى عليهما السلام وهما متساويان في الرتبة والمنزلة فهو يلتمس منه بهذا النهي، عدم إنزال العقوبة به، فقد خشي إن خرج عليهم أن يتفرقوا.

وفي إيثار التعبير بنسبته إلى الأم «يا ابن أم» على الرغم من كونه أخاه لأبيه وأمه: استعطاف لموسى وترقيق لقلبه، والسر البلاغي وراء التعبير بصيغة النهي في

مقام الالتئاس، في الآية الكريمة، هو إظهار حرص هارون على ترفيق قلب أخيه، ورغبته القوية الأصيلة في العفو والتسامح فقد كان له عذر...

ومنه قول المتنبي في سيف الدولة.

فَلَا تُبْلِغَاهُ مَا أَقْوَلُ فَإِنَّهُ شُجَاعٌ مَتَى يُذَكَّرَ لَهُ الطَّعْنُ يَسْتَقِ

فهو يلتمس من صاحبيه أن يكتبوا عن سيف الدولة ما يقوله في وصف شجاعته وحسن بلائه في الحروب، وقد عبر بأسلوب النهي في هذا المقام، مقام الالتئاس، إظهارًا لشدة حرصه على كتان هذا الأمر عن سيف الدولة، وفي ذلك ما فيه من تهويل وتفخيم لشجاعته وقوة فتكه بأعدائه.

ومنه قول ابن الدمينية:

خَلِيلِيَّ مِنْ بَيْنِ الْأَخِلَاءِ لَا تَكُنْ جِبَالِكُمْ أَنْشُوطَةً مِنْ جِبَالِيَا^(١)

فهو يلتمس من خليليه الأثيرين عنده المحبين إلى نفسه ألا تكون مودتها وصلتها ضعيفة واهية، وقد عبر بأسلوب النهي إبرازًا لشدة رغبته في أن يتحقق له ما يريده من قوة الصلة ودوام المودة وتلاحم الروابط بينه وبينهما.

٣- النصح والإرشاد: كما في قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَن أَسْيَاءِ إِن تَبَدَّلَ لَكُمْ تَوْبَهُمْ﴾ [المائدة: ١٠١]، فليس المراد بالنهي عن السؤال في الآية الكريمة: الإلزام وطلب الكف، وإنما أريد به النصح والإرشاد، وقد جاء بصيغة النهي رغبة في الاستجابة والامتثال.

ومنه قول أبي العلاء:

وَلَا تَجْلِسْ إِلَى أَهْلِ الدُّنْيَا فَإِنَّ خَلَائِقَ السُّفَهَاءِ تُعْدي^(٢)

فهو ينصح مخاطبه ويرشده إلى الابتعاد عن السفهاء وأهل الدنيا، وقد عبر بصيغة النهي لبيان رغبته وحرصه على أن يمثل المخاطب ويستجيب لنصحه وإرشاده.

(١) أنشودة: واهية ضعيفة غير وثيقة العقد.

(٢) دنيا: جمع ذنية وهي العيب والقبصة، والمراد: بتعدي: تنتقل إلى من مجالسهم.

٤- الحث على الفعل...

كما في قول الخنساء:

أَعْيَنِي جُودًا وَلَا تَجْمُدَا أَلَا تَبْكِيَانِ لِصَخْرِ النَّدَى

فهي تحث عينيها على البكاء وأن تجودا بالدمع وتنهملأ وألا تبخلا به، فإنها تبكيان صخر الندى، والتعبير بالأمر والنهي في هذا المقام يظهر شدة حزنها ورغبتها القوية في أن يتحقق ما تريده فتفيض عيناها بالبكاء وفاء لحق هذا المقام.

ومنه قول إسماعيل صبري:

لَا تَقْرَبُوا النَّيْلَ إِنْ لَمْ تَعْمَلُوا عَمَلًا فَمَاؤُهُ الْعَذْبُ لَمْ يَخْلُقْ لِكَسْلَانٍ

فهو ينهي المصريين عن الشرب من ماء النيل إذا لم يقدموا عملاً عظيمًا يصبحون به جديرين أن يشربوا ماءه، والغرض من النهي هو الحث على التقدم والتفاني في سبيل رفعة مصر.

وإيثار التعبير بالنهي في مقام الحث في البيت، يبرز حب الشاعر لمصر ويظهر عاطفته القوية نحو تقدمها وريقها، فهو يرى أنه لا يستحق الحياة من لا يعمل لرفعة وطنه ويبذل جهده لتقدمه وازدهاره.

٥- التمني:

كما في قول الشاعر:

بِالْيَلِّ طُلُّ يَانَوْمُ زُلُّ يَأْصِيحُ قِفْ لَا تَطْلُعِ

فهو يتمنى أن يمتد الليل ويطول، وأن يذهب النوم ويزول، وألا يطلع النهار، وذلك حتى يطول اجتماعه بحبيبه والتحدث إليها، ووقوف الصبح وعدم طلوعه من المحال، ولكن الشاعر لرغبته الشديدة في أن يطول الليل خيل إليه أن توقف الصبح وعدم طلوعه أمر ممكن، فأمره بالوقوف: «قف» ونهاه عن الطلوع: «لا تطلع» ومراده بهذا: التمني ورغبته القوية في الاجتماع بحبيبه والتمتع بحديثها.

٦- التحقير والإهانة: كما في قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَحْسَبُوا فِيهَا وَلَا تَكْفُمُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠٨]

[المؤمنون: ١٠٨]، فالأمر والنهي في الآية الكريمة يحملان معنى الإهانة والتحقير

هؤلاء الذين غلبت عليهم شقوتهم في الدنيا وكانوا قومًا ضالين، ثم جاءوا يوم القيامة يتمنون الخروج من جهنم ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٧]، فكانت تلك الإهانة ﴿أَخْسَوْا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُون﴾.

ومنه قول الحطيثة في هجاء الزبرقان بن بدر:

دَعِ الْمَكَارِمَ لَا تَرْحَلْ لِیُغَيِّبَهَا وَأَقْعُدْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الْكَاسِي

فالمراد بالأمر: «دع واقعد» والنهي: «لا ترحل» تحقير المخاطب وإهانته وإظهار أنه ليس أهلاً للكفاح من أجل المكارم والمعالي، فعليه أن يقعد وسيأتيه طعامه وكساؤه ممن يحسنون ويتصدقون عليه وعلى أمثاله.

٧- التوبيخ:

كما في قول أبي الأسود الدؤلي:

لَا تَنَّةَ عَن خُلُقِي وَتَأْتِي مِثْلَهُ عَارٌ عَلَيَّكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمُ

فالمراد بأسلوب النهي: «لا تنه عن خلق وتأتي مثله»: توبيخ من ينهي الناس عن الشر والسوء ولا ينتهي هو عنه.

ومثله قول أبو الصوفي سعيد بن مسلم المجيزي:

لَا يُبْدِرُكَ الْمَجْدَ مَنْ لَأَتْ مَا كَلَّمَهُ لَا تَحْسَبِ الْمَجْدَ تَمَرًا أَنْتَ أَكَلُهُ

لَنْ تَبْلُغَ الْمَجْدَ حَتَّى تَلْعَقَ الصَّبْرًا

فالنهي في قوله: «لا تحسب» المراد منه توبيخ من يتقاعد ويتكاسل وهو يطمع في تحصيل المجد، وفي نفس الوقت فيه حث على العمل والجد لنيل العلا وتحقيق المجد.

٨- التهديد: كقول الرئيس لمراءوسه: لا تطع أمري... لا تقلع عن عنادك،

فهو لا يطلب منه ترك الامتثال لأوامره وإنما يهدده ويتوعده...

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِإِلَهِ وَآبَاتِهِ

وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ لَا تَعْتَدِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥، ٦٦]، فليس المراد نهيهم عن الاعتذار والتوبة، وإنما المراد التهديد والتحذير حتى يقلعوا عن غيهم وعنادهم ويسلكوا مسلك الحق والهدى.

٩- التينيس: كما في قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُحْزَنُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التحریم: ٧]، فلا معنى لنهيهم عن الاعتذار في ذلك اليوم، وإنما هو التينيس وإعلامهم أنه لن يقبل منهم ولن يلتفت إليهم، فليس أمامهم إلا الجزاء على كفرهم وضلالهم...

ومنه قول المتنبي في مدح سيف الدولة:

لَا تَطْلُبَنَّ كَرِيمًا بَعْدَ رُؤْيَيْتِهِ إِنَّ الْكِرَامَ بِأَسْحَاهُمْ يَدًا خُتُّوَا

فقد أراد بالنهي: «لا تطلبن» تئيس المخاطب من أن يصل إلى كريم بعد أن رأى سيف الدولة ونال كرمه، فسيف الدولة أكرم الكرماء، وأسخرى الأسخياء، وقد ختم به الكرام، ومهما حاول المخاطب أن يعثر على كريم مثله فلن يفلح، وفي هذا من المبالغة في كرم سيف الدولة وكثرة عطائه ما ترى.

١٠- التفتيح والتهويل: كقولك: لا تسأل عن فلان وراك الله شر ما أصيب به... تريد أن فلاناً هذا قد أمت به الشدائد وأحاطت به المصائب التي لا توصف لشدتها وهونها وفضاعتها، فليس المراد بأسلوب النهي: «لا تسأل» طلب الكف عن السؤال عنه، وإنما أريد به التهويل وتفتيح ما ألم به، كأن المتكلم لا يستطيع وصفه، أو كأن المخاطب لا يطيق سماعه أو كأن المتحدث مشفق على مخاطبه فلا يريد إساءته بإساعه تلك الأحوال...

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ [البقرة: ١١٩]، في قراءة من قرأ بالنهي وجزم المضارع، أي: لا تسأل عن فرط ما هم فيه من العذاب وما آل إليه أمرهم من النكال، فإنه لا يستطيع أحد أن يصف لك هول ما هم فيه، أو لا تستطيع أنت سماعه لفظاعته وشناعته... وقد يكون التهويل في النعيم والخير، كأن تقول: «لا تسأل عن فلان»، وتريد بذلك فلاناً الذي حل به من الخير والنعيم ما لا يوصف لكثرتة ووفرته.

١١- وقد ينهى عن الفعل مقيداً بقيد أو موصوفاً بوصف، ولا يكون الغرض: النهي عن الفعل في هذه الحال بل النهي عن الفعل مطلقاً، ويكون القيد أو الوصف عندئذ للمبالغة في التنفير والتحذير كقولك: لا تضيع دينك بكسرة خبز... لا تضيع

حق جارك الصالح... لا تريد النهي عن ضياع الدين في هذه الحال، أو عن ضياع حقوق الجار الصالح فقط، وكأنك تبيح له أن يضيع دينه إذا غلا ثمنه، وأن يضيع حقوق جاره غير الصالح، وإنما تريد حثه على التمسك بدينه، وحفظ حقوق جاره مطلقاً، وقد قيدت التضييع بكسرة الخبز ووصفت الجار بالصلاح، لأن في ذلك مزيداً من التنفير والتقبيح، والمخاطب عندئذ يكون أكثر استجابة وأسرع انقياداً...

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَعْضٌ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُنَّ مَعْصُومَةٌ﴾ [آل عمران: ١٣٠]، وقوله عز وجل: ﴿وَلَا تَكْرَهُوا فِتْنَتَكُمْ عَلَىٰ الْبِغَاءِ إِنِ زِدْنَ مَخْصَنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا﴾ [النور: ٣٤]، وقوله جل وعلا: ﴿وَأَتُوا آلِيَنَّتِي أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَيْبَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٢]، وقوله عز من قائل: ﴿فَإِنِ ءَانَسْتُمْ مِّنْهُمْ رُّشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْتِرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا﴾ [النساء: ٦]، فالأفعال المنهي عنها في الآيات الكريمة قد قيدت بقيود من شأنها أن تبعث على التنفير وأن تبرز فظاعة تلك الأفعال وشناعتها، وليس المراد النهي عن الأفعال المذكورة في الحال التي قيدت بها فقط دون ما عداها، وإنما المراد النهي المطلق، وقد جيء بالقيد للتبشيع والتنفير كما قلت.

انظر إلى آية النهي عن الربا، تجد هذا النهي قد قيد بكونه أضعافاً مضاعفة، والمراد النهي عن أكل الربا مضاعفاً وغير مضاعف، ولكنه جيء بهذا القيد تبشيعاً للصورة وتنفيراً للنفوس.

وتأمل آية النهي عن البغاء، وانظر كيف اختير الإكراه لينهى عنه: «لا تكرهوا»، والمراد هو النهي عن البغاء سواء أكان عن طريق إكراه الفتيات أو بإقبالهن طواعية، ثم جيء بهذا القيد: «إن أردن تحصناً»، والفتاة لا تكره على البغاء إلا إن أرادت التحصن والتعفف، وكأن القيد تأكيد للإكراه المنهي عنه، وفي هذا مزيد من التفظيع والتنفير، وتصوير الصورة في أبشع صورها، فتاة تعففت وتحصنت وسيد يكرهها على البغاء على الرغم من عفافها وتحصنها، تلك هي الصورة المنهي عنها، وهي صورة تستبشعها النفوس، وتستفظعها وتنفر منها، والمراد -كما قلت- هو النهي عن البغاء مطلقاً.

وتأمل الآيات التي تناولت تحريم أموال اليتامى في القرآن تجد أن هذا

التحريم قد قيد بالأكل: «لا تأكلوا» ولا يعني ذلك أنه يجوز الاستيلاء على مال اليتيم واستخدامه في غير الأكل كالملبس والمشرب والمسكن ونحو ذلك، وإنما المراد النهي عن الاعتداء على أموال اليتامى بأي وجه من وجوه الاعتداء، ولكن لما كان العربي يتذم بملاء البطن وكثرة الأكل ويعد ذلك من البهيمية، فقد أوتر التعبير بالأكل تفضيلاً وتنقيحاً.

وهكذا تجد الآيات التي تتناول تحريم الاعتداء على أموال الغير... انظر: «ولا تأكلوا الربا»... «لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل»... «لا تأكلوا مال اليتيم» فالتعبير بالأكل فيها يفيد التفضيح والتنفير، والمراد هو النهي عن الاعتداء على أموال الغير بأي وجه من الوجوه.

وعد إلى آيتي أموال اليتامى المذكورتين، «ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم...»، «ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا» تجد أن هذين القيدتين: «إلى أموالكم»، و«إسرافاً وبداراً أن يكبروا»، قد جيء بهما لزيادة التنفير وإبراز الصورة -صورة الاعتداء على مال اليتيم- في أشبع الصور وأفظعها، هذا غني يضم أموال اليتامى إلى أمواله طمعاً وجشعاً وذاك يسرف ويبادر خشية أن يكبر اليتيم فيأخذ منه ماله.

ومما جاء على هذه الطريقة في أسلوب الأمر قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ [النساء: ٨]، فذوو القربى ممن لا يرثون وكذا اليتامى والمساكين يعطون قدرًا من الميراث على سبيل الندب وإرضاء النفس لا على سبيل الوجوب -وهذا مما تهاونت به الناس ولم يلتفتوا إليه- وهذا القدر يعطى للقريب غير الوارث وللمسكين واليتيم سواء أحضروا القسمة أم لم يحضروا، وقد قيد الأمر: «فأرزقوهم» بحضور القسمة ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ﴾ ليكون ذلك أبعث على العطاء، ودافعاً أقوى لترضية ذوي القربى غير الوارثين واليتامى والمساكين وإسعافهم والقول لهم قولاً معروفاً^(١).



(١) يرجع إلى دلالات التراكيب ص ٢٧٦.

أساليب الاستفهام

تقديم:

الهمزة والسين والتاء إذا زيدت في الفعل الثلاثي، أفادت معنى الطلب، يقال: استزاد أي: طلب الزيادة، واستغفر: طلب المغفرة، واستفهم: طلب الفهم، فالاستفهام معناه طلب الفهم، ولذا قالوا في تعريفه: الاستفهام هو طلب العلم بشيء لم يكن معلومًا من قبل بأدوات خاصة.

وهذه الأدوات هي: الهمزة وهل، ومن، وما، وكيف، وكم، وأين، وأيان، ومتى، وأنى، وأي... وقد عرفت أن الجملة الخبرية التي تدخل عليها هذه الأدوات تتكون من أجزاء هي المسند والمسند إليه وأحد المتعلقات، وبضم هذه الأجزاء وإسناد بعضها إلى بعض تتكون الجملة التي تفيد حكمًا معينًا بهذا الضم أو بذاك الإسناد...

وعندما تدخل هذه الأدوات على الجملة الخبرية يكون الاستفهام بها عن أحد أمرين: إما عن النسبة أي: الإسناد أو الحكم المفاد من الجملة ويسمى «تصديقًا» وإما عن أحد أجزاء الجملة ويسمى «تصورًا»... فالتصديق هو إدراك النسبة بين الشئيين ثبوتًا أو نفيًا... والتصور هو إدراك أحد أجزاء الجملة، المسند أو المسند إليه أو أحد المتعلقات...

وأدوات الاستفهام بحسب المستفهم عنه ثلاثة أنواع:

- ١- ما يطلب به التصور تارة والتصديق تارة أخرى، وهو الهمزة وحدها.
- ٢- ما يطلب به التصديق فقط، وهو هل...
- ٣- ما يطلب به التصور فقط، وهو بقية الأدوات.

ولهذا كان لبناء جملة الاستفهام مع «الهمزة وهل» ضوابط واعتبارات دقيقة ينبغي الوقوف عليها والإحاطة بها، أما بقية الأدوات فلكونها لطلب تصور أشياء محددة، فإنهم لا يلتزمون في بناء الجملة معها شيئًا زائدًا عن الضبط العام في النظام الإعرابي ووجوب تصدر هذه الأدوات.

واليك إيضاح وتفصيل لكيفية بناء الجملة مع الهمزة وهل، وبيان لما يسأل عنه ببقية أدوات الاستفهام.

الهمزة

ويطلب بها إما التصديق، أي: إدراك النسبة الواقعة بين الطرفين ثبوتاً أو نفياً، وذلك عندما يكون السائل عالماً بأجزاء الإسناد، ويجهل الحكم أو مضمون الجملة، فهو يسأل ليقف على هذا الحكم... وإما التصور، أي: إدراك أحد أجزاء الجملة عندما يكون السائل عالماً بالحكم ولكنه يجهل أحد أجزاء البناء.

فإذا كانت الهمزة لطلب التصديق، كان جواب الاستفهام بالنفي أو بالإثبات «نعم أو لا أو بلى»، ولا يذكر معها معادل، ويلها غالباً الفعل إن وجد.

تقول: أنجح خالد... أعمرو وشجاع؟ إذا كنت تتصور أجزاء الكلام: «نجح وخالد وعمرو وشجاع» وتتصور النسبة بين أجزائه أي بين نجح وخالد، وبين عمرو وشجاع، ولكنك تجهل وقوع هذه النسبة، أو أوقعة هي ومحققة أم غير واقعة، ولذا يجاب سؤالك بنعم أو بلا، أي بتحقق هذه النسبة ووقوعها أو بعدم تحققها.. وتقول: ألم يكرمك خالد، فيجاب بنعم نفياً، وبلى إثباتاً.

ومن ذلك قول عمارة بن عقيل في خالد بن يزيد بن يزيد الشيباني:

أَتَرُكُ أَنْ قَلَّتْ دَرَاهِمُ خَالِدٍ زِيَارَتُهُ؟ إِنِّي إِذَا لَلْتُ لِيْمُ

فالجواب هنا بالنفي أي: «لا» لن أترك زيارته أن قل ماله، لأن السؤال عن التصديق إذ المتكلم يعرف الفعل ويتصور الفاعل وهو المتكلم نفسه ويعلم المفعول وهو زيارة خالد، كما أنه يتصور النسبة بين تلك الأجزاء، ولكنه يتساءل أتقع منه أم لا تقع.

فإن ذكر المعادل «أم» بعد همزة التصديق هذه، كانت أم منقطعة بمعنى بل وكانت بعدها همزة أخرى مقدرة كما في قول متمم بن نويرة البربرعي:

وَلَسْتُ أَبَالِي بَعْدَ فَقْدِي مَالِكًا أَمْوَتِي نَاءً أَمْ هُوَ الْآنَ وَاقِعٌ

فالسؤال بالهمزة عن النسبة و«أم» للإضراب عن الكلام السابق، أي: عن

هذا التساؤل وبعدها همزة مقدره يسأل بها سؤال آخر، والمعنى: أموتي ناء؟ بل أهو الآن واقع؟

وإذا كانت الهمزة للتصور وجب أن يليها المستفهم عنه... ويذكر للمستفهم عنه -غالبًا- معادل بعد «أم» المتصلة، وقد يستغنى عن ذكر المعادل إذا وجد ما يدل عليه... ولا يكون جواب الاستفهام عندئذ بنعم أو بلا، وإنما يكون بتعيين وتحديد المستفهم عنه.

تقول في السؤال عن الفاعل: أحمد جاء أم عمرو؟ فيكون الجواب: محمد أو عمرو أي بتعيين من جاء منهما، ولا يقال عندئذ: «نعم» أو «لا»، وفي السؤال عن الفعل أجماع محمد أم تخلف؟ فيقال: جاء أو تخلف وعن المفعول: أعمراً ضربت أم زيداً؟ فيجواب: عمراً أو زيداً وعن الظرف: أفي البيت زارك عمرو أم في المدرسة؟ فيجواب: في البيت أو في المدرسة.

وقد يستغنى عن المعادل إذا دل عليه دليل، كما في قوله تعالى: ﴿ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِأَهْلِنَا يَا زَيْدُ﴾ [الأنبياء: ٦٢]، فالسياق وقرائن الأحوال تدل على أن المستؤل عنه هو الفاعل، حيث أشاروا إلى الفعل «هذا» فهو معلوم لهم، وهم يشاهدون الأصنام محطمة ويجهلون الفاعل، ولذا ولي الفاعل الهمزة «أأنت» والمعنى: أنت فعلت هذا أم غيرك؟ وقد أجابهم -عليه السلام- معيّنًا لهم الفاعل على سبيل التهكم ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَسْتَلُوهُمْ﴾ [الأنبياء: ٦٣].

وينبغي أن يراعى عند ذكر المعادل بعد «أم» المتصلة أن يكون موافقًا لما بعد الهمزة وألا يتناقض معه، على نحو ما ترى في الآيات الكريمة ﴿يَصْنَعِي السَّجِنِ ءَأَزْنَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَّاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩]، ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ [مريم: ٧٨]، ﴿قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٠]، ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ بُنِعٍ﴾ [الدخان: ٣٧]، ﴿لِيَتَّبِعُونَ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: ٤٠]، حيث تجد أن ما بعد «أم» مماثل لما بعد الهمزة.

ولذا كان من الخطأ أن تقول: أزيداً أكرمت أم أهنت... أأكرمت زيداً أم عسراً... أجماعك خالد أم علي... لتناقض ما بعد الهمزة مع ما بعد «أم» المتصلة، وهو

ليس تناقضًا في تركيب العبارة فحسب، بل تناقض واضطراب في الإدراك والوعي؛ إذ تقديم المفعول مثلاً في قولك: أزيدياً أكرمت؟ نبئى بأنك تجهل المفعول وتتصور الفعل وهو الكرم والفاعل وهو المخاطب، فلو قلت بعد ذلك: «أم أهنت» أو قلت: «أم خالد» بالرفع تناقضت العبارة وتناقض فهمك واضطرب إدراكك لما تقول.

وعليك أن تعلم أن الفعل إذا حدد وعين كان الشك في الفاعل والجهل به كقولك: أنت بنيت هذه الدار؟ ولا يصح قولك: أنبت هذه الدار؟، لأن تحديد الفعل وتعيينه بالإشارة إليه يجعله معلوماً ويجعل الشك في الفاعل، وتقديم الفعل وإيلاءه الهمزة ينفي ذلك ويجعل الشك في الفعل وهذا تدافع وتناقض، فإذا أردت الاستفهام عن الفعل ينبغي عليك ألا تحدده، بل تتركه بلا تحديد، كأن تقول: أنبت الدار التي كنت علي أن تبنيها؟ أقلت الشعر الذي عزمت على قوله؟ ولا يصح أن تسأل عن فاعل هذا الفعل غير المحدد فلا تقول: أنت بنيت الدار التي كنت علي أن تبنيها؟ أنت قلت الشعر الذي عزمت على أن تقوله؟... لأن تقديم الفاعل يدل على أن الفعل قد وقع والمطلوب معرفة فاعله، وقولك: التي كنت علي أن تبنيها... الذي عزمت على أن تقوله، يدل على أن الشك في الفعل. وهذا تناقض.

فالسؤال عن الفاعل يقتضي بالضرورة معرفة فعل محدد معين حتى يقال في الجواب: «فعله فلان»، ولا يعقل أن يسأل عن فاعل فعل غير محدد، فلا يقال: أنت أكلت طعاماً؟... أنت رأيت اليوم إنساناً؟... أنت قلت شعراً؟ وإنما يسأل في مثل هذا عن الفعل فيقال: أأكلت طعاماً؟... أ رأيت اليوم إنساناً؟... أقلت شعراً؟.

هذا وقد ذكر سيبويه أن قولك: أزيد عندك أم عمرو؟ أزيدياً لقيت أم بشرًا؟ أفضل وأحسن. فإن قلت: أعندك زيد أم عمرو؟ ألقىت زيداً أم بشرًا؟ كان حسناً -جانزاً^(١).

وهذا الذي ذكره سيبويه يتناقض مع ما قاله البلاغيون، لأنهم أوجبوا إيلاء المستنهم عنه الهمزة - كما رأيت - وسيبويه يجوز تأخيرها، بل يعده حسناً.

(١) انظر الكتاب ج ٣ ص ١٦٩.

ويمكن أن يجاب عن ذلك بأن ما أجازته سيبويه كان في مراحل سابقة، اللغة فيها تنمو، والتراكيب تتطور، ثم إن الترقى في التراكيب الهادف إلى تنقية الصياغة قد تجاوز ذلك إلى الصورة المنضبطة التي قررها البلاغيون ورفضوا ما عداها مما أجازته سيبويه واستحسنه، وإشارة سيبويه إلى أن هناك تركيبين يفيدان هذا المعنى أحدهما أفضل من الآخر وأحسن، توحى بصحة هذه الإجابة^(١).

وقد يكون السؤال بالهمزة عن الفعل ويلي الهمزة غيره لغرض بلاغي وهو المبالغة في الإنكار، وتأكيد الردع والزجر، وذلك عندما يلي الهمزة ويعطف على ما وليها الفاعل أو المفعول أو الظرف الذي ليس للفعل غيره، كقولك: أفي ليل وقع هذا أم في نهار؟ فأنت لا تسأل عن الظرف، وإنما تنكر وقوع الفعل، ولم يل الفعل الهمزة كما ترى، بل وليها وعطف على ما وليها الظرف الذي ليس للفعل ظرف سواء، فإذا ما انتفى الظرف الذي لا ظرف يقع فيه الفعل غيره، كان هذا أبلغ في انتفاء الفعل، وأشد إنكارًا وأقوى ردعًا لمن يدعي وقوعه...

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ قُلْ ءَآلَ الذَّكَرَيْنِ حَرَمٌ أَمِ الرِّبِّيعَيْنِ أَمْ ءَأَسْتَمَلْتُمْ عَلَيْهِ أَزْحَامَ الرِّبِّيعَيْنِ ﴾ [الأنعام: ١٤٤].

وقوله عز وجل: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنَ رِزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ ءَأَللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾ [يونس: ٥٩].

فالمعنى على إنكار «التحريم» و«الإذن» وقد ولي الهمزة غيرهما مبالغة في الإنكار والزجر؛ لأنه إذا انتفى المفعول الذي ليس للفعل مفعول غيره، في الآية الأولى والفاعل الذي ليس للفعل فاعل سواء في الآية الثانية، كان ذلك أبلغ في انتفاء الفعل، وأشد ردعًا وأقوى زجرًا، لمن ادعى وجوده وثبوته^(٢).

(١) أرجع إلى دلالات التراكيب ٢١٩.

(٢) انظر دلائل الإعجاز ص ١٤٧.

هل

أما «هل» فإنها لطلب التصديق فحسب، تقول: هل قام زيد؟، وهل عمرو ناجح؟، ففسأل عن نسبة القيام للأول والنجاح للثاني. ولذا يكون جوابك: نعم أو لا، أي: بإفادتك ثبوت النسبة أو نفيها... ولما كانت «هل» لطلب التصديق فحسب: فقد ترتب على ذلك ما يلي:

١- امتناع أن يذكر بعدها معادل «أم» المتصلة، فلا يقال: هل زيد قائم أم عمرو؟ لأن «هل» تدل على أن مضمون الجملة وهو النسبة غير معلومة وأن السؤال عنها، ووقوع المفرد بعد «أم» دليل على أن «أم» متصلة، و«أم» المتصلة تدل على أن مضمون الجملة معلوم وأن المطلوب هو تعيين أحد الأمرين: المفرد الذي قبلها أو المفرد الذي بعدها، والسؤال عن ذلك إنها يكون بهمة التصور: أزيد قائم أم عمرو؟ فالجمع بين «هل» و«أم» المتصلة في مثال واحد يؤدي إلى التناقض... ويصح اجتماع «هل» و«أم» المنقطعة، لأنها بمعنى بل، فالكلام بعدها مستقل عما قبلها.

ومن ذلك قول مالك بن الربيع التميمي:

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ تَغْيَّرَتِ الرَّحَا رَحَا الْحَرْبِ أَمْ أَضَحَّتْ بِفَلْجِ كَمَا هِيَ

«فأم» في البيت منقطعة، وقد ذكرت بعد هل - كما ترى - والمعنى: هل تغيرت الرحا: رحا الحرب؟ بل أوضحت بفلج كما هي؟ فهذا كلامان.

فإن وردت «أم» بعد «هل» وكان بعد «أم» المفرد، وجب تأويله بالجملة، وجعل «أم» منقطعة للإضراب مع استفهام آخر مقدر، من ذلك ما روي أنه ﷺ قال لجابر: «هَلْ تَزَوَّجْتَ بِكْرًا أَمْ ثَيِّبًا؟» فقال جابر: تَزَوَّجْتُ ثَيِّبًا، قال ﷺ: «فَهَلَّا تَزَوَّجْتَ بِكْرًا ثَلَاغِيهَا وَثَلَاغِيكَ؟»^(١)، فالمعنى: بل هل تزوجت ثيبًا؟ ولذا لو قيل في المثال المذكور: هل قام زيد أم عمرو؟ إن المعنى: بل هل قام عمرو؟ لجاز ذلك وصح.

٢- يقبح استعمال «هل» في كل تركيب يتقدم فيه المسند إليه على الخبر الفعلي

(١) رواه البخاري في الجهاد برقم (١١٣) / (٢٩٦٧).

أو المفعول على الفعل كقولك: هل زيد قام؟ وهل زيدًا أكرمت؟ ووجه قبحه عند الجمهور، أن التقديم في هذين الحالين، قد يكون للاختصاص، والاختصاص يقتضي وقوع النسبة والعلم بها، وأن المراد هو السؤال عن الفاعل أو المفعول، وهل لا يؤتى بها لهذا، بل هي للتصديق، أي طلب العلم بالنسبة، فإذا كانت النسبة معلومة، عند دلالة التقديم على الاختصاص، كانت «هل» لطلب حصول الحاصل، وهذا عبث...

وظاهر هذا الوجه المنع، ولكنهم عدوه قبيحًا لاحتمال أن يكون التقديم لمجرد الاهتمام بالمقدم، لا للتخصيص الذي يقتضي العلم بالنسبة، أو لاحتمال تقدير فعل محذوف دل عليه المذكور، فعلى الاحتمال الأول وهو جعل التقديم لمجرد الاهتمام بالمقدم يكون على خلاف الغالب، إذ الغالب في تقديم المفعول على الفعل أو المسند إليه على خبره الفعلي أن يكون للتخصيص، ومخالفة الغالب قبيحة، وعلى الاحتمال الثاني، يكون الفعل الظاهر قد منع من العمل بلا شاغل عنه وذلك قبيح.

ورجح العلامة سعد الدين أن وجه عدم امتناعه هو الاحتمال الثاني دون الأول، لأننا لو قلنا إن التقديم في: هل زيد قام وهل زيدًا أكرمت للاهتمام، لم يكن هنالك وجه لعدوه قبيحًا، وإلا للزم أن يكون التقديم للاهتمام قبيحًا مطلقًا ولا قاتل به^(١).

وأما قولك: هل زيدًا أكرمته؟ فهو صحيح لا قبح فيه، لان الفعل هنا مشغول عن الاسم المنصوب بضميره، والكلام على تقدير فعل محذوف هو الناصب لزيد، ويكون هذا الفعل مقدمًا على المنصوب، وبهذا تكون هل قد وليها الفعل، فلا قبح.

وكما يقبح دخول هل على المعرفة وبعدها فعل، فإنه يقبح دخولها على النكرة المتلوة بفعل نحو: هل رجل سافر؟ لنفس الأسباب المذكورة... والقبح هنا في تقديم النكرة باتفاق البلاغيين، لأنه يفيد الاختصاص على مذهب السكاكي، إذ يرى أن الأصل: هل سافر رجل، فرجل فاعل في المعنى، إذ هو بدل من الضمير

(١) انظور ص ٢٢٨.

المستتر في سافر، وقد قدم من تأخير، أما قولك: هل زيد قام فالتقديم فيه لا يفيد الاختصاص على مذهب السكاكي، لأنه ليس مقدماً عن تأخير، ولو تأخر لكان فاعلاً في اللفظ لا في المعنى، فلم يتوفر الشرطان اللذان ذكرهما لإفادة التقديم: الاختصاص، كما توفرا في تقديم النكرة، فكان يلزم ألا يكون تقديم المعرفة في: هل زيد سافر، قبيحاً على مذهب السكاكي حيث جعل علة القبح التقديم المفيد للاختصاص، ولكن هذا التقديم قبيح بإجماع النحاة.

فهل هناك تعليل آخر لهذا القبح المجمع عليه، لا يرتبط بدلالة الاختصاص التي لم يقرها السكاكي؟ نعم هناك تعليل آخر - وإن لم يذكره السكاكي - يرجع إلى طبيعة هل وأصلها، لا إلى دلالة الاختصاص التي يحتملها التقديم، فقد قالوا: إن «هل» في الأصل بمعنى قد، وكانت ترد مسبوقة بالهمزة فيقال: أهل جاء زيد...

ومن ذلك قول خطام المجاشعي:

أَهْلٌ عَرَفَتِ الدَّارَ بِالغَرِيِّينَ لَمْ يَنْقَ مِنْ آيٍ بِهَا يُحَلِّينَ
غَيْرَ خَطَامٍ وَرَمَادٍ كِنْفَيْنِ وَصَالِيَاتٍ كَكَمَا يُؤْتَفَيْنِ^(١)

وقول زيد الخيل الطائي (ت: ٩ هـ):

سَائِلٌ فَوَارِسٌ يَزُبُّوعٍ بِشِدَّتِنَا أَهْلٌ رَأُونَا بِسَفْحِ القَاعِ ذِي الأَكَمِ^(٢)

فلما طالت ملازمتها الهمزة تشربت منها معنى الاستفهام، فسقطت الهمزة وبقيت هل دالة عليه، ولما كانت قد لا تدخل إلى على الأفعال، كانت كذلك «هل» التي بمعناها.

وعلى ذلك إذا وجد الفعل في التركيب، وجب مراعاة معنى «هل» الأصلي في

(١) الغرّيان: بناءان طويلان هما قبر مالك وعقيل نديمي جذيمة الأبرش وسميا بالغرّيين، لأن النعمان بن المنذر كان يغريهما بدم من يقتله يوم يؤسه، والخطام: الزمام، والحبل يعلق في حلق البعير، وناحيتا كل شيء: كنفاه، والجمع: أكتاف والمفرد: كنف وكنتفة. والأثنية: الحجر الذي توضع عليه القدر وجمعه أثاف، يقال: أثفت القدر ونثمتها: جعلت لها الأثافي... والمراد: وصف المكان بأنه لم يعد به أية آية أو علامة... صار خراباً لا ترى به إلا جبالاً بالية ورماداً وحجارة في جوانبه وأكتافه. انظر لسان العرب مادة كغرا.

(٢) الأكمة: الموضع الذي يكون أشد ارتفاعاً مما حوله.

لزوم إيلائها الفعل، وإن لم يوجد الفعل أصلاً في التركيب، روعي في «هل» معنى الاستفهام الذي استمدته من الهمزة، فجاز دخولها على الاسم، ولذا لا يقبح أن يقال: هل زيد قائم؟ وإنما يقبح أو يمتنع نحو قولك: هل زيد قام؟ ... والفرق بين التركيبين، أنها إذا رأت الفعل في حيزها تذكرت عهداً بالحمى وحتت إلى الإلف المألوف وعانقته ولم ترض بافتراق الاسم بينهما سبيلاً، بخلاف ما إذا لم تره في حيزها، فإنها تتسلى عنه ذاهلة^(١).

هذا ونجد أن ما قبحه البلاغيون والتمسوا العلل المذكورة في بيان وجه قبحه، نجده يرد في كلام أهل الفصح من الشعراء...

كما في قول علقمة الفحل:

هَلْ مَا عَلِمْتَ وَمَا اسْتَوَدَعْتَ مَكْتُومٌ أَمْ حَبْلُهَا إِذْ نَأَتْكَ الْيَوْمَ مَضْرُومٌ
أَمْ هَلْ كَبِيرٌ بَكَى لَمْ يَقْضِ عَبْرَتَهُ إِئْسَرِ الْأَجْبَةِ يَوْمَ الْبَيْنِ مَشْكُومٌ

وقول ابن الرومي في رثاء ولده:

هَلِ الْعَيْنُ بَعْدَ السَّمْعِ تَكْفِي مَكَانَهُ أَمْ السَّمْعُ بَعْدَ الْعَيْنِ يَهْدِي كَمَا تَهْدِي

بل نراه قد ورد في أي الذكر الحكيم... في قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَدْكُرُوا بِنِعْمَتِ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٣]، ولهذا كان ينبغي ألا يصف البلاغيون تلك التراكيب بالقبح، بل الأولى أن يقال: إنها قليلة ونادرة، فإنه إذا جاز أن نصف ما ندر وروده على ألسنة البشر بالقبح والكدارة، فلا يجوز أن نطلق ذلك على ما ورد في القرآن الكريم، بل ينبغي الاحتراس وتنزيه أساليب القرآن الكريم عن مثل هذه الأوصاف^(٢).

٣- ومن خصائص «هل» أنها إذا دخلت على الفعل المضارع خلصته للاستقبال، ولذا لا يجوز أن تقول: هل يقوم زيد الآن، لأن في ذلك تدافعاً في بناء الجملة، إذ «هل» تمحضها للاستقبال والتقييد بلفظ «الآن» يجعلها للحال، وكأنك

(١) انظر المطول ص ٢٢٩.

(٢) ارجع إلى أساليب الاستفهام في القرآن ص ٧.

تقول: هل يقوم بعد الآن؟ ثم تقول: الآن، وهذا تناقض واضطراب، وكذا إذا دلت قرينة حالية على أن المضارع مراد به الحال، كقولك: هل تسيء إلى صاحبك؟ إذا دل الحال على وقوع الإساءة، ولهذا لا تقع هل موقع الهمزة في مثل قوله تعالى: ﴿ أَتْلَزِمُكُمْوهَا وَأَتَشْرُهَا كَرِهُونَ ﴾ [هود: ٢٨]، وقوله عز وجل: ﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْجُثُونَ ﴾ [الصافات: ٩٥]، وكل ما دل فعله على الحال.

وهذا الذي قاله البلاغيون نراه منخرمًا، إذ نجد في كثير من آيات الذكر الحكيم دخول «هل» على المضارع والقرائن تدل على أن المضارع أريد به الحال... تأمل الآيات الكريمة: ﴿ هَلْ تَنفِقُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ ﴾ [المائدة: ٥٩]، ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرِيكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ أَنصَرَفُوا ﴾ [التوبة: ١٢٧]، ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ﴾ [الرعد: ١٦]، ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ يُحْسِبُ مِنْهُم مِّن أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْرًا ﴾ [مريم: ٩٨]، ﴿ وَأَنْزَلْنَا الْجَنَّةَ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٠﴾ وَبَرَزَتْ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿١١﴾ وَقِيلَ لَهُمَ آيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿١٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُم أَوْ يَنْتَصِرُونَ ﴿١٣﴾ فَكَيْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [الشعراء: ٩٠ - ٩٤]، ﴿ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ﴾ [الحاقة: ٨].

فبينما النظر في هذه الآيات الكريمة، وغيرها كثير نجد أن المضارع بعد «هل» قد أريد به الحال، ولم تتمحض دلالاته للاستقبال، ولذا كان ينبغي ألا يُبني ذلك على القطع والإطلاق، بل على الغالب والاحتمال فيقال مثلاً: إن «هل» إذا دخلت على الفعل المضارع فإنه -غالبًا- يراد به الاستقبال، وقد يراد به الحال، أما القطع بأنها تمحضه للاستقبال، فهو مردود بنحو الآيات الكريمة التي أشرنا إليها^(١).

وما تقدم يتضح لك أن «هل» لها مزيد اختصاص بالأفعال، وأن ذلك يرجع إلى الأمور الآتية:

١- أنها في الأصل بمعنى «قد» وقد لا تدخل إلا على الأفعال، فكذلك ما هو بمعناها.

(١) ارجع إلى أساليب الاستفهام في القرآن ص ٩٤.

٢- تأثيرها في بعض أنواع الفعل وهو المضارع بتخليصه -غالبًا- للاستقبال.
 ٣- اختصاصها بطلب التصديق وهو إدراك النسبة، وهذا بطبيعته يتوجه إلى المعاني لا إلى الأفراد، أي: إلى الفعل دون الاسم؛ لأن الحكم بالثبوت أو الانتفاء يتوجه إلى الحدث الذي هو جزء من مفهوم الفعل، إذ الفعل حدث وزمن.
 ولكون «هل» لها مزيد اختصاص بالأفعال، فإنه لا يعدل عن الفعل إلى الاسم بعدها إلا لنكتة بلاغية... وهي أن يجعل ما يحدث ويتجدد، الذي هو مفاد الجملة الفعلية، أو يجعل ما سيوجد باعتبار «هل» تخلص المضارع في الغالب للاستقبال، يجعل هذا في معرض الكائن الحاصل الذي هو مفاد الجملة الاسمية، اهتمامًا بشأنه واعتناء بأمره، وذلك بناء على قول البلاغيين: إن الجملة الفعلية تفيد التجدد والحدوث، والجملة الاسمية تفيد الثبوت والدوام.

تأمل قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمْتُهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِيُخَفِّيَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴾ [الأنبياء: ٨٠]. وقوله عز وجل: ﴿ فَلَقُلْ إِنَّمَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٨] تجد أن قوله: «هل أنتم شاكرون»، «فهل أنتم مسلمون» أدل على طلب حصول الشكر والإسلام من قولك: فهل تشكرون؟ فهل تسلمون؟ أو فهل أنتم تشكرون؟ فهل أنتم تسلمون؟ وذلك لأن الجملة الاسمية تفيد التوكيد وتدل على معنى أوفى مما تدل عليه الجملة الفعلية، ولأن إبراز ما يحدث ويتجدد في معرض الحاصل الثابت أقوى دلالة على الاهتمام بشأنه وكمال العناية بحصوله من إبقائه على أصله. وكذا من قولك: أفأنتم شاكرون؟ أفأنتم مسلمون؟، وإن كانت صيغته للثبوت -كما ترى- لأن «هل» نزاعة إلى الفعل وأدعى له من الحمزة، فتركه معها أدل على كمال العناية بحصوله وشدة الاهتمام بوقوعه.

ولهذا قال البلاغيون: إن قولك: هل زيد منطلق، أقوى دلالة على طلب حصول الانطلاق والاهتمام بوقوعه من أن تقول: أزيد منطلق؟ ... وقالوا: إن العدول عن الحمزة إلى «هل» في مثل هذا المثال لا يحسن إلا من البليغ، لأنه هو الذي يلتفت إلى تلك الدقائق ويراعي هذه النكات البلاغية ويقدر على تطويع الكلام وتكييف العبارات وصياغتها على حسب ما يقتضيه المقام.

ومن الفروق الدقيقة بين همزة التصديق و«هل» أن الهمزة لا يستفهم بها حتى يهجس في النفس إثبات ما يستفهم عنه، فأنت لا تقول: أجاى عمرو؟ إلا ولديك شعور قوي بمجيئه، أما «هل» فإنه لا يترجح فيها إثبات ولا نفي، فعندما تقول: هل جاء عمرو؟ لا يكون لديك ترجيح لمجيئه أو عدم مجيئه، فالنسبة المطلوبة بالهمزة يترجح فيها لدى السائل إثباتها ووقوعها، ويكون عنده هواجس قوية ترجح الإثبات على النفي، أما النسبة المطلوبة بهل فلا يترجح فيها إثبات ولا نفي^(١).

بقية أدوات الاستفهام

وبقية أدوات الاستفهام للتصور فحسب، فيسأل بها عن معانيها، ويكون الجواب عنها بتعيين المستفهم عنه، ولذا لا يلتزم في بناء الجمل معها سوى الضبط العام في النظام الإعرابي لصياغة الجمل، مع مراعاة تصدر تلك الأدوات، فليس وراء بناء الجمل مع تلك الأدوات دقائق ينبغي مراعاتها، كما هو الحال بالنسبة للهمزة و«هل».

«فمن»: يطلب بها تصور من يعقل أو من يعلم، كقولك: من عندك؟ من فتح بلاد الأندلس؟ فيقال في جواب الأول: زيد، وفي جواب الثاني: القائد البطل طارق بن زياد... ولك أن تقول في جواب الأول العالم الصادق... وفي جواب الثاني: القائد البطل الذي لا تخفى على أحد بطولاته وتفانيه في نشر دين الله... أي أن الجواب يكون إما بذكر الذات المستفهم عنها، وإما بذكر الأوصاف الخاصة بالمستفهم عنه، المشخصة له.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ قَالَ فَمَنْ رُبُّكُمْ يَا مُوسَىٰ ﴾ ٥٠، [طه: ٤٩، ٥٠]، فقد أجاب موسى -عليه السلام- ببيان الصفات الخاصة برب العزة المنفرد بها سبحانه وتعالى... وانظر في قوله عز وجل: ﴿ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ ٦٠، [الأنبياء: ٥٩، ٦٠]، وقوله عز من قائل: ﴿ فَأَمَّا عَادُ فَاشْتَكَبُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا

(١) ارجع إلى أساليب الاستفهام في القرآن ص ٨٩

مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴿ [فصلت: ١٥]، وواضح في الآيتين الكريمتين أن الجواب قد اشتمل على ذكر الذات المستفهم عنها.

و«ما» يستفهم بها عن غير العقلاء، فيطلب بها بيان الذات كقوله تعالى: ﴿ وَمَا تَلَكَ يَمِينِكَ يَمْوَسَىٰ ﴾ [طه: ١٧، ١٨]، وقوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، و«ما» يستفهم بها عن غير العقلاء، فيطلب بها بيان حقيقة المسمى وصفته كقولك: ما زيد؟ فيجاب عالم أو طويل.

ومنه قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴾ [الأنبياء: ٥٢، ٥٣] وقوله تعالى: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الشعراء: ٢٣]، ﴿ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٢٣]، [٢٤].

فالمراد بالاستفهام في الآيتين بيان حقيقة المسمى وصفته التي يعرف بها وقد جاء الجواب على خلاف ما يقتضي الاستفهام في الآية الأولى، وعلى خلاف ما يريد السائل ويتوقع في الآية الثانية^(١).

ويطلب بها أيضًا إيضاح الاسم نحو: ما العسجد؟ فيجاب: الذهب.

«متى»: ويستفهم بها عن الزمان ماضيًا كان أو مستقبلًا، كقولك: متى حضرت؟ ومتى تسافر؟ ومتى الامتحان؟ ومنه قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [يس: ٤٨].

«آيان»: ويستفهم بها عن الزمان المستقبل وتستعمل في مواضع التفتيح والتهويل كقوله تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَ آيَانَ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ [الذاريات: ١٢].

«أين»: ويسأل بها عن المكان، كقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصْرُ ﴾ [القمر: ١٠]، ﴿ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾ [الفرقان: ١٠]، ﴿ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ النَّارُ ﴾ [القيامة: ١٠].

(١) ارجع إلى أساليب الاستفهام في القرآن ص ٣٠٩.

«كيف»: ويسأل بها عن الحال كما في قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَانًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨].

«أنى»: وتكون بمعنى كيف كقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلْمٌ وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ وَأُمْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ [آل عمران: ٤٠].

وبمعنى من أين كقوله تعالى: ﴿يَمْرُؤُا أَنَّى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٣٧].

وبمعنى متى كما في قوله تعالى: ﴿بَسَأُوكُمْ خَزَنَةٌ لَّكُمْ فَأَتُوا خَزَنَتَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، (فأنى) في الآية الكريمة تحمل المعاني الثلاثة، أي: متى شئتم، وكيف شئتم، ومن أين شئتم، على أن يكون الإتيان في موضع الحرث.

«كم»: ويستفهم بها عن العدد كقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لَبِيسًا لِّوَأَيُّنَهُمْ قَالِ قَابِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِئْتُمْ قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [الكهف: ١٩].

ومنه قول الفرزدق يهجو جريرا:

كَمْ عَمَّةٌ لَكَ يَا جَرِيرٌ وَخَالَةٌ فَدَعَاءٌ قَدْ حَلَبَتْ عَلَيَّ عِشَارِي

في رواية من نصب «عمة» و«خالة»، ومعنى «فدعاء»: من الفدع، وهو عوج في المفاصل، والعشار: مفردها عشراء، وهي الناقة النفساء أو التي مضى حملها عشرة أشهر^(١).

«أي»: وتستعمل في تمييز أحد المتشاركين في أمر يعمها، كما في قوله تعالى: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم: ٧٣].

ويسأل بها أيضًا عن تمييز الزمان أو المكان أو الحال أو العدد، وكذا عن تمييز العاقل وغير العاقل، فهي تكتسب معنى ما تضاف إليه، فتقول في السؤال بها عن تمييز الزمان: في أي يوم عاد البطل؟ وعن المكان: في أي مكان نلتقي؟ وعن الحال: على أي حال تركت أباك؟ وعن العدد: إلى أي عدد بلغت دراهمك؟ وعن العاقل: أي الرجلين أكبر سنًا؟ وعن غير العاقل: أي جواد امتطيت؟

(١) يهجو جريرا بعامة وخالاته حيث ذمهن من جهتين: وصفهن بالفدع وهو عوج مفاصلهن تقيحًا لهن... وجعلهن خدما عنده يجلبن عشاره، وفي هذا حط من شأنهن.

تلك هي معاني أدوات الاستفهام وهي وإن كانت لا تخلو من فوائد ودقائق واعتبارات بلاغية، وبخاصة بناء الجمل مع الهمزة، وهل، إلا أن جل اهتمام البلاغيين يتجه إلى المعاني التي تفيدها أساليب الاستفهام، فتعالوا ننظر في هذه المعاني البلاغية.

المعاني البلاغية للاستفهام

يفيد الاستفهام كثيرًا من المعاني البلاغية، كالإنكار والتعجب والاستبعاد والتهديد والتهكم والتحقير ونحو ذلك، وكثير من البلاغيين وبخاصة المتأخرين منهم يطلقون على هذه المعاني: «المعاني المجازية للاستفهام» ونحن لا نوافقهم على هذه التسمية، ولا نرتضي هذا الإطلاق، ولا نقر أن تلك المعاني البلاغية التي يفيدها الاستفهام معانٍ مجازية، وذلك للأسباب الآتية:

١- أن المتقدمين من البلاغيين لم يتحدثوا عن وجه دلالة الاستفهام على تلك المعاني، وإنما بينوا أنها معانٍ تستنبط من سياق الكلام والوقوف على قرائن أحواله، أما وجه الدلالة، فقد شاع الحديث عنه بين المتأخرين الذين تكلفوا وأسرفوا في التقاط العلاقات بين المعنى الأصلي للاستفهام والمعاني البلاغية التي يفيدها، وقد أتعبوا أنفسهم وأتعبوا الدارسين معهم في محاولة الوصول إلى علاقات بين طلب الفهم وبين هذه المعاني دون أن يصلوا إلى شيء مقنع^(١).

٢- أن المعنى الأصلي للاستفهام وهو طلب الفهم من المخاطب وإثارته وتحريك ذهنه يظل باقيا عند إفادة الاستفهام لتلك المعاني البلاغية، ومزية أداء هذه المعاني بطريق الاستفهام على أداؤها بطرقها المعهودة، ترجع إلى بقاء معنى الاستفهام في تلك الأدوات، ولذا يذكر الفراء في كتابه «معاني القرآن» عند حديثه عن الآية الكريمة: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَانًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨] أن الاستفهام فيها قد دخله وشابه معنى التعجب فلم يعد استفهامًا محضًا، بل صار استفهامًا غير

(١) ارجع إلى البلاغة القرآنية في تفسير الكشاف ص ٣٠٢.

محض^(١)، وهذا دليل على أن معنى الاستفهام ظل باقياً عند إفادة الأسلوب لمعنى التعجب.

ويقول عبد القاهر بعد ذكره لجملة من المعاني البلاغية التي يفيدها الاستفهام: «واعلم أنا وإن كنا نفسر الاستفهام في مثل هذا بالإنكار، فإن الذي هو محض المعنى أنه ليتنبه السامع حتى يرجع إلى نفسه فيخجل ويرتدع ويعمي بالجاب، إما لأنه قد ادعى القدرة على فعل لا يقدر عليه، فإذا ثبت على دعواه قيل له: «فافعل» فيفضحه ذلك، وإما لأنه هم بأن يفعل ما لا يستصوب فعله، فإذا روجع فيه تنبه وعرف الخطأ، وإما لأنه جوز وجود أمر لا يوجد مثله، فإذا ثبت على تجويزه وبخ على تعنته وقيل له: فأرنا في موضع وفي حال وأقم شاهداً على أنه كان في وقت.

ولو كان يكون للإنكار وكان المعنى فيه من بدء الأمر، لكان ينبغي ألا يجيء فيما لا يقول عاقل إنه يكون حتى ينكر عليه، كقولهم: أتصعد إلى السماء؟ أتستطيع أن تنقل الجبال؟ إلى رد ما مضي سبيل؟

وإذ قد عرفت ذلك فإنه لا يقرر بالمحال وبها لا يقول أحد إنه يكون إلا على سبيل التمثيل وعلى أن يقال له إنك في دعواك ما ادعيت بمنزلة من يدعي هذا المحال، وإنك في طمعك في الذي طمعت فيه بمنزلة من يطمع في الممتع...^(٢).

فهو يشير إلى أن الاستفهام عند إفادته لمعانيه البلاغية يظل باقياً فيه معنى التنبيه وإثارة ذهن المخاطب ولفته إلى موضع التعجب أو الإنكار أو التقرير، حتى يتأمل ويتدبر ويعلم أنه لا جواب لهذا الاستفهام إلا بالإذعان للمعنى الذي يلفته إليه... كما في الأمثلة التي ضربها.

٣- عندما تنظر بإنعام إلى تلك المعاني البلاغية التي يفيدها الاستفهام لا تستطيع أن تقول: إن الأسلوب الاستفهامي يفيد معنى واحداً كالتعجب مثلاً، بل ترى عدة معان تنبعث من الأسلوب الاستفهامي... تأمل الآية السابقة ﴿كَيْفَ

(١) ارجع إلى معاني القرآن ١ / ٢٣.

(٢) دلالات الإعجاز ١٥١.

تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَنًا فَأَحْيَكُمُ ۗ ﴿ [البقرة: ٢٨]، نجد أن الاستفهام بها يفيد إنكار الكفر والتعجب من وقوعه والتوبيخ والاستبعاد والتوعد، وغير ذلك من المعاني التي تنبعث من الأسلوب وتشع منه...

فلو قلنا إن إفادة الاستفهام في الآية الكريمة لمعنى التعجب إفادة مجازية والتمسنا علاقة بين طلب الفهم والتعجب، فكيف أفاد غير التعجب؟ أو فماذا نقول في إفادته لبقية المعاني التي أفادها؟

٤- إن المتأخرين أنفسهم الذين قالوا بمجازية هذه المعاني وجدوا في التماس العلاقات لبيان وجه المجاز، تراهم مترددين، وكأنهم غير مقتنعين بما يقولون، فهم يذكرون وجوهاً من الاحتمالات، قد يكون أحدها أقرب من غيره أو أقل إغراباً منه، فالعلاقة بين طلب الفهم ومعنى الاستبطاء مثلاً في قوله تعالى: ﴿مَتَى نَصْرُ اللهِ﴾ [البقرة: ٢١٤]، هي اللزومية، فهو مجاز مرسل علاقته اللزوم من استعمال اللزوم في اللازم، لأن السؤال عن الشيء يستلزم الجهل به، والجهل به يستلزم كثرته عادة أو ادعاء، وكثرته تستلزم بعد زمن الإجابة عن زمن السؤال والبعد يستلزم الاستبطاء...

هكذا يبحرون في التقاط والتماس تلك العلاقات... وليت وراء هذا الإبحار صيداً يشبع النفس ويمتعها ويربي فيها ملكة التذوق، إنه ليس وراءه إلا التعب وكد الذهن بلا فائدة مرجوة ولا ثمرة مرتقبة، ثم تراهم إذا عجزوا عن الوصول إلى علاقة بين طلب الفهم والمعنى الذي هم بصدد الحديث عنه، تراهم يقولون: إن المعنى هنا مفاد عن طريق الكناية أو عن طريق مستبعات التراكيب^(١).

فما كان أحرى بهؤلاء المتأخرين أن يلتزموا طريقة المتقدمين التي أشرنا إليها عند الفراء وعبد القاهر، وأن يدعوا بأن الاستفهام قد دخلته هذه المعاني وشابته وصار بإفادته لها استفهاماً غير محض، إذ التنبيه وإيقاظ المخاطب وحته على التأمل الذي هو لب الاستفهام، لا يفارقه عند إفادة تلك المعاني... وهذا هو الذي نراه، ندعو إليه... ندعو إلى تأمل هذه المعاني في سياقاتها الجيدة وتراكيبها الرفيعة،

(١) ارجع إن شئت إلى شروح التلخيص ٢ / ٢٩١، والمطول ص ٢٣٥.

والوصول إليها عن طريق تأمل السياق وإنعام النظر فيه ومعرفة قرائن أحواله، وإبهاات تراكيبه، فهذا هو الذي يربي وينمي ملكة التذوق لدى الدارس.

فتعالوا نظروا في هذه المعاني البلاغية التي يفيدها الاستفهام ونحاول أن ندرکها ونتذوقها من خلال السياق وما ينبئ به.

١ - الاستبطاء

نجد هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمُ الْأَسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٤]، إذ الخطاب في الآية الكريمة للصحابة رضوان الله عليهم، والمعنى: أحسبتم أن تدخلوا الجنة بلا ابتلاء وتمحيص، وقد جرت سنة الله تعالى أن يتبلي عباده، فقد ابتلي الأمم قبلكم ابتلاء شديداً، ومستهم البأساء والضراء حتى قال الرسول وهو أعلم الناس بالله وأوثقهم بنصره، وقال الذين آمنوا معه -لشدة ما حل بهم ونزل-: متى نصر الله؟ فقد استطلوا مدة العذاب واستبطأوا مجيء النصر.

وسر التعبير بأسلوب الاستفهام في مقام الاستبطاء هو إظهار المعاناة من طول الانتظار وجذب انتباه السامع ودعوته للمشاركة والنظر فيما نزل وحل. ولا يخفى عليك ما للسياق في الآية الكريمة من إبراز وتصوير لحال هؤلاء القائلين وما حل بهم من ابتلاء وشدة جعلتهم يتطلعون إلى فرج الله ونصره الذي طال انتظارهم له.

ومن ذلك أن تقول وقد اشتد الحر وأنت صائم متى يؤذن لصلاة المغرب؟ أنت لا تجهل موعد الأذان والإفطار ولكنك تصور حالتك وطول انتظارك وترقبك هذا الوقت وتدعو المخاطب ليشاركك ما تعاني منه وتتطلع إلى تفرجه.

ومثله قولك وقد طال انتظارك للقطار: متى يصل القطار؟ وقولك لصاحب لك تدعوه كثيراً للحضور وهو يباطل ويتأخر ولا يجيب دعوتك: كم دعوتك؟ فأنت تستبطئ إجابته وتحثه على مراجعة نفسه ومعرفة تقصيره وخطئه.

ومنه قول المتنبي:

حَتَّامٌ نَحْنُ نُسَارِي النَّجْمَ فِي الظُّلْمِ وَمَا سُرَّاهُ عَلَيَّ خُفًّا وَلَا قَدَمٍ

نساري: من السرى وهو السير ليلاً، يقول: إلى متى نسري مع النجم في الليل. وهو لا يسري على خف كالإبل ولا على قدم كالناس فهو لا يتعب مثلنا ومثل مطايانا، فالمتنبي لا يسأل عن الزمان، ولكنه يستبطئ مجيء هذا اليوم الذي يصل فيه إلى هدفه ويحقق بغيته...

ومثله قول البهاء زهير:

أَمْوَلَايَ إِنِّي فِي هَوَاكَ مُعَذَّبٌ وَحَتَّامٌ أَبْقَى فِي الْعَذَابِ وَأَمْكُتُ

فهو يستبطئ ويتطلع إلى مجيء يوم الخلاص مما يعانيه.

٢ - الاستبعاد

وقد يراد من الاستفهام معنى "الاستبعاد" وهو عد الشيء بعيداً والفرق بينه وبين الاستبطاء: أن الاستبعاد متعلقه غير متوقع، أما الاستبطاء فمتعلقه متوقع والمستفهم يتطلع إلى وقوعه ومجيئه.

ومن الاستفهام الذي جاء مفيداً لهذا المعنى "الاستبعاد" قوله تعالى: ﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿١٣﴾ أَيَذَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا ﴿١٤﴾ ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿١٥﴾﴾ [ق: ٢ - ٣] فالكفرة يستبعدون البعث وينكرون وقوعه، وقد عبروا عن هذا الاستبعاد بصيغة الاستفهام التي طوى فيها البعث المستفهم عنه والتقدير: أنبعث إذا متنا وكنا تراباً؟ ذلك رجوع بعيد، وكأنهم يريدون أن يظل البعث هكذا سؤلاً مثاراً وتعجباً مقاماً يسأله كل كافر ويتعجب من وقوعه كل جاحد عنيد...

ومنه قوله تعالى: ﴿أَن لَّهُمُ الدُّرُكِيُّ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾﴾ [الدخان: ١٣ - ١٤]، والمعنى: من أين لهم التذكر والاعتبار والرجوع إلى الحق وقد جاءهم رسول جلي وبين لهم الحق فأعرضوا عنه واتهموه بالجنون، يريدون الآن أن يتذكروا وأن يكشف عنهم العذاب...؟ هيهات هيهات لقد مضى وقت التذكر والاعتبار... وفي ذلك إثارة لهؤلاء الكفرة وتنبية إلى ما هم فيه من غفلة وعناد ومكابرة، وحث لهم على قبول الهدى والانصياع للحق.

ومن ذلك قول أبي تمام:

مَنْ لِي بِإِنْسَانٍ إِذَا أَغْضَبْتُهُ وَجَهَلْتُ كَانَ الْجِلْمُ رَدَّ جَوَابِهِ

فهو يستبعد أن يوجد إنسان على هذا القدر من الحلم والصفح وقوة الاحتمال... وتقول: لقد صرنا في زمن أغبر، كثر فيه الظلم واعتداء القوي على الضعيف، صار الناس يظلم بعضهم بعضاً، ويأكلون أموالهم بينهم بالباطل، فمن يتقي الله اليوم في اليتيم؟ ومن يساعد المسكين؟ ومن يعيد الناس للانصياع إلى الحق المبين؟ فأنت تستبعد أن يوجد في هذا الزمان الأغبر من يقوم بواجبه تجاه دينه وتجاه اليتامي والمساكين.. تستبعد أن يوجد في هذا الزمان، من ينهض بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فيعيد الناس إلى إحقاق الحق وإبطال الباطل.

٣- التحسر

ويرد الاستفهام مراداً به معنى التحسر والتألم وذلك في مقام يظهر فيه المستفهم حزنه وتألمه وتحسره على ما فاته.

تأمل قول حافظ إبراهيم في وصف حريق:

سَأَلُوا اللَّيْلَ عَنْهُمْ وَالنَّهَارَ كَيْفَ بَاتَتْ نِسَاؤُهُمْ وَالْعَدَارَى؟

فهو يتحسر ويتفجع لهؤلاء المنكوبين الذين ساءت أحوالهم وأتى الحريق على ما يملكون من متاع ومأوى فباتوا هم وأهلهم في العراء، وقد لجأ الشاعر إلى أسلوب الاستفهام ليلهب الناس ويثير حميتهم لمساعدة المصاب لتبديد ما ألم به وأصابه...

وانظر إلى قول البارودي في رثاء زوجه:

يَا دَهْرُ فِيمَ فَجَعْتَنِي بِحَلِيلَةٍ كَانَتْ خُلَاصَةَ عُدَّتِي وَعَتَادِي
إِنْ كُنْتَ لَمْ تَرْحَمْ صَنَائِي لِيُعِدِّهَا أَفْلاَرَحِيَّتَ مِنَ الْأَسَى أَوْلَادِي

تراه حزينا متألماً لفراقها وقد صاغ ألمه وتحسره في أسلوب استفهامي ليظهر أساه وليلهب الناس ويثيرهم إلى مشاركته حزنه وألمه.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ﴾ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾

يَقُولُ الْإِنْسَانُ يُؤْمِنُ أَنْ آتَى الْفَقْرَ ﴿ [القيامة: ٧ - ١٠]، فالاستفهام في الآية يفيد تحسر الإنسان وندمه على ما فاته في الدنيا واستبعاده الفرار في ذلك اليوم ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿ إِلَى رَبِّكَ يُؤْمِنُ أَنْ لَسْتَ تُعْزَمُ ﴿ [القيامة: ١١، ١٢].

٤ - التعجب

نجد هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدْيَ هَذَا أَمْ كَانَ مِنَ الْفَالِجِينَ ﴿ [النمل: ٢٠]، فسليان - عليه السلام - لما تفقد الطير ولم يجد الهدى تعجب، كيف لا يراه وهو لا يغيب إلا بإذنه، ولذا توعد بالعذاب الشديد إذا لم يكن غيابه هذا لسبب قوي يدعو إليه: ﴿ لِأَعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْحِجَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِي بِسُلْطٰنٍ مُّبِينٍ ﴿ [النمل: ٢١].

ومثله قوله عز وجل: ﴿ قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿ [هود: ٧٢]. فقد تعجبت امرأته من بشارة الملائكة لإبراهيم عليه السلام بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب، كيف تلد وهي عجوز وقد عاشت حياتها عقيمًا، وهذا بعلمها قد صار شيخًا، إنه لأمر عجيب، ولذا تساءلت الملائكة متعجبة من تعجبها ﴿ قَالُوا اتَّعَجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴿ [هود: ٧٣].

ومنه قول المتنبي في وصف الحمى:

أَبْنَتِ الدَّهْرِ عِنْدِي كُلُّ بِنْتٍ فَكَيْفَ وَصَلْتِ أَنْتِ مِنَ الرَّحَامِ؟

ومنه قول المتنبي في وصف الحمى:

أَبْنَتِ الدَّهْرِ عِنْدِي كُلُّ بِنْتٍ فَكَيْفَ وَصَلْتِ أَنْتِ مِنَ الرَّحَامِ؟

فهو يتعجب من الحمى، كيف وصلت إليه على الرغم من تراحم الشدائد والأحوال حوله وتكالبها عليه.

٥ - التنبيه إلى ضلال:

كما في قوله تعالى: ﴿ فَأَيْنَ تَذَمُّبُونَ ﴿ [التكوير: ٢٦]، فهو تنبيه للكفرة إلى خطأ ما يقولون وإلى ضلال ما يعتقدون وباطل ما يعبدون من دون الله.

ويتضح لك هذا التنبيه عندما تتأمل سياق الآيات الكريمة: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخَنَسِ﴾ [الجوار الكنس] ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ﴾ [والصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ] ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ] ﴿مُطَاعٌ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْحُونٍ﴾ ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ﴾ ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضِئِينٍ﴾ ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ [التكوير: ١٥-٢٦] فقد أقسم سبحانه وتعالى بالنجوم الدالة على قدرته في أحوال ظهورها واختفائها «الخنس... الجوارى... الكنس» ثم أقسم بالليل يقبل بظلامه وبالصبح الذي يبدد ذلك الظلام، إن القرآن لمن عند الله نزل به رسول أمين على صاحبكم محمد ﷺ، وأثر التعبير بالصاحب ليلقتهم إلى أنه صاحبهم الذي يعرفون صدقه وأمانته فهو صادق فيما يبلغهم عن ربه، أمين عليه، وقد رأى وأبصر من آيات ربه الكبرى، رأى جبريل بالأفق المبين، وهو حريص على إبلاغ رسالة ربه، لا يرضن بها عليكم، لقد وضع الأمر وانكشف الحق، فأين تذهبون بعدئذ عنه إلا إلى ضلالات ومataهات؟

إن مجيء الاستفهام عقب هذا البيان وتلك التجلية بينه الغافل ويحذر المعاند ويحث المكابر على النظر والتأمل ليقبل على الحق ويتخلى عن الضلال والعناد.

٦- التهويل:

كما في قوله تعالى: ﴿الْحَاقَّةُ﴾ ﴿مَا الْحَاقَّةُ﴾ ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾ [الحاقة: ١-٣]، ﴿الْقَارِعَةُ﴾ ﴿مَا الْقَارِعَةُ﴾ ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾ [القارعة: ١-٣]، ﴿كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ﴾ ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ﴾ [الهمزة: ٥]، فالاستفهام في الآيات الكريمة يكشف عن أهوال يوم القيامة، ويصور ويرز فظاعة العذاب وشدته.

٧- الوعيد والتهديد:

كقولك لمن يسيء إليك: ألم أؤدب فلاناً؟ ألم أحذرك من هذا؟ تريد بذلك تهديده وتوعده حتى يقلع عن إساءته.

ومنه قوله عز وجل: ﴿وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ ﴿أَلَمْ يَكُنْ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿ثُمَّ نَتَّبِعُهُمُ الْآخِرِينَ﴾ ﴿ثُمَّ نَتَّبِعُهُمُ الْآخِرِينَ﴾ [المرسلات: ١٥-١٨]، ولا يخفى عليك ما يفيد الاستفهام من توعده للكفرة، حيث لهم على الإقلاع عن كفرهم والانصياع لصوت الحق حتى لا يصيبهم ما أصاب الأولين والآخرين من إهلاك وتعذيب.

٨- الأمر والحث على الفعل:

كما في قوله تعالى: ﴿ فَأَلْزَمْتَ تَسْجِيْبُوا لَكُمْ فَاَعْلَمُوا اَنَّمَا اَنْزَلَ عَلَيْنَا لَعْنَةُ اللّٰهِ وَالَّذِينَ يَبْتِغُوا الْبِرَّ لَنَا لِيُبَوِّئَ اللّٰهُ لِيَوْمٍ ذُو الْعَرْشِ مَنًّا وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿ [القمر: ١٧]، وقوله عز وجل: ﴿ وَقُلْ لِلَّذِيْنَ اٰتَوْا الْكِتٰبَ وَالْاٰمِيْنَ اَسْلَمْتُمْ ﴿ [آل عمران: ١٩]، وقوله تعالى: ﴿ اِنَّمَا يَرِيْدُ الشَّيْطٰنُ اَنْ يُّوَفِّعَ بَيْنَكُمْ الْعَدٰوَةَ وَالْبَغْضٰءَ فِي الْاَخْرِ وَالْمَيْبِرِ وَيَصُدُّكُمْ عَنِ ذِكْرِ اللّٰهِ وَعَنِ الصَّلٰوةِ فَهَلْ اَنْتُمْ مُنْتَبِهُوْنَ ﴿ [المائدة: ٩١]، وقوله: ﴿ مَنْ ذَا الَّذِيْ يُقْرِضُ اللّٰهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهٗ ﴿ [الحديد: ١١]، فالمراد بالاستفهام في الآيات الكريمة الأمر، وقد جاء في صيغة الاستفهام، لأن في ذلك إغراء للمخاطب وحثاً له على الاستجابة وقبول الأمر.

٩- التقرير:

وقد يأتي الاستفهام ويراد به التقرير بمعنى طلب الإقرار أو بمعنى التحقيق والإثبات، فمن الأول قوله تعالى: ﴿ قَالُوْا ءَاَنْتَ فَعَلْتَ هٰذَا بِاٰهِنٰتِنَا يٰنٰبِرَ اٰهِيْمُ ﴿ [الأنبياء: ٦٢]، فهم يريدون حمله على الإقرار والاعتراف بالفاعل، وعندما يكون التقرير بالهمزة ينبغي أن يليها ما حمل المخاطب على الإقرار به فهم هنا يقررون بالفاعل ولذا أجابهم ﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيْرُهُمْ هٰذَا ﴿ [الأنبياء: ٦٢].

ومثله قوله تعالى: ﴿ ءَاَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اَتَّخِذُوْنِيْ وَاُمِّيْ اِلٰهِيْنَ مِنْ دُوْنِ اللّٰهِ ﴿ [المائدة: ١١٦]، فهو تقرير بما يعرفه عيسى -عليه السلام- من هذا الحكم، وهو أنه لم يصدر منه هذا القول، فهو تقرير بالفعل وقد ولى الهمزة الفاعل «أنت» الذي ليس للفعل غيره، أي: لو صدر لا يصدر إلا منه، فهو الرسول المرسل إليهم، وفي هذا زيادة توبيخ وتبكيك لمن اتخذه وأمه إلهين من دون الله.

ومن الثاني: قوله تعالى: ﴿ قَالَ اَلَمْ نُرَبِّكَ فِيْنَا وَلِيْدًا وَاَلْبَقِيْنَا مِنْ عَمْرُكَ سَيِّئًا ﴿ [الشعراء: ١٨]، فالمراد بالاستفهام تذكير موسى -عليه السلام- بنشأته وترتيبه فيهم وحمله على الإقرار بذلك، أملاً من فرعون في أن يقلع ويكف عما جاء به من قبل الله تعالى، ولكن أنى له ذلك، وموسى -عليه السلام- رسول رب العالمين.

ومنه قوله تعالى: ﴿ اَلَمْ نَجْعِدْكَ يَتِيْمًا فَآوَيْنَا ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَيْنَا ﴿ [الضحى: ٦]،

[٧]، ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾﴾ [الشرح: ١، ٢]، ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ يَدَيْهِ مُدْبِرِينَ ﴿١﴾ فِي تَصْلِيلِ ﴿٢﴾﴾ [الفيل: ٢]، ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴿١﴾﴾ [الإنسان: ١]، فالمراد بالاستفهام في الآيات التقرير بمعنى التحقيق والإثبات ومجيء التحقيق في صورة الاستفهام فيه تنبيه للمخاطب وحث له إلى تدبر الأمر وتأمله.

ومنه قول جرير في مدح بني أمية:

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا وَأَنْدَى الْعَالَمِينَ بَطُونٍ رَاحِ
فهو تحقيق وإثبات لكرمهم وشجاعتهم وقد صاغه في صيغة استفهام ليرشد
وينبه إلى فضلهم وسبقهم إلى العلا.

١٠ - الإنكار:

والهمزة هي أكثر أدوات الاستفهام دلالة على معنى الإنكار، ويليهما دائماً المستفهم عنه سواء أكان الاستفهام لمجرد طلب الفهم أم للتقرير أم للإنكار أم لغير ذلك كما عرفت في بناء جملة الاستفهام مع الهمزة... والاستفهام الإنكاري يرد على نوعين: إنكاري توبيخي وإنكاري تكذيبي.

فالأول: إنكار وتوبيخ على أمر قد وقع في الماضي، ولوم وعتاب للمخاطب على وقوعه، ومعناه: ما كان ينبغي أن يقع، أو على أمر يخشى المستفهم أن يقع في المستقبل، ولوم وعتاب للمخاطب لإصراره على وقوعه، ومعناه: ينبغي ألا يكون، فالإنكار أو النفي في الاستفهام التوبيخي موجه إلى الانبغاء والمعنى: ما كان ينبغي في الماضي، وينبغي ألا يكون في المستقبل.

تأمل قوله تعالى: ﴿أَكْفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا ﴿١﴾﴾ [الكهف: ٣٧]، فالمعنى: ما كان ينبغي أن يقع هذا الكفر وقد خلقك الله وسواك وأنعم عليك بالنعم التي تباهي بها وتفخر.

ومثله قوله تعالى: ﴿هَلْ عَلِمْتُمْ مَّا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴿١﴾﴾ [يوسف: ٨٩]، وقوله تعالى: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١﴾﴾ [الصفات: ١٢٥]، فالاستفهام في الآيتين لتوبيخ على أمر واقع، ولوم وعتاب للمخاطبين لفعالهم إياه،

والمراد: ما كان ينبغي أن يقع منكم ما وقع...

ومنه قول امرئ القيس:

أَغْرَكَ مِنِّي أَنْ حُبِّكَ قَاتِلِي وَأَنَّكَ مَهْمَا تَأْمُرِي الْقَلْبَ يَفْعَلِ

والمعنى: ما كان ينبغي أن يغرك حبي لك، وتعتقدي أنني أصبحت متبياً في هواك، أفعل ما تأمرين به... وتقول: أعصيت ربك... أأذيت جارك... أهملت في واجبك؟ أي ما كان ينبغي أن يقع هذا منك... ولعلك تشعر بما في بيت امرئ القيس من تصوير جميل لقصة حبه مع ما في التعبير من إيجاز وإخفاء لهذا الحب وراء الاستفهام، فهو يستفهم عنه ولا يفصح بإثباته ووقوعه.

وتأمل قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكٰفِرِينَ اَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ؕ اُتْرِيدُونَ اَنْ تَجْعَلُوْا لِلّٰهِ عَلَيْكُمْ سُلْطٰنًا مُّبِيْنًا ﴿النساء: ١٤٤﴾ تجد أن الاستفهام موجه إلى تلك الإرادة وهي غير واقعة، بل محتمل وقوعها في المستقبل، والمراد: لا ينبغي أن تكون هذه الإرادة.. وتقول: أتعصي ربك... أتؤذي أباك.. أتسى إحسان فلان... أخرج في هذا الوقت؟ والمراد تنبيه المخاطب إلى خطأ ما هو مقبل عليه حتى يرتدع عنه، فالمعنى: لا ينبغي أن تكون منك هذه الأفعال.

والثاني: وهو الإنكار التكذيبي، ويسمى أيضاً بالإنكار الإبطالي، إذا كان التكذيب في الماضي، أي: لأمر اعتقده المخاطب، ويزعم أنه قد وقع، كان الاستفهام بمعنى: لم يكن، وإذا كان في المستقبل، أي: لأمر لم يقع والمخاطب يعتقد أنه سيقع، كان بمعنى: لن يكون.

تأمل قوله تعالى: ﴿اَفَاَصْفٰنَكَمْ رُبُّكُمْ بِالْبَيِّنِ وَاتَّخَذَ مِنْ اَلْمَلٰئِكَةِ اِنْتًا اِنْكُمْ لَتَقُولُوْنَ قَوْلًا عَظِيْمًا ﴿الإسراء: ٤٠﴾، تجد أن الاستفهام في الآية يفيد تكذيبهم وإبطال ما قالوه واعتقدوه والمعنى: لم يكن من الله تعالى اصطفاً ولا اتحاداً.

ومنه قول امرئ القيس:

اَبْقَلْتَنِيْ وَالْمَشْرِفِيْ مُضَاجِعِيْ وَمَسْتُوْنَةُ رُزُقِ كَاَنِّيَابِ اَغْوَالِ

فهو يكذب إنساناً توعد بالقتل وينكر أن يقع منه ذلك والمعنى: لن يكون

هذا القتل. وقرأ قوله تعالى: ﴿ قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْنِكُمْ مِنْ نَبِيٍّ وَآتَانِي رَحْمَةٌ مِنْ عِنْدِهِ فُؤِمَّتْ عَلَيْكُمْ أَنْزَلْتُكُمْ مَكُومَهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَرِهُونَ ﴾ [هود: ٢٨]، فالمراد: أنجبركم ونكرهكم على الاهتداء بها، والمعنى: لن يكون ذلك الإجبار إذ لا إكراه في الدين. وتقول: أيرضى عنك ربك وأنت مقيم على عصيانه؟ أي: لن يكون هذا.

ومنه قول عمارة بن عقيل:

أَنْتُكَ أَنْ قَلَّتْ دَرَاهِمُ خَالِدٍ زِيَارَتَهُ؟ إِنِّي إِذَا لَلَّيْتُمُ

أي: لن يكون ذلك مني... فالشاعر مخلص في وده خالداً الشيباني، ويكذب من يزعم أنه سيركه ويجافيه بسبب أن قلت دراهمه، لأنه أي: الشاعر، ليس لثبما فينعمل ذلك.

هذا وموضع الإنكار - كما مر بك - هو ما يلي الهمزة، تقول في إنكار الفاعل:

أأنت تقدر على هذا؟ أأنت تمنعني حقي؟ أأنت تقري الضيف؟ أأنت تؤذي المسلمين؟ تريد: لن يكون هذا منك ولن تستطيعه فلست له أهلاً، أو لن يكون لأنك لست بمثابة من يفعله، لأنك أعظم شأنًا، أو لأنك أقل شأنًا ونفسك نفس تأباه^(١).

وتقول في إنكار المفعول: أعمراً أهنت؟ بمعنى لم يكن ذلك، وتأمل قوله

تعالى: ﴿ قُلْ أَعْتَرِ اللَّهُ أَخْذُ وَلِيًّا ﴾ [الأنعام: ١٤]، ﴿ قُلْ أَعْتَرِ اللَّهُ أَبْنَى رَبِّي وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، فالمعنى على إنكار أن يكون غير الله بمثابة أن يتخذ ولياً أو ينبغي رباً... وتقول في إنكار الفعل: أتؤذي أباك...؟ ومنه قوله تعالى: ﴿ اتَّقُوا لَوْ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٨]، وقوله عز وجل: ﴿ أَنْتُمْ بَدَلْتُمْ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ﴾ [البقرة: ٦١]، والمعنى: ينبغي ألا يقع هذا القول، وينبغي ألا يكون هذا الاستبدال... وتقول: أتقتلني؟ والمعنى لن يكون ذلك منك، وقد مرت بك شواهد كثيرة لإنكار الفعل إنكاراً توبيخياً أو إنكاراً تكذيبياً.

وقد يكون الإنكار للفعل وبلي الهمزة غيره وذلك عندما يكون للفعل فاعل

(١) انظر دلائل الإعجاز ص ١١٨.

حدد أو مفعول أو ظرف ليس للفعل سواء فيلي الهمزة ويعطف على ما وليها بأم المتصلة ذلك المحدد كقولك في إنكار الفعل: أفي ليل وقع هذا أم في نهار؟ منكرا الوقوع، لأن الفعل إذا نفي فاعله أو مفعوله أو محله - كما في المثال المذكور - الذي ليس له غيره، لزم من ذلك انتفاء الفعل، وهذا أبلغ في إنكار الفعل وانتفائه، لأن نفي الفعل فيه بطريق الكناية واللزوم، فهو بمثابة دعوى بدليها... وقد مرت بك شواهد هذه الصورة في بناء جملة الاستفهام مع الهمزة فعد إليها هناك.

١١ - النفي:

وقد يأتي الاستفهام بمعنى النفي، كما في قوله تعالى: ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴾ [الرحمن: ٦٠]، والمعنى: ما جزاء الإحسان إلا الإحسان، تلك حقيقة مقررة لا يعارض فيها عاقل، ولكن فرق بين الدلالة عليها بالاستفهام والدلالة عليها بطريق النفي المعهود، إن في الاستفهام تحريكاً للفكر، وتنبهها للعقل وحثاً على النظر والتأمل... وهذا هو الفرق بين النفي الصريح والنفي عن طريق الاستفهام...

انظر إلى قوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ﴾ [الفتح: ١١]، فالمعنى لا محالة: لا أحد يملك لكم من الله شيئاً، ولكن الدلالة على هذا المعنى بالاستفهام فيها تنبيه لهؤلاء المخلفين وحث لهم على تدبر أحوالهم ومراجعة أنفسهم والانقياد للحق واتباع سبيل الرشاد.

وكذا القول في الآيات الكريمة: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ [العنكبوت: ٦٨]، ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا ﴾ [البقرة: ١١٤]، ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولَاؤُا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ بَلِّغْ فَهَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، فالدلالة على النفي بالاستفهام في الآيات الكريمة تمتاز عن الدلالة عليه بطريقه المعهود؛ إذ النفي الصريح خال من التحريك والتنبيه وإثارة المشاعر، أما الاستفهام ففيه بعث على النظر والتأمل وحث على التفكير والتدبر حتى يتبين للمخاطب وجه الخطأ فيقلع عنه ويتبعد.

وعد إلى دلالة الاستفهام على الإنكار وتأمل فرق ما بين قولك: أتؤذي أباك؟
أتسى إحسان فلان؟ وقولك: لا ينبغي أن تؤذي أباك.. لا ينبغي لك أن تنسى
معروف فلان، فنحن وإن كنا نفسر الاستفهام بهذا المعنى إلا أن هنالك فرقاً جوهرياً
يمتاز به الاستفهام الإنكاري عن النفي الصريح وهو أن في الاستفهام إغراء لمن
تخاطبه كي يقلع عما فعل أو سيفعل وعما اعتقد أو يعتقد، حيث لم تواجهه صراحة
بالنفي أو التكذيب، كما أن في الاستفهام تحريكاً لفكر المخاطب وتنبهها له، ودعوى
كي يتأمل ويتدبر ويعيد النظر فيما يفعل أو يعتقد لعله يستيقن فيذعن للحق ويقلع
عن الباطل والضلال.

ومن الاستفهام الدال على النفي قول البحري:

هَلِ الدَّهْرُ إِلَّا غَمْرَةٌ وَأَنْجِلَاؤُهَا وَشَيْكَا وَإِلَّا ضَيْقَةٌ وَأَنْفِرَاؤُهَا
فالشاعر أراد بالاستفهام أن يحث المخاطب على النظر والتأمل حتى يدرك هذه
الْحَقِيقَةَ الْوَاقِعَةَ ويعيها فكره، وهي أن الدهر ليس إلا شدة سرعان ما تنجلي
وتتكشف، وضيقاً يعقبه انفراج..

ومثله قول الحسين بن عبد الرحمن:

هَلِ الدَّهْرُ إِلَّا سَاعَةٌ ثُمَّ تَنْقُضِي بِمَا كَانَ فِيهَا مِنْ بَلَاءٍ وَمِنْ حَفْضٍ؟
١٢ - التشويق:

وقد يأتي الاستفهام للتشويق وذلك عندما يقصد المتكلم إلى ترغيب المخاطب
واستمالته، كما في الآيات الكريمة: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَذْكَرٌ عَلَى تَحِيْرَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ
الْأَلِيمِ﴾ [الصف: ١٠]، ﴿قُلْ أُوْتِبْتُكُم بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥]، ﴿هَلْ أَنتَ لِكَ
حَدِيثِ مُوسَى ﷺ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [النازعات: ١٥، ١٦]، ﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ
إِلَّا أَنْ تَرْكَبَ ﷻ وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْتَبِئُ﴾ [النازعات: ١٨، ١٩]، فلا يخفى عليك ما في
الآيات الكريمة من ترغيب للمخاطب وتشويق له إلى معرفة الجواب، فهو يفكر فيه
وينشغل به ويتنظره في ترقب وتطلع وعندئذ يأتي الجواب فيقع في نفس المخاطب
موقعاً حسناً، لأنه جاء والنفس مهياًة له ومتلهفة إلى معرفته.

إلى غير ذلك من الأغراض البلاغية التي يفيدها الاستفهام، فهي أكثر من أن

يحاط بها، لأنها معان تستنبط من السياق وتأمل أحواله، والمعول عليه في ذلك، هو سلامة الذوق وتتبع التراكيب الجيدة، ولا ينبغي أن تقتصر في ذلك على معنى سمعته أو مثال وجدته من غير أن تتخطاه إلى غيره، بل عليك بالتصرف واستعمال الروية والله الهادي^(١).

ومنها بالإضافة لما سبق دلالة على التعظيم.

كما في قول المتنبي:

مَنْ لِيْلِمَحَافِلِ وَالْجَحَافِلِ وَالسَّرَى فَقَدَتْ بِفَقْدِكَ نَيْرًا لَا يَطْلُعُ

فهو يريد تعظيم المخاطب والإشادة بفضله، وأن المحافل والمجامع والجحافل وهي الجيوش والسرى أي السير ليلا والزحف إلى الأعداء، هذه الأمور قد فقدت بفقده نيرا، أي: بدرًا كان مشرقًا مضيئًا، فصار لا يطلع.

ومثله قول عبد الرحمن بن عمر العرجي:

أَصَاعُونِي وَأَيَّ قَتَى أَصَاعُوا لِيَوْمِ كَرِيهَةٍ وَسِدَادِ نَغْرٍ

فالمراد بالاستفهام تعظيم نفسه والإشادة بشجاعته وفروسيته، ولا يخفى عليك ما في البيتين من إظهار التحسر والتفجع لفقد من فقدته المحافل والجحافل، وإضاعة القوم لفتاهم المغوار.

ومنها التحقير، كما في الآيات الكريمة: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾ ٥١ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿الشعراء: ٧٠﴾، ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِذْ هُرُّوا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان: ٤١]، ﴿أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ إِلَهُكُمْ﴾ [الأنبياء: ٣٦].

وكما في قول الهذلول بن كعب العبدي:

تَقُولُ وَذَقْتَ نَحْرَهَا بِبِجِيئِهَا أَبْعَلِي هَذَا بِالرَّحَا الْمُتَقَاعِسِ

وقول ابن أبي عيينة:

فَدَعَ الْوَعِيدَ فَمَا وَعَيْدُكَ ضَائِرِي أَطْنِينُ أَجْنِيحَةَ الذَّبَابِ يَضِيرُ؟

ومنها التهكم، كما في قوله تعالى: ﴿ قَالُوا يَشْفَعُ أَوْلُوْنَاكَ فَأَمَّا لَكَ أَنْ تَتَّكِرَ مَا يَعْبُدُونَ أَبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِيْ أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ﴾ [هود: ٨٧]، فهم يسخرون منه ويتكلمون بها جاء به. وقد عبروا عن ذلك بصيغة الاستفهام ليدلوا على ثباتهم في الكفر ووقوفهم الصامد في الضلال والمكابرة.

ومنها: التمني، وذلك عندما يطلب السائل الأمور المحالة أو البعيدة الحصول، كما في قوله تعالى على لسان أهل النار ﴿ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ [الأعراف: ٥٣]، ﴿ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلِ ﴾ [الشورى: ٤٤]، ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ ﴾ [غافر: ٤٧]، وكأنهم لفرط ما هم فيه من هول العذاب وشدته صاروا يسألون غير الممكن، كما يسأل عن الشيء الذي لا استحالة في وجوده.

هذا وكما ذكرت لك فإن هذه المعاني يستنبطها الدارس ويقف عليها، من خلال النظر في السياق وتأمل تراكيبه وقرائن أحواله، وكثيرًا ما تجد أسلوب الاستفهام يفيض بأكثر من معنى بلاغي.

تأمل قوله تعالى: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَانًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [البقرة: ٢٨]، تجد الاستفهام بها يفيد الإنكار التوبيخي، أي: لا ينبغي أن يكون منكم كفر وقد علمتم قصة خلقكم وحياتكم، كما يفيد التعجب من وقوع هذا الكفر والحث على الإقلاع عنه والإقبال على الهدى والإيمان، لأن في خلق السموات والأرض وفي خلق الإنسان من العبر والعظات والأدلة على قدرة الله تعالى، ما لو تأمله الكافر وتدبره لأقلع عن كفره وضلاله، فوجود الكفر منه بعدئذ يدعو إلى التعجب والإنكار.

ومثله قوله تعالى: ﴿ أَنَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ٤٤]، فالاستفهام في الآية إنكار لوقوع ذلك منهم وتعجب من وقوعه وحث للإقلاع عنه.

وخذ قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ۖ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ۖ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ۖ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْرُ ۗ ﴾ [القيامة ٧-١٠]، تجد الاستفهام بها يدل على الحيرة والتخبط،

والتحسر والندم، وتمني الفرار من العذاب الذي ينتظره، وأنى له ذلك: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ
إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ [القيامة: ١١-١٢].

وتأمل قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ [ق: ٣٠]،
فالسؤال الأول يفيد التقرير، والسؤال الثاني يفيد طلب المزيد من الوقود وتمنيه،
وبيئى بمدى غيظ جهنم وشدة غضبها لكفر هؤلاء الكفرة، وتطلعها وتشوقها إلى
المزيد منهم.

وخذ هذه الآية - وقد مرت بك- ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ
الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمِ الْبِأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى
نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ٢١٤]، فاستفهام الرسول ومن معه وهم
صفوة الناس، وقولهم وقد زلزلوا ومستهم البأساء والضراء: متى نصر الله؟ يفيد
تطلعهم للنصر وتشوقهم وتمنيهم وقوعه وحلوله، كما يفيد استبطاءهم لمجيئه، وهذا
ما يصور شدة ابتلائهم ويبين أنه على المؤمنين أن يكونوا على استعداد وأن يبيتوا
أنفسهم لمثل هذا الابتلاء، فلن يدخلوا الجنة إلا إذا محصوا كما محص من قبلهم
واختبروا كما اختبروا... وبهذا يتضح لك أن الأسلوب الاستفهامي يفيض بكثير من
المعاني التي يستطيع أن يقف عليها الدارس بتأمل سياقه وتدبر قرائن أحواله.



أسلوب النداء

النداء: هو طلب الإقبال بحرف نائب مناب كلمة: «أدعو»، والغاية منه أن يصغي من تناديه إلى أمر ذي بال، ولذا غلب أن يلي النداء أمر أو نهي أو استفهام أو إخبار بحكم شرعي ونحو ذلك من الأمور المهمة كما في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الْمُنَادِيَ ﴿١﴾ فَمَنْ نَادَى ﴿٢﴾ وَرَبُّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَتَبَايَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾﴾ [المدر: ١-٤]، وقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْرَمُوا طَيِّبَاتٍ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [المائدة: ٨٧]، وقوله عز وجل: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ لِمَ تَحْرِمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التحریم: ١]، وقوله جل وعلا: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلَقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ...﴾ [الطلاق: ١].

ودلالة النداء على الطلب دلالة مطابقة على أرجح الأقوال، لأنه طلب الإقبال، فهو بمعنى: «أقبل» الأمر، وقيل: إن دلالته على الطلب التزامية، لأنه بمقتضى تعريفه: «طلب إقبال المخاطب بحرف نائب مناب كلمة: «أدعو» ليصغي إلى ما يريده المتكلم...» و«أدعو» فعل مضارع لا أمر، ولكن الدعاء يتضمن طلب الإقبال فلذا جعل النداء من أقسام الطلب، ودلالته عليه دلالة التزامية تضمينية.

ومنهم من يرى أنه مجرد تنبيه لا طلب فيه... والراجح هو الرأي الأول - كما ذكرت - لأنك عندما تقول: «يا محمد»، فإنك تطلب منه الإقبال عليك، وكأنك تقول له: «أقبل» بصيغة الأمر، وليس «أدعو» بصيغة المضارع.

وحروف النداء هي: الهمزة، وأي، ويا، وآ، وآي، وآيا، وهيا، و(وا) وأكثرها استعمالاً في نداءات القرآن الكريم هو كلمة: «يا».

وهذه الأدوات نوعان: ما ينادى به القريب وهو أداتان: الهمزة: وأي... وما ينادى به البعيد وهو بقية الأدوات.

وإذا كان النداء هو طلب الإقبال، فإن الأصل فيه أن يكون للقريب الذي لا يجاوز امتداد صوت المنادى، ولكنهم توسعوا فيه فنادوا البعيد الذي لا يمكن أن يسمع صوت المنادى، أو بمعنى آخر الذي لا يمكن أن يصل إليه صوته، وجعلوا لندائه أدوات ونداء القريب أدوات - كما رأيت.

ولم يتوقفوا عند نداء البعيد الذي لا يصله صوت المنادى، بل اتسع تصرفهم في النداء فنادوا غير الحي العاقل، كالناقة والطير والوحش، ومشاهد الطبيعة من برق وسحاب وأقمار وشموس وأشجار وأرض وساء وجبال، وفيافي، وقبور، وأطلال، وديار، كما نادوا أحوال النفس وعواطفها، من حب وبغض وحسرة وويل ولذة، ونداء مثل هذه الأمور لا يكون لطلب الإقبال، وإنما يكون لأغراض بلاغية ومقاصد يقصد إليها المتكلم.

قلت: إن النداء يكون بحروف نائية مناب كلمة: «أدعو»، وهذه الحروف قد تذكر كما في الآيات التي مرت بك، وكما في قولك: أحمد، يا خالد، هيا سلمى، وقد تحذف فتقول: محمد.. خالد.. سلمى، تريد نداءهم.

ومما ورد فيه حذف أداة النداء، قوله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ [يوسف: ٢٩]، ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ﴾ [يوسف: ٤٦]، ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ [الذاريات: ٣١]، فقد حذفت أداة النداء في الآيات الكريمة وتقديرها: أيوسف... يا أيها الصديق... يا أيها المرسلون.

ومن ذلك نداء الرب في أساليب القرآن الكريم، فلا يكاد يستخدم حرف النداء مع الرب، بل ينادى مجرداً من حرف النداء، ولعل في ذلك تعبيراً عن شعور الداعي بقربه من ربه عز وجل، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُخَيِّمُ الْمَوْتَى﴾ [البقرة: ٢٦٠]، وعلى كثرة نداء الرب في القرآن الكريم، لم يأت مسبوقاً بحرف النداء إلا في الآيتين الكريمتين: ﴿وَقِيلِ يَا أَرْثُوبَاءُ إِنَّكَ عَلَىٰ آلَيْهِمْ عِدَدٌ وَالْيَوْمُ لِلَّهِ أَجْرًا﴾ [الزخرف: ٨٨-٨٩]، ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠].

ولعل مجيء حرف النداء مع الرب في هاتين الآيتين بصفة خاصة، تعبيراً عن حال النبي ﷺ وقد أفرغ جهده في دعوة قومه وإنذارهم فلم يزددهم ذلك إلا تمادياً في كفرهم، فأله ذلك وضاق صدره، بسبب كفر قومه وإعراضهم، فأراد أن يرفع صوته زيادة في الضراعة إلى الله واستجلاب رضاه، كما أن في امتداد الصوت بهذا الحرف «يا» ما ينبئ بها ألم به ﷺ وكأنه وجد فيها متنفساً لآلامه وأحزانه.

وفي نداء لفظ الجلالة يجوز استبدال ميم مشددة في آخره بحرف النداء فيقال: اللهم، بدلا من: يا الله، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ نَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ نَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ نَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ نَشَاءُ ﴾ [آل عمران: ٢٦].. وهذه الميم علامة للجمع في الضائير، نحو: أنتم، وهم ولكم وهم، وكان المنادي بتلك الصيغة: «اللهم» قد جمع في ندائه أسماء الله الحسنى، وناداه بها جل في علاه.

هذا وقد ينزل البعيد منزلة القريب فينادى بالهمزة وأي، لغرض بلاغي، وهو الإشعار بأنه حاضر في القلب لا يغيب عن الخاطر، حتى صار كأنه حاضر مشاهد. من ذلك قول أبي فراس وهو أسير في بلاد الروم ينادي سيف الدولة.

أَسَيْفَ الْهُدَى وَقَرِيعَ الْعَرَبِ إلامَ الْجَفَاءِ وَفَيْمَ الْعَضْبِ؟
وما بال كُنْهِكَ قَدْ أَضْبَحَتْ تَنْكَبِي مَعَ هَذِي التَّكْبِ^(١)

فعلی الرغم من تباعدهما جاء النداء بالهمزة ليعبر عما يضمرة له من حب، فهو حاضر في قلبه لا يغيب عن خاطره، وكأنه مشاهد أمامه.

ومثله قول ابن حيوس محمد بن سلطان (٤٧٣هـ).

أَسْكَانَ نُعْمَانَ الْأَرَاكِ تَيْقَتُوا بِأَنْكُمْ فِي رِبْعِ قَلْبِي سُكَانُ^(٢)
فهو ينادي سكان هذا المكان وقد عبر بالهمزة الموضوع لنداء القريب لينبئ بأنهم قريبون منه، لا يتركون فكره ولا يبرحون خياله.

ومنه قول عبد الله بن عنمة الضبي:

أَبِي لَا تَبْعُدْ وَلَيْسَ بِخَالِدٍ حَيٍّ وَمَنْ تُصِيبِ الْمُنُونُ بَعِيدُ
فهو ينادي أبا الذي أصابته المنون فصار بعيدا عنه، يناديه بالهمزة ليعبر عن حضوره في قلبه واستقراره في فؤاده.

(١) قريع العرب: سيدهم، تنكبي: تجنبني والمراد أن هذه نكبة تضاف إلى نكبة أسره، وكتبك بسكون التاء ضرورة: رسائلك، مفردها: كتاب.

(٢) نعمان الأراك: اسم موضع، والربع: المنزل.

وتقرأ رسالة والد إلى ولده أرسلها له من مكان بعيد فتراه يقول: «أي بني عليك بالاستقامة وترك المعاصي فإن العلم نور ونور الله لا يهدى لعاصي»، فقد عبر بأي التي ينادى بها القريب، في ندائه ابنه وهو بعيد عنه، ليدل على أنه حاضر في قلبه لا يرح خياله ولا يغيب عن فكره ووجدانه.



نداء القريب نداءً البعيد

وكما ينزل البعيد منزلة القريب فينادى بالهمزة أو بأي، فقد ينزل القريب منزلة البعيد، فينادي بغير الهمزة وأي لأغراض بلاغية أهمها:

١- الإشعار ببعده منزلته وعلو مكانته، فينزل بعد المنزلة وعلو المكانة منزلة البعد المكاني، كما في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَنَّكَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ الْكُرُورُ ﴿٤٤﴾ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٤٥﴾﴾ [مريم: ٤٤ - ٤٥]، إبراهيم - عليه السلام - ينادي أباه وهو قريب منه، وقد استخدم «يا» الموضوعه لنداء البعيد لينبئ ببعده مكانته وسمو منزلته وهذا أدب الابن مع أبيه حتى ولو كان على غير دينه... ومن ذلك نداؤك لفظ الجلالة فتقول: «يا الله» مع أنه أقرب إليك من جبل الوريد.

٢- الإشعار بأن المنادى وضيع المنزلة منحط المكانة وكأنه بعيد عن القلب، فينزل هذا البعد النفسي منزلة البعد المكاني...

كما في قول جرير يهجو ابن أبي خليلد:

فَحَلَّ الْفُخْرَ يَا ابْنَ أَبِي خُلَيْدٍ وَأَدَّ حَرَاجَ رَأْسِكَ كُحْلَ عَامٍ

ومثله قول الفرزدق في هجاء جرير:

أُولَئِكَ أَبَائِي فَجِنِّي بِمِثْلِهِمْ إِذَا جَمَعْتُنَا يَا جَرِيرُ الْمَجَامِعُ

٣- التنبية على عظم الأمر المدعو له وعلو شأنه، حتى كأن المنادى مقصر فيه غافل عنه مع شدة حرصه على الامتثال، كما في قوله تعالى: ﴿يَتْلُوهَا الرُّسُلُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧]، ويحمل على ذلك كل النداءات الموجهة من الله تعالى

إلى عباده «يا أيها الذين آمنوا... يا أيها الناس... يا موسى أقبل ولا تخف... يا عيسى ابن مريم... يا نوح اهبط بسلام منا» فالله عز وجل أقرب إلى عباده من حبل الوريد، وقد جاء النداء «يا» الموضوع لنداء البعيد للتبنيه على عظم الأمر الذي نودي من أجله والدلالة على علو شأنه، وليبادر المنادى بالامثال والاستجابة.

ومن ذلك قوله تعالى على لسان لقمان يوصي ابنه ﴿يَبْنِي لَكَ تَشْرِكَ بِاللَّهِ إِنَّ الْيُتْرَكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿يَبْنِي أَقْرِبَ الصَّلَاةَ وَأُزِمَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ .

٤- أن يكون المنادى نائثاً أو ساهياً، فيكون كل من النوم والسهو بمنزلة البعد الذي يقتضي علو الصوت، كقولك: هيا عمرو استيقظ، أيا خالد تنبه ولا تسه.

٥- الإشعار بغفلة المنادى عن الأمر العظيم الذي يقتضي اليقظة والانتباه، كقولك: هيا فلان تهباً للحرب...

ومنه قول محمود سامي البارودي:

يَا أَيُّهَا السَّادِرُ الْمُرُورُ مِنْ صَلَفٍ مَهْلًا فَإِنَّكَ بِالْأَيَّامِ مُنْخَدِعٌ
وكأن غفلة هذا الغافل جعلتك تبعده عن ساحة الحضور وتنزله منزلة البعيد فتناديه نداءه لينهض من غفلته، ويهب من نومه.

ومنه قول مرة بن محكان السعدي يخاطب ربه بيته ويناديها.

يَا رَبَّةَ الْبَيْتِ قُومِي غَيْرِ صَاغِرَةٍ ضُمِّي إِلَيْكَ رِحَالِ الْقَوْمِ وَالْقِرَبَا



الأغراض البلاغية التي يفيدها أسلوب النداء

ويأتي أسلوب النداء مفيداً للمعان بلاغية كثيرة تفهم من السياق وقرائن أحواله، فعندما تنادي القبور أو النوق أو البرق أو التعجب أو الويل، فإنه يراد بهذا النداء متعاضد وأغراض يرمى إليها المنادي، كما قد ينادى الحي العاقل لغرض آخر بالإضافة إلى طلب الإقبال... وإليك أهم هذه المقاصد:

١- الإغراء: وهو الحث على طلب الأمر الذي ينادى له، كقولك لمن يتظلم: يا مظلوم تكلم، فأنت تريد بهذا النداء إغراءه وحثه على بث الشكوى وإظهار

التظلم... وكقولك لمن يتردد في الإقدام: يا شجاع تقدم، تريد حثه على المضي والتقدم.

٢- الاختصاص: وهو تخصيص حكم علق بضمير باسم ظاهر صورته صورة المنادى أو المعرف بأل أو بالإضافة أو بالعلمية، فمثال كون الدال على التخصيص صورته صورة المنادى قولك: أنا أفعل كذا أيها الرجل... ونحن نقول كذا أيها القوم، واغفر اللهم لنا أيتها العصابة، فالمراد بالمنادى هو المتكلم نفسه والمعنى: أنا أفعل كذا متخصصاً من بين الرجال، ونحن نقول متخصصين من بين الأقسام... واغفر لنا متخصصين من بين العصابات... ولا مانع من نداء الإنسان نفسه كما في قول عمر رضي الله عنه «كُلُّ النَّاسِ أُمَّةٌ يَا عَمْرُؤُ»، ومثال الاختصاص المعرف بأل: «نحن العرب أسخى من بذل»، وبالإضافة قوله ﷺ «إِنَّا مَعْشَرَ النَّبِيِّاءِ لَا نُورِثُ مَا تَرَكَتُ بَعْدَ مَوْتِنَا عَامِلِي وَنَفَقَةَ نِسَائِي صَدَقَةٌ»^(١)، وبالعلمية: «بنا تمياً يكشف الضباب».

والغرض من الاختصاص إما تأكيد مدلول الضمير... كما في قولك: أنا أفعل كذا أيها الرجل... وإما إظهار المسكنة والتواضع كقولك: أنا أيها المسكين أطلب المعروف، وإما الافتخار كقولك: نحن العرب أقرى للضيف.

٣- الاستغاثة كقولك: يا لله، أي: أقبل علينا لإغاثتنا، ويا لله للمسلمين... يستغاث به تعالى لإنقاذهم وإنجائهم.

ومنه قول الشاعر:

يَا لَقَوْمِي وَيَا لَأُمَّتَالِ قَوْمِي لِأَنْبَاسِ عُنُوتِهِمْ فِي أَرْذَالِ

وقول أبي حية النميري:

يَا لَمَعْدٍ وَيَا لِلنَّاسِ كُلِّهِمْ وَيَا لَعَائِبِهِمْ يَوْمًا وَمَنْ شَهِدَا

٤- الندبة: وهي نداء المتوجع منه أو المتفجع عليه، كقولك: يا رأساه، واعيناه،

واحمداه...

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده برقم (٩٩٧٢).

ومنه قول المتنبي:

وَاحَرَّ قَلْبَاهُ مِمَّنْ قَلْبُهُ شَسِيمٌ وَمَنْ بِجَسْمِي وَحَالِي عِنْدَهُ سَقَمٌ

٥- التعجب: كقولك وقد شربت ماء باردًا حلواً عذبًا: «يا للماء» تريد التعجب من برودته وحلاوته.

ومنه قول امرئ القيس:

فِيَالِكَ مِنْ لَيْلٍ كَأَنَّ نُجُومَهُ بِكُلِّ مَغَارِ الْفُتُلِ شُدَّتْ بِبَذْبُلِ

وقول الفرزدق يهجو جريراً:

فَوَاعَجَبًا حَتَّى كَلَيْبُ تَسْبِيهِ كَأَنَّ أَبَاهَا نَهَشْتُ أَوْ مَجَاشِعُ

وقول الآخر:

فَوَاعَجَبًا كَيْفَ اتَّفَقْنَا فَتَاصِحٌ وَفِيٍّ وَمَطْوِيٍّ عَلَى الْغِلِّ غَادِرُ

٦- الزجر: كما في قول علي الجارم:

يَا قَلْبُ وَيْحَكَ مَا سَمِعْتَ لِتَاصِحٍ لَمَّا اِزْتَمَيْتَ وَلَا اتَّفَقَيْتَ مَلَامًا

فهو يريد بالنداء زجر قلبه وتأنيبه لعدم استجابته للنصائح وعدم ارعائه عن هواه وصوابته.

ومثله قول الآخر:

أَفْوَادِي مَتَى الْمَتَابُ الْمَمَّا تَضَعُ وَالشَّيْبُ فَوْقَ رَأْسِي الْمَمَّا

٧- الوعيد: كما في قول المهلهل متوعداً آل بكر:

يَا بَكْرٍ أَنْشِرُوا لِي كَلَيْبًا يَا بَكْرٍ أَيِّنَ أَيِّنَ الْفِرَارُ

٨- التنبيه: وقد يأتي حر النداء لمجرد التنبيه وذلك عندما يدخل على الحروف،

كما في قوله تعالى: ﴿يَلِيْنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ ﴿النساء: ٧٣﴾، وكما في

قوله ﴿يَا رَبِّ كَاسِيَةٍ فِي الدُّنْيَا عَارِيَةٍ فِي الْآخِرَةِ﴾^(١).

(١) رواه البخاري في التهجد برقم (١١٢٦/٥).

٩- التحسر والتحزن: وذلك عند نداء الأطلال والمنازل والمطايا والقبور والأنوات والويل والحسرة وما إلى ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴾ [يونس: ٢٧-٢٩]، وقوله تعالى: ﴿ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَنْحَسِرُنِي عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ ﴾ [الزمر: ٥٦]، فنداء الحسرة والويل في الآيتين يفيد التحسر والتحزن وإظهار الندم، وكأنه يقول: يا ويلتي ويا حسرتي أقبلا، فهذا هو أوانكها، وكأنه أي الكافر لفرط ما هو فيه صار يتخيل أن الويل والحسرة يسمعان ويجيبان فنادهما... وهذا ينبئ عما بداخله من أحزان وآلام وتحسر وندم.

ومن ذلك نداء القبر في قول الحسن بن مطير:

فَتَى عَيْشٍ فِي مَعْرُوفِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ كَمَا كَانَ بَعْدَ السَّيْلِ مَجْرَاهُ مَرْتَعًا
أَيَا قَبْرِ مَعْنٍ كُنْتَ أَوَّلَ حُفْرَةٍ مِنْ الْأَرْضِ حُطَّتْ لِلِسَّمَاحَةِ مَضْجَعًا
وَيَا قَبْرِ مَعْنٍ كَيْفَ وَارَيْتَ جُودَهُ وَلَوْ كَانَ حَيًّا ضِغْتِ حَتَّى تَصَدَّعَا

ونداء الميت في قول العتبي بن مالك:

أَعْدَاءُ مَا لِلْعَيْشِ بَعْدَكَ لَذَّةٌ وَلَا لِخَلِيلٍ بَهْجَةٌ بِخَلِيلٍ
أَعْدَاءُ مَا وَجَدِي عَلَيْكَ بِهِيْنِ وَلَا الصَّبْرُ إِنْ أُعْطِيْتَهُ بِجَوِيلٍ

وفي قول عبد الله بن الأهم برثي ابنا له:

دَعَاؤُكَ يَا بُنَيَّ فَلَمْ تُجِئْنِي فَرُدَّتْ دَعْوَتِي بِأَسَاءِ عَلَيَّا

وفي قول الآخر برثي ابنته:

يَا دُرَّةً نَزَعْتَ مِنْ تَاجِ وَالِدِهَا فَأَصْبَحَتْ حَلِيَّةً فِي تَاجِ رِضْوَانِ

ونداء المنازل والديار كما في قول النابغة الذبياني:

يَا دَارَ مِيَّةَ بِالْعُلَيَّاءِ فَالْسَّنْدِ أَقْوَاتٍ وَطَالَ عَلَيْهَا سَالِفُ الْأَمْدِ

وقول ابن خاتمة الأندلسي أحمد بن علي (ت ٧٧٠هـ):

أَيَا مَنَازِلَ سَلَّمَى أَيْسَنَ سَلْمَاكِ مِنْ أَجْلِ هَذَا بَكَيْنَاهَا بِكَيْنَاكِ

ونداء الناقة في قول حفص بن الأحنف الكناني:

نَفَرْتُ قَلُوصِي مِنْ حِجَارَةِ حَرَّةٍ بُيِّنَتْ عَلَيَّ طَلْقِ الْبَيْدَيْنِ وَهُوبٍ
لَا تَنْفِرِي يَا نَأَقُ مِنْهُ فَإِنَّهُ شَرَّابُ خَمْرٍ مُسْعِرٍ لِحُرُوبٍ

ونداء البرق في قول أبي العلاء المعري:

فَيَا بَرْقُ لَيْسَ الْكَرْخُ ذَارِي وَإِنَّمَا رَمَانِي إِلَيْهِ الدَّهْرُ مُنْذُ لَيْالٍ
فَهَلْ فِيكَ مِنْ مَاءِ الْمَعْرَةِ قَطْرَةٌ تُغِيثُ بِهَا ظَمْآنَ لَيْسٍ بِسَالٍ

فوراء تلك النداءات تكمن آلام الشعراء وأحزانهم وتحسرهم وكأنهم لفرط ما يجدون من الوجد والأسى توهموا أن تلك الأشياء تحس وتشعر، أو أرادوا أن يبرزوا ويصوروا للمخاطب أنها تشعر وتعني، وعليها أن تشاركهم آلامهم وأن تستجيب لنداءاتهم، فالقبر في خيال الشاعر حي يعقل وعليه أن يجيب نداءه، والناقة تشعر بآلامه وتفرح لفرحه وتأنس لتلك الحجارة كما أنس... والميت في قبره ينعم ويحيا ويرى ويسمع تأوهاتة... والمنازل... والبرق... والأشجار... وغيرها، تستجيب لنداء المكروب وتشعر بألم المتألم... ووراء ذلك تكمن آلامهم وأحزانهم التي تنبعث من تلك النداءات... وهذا هو السر البلاغي وراء النداءات في الشواهد المذكورة.

هذا والنداء يصحب -غالبًا- الأمر والنهي والاستفهام، وكأنه يعد النفس ويهيؤها لتلقي تلك الأساليب، ولذا فهي تتقوى به، لأن النداء يوقظ النفس ويلفت الذهن وينبه المشاعر؛ فإذا ما جاء بعده الأمر أو النهي أو الاستفهام صادف نفساً مهياً يقظة، فيقع منها موقع الإصابة حيث تتلقاه بحس واع وذهن منته.

ولذا كثر مصاحبة النداء لتلك الأساليب في النظم الكريم على نحو ما ترى في الآيات الكريمة: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أُنْقُورًا رِيكُمُ...﴾ [الحج: ١]، ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ٨٧]، ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذْكَرٌ عَلَىٰ حِجْرَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ [الصف: ١٠]، وقد تجمع هذه الأساليب جميعها كما في قوله تعالى ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَحْتَبِنُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَتُحِبُّ أَحَدَكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

وتجد النداء في الآيات المذكورة قد تقدم على تلك الأساليب وقد يتأخر عنها، كما في قوله تعالى: ﴿ وَتَوَبُّوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النور: ٣١].

وقد تقوى هذه الأساليب وتتأكد بغير النداء، وذلك بأن يقع بعدها ما يحث عليها، كما في قوله تعالى: ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ﴾ [التوبة: ١٠٣]، فقوله: ﴿ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ﴾ حث على الصلاة وترغيب فيها... ومنه قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّتَّ أَبَدًا وَلَا تُقَمِّمَ عَلَى قَبْرِهِمْ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَسِقُونَ ﴾ [التوبة: ٨٤]، فقوله: ﴿ إنهم كفروا ﴾ حث على النهي وتنفير من الصلاة عليهم.

ومن ذلك قول بشار:

بَكَرًا صَاحِبِي قَبْلَ الْهَاجِرِ إِنَّ ذَاكَ النَّجَّاحَ فِي التَّبَكِيرِ

فقوله: «إن ذاك النجاح في التبكير» حث على الأمر وترغيب فيه.

وكانت هذه الجمل الخبرية المؤكدة الواقعة بعد الأمر أو النهي أو الاستفهام كذلك، لأنها جمل تعليلية، فهي مستأنفة استثنافاً بيانياً، ولذا تقوت بها تلك الأساليب وتأكدت.



أسلوب التمني

قالوا في تعريفه: هو طلب أمر تحبه النفس وتميل إليه وترغب فيه، ولكنه لا يرجى حصوله إما لكونه مستحيلاً، أو لكونه بعيداً لا يطمع في نيله... والأداة الموضوعية له هي: «ليت»، تقول في تمني الأمر المحبوب الذي لا طمع فيه لكونه مستحيلاً، لا يمكن حصوله: ليت الشباب يعود يوماً... ليت الكواكب تدنولي.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتُنِي مِثُّ قَبْلِ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًا مَّنْسِيًا ﴾ [مريم: ٢٣]، وقوله عز وجل ﴿ يَلَيْتُنَا رُزْدٌ وَلَا نُكْذِبُ بِقَائِدِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنعام: ٢٧]، وقوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتُنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان: ٢٧]، فمريم تتمنى أن تكون قد ماتت قبل ذلك... والكفرة يتمنون عند معاينة الحساب أن يردوا إلى الدنيا فيؤمنوا ولا

يكذبوا... والظالم يعرض على يديه ندمًا ويتمنى أن يكون قد اتخذ مع الرسول سبيلاً،
وتلك الأمور المتمناة لا يرجى حصولها أبداً، لكونها مستحيلة الوقوع.

ومنه قول الشاعر:

أَلَا لَيْتَ الشَّبَابَ يَعُودُ يَوْمًا فَأُخْبِرُهُ بِمَا فَعَلَ الْمَثِيبُ^(١)

وقول أبي شامة المقدسي:

لَيْتَ الْكَوَاكِبَ تَدْنُو لِي فَأَنْظِمَهَا عُقُودَ مَدْحٍ فَمَا أَرْضَى لَكُمْ كَلِمِي

فالأمر المتمنى في البيتين لا يرجى حصوله لكونه مستحيل الوقوع.

ومنه قول علي بن الجهم:

سَقَى اللَّهُ لَيْلًا صَمًّا بَعْدَ فُرْقِهِ وَأَذْنَى فُؤَادًا مِنْ فُؤَادِ مُعَذَّبٍ
فَيَا لَيْتَ أَنْ اللَّيْلَ أَطْبَقَ مُظْلِمًا وَأَنَّ نُجُومَ الشَّرْقِ لَمْ تَتَّغَرَّبِ^(٢)

فقد ملأ لقاء الحبيب عليه نفسه، ولم يدع فيها مجالاً لوعي أو فكر، فأخذ يدعو
بالسقيا لليل الذي ضمها بعد فرقة، ولا معنى لسقيا الليل إلا فقدان الشاعر لوعيه
وفكره، ثم أخذ يتمنى، فتمنى أمراً محالاً لا يرجى حصوله، وهو أن يظل الليل مطبقاً
عليها بظلامه، ثم تمنى أمراً محبوباً يستبعد حصوله وهو أن تبقى نجوم الشرق فلا
تغرب تاركة بلاد الشرق، ومراده بنجوم الشرق علماءه ومفكره.

وتقول في تمني الشيء المحبوب الذي يمكن حصوله ولكنه غير مطموع فيه
لبعد مناله: ليت لي مالاً فأحج منه، ليتني ألقى فلانا فأنتفع بعلمه، والبعد هنا بعد
نفسى، مرده إلى شعور النفس وإحساسها بذلك الشيء، وقد لا يكون بعيداً بالنسبة
للواقع أو العرف أو العقل.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ۗ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ

(١) وينشد لعبد الرحمن العبدروس (ت ١٧٧٨م):

أَلَا لَيْتَ الصَّبَا يَعُودُ يَوْمًا فَأُخْبِرُهُ بِمَا فَعَلَ الشَّبَابُ

(٢) المراد بنجوم الشرق في البيت: العلماء والمفكرون، على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية.

أَلَدُنِّيَا يَلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أَوْقَى قُرُونُهُ لَدُو حَظِّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ [القصص: ٧٩]، فقد تمنوا أن يكون لهم مثل تلك الكنوز التي تنوء مفاطحها بالعصبة أولي القوة وهي أمنية محبة لنفوسهم، وليست مستحيلة، بل هي ممكنة الوقوع، ولكنهم لا يطمعون فيها لبعد مناها.

ومنه قول مالك بن الريب:

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَيْتَنَ لَيْلَةً
بِجَنْبِ الْعَضَا أُرْجِي الْقِلَاصَ النَّوَاجِيَا
فَلَيْتَ الْعَضَا لَمْ يَقْطَعْ الرَّكْبُ عَرْضَهُ
وَلَيْتَ الْعَضَا مَاشِيَ الرَّكَّابِ لِيَايَا

فقد تمنى الشاعر في البيت الأول أن يبيت ليلة بجانب الغضا، ذلك الوادي الخيب إلى قلبه، وهذا غير محال، ولكنه بعيد المنال في نفس الشاعر الذي أحس بدنو أجله فخطب صاحبيه.

فَيَا صَاحِبِي رَحْلِي دَنَا الْمَوْتَ فَاحْضُرَا
وَحُطَّأ بِأَطْرَافِ الْأَسِنَّةِ مَضْجَعِي
وَلَا تَحْسُدَانِي بَارَكَ اللَّهُ فِيكُمَا
مِنْ الْأَرْضِ ذَاتِ الْعَرْضِ أَنْ تُوسِعَا لِيَا
تَذَكَّرْتُ مَنْ يَبْكِي عَلَيَّ فَلَمْ أَجِدْ
سِوَى السَّيْفِ وَالرُّمْحِ الرُّدَيْنِيِّ بَاكِيَا

أما تمنيه في البيت الثاني ألا يقطع الركب عرض الغضا وأن يباشي الغضا الركاب، فهو تمن للأمر المحال وقوعه، وهذا ينبى بمدى حب الشاعر وتعلقه بهذا الوادي.

ويلاحظ أن التمني الأول قد جاء بأداة الاستفهام «هل» التي تنبى بشدة الرغبة في وقوع التمني... أما التمني الثاني فقد جاء بالأداة الأصلية «ليت».

فإذا كان الأمر الممكن يطمع في حصوله، صار طلبه ترجيا وعندئذ تستعمل فيه الألفاظ الدالة على الترجي كلعل وعسى... ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكِّيٰ أَوْ يُذَكِّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَىٰ﴾ [عبس: ٣، ٤]، وقوله عز وجل ﴿فَعَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَّ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُضْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ [المائدة: ٥٢]، وكون الممكن مرجوا حصوله، مظموعا فيه أو بعيد الحصول لا طمع فيه، مرده -كما أشرت- إلى

نفس المتكلم وإحساسه، فمثلا إذا كنت تطلب حصول مال وتوقعه وتطمع في وجوده ونيله قلت مترجيا: لعل لي مالا فأحج به، وإن كنت غير متوقع له ولا طمع لك في نيله، قلت متمنيا: ليت لي مالا فأحج به.

التمني بغير ليت

عرفت أن الأداة الموضوعية للتمني هي «ليت» وقد يتمنى بالفاظ أخرى غيرها لأغراض بلاغية يقصد إليها ويراد تحقيقها.

ومن هذه الألفاظ أدوات الاستفهام مثل: هل وأين ومتى، كما في قوله تعالى: ﴿ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ وَأَخِيَّتَيْنَا فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِن سَبِيلٍ ﴾ [غافر: ١١]، وقوله تعالى: ﴿ فإِذَا بَرِقَ الْبَصْرُ ۖ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ۖ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ۖ يَقُولُ الْإِنْسَنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْكُرُورُ ۗ ﴾ [القيامة ٧- ١١]، ويقول من وقع في شدة يستبعد زوالها: متى الخلاص؟ والسر البلاغي وراء التمني بالاستفهام في الآيتين هو أن هؤلاء لشدة دهشتهم وفرط حيرتهم طارت عقولهم فظنوا أن غير الممكن صار ممكنا، فاستفهموا عنه، ولذا فإن الدلالة على التمني بطريق الاستفهام تبرز المستحيل - كما في الآيتين - أو البعيد الحصول - كما في المثال، وكما في البيت الأول لمالك بن الريب، في صورة المستفهم عنه الممكن الوقوع، وهذا ينبنى بكمال العناية به وشدة الرغبة في وقوعه.

وقد يتمنى بلو كما في قوله تعالى: ﴿ إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِن الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأُوا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ۗ ﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَن لَنَا كَرَّةٌ فَنَتَبَرَأُ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَأُوا مِنَّا ﴾ [البقرة: ١٦٧]، وقوله تعالى: ﴿ أَوْ تَقُولُ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَن لِي كَرَّةٌ فَأَكُونُ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الزمر: ٥٨]، وقوله عز وجل: ﴿ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ۗ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ۗ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةٌ فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ١٠٠- ١٠٢] فلو في هذه الآيات الكريمة تفيد التمني بدليل نصب المضارع بأن مضمرة بعد الفاء المسبوقة بها، والفرق بين التمني بلو والتمني بليت هو أن التمني بلو يزداد التمني فيه بعداً واستحالة، وسياق الآيات الكريمة ينبنى بهذا، فقد وقع هذا التمني بعد رؤيتهم العذاب وتيقنهم وقوعه، وهذا مما يزيد شعورهم باليأس واستحالة الرجوع إلى الدنيا، ويرجع ازدياد التمني «بلو» بعداً أو استحالة إلى طبيعة دلالتها إذ هي حرف امتناع لامتناع.

ومن التمني بلو شعرا قول جرير:

وَلِيَّ الشَّبَابِ حَمِيدَةٌ أَيَّامُهُ لَوْ كَانَ ذَلِكَ يُشْتَرَى أَوْ يُزَجُّ

ولعلك تشعر بشدة استحالة التمني في البيت وهو رجوع الشباب أو شراؤه، وازدياد بعده عن قولك: ليت الشباب يعود يوماً، ومرد ذلك - كما قلت - إلى كون «لو» حرف امتناع لامتناع^(١).

وقد يتمنى بلعل كما في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمَنُ ابْنُ بَنِي صَرَخًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ۖ أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأُظَنُّهُ كَذِبًا ۖ ﴾ [غافر: ٣٦]، فبلوغ أسباب السموات من الأمور المستحيلة التي لا يمكن وقوعها وهذا يقتضي استعمال أداة التمني الأصلية، «ليت»، ولكنه عدل عنها إلى «لعل» التي تفيد الترجي لغرض بلاغي وهو إبراز التمني المحال في صورة الممكن القريب الحصول وذلك لكمال العناية به وشدة الرغبة في وقوعه...

ومنه قول بشارة الخاقاني (ت ١٧٧٢م):

أَسِرْبَ الْقَطَا هَلْ مَنْ يُعِيرُ جَنَاحَهُ لَعَلِّي إِلَى مَنْ قَدْ هَوَيْتُ أَطِيرُ

فقد تمنى بهل، في الشطر الأول: «هل من يعير جناحه؟» وبلعل في الشطر الثاني «لعلي إلى من قد هويت أظير» والعدول عن «ليت» إلى هاتين الأداتين: «هل ولعل» يبنى برغبة الشاعر القوية في لقاء بل في سرعة لقاء من يهوى والطيران إليه.

وكما تستعمل لعل في مقام: التمني، فقد تستعمل ليت في مقام الترجي.

كما في قول جرير:

أَقُولُ لَهَا مِنْ لَيْلَةٍ لَيْسَ طَوْلُهَا كَطَوْلِ اللَّيَالِي لَيْتَ صُبْحِكَ نَوْرًا

فانبلاج الصبح وهو أمر مترقب الحصول أبرزه جرير في صورة البعيد الحصول فعبر عنه بليت، وذلك لإبراز الشيء المرجو القريب الوقوع في صورة الشيء البعيد إشعاراً بعزته وامتناعه، وهذا يبنى بمعاناة الشاعر، وشعوره بامتداد الليل وطوله.



(١) انظر دلالات التراكيب والإيضاح ٢ / ٣٣.

حروف التنديم والتحضيض:

وهي: «هلا»... و«ألا»... و«لولا»... و«لوما».

يري السكاكي أن هذه الأحرف كانها مأخوذة من «هل»، و«لو» بقلب الهاء همزة في «ألا» مركبتين مع «لا وما»، الزائدتين لإفادتهما معنى التمني، وذلك ليتولد من التمني الذي أفادته، معنى التنديم في الماضي، كقولك: هلا أكرمت صاحبك... لولا قاتلت الأعداء، ومعنى التحضيض في المضارع، كقولك: ألا تكرم صاحبك، لوما تجتهد في عملك، لأن تمنى ما فات يتولد منه التنديم وتمنى ما هو آت يتولد منه التحضيض.

وهذا الوجه في تحليل دلالة تلك الأحرف على معنيي التنديم والتحضيض مبني على افتراض أن استعمال: «هل ولو» في التمني سابق لاستعمال: «هلا وألا ولولا ولوما» في التنديم والتحضيض، لأنه يفترض أن المعنى الثاني مما تولد عن هذا الاستعمال، ولا وجه لإثبات ذلك الافتراض، وبخاصة إذا لاحظنا أن «هل ولو» لم توضعاً للتمني، فاستعمالها فيه لا بد أن يكون قد جاء في مرحلة متأخرة عن استعمالها فيما وضعت له، ويترتب على هذا أن يكون التنديم والتحضيض قد جاء في الطور الثالث من استعمال الكلمتين، على الرغم من أن التنديم والتحضيض من المعاني التي يحسها الإنسان ويحتاج للعبارة عنها في نفس المرحلة التي يعبر فيها عن معانيه القلبية والذهنية والتي منها التمني والاستفهام وامتناع الشيء لامتناع غيره، فإذا أضفت إلى هذا أن «هل» كانت في الأصل بمعنى «قد» ثم أشربت معنى الاستفهام لطول ملازمتها الهمزة، ازداد هذا الوجه بعداً^(١).

ولم يكن هذا البعد في وجه الدلالة خافياً على السكاكي، ولذا تراه لم يقطع به، بل بناه على الاحتمال حيث قال: «وكان حروف التنديم والتحضيض، هلا وألا بقلب الهاء همزة، ولولا ولما، مأخوذة منهما- أي من هل ولو- مركبتين مع لا وما الزائدتين، لتضمينهما معنى التمني، ليتولد منه في الماضي التنديم نحو: هلا أكرمت

(١) انظر دلالات التراكيب ٢١٣.

زيّداً، وفي المضارع التحضيض نحو: «هلا تقوم...»^(١)، ولذا فإنّي أرجح ما قاله النحاة في وجه دلالة هذه الأحرف، حيث ذكروا أنّها موضوعة للتنديم والتحضيض من أول الأمر.



التعبير بالخبر في موضع الإنشاء

يقع الخبر في موقع الإنشاء وذلك لأغراض بلاغية، وأهداف ومقاصد يقصد إليها البلاغي... وأهمها ما يلي:

١- التفاضل وإظهار الحرص والرغبة في وقوع المعنى الإنشائي وتحقيقه، إدخالاً للسرور على المخاطب، ويكون ذلك في «الدعاء» بأن يقصد المتكلم طلب الشيء وتكون صيغة الأمر هي الدالة عليه، أو طلب الكف وتكون صيغة النهي هي الدالة عليه، فيعدل عنهما إلى صيغة الإخبار بالماضي الدالة على تحقق الوقوع، وفيه إشعار بأن الدعاء للمخاطب قد حصل وتحقق.

من ذلك قولك لصاحبك: وفقك الله للتقوى والعمل الصالح، وسدد خطاك، ورحمك، وغفر لك... والمعنى: اللهم وفقه وسدد خطاه وارحمه، واغفر له... وقولك: لا سمعت مكروهاً ولا رأيت شرّاً، والمراد: اللهم لا تسمعه مكروهاً، ولا تره شرّاً، فعدل عن الأمر والنهي الدالين على الدعاء إلى الإخبار عنه بالماضي الدال على تحقق الوقوع تفاضلاً وإظهاراً لحرص المتكلم على حدوث ذلك للمخاطب، وإدخالاً للسرور عليه.

ومن ذلك قول عوف بن محلم الشيباني:

إِنَّ الثَّمَانِينَ -وَبُلِّغْتَهُهَا- قَدْ أَحْوَجَتْ سَمْعِي إِلَى تَرْجُمَانٍ

فقوله: «وبلغتها» دعاء للسامع، إذ المراد: اللهم أطل عمره، وبلغه هذه السن، وقد عبر عن ذلك بالماضي إظهاراً لرغبته وحرصه على تحقيقه ووقوعه.

(١) مفتاح العلوم ص ١٤٧، وانظر الإيضاح ج ٢ ص ٣٣.

ومثله قول طفيل الغنوي يمدح بني جعفر بن كلاب:

جَزَى اللهُ عَنَّا جَعْفَرًا حِينَ أَرْلَقْتُ بِنَا نَعْلُنَا فِي الْوِطَائِينِ فَرَلَّتْ

وقول الشيخ الذبياني في رثاء عمر رضي الله عنه:

جَزَى اللهُ حَيْرًا مِنْ أَسِيرٍ وَبَارَكْتُ بِدُ اللهِ فِي ذَاكَ الْأَدِيمِ السُّمْرَقِ

٢- الاحتراز عن صورة الأمر أو النهي المشعرة بالاستعلاء تأدباً مع المخاطب

حيث يقتضي المقام ذلك التأدب، كقولك لمعلمك: ينظر إلى أستاذي لحظة... لا يعاقبني أستاذي... ولو قلت: انظر بالأمر، أو لا تعاقب بالنهي، لكان قولك خلاً بما يقتضيه المقام من تأدب التلميذ عند مخاطبة أستاذه.

٣- حمل المخاطب على تحقيق المطلوب وتحصيله وذلك كقول الصديق لصديقه

«تزورني غداً»، وقول الأستاذ لتلاميذه: تأتونني كل صباح... بدلاً من زرني واتوني بصيغة الأمر، فقد عدل عن الإنشاء إلى الخبر الذي يحتمل الصدق والكذب - كما عرفت - فلو أن الصديق لم يحضر لزيارة صديقه ألصق به الكذب ونسبه إليه، وكذا التلاميذ إذا لم يأتوا كل صباح كما أخبر أستاذهم، نسبوه إلى الكذب وألصقوه به، والصديق حريص على أن ينزه صديقه ويبعده عن الكذب، والتلاميذ يحرصون على أن يكون أستاذهم بمنأى عن الكذب ومنزهاً عنه، ولذا كان التعبير بالخبر في موضع الإنشاء حاملاً للمخاطب على تحقيق المطلوب وتحصيله.

ومن ذلك قول النبي ﷺ «لَا يَجْتَمِعُ دِينَانٍ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ»^(١)، المراد: لا

تجمعوا في جزيرة العرب بالنهي، وقد جاء بصيغة الخبر حملاً للمسلمين على تحقيق ذلك وتحصيله، والجهاد في سبيل رفع راية الإسلام حتى لا تعلوها راية.

ومنه قوله تعالى: ﴿الزَّانِ لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرَكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾

وَحُرْمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿ [النور: ٣]، فقوله: «لا ينكح... لا ينكحها» خبر أريد به النهي، وفي بعض القراءات بالجزم على النهي، وعلى قراءة الرفع يكون التعبير بالخبر

(١) رواه الإمام مالك في الموطأ في المدينة برقم ١٨، ١٩.

في موضع الإنشاء أبلغ في الزجر وأكد؛ لأنه يبرز المنهي عنه في معرض الواقع المحقق رغبة في حدوده وحرصاً على تحقيقه وحثاً على الامتثال وسرعة الإجابة.

ومثله قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البقرة: ٨٣]، وقوله عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تَخْرُجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِينِكُمْ﴾ [البقرة: ٨٤]، فالمنعنى على النهي أي: لا تعبدوا إلا الله، لا تسفكوا دماءكم ولا تخرجوا أنفسكم، وقد عدل عنه إلى الخبر حملاً للمخاطبين على تحقيقه وتحصيله وحثاً لهم على سرعة الإجابة والامتثال.



التعبير بالإنشاء في موضع الخبر

وقد يقع الإنشاء في موقع الخبر لأغراض ومقاصد يرمي إليها البلاغي... أهمها:

١- الاهتمام بالشيء، كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٢٩]، والمعنى: «وبإقامة وجوهكم عند كل مسجد» فعدل عن الخبر إلى صيغة الأمر: ﴿وَأَقِيمُوا﴾ تنبيهاً إلى وجوب الاهتمام بالمأمور به والحرص على تحقيقه.. لأن في الانتقال من الخبر: «أمر» إلى الإنشاء: «وأقيموا» إيقاظاً للمخاطب، وتنبيهاً له، وهذا يدفعه إلى الاهتمام بالمأمور به، والحرص على تحقيقه وسرعة امتثاله.

٢- الرضا بالواقع حتى كأنه مطلوب، كقوله ﷺ: «مَنْ كَذَّبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»^(١)، فالمنعنى: «تبوأ مقعده من النار»، وقد عدل عنه إلى صيغة الأمر للدلالة على أنه مطلوب، وأنه واقع يؤمر به، وليس على الكاذب إلا الرضا وتنفيذ المطلوب وفي هذا ما فيه من الوعيد والتحذير والزجر.

٣- الاحتراز عن مساواة اللاحق بالسابق، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُفْرِكُونَ﴾ [هود: ٥٤]، فالمنعنى: «إني أشهد الله وأشهدكم فعدل

(١) رواه البخاري في كتاب العلم برقم (٣٨/١١٠).

عن ذلك إلى ما عليه النظم الكريم من التعبير بصيغة الأمر: «واشهدوا» احترامًا عن مساواة شهادتهم بشهادة الله عز وجل، وفيه أيضًا تعظيم لهُود -عليه السلام- وإعلاء لشأنه وتحقير هؤلاء الكفرة المشركين، والدلالة على دنو منزلتهم، حيث أبرز الأمر هوذا - ~~الذي~~ - في صورة الأمر الذي يوجه إليهم الأمر، وعليهم أن يخضعوا ويدعنوا وأن يستجيبوا لما يأمر به.



تنوع الأسلوب بين الخبر والإنشاء

وبعد أن عرفت الأساليب الإنشائية والخبرية وما بينهما من فروق دقيقة، وما في اللغة العربية من طواعية لصرف الجملة عن الإنشاء إلى الخبر، وعن الخبر إلى الإنشاء... ينبغي لك أن تعلم أن المتكلم البليغ والأديب المقندر هو الذي يعرف مواطن الكلام وما يقتضيه كل موطن منها، فيورد كلامه ويصوغ عباراته ملائمة للمقام.

وتنوع الأسلوب بين الخبر والإنشاء مما يجذب السامع ويجرك فكره ويدعوه إلى المشاركة بوجدانه وأحاسيسه، فعلى البليغ مراعاة ذلك، وأن يعرف المواطن التي تحتاج إلى حدة وانفعال وإثارة وتحريك فيورد فيها الأساليب الإنشائية من أمر ونهي واستنهام وتعجب وترج وتمن ونداء، وأن يعرف المواطن التي تقتضي السرد والحكاية، فيورد بها الجمل الخبرية.

وأمام البليغ نماذج ثرية وأمثلة حية من الشعر العربي... انظر إلى الشعر الجاهلي وتبين كيف كان الشاعر يتساءل ويأمر صاحبيه ويتمنى ويصف ناقته ورحلته ويتعجب مما يرى ويشاهد، فتأتي أساليبه ملائمة للمقامات ومبينة على التنوع الذي يجذب السامع ويسترعي انتباهه.

الفصل السابع الفصل والوصل

الفصل والوصل بين المفردات أو بين الجمل باب دقيق المجرى لطيف المغزى، جليل المقدار، كثي الفوائد، غزير الأسرار... وقد تنبه العلماء قديماً لدقة هذا الباب وجعلوه البلاغة بأسرها، حيث سئل أحدهم عن البلاغة فقال: البلاغة معرفة الفصل من الوصل^(١).

وقال عبد القاهر: «واعلم أنه ما من علم من علوم البلاغة أنت تقول فيه: إنه خفي غامض، ودقيق صعب، إلا وعلم هذا الباب - أي: باب الفصل والوصل - أغمض وأخفى، وأدق وأصعب...»^(٢).

والوصل معناه العطف؛ عطف الكلام بعضه على بعض، سواء أكان هذا العطف للمفردات أم للجمل، وسواء أكان بالواو أم بغيرها كالفاء وثم و«أو» والنصل هو ترك العطف، هذا ما ذكره السكاكي...^(٣)

ولكن البلاغيين جرت عاداتهم في حديثهم عن الفصل والوصل أن يتجاوزوا عطف المفردات وعطف الجمل التي لها محل من الإعراب، معللين ذلك بأن عطف المفردات وكذلك الجمل التي لها محل من الإعراب، أمره هين ويسير، إذ لا يقصد به سوى مجرد التشريك في الحكم الإعرابي، أما دقة الفصل والوصل فإنما تظهر في الجمل التي لا محل لها من الإعراب.

كما تجاوز البلاغيون العطف بغير الواو قائلين: إن الواو من بين حروف العطف هي التي لا تفيد سوى مجرد الإشارك في الحكم ومطلق الجمع، فالعطف بها دقيق مشكل، أما غيرها من حروف العطف فتفيد مع التشريك في الحكم معاني

(١) انظر البيان والتبيين ١ / ٨٨.

(٢) دلائل الإعجاز ص ٢٣٧.

(٣) انظر مفتاح العلوم ص ١٢٠.

أخرى، فالفاء تفيد: الترتيب والتعقيب، وثم تفيد: الترتيب والتراخي و«أو» تفيد تردد الفعل بين شيئين أو التخيير أو الإباحة، ولذا لم يشكل العطف بتلك الأحرف^(١).

وهذا الذي ذكره وإن كان لا يخلو من الصحة، إلا أننا لا نعدم وجوهاً دقيقة وأساراً خفية نجدها كامنة وراء العطف بغير الواو، كما أننا لا نعدم وجوهاً أدق وأساراً أخفى تكمن وراء عطف المفردات والجمل التي لها محل من الإعراب... ولذا فإننا سنبدأ دراستنا للفصل والوصل بالإشارة إلى هذه الدقائق وتلك الأسرار.



العطف بغير الواو

انظر إلى قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿١﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿٢﴾ [المؤمنون: ١٢ - ١٤]، نجد أن الجمل قد وصلت في الآيات الكريمة بحرفي العطف «ثم» و«الفاء» ووراء الوصل بهذين الحرفين تكمن الدقائق واللطائف، فقد بدأت بالخلق الأول، خلق آدم عليه السلام من طين، ولما أريد وصله بالخلق الثاني، خلق التناسل، عطف عليه بـ«ثم» لئلا يبينها من التراخي.

ثم تحدثت الآيات عن أطوار الخلق، فوصلت خلق العلقة بالنطفة بـ«ثم» لئلا يبينها من التراخي، ثم توالى الأطوار خلق المضغة فالعظام فكساء العظام لحماً، موصولة بالفاء، حيث لم يكن هناك تراخ بينها، ثم وصل تسويته إنساناً بكساء العظام لحماً بحرف العطف «ثم» إشارة إلى التراخي بينهما^(٢).

هذا وعندما تتأمل ما عطف بـ«ثم» تجده أدق وأبعد مما عطف بالفاء، فقد نزل

(١) انظر دلال الإعجاز ص ٢٣١، والإيضاح ٢ / ٦٢.

(٢) ارجع إلى الطراز جـ ٢ ص ٤٤، ٤٥.

الاستبعاد عقلاً أو رتبة منزلة التراخي والبعد الحسي، فعطف بضم ونزل القرب عقلاً أو رتبة منزلة القرب الحسي، فعطف بالفاء^(١).

ثم جاء قوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ ﴿١٧﴾ معطوفاً بالفاء على تلك الجمل التي جلت أطوار الخلق في هذا النظم المعجز لتنبية الإنسان إلى ما يجب عليه من المبادرة والإسراع إلى تعظيم الله عز وجل، والإشادة بحسن خلقه وعجيب صنعته، ولهذا نطق أكثر من صحابي بختام الآيات الكريمة: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ ﴿١٧﴾ قبل أن يملية النبي ﷺ لكاتب الوحي، ويبتسم النبي ﷺ قائلاً «هكذا نزلت» أو «بها ختمت»^(٢).

وتأمل قوله تعالى: ﴿قِيلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿١٨﴾ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ ﴿١٩﴾ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ﴿٢٢﴾ [عبس: ١٧ - ٢٢].
ولاحظ كيف جاء تقدير الإنسان موصولاً بخلقه وإيجاده بالفاء، «خلقه فقدره»، تنبيهاً على أن التقدير مرتب على الخلق وأنه لا تراخي بينهما، وكذا عطف إقباره على موته بالفاء أيضاً: «أماته فأقبره»، إذ لا مهلة بين الموت والإقبار، ولما كان الزمن ممتداً بين تيسير السبيل وتقدير خلقه، وبين التيسير والإماتة، وبين الإقبار والنشر جاءت هذه الجمل موصولة بضم التي تفيد امتداد الزمن وإطالة المسافة: «... فقدره ثم السبيل يسره ثم أماته فأقبره ثم إذا شاء أنشره».

وخذ قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ ﴿١٧﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿١٨﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿١٩﴾ وَالَّذِي يُعِشِّي ثُمَّ يُمَيِّتُنِي ﴿٢٠﴾ [الشعراء: ٧٨ - ٨١]، وتأمل كيف عطفت الهداية هنا على الخلق بالفاء «خلقني فهو يهدين»، بينما عطفت على الخلق والتقدير في سورة عبس بضم: «من نطفة خلقه فقدره ثم السبيل يسره» ويرجع هذا الاختلاف إلى السياق والمقام، فالآيات في سورة الشعراء تتحدث عن إبراهيم عليه السلام والعطف بالفاء ينبئ بقوة يقينه وكمال إيمانه بربه، فقد بلغ إيمانه مبلغاً جعله لا يعتد بما بين الخلق والهداية من طول الزمن وامتداد المسافة، ولذا عطف هدايته على خلقه بالفاء:

(١) روح المعاني ج ١٨ ص ١٥.

(٢) انظر تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٢٤٢، وأسباب النزول ص ٢٣٤.

• «خلقني فهو يهدين» أما في سورة عبس فالحديث عن الكافر «قتل الإنسان ما أخفراه»، ولهذا جاء العطف بضم.

وانظر في بقية الآيات تجد عطف السقي على الإطعام بالواو إذ المراد الجمع بينهما دون مراعاة لترتيب، وقدم الإطعام على السقي مراعاة لحسن النظم وتناسق الآيات.

ثم جاء عطف الشفاء على المرض «بالفاء» إشارة إلى حدوث ومجيء الشفاء عقب المرض وترتيبه عليه، وتنبهنا إلى عظم المنة بالعافية بعد المرض بلا تراخ، وانظر إلى حسن الأدب حيث أسند الشفاء إلى الله تعالى دون المرض «مرضت... يشفيني»، ثم عطف الإحياء على الإماتة بضم لما بينهما من التراخي وامتداد الزمن.

هذا والسياق هو الذي يحدد كيفية الوصل بين الجمل ويعين حرف العطف الذي يتحتم استخدامه دون غيره.

انظر في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ دُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾﴾ [الكهف: ٥٧].

ثم تأمل قوله عز وجل: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ دُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة: ٢٢]، تجد أن سياق الآية الأولى يتحدث عن الكفرة الذين ما زالوا يحيون... يعاندون ويكابرون، ويرفضون قبول الهداية ﴿وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ ﴿فَهُؤَلَاءِ يَعْزُوبُونَ﴾ عن الآيات فور تذكيرهم بها ولذا ناسب العطف بالفاء التي تفيد التعقيب: «ذكر آيات ربه فأعرض عنها»، أما سياق الآية الثانية فيتحدث عن المجرمين الذين انتهت حياتهم وماتوا على الكفر... ﴿ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهِ تُكذِّبُونَ﴾ ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلَدِيِّ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢٠-٢١].

وهؤلاء قد استمر تذكيرهم في الدنيا بالآيات وامتد زمانًا بعد زمان ثم أعرضوا عنها إعراضًا نهائيًا بالموت وهذا يلائمه العطف بضم التي تفيد الامتداد والتراخي... «ذكر آيات ربه ثم أعرض عنها إنا من المجرمين منتقمون».

وهذا يتضح أن العطف بغير الواو يكمن وراءه من الدقائق والأسرار
واللطائف ما ينبغي إظهاره وتجليته ولا يمكن إغفاله والتغاضي عنه.

عطف المفردات

يذكر بعض البلاغيين أن المفردات يعطف بعضها على بعض بالواو إذا كانت
متناسبة متجانسة، كما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ
الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢]، فالصلاة والنسك والمحيا والممات أسماء متناسبة، وكذا
قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ ۖ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ
تُفْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَكُمْ يُقْرَلُ بِهِ سُلْطَنًا ۖ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٣]،
الفواحش والإثم والبغي والشرك والقول على الله ما لا يعلمون، ألفاظ متجانسة،
ومثله قوله تعالى: ﴿ ءَأَمِنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ۖ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَأَمِنَ بِاللَّهِ وَمَلْأَتْهُ
وَكُؤُوبُهُ ۖ وَرُسُلِهِ ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، فالله والملائكة والكتب والرسول أسماء بينها تناسب
وتألف.

وهذا الذي ذكره البلاغيون غير سديد ولم يسلم لهم؛ لأن التناسب بين
الألفاظ والتلاؤم والتجانس بين الكلمات مطلوب سواء أعطفت هذه الكلمات أم لم
تعطف، وقد ذكروا ذلك في علم البديع وسموه: «مراعاة النظر»، فالتكلم ينبغي له
أن يراعى التناظر والتجانس والتألف بين ألفاظه وأليابعد في القول.

ولذا عاب نصيب قول الكميت:

أَمْ هَلْ ظَعَانٌ بِالْعَلْيَاءِ يَافِعَةٌ وَإِنْ تَكَامَلَ فِيهَا الْأُنْسُ وَالشَّنَبُ

فقد عقد عقدة عند سماعه، ولما سأله الكميت ماذا تحصي؟ أجاب: خطأك،

باعدت في القول، أين الأنس من الشنب؟ ألا قلت كما قال ذو الرمة:

لَمْ يَأْ فِي شَفْتَيْهَا حُوءٌ لَعَسُ وَفِي اللَّثَاتِ وَفِي أَشْنَانِهَا شَنْبُ

وعاب النقاد قول أبي تمام يمدح أبا الحسين محمد بن الهيثم.

رَعَمَتْ هَوَاكَ عَفَا الْعَدَاةَ كَمَا عَفَا عَنْهَا طُلُوعُ اللَّوَى وَرُسُومُ

لَا وَالَّذِي هُوَ عَالِمٌ أِنَّ النَّوَى صَبْرٌ وَأَنَّ أَبَا الْحُسَيْنِ كَرِيمٌ
مَا زِلْتُ عَنْ سَنَنِ الْوِدَادِ وَلَا عَدْتُ نَفْسِي عَلَى إِلْفِ سِوَاكَ تَحْوِمُ

حيث جمع بين مرارة النوى وكرم أبي الحسين وهما متباعدان لا تجانس بينهما،
والذي أوقع أبا تمام في هذا العيب هو محاولته التخلص من الغزل والانتقال إلى
المدح، ولكنه لم يحسن التخلص ووقع فيما وقع من عدم التجانس بين مرارة الفراق
وكرم المدوح.

وقد انتصر بعض لأبي تمام فقالوا: الجامع خيالي لتفاوتها في خيال الشاعر، أو
وهي وهو ما بينهما من شبه التضاد؛ لأن مرارة النوى كالضد لحلاوة الكرم، أو
التناسب، لأن كلا منها داوئ فالصبر دواء للعليل، والكرم دواء للفقير، وكل هذه
تكلفات باردة، لا تبرر خطأ أبي تمام، إذ المعتد به هو التناسب الظاهر بين الكلمات
والألفاظ.

وخلاصة القول أن التناسب والتجانس والتآلف بين الألفاظ ليس مقصوراً
عل كونها معطوفة، بل لا بد من مراعاة النظر بين المفردات سواء أكانت معطوفة أم
غير معطوفة.

ويذكر البلاغيون أن الصفات لا يعطف بعضها على بعض إلا إذا كانت
متضادة، كما في قوله تعالى: ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ۗ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝ ﴾ [الحديد: ٣]،
﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ
سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝ ﴾ [الحشر: ٢٣-٢٤].

وانظر إلى قوله تعالى: ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُمْ أَرْوَاحًا خَيْرًا مِنْكَ مَنِعَتْ
مُؤْمِنَتْ فَبِتَّتْ تَبَيَّنَتْ عِبْدَاتٍ سَبَّحَتْ تَبَيَّنَتْ وَأَبْكَارًا ﴾ [التحریم: ٥]، نجد أن الصفات
قد توالى بلا عطف إلا «ثيبات وأبكارا» فقد عطف «أبكارا» على «ثيبات» لما بينهما
من التضاد.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ التَّائِبُونَ الْعَبْدُونَ الْحَامِدُونَ السَّابِقُونَ
الرَّكَعُونَ السَّجِدُونَ الَّذِينَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ [التوبة: ١١٢]،

توالت الصفات بلا عطف ما عدا صفتي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقد جاءت الواو بينها لأنها متضادان.

وعندما يرى هؤلاء البلاغيون أن الواو قد جاءت بين صفتين ليس بينهما تضاد يحاولون أن يتلمسوا وجهًا من التضاد بينهما، كما في قوله تعالى: ﴿حَمَّ تَوْرِلُ أَلَكْتَبِ مِنْ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ غَافِرُ الذَّنْبِ وَقَابِلُ التَّوْبِ شَدِيدُ الْعِقَابِ ذِي الطَّلَوِّ ﴿ [غافر: ١-٣]، حيث عطف في الآية صفة: «قابل التوب»، على صفة «غافر الذنب» وهما غير متضادين ولكن البلاغيين يتعسفون عندما يحاولون إثبات وجه من التضاد بين الصفتين في الآية الكريمة.

فقد ذكروا أن المغفرة ترجع إلى السلب، لأن معنى «غافر» الذي لا يفعل العقوبة مع الاستحقاق، فغفران الذنب محوه وإزالته، وقبول التوبة يرجع إلى الإثبات، لأن معناه قبول الندم والعذر وبين السلب والإثبات تضاد...

وقالوا أيضًا: إن الجمع بينهما لسر لطيف وهو إفادة الجمع للمذنب التائب بين رحمتين، بين أن قبول توبته فتكتب له طاعة، وبين أن تمحى ذنوبه، كأنه لم يذنب.

وقالوا: إن المغفرة مختصة بالعبد وقبول التوبة مختص بالله تعالى، فالله عز وجل يغفر حينًا من تلقاء نفسه بفضلته ومنه وكرمه، وحينًا يعفو عن المذنب بسبب ندمه واعتذاره وتوبته^(١).

وما من ريب في أن هذا تعسف ظاهر، ونحن في غنى عنه خاصة وأن ما قالوه عن الصفات المتضادة وأنه يجب فيها العطف بالواو، قول غير سديد، فقد ترد الصفات متضادة وبدون عطف... كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ لَئِيسَ لَوْ قَعَبَهَا كَاذِبَةٌ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ﴾ [الواقعة: ١-٣].

وكما في قول امرئ القيس:

مَكْرَمٌ مَقْرَرٌ مُثْبِلٌ مُذِيرٌ مَعَا كَجُلْمُودٍ صَخْرٍ حَطَّةُ السَّيْلِ مِنْ عَلِي

كما ترد الصفات غير متضادة ومعطوفة، على نحو ما رأينا في الآية الكريمة:

(١) انظر الطراز ٢ / ٣٦.

«غافر الذنب وقابل التوبة»، ومثله قوله تعالى: ﴿الذَّيْبِ يُقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّا أَمْنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ الصَّيِّرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَنِيتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَفْهِرِينَ بِالْأَشْحَارِ ﴿آل عمران: ١٦ - ١٧﴾، وقوله عز وجل: ﴿إِن الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّانِعِينَ وَالصَّانِعَاتِ وَالْحَافِظِينَ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥].

ولذا فإن الأولى والأجدر أن تهتم الدراسة البلاغية بالبحث عن الأسرار الكامنة وراء الواو وأن تكشف وتحلي سر مجيئها حين تأتي وسر تركها حين تترك، فهذه الواو تفيد التغاير، وعندما تأتي بين الصفات فإنها تفيد كمال اتصاف الموصوفين بكل صفة منها على حدة، انظر إلى قوله تعالى: ﴿الصَّيِّرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَنِيتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَفْهِرِينَ بِالْأَشْحَارِ﴾ ﴿آل عمران: ١٧﴾ تجد أن الواو دلت على كمالهم في كل واحدة منها^(١).

وعندما تترك الواو وتأتي الصفات متوالية بلا عطف فإنها تفيد كمال اجتماعها في الموصوف، خذ قوله تعالى: ﴿الْعَبِيدُونَ الْعَبِيدُونَ الْحَمِيدُونَ السَّجِدُونَ أَلْزَكَاةُ عَيْنَاتٍ سَابِغَاتٍ...﴾ الآية [التوبة: ١١٢]، وقوله: ﴿مُسَانِدَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَتَبِعْنَ عِبَادَاتٍ سَابِغَاتٍ...﴾ الآية [التحریم: ٥] وتأمل فستجد أن ترك الواو أفاد أن هذه الصفات مجتمعة في الموصوفين، وكأنها صفة واحدة، فذكر الواو بين الصفات يفيد أنهم كاملون في كل صفة على حدة، وتركها يفيد أنها مجتمعة فيهم^(٢).

وعلى هذا فقول امرئ القيس:

مَكْرًا مَقْبَلٌ مُدْبِرٌ مَعَا كَجُلْمُودٍ صَخْرٍ حَطَّةُ السَّيْلِ مِنْ عَلٍ

يفيد أن هذه الصفات قد اجتمعت في الجواد في وقت واحد من غير أن تكون مستقلة متغايرة، ولو أنه قال: مكر ومفر ومقبل ومدبر، لما صح أن يقول معا، وكذا

(١) انظر الكشاف / ١ / ٢٦٣.

(٢) انظر الكشاف / ٢ / ٤٦٦.

القول في الآية الكريمة: ﴿لَيْسَ لَوْفَعِيَّا كَاذِبَةٌ﴾ ﴿خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ﴾، أي: تخفض وترفع في زمن واحد، ويقع منها الفعلان معا، ولو قيل في غير القرآن خافضة ورافعة، لم يفد ذلك... وكذا قولنا: فلان كاتب شاعر يخالف قولنا: فلان شاعر وكاتب، فالأول أفاد اجتماع الكتابة والشعر، والثاني أفاد كمال اتصاله بكل صفة على حدة.

وكما تقع الواو بين الصفات، فقد تأتي بين الصفة والموصوف وبين الحال وصاحبها سواء أكانت الصفة مفردة أم جملة وسواء أكانت الحال مفردة أم جملة.

انظر إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٥٣]، فالفرقان صفة للكتاب، وقد عطفت عليه بالواو، وأفاد هذا العطف الجمع بين كونه كتاباً منزلاً، وفرقاً يفرق بين الحق والباطل.

وخذ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٨]، فضياء، وذكراً، حال متعددة للفرقان، وقد جاءت بالواو لتفيد الجمع بين كونه فرقاناً وضياءً وذكراً...^(١)

واقراً قوله عز وجل: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ﴾ [الكهف: ٢٢]، فقد عطفت الواو جملة الصفة «ثامنهم كلبهم» على الموصوف «سبعة» وهذا العطف أفاد -كما ذكر الزمخشري- شدة لصوق الصفة بالموصوف، وهذا يؤذن بثبات تلك الصفة وصوابها، ولذا قال بعد القولين الأولين «رجماً بالغيب»، وجاء عقب هذا القول: «ما يعلمهم إلا قليل»^(٢).

وإفادة الواو لشدة لصوق الصفة بالموصوف، يكمن وراء ما تفيد من معنى التغاير، فكأن القائلين قد قالوا قولين، قالوا: سبعة، وقالوا: ثامنهم كلبهم، ويتضح هذا في قولنا: جاء محمد غلامه يسعى بين يديه، وجاء محمد وغلامه يسعى بين يديه،

(١) انظر دلائل الإعجاز ص ١٣٣، والكشاف / ١ / ١٠٤.

(٢) انظر الكشاف / ٢ / ٥٥٧.

فالأول إخبار عن مجيء هذا حاله، والثاني إخبار عن المجيء وعن حاله وكأنك بعد الإخبار بالمجيء استأنفت إخبارًا آخر عن حال المجيء^(١).

وتأمل الآيتين الكريميتين: ﴿ وَمَا أَمَلْنَاكَ مِنْ قَرِيْبَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٠٨]، ﴿ وَمَا أَمَلْنَاكَ مِنْ قَرِيْبَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴾ [الحجر: ٤]، تجد أن الكتاب أي: الأجل المعلوم مما يمكن خفاؤه فيتسرب إليه الإنكار، أما المنذرون فلا يتأتى إنكارهم لظهورهم، ولهذا جاءت الواو بين الموصوف وجملة الصفة في الآية الثانية لتؤكد لصوق الصفة بموصوفها، دفعًا لما قد يقع من إنكار، وجاءت الآية الأولى بدون الواو، لأنها لا تحتاج إلى هذا التأكيد، وجاء التأكيد -كما قلنا- من إفادة الواو لمعنى التغاير، وكأنك تبتدئ بها إخبارًا آخر، ففرق بين أن تذكر قرية هذه الصفة جزء منها، وأن تذكر قرية ثم تبتدئ وصفًا لها^(٢).

وقد زعم بعض البلاغيين أن الواو لا تدخل بين الصفة والموصوف فلا تقول: جاء زيد والكريم، على أن الكريم هو زيد، لأنه يستحيل عطف الشيء على نفسه^(٣).

ولا يخفى عليك الآن رد هذا الزعم، كما لا يخفى عليك أن عطف الصفة على الموصوف، ليس عطفًا للشيء نفسه، بل إن الصفة تفيد معنى آخر ومرجع ذلك إلى ما تفيد الواو من معنى التغاير.

هذا وعندما ننظر في المفردات المعطوفة، وترتيبها في الكلام وتقديم ما قدم منها وتأخير ما أخر، نجد كثيرًا من الدقائق واللطائف والاعتبارات البلاغية.

تأمل قوله تعالى: ﴿ وَأَنْقُضُوا إِلَهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ﴾ [النساء: ١]، وقوله عز وجل: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ [الإسراء: ٢٣]، تجد أن عطف الوالدين والأرحام على ضمير لفظ الجلالة يدعو إلى الاهتمام بهم ويلفت وينبه إلى ما ينبغي لهم من حسن الرعاية، وجميل المعاملة، فلا يخفى عليك ما بين

(١) انظر دلائل الإعجاز ص ١٤١.

(٢) انظر دلائل الإعجاز ص ١٣٣.

(٣) انظر الطراز: ٢ / ٣٤.

المعطوف والمعطوف عليه من تباعد وتباين، وفي اقترانه به تشریف وتعظيم وحث على مزيد من البر والعطف.

وترى في قوله تعالى: ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ۝١٥٤ لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنْيَاسًا كَثِيرًا ۝١٥٥ ﴾ [الفرقان: ٤٨ - ٤٩]، تقديمًا للأنعام على الأناسي؛ لأن في حياة الأنعام حياة للأناسي...

وقد يكون في التقديم تعظيم وتشریف للمقدم كما في قوله تعالى: ﴿ فَأَوْلَتْكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء: ٦٩]، وقوله عز وجل: ﴿ وَالسَّيْفُورَ الْأَوْثُونَ مِنَ الْأَمُهَجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ ﴾ [التوبة: ١٠٠].

وقد يكون التقديم للترقي من العدد القليل إلى العدد الكبير كما في قوله تعالى: ﴿ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلثَ وَرُبْعًا ﴾ [النساء: ٣].

وقوله عز وجل: ﴿ جَاعِلِ الْعَمَلِ نَكَبًا رُسُلًا أُولَىٰ أَجْنَحَةٍ مَثْنَى وَثُلثَ وَرُبْعًا ﴾ [فاطر: ١]، أو للتدني من الكثير إلى القليل كما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعْطِيكُمْ يَوْمَئِذٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَىٰ ﴾ [سبأ: ٤٦]، أو مراعاة للتقديم الزمني كما في قوله عز وجل: ﴿ وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ ﴾ [التوبة: ١١١]، إلى غير ذلك مما يكمن وراء عطف المفردات من دقائق وأسرار.



الوصل والفصل بين الجمل

عرفنا فيما سبق أن الجمل نوعان: جمل لها محل من الإعراب، وجمل لا محل لها من الإعراب، كما عرفنا أن الجمل التي لها محل من الإعراب حكمها حكم المفرد، لأنها تقع موقعه وتأخذ حكمه الإعرابي، فالعطف عليها يكون بمثابة العطف على المفرد.

يقول عبد القاهر: «الجمل المعطوف بعضها على بعض، على ضربين، أحدهما: أن يكون للمعطوف عليها موضع من الإعراب، وإذا كانت كذلك، كان حكمها حكم المفرد، إذ لا يكون للجمل على موضع من الإعراب حتى تكون واقعة موقع المفرد

وإذا كانت الجملة الأولى واقعة موقع المفرد، وكان عطف الثانية عليها جاريًا مجرى عطف المفرد، كان وجه الحاجة إلى الواو ظاهرًا، والإشراك بها في الحكم موجودًا^(١).

وهذا لا يعني أن الجمل التي لها محل من الإعراب لا تخضع لما تخضع له الجمل الأخرى التي ليس لها محل من الإعراب، بل هي خاضعة لما تخضع له وما يجري على هذه من أحكام الفصل والوصل يجري على تلك، بالإضافة إلى أن الجمل التي لها محل من الإعراب تختص بخضوعها لهذا الحكم الظاهر وهو وقوعها موقع المفرد، فإذا أردنا إشراك الجملة الثانية للأولى في حكمها الإعرابي عطفنا بالواو مع مراعاة المناسبة أو الجهة الجامعة التي تسوغ العطف، وإذا لم نرد التشريك في الحكم الإعرابي يمتنع العطف.

فتعالوا ننظر في هذا الحكم الذي تختص به الجمل التي لها محل من الإعراب، ثم نمضي بعد ذلك إلى مواضع الفصل والوصل التي تخضع لها جميع الجمل.



متى توصل الجمل التي لها محل من الإعراب؟

ومتى يتعين فصلها؟

: توصل الجمل التي لها محل من الإعراب، إذا قصد تشريك الثانية للأولى في حكمها الإعرابي، وكان بينهما مناسبة، أي: جهة جامعة تسوغ العطف، كما في قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ أَمْعَافًا كَثِيرًا وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٥]، فجملة «يقبض» وقعت خبرًا للفظ الجلالة، وجملة «يبسط» عطف عليها بالواو؛ لأن القصد إشراك الثانية للأولى في الحكم الإعرابي وهو وقوعها خبرًا للمبتدأ، وبين الجملتين تناسب، إذ المسند إليه في كل منهما واحد وهو الله عز وجل، وبين المسندين «يقبض ويبسط» تضاد فهما متناسبان.

(١) انظر دلائل الإعجاز ص ١٤٦.

وسر بلاغة الوصل في هذا الموطن أن الآية الكريمة تصور عظمة القادر، وأنه بيده الأمر وإليه المرجع، فالجمع بين القبض والبسط مما يحقق ذلك، ولو ترك العطف فقيل في غير القرآن: والله يقبض يبسط بدون الواو، لكان ذلك موهماً أن قولنا: «يبسط» رجوع عن قولنا: يقبض وإبطال له، وما يبرز تلك العظمة أيضاً عطف جملة «وإليه ترجعون» على جملة «وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ» لما بينهما من التوسط بين الكمالين وعدم المانع من العطف - الآتي بيانه.

وانظر إلى ما أفادته «الفاء» في قوله «فيضاعفه له» من الترتيب والتعقيب... نظم بديع ودقائق عجيبة، المتصدق المنفق في سبيل الله كأنه يقرض الله قرضاً حسناً، والله عز وجل يعجل له الثواب بل ويضاعفه له أضعافاً كثيرة، والذي يبادر بمضاعفة الثواب هو الله القادر، الذي يقبض ويبسط وإليه المرجع والمآل... وفي هذا حث على البذل والعطاء وتأكيد للإثابة ما بعده تأكيد.

ومن أمثلة العطف لقصد التشريك في الحكم الإعرابي قولنا: «فلان يعطي ويمنع ويضر وينفع ويأمر وينهي ويحسن ويسيء ويحل ويعقد...» نجد أن الواو قد أضفت على المعنى قوة وظهوراً، حيث أوجبت للمسدد إليه الفعلين معاً، وجعلته يفعلهما جميعاً، ولو قلت: يعطي يمنع... يضر ينفع، من غير واو لم يجب ذلك، بل قد يجوز أن يكون رجوعاً عن الأول وإبطالاً له... وغالباً ما تستعمل مثل هذه الأساليب في مقام المدح الذي يحتاج إلى المبالغة وإظهار قوة الفعل^(١).

تأمل قول أبي تمام مادحاً:

لَهَانَ عَلِيًّا أَنْ نَقُولَ وَتَفْعَلَا وَتَذَكَّرَ بَعْضَ الْفَضْلِ مِنْكَ وَتُفْضِلَا

نجد أن جملة «أن نقول» قد وقعت فاعلاً للفعل «هان» حيث سبل منها مع أن مصدر، ووقع المصدر المؤول من أن والفعل فاعلاً، ثم اشتركت معها بقية الجمل في هذا الحكم فعظفت بالواو، ولو أردت إسقاط هذه الواوات ما استطعت إلى ذلك سبيلاً؛ لأنك تجد المعنى يمتنع عليك، -نيت أراد أبو تمام أن يجمع بين مدحه وكرم

(١) انظر دلائل الإعجاز ص ١٤٨.

المدح وبين ذكره لبعض فضائل المدح وزيادة المدح في العطاء... فأى واو تطاوعك في الذهاب دون أن يضع المعنى الذي قصد إليه الشاعر؟

وتأمل قول اللهبي - الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب (ت ٩٥هـ):

لَا تَطْمَعُوا أَنْ تُهَيُّوْنَا وَنُكْرِمَكُمُ وَأَنْ نَكْفَ الْأَدَى عَنكُمُ وَتُوذُونَا

تجده قد قصد إلى الجمع بين الإهانة والإكرام وبين كف الأذى والإيذاء، ولا يخفى عليك مدى الترابط بين هذه الجمل، وأنت لو حاولت نزع جملة منها لاختل المعنى وضاع غرض الشاعر.

ومن ذلك قول المتنبي:

وَلِلسَّرِّ مَنِّي مَوْضِعٌ لَا يَنَالُهُ نَدِيمٌ وَلَا يُفْضِي إِلَيْهِ شَرَابٌ

فقد اشتركت الجملتان: «لا يناله نديم» و«لا يفضي إليه شراب» في وقوعهما صفة لموضع، ومقام المبالغة في كتمان السر يقتضي هذه المشاركة.

ومثله قول المعري:

وَحُبُّ الْعَيْشِ أَغْبَدَ كُلَّ حُرٍّ وَعَلَّمَ سَاغِبًا أَكَلَ الْمَرَارَ^(١)

اشتركت الجملتان: «أعبد كل حر» و«علم ساغبا أكل المرار» في وقوعهما خبراً للمبتدأ «حب العيش»، ولو أسقطنا الجملة الثانية لضاع غرض المعري، حيث أراد: أن حب الحياة حباً شديداً والجري وراء متاع الدنيا قد جعل الحر عبداً واضطر الإنسان إلى أن يحتمل الأذى، وهذا المعنى لا يتحقق إلا بالجملتين معاً.

وخذ قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٩٧]، تجد الجملتين: «لا يستطيعون نصركم»، و«لا أنفسهم ينصرون»، وقد وقعتا خبراً للمبتدأ، والجمع بينهما يحقق ما تهدف إليه الآية الكريمة من تحقير هذه المعبودات، وهذا لا يتم إلا بالجملتين معاً كما لا يخفى.

(١) السَّبُّ: الجوع مع التعب، يقال: سب سبباً، أي: جاع مع تعب، والمسغبة: المجاعة، قال تعالى: (أو إطعام في يوم ذي

إلى غير ذلك من الشواهد والأمثلة التي يكون هدف المتكلم من ورائها اشتراك الجملتين في الحكم الإعرابي كقولك: علي يقرأ ويكتب... ألم تعلم أي أحترمك وأقدرك... إني أحسنت وأسأت... يكفيك ما قلت وسمعت... أحسن أن تنتهي عن شيء وتأتي مثله... ولا يخفى عليك وجه المناسبة بين الجملتين في كل ما مر من شواهد وأمثلة، فإذا انعدمت المناسبة بين الجملتين امتنع اقتراحهما، فلا تقول: هو يكتب الشعر ويأكل السمك، حيث لا مناسبة بين كتابة الشعر وأكل السمك...

ولهذا عيب قول أبي تمام:

لَا وَالَّذِي هُوَ عَالِمٌ أَنَّ النَّوَى صَبِيرٌ وَأَنَّ أَبَا الْحُسَيْنِ كَرِيمٌ

سواء أجعل من عطف المفرد على المفرد، أي: عطف كرم أبي الحسين على مرارة النوى أم عن عطف الجمل أي: عطف جملة: «أن أبا الحسين كريم» على جملة «أن النوى صبر» ووقوعها معاً مفعولاً به لقوله «عالم» وقد مر بنا البيت في عطف المفرات ووقفنا على دفاع من حاول الدفاع عن أبي تمام وأن يلتبس وجهها للمناسبة بين كرم المدح ومراره الفراق.

وأذكرك هنا بما قلته هناك من أن المناسبة والتآلف مطلوب بين المفردات وبين الجمل سواء أعطفت أم اقترنت بدون عطف، فكما لا يجوز أن تقول: هو يكتب الشعر ويأكل السمك، فإنه يمتنع أيضاً قولك: هو يكتب الشعر يأكل السمك، بدون واو وكذا يمتنع الجمع بين مرارة الفراق وكرم المدح بلا عطف.. فلا وجه إذاً لما صنعه البلاغيون من قصرهم المناسبة على المفردات المعطوفة والجمل المعطوفة، لأن المناسبة بين المفردات أو الجمل مطلوبة عند اقتراحها بالعطف أو بدون العطف.

هذا وقول البلاغيين: «إن قصدت التشريك في الحكم الإعرابي عطفت»^(١)

معناه: جواز العطف وأنه هو الغالب والأكثر ولا يفهم منه وجوب العطف، لأن مرادهم أنك إذا لم تقصد التشريك في الإعراب يمتنع العطف حتى لا يتوهم خلاف المراد، ومما يرجح هذا الزعم قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنِ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴿٣﴾

عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿١٠﴾ [الرحمن: ١-٤]، حيث اشتركت الجمل الثلاث في وقوعها خبرًا للسبتداء، وقد جاءت مفصولة كما ترى... ومن ذلك قولنا: فلان أعناك بعد فقر، أعزك بعد ذل. كثرك بعد قلة، فعل لك ما لم يفعله أحد لأحد، فهاذا تنكر من إحسانه؟

ومنه قول أبي هلال:

ووجهٌ تَشْرَبُ مَاءَ النَّعِيمِ فَلَوْ عَصَرَ الْحُسْنُ مِنْهُ انْعَصَرَ
يُسْرُ فَاْمْتَحْنُهُ نَاطِرِي فَيَنْشُرُ وَرْدًا عَلَيْهِ الْخَفَرُ

ومجيء هذه الجمل المشتركة في الحكم الإعرابي منقطعة يشعر بأن كل واحدة منها تنهض بالغرض وحدها من غير أن ينضم إليها غيرها^(١).

-وكما قلت- فإن الغالب والأكثر أن تجيء الجمل التي قصد تشريكها في الحكم الإعرابي معطوفة، على نحو ما مر بنا من شواهد، بل أحيانًا نجد أن هذا العطف واجب قد تعين وأن تركه يوهم خلاف المراد -كما رأينا في قوله تعالى: «والله يقبض ويبسط»، وقولهم: «فلان يعطي ويمنع ويحل ويعقد».

وقول اللهبي -الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب (ت ٩٥هـ):

لَا تَطْمَعُوا أَنْ تُهَيِّنُونَا وَتُكْرِمَكُمُ وَأَنْ نَكْفَ الْأَدَى عَنكُمْ وَتُوذُونَا

فترك العطف في مثل هذه الشواهد يوهم إبطال الجملة الأولى والرجوع عنها، ومن ثم وجب وصلها حتى لا يتوهم خلاف المراد.

فإذا لم يقصد تشريك الجملة الثانية للأولى في الحكم الإعرابي تعين فصلهما، لأن الوصل عندئذ يوهم خلاف المراد، تأمل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامِنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾ [البقرة: ١٤-١٥]، تجد أن جملة: «الله يستهزئ بهم»، قد فصلت عن جملة «إنا معكم» حيث لم يقصد التشريك بينها في الحكم الإعرابي، فجملة: «إنا معكم» مقول القول، وجملة «الله يستهزئ بهم»، إخبار من الله عز وجل، ولو

(١) ارجع إلى دلالات التراكيب ص ٣٠٤.

وصلت بالأولى لأدى هذا الوصل إلى توهم أنها من مقول المنافقين، فدفعا لهذا التوهم تعين الفصل بينهما.

أما فصل: «إنا معكم» عن «إنا نحن مستهزون» فلكمال الاتصال الآتي بيانه، وكذا لا يجوز عطف: «الله يستهزئ بهم»، على جواب الشرط: «قالوا»، لأن استهزاء الله بهم غير مقيد بوقت خلوهم إلى شياطينهم... ولاحظ الوصل بين جملتي: «يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم» لوقوعها خبرا للفظ الجلالة، فالعطف لقصد التشريك في الحكم.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [البقرة: ١١ - ١٢]، فجملة: «ألا إنهم هم المفسدون» لم يقصد تشريكها في الحكم الإعرابي لجملة: «إنا نحن مصلحون»، لأنها ليست من مقولهم بل هي من كلام رب العزة، إخبار منه تعالى، ولذا وجب الفصل بينهما حتى لا يتوهم غير المراد.

ومثله قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ ﴿١٣﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾﴾ [البقرة: ١٣]، فقد فصل: «ألا إنهم هم السفهاء»، عن: «أنؤمن كما آمن السفهاء»، حتى لا يتوهم أنها من كلام المنافقين، وهو ما لا يخفى فساده... ولاحظ في الآيتين الوصل بين جملتي: إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون»، وبين جملتي: «إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون»، والوصل بينهما للتوسط بين الكبارين مع عدم المانع من العطف - كما سنرى في مواضع الوصل -.

هذا وقصد التشريك في الحكم الإعرابي أو عدم قصده وإن كان ظاهرا بيئا في كثير من التراكيب، إلا أنه قد يدق ويلطف بحيث يحتاج إلى مزيد من التأمل والنظر...

انظر في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمِيَّتَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذَرَيْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ ﴿٣٦﴾﴾ [آل عمران: ٣٦]، فقد يقول صاحب النظرة العاجلة إن الجمل: «رب إنني وضعتها أنثى...»

وليس الذكر كالأنثى، وإني سميتها مريم، وإني أعيذها»، من مقول مريم، أما جملة: «والله أعلم بما وضعت»، فمن كلام الله تعالى، وقد جاءت موصولة بمقولات مريم، ولكن عندما يتأني هذا العاجل ويتأمل يتضح له أن هذه الجملة: «والله أعلم بما وضعت» جملة اعتراضية وليست معطوفة على مقولات مريم، وهنالك قراءة بضم تاء: «وضعت»، وعلى هذه القراءة تكون الجملة من مقولات مريم، ويكون في التركيب التفات من الخطاب في «رب» إلى الغيبة في: «والله» ثم التفات ثان إلى الخطاب في: «وإني أعيذها بك...»، ووراء هذا الالتفات سر بلاغي دقيق وهو الإشارة إلى بعد المنزلة وعلو المكانة وكهال علمه تعالى ثم إلى قربه من عباده فهو أقرب إليهم من جبل الوريد، ولذا عندما دعت مريم خاطبت: «رب إني... وإني أعيذها بك وذريتها...»، وعندما أخبرت عن علمه، التفتت إلى الغيبة: «والله أعلم بما وضعت» ففي هذا الالتفات إنباء ببعدها المنزلة وعلو المكانة وكهال علم الله تبارك وتعالى.

وخلاصة القول أن الجمل التي لها محل من الإعراب إذا قصد إشراكها في الحكم الإعرابي وصلت، وقد ترد نادراً بلا وصل... وإذا لم يقصد التشريك وجب فصلها؛ لأن الوصل عندئذ يوهم خلاف المراد... وهذا الحكم يختص كما هو واضح بالجمل التي لها محل من الإعراب، ثم هي تخضع لأحكام فصل ووصل الجمل التي ليس لها محل من الإعراب، والتي سنتحدث عنها الآن.



مواضع الفصل

ذكر البلاغيون أن الفصل بين الجمل ينحصر في خمسة مواضع هي:

١- كهال الاتصال: وهو أن تتفق الجملتان في الإنشائية أو الخبرية لفظاً ومعنى أو معنى فقط، ويكون بينهما من الاتصال والاتحاد والتلاحم ما يمنع العطف بالواو، لأن العطف وصل خارجي، وهذه الجمل قد صار ما بينها من التلاحم والاتصال والترابط أقوى وأشد من الربط الخارجي، ولذلك ينبغي أن نقول: ترك العطف بين هذه الجمل لقوة اتصالها وشدة ترابطها، ولا يقال: فصل بينها، وترجع قوة اتصال تلك الجمل وشدة ترابطها إلى أمور ثلاثة:

الأول: أن تكون الجملة الثانية مؤكدة للأولى تأكيداً لفظياً أو معنوياً، انظر إلى قوله تعالى: ﴿ فَمَهْلِ الْكَافِرِينَ أَهْمَلَهُمْ زُوَيْدًا ﴾ [الطارق: ١٧]، نجد أن الجملة الثانية «أهملهم زويدا»، توافق الجملة الأولى في اللفظ والمعنى وأنها تؤكد لفظي لها، ولذا صارت الصلة قوية بين الجملتين فلا تحتاج إلى ربط بالواو؛ لأن التوكيد والمؤكد كالشيء الواحد، ومن ثم ترك العطف لعدم صحة عطف الشيء على نفسه.

وتأمل قوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ أَلْكَتَبُ لَا رَبَّ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ٢]، نجد أن الجملة الأولى: «ذلك الكتاب» أفادت: أن القرآن الكريم هو الكتاب الكامل الذي بلغ الغاية القصوى في كمال الهداية، وترجع هذه الإفادة إلى تعريف الطرفين: تعريف المسند إليه باسم الإشارة الدال على البعيد «ذلك» إشارة إلى بعد المنزلة وعلو المكانة، وتعريف المسند بالألف واللام «الكتاب»... وجملة «لا ريب فيه» تفيد نفي الريب عنه وأنه لا يتطرق إليه شك، وهذا تقرير وتأكيد لمعنى الجملة الأولى، إذ يلزم من بلوغ القرآن الكريم درجة الكمال ألا يكون محلاً للريب والشك، فجاءت جملة «لا ريب فيه» مقررة لهذا المعنى، ومؤكدة له...

وجملة «هدى للمتقين»، تفيد بلوغ القرآن في الهداية مبلغاً لا يدرك كنهه، حتى كأنه هداية محضة، وهذا مأخوذ من تنكير «هدى» الذي يدل على التعظيم، ومن أنه لم يقل «هاد»، بل «هدى»، وهدى خبر لمبتدأ محذوف أي هو هدى، فهو الهداية نفسها، ولا يخفى عليك تأكيد هذه الجملة لمعنى الجملة الأولى: «ذلك الكتاب»... ولذا ترك العطف بين هذه الجمل لأن بينها اتصال قوي فهي لا تحتاج إلى ربط بالواو.

وخذ قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شِيَطَانِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ [البقرة: ١٤]، فجملة «إنما نحن مستهزون» مؤكدة لجملة «إنما معكم»، لأنهم ما داموا مستهزئين بالإسلام وأهله، فهم مستمرين في معية شياطينهم... ولاحظ أن الجملتين قد وقعتا مقولاً للقول وهذا يؤكد ما قلناه لك من أن الجمل التي لها محل من الإعراب تخضع لمواضع الفصل والوصل التي تخضع لها الجمل التي ليس لها محل.

وتأمل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٦٩﴾ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٩﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتُونَ الْآخِرَ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٦٩﴾ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا ﴿٦٩﴾ [البقرة: ٦٩-٦٩]. نجد أن جملة: «لا يؤمنون» مؤكدة لجملة: «سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم»، لأن معنى الثانية: يستوي عندهم الإنذار وعدمه، وجملة: «ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم...» تأكيد ثان أبلغ من التوكيد الأول لأن من كانت حاله إذا أنذر مثل حاله إذا لم ينذر، كان في غاية الجهل وكان مطبوعاً على قلبه لا محالة، وعلى سمعه، وكان على بصره غشاوة، تحول بينه وبين رؤية الحق، ولذا ترك العاطف بين هذه الجمل الثلاث لما بينها من كمال الاتصال.

كما نجد أن جملة «يخادعون الله والذين آمنوا» مؤكدة لجملة «آمنوا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين»؛ لأن من يضمّر خلاف ما يظهر؛ فإنه يخادع... يخادع الله، ويخادع رسوله، ويخادع المؤمنين.

وانظر في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ لَأْتُننِّي عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا وَلِي مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنِهِ وَقْرًا﴾ ﴿٧﴾ [لقمان: ٧]، نجد أن جملة: «كأن في أذنيه وقرا» مؤكدة لجملة: «كأن لم يسمعها»، لأن معنى «كأن لم يسمعها»، أنه لم يسمعها مصادفة أو قصداً لعدم سماعها، ومعنى الثانية: أنه لم يسمعها لفساد سمعه، فلما كانت الثانية مقررة ومؤكدة للأولى ترك العطف لما بينها من كمال الاتصال.

هذا -وكما ذكرت لك- أن الجملة الثانية المؤكدة للأولى، إما أن تكون بمثابة التوكيد اللفظي، وهو ما يكون مضمون الجملة الثانية فيه مؤكداً لمضمون الجملة الأولى لاتفاق مفهوميها كما رأينا في الآية الكريمة ﴿فَمَهَلِ الْكَافِرِينَ أَنهَلَهُمْ رَبُّنَا﴾ ﴿١٧﴾ [الطارق: ١٧]، وكما في الآية الكريمة: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿١٧﴾؛ فجملة: «هدى للمتقين» يتفق مفهوماً مع جملة: «ذلك الكتاب»؛ لأن الكمال فيهما كمال في الهداية -كما رأينا-.

وإما أن تكون الثانية منزلة من الأولى منزلة التوكيد المعنوي وهو أن يختلف مفهوم الجملتين، ويكون معنى الثانية مقرراً لمعنى الأولى على نحو ما رأينا في

الشواهد المذكورة، وهذا يعني أن الجملة الثانية تتضمن معنى جديدًا، ولكنه يؤكد معنى الأولى...

تأمل الآية: ﴿كَانَ لَرَبِّسَمْعَهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ [لقمان: ٧]، نجد أن الجملة الثانية تحمل معنى جديدًا يخالف معنى الأولى، ولكنه يؤكد ويقرره..

وتأمل الآية الكريمة: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ نجد أن جملة: «لا ريب فيه»، تحمل معنى جديدًا وهو نفي الريب عن القرآن، وهذا المعنى يؤكد ويقرر معنى الجملة الأولى: «ذلك الكتاب».

وانظر في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وتأمل شدة التلاحم وقوة الاتصال بين الجمل في هذا القول الكريم، ثم لاحظ أن كل جملة منها تحمل معنى جديدًا يغير معنى الأخرى، ولكنها تصب جميعًا في جهة واحدة، وتهدف إلى غاية واحدة، ألا وهي توكيد الوحدانية^(١).

ومن أقوالهم في هذا الصدد قول المتنبي:

وَمَا الدَّهْرُ إِلَّا مِنْ رُؤَاةٍ قَصَائِدِي إِذَا قُلْتُ شِعْرًا أَصْبَحَ الدَّهْرُ مُنْشِدًا

فالشطر الثاني لم يعطف على الشطر الأول، لأنها قد اتحدت في المعنى واللفظ، فلا حاجة إلى وصلها بالواو لقوة الرابطة وشدة الاتصال بينها.

وقول الأحوص:

إِذَا رُمْتُ عَنْهَا سَلْوَةٌ قَالَ شَافِعٌ مِنْ الحُبِّ مِعَادُ السَّلْوِ المَقَابِرُ
سَتَبَقَى لَهَا فِي مُضْمَرِ القَلْبِ وَالْحَسَا سَرِيرَةٌ حُبِّ يَوْمٍ تُبْلَى السَّرَائِرُ

فجملة: «ستبقى لها...» مؤكدة ومقررة لجملة: «ميعاد السلو المقابر» ولذا ترك العاطف: لأن شدة الترابط وكمال الاتصال بينهما لا يحوجان إليه.

(١) ارجع إلى دلالات التراكيب ٣١٥.

الثاني: أن تكون الجملة الثانية منزلة من الأولى منزلة بدل الكل أو البعض أو بدل الاشتمال.. من ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَتَقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ١٣٢ - ١٣٤]، فصلت الجملة الثانية: «أمدكم بأنعام...» عن الأولى «أمدكم بما تعلمون»، لأن الثانية بمثابة بدل البعض من الأولى حيث إن النعم الأربع المذكورة بعض من النعم التي يعلمونها، فبين الجملتين ترابط قوي وكمال اتصال لا تحتاجان معه إلى ربط بالواو.

ومثله قوله تعالى: ﴿يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بَلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوفَّقُونَ﴾ [الرعد: ٢]، فقوله: «يفصل الآيات» بدل بعض من قوله: «يدبر الأمر»، لأن تدبير الأمر يشمل تفصيل الآيات وغيرها.

وخذ قوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ﴾ [المؤمنون: ٨١، ٨٢]، تجد أن الجملة الثانية بمثابة بدل الكل من الجملة الأولى.

وقوله عز وجل: ﴿قَالَ يَنْفَرُوا لِيَتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ [التوبة: ٢٠، ٢١]، فصلت الجملة الثانية: «اتبعوا من لا يسألكم أجراً» عن الأولى: «اتبعوا المرسلين» لأن الثانية بمنزلة بدل الاشتمال من الأولى، إذ المراد من الأولى حمل المخاطبين على اتباع الرسل والجمال الثانية أوفى بهذا، لأن معناها: أنتم لا تخشرون شيئاً من دنياكم، وترهبون صحة دينكم، فيكون لكم جزاء الدنيا وجزاء الآخرة.

ولا يخفى عليك أن الجملة الثانية التي هي بمثابة البدل أوفى بتأدية المعنى من الأولى فقوله: «أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون» أوفى بتأدية المعنى المراد من قوله: «أمدكم بما تعلمون» حيث دلت على المعنى بالتفصيل من غير إحالة إلى علمهم وهم المعاندون.. وكذا قوله: «اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون» أوفى في حمل المخاطبين على الاتباع من قوله: «اتبعوا المرسلين».. وهذا هو سر الإيضاح وداعي الكمال الموجب للفصل.

وانظر إلى قول الأخطل:

أَقُولُ لَهُ ارْحَلْ لَا تَقِيمَنَّ عِنْدَنَا وَإِلَّا فَكُنْ فِي السَّرِّ وَالْبَجْهِرِ مُسْلِمًا

تجد أن قوله: «لا تقيمن» بدل اشتغال من قوله «ارحل»، وقوله «لا تقيمن» أوفى بتأدية المراد، إذ المقصود: إظهار شدة الكراهة لإقامته بسبب خلاف سره العلن، وقوله: «لا تقيمن» يحقق ذلك، لأنك إذا قلت: لا تقم عندي، لم تقصد كفه عن الإقامة فحسب، وإنما تقصد إظهار الكراهة لإقامته.

الثالث: أن تكون الجملة الثانية بيانا للجملة الأولى، كما في قوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا قَدْ أَدْبَسَ لَكَ الشَّجَرَةَ الَّتِي كَانَتْ تَكْفُرُ بِكَ وَأَنَّكَ لَآتِيهَا فَيَكْفُرُ بِكَ وَأَنَّكَ لَآتِيهَا فَيَكْفُرُ بِكَ وَأَنَّكَ لَآتِيهَا فَيَكْفُرُ بِكَ﴾ [طه: ١٢٠]، ففي الجملة الأولى: خفاء وإبهام، وفي الثانية بيان وإيضاح له، والبيان والمبين كالشيء الواحد فلا يعطف أحدهما على الآخر لما بينهما من قوة الترابط وكمال الاتصال...

وتكمن بلاغة هذه الصورة في أن للبيان بعد الإبهام وقعاً في النفس وأثراً حسناً، فالشيء، إذا أبهم تطلعت إليه النفس واشتاقت لبيانه، فإذا ما جاء البيان صادف نفساً يقظة متطلعة، فيتمكن فيها فضل تمكن.

ومن شواهد ذلك قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَذْكَرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٣]، فجملة الاستفهام بيان لقوله: «اذكروا نعمة الله عليكم»، وقوله عز وجل: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَابِ رِجَالًا لَا يَعْرِفُونَهُمْ بِسْمَانِهِمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأعراف: ٤٨]، فجملة: «قالوا: ما أغنى عنكم»، بيان لجملة: «نادى أصحاب الأعراف».

وانظر في قول لبيد:

ذَهَبَ الَّذِينَ يُعَاشُ فِي أَكْتَابِهِمْ وَيَقِيْتُ فِي خَلْفِ كَجِلْدِ الْأَجْرَبِ
يَتَأْكَلُونَ مَغَالَةَ وَخِيَانَةَ وَيُعَابُ قَائِلُهُمْ وَإِنْ لَمْ يَشْغَبِ

تجد أن قوله: «يتأكلون مغالة وخيانة» بيان لقوله: «بقيت في خلف كجلد الأجرب».

وخذ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنَ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٩]، تجد أن جملة: «يذبحون أبناءكم»، والجملة المعطوفة عليها: «ويستحيون نساءكم» بيان وإيضاح لجملة: «يسومونكم سوء».

العذاب». ولذا لم يعطفا عليها بالواو لما بينهما من شدة ترابط وقوة تلاحم وكهال اتصال.

ثم انظر في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ أذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَخْرَجْتُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُدَّبِحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾﴾ [إبراهيم: ٦]، تجد أن الواو في هذه الآية من سورة إبراهيم قد وصلت جملتي «يسومونكم سوء العذاب»، «يذبحون أبناءكم» وذلك لأن المقام مقام تذكير بنعم الله تعالى... «اذكروا نعمة الله عليكم...»، وهذا يقتضي تعداد النعم، فجعل الإنجاء من سوء العذاب نعمة، وإنجاء الأبناء من التذبيح نعمة أخرى. وكأن التذبيح جنس آخر لأنه أوفى على جنس العذاب وزاد عليه، ثم جاء إنجاء النساء من الاستحياء نعمة ثالثة.

أما في سورة البقرة فليس المقام مقام تذكير بالنعم، بل هو سرد للقصة وعرض لها وهذا قد اقتضى أن تكون الجملة الثانية وما عطف عليها: «يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم»، بياناً وتفسيراً للجملة الأولى: «يسومونكم سوء العذاب» وليستا جنسين آخرين مغايرين لسوء العذاب.

يقول الزمخشري: «فإن قلت: في سورة البقرة: يذبحون» وفي الأعراف «يقتلون» وههنا: «يذبحون» مع الواو، فما الفرق؟ قلت: الفرق أن التذبيح حيث طرح الواو جعل تفسيراً للعذاب وبياناً له، وحيث أثبت جعل التذبيح لأنه أوفى على جنس العذاب وزاد عليه زيادة ظاهرة كأنه جنس آخر...»^(١).

وهذا هو شأن الواو عندما تأتي بين الجمل التي بينها كمال اتصال وقوة ترابط، لأن ما فيها من معنى التغاير الذي لا يبرحها ينعكس على هذه الجمل فيوهم أنها معان متباينة ومختلفة، ووراء ذلك تكمن الأسرار والدقائق اللطيفة.

انظر إلى قوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمَسْحُورِينَ ﴿٦٦﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ

(١) الكشاف ٢ / ٣٦٨... أما إثار التعبير بالتذبيح في سورتي «البقرة وإبراهيم»، وبالتقتيل في سورة: «الأعراف» فمرده إلى اختلاف سنن من يذبح عن سنن من يقتل، وهذا يتجل لك بمراجعة السياق... انظر كتابنا: من بلاغة النظم القرآني.

إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِيْنَ ﴿ [الشعراء: ١٥٢، ١٥٣]، ثم إلى قوله عز وجل في نفس السورة عن قوم شعيب: ﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴾ ﴿١﴾ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بُشْرٌ مِّثْلُنَا وَإِنْ نَطْنُكَ لَمِنَ الْكَٰذِبِينَ ﴿٢﴾ فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِيْنَ ﴿ [الشعراء: ١٨٥-١٨٧]، نجد أن الواو قد ذكرت بين جملتي: «إنما أنت من المسحرين»، «ما أنت إلا بشر مثلنا» في مقالة أصحاب الأيكة لشعيب، وتركت في مقالة ثمود لصالح.

ويعلل الزمخشري ذلك بقوله: «فإن قلت: هل اختلف المعنى بإدخال الواو ههنا وتركها في قصة ثمود؟ قلت: إذا أدخلت فقد قصد معنيان كلاهما مناف للرسالة عندهم: التسخير والبشرية، وأن الرسول لا يجوز أن يكون مسحرا ولا يجوز أن يكون بشرا، وإذا تركت الواو فلم يقصد إلا معنى واحد وهو كونه مسحرا ثم قرر بكونه بشرا مثلهم...»^(١).

وكان أصحاب الأيكة أرادوا أن يعددوا في مقالته الأسباب المنافية للرسالة، ولذا أضافوا: «وإن نظنك لمن الكاذبين»، فصارت الأسباب ثلاثة: كونه مسحرا وكونه بشرا وكونه من الكاذبين، أما ثمود فكأنهم لم يقصدوا تعدادا لهذه الأسباب ولذلك ذكروا سببا واحداً وهو كونه مسحرا ثم قرروه بكونه بشرا.

وخذ قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [هود: ٥٨]، وقوله عز وجل: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ ۗ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ [الأحزاب: ٧]، وتأمل نجد أن جملة: «ونجيناهم من عذاب غليظ»، مؤكدة لقوله: «نجينا هودا...»، وكذا جملة: «وأخذنا منهم ميثاقا غليظا» مؤكدة لقوله «أخذنا من النبيين ميثاقهم» فبين الجملتين كمال اتصال، وعلى الرغم من ذلك لم تترك الواو، بل جيء بها لغرض لطيف وسر دقيق، وهو التنويه بشأن الميثاق، والتفخيم والتهويل من شأن العذاب، ولذا وُصِفَ كُلُّ مِنْهَا بِالغَلْظِ، فالعطف بالواو مع الوصف بالغلظ يبيى بأن الميثاق المأخوذ من النبيين صار كأنه ميثاق آخر مغاير للأول، وأن العذاب الذي نجى منه

هود ومن معه صار كأنه عذاب آخر غير الأول وفي هذا ما ينبئ بعظم الميثاق ويومئ إلى هول العذاب وفظاعته.

وانظر في قول زهير بن جناب الكلبي:

أَبِيَّيْ إِذَا أَهْلِكَ فَإِنِّي قَدْ بَنَيْتُ لَكُمْ بِنِيَّةً
وَجَعَلْتُكُمْ أَبْنَاءَ سَادَاتٍ زِنَادُكُمْ وَرِيَّةً

تجد أن جملة: «جعلتكم أبناء سادات»، بيان لجملة: «بنيت لكم بنية»، وقد وصلها الشاعر «زهير بن جناب الكلبي» بالواو التي تقتضي المغايرة، وذلك لتمييز المعنى الذي دخلت عليه الواو في باب الشرف والسيادة، وكأنه يريد أن يجعله فوق ما ذكره في البيت الأول ومتميزاً عنه.

ثم تأمل الآيات الكريمة ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنقُوا اللَّهَ وَلَتَنْظُرَنَّهُمْ مَا قَدَّمْتُمْ لِغَيْرِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨]، ﴿فَإِذَا أَقَضْتُمْ مِنْ عَرَفْتُمْ فَادْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْتُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨]، ﴿يَسْمُرِينَ إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَاكَ وَطَهَّرَكَ وَأَصْطَفَاكَ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢]، ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَعْلَى فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الرعد: ٥]، ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥]، فلا يخفى عليك مجيء الواو في هذه الآيات بين جلل بينها قوة ترابط وشدة تلاحم وكمال اتصال، وأن هذا المجيء ينبئ بمعان دقيقة وأسرار لطيفة، فتكرار الأمر بالتقوى وعطف أحدهما على الآخر يؤذن بأن الأمر الثاني غير الأول، ووراء ذلك إعلاء لشأن التقوى وحث عليها.

وكذا وصل الأمرين بالذكر بالذكر «فاذكروا الله... واذكروه» إعلاء لشأن الذكر وحث عليه، وكان الأمر الثاني غير الأول... وفي عطف الاصطفاء على الاصطفاء: «إن الله اصطفاك وطهرتك واصطفاك...» إيهام بأنها متغايران وكان الله اصطفاهما أولاً ثم رجع فاصطفاهما ثانياً، وفي هذا مزيد تكريم، ومثله عطف الفلاح على الهدى... «أولئك على هدى... وأولئك هم المفلحون» وفي آية سورة الرعد أبرزت

الواو ثلاث صور متغايرة للذين كفروا، في كل صورة منها من البشاعة والشناعة ما يجعلها شيئاً قائماً برأسه، مستقلاً عن غيره^(١).

وهكذا يتضح لنا أن مجيء الواو بين الجمل التي قد اشتد ترابطها وقوي تلاحمها وكمل اتصاها وراهه من الأسرار والدقائق واللطائف، ما لا يخفى على المتأمل الواعي والناظر الدقيق.



٢- كمال الانقطاع بلا إيهام: وهو أن يكون بين الجملتين تباين تام وانقطاع كامل ويرجع ذلك إلى اختلافهما إنشاءً وخبراً لفظاً ومعنى، أو معنى فقط، أو إلى فقدان المناسبة بينهما.

ويجب أن تعلم أن البلاغيين لا يجوزون بهذا تفكك الكلام وتنافر جملة وعدم ارتباط أجزائه وتباعد معانيه بحيث لا يضمه سياق، ولا يجمعه قران، هم لا يقصدون بكمال الانقطاع جواز الجمع بين الجمل المتشادة، لأن هذه الجملة لا يضمها سياق واحد، ولا يجمعها قران واحد سواء أعطفت أم لم تعطف، وإنما يريدون به فقدان المناسبة الخاصة التي تسوغ العطف، وتجاوز الوصل... وسيوضح لك هذا من خلال النصوص والشواهد.

ذكر البلاغيون أن كمال الانقطاع يتحقق في ثلاث صور:

الصورة الأولى: أن تختلف الجملتان خبراً وإنشاءً، لفظاً ومعنى، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ۗ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [فصلت: ٣٤]، فالجملة الأولى: «لا تستوي الحسنة ولا السيئة» خبرية لفظاً ومعنى، والجملة الثانية: «ادفع بالتي هي أحسن» إنشائية لفظاً ومعنى، والفصل بينهما لا يوهم خلاف المقصود، ولذا وجب الفصل بينهما...

ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَطُوا ۗ إِنَّ اللَّهَ مُخِيبٌ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩]، وقوله عز وجل: ﴿بَدِيعَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً ۗ﴾

(١) ارجع إلى دلالات التراكيب ص ٣٢٢ وما بعدها.

[الحجرات: ٩]، وقوله عز وجل: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أُنَىٰ يَكُونُ لَهُ، وَوَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَنِيعَةٌ﴾ [الأنعام: ١٠١]، وقوله جل وعلا: ﴿وَالرَّزِيقُونَ وَالرِّمَّانُ مُمْشِقِيهَا وَعَقَرٌ مُّثَنِيهِ أَنْظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأنعام: ٩٩]، فقد فصل بين الجمل في الآيات الكريمة لاختلافها إنشاءً وخبراً، لفظاً ومعنى، ولأن الفصل بينها لا يوهم خلاف المقصود...

وانظر في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ أُمَّلِكُمْ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١]، وقوله عز وجل: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٨٤] تجد أن الجمل الخبرية: «نحن نرزقكم... إن صلاتك سكن...» لهم كفروا بالله...»، قد فصلت عن الجمل الإنشائية قبلها، وهذا الفصل إما أن يكون سببه كمال الانقطاع حيث اختلفت الجملتان خبراً وإنشاءً لفظاً ومعنى، وإما أن يكون سببه شبه كمال الاتصال الآتي بيانه حيث وقعت الجملة الثانية جواباً لسؤال أثارته الأولى.

ومن ذلك قول الأخطل:

وَقَالَ رَائِدُهُمْ أَرَسُوا نَزَاوِلَهَا فَكُلُّ حَتْفِ امْرِيٍّ يَجْرِي بِمِقْدَارِ
فقد فصل جملة «نزاولها» عن جملة «أرسو» لكمال الانقطاع أو لشبه كمال الاتصال، ومثله قولك: لا تدن من الأسد يأكلك، برفع «يأكل».

هذا ونرى كثيرا من الجمل التي اختلفت إنشاءً وخبراً لفظاً ومعنى وقد جاءت موصولة بالواو، انظر إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ [الأنعام: ١٢١]، وقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ وَبِعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢] وقوله عز وجل: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ۗ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ﴾ [طه: ٨، ٩]، وقوله عز قائلًا: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴿٢٤﴾ [البقرة: ٢٤، ٢٥]، وقوله عز من قائل: ﴿وَأَتَيْنَهُ الْحِكْمَةَ وَفَضَّلَ الْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسُوَّرُوا لِلْمِخْرَابِ ﴿٢١﴾﴾، تجد أن الواو

قد جاءت بين الجمل المختلفة إنشاءً وخبرًا لفظًا ومعنى... ومن ذلك المثال المشهور: «لا تأكل السمك وتشرب اللبن» برفع تشرب، وقولنا: «باسم الله، الحمد لله، وصل اللهم وسلم على نبينا محمد»، إلى غير ذلك من أقوال..

وهذه الواو قد ذهب النحاة في توجيهها إلى أنها «واو الاستئناف» وليست عاطفة للخبر على الإنشاء، حيث يذكر ابن هشام أن الواو في قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وفي قولهم: «لا تأكل السمك وتشرب اللبن» برفع: تشرب، وفي قولك: «دعني ولا أعود»، للاستئناف، وليست للعطف إذ لو كانت للعطف للزم عطف الخبر على الأمر أو النهي^(١).

وذهب البلاغيون إلى أنها لعطف القصة على القصة أي لعطف مضمون كلام مسوق لغرض، على مضمون كلام مسوق لغرض آخر...

يقول الزمخشري في توجيه العطف في قوله تعالى: ﴿أَعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ وَيُنَبِّئُ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴿ [البقرة: ٢٤، ٢٥]: «فإن قلت علام عطف هذا الأمر ولم يسبق أمر ولا نهي يصح عطفه عليه؟ قلت: ليس الذي اعتمد بالعطف هو الأمر حتى يطلب له مشاكل من أمر أو نهي يعطف عليه، إنما المعتمد بالعطف هو جملة وصف ثواب المؤمنين، فهي معطوفة على جملة وصف عقاب الكافرين كما تقول: زيد يعاقب بالقيد والإرهاق، وبشر عمرا بالعبء والإطلاق»^(٢).

وهذا هو معنى الاستئناف الذي ذكره النحاة، فهو عطف لقصة على قصة، أو بمعنى آخر: عطف مضمون كلام على مضمون كلام، أو عطف جمل مسوقة لغرض على جمل مسوقة لغرض آخر، سواء أ جاءت هذه الواو بين خبر وإنشاء، كما في الشواهد المذكورة، أم بين خبرين، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ مِنْ مُّضَعَوِّ مُحَلَّقَةٍ وَعَمْرٍ مُحَلَّقَةٍ لِنَبِيِّنَ لَكُمْ وَيُنْفِرُ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الحج: ٥]، وقوله عز وجل: ﴿مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٦].

(١) انظر معنى اللبيب: ٣٣/ ٢.

(٢) الكشف ١/ ٢٥٣.

وكما في قول الشاعر:

عَلَى الْحَكَمِ الْمَاتِيَّ يَوْمًا إِذَا قَضَى قَضِيَّةً أَلَّا يَجُورَ وَيَقْصِدُ

أم بين إنشائين كتوله تعالى: ﴿ قُلْ لَّا أَقُولُ لَكَرَّ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنَّا نَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخْفَؤْنَ أَنْ يُخْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: ٥١، ٥٠].

وقوله عز وجل: ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴿٢٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْمِنُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْمِنُونَ كَمَا تَأْمِنُونَ ﴾ [النساء: ١٠٣ - ١٠٤].

والفاء في ذلك مثل الواو في إفادة الاستئناف، والفرق بينها أن الواو لمطلق الجمع فهي تفيد جمع قصة إلى قصة، أي: تضم جملاً مسوقة لغرض إلى جمل مسوقة لغرض آخر، أما الفاء فترتب قصة على قصة، أي ترتب مضمون كلام على مضمون كلام آخر^(١).

وخلاصة القول أن الواو عندما تذكر بين الخبر والإنشاء فهي إما واو الاستئناف التي تفيد عطف القصة على القصة - كما وضحنا - وإما أن تكون عاطفة لجملة على جملة، ويكون في الكلام حذف، والذي يحدد نوع الواو أهى عاطفة أم للاستئناف، إنما هو السياق ومقتضيات الأحوال.

انظر في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا آلِيبَتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْثًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴿١٢٥﴾ [البقرة: ١٢٥]، تجد أن الأمر «اتخذوا» مقول لقول محذوف والتقدير: وقلنا اتخذوا، فالواو عاطفة لجملة خبرية على أخرى مثلها.

ومثله قوله تعالى: ﴿ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الحج: ٢٢]، أي: وقيل لهم: ذوقوا عذاب الحريق.

(١) ارجع إلى دلالات التراكيب ص ٣٤٦ وما بعدها.

وخذ قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَرَأَيْتُ أَنْتَ عَنِ الْهَيْبَةِ يَلْتَزِمُهُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَأَهْجُرَنِي مَلِيًّا ﴾ [مریم: ٤٦]، فالأمر «اهجرني» معطوف على محذوف والتقدير: فاحذرني واهجرني... أي أن الواو وصلت الجملة الإنشائية بأخرى مثلها.

الصورة الثانية: أن تختلف الجملتان بإنشاء وخبراً معنى فقط وتتفقا لفظاً، كقولنا: مات فلان رحمه الله، وقال عمر رضي الله عنه، فجملة: «رحمه الله» وجملة: «رضي الله عنه»، كل منهما خبرية لفظاً وإنشائية معنى، لأنها دعائيتان، ولذا فصل بين كل منهما وبين الجملة السابقة لاختلاف الجملتين خبرياً وإنشاء معنى فقط.

ومن ذلك قول البيدي:

مَلَكْتُهُ حَـبْلِي وَكَيْتُهُ أَلْقَاهُ مِنْ زُهْدِ عَلِيٍّ عَارِي
وَقَالَ: إِنِّي فِي الْهَوَى كَاذِبٌ انْتَقَمَ اللَّهُ مِنَ الْكَاذِبِ

فجملة: «انتقم الله...» جملة دعائية فهي خبرية لفظاً إنشائية معنى، ولذا فصل بينها وبين جملة: «قال إني في الهوى كاذب»، ويجوز أن يكون الفصل لشبه كمال الاتصال بتقدير: قلت، حيث تقع جملة: «قلت: انتقم الله من الكاذب» جواباً لسؤال أثارته الجملة قبلها.

هذا ويشترط للفصل في هذه الصورة ألا يوهم خلاف المراد كما في الأمثلة المذكورة، فإن أوهم خلاف المقصود وجب الوصل كقولك لصديق لك: أشفي أخوك؟ فيجيبك: لا وعافاك الله، وجب الوصل بين جملتي الجواب؛ لأن الفصل يوهم خلاف المراد، وهو أن الصديق يدعو عليك لا لك، وسيأتي إيضاح ذلك وبيانه.

الصورة الثالثة: أن تتفق الجملتان خبراً أو إنشاءً لفظاً ومعنى، ولكن يفقد الجامع بينهما، أي لا توجد المناسبة المعينة الخاصة التي تصحح العطف. وذلك نحو قول أبي العتاهية.

الْفَقْرُ فِيمَا جَاوَزَ الْكِفَافَا مَنِ اتَّقَى اللَّهَ رَجَا وَخَافَا

فقد اتفقت الجملتان في الخبرية لفظاً ومعنى، ولكن لم توجد المناسبة التي تسوغ عطف الثانية على الأولى، ولذا فصل بينهما.

ومثله قول الآخر:

إِنَّمَا الْمَرْءُ بِأُضْرَفَرِيهِ كُؤْلُ امْرِئٍ بِمَا لَدَيْهِ

فلا يوجد الجامع الذي يصحح عطف الجملتين على الرغم من اتفاقهما في الخبرية لفظاً ومعنى ولذا فصل بينهما في البيت.

ويعني البلاغيون بالجامع أو التناسب بين الجملتين، أن يكون المسند إليه في إحداهما بسبب من المسند إليه في الأخرى وكذلك المسند، هذا ما أجمع عليه البلاغيون، والجمهور يرى أن تتوفر المناسبة أيضاً في المتعلقات، وسنفضل القول في هذا عند حديثنا عن مواضع الوصل، والذي نريد أن نبه إليه الآن هو أن البلاغيين لا يعنون بفقدان الجامع جواز الجمع بين جمل شاردة متنافرة، لا يتأتى أن يضمها سياق واحد، وأن يعد الفصل بين تلك المتنافرات مبرراً لوضعها في قران، وجمعها في سياق واحد، بل إن مرادهم بفقدان الجامع: المناسبة الخاصة التي أشرنا إليها، لا المناسبة العامة التي ينبغي توافرها بين الجمل سواء أعطفت أم لم تعطف.

انظر مثلاً إلى تلك الجمل: «سأل زكريا ربه أن يهبه وليا يرثه واختلف النقاد في شعر أبي تمام والضحك يبطل الصلاة ويشتد الحر صيفاً واليهود أعداء العرب». هذه الجمل لا تقال في سياق واحد هكذا فهي فاسدة سواء فصلت أم وصلت.

ولذا نبه البلاغيون إلى وحدة السياق وإلى مراعاة النظر، وتقديم من يقول البيت وأخاه على من يقول البيت وابن عمه، وذكروا حسن التخلص من غرض إلى آخر...

فالمناسبة إذاً نوعان، مناسبة خاصة وهذا إذا فقدت صح اقتران الجمل ولكنها تكون مفصولة لكمال الانقطاع وهو فقدان هذا الجامع الخاص، ومناسبة عامة وهذه لا بد من وجودها بين الجمل الموصولة والمفصولة، وإلا فسد الكلام.

ومما فقدت فيه المناسبة الخاصة قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾ أَوْلَيْكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴿[البقرة: ٦٠-٦١]

فقد فصل بين «الذين يؤمنون» و«إن الذين كفروا...» لعدم وجود المناسبة التي تسوغ العطف، أما المناسبة العامة التي تصحح جمع الجملتين في سياق واحد فهي «التضاد بينهما» وهو رابط حي ومثير لما يتضمنه من التشويق إلى معرفة القصة الثانية، قصة الكفرة بعد الوقوف على قصة المؤمنين.

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿ طَسَّ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿ هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿ [النمل ١-٤].

وخذ قوله تعالى: ﴿ الرَّحْمَنِ ﴿ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴿ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ مُحْسَبَانِ ﴿ [الرحمن: ١-٥].

تجد أن الترابط قوي بين «الشمس والقمر بحسبان» وما قبله، فسياق الآيات يبرز قدرة الخالق الرحمن الذي خلق الإنسان وعلمه البيان والذي أحكم حركة الشمس والقمر... أما المناسبة الخاصة التي تسوغ العطف فهي غير موجودة ولذا فصل بين «الشمس والقمر بحسبان» وما قبلها... إلى غير ذلك مما ترى المناسبة الخاصة فيه غير قائمة، والمناسبة العامة واضحة جلية.

هذا - وكما ذكرت - أن الواو إذا وجدت بين جمل بينها كمال انقطاع، فهي واو الاستئناف التي تفيد عطف القصة، سواء أوقعت تلك الواو بين خبر وإنشاء أم بين خبرين أم بين إنشاءين، على نحو ما مر بك من شواهد، وتكثر هذه الواو الاستئنافية في القصص القرآني، حيث تعطف بها القصة على القصة.

انظر في قوله تعالى: ﴿ وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿ فَتَوَلَّى بِرُكْبِهِ، وَقَالَ سَجَرٌ أَوْ تَمَجُنٌ ﴿ فَأَخَذْتَهُ وَجُوْدَهُ، فَتَبَدَّدْنَهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مَلِيمٌ ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَنَّهُمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿ مَا تَدْرَأُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرِّيمِ ﴿ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّلْبَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿ فَمَا ﴿ اسْتَطَبَعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُتَعْتَبِينَ ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ﴿ [الذاريات ٣٨-٤٦]، تجد أن الواو قد عطفت أحداث قصة موسى على ما تقدمها من الحديث عن إبراهيم وضييفه، ثم عطفت قصة عاد وأحداثها على قصة موسى، ثم ثمود... وهكذا...

وتسمى هذه الواو كما قلنا: «واو الاستئناف»، ومثلها «فاء الاستئناف»، وقد مر الفرق بينهما... فالاستئناف ثلاثة أنواع: استئناف بالواو أو الفاء، واستئناف بغير الواو والفاء وهو ما يكون في تلك الجملة التي تتفق بإنشاء أو خبراً لفظاً ومعنى ولا يوجد بينهما الجامع المسوغ للعطف فتأتي الجملة الثانية وقد استؤنفت، أي: ابتدئ بها معنى جديد، واستئناف بياني وهو شبه كمال الاتصال الذي ستحدث عنه الآن.

٣- شبه كمال الاتصال

ويسمى أيضاً بالاستئناف البياني وهو أن تكون الجملة الأولى متضمنة لسؤال تقع الجملة الثانية جواباً له كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَنْبُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ [هود: ٤٦]، الجملة الأولى: «إنه ليس من أهلك»، أثارَت سؤالاً فحواه: كيف لا يكون من أهلي وهو ابني؟ وجاءت الجملة الثانية جواباً لهذا السؤال المثار: «إنه عمل غير صالح» ولكون الجملة الثانية جواباً لسؤال تتضمنه الجملة الأولى، وينبعث منها، كانت مرتبطة بها ارتباطاً وثيقاً، كما يرتبط الجواب بالسؤال، ومن ثم ترك العطف بينهما لأن الجواب لا يعطف على السؤال، لما بينهما من ترابط وثيق وصلة قوية.

انظر إلى قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ حَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ فَأَمَّهُ هَاوِيَةٌ ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَةٌ﴾ نَارُ حَامِيَةٍ ﴿[القارعة ٨-١١] وقوله عز وجل: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ﴾ فَكُ رَقَبَةٌ ﴿[البلد: ١٢، ١٣]، وقوله جل وعلا: ﴿قُلْ أَفَأَنْتُمْ كُمْ بِشْرٍ مِّنْ ذَلِكُمْ النَّارُ وَعَدَّهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيُنْسِ الْأَمِصْرُ﴾ ﴿[الحج: ٧٢]، تجد الجواب قد فصل عن السؤال المصرح به في هذه الآيات الكريمة، وفصل الجواب عن السؤال المصرح به، إما لكمال الاتصال لما بين السؤال والجواب من صلة قوية وإما لكمال الانقطاع، لأن جملة السؤال إنشائية، وجملة الجواب خبرية.

وكما فصل الجواب عن السؤال المصرح به، فإنه يفصل كذلك عن السؤال المقدر الذي تضمنته الجملة الأولى وأثارته في ذهن المخاطب، وقد ذكر البلاغيون أن سبب الفصل عندئذ هو الاستئناف البياني أي شبه كمال الاتصال، وليس لكمال

الاتصال الذي مر، لأن الجواب ليس بياناً للجملة الأولى، بل لشيء ينبعث منها وهو السؤال الذي أثارته وتضمنته.

وقد سمي الاستئناف هنا استئنافاً بيانياً وهو غير الاستئناف بالواو أو الفاء أو الاستئناف بالجملة، أي: القطع، لأنه استئناف يوضح ويبين جواب السؤال المثار المنبعث من الجملة الأولى، فالجملة الثانية ليست منفصلة عن الأولى في الواقع، أو منقطعة عنها، بل مبيّنة وموضحة لشيء فيها، ولذا سميت الثانية مستأنفة استئنافاً بيانياً...

هذا والسؤال المنبعث من الجملة الأولى قد يكون عن: نسب العام كما في قول القائل:

قَالَ لِي كَيْفَ أَنْتَ؟ قُلْتُ عَلِيلٌ سَهْرٌ دَائِمٌ وَحُزْنٌ طَوِيلٌ^(١)

فجملة: «قلت عليلاً»، أثارَت سؤالاً عن سبب العلة، تقديره: ما سبب علتك؟ وجاءت الثانية: «سهر دائم وحزن طويل» جواباً له، أما جملة: «قلت عليلاً»، فمفصلة عن السؤال المصرح به قبلها لكيال الاتصال أو لكيال الانقطاع، كما أوضحنا.

ومن ذلك قول أبي العلاء المعري:

وَقَدْ غَرَضْتُ مِنَ الدُّنْيَا فَهَلْ رَمَيْتِي مُعْطِ حَيَاتِي لَغَرٍّ بَعْدُ مَا غَرَضَا
جَرَّبْتُ دَهْرِي وَأَهْلِيهِ فَمَا تَرَكْتُ لِي التَّجَارُبُ فِي وُدِّ امْرِئٍ غَرَضَا^(٢)

فقد أثار البيت الأول تساؤلاً عن سبب سأمه وضجره، فكان قائلاً قال له: لم تقول هذا ويحك؟ وما الذي جعلك تطوي عن الحياة إلى هذا الحد كشحك؟ فأجاب البيت الثاني هذا التساؤل المنبعث من البيت الأول: «جربت دهري وأهليه» ولذا فصل أو قل: ترك العطف بينهما لما بين السؤال والجواب من اتصال وثيق، وترابط قوي.

(١) نسب البيت إلى سعيد الجعفري وكان في زمن هارون الرشيد.

(٢) غرض: بكسر الراء: مل وسثم وضجر وبتفتحها: حاجة، والغر: الغافل وما غرضاً: لم يضجر الحياة بعد كما ضجرت.

وخذ قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرْوَدُ فَتَنَّا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَنَّهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [يوسف: ٣٠]، نجد أن جملة: «تراود فتاها عن نفسه» قد أثارَت سؤالاً عن سبب تلك المراودة وهو سؤال عن السبب العام، وقد جاء جوابه، «قد شغفها حباً» ثم إن هذا الجواب أثار تساؤلاً آخر فحواه، وما رأيك في هذا؟ فأجيب «إننا لنراها في ضلال» وتلاحظ أن هذا التساؤل الثاني ليس عن السبب، بل هو عن رأيك فيما صنعتها امرأة العزيز من المراودة الناجمة عن حبها فتاها.

وقد يكون السؤال المثار عن السبب الخاص، أي عن سبب معين محدد..

كما في قول العلاء الضبي خال الفرزدق:

إِذَا مَا الدَّهْرُ جَرَّ عَلَى أَنَاسٍ حَوَادِثَهُ أَنَاخَ بِأَخْرَيْنَا
فَقُلْ لِلشَّامِتِينَ بِنَا أَفِيقُوا سَيَلْقَى الشَّامِتُونَ كَمَا لَقِينَا^(١)

فقد انبعث من الشطر الأول للبيت الثاني تساؤل عن سبب معين، وكان سائلاً سأل: لم تقول لهم أفيقوا؟ هل سيلقوا كما لقيتم؟ فأجيب سيلقى الشامتون كما لقينا.

ومن هذا قوله تعالى: ﴿ وَمَا أُنزِلُ نَفْسِي إِلَّا النَّفْسَ لَأْمَارَةً بِالسُّوءِ ﴾ [يوسف: ٥٣]، حيث فصلت جملة: «إن النفس لأمارة بالسوء»، عما قبلها؛ لأنها وقعت جواباً لسؤال تضمنته، وهذا السؤال عن السبب الخاص، إذ فحواه: لم نفيت التبرئة عن النفس، هل النفس أمارة بالسوء؟ فجاء الجواب: إن النفس لأمارة بالسوء.

ومنه أيضاً قوله عز وجل: ﴿ وَقَالُوا هَذِهِ أَتَعْنَدُ وَحَرْتَ حجراً لَّا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِرَعْمِهِمْ وَأَنْتَعَدُ كُرْحَمَ ظُهُورِهَا وَأَنْتَعَدُ لَّا يَذْكُرُونَ أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَجَزِينَ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ. وَقَالُوا ۖ مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحْرَمٌ عَلَىٰ أَرْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُن مِيتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَجَزِيهِمْ وَصَفَّهُمْ ۗ إِنَّهُمْ حَكِيمٌ عَلَيْهِمْ ۗ ﴾ [الأنعام: ١٣٨ - ١٣٩]،

(١) ويروى البيت الأول بجزء الكلاكل بدلاً من حر الحوادث.. هكذا:

إِذَا مَا الدَّهْرُ جَرَّ عَلَى أَنَاسٍ كَلَاكِلَهُ أَنَاخَ بِأَخْرَيْنَا

فقد فصلت الجملتان: «سيجزيهما بما كانوا يفترون»، «سيجزيهما وصفهم» عما قبلها، شبه كمال الاتصال، حيث وقعت كل منهما جواباً لسؤال تضمنته الجمل قبلها، وكان سائلاً سأل: لم هذه الافتراءات ولم تلك الأوصاف الجائرة؟ هل سيجزون على ذلك؟ فجاءت الإجابة: «سيجزيهما بما كانوا يفترون... سيجزيهم وصفهم»، وواضح أن السؤال المثار في الآيتين عن السبب الخاص.

وقد يكون السؤال المنبعث من الجملة الأولى عن غير السبب، كما في قوله تعالى: ﴿ هَلْ أَتَىكَ حَدِيثٌ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَمًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَأَى إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعَجَلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾، فقد فصلت الجمل: «قال: سلام» «قال ألا تأكلون» «قالوا: لا تخف» عما قبلها لأنها أجوبة لما تضمنته تلك الجمل من أسئلة أثرت في ذهن السامع، وكأنه سأل فماذا قال إبراهيم؟ فأجيب: «قال سلام... قال: ألا تأكلون» وماذا قالت الملائكة؟ فأجيب: «قالوا لا تخف وبشروه...» ومثل هذا كل ما تراه في التنزيل من لفظ «قال» مفصلاً عما قبله، غير معطوف عليه بعاطف.

ومن أقوالهم في هذا الصدد قول الشاعر:

رَءَمَ الْعَوَاذِلُ أَنَّنِي فِي غَمْرَةٍ صَدَقُوا وَلَكِنْ غَمَّرْتِي لَا تَسْجَلِي^(١)

فالجملة الأولى: «زعم العواذيل أنني في غمرة» حركت السامع، وأثارت في ذهنه سؤالاً فحواه: أصدقوا في ذلك الزعم أم كذبوا؟ فجاء الجواب في الشطر الثاني: «صدقوا...»

ومثله قول جندب بن عمار:

رَءَمَ الْعَوَاذِلُ أَنَّ نَاقَةَ جُنْدِبٍ بِحُثُوبٍ حَبَّتِ عَرِيَّتٌ وَأُجِمَّتِ
كَدَبَ الْعَوَاذِلُ لَوْ رَأَيْتَ مُنَاخَنَا بِالْقَادِسِيَّةِ قُلْنَ: لَجَّ وَذَلَّتِ^(٢)

(١) الغمرة: الشدة، وتنجلي: تنكشف وتزول.

(٢) «عريت وأجمت»: أهملت وأزبل عنها رحلها فاستراحت، و«لج وذلت» اشتد في السير فأنعت ناقته وأجهدها.

فقد فصل البيت الثاني عن الأول لوقوعه جوابًا لسؤال فحواه أصدقن أم كذبن في زعمهن؟ وتلاحظ أن واو الجماعة في البيت الأول في قوله: «صدقوا» قد عادت إلى لفظ «العواذل»، إما على أنه جمع عاذل جمعاً سماعياً مثل فارس: وفوارس، أو على أنه جمع عاذل بمعنى جماعة عاذلة من الذكور... أما في بيت جندب فقد عاد إليه ضمير النسوة: رأين وقلن، على أنه جمع عاذلة أي جمع مؤنث.

كما تلاحظ أن الجملة المستأنفة أي: جملة الجواب، في بيت جندب قد وضع فيها الظاهر موضع المضمَر، فإزداد بهذا أمر الاستئناف تأكيداً من حيث وضعه وضِعاً لا يحتاج فيه إلى ما قبله، وأتى به مأتى ما ليس قبله كلام.

ومثله وقد مر بك قول العلاء خال الفرزدق:

فَقُلْ لِلشَّامِتِينَ بِنَا أَفِيْقُوا سَيَلْقَى الشَّامِتُونَ كَمَا لَقَيْنَا

فلم يقل «سيلقوا» بل وضع الظاهر موضع المضمَر ليزداد الاستئناف تأكيداً...

ومن الشواهد أيضاً قول أبي تمام:

لَيْسَ الْحِجَابُ بِمُقْصِدٍ عَنكَ لِي أَمَلًا إِنَّ السَّمَاءَ تُرْجَى حِينَ تَحْتَجِبُ

فكان سائلاً سأله: كيف لا يحول الحجاب بينك وبين تحقيق آمالك وما ربك؟ فأجاب: إن السماء ترجى حين تحتجب.

وقول حاتم الطائي:

يَرَى الْبُخَيْلُ سَبِيلَ الْمَالِ وَاحِدَةً إِنَّ الْجَوَادَ يَرَى فِي مَالِهِ سُبُلًا

وكان المخاطب عندما سمع الشطر الأول سأل، وما رأي الكريم في ماله؟ فأجاب: إن الكريم يرى في ماله سبلاً...

وقول الراجز:

فَعَنَّتْهَا وَهِيَ لَكَ الْفِدَاءُ إِنَّ غِنَاءَ الْإِبِلِ الْخُدَاءُ

فعندما قال الشاعر: عنها وهي لك الفداء، انبعث من هذه الجملة سؤال،

وكان سائلاً سأل: وما غناء الإبل؟ أغناؤها الحداء، أم أنك تقصد شيئاً آخر غير الحداء؟ فأجاب: إن غناء الإبل الحداء.

وترجع بلاغة هذا الأسلوب إلى ما يفيد من إثارة المخاطب وتحريك ذهنه، فهذا السؤال المنبعث من الجملة الأولى، قد انبعث في ذهن المخاطب أو في ذهن المتكلم الذي أدرك أن الجملة ينبعث منها هذا السؤال، وأن المخاطب ينتظر جواباً له وبيانياً فعندما يأتي البيان ويرد الجواب يقع في النفس أحسن موقع وأفضله.

ولذا يقول المبرد عند حديثه عن بيت امرئ القيس:

كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْبًا وَبَابِيسًا لَدَى وَحْرِهَا الْعُنَابُ وَالْحَشْفُ الْبَالِي

«فهذا مفهوم المعنى، فإن اعترض معترض فقال: فهلا فصل فقال: كأنه رطباً العناب وكأنه يابساً الحشف البالي؟ قيل له: العربي الفصيح الفطن يرمي بالقول مفهوماً، ويرى ما بعد ذلك من التكرير عيا»^(١).

ولما قال خلف الأحمر لبشار وقد استمع لبيته:

بَكْرًا صَاحِبِي قَبْلَ الْهَجِيرِ إِنَّ ذَاكَ النَّجَّاحَ فِي التَّبَكِيرِ

«لو قلت يا أبا معاذ: بكرا فالنجاح، كان أحسن»، فقال بشار: «إنما بنيتها أعرابية وحشية... ولو قلت: بكرا فالنجاح، كان من كلام المولدين»... ومراده أن التكرار، أي تكرار فعل الأمر أفاد التأكيد بوجه ظاهر لا دقة فيه، أما ما صنعه فقد يفيد التوكيد بوجه خفي دقيق، مرجعه إلى انبعث السؤال من الجملة الأولى وإجابة الجملة الثانية عنه.

وقد أجل القزويني سر بلاغة هذا الأسلوب في قوله: «وتنزيل السؤال بالفحوى منزلة الواقع لا يصار إليه إلا لجهات لطيفة: إما لتنبه السامع على موقعه، أو لإغناؤه أن يسأل، أو لثلا يسمع منه شيء، أو لثلا ينقطع كلامك بكلامه، أو للقصود إلى تكثير المعنى بتقليل اللفظ وهو تقدير السؤال وترك العاطف، أو لغير ذلك مما ينخرط في هذا السلك...»^(٢).

(١) الكامل ج ٢ ص ٣٦.

(٢) الإيضاح ج ٢ ص ٧٩.

هذا ومن الاستثناف ما يأتي بإعادة اسم ما استؤنف عنه كقولك: أحسنت إلى زيد، زيد حقيق بالإحسان، ومنه ما بينى على صفته، كقولك: أحسنت إلى زيد، صديقك القديم أهل لذلك، وهذا أبلغ لانطوائه على بيان سبب الإحسان. وقد تأتي الجملة المستأنفة أي جملة الجواب بلا حذف شيء منها.

كما في قول المتنبي:

وَمَاعَقَتِ الرِّيحُ لَهُ مَحَلًّا عَفَاهُ مَنْ حَدَا بِهِمْ وَسَاقًا

وكما في قول الوليد بن يزيد الأموي:

عَرَفْتُ الْمَمْنَزِلَ الْحَالِي عَفَا مِنْ بَعْدِ أَحْوَالِ
عَفَاهُ كُلُّ حَنَّانٍ عَسُوفِ الْوَبْلِ هَطَّالٍ^(١)

لما نفى المتنبي العفاء عن الرياح، ولما ذكر الوليد عفاء المنزل كان مظنة أن يسأل عن الفاعل من هو؟ أو ما هو؟ فأجابا عن ذلك: عفاه من حدا بهم وساقا... عفاه كل حنان، ولم يحذف شيء من جملة الجواب، إذ لو حذف الفعل ففعل: من حدا بهم... كل حنان، لما دل دليل عليه، وذكر جملة الاستثناف كاملة بلا حذف يجعلها أشد انصلاً وأتم استقلالاً عن الجملة الأولى التي انبعث منها السؤال.

وقد يحذف صدر الاستثناف لقيام قرينة تدل عليه، ويكثر هذا عند ذكر الشعراء للديار والأطلال، وكذا عند المدح أو الفخر أو الرثاء أو الهجاء، حيث يقطع الكلام ويستأنف معنى جديد.

من ذلك قول عمر بن أبي ربيعة:

اعْتَادَ قَلْبُكَ مِنْ لَيْلَى عَوَائِدُهُ وَهَاجَ أَهْوَاءُكَ الْمَكْنُونَةَ الطَّلَلُ
رَبَّعَ قَوَاءَ أَذَاعِ الْمُعْصِرَاتِ بِهِ وَكُلُّ حَيْرَانَ سَارِ مَأْوُهُ حَضِلٌ^(٢)

(١) عفا: درس والمراد بالأحوال: الأحوال التي سعد فيها بأحبائه وسكانه، والحنان: السحاب، وعسوف الوبل: شديد المطر.

(٢) المعصرات: السحاب وكذا الحيران والساري، أذاع به: ذهب، والحضل: الكثير، والقواء: الموحش.

لما ذكر أن الطلل قد هاج أهواءه المكنونة، اشتاقت النفس إلى معرفة خبر هذا الطلل وصفته، وكأنها سألت ما خبر هذا الطلل؟ وما صفته؟ فاستأنف الشاعر حديثاً عنه، وبنى الكلام على حذف صدر الاستئناف «المسند إليه»، فقال: ربع قواء أذاع المعصرات به.

ومثله قول ذي الرمة:

إِلَى لَوَائِحِ مِنْ أَطْلَالِ أَحْوَابِيَةٍ كَأَنَّهَا خَلَلٌ مُوشِيَةٌ قُشِبُ
دَارٍ لَمِيَّةٍ إِذْ مَيَّيْتُ نَسَاعِفُنَا وَلَا يُرَى مِثْلَهَا عُجْمٌ وَلَا عَرَبٌ^(١)

استأنف مبيئاً شأن الأطلال، فقال «دارٌ لمية» وفي رواية: «ديار مية» وقد حذف صدر الاستئناف، إذ المراد: تلك دار لمية...

ومنه في المديح قول أبي البرج المري:

هُمُ حَلُّوا مِنَ الشَّرَفِ الْمُعَلَّى وَمِنْ حَسَبِ الْعَشِيرَةِ حَيْثُ شَاءُوا
بُنَاءُ مَكَارِمٍ وَأَسَاءُ كُلِّمٍ دِمَاؤُهُمْ مِنَ الْكَلْبِ الشِّفَاءِ^(٢)

وقول محمد بن سعد الكاتب التميمي البغدادي:

سَأَشْكُرُ عَمْرًا إِنْ تَرَاحَتْ مَيَّتِي أَيَادِي لَمْ تُمْنَنَّ وَإِنْ هِيَ جَلَّتِ
فَتَى غَيْرُ مَحْجُوبِ الْغِنَى عَنْ صَدِيقِهِ وَلَا مُظْهَرُ الشُّكْوَى إِذَا النَّعْلُ رَلَّتِ

وقول لقيط بن زرارة:

أَصَاءَتْ لَهُمْ أَحْسَابُهُمْ وَوُجُوهُهُمْ دُجَى اللَّيْلِ حَتَّى نَظَّمَ الْجِرْزَعُ نَائِبُهُ
نُجُومَ سَمَاءٍ كُلَّمَا انْقَضَ كَوَكَبٌ بَدَا كَوَكَبٌ تَأْوِي إِلَيْهِ كَوَاكِبُهُ^(٣)

إلى غير ذلك مما يقطع فيه الشعراء كلامهم ويستأنفون معاني أخرى فيحذفون

(١) اللوائح: ما تبين ولاح... وأحوية: بيوت مجتمعة واحدها حواء، والخلل: بطائن أجفان السيوف واحدها: خلة، وموشية: منقوشة، وقشب: جدد.

(٢) الكلب: الجرح، والكلب: داء يصبب الإنسان إذا عضه كلب.

(٣) الجِرْزَعُ: خرز فيه بياض وسواد

عندئذ صدر الاستئناف للدلالة الدليل عليه... فإن قلت: ألا يؤدي حذف صدر الاستئناف إلى احتياج جملة الاستئناف إلى ما قبلها، وعندئذ لا يكون انفصالها تاماً واستقلالها كاملاً؟

قلت: ليس كل حذف يؤدي إلى الاحتياج وعدم الاستقلال؛ بل إن الحذف في الشواهد المذكورة قد ساعد على استقلال الجمل المستأنفة وعدم احتياجها إلى ما قبلها ويتضح لك هذا عندما تقدر المحذوف فتقول: ذاك ربع قواء... تلك دار لمية... هم بناء مكارم... هو فتى غير محجوب الغنى... هم نجوم السماء... إذ تجرد أن اسم الإشارة والضمير قد جعل تلك الجمل المستأنفة، مرتبطة بها قبلها، محتاجة إليه، أما الحذف فيجعلها مستقلة عنه.^(١)

ولاحظ أن هنالك فرقاً بين هذه الشواهد وبين بيتي المتنبي والوليد، إذ الحذف في بيتي المتنبي والوليد يؤدي إلى الغموض واللبس، لعدم وجود دليل يدل على المحذوف، وقرأ البيتين بعد حذف صدر الاستئناف وما عفت الرياح له محلاً.. من حداهم.. عفا من بعد أحوال.. كل حنان عسوف الويل... تجرد المعنى لا يستقيم عند الحذف، ولو فرضت استقامته فستجد أن جملة الاستئناف محتاجة إلى ما قبلها. أما حذف صدر الاستئناف في الشواهد المذكورة، فقد ساعد على استقلالها وعدم احتياجها إلى ما قبلها، كما وضحت لك.

ومما حذف فيه صدر الاستئناف من آي الذكر الحكيم قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رَجَالٌ لَا تُلْهِيمُ جَنَّةَ وَلَا بَيْعٌ عَنِ ذِكْرِ اللَّهِ ﴿٣٧﴾﴾، بقراءة يسبح مبنياً للمفعول، وكأن سائلاً سأل: من يسبح؟ فأجيب: رجال يحذف صدر الاستئناف والمحذوف هنا هو المسند... ومن ذلك أسلوب «نعم وبئس». نحو: نعم الرجل خالد، وبئس رجلاً عمرو، على اعتبار أن المخصوص بالمدح أو الذم خبر لمبتدأ محذوف، وكأن سائلاً سأل من الممدوح ومن المذموم؟ فأجيب: الممدوح خالد والمذموم عمرو.

(١) ارجع إلى حذف المسند إليه في الجزء الأول من هذا الكتاب.

وقد يحذف الاستئناف كله ويقوم ما يدل عليه مقامه، كقول الحماسي:

رَعَمْتُمْ أَنْ إِخْوَتَكُمْ قُرَيْشٌ لَهُمْ إِلْفٌ وَلَيْسَ لَكُمْ إِلْفٌ

فقد أثار البيت سؤالاً تقديره: أكذبنا أم صدقنا؟ فأجيب: كذبتم في زعمكم، وقد حذف هذا الجواب، وأقيم قوله: لهم إلف وليس لكم إلف مقامه، لدلالته عليه، ويجوز اعتبار قوله: «لهم إلف وليس لكم إلف»، جواباً لسؤال اقتضاه الجواب المحذوف، وكأنه لما قيل: كذبتم، قالوا: لم كذبنا؟ قال: لهم إلف، وليس لكم إلف، فيكون في البيت على هذا استئنافان... ويجوز أن يكون الفصل في البيت لشبه كمال الانقطاع الآتي بيانه.

وقد يحذف الاستئناف كله لدلالة السياق عليه كقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴿ [الذاريات: ٤٧، ٤٨]، أي: نعم الماهدون، نحن، وقوله عز وجل: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤]، أي نعم العبد أيوب... فقد حذف المخصوص بالمدح في الآيتين الكريمتين، وهو خير لمبتدأ، أو مبتدأ لخبر، فهو جملة مستأنفة، سكت عنها لدلالة السياق عليها. هذا وقد تأتي الجملة الواقعة موقع الجواب بالفاء أو بالواو، وتسمى الفاء فاء الاستئناف وكذا الواو تسمى واو الاستئناف، ولكن الاستئناف بهما يختلف عن الاستئناف البياني؛ لأن الاستئناف بالواو يؤذن باستقلال الكلام وانفصاله، إذ يكون المراد عطف القصة على القصة، أو عطف مضمون كلام على مضمون كلام آخر، أو عطف جمل مسبوق لغرض على جمل مسبوق لغرض آخر، كما مر بك.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَقُولُ الَّذِينَ أَسْتَضِعُّوهُ لِلَّذِينَ أَسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أُنْتَرُ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ قَالَ الَّذِينَ أَسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ أَسْتَضِعُّوهُ أَلَمْ نَكُنْ صَدَقْتُنَّكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بِلَ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَسْتَضِعُّوهُ لِلَّذِينَ أَسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴿ [سبأ: ٣١-٣٣].

حيث جاءت الآية الثانية بدون الواو، فأفاد ذلك أنها متولدة عن الآية الأولى، إذ وقعت جواباً لسؤال تضمنته، وجاءت الآية الثالثة بالواو فأذنت بالاستقلال، وصار الكلام معها من قبيل عطف القصة على القصة.

ومن ذلك قول الشاعر:

أَرَىٰ بَصْرِي عَنِ كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ يَكِلُّ وَحَطْوِي عَنِ مَدَىٰ الْحَطْوِ يَقْضُرُ

وَمَنْ يَصْحَبِ الْأَيَّامَ تَسْعِينَ حِجَّةً يُعَيِّرَنَّهُ وَالسَّهْرَ لَا يَتَفَرِّقُهُ
حيث جاء البيت الثاني مستأنفاً بالواو التي تؤذن بالاستقلال.

والاستئناف بالفاء يختلف أيضاً عن الاستئناف البياني، فهو يجعل الكلام مرتباً
بعضه على بعض، وليس متولداً بعضه من بعض.

انظر إلى قول أبي تمام:

لَا تُنْكِرِي عَطْلَ الْكَرِيمِ مِنَ الْغِنَى فَالسَّيْلُ حَزْبٌ لِلْمَكَانِ الْعَالِي

تجد أن الفاء قد جعلت الكلام مرتباً بعضه على بعض.

وخذ قوله تعالى: ﴿قَالَتَا لَا نَسْبِي حَتَّىٰ يُصَدِّرَ الرَّعَاءَ وَأُبُونَا شَيْخَ كَبِيرٍ﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا
ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَىٰ الْبَطْلِ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٣﴾ فجاءته إحداهما تمسحاً على
أستحياء ﴿[القصص: ٢٣ - ٢٥]﴾، تجد أن هذه الفاءات: «فسقى لهما... فقال ربي...
فجاءته إحداهما...» قد جعلت الكلام مرتباً بعضه على بعض.

أما الاستئناف البياني فالكلام فيه يتولد بعضه من بعض، إذ ينبعث من الجملة
الأولى سؤال وتقع الثانية جواباً له، فالثانية مرتبطة بالأولى ارتباط الجواب بالسؤال
وهو ارتباط داخلي وثيق وليس ارتباطاً لفظياً ظاهراً، كما في الاستئناف بالفاء، ولا
استقلالاً وتبايناً كما في الاستئناف بالواو.



٤ - شبه كمال الانقطاع

وقد عرفوه بقولهم: أن تكون الجملة مسبوقه بجملة يصح وصلها بالأولى
منهما لوجود المناسبة التي تسوغ الوصل، ولا يصح عطفها على الثانية، فيترك
العطف على الأولى دفعا لتوهم العطف على الثانية، وتصبح الجملة الثالثة بمنزلة
المنقطعة عن الأولى، بهذا الحائل... ولذا كان الفصل لشبه كمال الانقطاع إذ ليس
الانقطاع كاملاً، بل حالت الجملة الثانية بين وصل الجملة الثالثة بالجملة الأولى.

من ذلك قول الشاعر:

وَتَظُنُّنَّ سَلَمَىٰ أَنَّنِي أَبْغَيْتُ بِهَا بَدَلًا أَرَاهَا فِي الضَّلَالِ تَهِيمُ

فقد فصل جملة: «أراها في الضلال...» عن الجملة الأولى: «تظن سلمى...» لأن عطفها عليها يوهم أنها معطوفة على جملة: «.. أبغي بها بدلا»، فتكون بهذا من منظونات سلمى، وهي من كلام الشاعر، لا من منظوناتهما، فدفعنا لهذا التوهم وجب الفصل.

ومثله قول الآخر:

يَقُولُونَ: إِنِّي أَحْمِلُ الضَّيْمَ عِنْدَهُمْ أَغْوِذُ بِرَبِّي أَنْ يُضَامَ نَظِيرِي

فصل جملة: «أعوذ بربي» عن جملة: «يقولون» مع جواز عطفها عليها، حتى لا يتوهم عطفها على جملة: «أحمل الضيم...»، فتكون من مقولهم وهي لست منه، بل هي من كلام الشاعر:

ويمكن أن يكون من هذا الموضع قول الحماسي:

رَعَمْتُمْ أَنْ إِخْوَتِكُمْ قُرَيْشٌ لَهُمْ إِلْفٌ وَلَيْسَ لَكُمْ إِلَافٌ

فيكون فصل جملة: «لهم إلف...» عن جملة: «زعمتم» دفعا لتوهم عطفها على جملة: «إخوتكم قريش»، إذ هي ليست من زعمهم بل من كلام الحماسي.

وانظر في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ [البقرة: ١٤، ١٥]، فقد مر بك امتناع عطف جملة: «الله يستهزئ بهم» على جملة: «إنا معكم»، أو على جملة: «قالوا»، أما عطفها على جملة الشرط وجوابه: «وإذا خلوا إلى شياطينهم»، قالوا: فجائز، ولكن يمنع منه توهم عطفها على إحدى الجملتين المذكورتين.

وكذا القول في الآيات الكريمة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١١]، ولا يخفى عليك أنه يمكن رد سبب الفصل في هذه الشواهد - شواهد هذا الموضع - إلى شبه كمال الاتصال، كما نبه كثير من البلاغيين، وبذا يلغى هذا الموضع من مواضع الفصل.

٥- الفصل لعدم الاشتراك في القيد

أو كما عرفه بعض البلاغيين بالتوسط بين الكمالين مع وجود المانع من العطف وهو عدم الاشتراك في الحكم... وقد استشهدوا لهذا بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُونَ﴾ [البقرة: ١٤، ١٥]، فقد فصل جملة: «الله يستهزئ بهم»، عن جملة «قالوا»، لأن قولهم مقيد بوقت خلوهم إلى شياطينهم أما استهزاء الله بهم فدائم في كل آن، وليس مقيداً بهذا الوقت، ولذا وجب الفصل لعدم الاشتراك في القيد... وأما فصل هذه الجملة: «الله يستهزئ بهم» عن جملة «إنا معكم» فلعدم قصد التشريك في الحكم الإعرابي كما مر بك في الجمل التي لها محل من الإعراب.

بقي أن أذكرك بما نهيتك إليه من أن الجمل التي لها محل من الإعراب تخضع لما تخضع له الجمل التي لا محل لها من الإعراب من مواضع الفصل المذكورة.

وانظر مثلاً في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدْيَنَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتْنَهَا عَن نَّفْسِهِ، قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف: ٣٠]، تجد أن الجمل الثلاث: «امرأة العزيز تراود...»، «قد شغفها حباً»، «إنا لنراها في ضلال»، قد وقعت مقولاً لقول النسوة فلها من الإعراب محل، وقد فصل بينها لشبه كمال الاتصال، إذ أثارت الجملة الأولى سؤالاً فحواه ما سبب تلك المرادة؟ فجاء التعليل: «قد شغفها حباً»، وكذا تضمنت الثانية سؤالاً تقديره: وما رأيكن؟ فأجيب بالجملة الثالثة: «إنا لنراها في ضلال مبين».

وارجع إلى ما سقناه من شواهد في مواضع الفصل المذكورة ليتضح لك أن الجمل جميعها سواء في تلك المواضع، وأنك لا تستطيع قصر هذه المواضع على الجمل التي لا محل لها من الإعراب.

وبهذا نكون قد فرغنا من مواضع الفصل بين الجمل وكما تقتضي العلاقات بين الجمل الفصل، وقد عرفت مواضعه، فكذلك تقتضي الوصل، والمعول عليه في ذلك، السياق وقرائن أحواله، ومنتقل الآن إلى مواضع الوصل.. التي يقتضيها السياق وقرائن أحواله.

مواضع الوصل بين الجمل

وقفنا - فيما سبق - على أن الجمل التي لها محل من الإعراب، يوصل بينها إذا قصد التشريك في الحكم الإعرابي، ووجدت المناسبة المسوغة للعطف، ولم يكن هنالك مانع يمنع من الوصل.

وقد ذكر البلاغيون موضعين آخرين للوصل بين الجمل وهما:

١- التوسط بين الكمالين

والمراد بالكمالين: كمال الاتصال وكمال الانقطاع، وقد عرفوه بقولهم: أن تتفق الجملتان خبراً أو إنشأً لفظاً ومعنى، أو معنى فقط.

فمثال اتفاقهما في الخبرية لفظاً ومعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفَجَارَ لَفِي حَمِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤]، وقوله عز وجل: ﴿قُلْ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَتُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾ [آل عمران: ٢٦، ٢٧]، فقد اتفقت الجملتان: «إن الأبرار لفي نعيم»، «وإن الفجار لفي حميم»، في الخبرية لفظاً ومعنى، ووجدت المناسبة المسوغة للعطف، ولم يمنع من العطف مانع، ولذا وصل بينهما كما ترى.

وكذا القول في الآيتين الكريميتين: «قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع... وتعز من تشاء وتذل... تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي وترزق...»، ولا يخفى عليك ما يفيدته الجمع بين الجمل في الآيتين، من إبراز قدرة الله عز وجل في أسْمَى معانيها، وتأمل تؤتي الملك من تشاء وتنزع... وتعز من تشاء وتذل... تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل، وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب... لا يقدر على تلك الأضداد إلا الخالق القادر المهيمن ذو السلطان والملك.

ومثال ما اتفقت فيه الجملتان في الإنشائية لفظاً ومعنى قوله تعالى: ﴿يَتَّبِعُ آدَمَ حَدَاؤَ زَيْنَتَكُمُ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الأعراف:

[٣١]، فقد اتفقت الجمل: خذوا زينتكم.. كلوا.. اشربوا.. لا تسرفوا.. في الإنشائية لفظاً ومعنى، ومن ثم وصل بينها.

ومما اتفقت فيه الجملتان في الإنشائية معنى، قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣]، ففي الآية ثلاث جمل، الأولى: لا تعبدون إلا الله، والثانية: حذف فيها فعل الأمر وتقديرها: وأحسنوا بالوالدين إحساناً، والثالثة: وقولوا للناس حسناً، والجملتان الثانية والثالثة إنشائتان لفظاً ومعنى كما ترى، أما الأولى فخبيرية لفظاً، إنشائية معنى؛ لأن المراد بها النهي أي: لا تعبدوا إلا الله، وبهذا يكون اتفاق الجمل الثلاث في الإنشائية في المعنى فقط دون اللفظ.

ومما اتفقت فيه الجملتان في الخبرية معنى قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوكُمْ أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [هود: ٥٤]، فجملة: «واشهدوا...» إنشائية لفظاً خبرية معنى، إذ المراد: إني أشهد والله وأشهدكم، وبهذا يكون اتفاق الجملتين في الخبرية معنى لا لفظاً.

وإنما عدت مثل هذه الجمل «توسط بين الكمالين»، لاتفاقهما في الخبرية أو الإنشائية مع وجود المناسبة المسوغة للوصل، فليست من قبيل كمال الانقطاع الذي عرفته... كما أنها ليست من قبيل كمال الاتصال لعدم وجود الروابط والصلات القوية بينها والتي عرفتها في صور كمال الاتصال، ولذا سمي البلاغيون هذا الموضع بالتوسط بين الكمالين.

٢- كمال الانقطاع مع الإيهام

كقولك لتاجر: أتبيع هذه السلعة؟ فيجيبك: لا وعافاك الله، وقولك لصديق لك: أشفي والدك؟ فيجيب: لا ولطف الله به، وقولك: أتأب العاصي؟ فتجيب: لا ويهديه الله. فبين الجملتين كما ترى كمال انقطاع؛ لأن جملة «لا» خبرية لفظاً ومعنى، والجمل: عفاك الله- لطف الله به- يهديه الله، خبرية لفظاً، إنشائية معنى، وكمال الانقطاع -كما درست- يوجب الفصل بين الجملتين، إلا أن الفصل هنا يوهم خلاف المراد، إذ يتوهم أن المجيب يدعو بعدم العافية وعدم اللطف وعدم الهداية،

وأنة قد أجاب بجملة واحدة منفية، سلطت فيها «لا» على ما بعدها وليس بجملتين، فدفعاً لهذا الإيهام يجب الوصل بين الجملتين.

ولذلك إذا اندفع هذا الإيهام بأن يسكت المتكلم قليلاً بعد النطق بالحرف «لا»، أو يذكر الجملة المنفية كاملة، فيقول: لا أبيعه، ثم يذكر الجملة الدعائية «عافاك الله»، أو يغير في نبرة الصوت، فيرفع صوته عند النطق «بلا» ويخفضه عند النطق بالجملة الدعائية.. عندئذ يجب الفصل، إذ لا إيهام.



الجامع أو التناسب بين الجملتين

عرفت أن اتفاق الجملتين في الخبرية أو الإنشائية يوجب الوصل بينهما إذا وجدت المناسبة أو الجامع المسوغ للوصل، وكذا عند قصد التشريك في الحكم الإعرابي، فما مراد البلاغيين بهذا الجامع أو بتلك المناسبة؟ يريد البلاغيون بذلك: ان يكون المسند إليه في الجملة الأولى بسبب من المسند إليه في الجملة الثانية، وكذا المسند فيهما.

يقول عبد القاهر: «واعلم أنه يجب أن يكون المحدث عنه في إحدى الجملتين بسبب من المحدث عنه في الأخرى، كذلك ينبغي أن يكون الخبر عن الثاني مما يجري مجرى الشبه والنظير أو النقيض للخبر الأول فلو قلت: زيد طويل القامة وعمرو شاعر، كان خلفاً، لأنه لا مشاكلة ولا تعلق بين طول القامة وبين الشعر، وإنما الواجب أن يقال: زيد كاتب وعمرو شاعر، وزيد طويل القامة وعمرو قصير، وجملة الأمر أنها -يقصد الواو- لا تحيء حتى يكون المعنى في هذه الجملة لفقاً لمعنى في الأخرى ومضامناً له، مثل أن زيداً وعمراً إذا كانا أخوين أو نظيرين أو مشتبكي الأحوال على الجملة، كانت الحال التي يكون عليها أحدهما من قيام أو قعود أو ما شاك ذلك مضمومة في النفس إلى الحال التي عليها الآخر من غير شك، وكذا السبيل أبداً، والمعاني في ذلك كالأشخاص، فإننا قلت مثلاً: العلم حسن والجهل قبيح، لأن كون العلم حسناً مضموم في العقول إلى كون الجهل قبيحاً.

واعلم أنه إذا كان المخبر عنه في الجملتين واحداً كقولنا: هو يقول ويفعل

ويضر وينفع ويسيء ويحسن ويحل ويعقد وأشبه ذلك، ازداد معنى الجمع في الواو قوة وظهورًا وكان الأمر حينئذ صريحًا...»^(١).

وقد اختلف البلاغيون في المتعلقات، هل ينبغي أن يعتبر فيها التناسب أيضًا؟ والصواب أنه لا يعتبر فيها ذلك، إلا إذا كانت مقصودة بالذات ومرادة في الجملتين، كقوله تعالى: ﴿ وَيَقُومُ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَةِ وَتَدْعُونِي إِلَى النَّارِ ﴾ [غافر: ٤١].

وكما في قول عمرو بن معد يكرب الزبيدي (ت ٢١هـ).
أَرِيدُ حَيَاتَهُ وَيُرِيدُ قَتْلِي عَذِيرُكَ مِنْ خَلِيلِكَ مِنْ مُرَادٍ
هذا وقد تكون المناسبة بين الجمل دقيقة خفية وعندئذ تحتاج إلى تأمل السياق ومعرفة قرائن الأحوال به.

انظر إلى قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿ [الغاشية: ١٧-٢٠].
تجد أن المناسبة بين الإبل والسماء والجبال والأرض، لا تتضح لك إلا بالتأمل وإطالة النظر، إذ عند التأمل تعرف أن أهل الوبر تكون عنايتهم مصروفة إلى الإبل، حيث يتنفعون بها في جل معاشهم وانتفاعهم بها لا يحصل إلا بأن ترعى وتشرب وذلك يكون بنزول المطر، فيكثر ثقل وجوهمهم في السماء، ثم لا بد لهم من مأوى يتحصنون به، ولا شيء لهم في ذلك كالجبال، ثم لا غنى لهم لتعذر طول مكثهم في منزل عن التنقل من أرض إلى سواها، وبهذا يتضح لك أن الإبل والسماء والجبال والأرض متناسبة في ذهن البدوي وأخيلة أهل الوبر.

كما أنه قد يتحد كل من المسند والمسند إليه ولا تجد مسوغًا للوصل على نحو ما ترى في قولك: انظر إلى غزارة علم عمرو... وانظر إلى هذا القطع في ثوبك، فمثل هاتين الجملتين لا يجمعها سياق واحد لا منفصلتين ولا موصولتين، على الرغم من اتحاد المسند والمسند إليه في كل منهما.

(١) دلائل الإعجاز ص ٢٣٢، ٢٣٣.

وقد يختلف كل منهما في الجملتين وتوجد المناسبة الموسوعة للوصل، على نحو ما ترى في قوله عز وجل: ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُزَجَّجَةٍ ﴾ [يوسف: ٨٨]، فالمسند إليه فيها: «الضر وإخوة يوسف» مختلفان لا تناسب بينهما، وكذلك المسندان: «المس والمجيء»، وعلى الرغم من هذا وصل بين الجملتين لوجود الموسوع للوصل وهو أن المس سبب في المجيء.

محسنات الوصل

ومن محسنات الوصل أن تتناسب الجملتان في الاسمية والفعلية، وفي الماضي والمضارعة، وفي الأمر والنهي، وفي الإطلاق والتقييد.

انظر إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَيُفْعِمُونَ ﴿١٤٠﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَيَفْعِمُونَ ﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤]، نجد تناسب الجملتين في الاسمية.

ومنه قول ذي الرمة:

أَسْوَدٌ إِذَا مَا أَبَدَتِ الْحَزْبُ سَاقَهَا وَفِي سَائِرِ الدَّهْرِ الْغَيْوُثُ الْمَوَاطِرُ
ومن تناسبها في الماضي قوله تعالى: ﴿ فَاقْوَانِكُمْ وَأَيِّدْكُمْ بِنَضْرِهِ وَرَزَقْكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٦].

وقول البحري:

أَعْطَيْتَ حَتَّى تَرَكْتَ الرِّيحَ حَاسِرَةً وَجُدْتَ حَتَّى كَانَتْ الغَيْثَ لَمْ يَجِدِ
ومن تناسبها في المضارعة قوله تعالى: ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمَلِكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمَلِكَ مِمَّنْ تَشَاءُ ﴾ [آل عمران: ٢٦].

وقول الصلتان العبدى:

نَرُوحُ وَنَعْدُو لِحَاجَاتِنَا وَحَاجَةٌ مِّنْ عَاشٍ لَا تَنْقُضِي
ومن تناسبها في الأمر والنهي قوله تعالى: ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ﴾ [الأعراف: ٣١]، وقوله عز وجل: ﴿ يَبْنِي أَمِيرُ الصَّلَاةِ وَأَمْرًا بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ وَلَا تُصْعِرْ حَدَاكِ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْسِ فِي الْأَرْضِ مَرْحًا

إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٧﴾ وَأَقْصِدْ فِي مَشِيكَ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٨﴾ [لقمان: ١٧-١٩].

ومن تناسبها في التقييد قول البحري يمدح إبراهيم بن المدبر:

دَنُوتٌ تَوَاضَعًا وَعَلَوَتْ مَجْدًا فَشَأْنَاكَ أَنْخَفَاضٌ وَازْتِفَاعٌ
وإنما يعد التناسب فيما ذكر من محسنات الوصل ما لم يدع داع إلى المخالفة، فلو
دعا داع إلى المخالفة كان الحسن في تلك المخالفة التي دعا إليها هذا الداعي
واقترضاها المقام.

انظر في قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيدُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢]؛ فقد أثر التعبير بالمضارع «يخادعون» ليفيد أن خداع المنافقين حادث متجدد،
وبالاسم «خادعهم» ليفيد أن فعل الله ثابت ودائم في جميع الأحوال، وفي هذا زيادة
في التنكيل والتعذيب.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَقَرِيفًا كَذَبْتُمْ وَقَرِيفًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧].

يقول الزمخشري في بيان السر البلاغي للمخالفة في الآية: «فإن قلت: هلا قيل
وفريقًا قتلتم؟ قلت: هو على وجهين أن تراد الحال الماضية، لأن الأمر فظيع فأريد
استحضاره في النفوس، وتصويره في القلوب، وأن يراد: وفريقًا تقتلونهم بعد،
لأنكم تحومون حول قتل محمد ﷺ لولا أني أعصمه منكم»^(١).

وهذا يتضح لك أن المقام قد يقتضي عدم تناسب الجملتين فيها ذكر، وعندئذ
يكون الحسن فيها اقتضاه المقام ودعا إليه الحال.



فروق في الجملة الحالية

مر بك جواز مجيء الواو بين الصفة وموصوفها وبين الحال وصاحبها سواء
أكانت الصفة مفردة أم جملة وسواء أكانت الحال كذلك مفردة أم جملة، وعرفت ما
يكمن وراء مجيء الواو أو تركها من دقائق وأسرار.

ونريد أن نفصل لك القول في الحال عندما تأتي جملة متى تقترن جملة الحال هذه بالواو، ومتى تمتنع الواو ومتى يجوز الإتيان بالواو ويجوز تركها، وقبل أن نفصل لك القول في تلك الجمل الحالية ننبهك إلى ما ذكرناه آنفاً من أن الواو لما فيها من معنى المغايرة فهي تؤذن بالاستقلال، وكأن القائل عندما يقول: جاء زيد وغلामه يسعى بين يديه، قد أخبر إخبارين، أخبر بمجيء زيد ثم بحاله عند المجيء وهذا من شأنه أن يؤكد جملة الحال وأن يفيد شدة لصوقها بصاحبها.

أما إذا قال القائل: جاء زيد وغلामه يسعى بين يديه، فهو يخبر خبراً واحداً، يخبر عن مجيء هذه حاله وتلك هيئته.

تأمل قول عبد القاهر: «وإذا قد عرفت هذا فاعلم أن كل جملة وقعت حالا ثم امتنعت من الواو فذاك لأجل أنك عمدت إلى الفعل الواقع في صدرها فضممته إلى الفعل الأول في إثبات واحد، وكل جملة جاءت حالاً ثم اقتضت الواو فذاك لأنك مستأنف بها خبراً وغير قاصد إلى أن تضمها إلى الفعل الأول في الإثبات.

تفسير هذا أنك إذا قلت جاءني زيد يسرع كان بمنزلة قولك: جاءني زيد مسرعاً في أنك تثبت مجيئاً فيه إسرار وتصل أحد المعنيين بالآخر، وتجعل الكلام خبراً واحداً وتريد أن تقول جاءني كذلك وجاءني بهذه الهيئة.

ومن ذلك قول علقمة بن عبدة.

وَقَدْ عَلَوْتُ قُتُودَ الرَّحْلِ يَسْفَعُنِي يَوْمٌ تَجِيءُ بِهِ الْجَوَزَاءُ مَسْمُومٌ^(١)

كأنه قال: وقد علوت قنود الرحل بارزاً للشمس ضاحياً.

وكذلك قول حندج بن حندج المري:

مَتَى أَرَى الصُّبْحَ قَدْ لَاحَتْ مَحَابِلُهُ وَاللَّيْلَ قَدْ مُرِّقَتْ عَنْهُ السَّرَابِلُ

لأنه في معنى: متى أرى الصبح بادياً لانتحا بينا متجلياً، وعلى هذا

انقياس أبداً.

(١) .. ويروي الشطر الثاني برواية أخرى وهي: «يَوْمٌ قَدْ بُدِيْمَةُ الْجَوَزَاءِ مَسْمُومٌ» القنود: بضم القاف جمع قنود وهو خشب الرحل المعهود. وسفعه: لنحه بحره فقير لونه، وسفعت النار كذلك، وقديديمة: تصغير قدام ظرف مكان. والجوزاء من منازل الشمس، ويوم مسموم: هبت فيه ريح السموم بكثرة وهي ريح حارة.

وإذا قلت: جاءني وغلامه يسعى بين يديه، ورأيت زيدًا وسيفه على كتفه، كان المعنى على أنك بدأت فأثبت المجيء والرؤية، ثم استأنفت خبرًا وابتدأت إثباتًا ثانيًا لسعي الغلام بين يديه ولكون السيف على كتفه، ولما كان المعنى على استئناف الإثبات احتيج إلى ما يربط الجملة الثانية بالأولى فجيء بالواو كما جيء بها في قولك: زيد منطلق وعمرو ذاهب، والعلم حسن والجهل قبيح، وتسميتنا لها واو الحال، لا يخرجها عن أن تكون مجتلبة لضم جملة إلى جملة^(١).

وإياك أن يلتبس عليك الأمر فتظن أن جملة الحال قد انفصلت بهذه الواو عن صاحبها وتباعدت عنه، إن الأمر على عكس هذا، لأن هذه الواو قد قربت الحال من صاحبها وأبرزتها جلية واضحة شديدة الالتصاق به، مؤكدة الانتساب إليه - كما وضحت لك - وإذ قد عرفت ذلك فاعلم أن الجملة الحالية قد يجب اقترانها بالواو وقد يمتنع وقد يجوز... وإليك البيان.

إذا كانت الحال جملة فعلية فعلها مضارع مثبت غير مقرون بقد، امتنع اقترانها بالواو كما في قوله تعالى: ﴿ وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْقَدْوَةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۗ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدَ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [الكهف: ٢٨]، وقوله عز وجل: ﴿ وَتَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٠].
وقوله عز من قائل: ﴿ وَسَيَجْزِيهَا الْآتِقَى ۖ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ﴾ [الليل: ١٨، ١٧].

ومنه قول علقمة بن عبدة:

وَقَدْ عَلَوْتُ قُتُودَ الرَّحْلِ يَسْفَعُنِي يَوْمَ تَحِيءُ بِهِ الْجَوَازَاءُ مَسْمُومٌ

وقول أبي دؤاد:

وَلَقَدْ أَغْتَدِي يُدْفِعُ رُكْحِي أَحْوَذِي ذُو مَيْعَةٍ إِضْرِبُجُ

(١) دلائل الإعجاز ص ٢٢٤، ٢٢٥.

سَلَهَبٌ شَرَجَبٌ كَأَنَّ رِمَاحًا حَمَلْتَهُ وَفِي السَّرَاةِ دُمُوجٌ^(١)

أما ما جاء من نحو قول العرب: قمت وأصك عينه، وقول عبد الله بن همام السلوي:

فَلَمَّا خَشِيْتُ أَظْفَافِيهِمْ نَجَوْتُ وَأَزَهْنُهُمْ مَا لِكَا

وقول عنتره العبيسي:

عَلَقْتُهَا عَرَضًا وَأَقْتُلُ قَوْمَهَا زَعَمًا لَعَمْرُؤُ أَيِّكَ لَيْسَ بِمَزْعَمٍ

فقيل: إن ما في المثال شاذ وما في البيتين ضرورة، وقيل: إنه على حذف المبتدأ

والتقدير: قمت وأنا أصك... نجوت وأنا أرهنهم... علقتها عرضًا وأنا أقتل...

وقال عبد القاهر: ليست الواو للحال بل هي للعطف والفعل المضارع في تأويل

الماضي والمعنى: قمت وصككت... نجوت ورهنت... علقت وقتلت^(٢).

وإن كان المضارع مقرونًا بقد وجب اقتران الجملة بالواو كما في قوله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تَقُولُونَ لِتُؤَدُّونِيَ وَ قَدْ عَلِمْتُ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ﴾ [الصف: ٥]،

وكقولك: لم لم تستعد وقد ترحل غدًا.

وإن كان المضارع منفياً جاز أمران: اقتران الجملة بالواو، وترك الواو،

والمضارع المنفي يظل مضارعاً إذا كان النفي بغير لم ولما، أما إذا كان النفي بلم أو لما

فهو ماضٍ معني؛ لأن لم ولما يقلبان إلى الماضي، وهو أي المنفي بلم ولما مما يجوز فيه

الأمران أيضاً... فما جاء بالواو قوله تعالى: ﴿فَأَسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ﴾ [يونس: ٨٩]: في

قراءة من قرأ بتخفيف النون، وكقولهم: «كنت ولا أخشى بالذنب»، أي: لا أخوف

به... وقولهم: يصيب ولا يدري ويقول ولا يفعل.

وكقول مسكين الدارمي:

أَكْسَبَتْهُ الْوَرِقُ الْبَيْضُ أَبَا وَلَقَدْ كَانَ وَلَا يُدْعَى لِأَبٍ

(١) الأحدثي: السريع في السفر وفي غيره، وصف للفرس، والإضربح: الفرس الجواد، الكثير العرق الشديد العدو،

وذو ميعة: ذو ليونة وسهولة في السير، وسلهب: طويل على وجه الأرض وشرجب: طويل القوائم، والسرارة:

الظهير، ودموج: ملاسة وإحكام وتجمع.

(٢) انظر دلائل الإعجاز ص ٢٠٥.

وكقول مالك بن رفيع وكان قد جنى جناية فطلبه مصعب بن الزبير:

بَنَانِي مُضْعَبٌ وَبَثُّو أَبِيهِ فَأَيْنَ أَحْيَدُ عَنْهُمْ لَا أَحْيَدُ
أَقَادُوا مِنِّي دَمِي وَتَوَعَّدُونِي وَكُنْتُ وَمَا يُنْهِنُنِي الْوَعِيدُ

فكان في هذه الشواهد تامة بمعنى: وجد، وقد اقترنت الجملة الحالية بالواو كما ترى وفعلها مضارع منفي.

ومما جاء بغير الواو قوله تعالى: ﴿ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ ﴾ [المائدة: ٨٤]، وقوله عز وجل: ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقْبِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [النساء: ٧٥].

وقول أوطاة بن شهية:

إِنْ تَلْقَيْنِي لِأَتْرَى غَيْرِي بِنَاطِرَةِ تَنْسُ السَّلَاحَ وَتَعْرِفُ جَيْهَةَ الْأَسَدِ

وقول خالد بن يزيد بن معاوية:

لَوْ أَنَّ قَوْمًا لِإِزْتِقَاعِ قَيْلِيَّةٍ دَخَلُوا السَّمَاءَ دَخَلْتَهَا لَا أَحْجَبُ

وقول الآخر:

عَهْدْتُكَ مَا تَضَبُّو وَفِيكَ شَيْبَةٌ فَمَا بِالْكَ بَعْدَ الشَّيْبِ صَبًا مُتِيًّا

وكذلك إذا كانت الجملة الحالية جملة فعلية فعلها ماضٍ لفظاً أو معنى جاز الأمران أيضاً اقترانها بالواو، وعدم اقترانها، والماضي لفظاً لا يقع حالاً إلا وهو مقرون بقد ظاهرة أو مقدره، والماضي معنى هو المضارع المنفي بلم أو لما كما ذكرت لك.

فما جاء بالواو قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ أُنِّي يَكُونُ لِي غُلْمٌ وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ وَآمَرَأْتِي عَاقِرٌ ﴾ [آل عمران: ٤٠]، وقوله عز وجل: ﴿ أُنِّي يَكُونُ لِي غُلْمٌ وَكَانَتْ أَمْرَأْتِي عَاقِرًا ﴾ [مريم: ٨].

وقول امرئ القيس:

أَيَقْتُلُنِي وَقَدْ شَغَفْتُ فُوَادَهَا كَمَا شَغَفَ الْمَهْنُوَّةَ الرَّجُلُ الطَّالِي (١)

(١) شغفت فوادها: تمكن جها له في قلبها، والمهنة: المطلية بالقطران وشغفها طلاها، والمعنى أن جها له تمكن منها وأحاط بها وبلغ ما يبلغ القطران من الناقة المهنة.

وقوله أيضًا:

فَجِئْتُ وَقَدْ نَضَّتْ لِنُومِ ثِيَابِهَا لَدَى السِّتْرِ لِأَلَيْسَةَ الْمُتَمَقِّضِ

فالجملة الحالية كما ترى فعلها ماضٍ لفظاً وقد اقترن بالواو.

ومما جاء فعلها ماضياً معنى، وقد اقترن بالواو أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ ﴾ [الأنعام: ٩٣]، وقوله عز وجل ﴿ أَنْ يَكُونَ لِي غَلْمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ [مريم: ٢٠].

وقول كعب بن زهير:

لَا تَأْخُذْنِي بِأَقْوَالِ الْوَسْأَةِ وَلَمْ أَذْنِبْ وَإِنْ كَثُرَتْ فِي الْأَقَاوِيلِ

وقوله عز من قائل: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ

قَبْلِكُمْ ﴾ [البقرة: ٢١٤]...

ومما جاء بلا واو قوله تعالى: ﴿ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ ﴾ [النساء: ٩٠].

وقول أبي الصخر الهذلي:

وَإِنِّي لَتَعْرُونِي لِذِكْرِكِ هِرَّةٌ كَمَا انْتَفَضَ الْمُضْفُورُ بَلَلَهُ الْقَطْرُ

وقول حندج المري:

مَتَى أَرَى الصُّبْحَ قَدْ لَاحَتْ مَحَايِلُهُ وَاللَّيْلَ قَدْ مُرَّقَتْ عَنْهُ السَّرَابِيلُ

وكتوبه تعالى: ﴿ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ مِنْ اللَّهِ وَفَضَّلْتُمْ أَنْ تَمْسَسَهُمْ سُوءُ ﴾ [آل عمران:

١٧٤]، وقوله عز وجل: ﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ﴾ [الأحزاب: ٢٥].

وقول زهير:

كَأَنَّ فُتَاتَ الْعُهْنِ فِي كُلِّ مَنْزِلٍ نَزَلْنَ بِهِ حَبُّ الْفَنَالِمِ يَحْطَمُ^(١)

وإذا كانت جملة الحال اسمية فالأولى أن تأتي بالواو كقولك جاء زيد وعمرو

أمامه، وأتاني وسيفه في يده.

(١) الفتات: اسم لما انفتق وتقطع من الشيء، والعهن: الصوف المصبوغ، والفنا: عنب الثعلب.

ومنه قول امرئ القيس:

أَيْقُنْتُ لِي وَالْمَشْرِفِي مُضَاجِعِي وَمَسْنُونَةُ زُرْقِي كَأَنْبَابِ أَعْوَالِ

وقوله أيضاً:

لَيْالِي يَدْعُونِي الْهَوَى فَأَجِيبُهُ وَأَعْيُنُ مَنْ أَهْوَى إِلَيَّ رَوَانِ^(١)

وقد يأتي بدون الواو، كقولك: كلمته فوه إلى في، ورجع عوده على بدته.

وقول سلامة بن جندل:

وَلَوْلَا جِنَانُ اللَّيْلِ مَا آبَ عَامِرٌ إِلَى جَعْفَرٍ سِزْبَالُهُ لَمْ يُمَزَّقِ

فإن كان المبتدأ في الجملة الحالية ضمير صاحب الحال وجبت الواو ولا تصلح جملة الحال بدونها ألبتة، كقولك: جاء زيد وهو راكب ودخلت عليه وهو يملي الحديث...

فلا يجوز أن تقول: «جاء زيد هو راكب»، ولا «دخلت عيه هو يملي الحديث».

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]،

وقوله جل وعلا: ﴿وَلَا تُبَشِّرُوهُمْ وَأَنْتُمْ عَنْكُمُوهُونَ فِي الْمَسْجِدِ﴾ [البقرة: ١٨٧].

وإن كان الخبر في الجملة الحالية ظرفاً أو جاراً ومجروراً وقدم على المبتدأ كثر

فيها أن تجيء بغير الواو كقولك: قدم المقاتل على كتفه سيف، وأقبل في يده سوط.

وقول بشار:

إِذَا أَنْكَرْتَنِي بَلَدَةً أَوْ نَكْرَتْهَا خَرَجْتُ مَعَ الْبَازِي عَلَيَّ سَوَادُ^(٢)

وقول أبي الصلت عبد الله بن أبي ربيعة الثقفي:

فَأَشْرَبَ هَنِيئًا عَلَيْكَ النَّاجُ مُرْتَفِعًا فِي رَأْسِ عُمْدَانَ دَارًا مِنْكَ مَجْلَلًا^(٣)

(١) روان: جمع رانية، يقال: رنا يرنو أي: أدام النظر، فالمعنى: مديبات النظر إليه.

(٢) «البازي» ويقال له أيضاً «الباز»: ضرب من الصقور، و«علي سواد»: أي: بقية من الليل.

(٣) عُمدان: بضم العين، حصن بصنعاء، ومجلال: لينة سهلة يحمل الناس بها كثيرًا، والبيت لأبي الصلت وقيل لابنه

أمية بن أبي الصلت في مدح سيف بن ذي يزن والأقرب أنه لأبيه.

ويقل مجيئها عندئذ بالواو، كقولك: جاء وعليه ثوب، ومر وفي يده سيف، وقد جاءت في النظم الكريم بالواو وبدونها.

قال تعالى: ﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَهِيَ كِتَابٌ مُعْلُومٌ ﴾ [الحجر: ٤]، وقال عز وجل: ﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٠٨]، وقد مر بك السر البلاغي الكامن وراء ذكر الواو وتركها في الآيتين الكريميتين.

ومما يجيء بالواو في الأكثر، ثم يأتي بغير الواو في مواضع فيلطف مكانه، الجملة قد دخلتها «ليس» تقول: أتاني وليس عليه ثوب، ورأيت له وليس معه شيء... هذا هو الكثير المستعمل، وقد جاءت بدون الواو فحسن موقعها ولطف، كما في قول الأعرابي:

لَنَا قَتَى وَحَبَّذَا الْأَقْتَاءُ تَعْرِفُهُ الْأَرْسَانَ وَالِدَلَاءُ
إِذَا جَرَى فِي كَفِّهِ الرَّشَاءُ خَلَى الْقَلِيبَ لَيْسَ فِيهِ مَاءٌ^(١)

وقد نجد أن الجملة الاسمية جاءت بغير واو فحسنت، ثم تنظر وتأمل فتجد أن سبب الحسن دخول حرف على المبتدأ، كما في قول الفرزدق.
فَقُلْتُ عَسَى أَنْ تُبْصِرِنِي كَأَنَّمَا بَنِي حَوَالِي الْأُسُودِ الْحَوَارِدُ^(٢)
فانه لولا دخول «كأن» على المبتدأ لم يحسن الكلام إلا بالواو بأن يقال: عسى أن تبصريني وبني حوالي الأسود.

وشبهه بهذا أن ترى الجملة قد جاءت حالاً عقب مفرد فلطف مكانها وحسن، ولو أردت أن تجعلها حالاً من غير أن يتقدمها هذا المفرد لم يحسن.

كما في قول ابن الرومي:

وَاللَّهُ يُبَيِّنُكَ لَنَا سَالِمًا بُرْذَاكَ تَبْجِيلٌ وَتَعْظِيمٌ

(١) الأرسان: جمع رسن وهو الخيل. والرشاء: جبل الدلو، والقليب: البئر، وخلي القليب: تركه.

(٢) الحوارد: الغضاب مفردة حارد.

فقوله: «برداك تبجيل»، في موضع حال ثانية، ولو أنك أسقطت «سالمًا» من البيت فقلت: والله يبيحك برداك تبجيل وتعظيم لم يكن شيئاً^(١).

وقد تجد الجملة الحالية جملة اسمية والمبتدأ فيها ضمير يعود إلى صاحب الحال وعلى الرغم من هذا تمتنع الواو بلاغة، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ [الأعراف: ٤]، فجملة: «هم قائلون»، حال ثانية، وقد صدرت بضمير يعود إلى صاحبها، فحقها أن تكون بالواو، ولكن الواو امتنعت هنا، وامتناعها لسر بلاغي وهو كراهة أن يتوالى حرفا عطف وهما «أو والواو» في اللفظ، فلما استقبح تواليهما امتنعت واو الحال. هذا والله أعلى وأعلم.

الفصل الثامن الإيجاز والإطناب

لكل مقام مقال، والبلاغة كما عرفها البلاغيون، مطابقة الكلام لمقتضى الحال، فالحال قد تقتضي الإيجاز في القول، وطى الكلمات وعندئذ تكون البلاغة في أن يوجز المتكلم ويختصر كلامه، وقد تقتضي الإطناب وإطالة القول وعندئذ تكون البلاغة في الإسهاب وإشباع القول وإطالة الكلام... ولذا قال الأعرابي عندما سئل عن البلاغة: «البلاغة الإيجاز في غير عجز والإطناب في غير خطل»، وسأل معاوية صحار العبدى: ما تعدون البلاغة فيكم؟ فقال صحار: الإيجاز. قال معاوية: وما الإيجاز؟ فأجاب: أن تجيب فلا تبطئ وتقول فلا تحطئ^(١).

وقال عبد الله بن المقفع: «البلاغة اسم جامع لمعان تجري في وجوه كثيرة، فسئما ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الاستماع ومنها ما يكون في الإشارة ومنها ما يكون في الاحتجاج، ومنها ما يكون جواباً ومنها ما يكون شعراً ومنها ما يكون سجعاً وخطباً ومنها ما يكون رسائل، فعمامة ما يكون من هذه الأبواب الوحي فيها والإشارة إلى المعنى والإيجاز هو البلاغة، فأما الخطب بين السماطين وفي إصلاح ذات البين، فالإكثار في غير خطل^(٢) والإطالة في غير إملا، وليكن في صدر كلامك دليل على حاجتك، كما أن خبر أبيات الشعر البيت الذي إذا سمعت صدره عرفت قافيته، فقل له: فإن مل السامع الإطالة التي ذكرت أنها حق ذلك الموقف؟ قال: إذا أعطيت كل مقام حقه، وقمت بالذي يجب من سياسة ذلك المقام، وأرضيت من يعرف حقوق الكلام، فلا تهتم لما فاتك من رضا الحاسد والعدو، فإنه لا يرضيهما شيء، وأما الجاهل فلست منه وليس منك، ورضا جميع الناس شيء لا تناله، وقد كان يقال: رضا الناس شيء لا ينال»^(٣).

(١) البيان والتبيين ١ / ٩٦.

(٢) اخطل بفتح الحاء والطاء: الكلام الفاسد الكثير المضطرب، والمنطق الهراء الفاسد... انظر لسان العرب مادة: خطل.

(٣) البيان والتبيين ١ / ١١٥.

وقد امتدحوا الإيجاز كثيرًا فقالوا: البلاغة إجماع اللفظ وإشباع المعنى... والبلاغة لمحة دالة.. والبلاغة كلمة تكشف عن البقية... ولعل السبب في هذا يرجع إلى أمية العرب، وإلى أنهم أمة صافية الذهن، دقيقة الحس، سريعة الفهم، فالعربي تكفيه الإشارة وتغنيه اللحمه وغير العربي يحتاج إلى الإطالة وإشباع القول، وبهذا علل الجاحظ إيجاز القرآن الكريم عند خطاب العرب والأعراب، والبسط والإطالة عند خطاب بني إسرائيل^(١)

... وهذا ما يفسر لنا أيضًا سر السؤال الذي وجهه إلى ابن المقفع في قوله المذكور والذي ندرك منه رائحة الاعتراض على مدح الإطناب في موضعه وفي مقامه الذي اقتضاه: «فإن مل السامع الإطالة التي ذكرت أنها حق ذلك الموقف...».

وبهذا يتضح لك أن للإيجاز مقامات تقتضيه، ومواضع ثلاثمه، كالحكم والأمثال والرسائل، كما أن للإطناب مقامات تقتضيه، ومواضع ثلاثمه، كالمدح والفخر والوعظ، وما يحسن فيه الإيجاز لا يحسن فيه الإطناب، وكذلك ما يحسن فيه الإطناب لا يحسن فيه الإيجاز، ومن مقامات الإيجاز مقامات الحذف التي عرفها في باب المسند إليه والمسند ومتعلقات الفعل، كما أن من مقامات الإطناب تلك المقامات التي وقفت عليها عند دراستك لذكر المسند والمسند إليه ومتعلقات الفعل^(٢).



الإيجاز معناه وأنواعه

وقد عرفوا الإيجاز بأنه: اندراج المعاني المتكاثرة تحت اللفظ القليل... أو عرض المعاني الكثيرة في ألفاظ قليلة مع الإبانة والإفصاح ليسهل تعلقها بالذهن وتذكرها عند الحاجة إليها في المناسبات المختلفة... وهو نوعان:

٢- إيجاز حذف

١- إيجاز قصر

(١) انظر الحيوان ١ / ٩٣.

(٢) ارجع إلى الجزء الأول من هذا الكتاب.

فإيجاز القصر هو الدلالة على المعاني الكثيرة بألفاظ قليلة، أي: تضمين العبارات القليلة القصيرة معاني كثيرة غزيرة دون أن يكون في تراكيبها لفظ محذوف.

كما في قوله تعالى: ﴿ حُذِرَ الْعَفْوُ وَأُمِرَ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، فقد جمع في هذه الآية الكريمة جميع مكارم الأخلاق، لأن في «العفو» الصفح والإغضاء ومساحة من أساء والرفق في كل الأمور، وفي الأمر بالعرف: صلة الأرحام ومنع اللسان عن الكذب والغيبة، وغض الطرف عن كل محرم، والقيام بمتطلبات الدعوة إلى الله عز وجل، وفي الإعراض عن الجاهل: الصبر والحلم وكظم الغيظ... فهذه ألفاظ قليلة وقد فاضت معانيها إلى الغاية، وزادت عن الحد إلى غير نهاية.

وقوله عز وجل: ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيُخَشِ اللَّهَ وَيَتَّقِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ [النور: ٥٢] أي: من يطع الله في الفرائض، ورسوله في السنن، ويخش الله فيما مضى من عمره، ويتقه فيما بقى من عمره، فقد فاز، والفائز من نجا من النار وأدخل الجنة. ورد أن عمر رضي الله عنه بينما هو قائم في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم إذا برجل من دهاقين الروم قائم على رأسه وهو يقول: أشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فقال له عمر: ما شأنك، قال: أسلمت، قال: هل لهذا سبب؟ قال: نعم، إني قرأت التوراة والزبور والإنجيل وكثيراً من كتب الأنبياء، وإني سمعت أسيراً يقرأ آية من القرآن جمع فيها كل ما في الكتب المتقدمة، فعلمت أنه من عند الله فأسلمت، قال عمر: ما هذه الآية؟ فذكر الرجل الآية الكريمة، فقال عمر: قال النبي صلى الله عليه وسلم «أُوتِيَتْ جَوَامِعَ الْكَلِمِ»^(١).

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴾ [الأعراف: ٥٤]، فقد دلت هذه الجملة من الآية الكريمة على استقصاء جميع الأشياء والشئون، حتى روي أن ابن عمر رضي الله عنهما قرأها فقال: «من بقي له شيء فليطلبه».

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي جـ ٢ ص ١٩٤ ... والحديث رواه مسلم في المساجد برقم [٥٢٣/٨] و«دهاقين» جمع «دُهقان» بكسر الدال وبضمها وهم: التجار... انظر لسان العرب مادة دهق.

ومنه قوله عز وجل: ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ﴾ [الأنعام: ٨٢]، فهذه الجملة يدخل تحتها كل أمر محبوب ويتنفي بهاكل صنوف المكاره..

وقوله تعالى: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ [التوبة: ٤١]، فتلك ثلاث كلمات حوت معاني غزيرة، إذ شملت الأمر بالنفير العام للجهاد، وقطعت جميع الحجج والذرائع المعوقة عن الجهاد.

وقوله عز جل ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَهَا﴾ [النازعات: ٣١]، فقد دلت هذه الآية الكريمة على جميع ما أخرج من الأرض قوتًا ومتاعًا للناس وللدواب، من عشب وشجر وحطب ولباس و نار وماء وغير ذلك.

وانظر إلى قوله عز من قائل في وصف إنهاء الطوفان: ﴿وَقِيلَ يَا رِضْ أَبْلِغِي مَاءَكَ وَيَسْمَاءُ أَقْلِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ٤٤]، فقد قُصَّت القصة مستوعبة جميع الأحداث، مصورة كيف انتهى الطوفان، بحيث لم يخل بشيء من ذلك في أوجز عبارة وأخصر قول.

ومن المشهور في هذا الباب قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩]، إذ المراد به أن الإنسان إذا علم أنه متى قُتِلَ قُتِلَ كان ذلك داعيًا قويًا له إلى أن يكف عن القتل ولا يقدم عليه، فأوجب ذلك حياة الناس، فانظر كيف اندرجت المعاني المتكاثرة تحت هذه الألفاظ القليلة، وقد كان أوجز كلام قيل في هذا المعنى، قول العرب: «القتل أنفى للقتل»، ولكن الآية الكريمة بنظمها الدقيق المعجز، وبلاغتها السامية، فاقت هذا القول من وجوه متعددة أهمها:

- ١- فيما قالوه تكرر، والنظم الكريم لا تكرر فيه.
- ٢- ليس كل قتل نافيًا للقتل، إذ لا ينفي القتلُ القتلَ إلا إذا كان على حكم القصاص، وهذا ما تفيده الآية الكريمة دون القول المذكور.
- ٣- في الآية الكريمة طباق لطيف بين القصاص والحياة... والضد يظهر حسنه الضد.

٤- الآية الكريمة جعلت القصاص كالأصل للحياة وذلك بدخول

أحرف «في» عليه، وفي ذلك ما لا يخفى من المبالغة الجميلة والتخييل العجيب، إذ جعل الفناء محلاً للحياة.

٥- الآية الكريمة أوجز من القول المذكور.

٦- في تنكير كلمة «حياة» إفادة للتعظيم والتنويع، فهي حياة عظيمة فريدة. تمتاز عن حياة البشر وكأنها حياة مستقلة خاصة، إذ إن من هم بالقتل عندما يعلم أنه سيقبض منه فإنه يرتدع وينزجر ويكف عن القتل فيسلم صاحبه ويسلم هو فيحيا ويحيا صاحبه. وتلك حياة عظيمة فريدة.

٧- خلو الآية الكريمة من لفظ «القتل» المشعر بالوحشة والذي جاء وتكرر في القول المذكور، وإشارتها إلى تحقيق العدل بلفظ القصاص. . وتلك الإشارة لا توجد في القول المأثور.

ومن شواهد إيجاز القصر أيضاً قوله تعالى: ﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ [غافر: ١٨]، أي: لا شفاعاة ولا طاعة، فليس المراد نفي طاعة الشفيع بمعنى أن الشفيع يوجد، ولكن لا يطاع، بل المراد أنه لا شفاعاة أصلاً.

ومنه قول امرئ القيس:

عَلَى لَأَجِبَ لَا يُهْدَى بِمَنَارِهِ إِذَا سَافَهُ الْعَوْدُ النَّبَاطِيَّ جَرَجَرًا^(١)

أي: لا منارة ولا اهتداء.

وقول أوس بن حجر:

لَا يُفْنِزُ الْأَزْنَبَ أَهْوَالُهُمَا وَلَا تَرَى الضَّبَّ بِهَا يَنْجَحِرُ^(٢)

أي: لا أرنب ولا فزع، ولا ضب ولا انجحار... ففي هذه الشواهد قد انتفى القيد والمقيد معاً، والنفي موجه إلى القيد فقط، ولا يخفى عليك ما في هذا من إيجاز...

(١) اللاحب: الطريق. والمنار: العلامة تجعل على الطريق. وسافه: شمه، والعود: بفتح العين وسكون الواو: الجمل السنن. والنباطي: الضخم، وجرجر: ضح ورغا، وإنما يرغو الجمل لمعرفته ببعد الطريق ومشقة السير فيه.

(٢) ينحجر: يدخل حجره... يصف مفازة بأنها غير مطروقة للناس.

وانظر إلى قول الشريف الرضي.

مَالُوا إِلَى شُعَبِ الرَّحَالِ وَأَسْتَدُوا أَيْدِي الطَّعَانِ إِلَى قُلُوبٍ تَخْفِقُ^(١)

فإنه لما أراد أن يصف هؤلاء القوم بالشجاعة في أثناء وصفهم بالغرام، عبر عن ذلك بقوله: وأسندوا أيدي الطعان إلى قلوب تخفق.

وقول أبي تمام:

وظَلَمْتَ نَفْسَكَ طَالِبًا إِنْصَافَهَا فَعَجِبْتُ مِنْ مَظْلُومَةٍ لَمْ تُظَلَمِ

أراد: أكرهتها على تحمل الصعاب والمشاق فأنصفتها بذلك، إذ أوجبت لها مجداً عريقاً وذكرًا حسنًا، فصارت بهذا الصنيع مظلومة لم تظلم.

وقول السموأل بن غريض بن عادي الأزدی:

وَإِنْ هُوَ لَمْ يَحْمِلْ عَنِ النَّفْسِ ضَمِيمَهَا فَلَيْسَ إِلَيَّ حُسْنِ الشَّنَاءِ سَبِيلٌ

فقد جمع في البيت الصفات الحميدة من شجاعة وسباحة ومروءة ونجدة وإغاثة ملهوف وغير ذلك، لأن هذه الصفات من ضميم النفس، إذ تجذب بحملها مشقة وعناء.

ورسول الله ﷺ قد أوتي جوامع الكلم، والكلام الجامع هو الذي تتكاثر معانيه وتقل ألفاظه، ومن جوامع كلمه عليه الصلاة والسلام قوله: «لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ»^(٢)، وقوله ﷺ للأَنْصَارِ: «إِنَّكُمْ لَتَكْثُرُونَ عِنْدَ الْفَرْعِ وَتَقِيلُونَ عِنْدَ الطَّمَعِ»^(٣)، وقوله: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا»^(٤)، وقوله: «لَيْسَ الْوَاصِلُ بِالْمُكَافِئِ وَلَكِنَّ الْوَاصِلَ الَّذِي إِذَا قَطَعَتْ رَجْمُهُ وَصَلَهَا»^(٥)، فلكل ألفاظ قليلة حوت معاني كثيرة يطول بك القول لو وصفها والإحاطة بها.

(١) شعب الرحال بضم الشين: خشبها، وميلهم إليها إشارة إلى ركوهم عليها ورحيلهم للقتال. وتخفق: تضطرب لفراق الأعبة.

(٢) رواه ابن ماجه في الأحكام برقم (١٧/ ٢٣٤١).

(٣) رواه العسكري في الأمثال... انظر كنز العمال رقم (٣٧٩٥١).

(٤) رواه مسلم في كتاب صلاة المسافرين برقم (٧٨٥ / ٢٢١).

(٥) رواه البخاري في كتاب الأدب برقم: [٥٩٩١]

ومن إيجاز الكُتَّاب ما كتبه عمرو بن مسعدة إلى المأمون بشأن رجل يهمله أمره إذ قال في كتابه: «كتابي إليك كتاب واثق بمن كتب إليه معنى بمن كتب له، ولن يضع بين الثقة والعناية حامله».

وما كتبه إليه أيضًا يحثه على تعجيل أرزاق الجند: «كتابي إلى أمير المؤمنين، ومن قبلي من قواده وسائر أجناده في الانقياد والطاعة على أحسن ما يكون جند تأخرت أرزاقهم، وانقياد كافة تراخت أعطياتهم، فاختلفت لذلك أحوالهم، والثالث معه أمورهم»^(١)، ولا يخفى عليك ما في الكتابين من معاني غزيرة صيغت في عبارات قليلة وألفاظ موجزة، وهذا هو شأن إيجاز القصر الذي يجري مجرى الأمثال في الجمع بين الإيجاز والجمال والقوة.

انظر إلى ما كتبه جعفر بن يحيى البرمكي إلى أحد عماله، ووقع به في كتاب رجل شكاه إليه ذاك العامل من عماله: «قد كثر شاكوك وقل شاكرون فيما اعتدلت وإما اعتزلت».



إيجاز الحذف

أما إيجاز الحذف، فقد عرفه البلاغيون بأنه: التعبير عن المعاني الكثيرة في عبارة قليلة، وذلك بحذف شيء من التركيب مع عدم الإخلال بتلك المعاني، ولا بد في كل حذف من وجود أمرين: داع يدعو إليه، وقرينة تدل على المحذوف وترشد إليه وتعيّنه... والمحذوف إما أن يكون جزء كلمة، أو كلمة أو جملة أو أكثر من جملة... وإليك بيان ذلك.

حذف جزء الكلمة

كما في قوله تعالى: ﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلْمٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٠]، فالأصل: ولم أكن بغياً، وقد حذفت النون تخفيفاً... وقوله عز وجل: ﴿وَتَادُوا بِيَمِينِكُمْ لِيقْضِ عَلَيْنَا رَيْثُكَ قَالُوا بَشَرٌ لَّنَّكُمْ مِكْتُوبٌ﴾ [الزخرف: ٧٧]، في قراءة من قرأ بترخيم المنادى: «يا مأل» والأصل: يا مالك، فحذفت الكاف من: «مالك» للدلالة على ما هم فيه من ألم وعذاب وضيق وحزن.

(١) الثالث معه أمورهم أي: اختلطت، يقال: الثالث عليه الأمر أي: اختلط والتبس.

ومنه قول لبيد:

دَرَسَ الْمَمَّا بِمُتَالِعِ فَأَبَانَ بِالْحَبْسِ بَسِينِ الْبَيْدِ وَالسُّوْبَانَ^(١)

أراد: درس المنازل..

ومنه قول علقمة بن عبدة:

كَأَنَّ إِبْرِيْقَهُمْ ظَبْيِي عَلَى شَرْفٍ مُقَدَّمٍ بِسَبَا الْكَيْتَانِ مَثْلُومٍ

أراد: بسبائب الكتان...

وقول الحارث الجرمي:

قَوْمِي هُمْ قَتَلُوا أُمَّيْمَ أَخِي فَإِذَا رَمَيْتُ يُصِيبُنِي سَهْمِي

أراد: يا أميمة، فحذف حرف النداء، ورخم المنادى فحذف منه التاء...

وارجع إلى باب المسند إليه في الجزء الأول من هذا الكتاب لتقف على الأسرار البلاغية الكامنة وراء الحذف في هذه الشواهد.



حذف الكلمة: وله صور كثيرة أهمها:

١- حذف الحروف، كحذف همزة الاستفهام في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ﴾ [محمد: ١٥]، إذ المراد: أمثل الجنة التي وعد المتقون كمن هو خالد في النار...؟ فحذفت الهمزة وفي حذفها زيادة تصوير لعناد المعاندين ومكابرة المكابرين الذين يسوون بين الحق والباطل وبين من يتمسك بالبيئة ومن يتبع هواه.

يقول الزمخشري: «فإن قلت: ما معنى قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ﴾

(١) متالع: جبل بناحية البحرين بين السودة والأحساء وفي سفح هذا الجبل عين يسبح ماؤها يقال لها: عين متالع، وأبان والحبس والبيد والسويان: أماكن.. انظر لسان العرب: مادة: تلح.

فِيهَا أَهْبَرُ مِنْ مَاءِ غَيْرِهِ إِسِنَّ وَأَهْبَرُ مِنْ لَبْنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَهْبَرُ مِنْ خَمْرٍ لَدَوِّ لِشَرِبِينَ وَأَهْبَرُ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَهَمَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ ﴿ محمد: ١٥ ﴾ .

قلت: هو كلام في صورة الإثبات ومعنى النفي والإنكار، لانطوائه تحت حكم كلام مصدر بحرف الإنكار ودخوله في حيزه وانخراطه في سلكه، وهو قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ يَتِيمَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَنْ زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ ﴾، فكأنه قيل: أمثل الجنة كمن هو خالد في النار؟ أي: كمثل جزاء من هو خالد في النار، فإن قلت: فلم عري من حرف الإنكار وما فائدة التعرية؟ قلت: تعريته من حرف الإنكار فيها زيادة تصوير لمكابرة من يسوي بين المتمسك بالبينه والتابع لهواه، وأنه بمنزلة من يثبت التسوية بين الجنة التي تجري فيها تلك الأنهار، وبين النار التي يُسقى أهلها الحميم...»^(١).

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [الشعراء: ٢٢]، إذ المراد: أو تلك نعمة..؟ وقوله عز وجل: ﴿ وَإِذْ أَبْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبَّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ﴾ [البقرة: ١٢٤]، أي: أو من ذريتي؟ فحذفت اضمزة في الموضعين...^(٢).

وكحذف «لا» النافية كما في قوله تعالى: ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتُنَا تَذَكَّرُ يُوْسُفَ حَتَّىٰ تَكُوْرَ حَرَضًا أَوْ تَكُوْنَ مِنَ الْهَالِكِيْنَ ﴾ [يوسف: ٨٥]، أي: لا تفتأ... وكحذف حرف النداء كما في الآية الكريمة: ﴿ يُوْسُفُ أَعْرِضْ عَن هَذَا ﴾ [يوسف: ٢٩]، وكما في بيت الحارث الجرمي:

قَوْمِي هُمْ قَتَلُوا أُمَّيْمَ أَخِي فَإِذَا رَمَيْتُ يُصَيْبِي سَهْجِي
إذ المراد: يا يوسف أعرض... يا أميمة. فحذف حرف النداء^(٣).

٢- حذف المسند إليه أو المسند أو أحد متعلقات الفعل كالمفعول والحال والجار والمجرور على نحو ما مر بك في تلك الأبواب.

٣- حذف المضاف، كما في قوله تعالى: ﴿ وَسَمِّلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعَيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا

(١) الكشاف ٣/ ٥٣٣.

(٢) ارجع إلى أسرار هذا الحذف في رسالتنا الحذف في ضوء أساليب القرآن.

(٣) ارجع إلى باب المسند إليه في الجزء الأول من هذا الكتاب؛ لتقف على أسرار الحذف في هذه الشواهد.

فِيهَا ﴿ [يوسف: ٨٢]، أي أهل القرية وأصحاب العير، فحذف المضاف في الموضوعين، وحذفه يشير إلى شهرة السرقة وذوبوعها وكانهم يريدون: أن أمر سرقته قد اشتهر وذاع إلى حد أنك لو سألت الجمادات لأجابت، ولو سألت الحيوانات لنطقت وأخبرت.

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعُقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءَ وَنِدَاءَ ﴾ [البقرة: ١٧١]، إذ المراد: ومثل داعي الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء، فحذف المضاف وهو «داعي» رفعا لشأنه وتنزيها له عن أن يقرن في اللفظ بهذا الذي ينعق بما لا يسمع، وأن يضاف إلى الذين كفروا.

وحذف المضاف يقع كثيرا في النظم الكريم على نحو ما ترى في الآيات الكريمة: ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ﴾ [الحج: ٧٨] أي: في سبيل الله، ﴿ حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ طَيْبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾ [النساء: ١٦] أي: تناول طيبات، ﴿ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ﴾ [الأحزاب: ٢١] أي: رحمة الله ونعيم اليوم الآخر، ﴿ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا غُوبًا قَمَطِرًا ﴾ [الإنسان: ١٠] أي: من عذابه، وقد ظهرت هذه المضافات في الآية الكريمة، ﴿ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ [الإسراء: ٥٧]، ومنه قوله عز وجل: ﴿ فَذَلِكُنَّ الَّذِينَ لَمَنَّنِي فِيهِ ﴾ [يوسف: ٣٢] أي: في مرادته.

٤- حذف المضاف إليه: كما في قوله تعالى: ﴿ وَوَعَدْنَا مُوسَىٰ نَلْقَىٰكَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ ﴾ [الأعراف: ١٤٢]، أي: بعشر ليال، وقوله تعالى: ﴿ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ ﴾ [الروم: ٤]، أي: من قبل الغلب ومن بعده.

٥- حذف الموصوف: كما في قوله تعالى: ﴿ وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَاتُ الْطُرُقِ أَنْتَابُ ﴾ [ص: ٥٢]، أي: حور قاصرات الطرف... وقوله عز وجل: ﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ﴾ [مريم: ٦٠]، أي: وعمل عملاً صالحاً فاكتفى بالصفة عن الموصوف في الآيتين لذبوع الصفة وشهرتها.

ومنه قول سُحَيْمِ بْنِ وَثِيل:

أَنْتَابُنْ جَلًّا وَطَلَاغُ الشَّنَابَا مَتَى أَضْعَ الْعِمَامَةَ تَعْرِفُونِي^(١)

(١) الشنابا: مفردها ثنيّة، وهي الطريق في أعلى الجبل أو الطريق الصعب، والمراد بالعمامة عمامة الحرب أي: البيضة، وجلا: منكشف الأمر، أو كاشف الأمور... والمعنى: أنا ابن رجل معروف لا يخفى على أحد، أو أنا ابن رجل شجاع يكشف الكرب، ويبدد الخوف، ويقنطم الشدائد والأهوال.

حذف الموصوف وتقديره: أنا ابن رجل جلا.

٦- حذف الصفة: كما في قوله تعالى: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرْدَتْ أَنْ أَعْيِبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٩]، أي: يأخذ كل سفينة صالحة، بدليل قوله: «فأردت أن أعيبها...»، والحذف هنا يوحى بجبروت هذا الملك وإفساده وشدة ظلمه، فغصبه ليس قاصرًا على الصالح من السفن، بل تجاوزه إلى غير الصالح، فغاياته هي الغضب والاستيلاء، بهذا ينبئ الحذف فالحذف في الآية يصور مدى طغيان الملك وشدة ظلمه.

٧- حذف القسم كقوله تعالى: ﴿لَنْ لَمَّا يَنْتَهَى الْمُنْتَفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجُفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٠]، أي تالله لئن لم ينته، وقوله عز وجل: ﴿وَلَنْ لَمَّا يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ لَيَسْجَنَنَّ وَيَكُونًا مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾ [يوسف: ٣٢]، أي: والله لئن لم يفعل، فحذف القسم في الموضعين.

٨- حذف جواب القسم كقوله تعالى ﴿وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ﴾ [الفجر: ١-٥]، فقد حذف جواب القسم لوضوحه وبيانه وتقديره: لتبعثن.

٩- حذف الشرط: كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، وقوله عز وجل: ﴿فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكُمْ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ٤٣]، والتقدير: فإن تتبعوني يحببكم الله، فإن تتبعني أهدك صراطًا سويًا.

١٠- حذف جواب الشرط: كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [يس: ٤٥]، أي: أعرضوا بدليل قوله تعالى بعده: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِنَا إِلَّاهُمْ كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ [يس: ٤٦]، وهذا الحذف يشير إلى أنه كان ينبغي لهم أن يستجيبوا ويقبلوا النصح فيحققوا التقوى، وما كان ينبغي لهم الإعراض والتولي وكان طيه من اللفظ ينبي بضرورة التخلي عنه وإسقاطه من الأذهان والمسارة إلى قبول الهداية والحق.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِيقَاتِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلِّمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣]، والتقدير:

حتى إذا جاءوها وقد فتحت أبوابها سعدوا وحصلوا على النعيم المقيم الذي لا يحيط به الوصف... وبلاغة حذف الجواب هنا تكمن في أن النفس تذهب في تقدير الجواب المحذوف كل مذهب، وفي الدلالة على أنه شيء لا يحيط به الوصف ولا تتسع له العبارة.

وتأمل ما وراء هذه الواو ﴿وَفُتِحَتْ﴾ من تكريم وتشريف لهؤلاء الذين اتقوا فقد فتحت لهم أبواب الجنة قبل أن يأتوها تكريماً لهم وتعظيماً لشأنهم، ثم انظر إلى وصف الذين كفروا ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ [الزمر: ٧١]، نجد أن «فتحت» قد جاءت بدون واو فهي جواب «إذا»، ومجيئها بدون الواو يشير إلى شدة مواجعتهم بالعذاب، فأبواب جهنم مغلقة لا تفتح إلا عند وصولهم إليها «إذا جاءوها فتحت أبوابها» حتى تواجههم بصنوف العذاب وألوان الآلام... أما أبواب الجنة فتفتح قبل مجيء الذين اتقوا وتجهز قبل وصولهم وتعد، تكريماً لهم وتعظيماً ﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ مُّفْتَحَةٌ لَّهُمُ الْأَبْوَابُ﴾ [ص: ٥٠].

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [السجدة: 12]، وقوله جل وعلا: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ النَّارِ﴾ [الأنعام: ٢٧]، والتقدير: لرأيت أمراً عظيماً وشيئاً فظيماً لا يحيط به الوصف، فقد حذف الجواب هنا قصداً إلى إفادة التهويل والتفطيع... ومن قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانَ سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَل لَّيْلَهُ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٣١]، والتقدير: لو أن قرآناً أوتي تلك القوة الحارقة لكان هذا القرآن، فحذف جواب ﴿لو﴾ هنا يشير إلى وضوحه وظهوره، وانصراف الأذهان إليه بمجرد التلفظ بجملته الشرط.

١١- حذف جواب الاستفهام: كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا سُورَةً نُظِرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ أَنْصَرَفُوا صَرْفَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ﴾ [التوبة: ١٢٧]، فحذف جواب الاستفهام وتقديره: «لا يرانا من أحد» بدليل قوله «ثم انصرفوا»، لأنهم لم ينصرفوا إلى بعد تأكدهم من أنه لا أحد يراهم، والحذف هنا يشير إلى حذرهم ومبلغ حيطتهم وكأن الجواب كان همساً في الأذان وليس أصواتاً مسموعة.

١٢- حذف المعطوف: كما في الآية الكريمة: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ

أَفْتَحَ وَقَتَلَ^١ أَوْلِيَّكَ أَعْظَمَ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقْتَلُوا ۗ ﴿ [الحديد: ١٠]، أي: لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ومن أنفق من بعده وقاتل، فحذف المعطوف لدلالة ما بعده عليه.



حذف الجملة

والمراد بالجملة، الجملة التامة التي تفيد معنى مستقلاً، ولا تكون جزءاً من كلام آخر ولهذا لا يدخل فيها حذف المعطوف وحذف الأجوبة: جواب القسم وجواب الشرط وجواب الاستفهام؛ لأنها وإن كانت جملاً فهي لا تستقل بالإفادة، بل هي جزء من كلام آخر ومن أجل هذا عدناها من قبيل حذف الكلمة.

ومن حذف الجملة قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ نَضِيبًا ۗ ﴿ [البقرة: ٦٠]، والتقدير: ف ضرب فانفجرت، فحذفت جملة: ضرب، وحذفها يشير إلى سرعة إجابة موسى -عليه السلام- وإمثاله لأمر ربه، كما ينبئ بأن الانفجار مسبب عن الأمر "اضْرِبْ" وما صنعه موسى إنما هو أخذ بالأسباب، ومنه قوله تعالى: ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ۗ ﴿ [الأنفال: ٨]، والمعنى: فعل ما فعل من كسر قوة أهل الشرك، ليحق الحق ويبطل الباطل... وقوله جل وعلا ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۗ ﴿ [البقرة: ١٢٧]، فحذفت جملة الحال والتقدير: وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل وهما يقولان: ربنا تقبل منا... وهذا الحذف يصور لنا المشهد حياً بارزاً، مشاهداً، وكأنك تراه الآن، وتشاهد إبراهيم وإسماعيل وهما يدعوان بهذا الدعاء، فكم في الانتقال هنا من الخبر إلى الدعاء من إعجاز فني بارز يكمن وراء طي جملة الحال^(١).

ومنه قول أبي الطيب:

أَتَى الزَّمَانَ بِنُوءِهِ فِي شَيْبَتِهِ فَسَرَّهُمْ وَأَتَيْنَاهُ عَلَى الْهَرَمِ

(١) التصوير الفني في القرآن ص ٥٩.

أي: وأتيناها على الهرم فساءنا، والحذف في البيت ينبئ بها في نفس الشاعر من ضيق وألم لإدبار الدهر عنه وعدم تحقيق ما يصبو إليه من مجد وآمال.



حذف أكثر من جملة

كما في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَّا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنْتِظَمُ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴾ [يوسف: ٤٥ : ٤٦]، والتقدير: فأرسلون إلى يوسف لأستعبره الرؤيا فأرسلوه إليه فاتاه وقال له: يوسف أيها الصديق أفتنا... ومثله قوله تعالى: ﴿ فَعَلْنَا آذَهَبًا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمْزَلْنَهُمْ تَدْمِيرًا ﴾ [الفرقان: ٣٦]، والتقدير: فأتيهم فأبلغاهم الرسالة فكذبوها فدمرناهم. ويكثر هذا الحذف في النظم القرآني ولا سيما في ميدان القصص حيث يستغنى عن التفاصيل الجزئية التي تعرف من السياق وتفهم من قرائن الأحوال، ففي تخطيها وصول إلى العناصر الجوهرية في القصة وإبرازها جلية واضحة، وفي تخطيها أيضا حث للمخاطب وتحريك لمشاعره، وإثارة لذهنه، إذ يفهم تلك المشاهد المطوية ويقف عليها من خلال تأمله وتدبره أحداث القصة ووقوفه على سياقها وقرائن أحوالها.

قرائن الحذف

ولابد في الحذف من قرينة تدل على المحذوف وترشد إليه وتعينه، وإلا كان الحذف عبثاً وضرباً من الهذيان، إذ يؤدي عندئذ إلى اللبس والإشكال وعدم فهم المراد... وقرائن الحذف قد تكون لفظية، كما في قوله تعالى: ﴿ وَالَّتِي يَبْسَنَ مِنَ الْمَجِيضِ مِنْ نَسَائِكُزٍ إِنْ آرْتَبْتُمْ فَعِدَّتْنِ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّتِي لَمْ يَحِضْنَ وَأَوَّلَتْ أَلْحَمَالُ أَجَلَهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ [الطلاق: ٤]، فقد حذف خبر «اللاتي لم يحضن»، لدلالة خبر «اللاتي يبسن» عليه وتعيينه له، والتقدير: واللاتي لم يحضن فعدتهن ثلاثة أشهر كذلك.

ومن ذلك قوله جل وعلا: ﴿ وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ [فاطر: ٤]، فقد حذف جواب الشرط وتقديره، وإن يكذبوك فاصبر، ودلت عليه القرينة اللفظية وهي: «فقد كذبت رسل من قبلك» فهذه الجملة ليست

هي جواب الشرط وإنما هي علة لجواب الشرط المحذوف، وفيها تسلية لرسول الله ﷺ كي لا يحزن لإعراضهم وتكذيبهم.

ومنها قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتَّلَ أَوْلِيَّكَ أَعْظَمَ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتَّلُوا﴾ [الحديد: ١٠]، فقد دل المذكور: «من الذين أنفقوا من بعد وقتلوا» على المحذوف والتقدير: لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ومن أنفق من بعده وقاتل».

هذا ولا يشترط في المحذوف أن يكون من جنس المذكور، بل الذي ينبغي مراعاته أن يدل المذكور على المحذوف دلالة واضحة بينة، ولذا لا أرى عيباً في بيت عروة بن الورد:

عَجِبْتُ لَهُمْ إِذْ يَقْتُلُونَ نَفْسَهُمْ وَمَقْتَلُهُمْ عِنْدَ الْوَعَى كَانَ أَعْدَرًا

إذ حذف الجار والمجرور من القتل الأول لدلالة «عند الوعى» عليه دلالة بينة ظاهرة، والتقدير: إذ يقتلون نفوسهم في السلم... ولا في قول الحارث بن حنظلة:
وَالْعَيْشُ خَيْرٌ فِي ظِلِّهِ لِنُورِ النُّوْكِ مِمَّنْ عَاشَ كَدًّا
أراد: والعيش الناعم في ظلال الحمق خير من العيش الشاق في ظلال العقل، فحذف «الناعم» لدلالة «كدا» عليه، وحذف العقل لدلالة «النوك» عليه... ولا في قول عبيد الله بن مسعود الهذلي:

أَعَاذِلُّ عَاجِلُ مَا أَشْتَهِي أَحَبُّ مِنَ الْأَكْثَرِ الرَّيِّثِ

أراد: عاجل ما أشتهي مع القلة أحب من الأكثر المبطن، فحذف لفظ «القلة» لدلالة قوله: «الأكثر» عليه.

ويرى كثير من البلاغيين أن المحذوف ينبغي أن يكون من جنس المذكور ولذا عدوا الحذف في الأبيات المذكورة، مخلأً بالمعنى ومفسدًا له، لأن المذكور ليس من جنس المحذوف، فهو غير واف في الدلالة عليه، ولا أرى -كما بينت- إخلالا في الأبيات، بل أرى أن القرينة اللفظية فيها قد دلت على المحذوف دلالة واضحة وافية، وهذا هو ما ينبغي أن يعتد به ويعول عليه، ولا يشترط في القرينة اللفظية أن تكون من جنس ما حذف.

انظر إلى قول المتنبي السابق:

آتَى الزَّمَانَ بُسُوهُ فِي شَيْبَتِهِ فَسَرَّهُمْ وَأَتَيْنَاهُ عَلَى الْهَرَمِ

نجد أن قوله: «فسرهم» قد دل على المحذوف وتقديره: فساءنا، دلالة واضحة بينة وهو ليس من جنسه كما ترى.

وخذ قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ [الإسراء:

١٦]، إذ المعنى -والله أعلم- أمرناهم بالطاعة ففسقوا، فقد حذف «الطاعة» لدلالة قوله: «ففسقوا» عليها وهو ليس من جنسها.

وبهذا يتضح لك أن القرينة اللفظية لا يشترط فيها أن تكون من جنس المحذوف، بل يشترط أن تكون واضحة الدلالة عليه سواء أكانت من جنسه أم من غير جنسه^(١).

وقد تكون القرينة معنوية، تفهم من السياق وقرائن الأحوال دون أن يصرح في العبارة بما يدل على المحذوف... كما في قوله جل وعلا ﴿وَجَاءَ رَيْكُ وَالْمَلَكُ صَفَا صَفَا﴾ [الفجر: ٢٢]، فالمعنى -والله أعلم- وجاء أمر ربك، لأن العقل لا يجوز مجيء الرب، بل الذي يأتي هو أمره أو عذابه أو بأسه ونحو ذلك.

ومثله قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ﴾ [البقرة:

٢١٠]، أي: هل ينظرون إلا أن يأتيهم عذاب الله أو أمره.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ﴾ [المائدة: ٣]،

أي: حرم عليكم تناول هذه الأشياء؛ لأن التحريم يتعلق بالأفعال لا بالذوات وكذا

القول في الآيات الكريمة: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ [النساء: ٢٣]، أي: نكاحهن،

﴿فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾ [يوسف: ٣٢]، أي: في حبه أو مراودته، وسياق الآيات

الكريمة ينطق بالمحذوف: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتْنَهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ

شَغَفَهَا حُبًّا﴾ [يوسف: ٣٠]، ولا يعد هذا من قبيل القرينة اللفظية، لأنه ليس

(١) ارجع إلى الحذف في ضوء أساليب القرآن.

مذكورا في نفس الآية، والمخاطب يحتاج إلى مراجعة طويلة للسياق وتدبره حتى يقف على المحذوف.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَسَقَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعَيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ ﴾ [يوسف: ٨٢]، أي: سل أهل القرية التي كنا فيها وأصحاب العير... لأن السؤال لا يوجه إلا إلى ذوي العقول والتمييز.

وقوله عز وجل: ﴿ قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ فِتْنَالَهُ أَتَبَعْنَاكُمْ ﴾ [آل عمران: ١٦٧]، أي: لو نعلم أن المكان مكان قتال، لأنهم كانوا أخبر الناس بالحرب وفنون القتال فكيف يقولون: إنهم لا يعرفونها؟ لا بد إذا من حذف قدره المفسرون بقولهم: مكان قتال... ومنها قولك لمن أعرس: بالرفاء والبنين، فقد دلت الحال على المحذوف وتقديره: بالرفاء والبنين أعرست، إلى غير ذلك من القرائن التي تدل على المحذوف وترشد إليه.



الإطناب معناه وأنواعه

والإطناب في اللغة: مصدر أطنب، يقال: أطنب في كلامه، إذا بالغ فيه وطول ذبوله، وفي عرف البلاغيين معناه: زيادة اللفظ على المعنى لفائدة، أو عرض المعنى في عبارة زائدة بحيث تحقق الزيادة فائدة، كما في قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ [مريم: ٤]، فقد أراد زكريا -عليه السلام- أن يخبر بكبره وتقدم سنه، فجعل الألفاظ زائدة على المعاني لفائدة وهي: إظهار ضعفه، وتأكيد الوهن، لأنك لو قلت: رب إنني قد كبرت، أفاد ذلك الإخبار بتقدم العمر فقط دون ظهور الضعف، إذ قد تكون مع تقدم سنك قويا نشيطا، أما الآيات فقد أخبرت عن هذا المعنى «تقدم السن» بوهن العظم، واشتعال الشيب، لتظهر ضعفه بجانب تقدم سنه، فالزيادة في الألفاظ -كما ترى- إنها هي لفائدة.

ومنه قوله عز وجل: ﴿ وَمَا تَلِكْ بِيَمِينِكَ يَمْوَسَىٰ ﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَنَاصِبُ أُخْرَىٰ ﴾ [طه: ١٧، ١٨]، فقد كان يكفي في الجواب أن يقول -موسى عليه السلام-: عصا، ولكنه أطنب وفصل فأضاف العصا إليه وذكر وظائفها بعضها منفصلا: «أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي»، وبعضها مجملا:

« لي فيها مآرب أخرى»، ولعله كان يطمع في أن يسأل عن هذه المآرب فيجيب عنها وبهذا يمتد الحديث ويطول؛ لأنه في مقام رب العزة، وهو مقام يحلو فيه الإطتاب، لأنه مقام تعظيم وتشريف، فالزيادة في الجواب - كما ترى - تحقق فائدة.

فإذا لم تحقق الزيادة فائدة في الكلام كانت تطويلاً أو حشوًا، وذلك أنها إذا كانت غير متعينة كالمترادفين مثل: الكذب والمين، والنأي والبعء، وأقوى وأقفر، ونوم ونعاس، وحظ ونصيب... سميت الزيادة تطويلاً.

من ذلك قول عدي بن يزيد العبادي:

وَقَدَدَتِ الْأَدِيمَ لِزَاهِشِيهِ وَأَلْفِي قَوْلَهَا كَكَذِبًا وَمَيَّنَا^(١)

فالكذب والمين بمعنى واحد ولا يتغير المعنى بإسقاط أحدهما...

وقول عنتره:

حَيَّيْتُ مِنْ طَلَلٍ تَقَادَمَ عَهْدُهُ أَقْوَى وَأَقْفَرَ بَعْدَ أَمِّ الْهَيْتَمِ

فأقوى وأقفر بمعنى واحد، ولا يتغير المعنى بإسقاط أيهما شئت.

وكقول الحطيئة:

قَالَتْ أَمَامَةٌ لَا تَجْنَعُ فَقُلْتُ لَهَا إِنَّ الْعَرََاءَ وَإِنَّ الصَّبْرَ قَدْ غَلَبَا
هَلَّا التَّمَسَّتْ لَنَا إِنْ كُنْتِ صَادِقَةً مَا لَا تَعِيشُ بِهِ فِي النَّاسِ أَوْ نَشَبًا^(٢)

فالعزاء والصبر بمعنى واحد وكذا المال والنشب.

وكقول الآخر:

أَلَا حَبَدًا هِنْدٌ وَأَرْضٌ بِهَا هِنْدٌ وَهِنْدٌ أَتَى مِنْ دُونِهَا النَّأْيُ وَالْبُعْدُ

(١) قددت: قطعت، والفاعل المستتر يعود إلى الزباء ملكة تدمر والأديم: الجلد والراهشان: عرقان في باطن الذراع والضمير المضاف إليه يعود لجذيمة بن الأبرش ملك الحيرة، «وَأَلْفِي» بمعنى: وجد مبني للمفعول «وقولها» نائب الفاعل و«كذبًا» المفعول الثاني، وقصتها مشهورة، وخلصتها أن الزباء كان لها دم عند جذيمة حيث قتل والدها فأرادت أن تتأر منه وتوددت إليه ولما التقت به ادعت أنها تريد أن تستشفى بدمه؛ لأن دم الملك مما يستشفى به فقددت الأديم لراهشيه وظل ينزف حتى مات.

(٢) النشب: يفتح النون والشين: المال الأصيل، ويطلق أيضًا على العقار، يقال: نشب ونشبة ومنشبة.

فالتأيي والبعد بمعنى واحد، وإذا أسقطت إحدى الكلمتين لا يتغير المعنى، أي أنه لم يتعين أي الكلمتين هو الزائد.

هذا والحكم بزيادة كلمة من الكلمات وخلوها عن الفائدة مرتبط بالمقام والحال التي قيلت في جوها الكلمة، وعندما تتأمل الأبيات المذكورة لا تستطيع أن تحكم بزيادة إحدى الكلمتين كما قال البلاغيون؛ لأن المقام في الأبيات يقتضي التأكيد، ومن شأن الترادف أن يفيد التأكيد، ثم إن الكلمات المترادفة لا تفيد معنى واحداً، بل ذكر كثير من العلماء أن كل لفظ من الألفاظ المترادفة له ظلال جانبية وإفادات جزئية تختلف عن الآخر... ولذا لا نستطيع القول بأن أحد اللفظين المترادفين في الأبيات المذكورة زائد، بل إنه مؤكد للآخر والمقام - كما ذكرت - قد اقتضى هذا التأكيد.

وإذا كانت الزيادة متعينة سميت حشوًا، والحشو نوعان:

١- حشو يفسد به المعنى كقول المتنبي:

وَلَا فَضْلَ فِيهَا لِلشَّجَاعَةِ وَالنَّدَى وَصَبْرِ الْفَتَى لَوْلَا لِقَاءَ شُعُوبٍ^(١)

فكلمة «الندى» في البيت حشو أفسد المعنى، إذ المراد لا فضل في الحياة للشجاعة والصبر والندى لولا الموت واعتقاد الشجاع والصابر والجواد أنهم ملاقو الموت، وهذا صحيح بالنسبة للشجاعة والصبر؛ فاسد بالنسبة للندى، إذ الشجاع لو علم أنه مخلص لن يصيبه الموت، لكان إقدامه وشجاعته لا فضل فيها، لأنه أقبل على البطولة وهو على يقين بأن الموت لن يصيبه، وكذا الصابر عندما يعلم أنه لن يموت، يكون صبره لا فضل فيه، وإنما تظهر مزية الشجاعة والصبر عندما يعلم صاحبهما أن الموت أمامه ثم يقبل أو يصبر فعندئذ يكون للإقدام مزية وللصبر فضل.

أما الندى فظهر مزيته ويبدو فضله إذا علم صاحبه أنه مخلص ولن يموت، لأن علمه بأن الموت لن يلقاه، يدعوه إلى الإمساك وادخار المال كي ينتفع به إذ هو مخلص، فإذا جاد به عندئذ ظهر لجوده فضل وبدت له مزية، أما إذا علم أن الموت أمامه

(١) شعوب: بفتح الشين: علم جنس للمنية وهي الموت وقد جر بالكسر من أجل الروي لأنه مما لا ينصرف فجره بالفتحة.

وسيلقاه لا محالة، فهذا يدعوه إلى البذل والعطاء، ولا فضل للندی عندئذ، إذ يقول:
لو عوتب في بذل المال وإنفاقه: كيف لا أبذل ما لا أبقى له ولا أتق بأنني سأمتع به؟
ولذا يقول طرفة بن العبد.

أَلَا أَيُّهَذَا اللَّائِمِي أَحْضَرَ الْوَعَى وَأَنْ أَشْهَدَ اللَّذَاتِ هَلْ أَنْتَ مُخْلِدي
فَإِنْ كُنْتَ لَا تَسْتَطِيعُ دَفْعَ مَنِيِّي فَدَعْنِي أَبَادِرْهَا بِمَا مَلَكَتْ يَدِي

ويقول مهيار الديلمي:

فَكُلْ إِنْ أَكَلْتَ وَأَطْعِمْ أَخَاكَ فَلَا الزَّادُ يَبْقَى وَلَا الْإِكْمَلُ

فالشجاعة والصبر لولا الموت لم يحمدا، والندی بالصد، ولذا كانت كلمة
الندی في بيت المتنبي حشوا مفسدا للمعنى، وقد اعتذر للشاعر بأنه يريد بذل النفس
لا بذل المال، على حد قول مسلم بن الوليد:

يَجُودُ بِالنَّفْسِ إِنْ ضَنَّ الْجَوَادُ بِهَا وَالْجُودُ بِالنَّفْسِ أَقْصَى غَايَةِ الْجُودِ

ورد هذا الاعتذار بأن لفظ «الندی» لا يكاد يستعمل في بذل النفس وإن
استعمل فعلى وجه الإضافة، أما مطلقاً فلا يفيد إلا بذل المال.

٢- حشو لا يفسد به المعنى: كما في قول زهير:

وَأَعْلَمُ عِلْمَ الْيَوْمِ وَالْأَمْسِ قَبْلَهُ وَلَكِنِّي عَنْ عِلْمِ مَا فِي غَدِ عَمِي

فكلمة «قبله» مستغنى عنها فهي حشو، ولكن ذكرها لا يفسد المعنى.

ومثله قول أبي العيال الهذلي في رثاء أخ له:

ذَكَرْتُ أَخِي فَعَاوَدَنِي ضِدَاعُ الرَّأْسِ وَالْوَصَبُ

لفظ الرأس في البيت حشو لا فائدة فيه، لأن الصداع لا يكون إلا في الرأس،
وليس بمفسد للمعنى، ويؤخذ على الشاعر أيضاً، أن مقام الرثاء لا يناسبه ذكر
الصداع وألم الرأس، بل الملائم له ألم القلب وحرافته.

ومنه قول أبي عدي العبلي الأموي:

نَحْنُ الرَّءُوسُ وَمَا الرَّءُوسُ إِذَا سَمَتْ فِي الْمَجْدِ لِلْأَقْوَامِ كَالْأَذْنَابِ

فقوله: «للاقوام» حشو لا فائدة فيه، وهو غير مفسد للمعنى.

وقول البوصيري:

أَمِنْ تَذَكُّرِ حَيْرَانَ بِذِي سَلَمٍ مَزَجَتْ دَمْعًا جَرَى مِنْ مُقْلَةٍ بِدَمٍ^(١)

فقوله: «من مقلة» حشو لا فائدة فيه، لأن الدمع لا يجري إلا من العين، وهو حشو غير مفسد للمعنى.

وقول المتنبي:

وَحُفُوقُ قَلْبٍ لَوْرَأَيْتَ لِهَيْبِهِ يَا جَتِّي لَرَأَيْتَ فِيهِ جَهَنَّمَ

فقوله: «يا جتتي» حشو غير مفسد للمعنى، وقد استحسنته بعضهم لإفادته معنى لطيفاً حيث طابقت الشاعر بينه وبين «جهنم».

هذا -وكما ذكرت لك- ينبغي أن تعلم أن الحكم بزيادة كلمة وعدم فائدتها، تابع للمقام والحال التي قيلت في جوها الكلمة، ولا تستطيع أن تقطع بعدم الفائدة إلا إذا أحطت بالسياق وعرفت قرائن أحواله، وعندما تأمل الأبيات المذكورة والتي استشهد بها البلاغيون للحشو غير المفسد يتضح لك أن تلك الكلمات التي حكموا بزيادتها وحشوها قد أفادت معنى اقتضاه المقام.

تأمل «دمعاً جرى من مقلة» «وأعلم علم اليوم والأمس قبله» «عاودني صداع الرأس» «وما الرءوس إذا سمت في المجد للأقوام» تجد أن تلك الكلمات: «مقلة، قبله، والرأس، للأقوام» قد أفادت تأكيداً اقتضاه المقام، وهذا التأكيد لا يفاد بطبيعتها، ولذا لا نوافق البلاغيين في قولهم بأنها حشو ولا فائدة فيها، ونحن نقول: ذقته بغمي ورأيت بعيني وسمعته بأذني ووطأته بقدمي، ولا يقول أحد إن تلك الكلمات: بغمي، بعيني، بأذني، بقدمي، «حشو» لأنها أفادت تأكيداً اقتضاه المقام.

واقرا قوله عز وجل: ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ [النور: ١٥]، وقوله تعالى: ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ

(١) ذو سلم: مكان على طريق البصرة إلى مكة.

قَلْبَيْتَ فِي جَوْفِهِ^٤ وَمَا جَعَلَ أَرْوَاجَكُمْ الَّتِي تَنْظَهُرُونَ مِنْهَا أَمْهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿٤﴾ [الأحزاب: ٤]، وقوله جل وعلا: ﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهَ بُيُوتُهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَنَّهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [النحل: ٢٦].

تجد أن التلقي لا يكون إلا بالألسنة، والقول لا يكون إلا من الفم، والقلب لا يكون إلا بالجوف، والسقف لا يكون إلا من فوق، ولا يقول قائل: إن هذه الألفاظ زائدة وليس وراءها فائدة، لأن المقام قد اقتضاها والمعنى قد تطلبها، فالآية الأولى مسوقة للرد على أهل الإفك وإنكار ما قالوه وخاضوا فيه، فقد رموا بفاحشة الزنا إلى من هي ظاهرة العفاف والطهر وهذا افتراء عظيم وإثم كبير، فالمقام إذا يقتضي أن يسجل عليهم ما خاضوا فيه، وأنه قد خرج من أفواههم وانبعثت به ألسنتهم، ليكون في ذلك مبالغة في الإنكار والرد.

وقل مثل هذا في الآية الثانية فهي مسوقة لإنكار الظهار وإنكار التسوية بين الأبناء والأدعياء... وإفادة أن من يفعل هذا فيسوي بين الزوجة والأم في التحريم وبين ابنه ومولاه في الحقوق يكون كمن يجمع قلبين في جوف واحد، وقد اقتضى هذا أن يؤكد الكلام بذكر الجوف.

وتأمل إيثار التعبير بلفظ «لرجل»، وما يكمن وراءه من شدة المبالغة في الإنكار، وذلك أن المرأة قد يتصور وجود قلبين في جوفها، أما الرجل فلا يمكن أن يتصور وجود قلبين في جوفه بحال من الأحوال.

والآية الثالثة مسوقة للتخويف والترهيب وهذا يقتضي تأكيد ما حل بمن مكروا قبلهم، فقد أتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون، فكلمة «من فوقهم» أفادت من التهويل والتخويف ما لا يفيد طيبها.

وبهذا يتضح لك أن الأمر يحتاج إلى مراجعة دقيقة للسياق والوقوف على قرائن أحواله. فالنظرة السريعة العاجلة تجعلك تظن أن الكلمة زائدة ولا معنى لها في النظم فهي حشو، ولكن عند التأمل ومراجعة السياق مراجعة دقيقة واعية يظهر لك أن المقام قد اقتضاها وأن هنالك معنى دقيقا يكمن وراءها ولو طويت ما أفيد ذلك المعنى.

أنواع الإطناب وما يكمن وراءها من دقائق بلاغية

ويقع الإطناب في الكلام على أنواع مختلفة أهمها ما يلي:

١- الإيضاح بعد الإبهام: وهو أن يجمل المعنى ويبهم ثم يفصل ويبين فيبدو في صورتين مختلفتين، وعندئذ يقع في النفس أطيب موقع ويتمكن لديها أفضل تمكن، لأن المعنى إذا أُلقي على سبيل الإجمال والإبهام تطلعت النفس وتشوقت إلى معرفته على سبيل التفصيل والأيضاح، فعندما يأتي هذا التفصيل وذاك الإيضاح، يكون أشد وقفاً وأقوى أثراً؛ لأنه جاء والنفس عنه تبحث وإليه تتطلع، وهم يقولون: إن الشيء إذا نيل بعد طلب ومشقة وبحث وتنقيب، يكون أوقع في النفس وأشد تأثيراً ويحدث لها بالوقوف عليه عندئذ لذة ومعة.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَوْلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ ﴾ [الحجر: ٦٦]، فقد أبهمت الآية ما قضى به إلى لوط -عليه السلام- «ذلك الأمر»، ثم فصلته وبينته «أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين»، ففي الإبهام إثارة للمخاطب وتحريك لفكره فيتطلع إلى إيضاح ما أبهم، وعندئذ يأتي الإيضاح فيقرر المعنى في ذهن المخاطب ويقع موقعه، وفي هذا تفخيم وتهويل للعذاب الذي حل بهم، لأنه ذكر مرتين، مرة على طريق الإجمال والإبهام ومرة على طريق التفصيل والإيضاح والشيء إذا ذكر مرتين كان أكد في الذهن وأشد تعلقاً والتصاقاً بالنفس.

ومنه قوله تعالى: ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ إِنَّ قَوْمَ هَٰذَا هَلْ نَبَأُوا بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [الشعراء: ١٣٢-١٣٤]، ذكرت الوسوسة مجملة ثم فصلت بما بعدها وعندما أجملت اشتاقت النفس وتطلعت إلى معرفتها والوقوف عليها، فلما جاء البيان وقع في النفس موقعاً حسناً.

وكذا القول في قوله تعالى: ﴿ وَأَنْقُوا الَّذِينَ أَمَدُّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٠]، ذكر ما أمدهم به مجملاً فتطلعت النفس إلى معرفته، ثم فصل وبين فوق في الأنفس موقعه.

وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴾ [التوبة: ١٠-١١]، أجملت بالله ورسوله وتجنهون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم، [الصف: ١٠-١١]، أجملت التجارة التي تنجي من العذاب، ثم فصلت وبينت.

ومن الإيضاح بعد الإبهام باب نعم وبئس نحو: نعم الرجل زيد وبئس الصديق عمرو، وذلك على جعل كل من زيد وعمرو، خيراً لمبتدأ محذوف، أو مبتدأ محذوف الخبر، فيكون الأسلوب مكوناً من جملتين إحداهما مبيّنة ومفسرة للأخرى، أما على جعل كل من زيد وعمرو مبتدأ والجملة قبله خبر، فليس مما نحن فيه، لأن الأسلوب عندئذ يتكون من جملة واحدة.

ومنه التوسيع وهو أن يؤتى في عجز الكلام غالباً بمثنى مفسر باسمين أحدهما معطوف على الآخر، كقوله ﷺ: «بَهْرُمُ ابْنِ آدَمَ وَتَشَبُّ مِنْهُ اثْنَتَانِ: الْحِرْصُ عَلَى الْمَالِ وَالْحِرْصُ عَلَى الْعُمُرِ»^(١).

وقوله ﷺ: «الْحَمْرُ مِنْ هَاتَيْنِ الشَّجَرَتَيْنِ النَّخْلَةُ وَالْعِنَبَةُ»^(٢).

وقول عبد الله بن المعتز:

سَقَتْنِي فِي لَيْلٍ شَبِيهِ بِشَعْرِهَا شَبِيهَةً خَدَيْهَا بِغَيْرِ رَقِيبٍ
فَمَا زِلْتُ فِي لَيْلَيْنِ شَعْرٍ وَظُلْمَةٍ وَشَمْسَيْنِ مِنْ خَمْرٍ وَوَجْهِ حَيْبٍ

وقد يكون المثنى في أول الكلام، كقوله ﷺ: «مَنْهُمَا لَا يَشْبَعَانِ: طَالِبُ عِلْمٍ وَطَالِبُ مَالٍ»^(٣)، وقد لا يكون مثنى بل جمعاً، كما في قوله ﷺ: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ وَأَنْ يَكْفُرَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْفُرُهُ أَنْ يُقَدَفَ فِي النَّارِ»^(٤).

ومنه قول ابن وهيب:

ثَلَاثَةٌ تُشْرِقُ الدُّنْيَا بِنَهْجَيْهَا شَمْسُ الضُّحَى وَأَبْوِ إِسْحَاقَ وَالْقَمَرُ

٢- ذكر الخاص بعد العام أو العام بعد الخاص:

فمن الأول: قوله تعالى: ﴿ تَنْزِيلُ الْمَلَكِ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴾ [القدر:

(١) رواه مسلم في الزكاة برقم (١١٥) / (١٠٤٧).

(٢) رواه أحمد في مسنده برقم (٧٧٣٥).

(٣) رواه الدارمي في المقدمة برقم (٣٢).

(٤) رواه البخاري في الإبهام برقم (١٦/٩).

٤]، فالروح وهو جبريل عليه السلام قد ذكر مرتين، مرة مندرجاً تحت العام وهو الملائكة ومرة وحده، وكأنه جنس آخر غير جنس الملائكة المعطوف عليهم، وهذا تكريم له وتعظيم لشأنه، ففي الآية إطناب طريقه ذكر الخاص بعد العام والغرض منه التنويه بشأن الخاص حيث يذكر مرتين.

ومنه قوله عز وجل: ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوَسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾ [البقرة: ٢٣٨]، فالصلاة الوسطى داخلة في عموم الصلوات، وقد خصت بالذكر بعد العام تنبيهاً إلى مزيتها وزيادة فضلها.

وقوله جل وعلا: ﴿ وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَأْمُرُونَ بِالْعُرْفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر داخلان في عموم الدعوة إلى الخير، ولكنها خصا بالذكر بعد العام إشارة إلى مكانتهما من الشرف والفضل.

ومن الثاني قوله تعالى: ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ [نوح: ٢٨]، فالمؤمنون والمؤمنات لفظان عامان يدخل فيهما من ذكر قبل: «لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمناً»، والسر البلاغي الكامن وراء ذكر العام بعد الخاص هو العناية بشأن الخاص لذكره مرتين، مرة بلفظه، ومرة مندرجاً تحت العام.

٣- التكرار: ويأتي لأغراض كثيرة، منها إبراز المعنى وتقريره في النفس، كما في قوله تعالى: ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [التكاثر: ٣، ٤]، فقد أكد الإنذار بتكراره ليكون أبلغ تحذيراً، وأشد تحويقاً، وفي العطف بالحرف «ثم» ما ينبئ بأن الإنذار الثاني أقوى وأشد من الإنذار الأول، حيث نزل بعد المرتبة منزلة البعد الزمني فعطف بـ«ثم»، وفي هذا دلالة على التدرج في الارتقاء.

ومن ذلك قوله جل وعلا ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿١﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٢﴾ ﴾ [الشرح: ٥]، فقد أفاد التكرار تأكيد المعنى وتقريره في النفس.

ومنها استعماله المخاطب وترغيبه في قبول النصيح والإرشاد، كما في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَنْفَعُورَاتُ بَعُونَ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿١﴾ يَنْفَعُورَاتُ بَعُونَ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ، وَمِنْهَا اسْتِمَالَةُ الْمَخَاطَبِ وَتَرْغِيبِهِ فِي قَبُولِ النَّصِيحِ وَالْإِرْشَادِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:

مَتَّعَ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿ [غافر: ٣٨، ٣٩]، ففي تكرار «يا قوم» استمالة لنفوس المخاطبين وترغيب لهم في قبول الحق والاهتداء، ووراء حرف النداء «يا» الموضوع لنداء البعيد تعظيم لهم وتشريف ورفع لمنزلتهم، وفي إضافة القوم إليه «يا قومي»، ما يبدد كل شك ويزيل كل ارتياب في نصحه وإخلاصه لهم.

ومنها التذكير بنعم الله التي لا تحصى ولا تعد، كما في قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٢]، فقد ذكر جل وعلا نعمة بعد نعمة في هذه السورة الكريمة، وعقب كل نعمة بهذا الاستفهام الذي يفيد التنبيه إلى نعمه الكثيرة والتذكير بها، فإن قيل قد عقب بهذا الاستفهام ما ليس بنعمة كما في قوله تعالى: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوْاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ﴾ [الرحمن: ٣٥]، وقوله جل وعلا: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ ﴿يَطُوفُونَ فِيهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ [الرحمن: ٤٣-٤٤]، قلت: العذاب وجهنم، وإن لم يكونا من آلاء الله تعالى، فإن ذكرهما ووصفهما على طريق الزجر عن المعاصي والترغيب في الطاعات، يعد من الآلاء والنعم، لأن التحذير من المعصية والزجر عنها نعمة منه تعالى، إذ ينجم عن التحذير والزجر ابتعاد المؤمن عن المعاصي وعدم اقترابه منها^(١).

ومن أغراض التكرار المبالغة في التحذير والتنفير، كما في قوله تعالى ﴿وَيْلٌ لِّيَوْمِئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ١٥]، فقد كررت هذه الآية الكريمة في سورة المرسلات عقب جملة من القصص والتذكير بنعمه تعالى حيث أعقب كل قصة بهذا الوعيد «ويل يومئذ للمكذبين» وفي هذا ما فيه من التنفير والتحذير.

ومنها الحث على التذكر والتدبر وأخذ العظة والعبرة كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدْرِكٍ﴾ [القمر: ١٧]، حيث كررت هذه الآية في سورة القمر عقب كل قصة من قصص الأمم السابقة التي كذبت وأعرضت عن رسل ربها، فقد أخرجت عنهم السورة الكريمة وأبرزت نوع العذاب الذي حاق بكل أمة، وأتبع كل قصة بهذه الآية الكريمة: «ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر» حثا على العظة والاعتبار والتأمل والتدبر.

(١) انظر الإيضاح ٢/ ١٢٧.

ومنها أن يكرر اللفظ لطول في الكلام كما في قوله تعالى: ﴿ تُمْرَاتٍ زَلَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا قُتِلُوا تُمْرَ جَهْدُوا وَصَبْرُوا إِبْرَ زَلَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَعْفُورٌ رَجِيمٌ ﴾ [النحل: ١١٠]، وقوله جل وعلا: ﴿ تُمْرٌ إِنْ زَلَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهْلَةٍ تُمْ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنْ رَبُّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَعْفُورٌ رَجِيمٌ ﴾ [النحل: ١١٩]، فقد كرر: «إن ربك» في الآيتين الكريمتين لطول الكلام بين اسم «ربك» وبين خبرها «لغفور»، وفيه أيضًا تأكيد لمعنى الربوبية وإبراز لمعنى «الرب» المتفضل بالإنعام والمغفرة.

٤- الإيغال: وهو ختم البيت من الشعر بما يفيد فائدة يتم المعنى بدونها، ولا يكون إلا في الشعر كما في قول الخنساء:

وَإِنْ صَخْرًا لَتَأْتُمُ الْهُدَاةَ بِهِ كَأَنَّهُ عَلِمَ فِي رَأْسِهِ نَارًا^(١)
فقولها: «في رأسه نار» إطناب، لأنها شبهت أخاها «صخرًا» بالعلم وهو الجبل المرتفع المعروف ووجه الشبه هو الاهتداء بكل، وقد تم التشبيه عند قولها: «كأنه علم»، فختمت البيت بما يفيد قوة المبالغة في التشبيه، إذ النار في رأس الجبل تزيده وضوحًا وانكشافًا وهذا ادعى لتمام الهداية وكما لها.

ومثله قول ذي الرمة:

قَفِ الْعَيْسِ فِي أَطْلَالٍ مَيَّةَ فَاسْأَلِ رُسُومًا كَمَا أَخْلَاقِ الرِّدَاءِ الْمُسْلَسِلِ
أَطْنُ الَّذِي يُجِدِي عَلَيْكَ سُؤَالَهَا دُمُوعًا كَتَبْتِذِيرَ الْجَمَانِ الْمُفْصَلِ^(٢)

فقد تم التشبيه في البيت الأول عند قوله «رسومًا كأخلاق الرداء» وفي الثاني عند قوله: «دموعًا كتبتذير الجمان»، فاختتم البيتين بما يفيد زيادة المبالغة في التشبيه وهو قوله «المسلسل والمفصل».

(١) تأتم: تقتدي، والهداة: الذين يهدون الناس وإذا كانت الهداة تأتم به فمن باب أولى المهتدون بهم.

(٢) العيس: الإبل يتخالط بياضها سواد خفيف مفردها عيس، والأطلال: جمع طلل، وهو ما شخص من آثار الديار بخلاف الرسوم، والأخلاق جمع خلق وهو البالي، والمسلسل: الردي، النسخ، ويجدي: يعطي ويفيد وعائد انوصول محذوف والتقدير يجدي به، والتبذير: التفريق، والجمان المفصل: اللؤلؤ المنظم.

ومنه قول امرئ القيس:

كَأَنَّ عُيُونَ الْوَحْشِ حَوْلَ خَبَائِنَا وَأَزْحَلْنَا الْجَزْعَ الَّذِي لَمْ يُنْقَبِ^(١)

حيث تم له التشبيه عند قوله: «الجزع» فاختتم البيت بما يفيد تحقيق التشبيه؛ لأن الجزع إذا كان غير مثقوب كان أشبه بعيون الوحش، فقوله: «الذي لم ينقب» إيغال أفاد تحقيق التشبيه وجعله دقيقاً وتاماً.

ومثله قوله أيضاً:

حَمَلْتُ رُدَيْنِيًّا كَأَنَّ سِنَانَهُ سَنَا لَهَبٍ لَمْ يَتَّصِلْ بِدُخَانِ^(٢)

حيث أتى على التشبيه عند قوله: «كأن سنانة سنا لهب»، ثم اختتم البيت بإيغال أفاد دقة التشبيه وزيادة تحقيقه، وهو قوله «لم يتصل بدخان»؛ لأن سنان الرمح أكثر شبهاً بضوء اللهب الذي لم يتصل بدخان.

وقول زهير بن أبي سلمى:

كَأَنَّ فُتَاتِ الْعُهْنِ فِي كُلِّ مَنْزِلٍ نَزَلْنَ بِهِ حَبُّ الْفَنَاءِ لَمْ يَحْطُمْ^(٣)

فقد أتى على التشبيه بقوله «حب الفناء»، ثم اختتم البيت بما يفيد دقة التشبيه وزيادة تحقيقه؛ لأن حب الفناء أحمر الظاهر أبيض الباطن فهو لا يشبه الصوف الأحمر إلا إذا لم يحطم، فقوله: «لم يحطم» إيغال حسن.

ومنه قول الأعشى:

كَتَاطِيحِ صَخْرَةٍ يَوْمًا لِيَقْلِقَهَا فَلَمْ يَضُرْهَا وَأَوْهَى قَرْنَهُ الْوَعْلُ^(٤)

(١) الوحش: المراد به الطباع التي يصيدونها ويرمون أعينها حول خبائنها. والخباء: ما كان من وبر أو صوف لا شعر وقام على عمودين أو ثلاثة، وما فوقه: البيت. والأرحل: جمع رحل وهو المنزل والمأوى. والجزع: خرز فيه بياض وسواد على شكر دوائر.

(٢) الرديني: رمح منسوب إلى ردينة وهي امرأة كانت تقوم الرماح، وسنا اللهب: ضوءه، وسنان الرمح: حديدته وجمعها: أسنة، وسبيت بذلك لصقالتها وملاستها.

(٣) الفتات: اسم لما انفط وتقطع من الشيء، والعهن: الصوف المصبوغ، والفناء: عنب الثعلب، شبه فتات الصوف المصبوغ الذي زينته به الحوادج بحب الفناء في حرته قبل تحطيمه، لأنه إذا حطم تزول حرته.

(٤) الوعل: نيس الجبل، وجمعه: وعول وأوعال ووعل، والأثنى: وعلة.

حيث تم له المعنى بقوله: «وأوهى قرنه»، ثم اختتم البيت بإيغال حسن، وهو قوله «الوعل»؛ لأن الوعل ينحط من قمة الجبل على قرنه فلا يضيره.

هل يوجد إيغال في القرآن؟

الإيغال لا يكون إلا في الشعر، وليس في القرآن الكريم منه شيء، لأنه لا يوجد في آيات الذكر الحكيم كلمة يتم المعنى بدونها، بل كل كلمة في سياقها لها معنى تؤديه، ولا يصح بحال من الأحوال أن يقال: إن كلمة من كلمات القرآن الكريم يمكن السكوت عنها، لأن المعنى قد تم بدونها.

وزعم بعض أن الإيغال يقع في الشعر وفي الشتر وأنه يوجد في آيات القرآن الكريم، ومثلوا له بنحو قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْتَلْكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٢١﴾﴾ [يس: ٢٠، ٢١]، زاعمين أن جملة: «وهم مهتدون» إيغال وأن المعنى يتم بدونها.

وهذا ليس بقول لأن تلك الجملة قصد بها زيادة ترغيبهم وحثهم على اتباع الرسل، ولا يتم هذا المعنى إلا بها، ولم يكن الخطيب القزويني رحمه الله دقيقاً حين صرح بأن الإيغال قد اختلف فيه العلماء فقليل: «هو ختم البيت بما يفيد نكته يتم المعنى بدونها» وقيل: لا يختص بالنظم ومثل له بقوله تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْتَلْكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٢١﴾﴾ [يس: ٢١]، والصواب ما أوضحنا وهو أن الإيغال خاص بالشعر وليس في القرآن الكريم منه شيء^(١).

٥- التذييل: وهو تعقيب الجملة بجملة أخرى تشتمل على معناها لإفادة التوكيد، ويختلف التذييل عن الإيغال السابق من عدة جهات وهي:

١- أن الإيغال يكون بالجملة وبغير الجملة، كما رأيت في شواهد، أما التذييل فلا يكون إلا بجملة، كما سترى.

٢- الإيغال يفيد التوكيد وغيره من الأغراض التي يأتي لها، أما التذييل فهو للتوكيد خاصة.

(١) انظر الإيضاح ج ٢ ص ١٢٧، ١٢٩.

٣-التذييل يكون في آخر الكلام وفي أثنائه، أما الإيغال فلا يكون إلا في آخر

الكلام.

والتذييل ضربان: تذييل يجري مجرى المثل وتذييل لا يجري مجرى المثل، فالأول هو أن يقصد بالجملة الثانية حكم مستقل عما قبلها، بمعنى أن جملة التذييل تفيد معنى يسكن استقلالها بإفادته عما قبلها، كما في قوله تعالى: ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء: ٨١]، فقوله: «إن الباطل كان زهوقاً»، تذييل أتى به لتأكيد الجملة قبله، وهو جار مجرى المثل بمعنى أن الجملة الثانية مستقلة بمعناها عن الجملة الأولى وجارية على الألسنة كما تجري الأمثال التي كثر استعمالها وفشا، فهي لا تحتاج في إفادة معناها إلى الجملة السابقة.

ومن هذا الضرب قول النابغة الذبياني:

وَلَسْتُ بِمُسْتَبِقٍ أَخْلَا لَا تَلْمُهُ عَلَى شَعْبِ أَيِّ الرَّجَالِ الْمُهَذَّبِ^(١)

فقوله: «أي الرجال المهذب»؟ تذييل جرى مجرى المثل، حيث يجري على

الألسنة مستقلاً عما قبله.

ومثله قول الحطيئة:

تَزُورُ فَتَى يُعْطَى عَلَى الْحَمْدِ مَالَهُ وَمَنْ يُعْطِ أُنْمَانَ الْمَكَارِمِ يُحْمَدِ

الشرط الثاني تذييل للشرط الأول، خرج مخرج المثل.

والثاني وهو التذييل الذي لم يجر مجرى المثل، فهو ما لا يستقل معناه، بل يتوقف

على ما قبله، كما في قوله تعالى: ﴿ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجْزِي إِلَّا الْكَافِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [سبأ: ١٦، ١٧]، فقوله: «وهل نجزي إلا الكفور»، تذييل غير جار مجرى

المثل؛ لأن معناه لا يفهم إلا بها قبله.

(١) لانتسه: لا نضمه، والشعث في الأصل انتشار شعر الرأس وتغيره فتكثر أوساخه والمراد به هنا العيب على سبيل

الاستعارة، والاستفهام في البيت استفهام إنكاري بمعنى لا يوجد.

ومنه قول الحماسي:

فَدَعُوا نَزَالَ فُكُنْتُ أَوَّلَ نَزَالٍ وَعَلَامَ أَرْكَبُهُ إِذَا لَمْ أَنْزِلِ

فقوله: «وعلام أركبه إذا لم أنزل؟» تذييل غير جار مجرى المثل؛ لأن فهم معناه يتوقف على ما قبله.

ومثله قول ابن نباتة السعدي:

لَمْ يُبْقِ جُودُكَ لِي شَيْئًا أَوْمَلُّهُ تَرَكَتَنِي أَصْحَبُ الدُّنْيَا بِسَلَا أَمَلِ

وقد اجتمع التذييلان في قوله تعالى: ﴿إِنْ اللَّهُ أَشْرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَرْبٍ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقْبَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ؟﴾ [التوبة: ١١١]، فقوله: «وعدا عليه حقا»، تذييل غي جار مجرى المثل لاحتياجه في فهم معناه إلى ما قبله، وقوله: «ومن أوفى بعهده من الله» تذييل خرج مخرج المثل السائر لتحقيق وتأكيد ما تقدمه، فهو تذييل ثان للتذييل الأول.

وكذا اجتمع الضربان في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخَلْدَ أَفَلَا يَمِتُّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾ [كل نفس ذائقة الموت وتبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون] [الأنبياء: ٣٤، ٣٥]، فقوله: «أفإن مت فهم الخالدون» تذييل غير جار مجرى المثل إذ يتوقف فهم معناه على ما قبله، وقوله: «كل نفس ذائقة الموت» تذييل جرى مجرى المثل، لجريلانه على الألسنة وعدم توقف فهم معناه على ما قبله.

٦- التكميل: ويسمى أيضًا بالاحتراس وهو أن يؤتى في كلام يوهم خلاف

المقصود بما يدفع ذلك التوهم، كما في قول طرفة بن العبد:

فَسَقَى دِيَارَكَ غَيْرَ مُفْسِدِهَا صَوَّبَ الرَّبِيعَ وَدِيمَةَ تَهْمِي

فقوله: «غير مفسدها» احتراس عن المطر المسترسل الذي يسبب الخراب

والدمار، لأن الديمة هي المطر المسترسل، وتهمي بمعنى تسيل والمطر إذا كثر وزاد عن حده سبب الخراب والدمار، فدفع الشاعر هذا التوهم بقوله «غير مفسدها».

ومن أجل هذا عيب قول ذي الرمة:

أَلَا يَا اسْلَمِي يَا دَارَ مَيِّ عَلَى الْبِلَى وَلَا زَالَ مُنْهَلًا بِجَزَعَائِكَ الْقَطْرُ

وقيل: لا عيب في البيت، لأن الدعاء قرينة على عدم إرادة الضر، وللشاعر أن يكتفي بالدعاء فلا يحترس، وألا يكتفي به فيضم إليه الاحتراس.

ومنه قول عبد الله بن المعتز في وصف الخيل.

وَخَيْلٍ طَوَّاهَا السَّيْرُ حَتَّى كَانَتْهَا أَنَابِيْبُ سُمُرٍ مِّن قَنَا الْخَطِّ دُبُلُ
صَبَبْنَا عَلَيْهَا - ظَالِمِينَ - سَيَاطِنَا فَطَارَتْ بِهَا أَيْدٍ سِرَاعٍ وَأَزْجُلُ

فقوله: «ظالمين» احتراس، حيث دفع به ما قد يتوهم من أنها كانت بطيئة في السير، ثقيلة في السير، لا تجري وتسرع إلا بالضرب واستعمال السياط، وهذا خلاف المقصود لأن المقام مقام مدح.

ومنه قول الحماسي:

رَهْنَتْ يَدِي بِالْعَجْزِ عَن شُكْرِ بَرِّهِ وَمَا فَوْقَ شُكْرِي لِلشُّكُورِ مَزِيدُ

الشرط الثاني من البيت احتراس، لأنه لما صرح في الشرط الأول بعجزه عن شكر بره، ربما يتوهم متوهم أنه لم يقم بشيء من الشكر، فدفع هذا التوهم بالشرط الثاني الذي أفاد أن شكره ليس للشكور وهو المبالغ في الشكر زيادة عليه.

ومنه قول كعب بن سعد الغنوي من قصيدة له في رثاء أخيه أبي المغوار:

حَلِيمٌ إِذَا مَا الْحِلْمُ زَيْنَ أَهْلَهُ مَعَ الْحِلْمِ فِي عَيْنِ الْعَدُوِّ مَهِيْبُ

فإنه لو اقتصر على وصفه بالحلم لأوهم أن حلمه عن عجز، ولذا احترس بقوله: «إذا ما الحلم زين أهله» فأزال هذا الوهم، ثم أكد الاحتراس بذلك التذييل: «مع الحلم في عين العدو مهيب».

ومنه قول السموءل بن عاديا:

وَمَا مَاتَ مِنَّا سَيِّدٌ فِي فِرَاشِهِ وَلَا طُلٌّ مَنَّا حَيْثُ كَانَ قَبِيلٌ^(١)

فقد وصف قومه بشمول القتل إياهم وأنه لم يموت واحد منهم على فراشه، وهذا الوصف يوهم بضعفهم وقلة شجاعتهم، فأزال هذا الوهم بالشرط الثاني الذي وصفهم بالانتصار من قاتليهم.

ومنه قول المتنبي:

أَشَدُّ مِنَ الرِّيحِ الهُوجِ بَطْشًا وَأَسْرَعُ فِي النَّدى مِنْهَا هُبُوبًا^(٢)

فإنه لو اقتصر على وصفه بشدة البطش، لأوهم ذلك أنه عنف كله، ولا لطف عنده، فأزال هذا الوهم بوصفه بالساحة والندی، ولم يتجاوز في الوصفين صفة الريح التي شبه بها ممدوحه.

ومما جاء من هذا النوع في النظم الكريم قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَنَرُ أُولَى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً﴾ [النساء: ٩٥]، فقوله جل وعلا: «غير أولي الضرر»، احتراس يدفع توهم أن القاعدة بعذر داخل في مفهوم عدم الاستواء المذكور.

وقوله تعالى: ﴿وَأَضْمَمَ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ [النمل: ١٢]،

فقوله: «من غير سوء» احتراس من نحو البهق والبرص.

هذا ولا يخفى عليك بالنظر في الشواهد المذكورة أن الاحتراس قد يتوسط

الكلام، وقد يقع في آخره.

٧- التتميم: وهو أن يؤتى في كلام لا يوهم خلاف المقصود بفضلة مثل المفعول

أو الحال أو الجار والمجرور، ونحو ذلك مما ليس بجملته مستقلة، ولا ركنا من أركان الكلام، وذلك لإفادة نكتة بلاغية.

(١) ضل: بمعنى أهدر دمه ولم يقتص له.

(٢) أخرج مفرداها: هوجاء وهي الريح التي لا تستوي في هبوبها، وهي شديدة تعلق البيوت والزرع من شدتها... ويؤخذ على المتنبي جمع الريح في هذا المقام وهي إنما تجمع في مقام الرحمة وتفرد في مقام العذاب.

كما في قوله تعالى: ﴿ وَطُعْمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ [الإنسان: ٨]، وقوله جل وعلا: ﴿ وَءَاتَىٰ أَمْوَالَهُ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وقوله عز وجل: ﴿ لَنْ نُنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران: ٩٢]. فإن قوله عز من قائل: «على حبه»، «مما تحبون» فضلة، وتركها لا يجعل الكلام موهماً خلاف المقصود، وقد أتى بها في النظم الكريم لنعكته بلاغية وهي إفادة المبالغة في مدح هؤلاء الذين يؤثرون على أنفسهم ويطعمون وينفقون مالا قد أحبوه وطعاماً قد اشتهووه وأرادوه.

وقيل: إن الضمير في قوله: «على حبه»، لله عز وجل لا للمال، أي: على حب الله، وعندئذ فلا إطناب في الآية؛ لأن الإنفاق لا يمدح شرعاً إلا إذا كان ابتغاء وجه الله لا لرياء ونحوه، فالجار والمجرور «على حبه» صار عندئذ مراداً، لا زائداً على أصل الكلام.

ومنه قول زهير:

مَنْ يَلْقَىٰ يَوْمًا عَلَىٰ عِلَاتِهِ هَرِمًا يَلْقَىٰ السَّمَاخَةَ مِنْهُ وَالنَّدَىٰ خُلْفًا^(١)

فقوله: «على علاته» تتميم حسن أفاد المبالغة في المديح:

وقول قيس بن الخطيم:

إِنِّي عَلَىٰ مَا تَرَيْنَ مِنْ كِبَرِي أَغْرِفُ مِنْ أَيْنَ تُؤَكَّلُ الْكَتِفُ

يريد أنه داهية، لأن الكتف تؤكل من أسفلها ويشق أكلها من أعلاها، ولذا يكنى عن الداهية بقولهم: يعرف من أين تؤكل الكتف، ويضرب هذا القول مثلاً للإنسان الذي يعرف مداخل الأمور، وكيف يصل إلى المكونات داخل الإنسان، فقول الشاعر: «على ما ترين من كبري»، تتميم جميل قصد به المبالغة فيها وصف به نفسه.

ويتضح لك مما سبق أن التتميم يختلف عن الإيغال من جهتين:

١- التتميم مقيد بكونه فضلة، والإيغال لا يتقيد بهذا.

(١) على علاته: العلات جمع علة والمراد بها ما ينويه من قلة ذات اليد والعوز والاحتياج.

٢- التتميم يكون في وسط الكلام وفي آخره، أما الإيغال فلا يكون إلا في آخر الكلام... كما يختلف التتميم عن التكميل من جهتين أيضًا.

١- التكميل يدفع به توهم غير المراد، والتتميم لا يدفع به إيهاما وإنما يؤتى به لنكتة بلاغية أخرى.

٢- التتميم مقيد بكونه فضلة، والتكميل لا يتقيد بذلك.

٨- الاعتراض: وهو أن يؤتى في أثناء الكلام الواحد أو بين كلامين متصلين في المعنى بأن يكون ثانيهما تأكيداً لأولهما أو بياناً له أو بدلاً أو معطوفاً... يؤتى بجملته أو أكثر لا محل لها من الإعراب لنكتة سوى دفع الإيهام، وذلك كالتنزيه في قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [النحل: ٥٧]، فجملة «سبحانه» جملة اعتراضية والغرض منها: تنزيهه تعالى عن اتخاذ البنات... «وسبحان» جملة؛ لأنها واقعة موقع المصدر الذي هو التنزيه والمعنى: أنزهه تنزيهاً.

والتعظيم في قوله جلا وعلا: ﴿فَلَا أُقْسِرُ بِمَوْجِعِ النُّجُومِ﴾ وَإِنَّهُ لَفَقَسَ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ [الواقعة ٥٧ - ٧٧]، فقد اعترض بين القسم وجوابه بقوله: «وإنه لقسم لو تعلمون عظيم»، وداخل هذا الاعتراض اعتراض آخر بين الصفة والموصوف وهو «لو تعلمون» وقد أريد بالاعتراضين تعظيم القسم وتفخيم أمره، وفي ذلك تعظيم للمقسم عليه وهو القرآن الكريم، وتنويه برفعة شأنه.

والتقرير في قوله تعالى: ﴿قَالُوا تَأَلَّه لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْتَنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ﴾ [يوسف: ٧٣]، فجملة «لقد علمتم» جملة معترضة بين القسم والجواب لتقرير علم المخاطبين بالبراءة من الفساد والبعد عن تهمة السرقة.

وكالدعاء في قول عوف بن محلم:

إِنَّ الشَّمَانِيْنَ وَبَلَّغَتْهَا قَدْ أَحْوَجَتْ سَمْعِي إِلَى تَرْجُمَانِ

يخبر الشاعر بتقدم سنه وضعف سمعه حتى قد صار يحتاج إلى من يكرر له القول ليسمع، وجملة: «وبلغتها» جملة معترضة أريد الدعاء للمخاطب بطول العمر، وإثارة عطفه على الشاعر.

وكالتصريح بما هو المقصود كما في قول كثير عزة:

لَوَانَّ الْبَاخِلِينَ وَأَنْتِ مِنْهُمْ رَأَوْكَ لَعَلَّمُوا النَّاسَ الْمِطَالَأَ

فقوله: «وأنت منهم» جملة اعتراضية أريد بها التصريح بما هو مقصود من ذمها، وتأکید انصراف الذم إليها.

والتنبيه كما في قول أبي علي الفارسي:

وَأَعْلَمُ فَعِلْمُ الْمَرءِ يَنْفَعُهُ أَنْ سَوْفَ يَأْتِي كُلُّ مَا قَدِرَا

فجملة «فعلم المرء ينفعه» جملة اعتراضية، الغرض منها، التنبيه على فضل العلم ونفعه لصاحبه... ومثله قول ابن ميادة:

فَلَا هَجْرُهُ يَبْدُو وَفِي الْيَأْسِ رَاحَةٌ وَلَا وَضْلُهُ يَبْدُو لَنَا فَتَكَارِئُهُ

فجملة: «وفي اليأس راحة» اعتراضية، أريد بها التنبيه إلى سبب طلبه الهجر، وذلك لأن طلب هجر الحبيب وتغني وقوعه أمر فيه غرابة، فبين الشاعر بالجملة الاعتراضية أنه لم يتمن هذا إلا بعد اليأس وانقطاع الأمل من وصله: «وفي اليأس راحة».

وكالاستعطاف في قول المتنبي:

وَحُفُوقُ قَلْبٍ لَوْ رَأَيْتَ لَهَايِبُهُ يَا جَنَّتِي لَرَأَيْتَ فِيهِ جَهَنَّمَ

فقوله: «يا جنّتي» جملة اعتراضية، لأنها بمعنى: أدعو، والغرض منها الاستعطاف والاستلطاف.

ومما جاء بأكثر من جملة قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا وَهُنَّ عَلَى وَهْنٍ وَفِصْلَةٌ فِي عَامِينَ أَنْ أَسْكُرِي وَلَوْلَا دَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ ﴿١٤﴾﴾ [لقمان: ١٤]، فقوله: «أَنْ أَسْكُرِي وَلَوْلَا دَيْكَ» تفسير لقوله: «وصينا» وقوله «حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين» اعتراض بينهما، وقد أريد به تأكيد التوصية بالأمر والتذكير بحقها العظيم على الأبناء لما عانته وقاسته من آلام...

وقوله عز وجل: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَئِنَّ الدَّكَرَ كَأَلْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمِعْتُهَا مَرِيئَةً ﴿٣٦﴾﴾ [آل عمران: ٣٦]، فقوله جل وعلا: والله أعلم بما

وضعت وليس الذكر كالأنثى، اعتراض وقع بين قولي امرأة عمران يفيد تأكيد ما أخبرت به.

وقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [نساء: ٢٢٢، ٢٢٣]، فقوله: «نساؤكم حرث لكم» بيان لقوله «فأتوهن من حيث أمركم الله» وقد اعترض بينهما بقوله عز وجل: «إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين»، والغرض من هذا الاعتراض: الترغيب فيما أمر الله به والتنفير عما نهى عنه، إذ الغرض الأصلي في الإتيان هو طلب النسل، لا قضاء الشهوة، فلا تأتوهن إلا من حيث يتأتى من الإتيان تحقيق هذا الغرض وفي الاعتراض بها ذكر ترغيب في الأمر «فإذا تطهرن فأتوهن» وتنفير من النهي «ولا تقربوهن حتى يطهرن».

هذا ويتضح لك من الشواهد المذكورة أن الاعتراض قد يأتي بغير الواو والفاء، وقد يأتي بإحداهما فتسمى -الواو أو الفاء عندئذ واو الاعتراض أو فاء الاعتراض-، وتختلف واو الاعتراض، عن واو العطف أو الحال، والتمييز بين تلك الواوات، قد يكون بينا واضحا وقد يدق ويغمض بحيث يحتاج إلى مزيد من التأمل والتروي.

انظر إلى قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴾ [البقرة: ٥١، ٥٢]، تجد أن الواو في قوله: «وأنتم ظالمون»، صالحة لأن تكون واو الحال ولأن تكون اعتراضية، لأنه إذا قصد تقييد الاتخاذ بالجملة، كانت الواو حالية والمعنى: ثم اتخذتم العجل حال كونكم ظالمين بانخاذها، وإذا قصد استقلال جملة: «أنتم ظالمون» عن الاتخاذ كانت الواو اعتراضية والمعنى: ثم اتخذتم العجل وأنتم قوم عادتكم الظلم، فتكون جملة اعتراضية أتى بها تأكيداً لظلمهم ولم يقصد بها الارتباط بالاتخاذ المذكور. ولذا تجد أن تمييز واو الحال ومثلها واو العطف من واو الاعتراض، قد يدق ويغمض بحيث يحتاج منك إلى مزيد من التأمل ومراجعة السياق.

ومما ينبغي أن تقف عليه وتعلمه، أن الإطناب ليس مقصوراً على تلك الأنواع

التي ذكرناها، بل قد يقع بغيرها، فمن مقاماته: مقامات الذكر التي مرت بك في أحوال المسند والمسند إليه ومتعلقات الفعل.

ومنها ما يكون بالإفاضة في جواب الاستفهام حيث يقتضي المقام لإطناب وامتداد القول كما رأينا في قوله تعالى: ﴿ وَمَا تَلَّكَ بِبَيْمِنِكَ يَمْوَسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَنَارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ ﴾ [طه: ١٧ - ١٨]، وكما في قوله تعالى: ﴿ وَأَنْتَ عَلَيْهِمْ نَبَأٌ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنْظُرُ لَهَا عَافِيِينَ ﴿٧١﴾ ﴾ [الشعراء: ٦٩ - ٧١]، فقد كان يكفي في الجواب: «أصناما»، ولكنهم أطنبوا فذكروا كلمة: «نعبد» ثم أضافوا: «فنظّل لها عاكفين»، ليظهروا ابتهاجهم بعبادتهم، وافتخارهم بالمواظبة على تلك العبادة، ويريدون بهذا الإطناب أن يزداد غيظ السائل، وهو إبراهيم عليه السلام.

ومن الإطناب زيادة بعض الأحرف في النظم لتحقيق غرض من الأغراض البلاغية، كزيادة «أن» بعد «لما» في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَنَهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَأَنبَدَ بِصِيرًا ﴿٩٦﴾ ﴾ [يوسف: ٩٦]، فزيادة «أن» بعد «لما» في الآية الكريمة، دلت على أن المجيء لم يكن على الفور بل كان هناك تراخ وتباطؤ، لبعد ما كان بين يوسف وأبيه عليهما السلام، وكذا قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْطِيشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَمْوَسَىٰ أَرْتِيدُ أَنْ تَفْتُلَنِي كَمَا فَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ ﴿١٩﴾ ﴾ [القصص: ١٩]، فقد زيدت أن بعد لما، للدلالة على أن موسى عليه السلام لم يسارع إلى البطش بالثاني كما سارع إلى وكز الأول.

وكزيادة «ما» بعد «إذا» في نحو قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَحْتَبِرُونَ كَثِيرٌ أَلِئِمَّ وَالْفَوَاحِشُ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الشورى: ٣٧]، فزيادة «ما» في الآية الكريمة دلت على ندرة حدوث الغضب من هؤلاء فهم لا يغضبون إلا قليلا وإذا ما غضبوا هم يغفرون ويعفون عنم أغضبهم.

وفي قول القحيف العقيلي:

إِذَا مَا غَضِبْنَا غَضِبَةً مُضْرِبَةً هَتَكْنَا حِجَابَ الشَّمْسِ أَوْ قَطَرَتْ دَمَا

دلت زيادة «ما» على أنهم لا يغضبون إلا حين يوجب الحزم أن يغضبوا، فهم

يعفون كثيرا ولا يغضبون إلا نادرا، وحين يضطرهم الغير إلى الغضب يتتقون شر انتقام فغضبتهم إنما هي غصبة الحليم.

ومن الإطناب زيادة بعض الكلمات التي تفيد زيادتها تأكيدًا اقتضاه المقام، على نحو ما رأينا في مثل قولهم رأيتُه بعيني وسمعتُه بأذني وقلته بفي . . ومنه قوله تعالى:

﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ [النور: ١٥]، وقوله تعالى: ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوَابِهِ، وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهَرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴾ [الأحزاب: ٤]، وقوله تعالى: ﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَلْبِهِمْ فَأَنَّى اللَّهُ بُنِيتُهُمْ رَبِّ الْقَوَاعِدِ فَحَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَنَّهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [النحل: ٢٦].

فالرؤية لا تكون إلا بالعين والسمع لا يكون إلا بالأذن والقول لا يكون إلا بالضم والألسنة، والقلب لا يوجد إلا في الجوف والسقف لا يكون إلا من فوق، وقد زيدت تلك الكلمات لإفادة التوكيد الذي اقتضاه المقام على نحو ما وضحت لك فيما سبق.

وهذا يتبين لك أن الإطناب ليس مقصورًا على تلك الأنواع المذكورة، بل يتعداها إلى كل زيادة في النظم أفادت معنى يقتضيه المقام ويتطلبه.

المساواة

قالوا في تعريفها: إنها تأدية المعنى المراد بعباراة مساوية له، بأن تكون الألفاظ على قدر المعاني، لا يزيد بعضها عن بعض، ولا ينقص.

وقد اتخذوا من متعارف الأوساط مقياساً يقيسون عليه الكلام، فالكلام إذا قل عن متعارف الأوساط كان إيجازاً، وإذا زاد عنه كان إطناً، وإذا جاء على حد متعارف الأوساط فهو المساواة وهي في باب البلاغة لا تحمد ولا تدم.

واستشهدوا لها بنحو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْقِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣]، وقوله عز وجل: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ [الأنعام: ٦٨].

وقول الرسول -عليه الصلاة والسلام- «الخلال بين والحرام بين وبينهما مُشَبَّهَاتٌ لَا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ»^(١).

وقول النابغة الذبياني:

فَإِنَّكَ كَاللَّيْلِ الَّذِي هُوَ مُدْرِكِي وَإِنْ خِلْتُ أَنَّ الْمَتَأَى عَنكَ وَاسِعٌ

وقول طرفة بن العبد:

سَتُبْدِي لَكَ الْإِيَّامَ مَا كُنْتَ جَاهِلًا وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ

وقول زهير:

وَمَهْمَا يَكُنْ عِنْدَ امْرِئٍ مِنْ خَلِيقَةٍ وَإِنْ خَالَهَا تَحْفَى عَلَى النَّاسِ تُعْلَمِ

هذا ولم تسلم هذه الشواهد التي استشهد بها البلاغيون للمساواة؛ لأنك عند التأمل تجدها راجعة إما إلى الإيجاز أو إلى الإطناب، فمثلاً في الآية الأولى إذا رجعت إلى سياقها في النظم الكريم: ﴿أَسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ^٤ وَلَا تَحْقِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ تراها قد وقعت تذييلاً، والتذييل - كما عرفت - من أنواع الإطناب، ثم إنها أسلوب قصر، والقصر من الإيجاز.

(١) رواه البخاري في كتاب الإيذان برقم: (٣٩ / ٥٢).

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا﴾، وقول الرسول ﷺ: «الحلال قليلٌ والحرامٌ بيِّنٌ وبيِّنُهُمَا مُشبهاتٌ»، لا يخفى عليك رجوعهما إلى إيجاز القصر، لأن المعاني التي تكمن في الآية الكريمة والحديث الشريف معان كثيرة غزيرة، وألفاظها قليلة - كما ترى - وهذا هو إيجاز القصر الذي مر بك.

وتجد الشطر الثاني من بيت النابعة: «وإن خلت أن المتأى عنك واسع» تذييلاً غير جار مجرى المثل، كما تجد في الشطر الأول من بيت طرفة إيجازاً بحذف الجار والمجرور والتقدير: ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً به... وفي بيت زهير تجد قوله: «وإن خالها تخفي على الناس» اعتراضاً بين الشرط وجوابه.

وهكذا تستطيع أن ترجع ما استشهد به البلاغيون للمساواة، إما إلى الإيجاز وإما إلى الإطناب، فالأولى أن تجعل المساواة قاصرة على كلام الأوساط لأنها نادرة الوقوع في التعبيرات الجيدة والكلام البليغ، ولأن البلاغيين قد جعلوها خالية من جميع الاعتبارات البلاغية وقالوا: إنها لا تحمد ولا تدم في باب البلاغة.

تم بحمد الله تعالى في ٢٨ من ربيع الآخر سنة ١٤٠٧هـ.

الموافق ٢٩ من ديسمبر سنة ١٩٨٦م.

والحمد لله أولاً وآخراً...

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.



أهم مراجع الكتاب

- ١- الإتقان في علوم القرآن للسيوطي طبعة الحلبي ١٣٩٨ هـ.
- ٢- أسرار البلاغة لعبد القاهر. ط: دار الطباعة المحمدية ١٣٩٢ هـ. ت: محمد عبد المنعم خفاجي.
- ٣- الأسلوب للدكتور أحمد الشايب. طبعة السعادة. الطبعة الخامسة.
- ٤- أساليب الاستفهام في القرآن الكريم من الوجهة البلاغية للدكتور بسيوني عبد الفتاح مخطوط بالأزهر «رسائل».
- ٥- إعجاز القرآن للباقلاني. ط: دار المعارف ١٩٧٧ م. ت: السيد صقر.
- ٦- أمال المرتضي. ط: الحلبي ١٣٧٣ هـ. ت: محمد أبو الفضل إبراهيم.
- ٧- الإيضاح للقزويني وبهامشه البغية. للصعيدى، ط: صبيح ١٣٩١ هـ.
- ٨- البرهان في علوم القرآن للزرکشي، ط: دار إحياء الكتب العربية ١٩٥٧، م، ت: محمد أبو الفضل.
- ٩- البلاغة القرآنية في تفسير الكشاف للدكتور محمد أبو موسى، ط: دار الفكر العربي.
- ١٠- البيان والتبيين للجاحظ، ط: الخانجي، ت: عبد السلام هارون.
- ١١- تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة، ط: الحلبي ١٣٧٣ هـ.
- ١٢- تنزيه القرآن عن المطاعن لعبد الجبار. ط: دار النهضة- بيروت
- ١٣- ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ط: دار المعارف ١٩٧٦ م.
- ١٤- جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي، ط: جامعة الإمام محمد بن سعود، ت محمد الهاشمي.
- ١٥- حاشية الشهاب الخفاجي على البيضاوي، ط: دار الطباعة الخديوية.
- ١٦- الحيوان للجاحظ، ط: الساسي. ١٩٥٠ م.
- ١٧- الخصائص لابن جني، ط: دار الهدى بيروت، ت: محمد علي النجار.
- ١٨- الخصائص لابن جني، ط: دار الهدى بيروت، ت: محمد علي النجار.
- ١٩- خصائص التراكيب للدكتور محمد أبو موسى، ط: دار التضامن ١٩٨٠ م.
- ٢٠- دلائل الإعجاز لعبد القاهر، ط: الفجالة، ت: محمد عبد المنعم خفاجي.
- ٢١- دلالات التراكيب للدكتور محمد أبو موسى، دار المعلم ١٣٩٩ هـ.
- ٢٢- روح المعاني للألوسي، ط: دار إحياء التراث العربي بيروت.

- ٢٣- سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي، ط: الخانجي، ت: علي فودة.
- ٢٤- شروح التلخيص.
- ٢٥- شرح المعلقات للزوزني، ط: المطبعة التجارية ١٩٧١ م.
- ٢٦- الشعر والشعراء لابن قتيبة، ط: دار المعرف ١٩٦٧ م، ت: أحمد شاكر.
- ٢٧- الصاحبي لأحمد بن فارس، ط: المؤيد ١٣١٨ هـ.
- ٢٨- الصناعتين لأبي هلال العسكري، ط: الحلبي ١٩٧١ م.
- ٢٩- طبقات فحول الشعراء لابن سلام، ط: المدني، ت: الأستاذ محمود شاكر.
- ٣٠- الطراز ليحيى بن حمزة العلوي، ط: المقتطف ١٣٢٢ هـ.
- ٣١- عقود الجمان للسيوطي، المطبعة الشرقية ١٣٠٥ هـ.
- ٣٢- العمدة لابن رشيقي، ط: دار الجليل، ت: محمد محيي الدين.
- ٣٣- عيار الشعر لابن طباطبا، ط: شركة فن الطباعة ١٩٥٦ م.
- ٣٤- الكتاب لسيبويه، ط: الهيئة المصرية ١٩٧٧ م، ت: عبد السلام هارون.
- ٣٥- الكشف للزمخشري، ط: الحلبي ١٣٩٨ هـ.
- ٣٦- الكامل للمبرد، ط: نهضة مصر ١٩٥٦، ت: محمد أبو الفضل.
- ٣٧- لسان العرب لابن منظور، ط: دار المعارف.
- ٣٨- متشابه القرآن لعبد الجبار، ط: دار النصر ١٩٦٩ م، ت: عدنان زررور.
- ٣٩- مجمع الأمثال للميداني، مطبعة السعادة ١٣٧٩ هـ، ت: محمد محيي الدين.
- ٤٠- مجاز القرآن لأبي عبيدة، ط: الخانجي، ت: محمد فؤاد.
- ٤١- معاني القرآن للفراء، ط: الهيئة المصرية ١٩٨٠ م.
- ٤٢- المطول لسعد الدين التفتازاني.
- ٤٣- معاهد التنصيص على شواهد التلخيص للعباسي، ط: السعادة، ت: محمد محيي الدين.
- ٤٤- المغني للقاضي عبد الجبار، ج ١٦، في إعجاز القرآن، ط: وزارة الثقافة.
- ٤٥- مغني اللبيب لابن هشام، مطبعة المدني، ت: محمد محيي الدين.
- ٤٦- مفتاح العلوم للسكاكي، ط: الحلبي ١٣٥٦ هـ.
- ٤٧- المفضليات للزبي، ط: دار المعارف، الطبعة الخامسة، ت: محمود شاكر.
- ٤٨- مقتضى الحال بين البلاغة القديمة والنقد الحديث للدكتور إبراهيم الخولي، مخطوط بالأزهر، رسائل.

- ٤٩- من أسرار التعبير القرآني للدكتور محمد أبو موسى، ط: دار الفكر العربي ١٣٩٦هـ.
- ٥٠- من بلاغة النظم العربي للدكتور عبد العزيز عرفة، ط: دار الطباعة المحمدية ١٤٠٢هـ.
- ٥١- مناهج تجديد لأمين الخولي، ط: دار المعرفة ١٩٦١م.
- ٥٢- الموطأ للإمام مالك، ط: الحلبي ١٣٧٠هـ.
- ٥٣- الموازنة للأمدي، ط: المعارف ١٣٨٠هـ، ت: السيد صقر.
- ٥٤- النبأ العظيم للدكتور محمد عبد الله دراز، مطبعة السعادة ١٣٨٩هـ.
- ٥٥- النقد الأدبي الحديث للدكتور محمد غنيمي هلال، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧١م.
- ٥٦- النقد الأدبي لسيد قطب، ط: دار الفكر العربي ١٩٥٤م.
- ٥٧- النقد المنهجي عند العرب للدكتور محمد مندور، ط: نهضة مصر ١٩٧٢م.
- ٥٨- نقد الشعر لقدماء، ط: مطبعة أنصار السنة ١٩٤٩م، ت: كمال مصطفى.
- ٥٩- نقد النثر: «البرهان في وجوه البيان» لابن وهب، مطبعة مصر ١٩٣٩م، ت: طه حسين وعبد الحميد العبادي.
- ٦٠- نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز للرازي، مطبعة الآداب ١٣١٧هـ.
- ٦١- الوساطة بين المتنبي وخصومه لعلي بن عبد العزيز الجرجاني، ط: الحلبي، ت: محمد أبو الفضل.
- ٦٢- يتيمة الدهر للثعالبي، ط: الصاوي ١٩٣٤م.

المحتويات

محتويات الكتاب

الصفحة	الموضوع
٥	مقدمة الطبعة الثالثة
١٠	مقدمة الطبعة الثانية
١٢	مقدمة الطبعة الأولى
٤٣-١٥	تمهيد: مناظرة المزية بين اللفظ والمعنى والنظم، مفهوم الفصاحة والبلاغة، علم المعاني ومباحثه، الفرق بين الخبر والإنشاء
٩٦-٤٤	الفصل الأول: أحوال الإسناد الخبري:
٦٠-٤٤	معنى الإسناد، أغراض الخبر، وجه دلالة الخبر على أغراضه، أضرب الخبر، إخراج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر، حال المخاطب ليست هي المعول عليه دائماً في إلقاء الخبر
٦٧-٦٠	التجاوز في الإسناد، نوعا الإسناد، لمحة تاريخية عن المجاز العقلي، خطأ من يرى أن عبد القاهر مبتكر المجاز العقلي، تسميات المجاز العقلي، الحقيقة العقلية وأنواعها، مقارنة بين تعريف الخطيب وعبد القاهر للحقيقة العقلية
٧٩-٦٧	تعريف الخطيب للمجاز العقلي، علاقات المجاز العقلي، كيفية استنتاجها، إسناد المبني للفاعل إلى المفعول، إسناد المبني للمفعول إلى الفاعل، إسناد المبني للفاعل إلى مصدره، إلى الزمان، إلى المكان، إلى السبب، إلى الجنس، إلى الجارحة، إلى ما له مزيد اختصاص بالفاعل الحقيقي، النسبة الإضافية، النسبة الإيقاعية، النسبة الوصفية، الإسناد بين المبتدأ والخبر، مقارنة بين تعريف الخطيب وعبد القاهر للمجاز العقلي
٩٦-٧٩	قربنة المجاز العقلي، الفرق بين المجاز العقلي والمجاز اللغوي، صور المجاز العقلي، استلزام المجاز العقلي الحقيقة العقلية، إنكار المجاز العقلي، بلاغة المجاز العقلي ودقة مسلكه

- الفصل الثاني: أحوال المسند إليه
١٦٦-٩٧
- حذف المسند إليه: شروط الحذف، مزاياه، الحذف وتقدير المحذوف، مزايا عامة وراء كل حذف، عبد القاهر يكشف عن دقائق وراء حذف المتبدأ، ضيق المقام، تعيين المسند للمسند إليه، اتباع الاستعمال الوارد، بناء الفعل للمجهول وما يكمن وراء حذف الفاعل عندئذ من أسرار، الحذف لظهور المسند إليه، لعدم الاعتداد به، لتعجيل المسرة، لتأتي الإنكار عند الحاجة، لتحقيره وصون اللسان عنه، لتعظيمه وصونه عن اللسان
١٠٧-٩٧
- ذكر المسند إليه: زيادة التقرير والإيضاح، الرغبة في امتداد الكلام التلذذ بترده والنطق به، التسجيل على المخاطب، ضعف التعويل على القرينة، التنبيه على غباء السامع، إظهار تعظيمه أو إهانته
١١١-١٠٨
- تعرف المسند إليه: الأسرار الكامنة وراء التعريف بالضمائر، أغراض التعريف بالعلمية، أغراض التعريف بالموصولية، أغراض التعريف باسم الإشارة، بالألف واللام، بالإضافة
١٣٤-١١١
- تكثير المسند إليه: تمحض النكرة للدلالة على العدد أو النوعية، القصد إلى أن النكرة فرد غير معين من أفراد حقيقته، القصد إلى التعظيم، التحقير، التكثير، التقليل، الدلالة على النوعية المتميزة، كراهة أن ينسب الفعل إلى المسند إليه معرفة
١٤٠-١٣٤
- توابع المسند إليه: الوصف ومزاياه البلاغية، التوكيد وأغراضه، أغراض عطف البيان، أغراض البدل، مزايا عطف النسق، تعقيب المسند إليه بضمير الفصل
١٥٠-١٤٠
- تقديم المسند إليه: إيلاء المسند إليه أداة النفي، تقديم المسند إليه على أداة النفي، تقديمه في الإثبات، تقديم النكرة، تقديم مثل وغير، تقديم ألفاظ العموم
١٦٦-١٥٠

- ٢١٥-١٦٧ الفصل الثالث: أحوال المسند
أغراض حذفه: مزايا عامة في كل حذف، الحذف لضيق المقام، للتعظيم،
للتحقير، اتباعا للاستعمال الوارد، التأكيد والاختصاص، تكثير المعنى،
حذف المسند والمسند إليه معا، ما ينبغي مراعاته عند تقدير المحذوف،
قرائن الحذف
- ١٨١-١٦٧
أغراض ذكره: التعريض بغباوة السامع، ضعف التعويل على القرينة،
تعيينه فعلا أو اسما، زيادة التقرير والإيضاح
- ١٨٣-١٨١
إفراد المسند، إيراد جملة، إيراد فعلا أو اسما، الجملة الاسمية والفعلية،
الفرق بينهما، شواهد متنوعة
- ١٨٨-١٨٣
تنكير المسند وتعريفه: إرادة الاختصاص أو العهد وعدم إرادتهما، إفادة
التعظيم، إفادة التحقير، التعريف بالموصلية، تقييد المسند المعرف، وأثر
ذلك القيد، إفادة التقرير وإيضاح الحكم، الدلالة على بلوغ المسند إليه
مبلغ الكمال في الاتصاف بالمسند
- ١٩٣-١٨٨
تخصيص المسند بالوصف أو الإضافة
- ١٩٤-١٩٣
المزايا البلاغية الكامنة وراء تقديم المسند: إفادة القصر، التنبيه من أول
الأمر على أنه خبر لا نعت، التشويق لذكر المسند إليه، إفادة التفاؤل،
إظهار التألم والتضجر
- ١٩٧-١٩٤
تقييد الفعل بأدوات الشرط إن وإذا ولو، الفرق بين التقييد بـ"إذا"
والتقييد بـ"إن" استخدام «إن» في موضع «إذا» و«إذا» في موضع «إن»،
دخولها على الأمور المجزوم بانتفائها، مجيء الماضي لفظا مع «إن»
استعمال «لو»، العدول عن الماضي بعدها، مجيء «إن» و«إذا» لمجرد الربط
- ٢١٥-١٩٧
الفصل الرابع: أحوال متعلقات الفعل
- ٢٨٠-٢١٦
تقييد الفعل بالمفعول ونحوه، المزايا البلاغية لحذف المفعول، تقديم
المعمولات على الفعل أو ما في معناه، تقديم بعض المعمولات على بعض
- ٢٤٥-٢١٧

- خروج الكلام عن مقتضى الظاهر: وضع المظهر موضع المضمَر، وضع
 المضمَر موضع المظهر، أسلوب الالتفات، معناه، لمحة تاريخية، آراء
 ٢٦٥-٢٤٦ البلاغيين في تحديد مفهومه، صورته ومزاياه البلاغية
- ٢٦٧-٢٦٥ أسلوب الحكيم: معناه، وجه تسميته، صورته، مزاياه
- ٢٧٣-٢٦٨ أسلوب القلب: معناه، أقسامه، آراء البلاغيين في قبول أسلوب القلب
 أو رده، هل يوجد هذا الأسلوب في النظم الكريم
- ٢٧٥-٢٧٤ المثني والمثنى خطاب الجمع تغليبا
- ٢٧٩-٢٧٥ المخالفة في صيغ الأفعال، التعبير عن الماضي بلفظ المضارع
- ٢٨٠-٢٧٩ التعبير بفعل الأمر عن الماضي والمضارع والمصدر
- ٣٤٨-٢٨٣ الفصل الخامس: أساليب القصر:
- المزايا البلاغية لأساليب القصر، معناه - إجمال لما ذكره البلاغيون في
 ٢٨٥-٢٨٣ القصر
- القصر الحقيقي والقصر الإضافي: الفرق بينهما - القصر الحقيقي
 التحقيقي والحقيقي الادعائي - إمكان قصر الموصوف على الصفة قصرا
 حقيقيا تحقيقيًا - أنواع القصر الإضافي - قصر القلب - قصر الأفراد -
 ٢٩٥-٢٨٦ قصر التعيين - بيان المراد بحال المخاطب التي تحدد نوع القصر الإضافي
- قصر الصفة على الموصوف والموصوف على الصفة: المراد بالصفة - المراد
 بالموصوف - ضوابط معرفة الصفة والموصوف - قصر الموصوف على
 الصفة أبلغ من قصر الصفة على الموصوف - الفرق بين القصر الحقيقي
 ٣٠٣-٢٩٦ الادعائي والقصر الإضافي
- طرق القصر: العطف بلا وبل ولكن - آراء البلاغيين في دلالة هذه
 الأدوات على القصر - النفي والاستثناء - تقديم المستثنى على المستثنى
 منه - وجه دلالة النفي والاستثناء على القصر - الاستثناء التام - اجتماع ٣٢٩-٣٠٤

العطف بلا والنفي والاستثناء - إننا - وجه دلالتها على القصر - هل تنيد «أنا» القصر - التقديم - ضمير الفصل، تعريف أحد الطرفين «بأل» الاستغرافية.

أوجه الاختلاف بين طرق القصر: الطرق التي تدل على القصر دلالة وضعية - الطرق التي تدل على القصر دلالة غير وضعية

ما ينص فيها على المثبت والمنفي معا وما ينص فيها على المنفي أو المثبت فقط - اجتماع طريقتين من طرق القصر - الفرق بين «إننا» والنفي والاستثناء - تحديد موقع المقصور والمقصور عليه - جمال التعريض بإننا: ٣٤٨-٣٣٢

الفصل السادس: أساليب الإنشاء: ٤٢٩-٣٤٩

الفرق بين الأسلوب الإنشائي والأسلوب الخبري - الإنشاء الطلبي وغير الطلبي - الفرق بينهما - إهمال البلاغيين دراسة أساليب الإنشاء غير الطلبي:

أسلوب الأمر: صيغته - مفهومه - ما يستعمل فيه - المعاني البلاغية التي يفيدها أسلوب الأمر ووجه الدلالة عليها:

أسلوب النهي: صيغته - مفهومه - المعاني البلاغية التي يفيدها

أساليب الاستفهام: معنى الاستفهام - أدواته - معنى كل أداة - ما يطلب به التصور أو التصديق وما يطلب به أحدهما فقط - بناء الجملة بعد هل والهمزة - خصائص هل - مناقشة ما ذكره البلاغيون في بيان هذه الخصائص - الفرق بين هل وهمزة التصديق - المعاني البلاغية للاستفهام ووجه الدلالة عليها:

النداء: معناه - أدواته - دلالاته على الطلب - نداء البعيد نداء القريب - نداء القريب نداء البعيد - أغراضه البلاغية - تقوى أساليب الأمر والنهي والاستفهام بالنداء:

التمني: معناه - الفرق بينه وبين الترجي - أدواته الموضوعية له - التمني ٤١٩-٤٢٥

بغير تلك الأداة وأسراره - حروف التنديم والتحضيض

التعبير بالخبر في موضع الإنشاء - التعبير بالإنشاء في موضع الخبر -

٤٢٥-٤٢٨ تنوع الأسلوب بين الخبر والإنشاء:

٤٢٩-٤٨٨ الفصل السابع: الفصل والوصل

دقة هذا الباب - العطف بغير الواو وما وراءه من دقائق - عطف

المفردات - مناقشة ما يراه البعض في المفردات وأنها تعطف بالواو إذا

كانت متجانسة متناسية - عطف الصفات - عطف الصفة على

الموصوف والحال على صاحبها - مناقشات: ٤٢٩-٤٣٩

٤٣٩-٤٤٦ وصل وفصل الجمل التي لها محل من الإعراب:

مواضع الفصل بين الجمل: كمال الاتصال - كمال الانقطاع بلا إيهام -

شبه كمال الاتصال - شبه كمال الانقطاع - الفصل لعدم الاشتراك في

القييد: ٤٤٦-٤٧٣

مواضع الوصل بين الجمل: التوسط بين الكمالين - كمال الانقطاع مع

الإيهام: ٤٧٤-٤٧٧

٤٧٧-٤٨٨ الجامع بين الجملتين - محسنات الوصل - فروق في الجملة الحالية

٤٨٩-٥٢٩ الفصل الثامن: الإيجاز والإطناب

٤٨٩-٤٩٠ لمحة تاريخية - مقامات الإيجاز - مقامات الإطناب:

٤٩٠-٤٩٥ الإيجاز: معناه - أنواعه - إيجاز القصر - تحليلات:

إيجاز الحذف: معناه حذف جزء الكلمة - حذف الكلمة - حذف الجملة

- حذف الجمل - قرائن الحذف: ٤٩٥-٥٠٥

الإطناب: معناه - الفرق بينه وبين التطويل والحشو - نوعا الحشو -

مناقشة ما قاله البلاغيون في الحشو والتطويل: ٥٠٥-٥١١

أنواع الإطناب: الإيضاح بعد الإيهام - باب نعم وبئس - التوشيح -

ذكر الخاص بعد العام - ذكر العام بعد الخاص: ٥١١-٥١٣

- التكرار وأغراضه - الإيغال: معناه وروده في الشعر هل يرد في الشعر: ٥١٣-٥١٧
- التذييل: أنواعه - الفرق بينه وبين الإيغال: ٥١٧-٥١٩
- التكميل - التتميم - الفرق بينهما - الفرق بين التتميم والإيغال -
الاعتراض - الفرق بين واو الاعتراض وبين كل من واو الحال وواو
العطف - الأسرار البلاغية للاعتراض: ٥١٩-٥٢٣
- أنواع أخرى للإطناب: ٥٢٣-٥٢٥
- المساواة: معناها عند البلاغيين - رأينا فيها - مردها إلى الإيجاز أو إلى
الإطناب: ٥٢٨-٥٢٩
- أهم مراجع الكتاب ٥٣١-٥٣٣
- محتويات الكتاب ٥٣٥-٥٤٣